د. ألِفرَد وُليَم مَكّوي

ALFRED W. McCOY

بهدف التّحكّم بالعالم

صعود الإمبراطوريّات والتّغيّرات الكارثيّة

TO GOVERN THE GLOBE

WORLD ORDERS AND CATASTROPHIC CHANGE

ترجمة وتقديم:

د. محمد جياد الأزرقي



د. ألفرد وُليَم مَكّوي
ALFRED W. McCOY

بهدف التّحكّم بالعالم

صعود الإمبراطوريات والتغيّرات الكارثية

TO GOVERN THE GLOBE

WORLD ORDERS AND CATASTROPHIC CHANGE

ترجمة وتقديم:
د. محمد جياد الأزرقي

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

TO GOVERN THE GLOBE

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر

HAYMARKET BOOKS, CHICAGO, ILLINOIS

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون

First Published in English in 2021 by Haymarket Books

الطبعة الأولى: آب/أغسطس 2022 م – 1444 هـ

ردمك 978-614-01-3518-5



التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـــراء للنـــشـــر

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون ش م ل

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة، الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

الإهداء

لذكرى مظفر، الرافديني الباسل الرقيق،

الذي رفض الاستبداد والطائفية والغزو.

المترجم





المحتويات



مقدمة المترجم

إفتتح د. مَكَّوي فصله الأوَّل بالحديث الموجز عن واقع التغيّر المناخي وانتقد بشدة الإنكار الحازم لهذه الحقيقة، وأدان بشكل خاصّ زعماء أستراليا والبرازيل والولايات المتحدة واتهمهم بأنّهم يدمّرون النظام العالمي ذاته. ثمّ انتقل رجوعا إلى العصور الماضية، فأشار إلى أنّه منذ بداية عصر الإستكشافات في القرن الخامس عشر ظهرت حوالي 90 إمبراطورية كبرى وصغيرة جاءت وذهبت أدراج الرياح. "كانت هناك ثلاثة أنظمة عالمية فقط، كلها نشأت في الغرب، وهي الإمبراطورية الأيبيرية بعد عام 1494 وتلتها الإمبراطورية البريطانية منذ عام 1815 وعالم واشنطن منذ عام 1945 لغاية عام 2030." من الملاحظ أنّه لم يفصح علنا عن تسمية الإمبراطورية الأمريكية بل اقتصر على دعوتها بنظام واشنطن العالمي.

كشف المؤلف بعد ذلك الدور غير المُشرّف للكنيسة الكاثوليكية في تقسيم ما وراء البحار ومنطقتي المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ ما بين إسبانيا والبرتغال، ولكونها باركت أفعال الغزاة المحتلين الوحشية وأجازت لهم استعباد الشعوب الأصلية والقضاء على حضاراتها وطرق معيشتها. "لم تفعل سلطات البابا ذات الصلة ذلك فقط، بل قسّمت العالم خارج أوروبا بين هاتين المملكتين، لكنّها شكّلت أيضا أوّل نظام عالمي في التاريخ من خلال فرض نظام ديني يفصل بين المسيحيين و(الوثنيّين)، والذي استمرّ من أجله ثلاثمائة سنة

أخرى." هناك سجل مشين لكافة ما قام به الوحوش القادمون من أوروبا لتكريس استيلائهم على الأراضي والبشر والخيرات الطبيعية لما سمّوه العالم الجديد. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%]

تمّ تشكيل النظام العالمي البريطاني لاحقا نتيجة مؤتمر فيّنا عام 1815، والذي كان من شأنه إعادة تقسيم أوروبا بعد هزيمة نابليون، وبعد مؤتمر برلين عام 1885، الذي قسّم القارة الأفريقية بين القوى الأوروبيّة على أساس تفوّقها العنصري المفترض لكونها متحضرة مقارنة بالأجناس الإفريقية المتخلفة بالفطرة، وتأكيد تجارة الرقيق ومبدأ الحرية في الداخل والعبودية في الخارج. مع انهيار العصر الإمبراطوري البريطاني بعد حربين عالميّتين، بدأت واشنطن الجديدة تشكّل النظام العالمي من خلال مؤتمرين رئيسيين. عُقد الأوّل في برايتُن وودز في مقاطعة نيو هامشِر البريطانية عام 1944، حين أنشأت 44 دولة حليفة تمويلا دوليّا للنظام الذي يجسّده البنك الدولي. وبعد عام اعتمدت 50 دولة ميثاق الأمم المتحدة في مؤتمر مدينة سان فرانسيسكو. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9]

كان على الحلّ الرسمي لتناقضات "حرية الداخل وعبودية الخارج" أن ينتظر حتى عام 1945، عندما قادت واشنطن دول العالم لصياغة مشروع ميثاق الأمم المتحدة ووعدت الشعوب بحرية تكوين دولها وفي الموافقة على إعلان آخر بعد ثلاث سنوات، حين أكّدت حقوق الإنسان العالمية. وبوضوح فإنّ قيام النظام الدولي الحالي المكوّن من 193 دولة ذات سيادة وعلى قدم المساواة في الأمم المتحدة يمثّل تقدّما هائلا بعد العصور الإمبراطورية حين حكمت العشرات منها ثلث البشرية. ومع ذلك وفي سعيها وراء القوة العالمية، سرعان ما بدأت واشنطن في تحدّي الإتفاقيات الأمميّة التي حدّدت نظامها العالمي الخاصّ، مخالفة السيادة الوطنية من خلال التدخّلات السريّة لوكالة المخابرات المركزية والحروب الوحشية في جميع انحاء العالم وانتهاك حقوق الإنسان وممارسة التعذيب. [https://www.un.org/ar/about-us]

ربّما يكون مركز النظام العالمي قد تحوّل من آيبريا إلى بريطانيا ثمّ إلى الولايات المتحدة. لكنّ التطوّر المستمرّ للمبادئ الأساسية من حقبة لأخرى قد سهّل هذه التحوّلات الإمبراطوريّة. الآن ومع بدء القوة العالمية للولايات المتحدة في التلاشي، بدأ عالم صيني ناشئ بتحدّي المعيار العالمي لهذا النظام من خلال إخضاع حقوق الإنسان كمبدأ منافس للسيادة الوطنية غير الخاضعة للرقابة. كان دليل السنتين الأخيرتين منذ ظهور وباء الكوفِد اختبارا واضحا، حين قارب عدد الوفيات في الولايات المتحدة مليون شخصا تقريبا، بينما لم يتجاوز عدد الضحايا في الصين حتى تاريخ هذ اليوم 11 شباط من عام 2022، حوالي 4,636 شخصا، علما بأنّ عدد السكان يبلغ 1,433,783,686 شخصا في الصين و329,064,917 شخصا في الولايات المتحدة. (https://www.google.com/search?q=Total+population+of+US+and+China)

لقد اصبح هذا التركيز على الحرية الفردية مقابل السيادة الوطنية، سلاح واشنطن هذه الأيام لمقاومة صعود الصين. هذا طبعا دون الإلتفات الى ما يقوم به جنودها القتلة في كافة بقاع الأرض، ووكلاء أجهزة مخابراتها المنحرفون، الذين يقومون بعملياتهم السرية ويديرون الإنقلابات، إضافة لرجال شرطتها المنفلتون في شوارع المدن الأمريكية ومعاملتهم الوحشية للمواطنين من غير البيض.

فهم المؤرّخون أنّ السيادة الإمبراطورية كانت تجربة قاسية على رعاياها، ولكن يبدو غالبا أنّ أولئك الرعايا آمنوا بأنّ إمبراطوريتهم إستثنائية الى حدّ ما، وأقلّ وحشية واكثر اعتدالا من بقيّة الإمبراطوريّات السابقة. كما بدا واضحا أنّ الإمبراطورية تفتقر الى حدود الدولة الإقليمية. نرى اليوم انتشار القواعد العسكرية الأمريكية حول العالم للدفاع عن "المصالح الوطنية" للبلاد، والشعب الأمريكي "مخدّر" ازاء هذه القضية لأنّ النشيد الوطني يشير الى أنّها "موطن الأحرار وأرض الشجعان"، بمعنى يعطيها الدور الإستثنائي "للشعب المُختار". وهو أمر لا يُسرّ الصهاينة لأنّ توراتهم أعطاهم هذا الإمتياز و"دولتهم" ليس لها حدود إقليمية أيضا!



خارطة إمبراطورية سرجون الأكدي الأولى في العالم

قامت أول إمبراطورية في العراق قبل حوالي 4 آلاف عاما على يد سرجون الأكدي وبسطت نفوذها على منطقة الهلال الخصيب وجزء من هضبة الأناضول وامتدت من خليج البصرة الى ضفاف البحر الأبيض المتوسط حتى غزّة. "شهد العالم تعاقبا مستمرّا لنحو 200 إمبراطورية، كانت 70 منها كبيرة وعمّرت لفترات طويلة." إقترح المؤلف تقسيم تلك الأربعة آلاف سنة من التاريخ الإمبرطوري إلى ثلاث فترات متميّزة. خلال مرحلة كلاسيكية أولية دامت حوالي ألفي سنة ونصف (من 2300 قبل الميلاد الى 400 ميلادية) برزت فيها إمبرطوريتا روما والصين. تلتها فترة "خلو العرش" من (400 الى 1400) وبرزت فيها حضارات المايا والإنكور والصينية والبيزنطية، التي تمثلت في سيطرة الإمبراطوريات الرومانية المقدسة في مناطقها. كان نفوذها الإقليمي محدودا وعمرها قصيرا. حتى الخلافة الأموية، التي جلبت فتوحاتها الإسلام الى شعوب متنوّعة من شمال الهند الى جنوب إسبانيا،

عاشت لفترة أقلّ من 90 عاما (661 لغاية 750 ميلادية)، وعمر الخلافة العباسية كان ايضا قصيرا قبل أن تتفكّك على يد المغول والترك. كان نفوذ الفرسان بقيادة جنكيز خان وتيمورلنگ متفاوتا على نطاق واسع عبر سهول أوراسيا ورمالها من 1200 الى 1400. أمّا العصر الإمبراطوري الثالث فتشكّل منذ بداية الإستكشافات البرتغالية في عام 1420 وظهور سلسلة من ثلاثة أنظمة عالمية مرنة تمّ تصنيف كلّ منها باعتبارها إمبراطورية، وهي الآيبيرية والبريطانية والأمريكية.

تناول د. مَكّوي في نهاية فصله الأول تحليل أسباب الإنحدار الإمبراطوري فأورد مثالين عن امبراطوريتين حديثتين، إنقضت إحداهما وبدأت الأخرى في طريق الإنحدار. وقد تنبأ بأنّ نهاية هذه ستكون بحدود عام 2030، إيذانا بقيام إمبراطورية جديدة هي إمبراطورية الصين. أشار في غضون ذلك الى أنّ برجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر باعتباره واحدا من أتباع ماكِندَر فكريّا، قد أثبت براعة في تطبيق القول البريطاني الشهير حول الصلة الجيوسياسية بين أوروبا الشرقية و"قلب" أوراسيا، من خلال عملية سريّة لوكالة المخابرات المركزية كلفت مليارات الدولارات. لقد دقّ برجنسكي أسفينه الحاد بدفع الإسلام المتطرّف من أفغانستان الى عمق آسيا الوسطى السوفيتية. خلقت هذه المناورة الجيوسياسية لموسكو عقدا مُنهكا من الحرب الأفغانية، التي أضعفت الإتحاد السوفيتي بدرجة كافية لتحرّر شرق أوروبا أخيرا من قبضة الإمبراطورية، التي تُمسك بها. حين سُئِل برجنسكي عن المعاناة الإنسانية الهائلة لستراتيجيته الجيوسياسية وما جرّته على أفغانستان وبلدان الشرق الأوسط عموما من الويلات والفوضى التي خلقتها بظهور الإسلام المتشدّد المعادي للولايات المتحدة، لم يعتذر على الإطلاق. غير أنّ "المجاهدين" الذين دعمتهم أمريكا بالمال والسلاح واستقبلهم رئيسها في البيت الأبيض، "غزوا" أمريكا ذاتها في النهاية في عقر دارها ومرّغوا أنفها بالتراب حين احرقوا برجيها الشامخين ومبنى وزارة دفاعها في 11 سبتمبر من عام 2001.

من مفارقات التاريخ أنّ عصر العبودية البغيض قد بدأ باختطاف 11 مسلما من قبائل الطوارق الساكنين في صحراء غرب افريقيا، وتمّ نقلهم عنوة الى البرتغال. تتالت بعدها حملات الإختطاف من افريقيا لتعود السفن البرتغالية بعدها محمّلة بالضحايا الأبرياء. أفاد تقرير لمحكمة في الميناء حول تقسيم الأسرى المُختطفين على ظهر إحدى السفن، وعددهم 243 أفريقيا الى مجموعات بأنّه سيشتت شمل العائلات ويُسبب الكثير من البكاء. ذكر أحد المؤرخين بأنّ الأمّهات تشبّثن باطفالهن، ووسط الصراخ والعويل والتوّسلات غير المجدية، تعرضت أولئك النسوة المنكوبات للجلد بسياط المُختطِفين.



عرّج المؤلف على ذكر سيرة الأب مونتِسينوس فأشاد بدوره في الدفاع عن حقوق السكان الأصليين، وهو الموقف الذي دفع أحد المستوطنين لاغتياله في فنزوَيلا عام 1540. وزاد الطين بلة هو نشوء تجارة الرقيق. نمت حركة جلب العبيد الأفارقة خلال القرون الأربعة التالية لتصبح تجارة واسعة وحجمها قرابة

17 مليون شخصا باستثناء أولئك الذين لقوا حتفهم في أثناء نقلهم عبر المحيط الأطلسي، في واحدة من اعظم وافسى هجرات التاريخ، وكذا إضفاء الشرعية فيما تضمنته قوانين ذاك الوقت ومباركة الكنيسة. تطلب الأمر (https://www.un.org/ar/events/slaveryremembranceday/background.shtml) لاستئصالها القوة الكاملة للإمبراطورية البريطانية وحرب أهلية أمريكية.

تحوّل د. مَكّوي بعد ذلك لمناقشة تعرّض أوروبا لوباء الطاعون الأسود، واستعان بمداخلة مؤرّخ القرون الوسطى، روبَرت س. گوتفريد. أكّد هذا المؤرّخ بأنّه ظهرت للطاعون الأسود تحوّرات جعلته فريدا من بين كافة "الأوبئة القاتلة." ظهرت تلك التحوّرات كلّ 5 الى 12 عاما للفترة بين 1361 حتى عام 1494 في اجزاء من اوروبا [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7] وقضت على ما يصل الى نسبة 20٪ من مجموع السكّان. عانت إسبانيا، على سبيل المثال ثماني نوبات من الطاعون، ممّا أدّى الى خفض سكان مقاطعة كَتَلونيا ومدينتها الساحلية برشلونة من 430000 مواطنا الى 278000 مواطنا عام 1497. خلال القرن التالي، قد تكون العدوى الأولى في أوروبا والتحوّرات المتكرّرة، قد كلفت القارة أكثر من 75٪ من مجموع سكانها، ممّا جعلها، كما ذكر المؤرّخ دَيڤد هِرلِيهي، "أشدّ الكوارث الطبيعية التي ضربت أوروبا تدميرا على الإطلاق."

في تناوله لنشوء الإمبراطورية البرتغالية التي دامت لفترة 6 قرون تقريبا، ذكر الأستاذ مَكّوي أنّه في بداية استكشافاتها، كان عدد سكان البرتغال أقلّ من مليون شخصا وأكبر مدنها لشبونة تضم فقط 40000 نسمة. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9] "حتى في ذروة قوّتها الإمبراطورية في القرن السادس عشر، كان لدى البرتغال 300 سفينة فقط، معظم أطقمها من البحارة الأجانب. وقد شيّدت البلاد اسطولها البحري باستخدام خشب الساج الإستوائي الذي جاءوا به من گواء إحدى مُستعمراتهم على الساحل الغربي للهند."

وفيما تعلّق الأمر بالعرب والمسلمين، سجّل التاريخ حدث استيلاء الغزاة البرتغاليين على مدينة سبتة. في عام 1415 [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3] قاد الملك دوم جواو أوّل رحلة استكشافية تألفت من 200 سفينة و20000 رجلا عبر مضيق جبل طارق واستولى على ميناء سبتة الإسلامية الغنية وبوابة المحيط الأطلسي والمحطة النهائية للقوافل التي عبرت الصحراء ونقلت الذهب من مناجم السودان ومالي وغيرهما من مناطق أفريقيا. "نهب جيش السلالة الحاكمة Avis المدينة القديمة وقتل نصف سكانها العرب وبيع سكان النصف الآخر كعبيد."

صحيح أنّ البرتغاليين يتحملون الجزء الأكبر من مسؤولية تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي ونموها وتطويرها بمباركة الكنيسة الكاثوليكية، لكنّ بعض الدول الأوروبيّة الأخرى كان لها نصيب في تلك الجريمة الإنسانية البغيضة. [=https://en.wikipedia.org/wiki/Atlantic_slave_trade#:~:text] وعلى رأس هذه الدول كانت إسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولندا والدنيمارك. ذكر تحليل اقتصادي قياسي للزراعة الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر، "أنّ مزارع الرقيق الجنوبية كانت أكثر كفاءة بنسبة 35٪ من المزارع العائلية في شمال البلاد. من خلال العمل الكادح للفرق الحاشدة من العبيد حتى الموت، عزّزت مزارع السكّر الإستوائية إنتاج طاقة جسم الإنسان، ممّا خلق منطقا اقتصاديا قاسيا من شأنه أن يدفع بلا رحمة أو هوادة توسيع تجارة الرقيق للأربعمائة سنة القادمة." هذا وكان تسلسل الولايات الجنوبية الأمريكية في استخدام العبيد يشمل أركنسا ثمّ ميزوري والمسيسبي ولويزيانا وألاباما وكنتكي وتنيسي وأخيرا فرجينيا. وجدير بالذكر أنّ غالبية من سُمّوا بالآباء المؤسسين لأمريكا، وفي مقدّمتهم واشنطن نفسه، قد امتلكوا عبيدا وسخّروهم للخدمة في مزارعهم. وعلى ذكر واشنطن، كان قد امتلك 123 من العبيد إلى حين وفاته في عام 1799، وأمر في وصيته بتحريرهم.
[https://www.alkhaleej.ae/2020-08-16]

من ناحية أخرى، تمكّن البرتغاليون من الهيمنة على المحيط الهندي الشاسع بضع عشرات من السفن وعدة آلاف من الجنود، وقدروا على تحييد الملوك الآسيويين الأكثر قوة، ومن الذين شكلت أرضهم الهائلة جيوشا من شبه القارة الهندية الشاسعة التي ضمّت وحدها 150 مليون نسمة. لكنّ الإمبراطورية البرتغالية انهارت حين تولى الملك الشاب سِباستيّن العرش عام 1578 "فقاد زهرة أرستقراطية أمّته في حملة صليبية على المغرب. هناك وخلال المعركة المصيرية Alcácer Quibir أبيد الجيش البرتغالي على يد القوّات المسلمة المحلية. قُتِل حوالي 8 آلاف جنديا برتغاليا وأسر منهم 15 ألفا، ونجا 100 فقط." إستمرت المعركة 4 [-https://military history.fandom.com/wiki/Battle_of_Alc%C3%A1cer_Quibir) ساعات فقط. سُمّيت ايضا معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة. وهي معركة قامت بين بلاد المغرب الأقصى والبرتغال بتاريخ، 4 آب من عام 1578. تطور الأمر من نزاع على السلطة بين السلطان محمد المتوكل والسلطان أبو مروان عبد الملك، إلى حرب مع البرتغال بقيادة الملك سِباستيّن الذي حاول القيام بحملة صليبية للسيطرة على جميع شواطئ المغرب، كي لا تعيد الدولة المغربية بمعاونة العثمانيين الكرّة على الأندلس. انتصر المغاربة، وفقدت الإمبراطورية البرتغالية في هذه المعركة سيادتها ومُلكها وجيشها والعديد من قادتها. اندمجت الإمبراطورية المهزومة بالإمبراطورية الإسبانية، غير أنّها استعادت سيادتها الملكية بعد مرور 60 عاما. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B9%D1]

وهكذا فإنّ الإمبراطرية البرتغالية، التي قامت على تجارة الرقيق لأكثر من 400 عاما ونقلت الملايين منهم الى أوروبا والعالم الجديد مقيّدين بالسلاسل، هي التي بدأت ذلك العصر اللعين باختطاف 11 رجلا من الساحل الغربي لأفريقيا. كانوا مسلمين من الطوارق (الأمازيغ) واستعبدتهم وبيعوا في ميناء لشبونة. لقد انتهت هذه الإمبراطورية الشرّيرة على يد المسلمين المغاربة في معركة القصر الكبير، المشار اليها في أعلاه.

أستشهد المؤلف بوصف المؤرّخ جون إليوت عن "الوفرة الإبداعية للقشتاليين الأسبان وتنظيم قدرات آرگون،" وضع الملكان الزوجان الأسس لدولة إسبانيّة قويّة. "خلال 30 عاما بين تتويج إيزابيلا عام 1474 ووفاتها عام 1504، إرتفعت عائدات الضرائب في المملكة بمقدار 27 مرّة. بينما كان فردينانـد يدير السياسة الخارجية، إشتهرت إيزابيلا برعايتها للتعليم، بما فيه توسيع جامعة سالامانكا لتضمّ 7 آلاف طالبا." لأكثر من عقد من الزمن قاد فرديناند وإيزابيلا حملة صليبية في أعقاب النصر الذي جاء أخيرا بسقوط غرناطة ومعها الأندلس بكاملها في إسبانيا عام 1492." احتفلت الكنيسة المسيحية بهذا طوال الوقت كعقاب لاستيلاء المسلمين على القسطنطينية." أضاف د. مَكّوي أنّه بدأ الملكان في بناء إمبراطورية كاثوليكية ضمّت غرناطة الى قشتالة وطردت العرب واليهود (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9) وبدأ التخطيط للتوسّع "بتكليف كولومبُس وتمويله للإستكشاف مقابل منحه عُشر خيرات المناطق المستكشفة."

إحتلّ الأسبان منطقة البحر الكاريبي أوّلا. وبعد 3 عقود انطلقوا لغزو أمريكا اللاتينية فقضوا على السكان الأصليين بتدمير إمبراطوريتي الهنود الحمر من الأزتك في المكسيك والإنكا في جبال الأنديز في پِرُو. "إنّ وحشية الإسترقاق الإسباني كانت مستمرة ونتج عنها انقراض جميع السكان الأصليين في منطقة البحر الكاريبي، وأثارت أوّل نقاش سياسي حول حقوق الإنسان. منذ البداية أثارت إساءة معاملة المستعمرين للسكان الأصليين معارضة من قِبل رجال الدين الإسبان."

قد يكون ما ذكره د. مَكّوي غير معقول حين أشار الى "الفكرة الشائعة القائلة بأنّ البابا تبرّع بأولئك الهنود الأمريكين للتاج الأسباني." وأنّ البابا عاد ليخفف من سلوك الكنيسة المشين في القرون الوسطى، فاصدر مرسوما لتبرير تلك الجريمة بأنّه، "لمصلحتهم الخاصّة، قد يتولى الأمراء الأسبان زمام إدارة أمورهم وتنصيب... حكّام نيابة عنهم، كما لو كانوا مجرّد أطفال." حتى أنّه سُمح لهم بأن "يحكموا جزئيا كعبيد." (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9)

من مآثر الإمبراطورية الإسبانية، كما أوردها المؤلف، أنّه خلال نصف قرن من وصول الإسبان، وبفعل الجدري بالإضافة الى تجاوزات المستعمرين، إنخفض عدد سكان هِسپانيولا من الهنود من مئات الآلاف الى الصفر تقريبا. وبمعدّل عالٍ ايضا ولكن لا يزال قاسيا، انخفض عدد سكان المكسيك تحت الحكم الإسباني من 25 مليونا في عام 1520 الى 1.4 مليونا فقط بحلول عام 1600. وبالمثل كانت الخسائر في مرتفعات پَرّو فادحة. "بشكل عام يقدّر أنّه من 60 مليونا الى 89 مليونا من الهنود الحمر قد فقدوا حياتهم خلال قرن واحد من الزمن بين الأعوام 1500 الى 1600، أي ما يعادل حوالي 15٪ من سكان العالم.

أفلت هذه الإمبراطورية الشريرة أخيرا، وكافة الإمبراطوريّات شريرة. لكنّ أمبراطورية مدريد شريرة بشكل خاصّ بحكم قضائها على حضارتين مزدهرتين للسكان الأصليين في المكسيك وهم الأزتك وسكان حضارة الإنكا في پَرّو. استعبدتهم أوّلا ثمّ جاءت بالأفارقة المخطوفين عبر المحيط الأطلسي للعمل في الزراعة والتعدين لنهب خيرات القارتين من الفضّة والذهب. إنقضت الإمبراطورية بوفاة ملكها العاجز جنسيّا والمختلّ عقليا، حسب شهادة المؤلف في نهاية فصله الثاني. شرح ذلك بالقول، "تزاوج آل هابسبُرگ مرارا وتكرارا مع ابناء عمومتهم، ما أصبح في النهاية شيئا قريبا من سفاح القربى. على مدى 200 عاما، كانت هناك 9 زيجات من أصل 11 زيجة، بين آل هابسبُرگ الأسبان. لم يؤدِ زواج الأقارب بالأسرة الحاكمة هذه إلّا الى الإنقراض النهائي في عام 1700."

في الوقت الذي نالت فيه إمبراطورية لشبونة قصب السبق في ابتداع تجارة الرقيق وخطفت الملايين من الأفارقة وقيدتهم بالسلاسل ونقلتهم الى سواحل العالم البعيدة لاستعبادهم للعمل في المزارع والمناجم، أرتكبت أختها في مدريد جرائم القتل وتدمير حضارتين مزدهرتين للسكان الأصليين، وهما حضارة الأزتك في المكسيك وحضارة الإنكا في پرّو، إضافة الى نهب المعادن الثمينة في العالم الجديد. شنّت هذه الامبراطورية حروبا دينية وطائفية لا هوادة فيها ضدّ

المسلمين الكفرة وإمبراطوريتهم العثمانية وضدّ الهولنديين الزنادقة ومذهبهم البروتستانتي. وبعد محاكم التفتيش وقعت أوروبا في حرب طائفية [https://www.marefa.org/%D8%AD/] استمرّت 30 عاما.

سقطت الإمبراطورية الشريرة أخيرا على يد الهولنديين البروتستانت، الذين ما كان عددهم أكثر من مليون نسمة ولكن خاضوا مقاومة ضدّ الأسبان استمرت لأكثر من 80 عاما. وبرأي المؤلف، أنّه بدلا من توسيع أفكارهم الأولية عن حقوق الإنسان والحرية لتشمل غير الأوروبيين والقوى البروتستانتيّة الصاعدة في إنكلترا وهولندا، "توسّعت تجارة الرقيق الأيبيريّة الى مستوى غير مسبوق وجُعل العمل القسري مركزا لبناء الإمبراطورية الناشئة. وبدلا من تحدّي المفهوم الأيبيري للسيادة الإمبراطوريّة واختصاصها في الغزو الإقليمي، إحتضنت أمستردام ولندن فكرة الإستحواذ على مناطق شاسعة في أفريقيا وآسيا والأمريكتين."

طرح د. تكّوي في فصله الثالث صورة مختلفة للإمبراطورية الهولندية الفتيّة، التي نشأت على أنقاض إمبراطوريتي آيبيريا. سرعان ما أدّت ديناميكية مدينة أمستردام الى مجموعة من الإبتكارات المالية، التي جعلتها تدخل التاريخ، كما صاغها جان دي فريس "كغرفة للتجارة العالمية". أخذ بنك أمستردام الودائع وحوّل الأموال عبر الحدود الوطنية وجمع فيما بعد كمّيات هائلة من المعادن الثمينة في خزائنه، ممّا جعل المدينة "خزينة أوروبا للذهب والفضّة." كما أنّ شركة التأمين البحري، عرضت تغطية لعشرات الوجهات الخطيرة، بينما هيّأت الصحيفة الرئيسيّة لتجّار المدينة معلومات مهمّة حول اسعار البضائع القادمة من الشواطئ البعيدة. كما أسّست أمستردام أوّل بورصةٍ في العالم، لتصبح "المركز العصبي للإقتصاد الدولي بأكمله." وأصبحت مدن هولندا الأخرى مراكز فكريّة حيويّة ذات ريادة للمتخصّصين في القانون والطبّ والعلوم واللاهوت والفنون الجميلة. وهذا يختلف اختلافا جذريا عمّا جرى على يد كُلّ من لشبونة ومدريد،

حيث "قامت محاكم التفتيش في هولندا عام 1523 بحرق إثنين من الرّهبان الأوغسطينيين في بروكسل بتهمة الزندقة. وبحلول انتهاء وقت محاكمات التفتيش في عام 1576، تمّ الإعدام العلني لحوالي 1300 بروتستانتيا، وقاسى آلاف آخرون أشدّ صنوف التعذيب بسبب معتقداتهم الدينيّة."

كما برعت الدولة الفتية في بناء السفن التجارية الضخمة وضمّ أسطولها 4000 سفينة رشيقة وسريعة وثلاثية الأشرعة تنقل الواحدة منها 500 طنّا عبر البحار في كلّ رحلة. أظهر الهولنديون أيضا براعة في بناء المراوح الشراعية السداسية لمناشر الخشب الضخمة التي تعمل بقوّة الرياح بغية تأمين حاجة تلك الصناعة (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%8B) من الأخشاب المنقولة من آسيا. بعد احكام السيطرة على تجارة المحيط الهندي توجّهوا للسيطرة على مزارع قصب السكّر في شمال شرق البرازيل، ثمّ عادوا الى إفريقيا. كانت المناورات الهولندية حول خليج غينيا في غرب إفريقيا أكثر نجاحا. فمثلا، اكتسبوا موقعا محوريّا في تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي من خلال الإستيلاء على الحامية البرتغالية في الميناء، وهي غانا حاليا. استخدمت الشركة الهولندية هذا الحصن لمدة عقدين من الزمن لتبعث ما يصل الى 5000 إفريقيا مخطوفا كلّ سنة الى مزارع قصب السكّر في عشرات الجزر الكاريبية، التي استولى عليها البريطانيون والهولنديون والفرنسيون بعد طرد الإسبانيين منها.

يذكّرنا المؤلف أنّه مع دخول حرب الثلاثين عاما عقدها الأخير، عانت إسبانيا من سلسلة من الإنتكاسات المنهكة، التي أجبرتها على رفع دعوى من أجل السلام. إستولى الجيش البروتستانتي الألماني على مدينة فايزَخ في منطقة نهر الراين وقطع "الطريق الإسباني" الذي تعوّدت قوّات المشاة *Tercios* استخدامه منذ فترة طويلة للتحرّك طوال فترة سلطة آل هابسبُورگ والتقدّم من إيطاليا الى هولندا. لقد أجبر الإسبان الآن على التحرّك عن طريق البحر. تمّ إرسال أسطول إسباني مكوّن من 70 سفينة حربية و30 وسيلة نقل أخرى على متنها 24000 جنديّا

لتعزيز قوّات فلاندرز. لكنّ أسطولا هولنديا مكوّنا من 96 سفينة حربية و9900 بحّارا بقيادة الأدميرال مارتين ترومب هاجم الأسطول الإسباني وهو راسٍ في المياه الإنكليزية المحايدة. مع فقدان سفينة واحدة و100 رجلا فقط، أغرقت القوّة الهولنديّة حوالي 20 سفينة عسكرية إسبانية وقتلت 7000 محاربا. كانت تلك ضربة موجعة حطّمت معنويّات البحرية الإسبانية.

كان العصر الذهبي الهولندي خلال القرن السابع عشر غير عاديّ بكثافته واتساعه. مثّلت أمستردام عاصمة هولندا المتحدة وتجارتها العالمية، وتمتّعت بدفعات من الإبداع في كلّ مجال تقريبا من الجهد البشري. شملت هذه التمويل والتجارة والصناعة والشحن والحرب والطبّ والعلم والحكم والقانون والفنون. لكنّ د. مكّوي يعيد الى أذهاننا، "إنّ انحدار القوة الامبريالية الهولندية كان بمثل سرعة صعودها. بعد نصف قرن فقط من وصول البلاد الى ذروتها حوالي 1650، فقدت هولندا قيادتها العالمية بسبب مزيج من التغيّرات المحليّة والإنعكاسات الدولية." في أواخر القرن السابع عشر خاضت القوتان الهولندية والإنكليزية أربع معارك دامية في بحر الشمال، استمرّ كلّ منها لعدة سنوات، حول حرية الملاحة في البحار والمحيطات وطرق التجارة [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7].

في الوقت الذي استمر فيه القتال لتهديد بقاء هولندا وسيادتها، سعى وُليَم أورنج، الذي كانت زوجته ماري الأبنة الكبرى لملك إنكلترا، الى تحالف دائم من خلال محاولة محفوفة بالمخاطر لكنّها وضعت زوجته على العرش الإنكليزي. في نفس الوقت كان النبلاء البروتستانت في إنكلترا يخشون أنّ الملك جيمس الثاني كان يُخطط لإعادة الكاثوليكية للبلاد، فدعوا وُليم أورنج البروتستانتي الهولندي لغزو بلادهم. "بعد تعبئة أذهلت سرعتها الدبلوماسية المراقبين، عبر وُليَم القنال بأسطول يزيد عن 400 سفينة نقل و53 سفينة حربية تحمل 40000 رجلا بينهم 21000 رجلا من القوّات الهولندية مع خيولهم ومدفعيتهم. حين وقفت الأفواج على ظهور السفن تشكّل موكب صاحبه نفخ

الأبواق وهبوط الجيش الهولندي دون معارضة على الساحل الجنوب الغربي لإنكلترا. حشد الملك جيمس الثاني جيشا للدفاع عن مملكته، لكنّ العديد من قوّاته انشقّت وانضمّت الى الهولنديين." وبعد شهر فرّ الملك الى فرنسا، ضيفا على لويس الرابع عشر صاحب المقولة الشهيرة "الدولة أنا وأنا الدولة". أصبح العرش شاغرا، و"توّجت ماري ملكة على البلاد بالمشاركة مع زوجها وُليَم في شهر نيسان التالي في كنيسة وستمنستر آبي، تحت حراسة القوّات الهولنديّة. كشرط لتتويجهما، سنّ البرلمان قانون الحقوق المدنية Bill of Rights عام 1689، الذي أصبح الوثيقة الدستوريّة الأساسيّة للبلاد وذا الأهمية التاريخية الدائمة لتلك الأحداث."

بفعل ما قامت به شركة الهند الشرقية البريطانية، فإنّ "البريطانيين نشروا قوّتهم المتفوّقة للقضاء على ما تبقّى من الوجود الفرنسي وإخضاع آخر حكّام الهند الإقليميين الأقوياء. بلغت الحملة ذروتها في الاحتلال البريطاني للعاصمة المغولية في دلهي وفرض الإقامة الجبريّة على شاه علم الثاني، الذي أصبحت جاذبيته من الآن فصاعدا هي اضفاء الشرعية على حكمهم. على الرغم من أنّ بريطانيا كانت دولة جزيرة صغيرة يسكنها 10 ملايين مواطنا، أضحت الآن في طريقها للسيطرة على شبه القارة الهنديّة التي يبلغ عدد سكانها 200 مليون نسمة. وقد حقق لها ذلك توفير القوة العاملة والتجنيد في القوّة العسكرية وزيادة الموارد للسيطرة المستقبلية على الكثير من مناطق آسيا." [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8]

في إفريقيا ابتدع البريطانيون في ثمانينات القرن الثامن عشر طريقة جديدة للقبض على الأفارقة، "ممّا أدّى الى ما سُمّي (ثورة البارود) على طول ساحل إفريقيا الغربي. قاموا بعسكرة القبائل وزوّدوها بالبنادق من طراز فلينتلوك، التي ارتفعت الى 20000 بندقية سنويّا في مناطق Asante, Benin, Dahomey, Oyo, Kongo. أثاروا النزاعات والصدامات بين قبائل تلك المناطق وشجّعوهم على أسر بعضهم البعض. وبعد انقضاء الحروب كانوا يشترون الأسرى من زعماء كلي الطرفين

وجعلهم عبيدا وشحنهم عبر الأطلسي." ثمّ يمضي د. مكّوي للقول أنّه، "نتيجة لذلك، زادت واردات الأسلحة النارية الى غرب إفريقيا بمقدار 10 أضعاف وقابلها ارتفاع بمقدار 5 أضعاف من صادراتها من العبيد لتصل الى مستوى الذروة التاريخية في ثمانيات القرن الثامن عشر عند 77000 أسيرا سنويًا." هذا إضافة الى تشكيل فرق المرتزقة من الأوروبيين والمحليين المسلحين بالبنادق لملاحقة و"إصطياد" السكان في مناطق الأحراش والغابات وبيعهم لوكلاء الشركات كي يتمّ شحنهم عبر الأطلسي.

دخلت أوروبا عصر الثورات التي اجتاحت جانبي المحيط الأطلسي، في أوروبا والأمريكتين. أطلق هذا العنان لثورات كان من شأنها خلال قرن من الزمن أن تزعزع أسس الأنظمة الإستبدادية. استنفذت حرب الأسبان ما بين السنوات 1701 لغاية 1714، طاقات أسرة آل هابسبُرگ لفرض الهيمنة على القارة. كما أنّ حرب السنوات السبع التالية اعتبارا من 1756 لغاية 1763 أعاقت طموح النظام الملكي الفرنسي لفرض ذلك الوضع المماثل. وفي مطلع القرن التالي جرت حروب نابُليون المدمّرة بين السنوات 1796 لغاية 1815. وهي الحروب التي كان من شأنها أن تزعزع أوروبا بدرجة كافية حفّزت ظهور قوّة بريطانيا ونظامها العالمي الجديد. "بحلول نهاية الحقبة الثورية، فقدت فرنسا كافة كندا وفقدت بريطانيا المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر وفقدت البرتغال إمتدادها الشاسع في البرازيل وفقدت إسبانيا معظم دول أمريكا اللاتينية."

استفاض المؤلف في الحديث عن الثورة الفرنسية، وخصّ بالذكر مغامرات نابُليون العسكرية وأحلامه الإمبراطورية، التي أدخلت قارة أوروبا في دوامة من الحروب لمدة ربع قرن من الزمن. شُنّت فيه 228 معركة دمويّة وفُرض 91 حصارا مُدمّرا وفقد 6 ملايين شخصا حياتهم. لقد ضحّت فرنسا بجيل كامل من شبابها وخسرت إسبانيا بعدها [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9] ما تبقّى من إمبراطوريتها. سجّل التاريخ لنابُليون خسائر باهضة في معركة الطرف

الأغر ومعركة أبي قير ومعركة واترلو وغزو روسيا الفاشل، وما أعقبه من الإنسحاب الشتوي المهين. بالمقابل، تكبّدت بريطانيا خسائر قليلة في قوّتها العاملة ولم تتعرّض لأضرار ماديّة. "بينما شرعت بريطانيا في تشكيل حقبة جديدة، لوّح دبلوماسيوها براية التجارة الحرّة لفتح الأسواق. لكنّهم استخدموا هذا المبدأ كذريعة للتدخّلات العسكرية، التي انتهكت سيادة الدول في جميع انحاء العالم."

تبقى الحقيقة هي أنّه مهما كان نوع الإمبراطوريات الغربية، التي تناولها المؤلف، هناك فارق في جوهر ومعنى وكيفية استخدام القوة، أو بالأحرى القسوة/ التوحش في مقابل العنف. فيما تكون الهيمنة الاستعمارية قاتلة مميتة في سكوتها كما في عدوانها وفي حفاظها على الوضع القائم من النهب والاستغلال، تشكل كلّ تمظهراتها الوحشية والقسوة، أفعالا دموية وحشية تعبّر عن الموت الذي يكبت إرادة الحياة والتحرّر عند شعوب العالم المستضعفة. [https://www.al-akhbar.com/Opinion/333967]

أخبرنا المؤلف في مطلع فصله الرابع بأنّه لأكثر من قرن من الزمن، كان لعصابات الإتّجار بالعبيد وجود قويّ في غرب إفريقيا، لدرجة أنّه كان لها حصن تجاري في مدينة Whydah في بنين. يكشف كلّ وجه من جوانب هذه الأحداث عن القوّة الإستثنائية لنظام العبودية، الذي كانت البحرية الملكية البريطانية تحاول سحقه. غير أنّه من ناحية أخرى، "استبدل البريطانيون التمييز الديني (المسيحية/ الوثنية) الذي برّر العبودية بالتسلسل [https://www.bbc.com/arabic/tv-and-radio-53548643] الهرمي العنصري، الذي شرّع الحكم الإستعماري الأوروبي على ثلث الإنسانية."

تحوّل المؤلف بعدها الى الحديث عن الثورة الصناعية في بريطانيا وكيف أدّت الى ابتكار الآلات والمكائن، التي قادت بدورها الى التخلي عن العبودية وطاقة العضلات البشرية. لكنّها من ناحية أخرى أحدثت اضرارا للبيئة. استشهد بملاحظة بول كروتزن، الحائز على جائزة نوبل، أنّ "التركيزات العالمية

المتزايدة لثاني أوكسيد الكربون والميثان" في الغلاف الجوّي "قد تزامن مع تصميم جيمس وات للمحرّك البخاري عام 1784." ثمّ ذهب للقول أنّه في الواقع، شكّلت بريطانيا وصناعاتها 80٪ من انبعاثات الوقود الأحفوري في عام 1825 و62٪ في عام 1850. بحلول نهاية القرن التاسع عشر نشر الفيزيائي السويدي سفانتي أرنيّوس تقريره الأول عن قدرة الإنبعاثات الصناعية على إحداث ظاهرة الإحتباس الحراري. "من خلال ساعات لا تُحصى من الحسابات اليدويّة المُضنية، توقّع ببصيرة خارقة ودقّة كبيرة أنّ "درجة الحرارة في مناطق القطب الشمالي سترتفع حوالي 8 درجات الى 9 درجات مئويّة، إذا زاد ثاني [https://e3arabi.com/%D8%A7%D9%84%D9] أوكسيد الكاربون بمقدار 2.3 أو 3 أضعاف قيمته الحالية."

"بحلول عام 1900 أغرقت الإمبراطوريات الخمس عشرة في العالم الكوكب في عربدة الفتوحات فاستحوذت على 146 مستعمرة إمبراطورية غطّت 40٪ من مساحة اليابسة وتحكّمت بحياة 550 مليون شخصاً، أي ثلث البشرية." الى جانب العبودية والعنصرية أضافت بريطانيا مأثرة أخرى هي التجارة بالإكراه عن طريق ما سُمّي بمذهب الماركِنتيليّة. قامت شركة الهند الشرقية وحدها بتوجيه تجارة الأفيون، من الزراعة الى التحضير الى حقّ التصدير. "كان للشركة مصانع التكرير الخاصّة في باتنا وبيناريس في قلب منطقة زراعة الأفيون شمال شرق الهند. أشرف ضبّاط بريطانيون كبار على 2000 وكيلاً هنديا كانوا يتجوّلون في حقول الخشخاش التي غطّت حوالي 500000 فدّانا من الأراضي الزراعية الرئيسية. وقدّم هؤلاء الوكلاء الإئتمان وجمع الأفيون الخام من أكثر من 1000000 مزارعا هنديا. تمّت معالجة المحاصيل تحت أشراف صارم في تلك المصانع بتجفيف الناتج وتحويله الى كرات صغيرة وتعبئته في صناديق خشبية يزن كلّ منها 140 رطلا. تُنقل الصناديق بزوارق تجري في نهر الگنجي الى كلكتا لتُباع في مزاد للتجار البريطانيين والهنود." [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD]

على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، انجزت الولايات المتحدة مأثرة تمثلت بالطرد القسري للأمريكيين الأصليين. بعد عام 1830، طُرِد ما يقرب من 60000 فردا من 5 قبائل هي الشيروكي والكريك وشوكتا وجيكاشاو وسيمينَول Choctaw, Chickashaw, and Seminole Cherokee, Creek ونُقلوا بالقوة الى مناطق أوكلاهوما على "درب الدموع" Trail of Tears، حيث مات اغلبهم بشكل جماعي نتيجة للبرد والجوع. "عشية الحرب الأهلية الأمريكية عام 1860 كان هناك 3 ملايين أمريكيا من أصل إفريقي عبيدا انتجوا ما يقارب من 4.5 مليون بالة من القطن سنويًا شُحِنت منها 350000 بالة الى بريطانيا لتوفير فرص عمل لنحو 440000 عاملا." [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D8%B1]

في انتفاضة عيد الميلاد عام 1831 في جَمَيكا، تمرّد حوالي "20000 عبدا وقاتلوا لأكثر من شهر [https://www.alarabiya.net/culture-and-art/2019/10/07] مليشيا اصحاب المزارع والجنود البريطانيين، واحرقوا عددا لا يُحصى من حقول قصب السّكّر والمباني الزراعية. وحين تمّ سحق الإنتفاضة، حدث المشهد الدنيء بشنق جماعي لحوالي 340 متمرّدا. ألهمت تلك الجريمة موجة متجدّدة من التحريض ضدّ العبودية في بريطانيا، لحدّ أنّ البرلمان أقرّ مشروع قانون لتحرير جميع العبيد البالغ عددهم 775000 عبدا في جزر الهند الغربية البريطانية وفي بَرمودا، مع تقديم 20 مليون جنيها إسترلينيا كتعويض لأصحاب المزارع (وطبعا لا شيء للعبيد السابقين.)"

اندلع عنف بشكل عفوي على طول طريق Grand Trunk Road عبر شمال الهند، وهاجم المتمرّدون عدة مدن وقتلوا مدنيين بريطانيين واحتلوا عاصمة الموگال في دلهي وجعلوا امبرطورها المُسِنّ قائدا. "فرضت القوّات البريطانية حصارا على المدينة وتمكّنت في النهاية من اختراق دفاعاتها، وشرعت في ذبح المدنيين عشوائيا وأعدمت المتمرّدين في مشهد من القسوة المروعة." مثلما لم يقلل استمرار العبوديّة من وحشيتها، كذلك لم يمكن أن يخفي الإمتداد غير

العادي للإستعمار تجاوزاته الدموية الظالمة، رغم ادّعاءات التحضّر والتقدّم.

ثمّ جاء البريطانيون ومعهم اليمين الأمريكي بالتشويه المتعمّد لنظرية داروين "حول أصل الأنواع" ليضيفوا لها نكهة عنصرية حول الإختلافات بين الأجناس الراقية المتحضرة والأجناس البدائية المتخلفة. بعبارة أخرى، جاء الإمبرياليون للقول إنّ الأفارقة والأسيويين "كالأطفال" يحتاجون الى وصاية إستعمارية لتسلّق السلم التطوري نحو النضج القومي. ازعج هذا الخرف العالم داروين فكتب يقول، "تبدو انواع البشر المختلفة أنّها تفعل ببعضها البعض كما تفعل الأنواع المختلفة من الحيوانات، يقضي القويّ دائما على الضعيف،" حسب ما استشهد به المؤلف د. مَكّوي. ومع ذلك عُقِد مؤتمر برلين وجلس دبلوماسيون من 14 دولة لمدة 3 أشهر بين العامين 1884 لغاية 1885 حول طاولة مستديرة وأمامهم خريطة عملاقة لإفريقيا. رسم بسمارك بقلمه الخطوط ووضع القواعد الأساسية لانتزاع الأراضي القارية من قبل الدول الأوروبيّة. كمثل على الأستهتار الإستعماري، ذكر د. مَكّوي، "حتى في عصر الإنغماس في التجاوزات الإستعمارية، أثبت حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني للكونكو تحت إسم (دولة الكونكو الحرّة) التي امتلكها شخصيا، أنّه غير إنسانيّ لدرجة أنّ أصبح أكبر فضيحة في العصر الإمبراطوري."

مضى د. مَكّوي لطرح عرض موجز لما جرى في إفريقيا، قال "يمكن تعقب أثر الدماء في طول القارة وعرضها من خلال جشع البلجيكيين في الكونكو والبريطانيين بلا هوادة في السودان وجنوب إفريقيا، وكوارث الإيطاليين في إثيوبيا والألمان بلا رحمة في ناميبيا وتنزانيا والفرنسيين الى ما لا نهاية في شمال إفريقيا" من بين هذه الفظائع، كانت التهدئة الألمانية لناميبيا استثنائية في عنفها الشديد، والتي وصفها المؤرخ يورگن زِمرير بأنّها "سابقة أولية مهمة للنازية اللاحقة" و"تفكير بالإبادة الجماعية". عندما قاوم الأفارقة تدفّق المستعمرين على قارتهم في عام 1904، أطلق الجنرال القائد "أوّل إبادة جماعية على يد الألمان" بإعلانه،

"سأبيد القبائل المتمردة وأجعل الدماء تسيل أنهارا."على مدى السنوات الأربع التالية قتلت القوات الألمانية ما يقرب من 80000 شخصا، أكثر من نصف قبائل هَريرو وقبائل نما، وأقامت "معسكرات للإعتقال" مورس فيها القتل والتميز العنصري وأساليب وتكتيكات "الإبادة" الكاملة، التي ظهرت لاحقا في الهُلوكوست، حسب قول المؤلف. بالمناسبة، اعترفت ألمانيا واعتذرت أخيرا بتاريخ 28 مايس عام 2021، وابدت استعدادها لتقديم التعويضات المالية. أكد وزير الخارجية الألماني هيكو ماس أنّ أعمال القتل تلك إبادة جماعية وأضاف "في ضوء مسؤوليات ألمانيا التاريخية والأخلاقية، سنطلب الصفح والمغفرة من ناميبيا عموما وأحفاد الضحايا خصوصا".(https://www.bbc.com/arabic/world-57280614)

لم تعتذر بريطانيا أو تدفع تعويضات لضحايا عدوانها وجرائمها حول العالم. جاء العرض الأخير لقوّة سلاح المستعمرين في عام 1898 عندما كان الجنرال القاسي هِربَرت كُچِنَر قائدا للجيش الأنگلو- مصري. سار جنوبا من مصر الى السودان في حملة تكونت من 26000 جنديا مسلحين بثمانين مدفعا و44 رشّاشا من نوع مكسيم لقمع الثورة المهدية الإسلامية، التي قام بها رجال القبائل الصحراوية. في مدينة أمّ درمان على النيل، أطلقت مدافع كُچِنَر ورشاشاته النار لمدة 5 ساعات بلا انقطاع وهاجم جنوده 52000 جهاديّا مسلحين بالبنادق القديمة والسيوف (https://www.marefa.org/%D9%85%D8) فقتلوا 10800 رجلا منهم بينما خسر الجانب البريطاني 40 رجلا فقط. حضر الشاب وِنسْتُن چَرچِل تلك الواقعة كمراسل حربي فمسح ساحة المعركة التي تناثرت فيها أشلاء من الجثث، واعتبرها مفارقة غير مقصودة و"أكبر انتصار تمّ تحقيقه على الإطلاق من قبل المسلحين بالعلم ضدّ البرابرة."

إذا كان البريطانيون قد اعتمدوا على استخدام رشّاشات مُكسيم لحصد أرواح الثوار السودانيين، فقد لجأت إسبانيا لارتكاب جرائم حرب شنيعة باستخدام أسلحة كيمياوية ضدّ الثوّار في المغرب. يقول د. مكّوي، أنّه في الحملة

الأولى من نوعها، حاولت إسبانيا اخضاع 240 ميلا من الساحل الافريقي بين الجيبين في مدينتي سبتة ومليلة، الذي أطلق عليه إسم المغرب الإسباني. تمرّدت القبائل البربرية المحليّة على الجيش الإسباني وشكّلت جمهورية *الريف* عام 1921. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8] "أطلقت إسبانيا جهود تهدئة مدّتها 6 سنوات تميّزت بقصف جويّ واستعمال غاز الخردل ووصلت الدّبابات الى القرى وانتشرت البرمائيات التي حملت 123000 جنديا ضغطوا بلا رحمة على 12000 رجلا من رجال حرب عصابات الأمازيغ حتى استسلموا."

ثمّ جاء الحديث على الحرب العالمية الثانية والمجازر الوحشية والإبادات العنصرية التي ألقيت على كاهل النازية، بالإشارة الى "إنجيل هتلر بالتفوّق الآري... زرع بذور الحرب." محوا عذاب الذاكرة عن "رفض الرئيس الأمريكي ولسُن في باريس لمبدأ المساواة العرقية،" عند تأسيس عصبة الأمم حين القت الحرب العالمية الأولى أوزارها، كما يذكّرنا المؤلف د. مّكّوي. غير أنّ الإستعمار الذي اجتاح مناطق العالم من خلال المجازر الدموية، اضطر في النهاية الى مغادرتها مرتكبا مجازر دموية وحشية أخرى، لكنّه خرج مهزوما ذليلا ومكللا بالعار. في النهاية، نالت الدول التي عانت من الإستعمار على استقلالها الوطني، بعد دفع ثمن غال للغاية من الأرواح وآلام المعاناة.

إختتم المؤلف فصله الرابع بالحديث عن حرب السويس عام 1956. تشكلت مقدمات تلك الحرب، منذ قيام الثورة المصرية، التي طالبت البريطانيين بإخلاء قواعدهم في مصر. كما رفض الغرب بيع السلاح الى مصر، التي اعادت بناء جيشها الوطني، فذهبت الى طلب السلاح من چيكوسلوفاكيا واعترفت بجمهورية الصين الشعبية. كما قرّرت القيادة بناء السد العالي في اسوان لكنّ بريطانيا والولايات المتحدة قرّرتا إفشال المخطط، بمنع البنك الدولي من تزويد مصر بقرض مالي لذلك الغرض. ردّ عبد الناصر على خطط منع تقدّم بلاده، فأعلن تأميم قناة السويس كشركة وطنية مصرية لا يمتلكها أحد سوى الشعب

المصري. كان القصد تأمين الأموال للمضي في تنفيذ بناء السدّ. قرّرت بريطانيا التخلص منه وكلفت وكالة مخابراتها M16 بتلك المهمة. أعدّت مؤامرة لاغتيال عبد الناصر على يد مجموعة من المصريين المنفيين وبعض ضباط الوكالة. ترأسّ تنفيذ الخطة مساعد مدير مخابرات سلاح الطيران المصري، الذي إتضح فيما بعد أنّ هذا الضابط نفسه كان عميلا مزدوجا كشف الخطة، فألقي القبض على 11 مصريا و4 بريطانيين.

يروي المؤلف أنّ رئيس وزراء بريطانيا إيدن ورفيقه وزير المالية هارولد مَكمِلَن، وجدا عبد الناصر وطنيّا حازما مقلقا للغاية. وبّخ إيدن وزير خارجيته أنتوني نَتِنگ مرّة قائلا، "ما كلّ هذا الهراء حول عزل ناصر أو تحييده. أريد تدميره، ألا تفهم؟ أريد قتله." بعد فشل خيار الإغتيال المذكور، عمد إيدن الى استعمال القوة والإعداد لغزو منطقة القناة. اجتمعت القيادات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية سرّاً في قرية سيفرز بإحدى ضواحي باريس في الفترة من 22 إلى 24 تشرين الأول عام 1956 لتنظيم ردّ عسكري ضدّ مصر. مثل الجانب الفرنسي جي موليه وكريستيان پينو وبورگِس مونوريه، ومثل الجانب الإسرائيلي دَيفِد بن گُريون وشيمون پِرِيز وموشيه دَيان. أمّا الجانب البريطاني فمثله سلوين لويد وممثلين عن وزارة الخارجية انضما للمحادثات في مرحلة أخرى وهما پاترِك دين ودَونَلد لوگِن، وأقرت خطة الحملة العسكرية على مصر أو ما سمي "پروتوكول سيفرز" [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84]. "لقد إختلق الأسد البريطاني، الذي كان يوما ما عظيما أزمة السويس، لكنّه بدا وكأنّه حيوان سيرك مروّض مستعدّ منذ تلك اللحظة فصاعدا للقفز داخل الأطواق النارية كلما سمع صوت ضرب سياط واشنطن."

فشل العدوان الثلاثي الذي قامت به تلك الدول حين "نفّذ عبد الناصر استراتيجية رائعة رغم بساطتها. مُلأت عشرات السفن القديمة بالحجارة وبعض المتفجّرات لإغراقها في شمال القناة عند مدخلها بالبحر الأبيض المتوسط،

وسرعان ما أغلق شريان الحياة النفطي لأوروبا القادم من الخليج الفارسي. في الوقت الذي بدأ فيه 22000 جنديًا بريطانيًا وفرنسيًا اقتحام الشاطئ عند طرف القناة الشمالي بتاريخ 6 تشرين الثاني، كان هدفهم تأمين حرية حركة السفن، لكنّ النصر كان قد اختطف من أيديهم." أتى انقلاب الرحمة في شهر كانون الثاني من عام 1968، حين أعلن رئيس حزب العمال ورئيس الحكومة، هارولد ولسُن، أنّ بريطانيا ستسحب جميع قوّاتها شرق السويس في غضون 3 سنوات، منهيا دورها كقوّة آسيوية وأيّ دور آخر في ادّعاء القيادة العالمية. ثم يمضي المؤلف للقول، "أخيرا وفي عام 1973، أكملت بريطانيا انحدارها من قوة عالمية الى لاعب إقليمي واصبحت واحدة من 9 دول تشكّل الإتحاد الأوروبي."

إبتدأ المؤلف فصله الخامس بالمعزوفة الفارغة المملّة حول كذبة الرئيس رَوزفلت "الحريّة تعني سيادة حقوق الإنسان في كلّ مكان،" تعبيرا عن التزام الولايات المتحدة بحقوق الإنسان." ووفاء بهذا الإلتزام بحقوق الإنسان، فإنّ الولايات المتحدة ستفعل ذلك وتواجه بعض التحدّيات الإستثنائية." لكنّه سرعان ما اعترف "بالإزدواجية الصارخة لعنف القوّة العسكرية الفجّة وانضمامها بصعوبة الى الأسرة الدولية. ولكن بقيت هذه المبادئ السمة المميّزة للهيمنة الأمريكية حتى القرن الحالي." لقد ارجع المؤلف هذا التوجه تاريخيًا الى شخصيتين هما، وزير الدفاع ألفرد ثاير ماهان ووزير الخارجية إلياهو روت.

تطرّق المؤلف للحديث عن إلياهو روت فقال إنّه قاد مجموعة من الممولين والصناعيين ومحامي الشركات لإنشاء مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، والذي سرعان ما اصبح منتدى الدولة الأوّل للترويج لسياسة خارجية توسعيّة. باختصار، لقد نسج العناصر الرئيسة للنخبة الأمريكية في رابطة متعددة الطبقات من المال والنفوذ والفكر، وبالتالي خلق سياسة خارجية فريدة من شأنها أن تساعد في تحديد الأولويات الدبلوماسية للبلد خلال القرن التالي.

"إبتداء من نصف الكرة الغربية لنا، ولغرض السيطرة على حدودها الستراتيجية، كانت واشنطن ولا [https://www.aljazeera.net/news/presstour/2017/10/23] تزال في حالة حرب في مكان ما مع كافة الشعوب والإمبراطوريات الأوروبية المختلفة في منطقتي المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ،" وكانت آخرها هي الإمبراطورية اليابانية. إنّ نماذج العنف الذي مارسته أمريكا حول العالم موثق ومعروف. ولعل أبشع صورة له تجلت في الحرب العالمية الثانية. الإشارة هنا الى تكتيك من شأنه أن تكون له آثار قاتلة ومروعة، هو القصف الجماعي للمدن اليابانية. في ليلة 9 آذار من عام 1945، أمر القائد الأمريكي لومَي اسطولا جويًا مكونا من 279 من طائرات B-29 Superfortress لإسقاط 1665 طنا من القنابل الحارقة على طوكيو، ممّا أدى الى حدوث عاصفة نارية التهمت ربع المدينة وقتلت 83000 شخصا. خلال الأربعة أشهر التالية قام أسطول لومَي المكون من 600 قاذفة بغارات مستمرّة اسقطت 167743 طنًا من القنابل ودمّرت تقريبا كلّ مدينة يابانية كبرى.

بلغت تلك الحملة المدمّرة ذروتها بهجمتين على مدينتين بسلاح جديد تماما. بتاريخ 6 آب من عام 1945، إنطلقت طائرة واحدة من طراز B-29 Superfortress والقت قنبلة ذرّيّة على هيروشيما. ارتفعت "سحابة الفطر" الى 50000 قدما وارتفعت درجة الحرارة في أرض المدينة الى 3000 درجة مئوية أدت الى ذوبان حجر الگرانيت والصُلب. من بين 76000 مبنى في المدينة، تمّ تدمير 70000 مبنى. وقُتِل في الإنفجار أكثر من 78000 شخصا ولقي 150000 شخصا حتفهم لاحقا بسبب التعرّض للإشعاعات النووية. بعد 3 أيام أسقطت طائرة أخرى من نفس الطراز قنبلة ذريّة أخرى على مدينة نَگزاكي. على الرغم من امتصاص التلال المحيطة بالمدينة للكثير من الصدمة، إنهار وسوّي بالأرض 12700 مبنىً من مباني المدينة البالغ عددها 51000 مبنى وقُتل 23800 شخصا على الأقلّ، وبعد 6 أيام استسلمت اليابان أخيرا." قتلت حملة القصف 330000 شخصا ودمّرت 67 مدينة وسوّت

2.5 مليون منزلا بالأرض وتركت 30٪ من جميع اليابانيين بلا مأوى."
[https://www.argaam.com/ar/article/articledetail/id/1309473]

كانت ادوات الحرب الباردة، التي ساعد جورج كِنّن في إنشائها قد مثلت الجانب المظلم للإزدواجية التي تغلغلت في برامج واشنطن في فترة ما بعد الحرب، الكبيرة منها والصغيرة. كان من شأن المساعدات الخارجية إعادة بناء أوروبا، التي مزّقتها الحرب والتخفيف عن الفقر في جميع انحاء العالم، بينما أدّت العمليات السريّة الى الاغتيالات والانقلابات وانتخابات مزوّرة في عدد لا يُحصى من الدول. بمجرّد انهيار تحالفها في الحرب العالمية الثانية مع الإتحاد السوفيّتي، بدأت الحرب الباردة وشكّلت واشنطن جهاز أمن قومي [https://www.bbc.com/arabic/world-48258155] خدم في نفس الوقت لاحتواء الشيوعية وخلق القدرة على الهيمنة العالمية.

منذ نشأته، لم يضع النظام الأمريكي الجديد في السلطة مجرّد بدائل أو عملاء، بل سمّاهم حلفاء، حتى لو كانوا في مواقف ضعيفة، لتعظيم صورة مصالحهم الوطنية. لإدارة مثل هذه التحالفات المثيرة للجدل، لجأت واشنطن الى ما سمّاه المؤلف "مرهم المساعدات الخارجية ولسعة العمليات السرية." ثم أضاف، "ومنذ تأسيسها عام 1947، أصبحت وكالة المخابرات المركزية آلية حاسمة لحلّ التناقض الكامن في صميم نظام واشنطن العالمي... تلاعبت واشنطن في الإنتخابات وعزّزت الإنقلابات لتأكيد أنّ القادة الوطنيين في جانبها." يمضي المؤلف للقول بأنّه، بين الأعوام 1945 لغاية 2000، تدخّلت الولايات المتحدة في نتائج 81 عملية إنتخابية في جميع أنحاء العالم، بما فيها 8 مرّات في إيطاليا و5 مرّات في اليابان، وغيرها الكثير في أمريكا اللاتينية. بين الأعوام 1958 و1975 جرى تنفيذ العديد من الإنقلابات العسكرية الدموية برعاية أمريكية ونجم عنها تغيّر الحكومات في 30 دولة، تمثل ربع الدول الأعضاء ذات السيادة في الأمم المتحدة."

تحوّل الصراع خلال الحرب الباردة الى سلسلة من الحروب البديلة قسّمت بشكل فعّال 40 عاما من تلك الحرب في ثلاث مراحل متميّزة. أوّلا، كان هناك سلاح نووي للمواجهة في أوروبا بين حلفاء واشنطن في النّيتو وحلفاء موسكو في حلف وارسو (1948-1962). بعد ذلك كانت هناك سياسة حافة الهاوية النووية خلال أزمة الصواريخ الكوبية، وما تلاها في شنّ القوى العظمى حربا بديلة في فيتنام (1962- 1975). إتسمت المرحلة الثالثة (1975- 1989) بالقتل والصراعات المدمّرة في جنوب إفريقيا وأمريكا الوسطى وآسيا الوسطى. في كلّ مرحلة تالية، ونتيجة للتكاليف ومخاطر الجيوش الدائمة الهائلة، اصبحت القوّات التقليدية والنووية ممنوعة، فانفتح المجال للعمليات السريّة والحرب بالوكالة، التي بلغت ذروتها في أنگولا، حيث تقاتل العملاء السوفيّت والأمريكيّون لمدة ربع قرن كامل دون مشاركة أيّ مقاتلين من القوى العظمى في سوح المعارك.

بعد فشل المحاولة الأمريكية لغزو كوبا، إنتقل مسرح عمليات الصدام الساخن الى فيتنام. بين الأعوام 1962 لغاية 1975، دمّرت القوّات الجوية الأمريكية ارياف فيتنام الجنوبية وجزء من شمال فيتنام بالقاء ما يقرب من 6.1 مليون طنّا من القنابل. ويعادل هذا 3 أضعاف إجمالي متفجّرات الحرب العالمية الثانية. "في الوقت الذي دخلت فيه قوّات فيتنام الشمالية والفيتكونگ منتصرة عاصمة الجنوب في سايگون، كان قد قُتِل ما يقرب من 4 ملايين شخصا منهم مليوني مدنيّا و1.1 مليون جنديا فيتناميا شماليا ومن الفيتكونگ. وخسر الأمريكيون وحلفاؤهم من جنود فيتنام الجنوبية 250000 قتيلا، بينهم 58000 من أفراد الجيش الأمريكي. ولا تشمل هذه الأرقام الخسائر الفادحة من الحروب السريّة الموازية التي كانت الولايات المتحدة تشنّها خلال تلك السنوات في كمبوديا ولاوُس المجاورتين."

في الأثناء عرّج د. مكوي على إندونيسيا وشرح دور المخابرات المركزية في الإنقلاب الدموي ضدّ الرئيس الإندونيسي سوكارنو. "أبرقت السفارة في جاكرتا

الى واشنطن بأنّ قائمة كبار الشيوعيين التي قدّمتها (يتمّ استخدامها على ما يبدو من قبل سلطات الأمن الإندنوسية، التي يبدو أنّها تفتقر الى ابسط ما يمكن من المعلومات العلنية عن قيادة البنية التحتية للشخصيات العامة) وسط الإضطرابات التي واجهها الرئيس أحمد سوكارنو، أحد مؤسسي حركة عدم الإنحياز الجديدة للأمم التي سعت الى حلّ وسط خلال الحرب الباردة. أفزعت تلك الحركة واشنطن وأثارتها فأفسحت المجال للجنرال اليميني الفاسد سوهارتو، الذي ظلّ حليفا موثوقا للولايات المتحدة للسنوات 32 القادمة."

بعد الهزيمة في فيتنام، نقلت أمريكا ومخابراتها المركزية العمليات الى امريكا الوسطى والجنوبية لتنفيذ الأعمال الإرهابية والحرب البديلة كما حدث للكونترا في نيكَراكَوا والإنقلاب الدموي في چلي. كما نشط مسرح العمليات في إفريقيا بالتحالف مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا للقضاء على الدولة الوليدة في أنگولا. "كانت الصين تبني دولة طموحة ومدّ خطّ سكة حديد بطول 2000 ميلا، وهو الأوّل من بين العديد من هذه الخطوط ضمن مشاريع المساعدة الأجنبية، التي من شأنها أن تُكسب الصين نفوذا استثنائيا في جميع أنحاء القارة. بحلول الوقت الذي انتهى فيه التدخّل السرّي لوكالة المخابرات المركزية في أنگولا عام 1990، كانت واشنطن قد انتصرت في الحرب الباردة وخسرت القارة بكاملها."

في افغانستان سجّلت وكالة المخابرات المركزية نصرا ساحقا بتوظيف الإسلام الأصولي المتمثّل في قاعدة أسامة بن لادن. "من خلال إنفاق مليارى دولارا فقط على مدى عقد من الزمن، دمّرت النسخة الأفغانية لخطة المخابرات المركزية من الحرب البديلة 995 مركبة مدرّعة سوفيتية و745 طائرة وقتلت 15000 عسكريّا من افراد الجيش الأحمر وسبّبت خسارة مالية للخزينة السوفيتية قدرها 96 مليار دولارا. وهي الظروف التي جاء فيها ميخائيل گورباچوف الى السلطة، فأمر بوقف (الجرح النازف) في أفغانستان واضطر الجيش الأحمر الى الإنسحاب في حالة هزيمة."

جاء المؤلف د. مكوي بعدها على ذكر الأحداث الإرهابية في يوم 11 سبتمبر من عام 2001 وما لحقها من غزو لأفغانستان في نفس ذلك العام، وغزو العراق، الذي ليس له علاقة بتلك الأعمال الإرهابية، عام 2003. أنا شاهد بأنّ نظام صدام حسين كان نظاما مجرما دفع العراقيون ثمنا باهضا لمجيئه الى السلطة وطرده منها. وللحقيقة التاريخية، ما كان يوجد بين الإرهابيين الذين بلغ عددهم 19 إرهابيا أيّ أحد من العراق، أو حتى برعاية أو بتكليف من حكومة العراق. وصف المؤلف حرب افغانستان بأنّها انتهت بهزيمة لأمريكا، "كانت تكاليف هذه الهزيمة باهضة بالفعل. خلال عقدين من جهود التهدئة الفاشلة ونشر 775000 جنديا أمريكيا في أفغانستان، تكبّدت الولايات المتحدة وحدها 2442 قتيلا ونحو 20000 جريحا. يُقدّر أنه قُتل 170000 أفغانيا بينهم 47000 ضحية من المدنيين. وصل إجمالي التكاليف الأمريكية في هذا الصراع حوالي 2.2 ترليون دولارا في النفقات العسكريّة وحدها."

كما استنتج الجيش الأمريكي في دراسة له، "أنّ أداءه العام في حرب العراق كان كئيبا. قُتِل ما يقرب من 4500 جنديّا أمريكيا وجُرح 32000 آخرون. أمّا تقديرات خسائر العراق، فتراوح عدد القتلى المدنيين من العمليات العسكرية الأمريكية ما بين 200000 الى أكثر من مليون ضحية. وصلت التكاليف المباشرة للحروب الى ما يقرب من 2 ترليون دولارا. بعد انفاق مليارات لا حصر لها خلال عقد من إعادة الإعمار، كانت حملة القصف الأمريكية البائسة لهزيمة الدولة الإسلامية هي تدمير المُدن وتدمير بنيتها التحتية." وبحسب قول المؤلف، "خلص مسؤولو الجيش لتقييم الحرب الى أنّ جهود الولايات المتحدة... كانت غير فعّالة ومُفكّكة وغير ناجحة في نهاية المطاف، في المهمّة الحاسمة لإعادة بناء مجتمع مستقر." بعد أن دفعت أمريكا كلفة مذهلة في الدّم والأموال، خلصت الدراسة الى أنّ "إيران الآن أكثر جرأة وتوسعيّة."

عن التوجّه الجديد باستخدام الطائرات المُسيّرة، ذكر د. مَكّوي، أن القوّة الجوية ووكالة المخابرات المركزيّة قد طوّقتا أوراسيا بشبكة من 60 قاعدة

لترسانتها المتنامية من الطائرات المُسيّرة من نوعي Predator Drones Reaper "على طول الطريق من قاعدة سيگنولا البحرية الجوية في جزيرة صقلية الى قاعدة أندرسُن في جزيرة گوام. وبمدى طيران يبلغ 1150 ميلا ويكامل حمولتها من صواريخ هِلفاير، تستطيع طائرات ريبر المُسيّرة من ضرب أهداف مكافحة الإرهاب في أيّ مكان تقريبا في إفريقيا أو آسيا. للقيام بمهمتها العالمية الموسّعة، خططت القوّة الجوية أن تكون لديها 345 طائرة ريبر المسيرة للخدمة بحلول عام 2021، تكون منها 80 طائرة لاستخدام وكالة المخابرات المركزية."

كان الإعتماد على هذا السلاح وبناء ما مجموعه 909 قاعدة صغيرة مخصّصة لاستخدامه حول العالم، السمة التي ميّزت فترة رئاسة أوباما. على أنّ ذلك لا يوجب أن نتجاهل الجوانب الإيجابية في ولايته. في سلوك ملحوظ مخالف لسلفه، تميّزت ولاية أوباما بمبادرات كبرى تتعلق بالإحتباس الحراري، بما في ذلك زيادة في معيار وقود السيارات لقطع مسافة 55 ميلا للگَلِن الواحد بحلول عام 2925. كما تحققت صفقة بين الولايات المتحدة والصين بشأن الإنبعاثات، واعتماد اتفاقية الأمم المتحدة بشأن تغيّر المناخ لعام 2015 وإطلاق خطة الطاقة النظيفة لخفض انبعاثات الكاربون، حسب رأي المؤلف.

إختتم د. مَكّوي فصله الخامس بتقريع إدارة ترامب بالقول إنّها جلبت إدراكا متزايدا في الداخل والخارج بأنّ القيادة العالمية لواشنطن ستنتهي في وقت أقرب بكثير ممّا كان تخيله أيّ شخص آخر. ثمّ مضى مذكّرا القرّاء، "فعل ترامب مثل ما فعله رئيس وزراء بريطانيا الأسبق أنتوني إيدِن، الذي لم يتسبب في تراجع الإمبراطورية ولكن من الواضح أنّه عجّل به." بعد عقود من الترويج للديمقراطية لإضفاء الشرعيّة على قيادتها العالمية، أمضى رئيس أمريكي أسمه دونَلد ترامب أشهره الأخيرة في منصبه (ولا يزال) مستنكرا انتخابات أمريكية نزيهة على أنّها مُزوّرة. تتويجا لذلك وفي مشهد غريب بتاريخ 6 كانون الثاني من عام 2021 (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9) أرسل حشدا من 10000

من أنصاره لاقتحام مبنى الكابيتول. "فجأة، بدت الأمة الإستثنائية عاديّة بشكل مأساوي ولم تعد قادرة على إلهام الآخرين لاتباع مبادئها أو حتى الإذعان لسلطتها." ولكن من يدري، قد يعود دونَلد ترامب الى البيت الأبيض في عام 2024 منتصرا ويُتوّج إمبراطورا للإمبراطورية الأمريكية الشاسعة.

إعتبر د. مكّوي في فصله السادس الذي خصّصه لمناقشة الصين، أنّ مبادرة الحزام والطريق تحدّ لقوة الولايات المتحدة ونظامها العالمي الليبرالي. إلاّ أنّها كانت منقوصة أيضا حيث، "أظهر نظام بكين العالمي إزدواجية ملحوظة، في هذه الحالة بين التنمية الإقتصادية التي من شأنها أن تنتشل ملايين عديدة من براثن الفقر، وفي ذات الوقت زيادة مشاعر القومية المُفرطة، التي من شأنها أن تتجاهل كلّا من انبعاثات الكاربون وحقوق الإنسان معا." [https://arabicpost.net/%d8%a3%d8%]

المبلغ الهائل الذي رصدته الصين للمشروع يزيد بمقدار 10 مرّات أكثر من المساعدات الخارجية، التي خصّصتها واشنطن لخطّة مارشل لإعادة بناء أوروبا المُدمّرة بعد الحرب العالمية الثانية. بحلول عام 2016، كانت تكلفة البنية التحتية منخفضة في الصين، التي قدّمت قروضا لنحو 70 دولة تمتد من بحر البلطيق الى المحيط الهادئ، وتمّ بناء اكبر ميناء على البحر الأبيض المتوسط في Piraeus في اليونان ومحطة رئيسية للطاقة النووية في إنگلترا ومدّ خط سكك حديد بقيمة 6 مليارات دولارا عبر لآوس وفتح https://www.youtube.com/watch?v=hboHCTmd27Q&ab_channel=AlArabiya%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9 ممرّ للنقل البرّي بقيمة 46 مليار دولارا عبر پاكِستان، من بين مشاريع أخرى."

مدفوعا بأكبر هجرة جماعية في تاريخ البشرية، نما الإقتصاد الصيني بمعدل 10٪ سنوياً لمدة 40 عاما. وهو اسرع معدل ثابت سجلته أيّة دولة على الإطلاق. "وفي الوقت ذاته، ارتفعت قيمة الناتج الصناعي [https://studies.aljazeera.net/en/node/4056] من 1.2 ترليون دولارا في عام 2006

الى 3.2 ترليون دولارا في عام 2016، متجاوزا كلا من الولايات المتحدة بنحو 2.2 ترليون دولارا واليابان بنحو ترليون دولارا." بعد إعادة الضبط في عام 2019، قدّمت مبادرة الحزام والطريق 128 مليار دولارا اخرى في شكل قروض خارجية، ممّا جعل المخطط في منتصف الطريق الى هدفه في صرف 1.3 ترليون دولارا.

ظهرت انتقادات حادة لمشاريع المبادرة في زامبيا وميانمار وسريلانكا وماليزيا وباكستان وجزر المالديف، لأنّها قدّمت الدعم للقادة الإستبداديين وشجّعت الفساد وعزّزت التبعية عن طريق الوقوع في فخّ الديون. إضافة الى جوقة المعارضة، إنتقد انصار البيئة مبادرة الحزام والطريق لتخصيصها أكثر من 20 مليار دولارا لاستخدام الفحم لتوليد الكهرباء، لا سيّما في بنگلادش وباكستان وإندونيسيا. "إعترف المسؤولون الصينيون بالمشكلة وحوسب المنظمون على الإقراض لخارجي القويّ من قبل بنوك الدولة، ممّا أبطأ مؤقتا الوتيرة السريعة لمبادرة الحزام والطريق."

عرّج المؤلف على الموقف تحت إدارة ترامب والخطط الجنونية التي جاء بها مستشاره للشؤون الإقتصادية بيتر نَفارو لاحتواء الصين. كان أوّل مخطط له هو تعمية اقمار الصين الصناعية في الفضاء وتدمير قواعد اطلاق الصواريخ البالستية. غير أنّ احتمال تدمير انظمة قواعد الصواريخ المتحركة للصين سيكون "منخفضا للغاية." كان اقتراحه الثاني فرض حصار على سواحل الصين بأكملها، بما فيها مناطق المناجم ومناطق المضائق البحرية الممتدة من اليابان الى سنغافورة. ومع ذلك، فإنّ نفس الحصار، كما أدرك نَفارو نفسه، سيؤدّي أيضا الى "ضربات كاسرة" Crushing Blows للإقتصاد الأمريكي. "وبالتالي كان الحلّ الواقعي الوحيد، هو فرض تعريفات جمركية عالية لتعويض الممارسات التجارية غير العادلة للصين."

غير أنّ سياسة التغريدات التي انتهجها ترامب قد عقّدت الأمور أكثر. أطلق المزيد من التغريدات، التي هدّد فيها بزيادة الرسوم الجمركية على جميع الواردات الصينية بقيمة 550 مليار دولارا، وطالب الشركات الأمريكية بالإنسحاب

من الصين وشجب الرئيس الصيني باعتبار "عدوًا". ورفع متوسط الرسوم الجمركية الأمريكية على السلع الصينية من 3.1٪ الى 21.2٪، وهو أعلى معدّل في أيّة دولة منذ أكثر من 50 عاما. وكردّ، بدأت بكين تفرض رسوما بنسبة 33٪ على واردات فول الصويا من الولايات المتحدة، ممّا ساهم في انخفاض كبير في الصادرات الزراعية الأمريكية الى الصين من 24 مليار دولارا في عام 2014 الى 9 مليارات دولارا في عام 2018." [https://www.bbc.com/arabic/world-52517125]

يمضي د. مَكّوي معلقا على سياسة الفوضى والدور الذي لعبه تَرامب فيه فقال، "كشرط لإلغاء الرسوم الجمركية، أصرّ تَرامب على أنّ الصين يجب أن تنهي سبعة نشاطات اقتصادية عدوانية وإجراء تغييرات هيكلية في اقتصاد البلاد. إنّ الرئيس لا يمكنه المساومة مع صيني لأنّك إذا قابلتهم في منتصف الطريق، فسوف يسرقون نصف ما لديك، وبقدر ما يسرقون سيقتلون نصف عدد الأمريكيين." هذه برأي د. مَكوّي، ملاحظات تنمّ عن عداء عميق وطلبات واسعة تتطلب حلولا نهائية، ممّا اثبت أنّ الحرب التجارية صعبة للغاية.

وممّا زاد الأمور تعقيدا هو مطالبة الصين بالسيادة على محيط بحريها الشرقي والجنوبي كاملين. "يحتوي هذا الطلب على منطقة تغطي 12٪ من مصايد الأسماك العالمية و190 ترليون قدما مكعّبا من احتياط الغاز الطبيعي." بالعودة الى عام 1949، رسمت بكين على الخريطة "خطأ دائريا من 9 فواصل" لتمييز مطالبتها الإقليمية بمعظم بحر الصين الجنوبي. "إبتداء من شهر نيسان 2014، صعّدت بكين حدودها في محاولة للسيطرة الإقليمية الحصرية على ذلك البحر. من خلال توسيع قاعدتها البحرية Longpo على جزيرة هاينّن، اصبحت هذه ميناء لأربع غواصات تعمل بالطاقة الذرية وتحمل صواريخ بالِستية. "هذا وكانت الصين قد طوّرت مقاتلة باسم "التنين العظيم" يعتقد بعض المراقبين أنّ قدراتها قد تفوق قدرة طائرة F-35. [https://elaph.com/Web/News/2022/06/1477319.html]

ومن خلال النشاط المتسارع للتدريب والتكنولوجيا والبناء، سيكون للصين

بحلول عام 2030، ما يكفي من حاملات الطائرات. هذا وقد حذّر تقرير للبِنْتَكون من أنّ ذلك سيجعل بحر الصين الجنوبي "عمليا بحيرة صينية."

طرح د. تَكّوي صورة قاتمة في ظلّ صعود نظام الصين العالمي. برأيه أنه بحلول شهر كانون الثاني من عام 2020، اصبحت إنتهاكات بِكّين مستمرّة ومنهجيّة لدرجة أنّ منظمة مراقبة حقوق الإنسان ومقرّها في نيويورك، وصفت إجراءات الصين بأنّها "تهديد وجودي لحقوق الناس في جميع انحاء العالم." ذكر الصينيون في الداخل أنّ الحزب الشيوعي قد "بنى دولة أورويلية عالية التقنية في الرقابة ونظام متطوّر للتحكّم بالإنترنت" لقمع أيّة معارضة محلية قد تهدّد "حكمها الأوتوقراطي القاسي." أمّا في الخارج، فقد "استعرضت بِكّين عضلاتها السياسية... القوّة والتصميم لتقويض المعايير الدولية لحقوق الإنسان." إذا كان موقف الصين لم يتمّ التحقق منه بطريقة ما، كما حذّر تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان، فإنّ العالم سيواجه "مستقبلا بائسا لا يكون فيه أحد بعيدا عن متناول رقابة الصينيين، والنظام الدولي لحقوق الإنسان [https://www.youtube.com/watch?v=GnfIQZaKXRo] ضعيف لدرجة أنّه لا يعدّ بمثابة فحص للقمع الحكومي." وفي هذا السياق صرّح وزير الدفاع الأمريكي اليوم (11حزيران 2022) بعد لقاء ثنائي مع نظيره الصيني، "أنّ الصين اصبحت اكثر تعسفا وعدوانية... وسنحاول احتواء التوترات معها... حول كلّ شيء بما فيها تايوان وسجلّ الصين في مجال حقوق الإنسان إلى نشاطها العسكري في بحر الصين الجنوبي." [https://aawsat.com/home/article/3696871] ومن جانبها تعهدت الصين "بسحق أيّة محاولة لاستقلال تايوان..." وشدّدت على أنّ "تايوان هي تايوان الصينية... استخدام تايوان لاحتواء الصين لن ينتصر إطلاقا." وتعدّ بِكّين الجزيرة أرضاً تابعة لها وتعهّدت ضمّها بالقوة، إذا لزم الأمر. هذا وتنفذ طائرات حربية صينية توغلات ومناورات عسكرية بشكل دائم تقريبا للتذكير في منطقة الدفاع الجوي لتايوان. [https://aawsat.com/home/article/3696526]. وفي آخر المستجدّات، أعلن وزير الدفاع الصيني، أنّ بلاده "ستقاتل حتى النهاية" لمنع تايوان

من إعلان الاستقلال، وسط تصاعد التوتر مع الولايات المتحدة بشأن الجزيرة.

[https://arabicpost.net/%D8%A3%D8]

مهدّ الكاتب لفصله الأخير بالحديث عن انعكاسات تأثير تغيّرات المناخ. ذكر أنّه، "ما بين الأعوام 2007 لغاية 2010، تسبّب تغيّر المناخ في (أسوأ ثلاث سنوات من الجفاف) في تاريخ سوريا، ممّا أدّى الى حدوث اضطرابات تميّزت "بفشل الزراعة بشكل هائل ودفع 1.5 مليون شخصا الى الأحياء الفقيرة في المدن. وقد أدّت هذه الهجرة القسرية بدورها وساهمت في إحداث حرب أهلية مُدمّرة أجبرت 5 ملايين لاجئا على الفرار من البلاد."

شرح د. مكوي أنه في الولايات المتحدة، يُعدّ تأثير تغيّر المناخ عاملا رئيسيا. بالتزامن مع الضغوط الإقتصادية والتغير الديموغرافي، من المرجّح أن تُجبِر الحكومة على تخفيض أو حتى التراجع عن التزاماتها العسكرية في جميع انحاء العالم. أكثر وعلى نطاق واسع، فإنّ تجاوز عدد قليل من الإتجاهات الرئيسية يشير الى الدور المُحتمل لأزمة بيئية متصاعدة لتحفيز التحوّل الى ترتيب عالم جديد. "أوّلا وبشكل أساسي، إنخفض نصيب أمريكا من الناتج العالمي الإجمالي بشكل مُطّرد من 50٪ في عام 1950 الى نسبة 15٪ المتوقعة في عام 2024. لكّن ميزانيتها الدفاعيّة تحرّكت في الإتجاه المعاكس، حيث ارتفعت بنسبة 150٪ من 274 مليارا في عام 2000 الى 720 مليارا في عام 2019، مع التخطيط الى 747 مليارا بحلول عام 2024،" كما يظهره الشكل على الصفحة التالية. يعترف المؤلف بأنّ أمريكا تواجه إضافة لمشكلة تغيّر المناخ، تكاليف اجتماعية متصاعدة تتعلق بالعناية بكبار السنّ. بحلول عام 2034، ستصل الولايات المتحدة الى ما يُسمّى "معلما جديدا"عندما يفوق عدد الأشخاص فوق سنّ 65 عاما (77 مليونا) عدد الأشخاص دون سنّ 18 عاما (76.5 مليونا). سيتطلب هؤلاء الأمريكيون الأكبر سنّا "رعاية صحّية أعظم في المؤسسات الخاصّة بهم أو في منازلهم، وما يترتب على ذلك من مرافق المعيشة المدعومة."وبرأيه أنّه، "من

المرجّح أن تحوّل الموارد المالية من الدفاع الى الخدمات الإجتماعية، إذ يتوقّع مكتب الميزانية في الكونگرس أنّ الإنفاق الفِدرالي على كبار السنّ والذي يشمل الضمان الإجتماعي والرعاية الطبّية والمَدِك أيد، سيرتفع باطّراد من 20٪ من الميزانية في عام 2019 الى 50٪ بحلول عام 2049. وستنمو كلّ من القوّة العاملة والإقتصاد بمعدّلات أبطأ بكثير من التكاليف المتزايدة باستمرار لدعم كبار السنّ. ومن المرجّح أن تترك هذه المسؤوليات أموالا أقلّ بكثير للصرف على القواعد الخارجية أو التدخّلات العسكرية. (في اعتقادي شخصيًا أنّ هذا التحوّل بعيد الإحتمال) "من هذا التآزر بين الضغوط الماليّة والأجنبية، فإنّ نفوذ واشنطن سيبدأ في التلاشي من الوجود في غضون عقد من الزمن."



وفي النهاية يعتقد المؤلف أنّه قد تشكّل الهيمنة الصينية العالمية بحلول عام 2030 وتطرح نظاما عالميا أكثر مرونة من سابقتها الأمريكية. بدلا من التدخّل العسكري والتلاعب الخفي لضمان الإمتثال لمعايير سياسية مُسبقة، ستتجاهل الصين الفساد وعدم الكفاءة أو وحشيّة شركائها الدوليين وتركّز على المنفعة المشتركة للتبادل الإقتصادي. بدلا من التطلعات الى حقوق الإنسان والإلتزام باحكام المحاكم الدولية ونظامها العالمي، سوف تعطي الصين الأولوية للسيادة الوطنية على المبادئ العالمية. وبدلا من انتشار مئات القواعد العسكرية في الخارج والقوات في جميع انحاء العالم، من المرجّح أن تركّز الصين قواتها في غرب المحيط الهادئ والمحيط الهندي. في هذا النظام العالمي الأكثر انتشارا، ستحاول كلّ دولة هيمنتها على منطقتها المباشرة. فمثلا، "ستهيمن البرازيل على أمريكا الجنوبية وواشنطن على أمريكا الشمالية وبكين على شرق آسيا وجنوب شرقها، وموسكو على أوروبا الشرقية ونيودلهي على جنوب آسيا وطهران على آسيا الوسطى وبريتوريا على جنوب قارة إفريقيا وأنقرة والقاهرة على الشرق الأوسط."

أعاد د. مَكوي في مطلع فصله السابع والأخير الى الإذهان تنبؤه بأنّ نظام واشنطن سيتلاشى بحدود عام 2030، لكن وريثه الصيني لن يعمّر أكثر من عقدين حتى "يبدأ هو ايضا يعاني من العواقب الوخيمة للإحترار العالمي غير المنضبط. تشير الدلائل العلمية بوضوح أنّ من المرجّح أن تتسارع وتيرة تغيّر المناخ وستؤثر سلبا على الصين بحدود عام 2050، وسيضطرها هذا للتراجع عن العديد من التزاماتها الخارجية والتخلي عن أيّ نوع من النظام العالمي الذي تكون قد أسّسته."

حول ذوبان الثلوج نتيجة التغيّر المناخي، استعان المؤلف بنتائج دراسات أجريت في جزيرة گرينلاند وأشارت الى أنّ الغطاء الجليدي للمحيط المتجمد الشمالي يذوب بسرعة تبلغ أكثر من 25 مرّة سرعة الذوبان في العصر الجليدي

نفسه. [https://www.greenpeace.org/mena/ar/888] وحول أسوأ الحرائق حول العالم عام 2018 التي ارجعها المؤلف الى تَغيّر المناخ، ذكر منها ما شهده ذلك الصيف من حرائق غابات هائلة دمّرت انظمة بيئية متباينة في جميع انحاء العالم، بما فيها 830000 فدانا من الغابات الأوروبية و2.3 مليون فدانا من غابات الأمزون المطيرة و2.5 فدّانا من سفوح التندرا في ألآسكا وغاباتها الثلجية و6 ملايين فدّانا من غابات سايبيريا ومساحات غير معروفة من السّافانا في وسط إفريقيا. عندما وصل الصيف الى نصف الكرة الأرضية الجنوبي في نهاية العام، شبّت أستراليا نارا في أسوأ موسم حرائق لها منذ أكثر من قرن. "شهدت القارة أعلى درجات حرارة سجّلت حتى الآن وسط مئات من حرائق الغابات التي أتت على 46 مليون فدّانا، وهذه مساحة أكبر من مساحة سوريا. وصفها أحد المسؤولين بأنّها تشبه إنفجار قنبلة ذريّة."

وفي اجزاء كثيرة من العالم، كان موسم الحرائق في عام 2020 أسوأ. في البرازيل مثلا، أحرقت الظروف الجافة بشكل إستثنائي 8.5 مليون فدّانا من غابات الأمزون المطيرة و3 ملايين فدّانا من الأراضي الرطبة الجنوبية ذات التنوّع البايولوجي المعروف باسم Pantanal والذي وصفه مسؤول في ناسا بأنّه "تدمير غير مسبوق حقا." على الساحل الغربي للولايات المتحدة، إندلعت حرائق ضخمة مدفوعة برياح قويّة "ودمّرت 6 ملايين فدّانا تقريبا في كاليفورنيا، حيث اندلع أسوأ موسم حرائق في الولاية على الإطلاق وتمثّل بالآلاف من ضربات الصواعق الغريبة ودرجات الحرارة التي وصلت الى رقم عالمي بمقدار 130 درجة فهرنهايت (54.4 درجة مئويّة)."
[https://arabic.rt.com/technology/1325603]

إستشهد المؤلف بتقرير مكتب الأمم المتحدة للحدّ من الكوارث خلال السنوات العشرين الماضية، الذي أفاد بأنّ هناك "إرتفاعا مذهلا في الكوارث الطبيعية، التي تسبّبت في وفاة 1.2 مليون شخصا وخسارة 2.3 ترليون دولارا نتيجة الأضرار الإقتصادية." وحذّرت الأمم المتحدة، "إذا واصلنا عن قصد زرع بذور

تدميرنا بأنفسنا، ستجعل كوكبنا جحيما غير صالح لسكنى بلايين البشر." كما أشار د. مَكّوي الى أنّ أحداث الطقس القاسية مثل الأعاصير والفيضانات والإنهيارات الأرضية قد شرّدت 7 ملايين شخصا حول العالم في النصف الأول من عام 2019، وهو أعلى رقم مسجّل خلال ما يقرب من عقدين من الزمن. ثمّ انتقل للحديث عن تأثير تغيّر المناخ على الصين. [https://arabicpost.net/%D8%AA%D8%AD) تنبأ بأنّه حتى لو أصبحت الصين القوة العالمية البارزة، فمن المرجّح أن تؤدّي الوتيرة المتسارعة لتغيّر المناخ الى تقليص هيمنتها على امتداد عقدين أو ثلاثة عقود فقط. مع ارتفاع درجات حرارة العالم لزيادة قدرها نحو 3.9 درجة مئوية بحلول عام 2100، فإنّه بدءاً من حوالي عام 2070، سترتفع درجات الحرارة بشكل لا يُطاق وستجعل أمواجها المناطق المكتظة بالسكان في شمال البلاد غير صالحة للسكنى. "علاوة على ذلك، هناك أدلة علمية متزايدة، على أنّه بحلول عام 2950 سترتفع مياه البحار وستغرق العديد من المدن الصينية الساحلية الرئيسية، لا سيّما مركزها التجاري في شنگهاي. بينما يهدّد ارتفاع منسوب المياه بقاء شنگهاي، فسيدمّر ارتفاع درجات الحرارة سهل شمال الصين، وهو منطقة زراعية رئيسية بين العاصمة بكين وشنگهاي يسكنها حاليا 400 مليون مواطنا، ممّا يجعلها أكثر الأماكن على هذا الكوكب تعرّضا للفناء."

بعد الوصف المرعب عن خراب الصين وغرق المدن الساحلية في آسيا واشتعال الحرائق في كلّ مكان تقريبا، يتحوّل المؤلف الى عرض حالة غابات الأمزون المطيرة التي ستتحلل وتتحول الى منطقة اعشاب طويلة. إلا أنّ الأشد رعبا هو ما سيحلّ بالقطب الشمالي نتيجة ذوبان الصقيع وكشف التربة الصقيعية الغنيّة بالكاربون والميثان، اللذين سيحولان المنطقة الى "ذلك الحساء القذر Sloppy Stew من المياه المتحللة والمياه المتجمّدة منذ العصور الجليدية الغامضة التي تغطي 11.8 مليون ميلا مربّعا من نصف الكرة الشمالي، والتي تصل الى عمق 2300 قدم تحت سطح الأرض وتحتوي على كمّية كافية من الكاربون والميثان

لإذابة القطبين وغمر السهول الساحلية المأهولة بكثافة بالسكان في جميع انحاء العالم." تعزيزا للآثار الخطيرة، أشارت المراجعة التي اجرتها NOAA الى أنّ ذوبان التربة الصقيعية يطلق بالفعل حوالي 300 الى 600 مليون طنّا من صافي الكاربون في الغلاف الجوّي سنويا. ويعادل هذا لوحده إجمالي انبعاثات الكاربون في اليابان. إنّ ذوبان التربة الصقيعية القطبية الشمالية سيُطلق نفايات مشعّة وفايروسات ضارة. (https://www.aljazeera.net/news/science/2021/10/13) والسبيل الرئيسي للحدّ من أخطار التعرض للملوثات الكيميائية، ومسببات الأمراض المدفونة في جليد القطب الشمالي، هو اتخاذ خطوات فورية لإبطاء وتيرة ذوبان التربة الصقيعية، بحسب رأي الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيّر المناخ NOAA.

إختتم د. مَكوي كتابه بالقول إنّه بحلول عام 2050، إن لم يكن قبل ذلك، فإنّ عدم قدرة كلّ من الدول منفردة، مهما كانت قوية، على التعامل مع هذه الأزمة في المشاعات العالمية يصبح العجز واضحا بشكل صارخ. إذا كان على الصين أن تتحوّل الى الداخل للتعامل مع أزمة المناخ الخاصّة بها في منتصف القرن، ومع العالم الذي يواجه مشهد المعاناة الجماعية من قبل عدة ملايين من لاجئي تغيّر المناخ، فقد يتّفق المجتمع الدولي على الحاجة الى نوع جديد من الإستجابة الجماعية وشكل مفوّض للحوكمة العالمية. إنّ مثل هذه الهيئة أو الهيئات لما بعد المرحلة الوطنية، ستحتاج الى سلطة سيادية أكثر في ثلاثة مجالات حرجة وهي، التحكّم بالإنبعاثات وإعادة توطين اللاجئين وإعادة إعمار البيئة. إنتهى صاحبنا باستنتاج بالغ الحزن حين أشار قائلا، "بالنسبة للوقت الحاضر، يبدو أنّ مسار القرن الحادي والعشرين يُنذر بتغيّر المناخ الكارثي وانهيار الأنظمة العالمية."

د. محمد جياد الأزرقي
أستاذ متمرس، كلية ماونت هوليوك
قرية مونگيو، ماسَچوسِت، الولايات المتحدة
26 /6 /2022

تقديم

برز ألفرَد مَكّوي كمؤرخ خلال حقبة حرب فيتنام عندما كشف الغطاء عن دور وكالة المخابرات المركزية في تهريب الهيروين في جنوب شرق آسيا. على الرغم من أنّ مَكّوي بلا شك عالم لامع، فهذا اللقب بالكاد يجسّد الروح الحقيقية للعمل الهائل والرائد، الذي قدّمه لنا جميعاً عبر عقود من الزمن. ذهب مَكّوي لعدة عقود الى حيث يتكشّف التاريخ ومثل عالم الآثار قد حفر عميقاً للكشف عن القصص التي ما كنا عرفنا بها لولا جهوده. كاد مَكّوي أن يُقتل في وقت مبكّر من حياته المهنية على يد القوات شبه العسكرية المدعومة من قبل الولايات المتحدة. كانت وكالة المخابرات المركزية قلقة للغاية بشأن ما كشفه عن تهريب المخدّرات لدرجة أنّها حاولت إيقاف نشر كتابه المعنون The Politics of Heroin. تمّ التجسُّس عليه من قِبل مكتب التحقيقات الفدرالي وتمّ تدقيق مدخولاته من قِبل مصلحة الضرائب، واعتُبر تهديداً من قبل وكالة المخابرات المركزية.

إنّ مَكّوي هو أحد أبرز العلماء في العالم بشأن إساءات السلطة ومراقبتها وقمعها وكشف تاريخ تطوّر التعذيب الذي تجيزه الدولة هنا وفي وأماكن أخرى. وكشف مؤخّراً عن حالة التدهور السريع لامبراطورية الولايات المتحدة.

أحدث كتب مَكّوي To Govern the Globe هو عمل أكاديمي هائل يمتدّ على قوس مذهل من تاريخ العالم. ومع ذلك فهو يغطي قراءة سريعة الخطى

تمكّنت من استخلاص التاريخ المعقد لصعود إمبراطوريات العالم وسقوطها في قصة مبهجة ومرعبة في ذات الوقت. إنّ نطاق الكتاب هائل لدرجة أنّه لا يوجد سوى عالم بمهارة مَكّوي يمكنه حتى التفكير في محاولة توجيه عرضه. يعطينا فهم مَكّوي الدقيق لإخفاقات الماضي والحاضر وتجاوزات الإمبراطوريات، المصداقية النادرة لتقديم صورة مفصّلة دامغة للحقائق المروّعة، التي تواجه البشرية مع تحوّل التاريخ ومعه مستقبلنا. ومع ذلك، بوعد قراءة هذا الكتاب، يجب أن استنتج أنّ ذلك جزء لا يتجزأ من مَكّوي ذاته.

جَرمي سكَيهِل
أيلول عام 2021

ملاحظة المؤلف

إنّ هذا الكتاب وليد مصادفة حادثين، إحداهما مجرّد خيال والأخرى حقيقية للغاية. خلال الأسابيع الأولى من فترة التفرغ الأكاديمي في جامعة وسكونسُن في ماديسُن، تأثرت كثيرا ببرنامج فكرة كتاب يحلل صعود الإمبراطوريات وسقوطها من خلال تتبع الجغرافية السياسية. انطلق المشروع بقوة متسارعة لمدة شهر تقريبا فكتبت خمسة ثم ستة ثم سبعة آلاف كلمة بشكل غير متوقع حتى تحطمت جدران مفاهيمي وتركت حطاما من العوامل والشخصيات ملقاة على مكتبي.

ولغرض استعادة موقفي، اتصلت بمحرّري الخاصّ توم أينجلهارت. وبعد طرح عدة اسئلة دون انتظار الإجابة، شرعت لأسابيع في شهر شباط من عام 2019 في كتابة مقال قصير لمجلته على الإنترنت TomDispatch، إحتوى على الحجة الأساسية لهذا الكتاب.

في نفس الوقت تقريبا، تعطلت فكرة كتابي الأوّل حين تعرضت لحادث انزلاق على الجليد الأسود في منتصف الشتاء القاسي لوسكُنسُن، أدى الى تمزيق ثلاثة من الأوتار العصبية الأربعة في ركبتي اليمنى. حين استيقظت بعد إجراء العملية الجراحية وضعوا ساقي في دعامة منعتني من قيادة السيارة أو السفر بالطائرة أو حتى المشي أكثر من بضع خطوات. لمدة أربعة أشهر تقريبا، كان كلّ

ما يمكنني فعله هو الجلوس عند طاولة المطبخ وساقي مدعومة ويداي على الكومبيوتر وأقرا وأكتب لمدة ثمانية عشر ساعة في اليوم طوال الأسبوع. بحلول الوقت الذي رفعوا فيه دعامة الساق، خرجت في بداية الصيف وكنت حوّلت المقالة القصيرة الى مسودّة أولية لهذا الكتاب.

بعد تلك الأشهر الأربعة من تقييد حركتي، دعتني جمعية الدراسات الآسيوية فطرت الى بانكوك، حيث أتيحت لي الفرصة لتفحّص الحجة الأساسية للكتاب. قمت بتصويرها في عزلة تامّة في فندق وناقشتها أمام قاعة مليئة بالخبراء الإقليميين. بعد ذلك واصلت تنقلي باستمرار في جميع انحاء العالم للقيام ببعض المتابعات الميدانية غير التقليدية من أجل إضفاء الحيوية على هذا السرد للأنظمة العالمية على مدى القرون الستة الماضية. توقفت في Angkor Wat لغرض زيارة متحف أوسلو للعناصر المرئية لوصف سفن الفايكنگ، ثمّ الى بروجز لمشاهدة الموقد الإحتفالي بنسب الإمبراطور چالز الخامس والتبرّك بأربعة تماثيل لأجداده، بما في ذلك فرديناند وإيزابلا. ثمّ سافرت بصحبة العائلة الى لندن للتنزّه في شوارع تلك المدينة ومتاحفها وجمع الأفكار أينما ذهبنا. وحين انقضى شهر تموز، كان الأمر مختلفا وذكرياته لا تُنسى. واصلت الكتابة حتى عندما كنت استقل الطائرة وبحلول الوقت الذي عدت فيه الى المنزل في شهر آب، كنت قد أعدت كتابة المسودّة الأولى الى حدّ كبير. اعقبت تلك الأشهر القليلة المثيرة للبصيرة والسفر، فترة عام كامل من المراجعة المُملة بشقّ الأنفس للقطع وإعادة الصياغة والتحقق من دقة الحقائق الواردة في الكتاب.

إنّ النّصّ الذي نُشِر هو عمل طموح، وعلى نفس المنوال هو بالضرورة غير كامل. خلال مسيرتي المهنيّة على مدى خمسين عاما كمؤرّخ، قمت بنشر عشرات الكتب ومئات المقالات التي تطلبت قراءة وتمحيص آلاف لا تُحصى من الدراسات والوثائق التاريخية. أثبتت بعد كلّ هذا الجهد عدم ملائمتها بشكل محزن لتحدّيات هذا المشروع. في تغطية فترة على مدار سبعة قرون. تطلبت هذه

الدراسة عمقا واتساعا من المعرفة التاريخية تفوق معرفة أيّ فرد مؤرّخ. في الواقع تتجاوز ما يمكن لأيّ شخص تعلمه في فترة حياة واحدة.

لحسن الحظّ، لم اضطر الى العمل بمفردي. منذ ما يقرب من قرن الآن، صقل المؤرخون حرفة الإنضباط ووسّعوا تغطيتها بحيث تسمح لنا بفهم دقيق لآخر الألفية. لقد اعتمدت على ذلك بمجموعة غنيّة من خلال قراءة عدة آلاف من المقالات ومقتطفات الكتب المركّزة على مدى قرون وقارات خارج تخصّصي الضيّق كمؤرخ لجنوب شرق آسيا الحديثة. خرجت مُعجبا بكلتي القاشتين؛ التركيز الشامل لتاريخ السرد، الذي يجعله في رأيي، ملك العلوم الإجتماعية، واصبحت مقتنعا بأنّ فهمنا من أيّة مشكلة معاصرة تقريبا، بغضّ النظر عن مدى إعادة معالجتها على ما يبدو أو مستعصية على الحلّ، يمكن إثراتها من منظور تاريخي.

تكمن وراء هذا الإيمان بالقوة التحليلية الإستثنائية للتاريخ دراسة محاولة استخدام الماضي كمنشور لفهم الحاضر أو التكهن بالمستقبل. لكن التحذير في محله على الفور. لقد انحسر الحاضر بدرجة كافية ليُصبح من الماضي، كما لايستطيع معظم المؤرخين اخبارنا فقط بما حدث، ولكن لماذا حدث بهذه الطريقة بالضبط. حتى وإنّ المؤرخين الآخرين يجادلون حول هذه الإستنتاجات، كما تعوّدوا على القيام بذلك ولا يزال يتعيّن علينا الإعتراف بأنّ العمل المعني قد قدّم البصيرة أو الفهم. ومع ذلك فإن استخدام المؤرخين للماضي بقصد التنبؤ بالمستقبل سجلّ مطوّل من التوقعات الخاطئة بشكل واضح. وإذ أضع في اعتباري هذا السجل الكئيب، حيث أتتبّع الإتجاهات الرئيسية من الماضي وحتى الحاضر وفي المستقبل، حاولت تجنّب المزالق الأكثر وضوحا عن طريق التقشّف بشكل وثيق بعلم المناخ المنشور. آمل أن يتعمّق هذا النهج بفهمنا لهذه التجربة العميقة المشتركة.

مع احتمال حدوث ظاهرة الإحتباس الحراري، التي لا رجعة فيها والتي تؤثر بقوّة لا يمكن إنكارها، بدا لي هذا التخمين فرصة تستحق الأخذ بنظر

الإعتبار. على الرغم من مخاطر الخطأ، ما زلنا بحاجة الى طريقة لتطبيقنا بشكل غير عادي غنية بالمعرفة التاريخية للمستقبل ومحاولة فهمنا للخيارات الصعبة وعواقبها المحتملة. ومع ذلك، فإنّ إستنتاجاتي حول المستقبل بالضرورة تخمينية بشكل واضح.

هناك تحذير آخر مطلوب أيضا. هذا عمل يشمل سبعة قرون، وهي فترة شاسعة من تاريخ البشرية ولمسات بدرجات متفاوتة لما يزيد عن قصص عشر امبراطوريات حديثة، لكلّ منها كادر متخصص من المهنيين. أنا مؤرخ لإحدى تلك الإمبراطوريات وإحدى تلك الفترات. من الواضح أنّ المتخصصين سيجدون ثغرات في بعض تفاصيل هذه الدراسة. بالفعل، أعترف باحتمال وجود اخطاء في دقة الحقائق أو التفسير واعتذر عنها جميعا. ولكن بمعنى أوسع، فإنّ مثل هذه الإخفاقات متأصلة في طبيعة العمل، الذي يكمن منطقه في اكتساحه الواسع عبر الفترات والإمبراطوريات في محاولة لتمييز الديناميكيات الأعمق للتغيير عبر القرون. وهذا، كما أجادل، المبرّر النهائي لاستمرار وجود نظام التاريخ القديم في الأكاديميات الحديثة.

الإعتراف الأخير هو أنّه على الرغم من أنّ المؤرخين يطمحون الى إعادة سرد خالدة للماضي، فنحن جميعا نتاج وقتنا الخاصّ، وبطريقة ما نعيد صياغة الماضي من منظور حاضرنا. في حالتي، أكتب على اعتاب آمل أن تكون الفترة تحوّلا في القوّة العالمية لواشنطن وهي التي شحذت تحليلي وتركيزي، بما يسمح لي بالفوز من خلال الإرتباك المستمرّ للإمبراطورية وانحدارها وتحديد شكل اكثر ديمومة من القوّة العالمية يستجيب لطلب العالم. سمحت لي الكتابة في وقت يهدّد فيه تغيّر المناخ عالمنا المنظم، أن أنظر الى الوراء على مدى السبعمائة عام الماضية لأرى ما هو متواز في لحظات كانت فيها العواصف الدورية من انواع مختلفة تظهر بنفس القوّة ممّا خلق أو دمّر الأنظمة العالمية السابقة.

سيكتب المؤرخون بعد جيل أو جيلين من منظور وقت آخر. ومما لا شك فيه أن نرى هذا الماضي بشكل مختلف. لكنّ الوقت الحالي بكلّ ما فيه من القيود، هو ما جعل هذا الكتاب محاولتي للنظر الى الوراء في الماضي للتعرّف على الإتجاهات الأساسية والأعمق، التي شكلت الحاضر، وربّما تؤثر على مستقبلنا بشكل جيّد.

ألفرَد دبليو مَكّوي

مادِسُن- وِسكونسُن

التسلسل الزمني للأحداث

النظم العالمية بين 1300 لغاية 2300

العصر الآيبيري

1300 إكتشاف ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوي مستقر عند 257 جزء في المليون.

1347 ظهور جائحة الموت الأسود في أوروبا وموت 60٪ من مجموع السكان.

1415 البرتغال تغامر في الخارج وتستولي على ميناء سبتة في شمال افريقيا وتلبح المسلمين.

1441 وصول سفن برتغالية قادمة من الصحراء الغربية وعلى متونها مخطوفون من قبائل افريقيا.

1453 إحتلت الإمبراطورية العثمانية مدينة القسطنطينية منهية الإمبراطورية البيزنطينية.

1455 البابا يمنح البرتغال الحق في غزو افريقيا واستعباد الأفارقة.

1456 البرتغال تبني أوّل ميناء محصّن (فيتوريا) في مدينة آرگين في موريتانيا في غرب افريقيا.

1469 زواج الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة من فرديناند ملك أرگون واندماج المملكتين معا.

1488 المستكشفون البرتغاليون يصلون الى رأس الرجاء الصالح.

1493 عودة كريستوفر كولومبُس من رحلته الأولى الى العالم الجديد.

1494 وقعت إسبانيا والبرتغال على معاهدة توردسيلاس Tordesillas، التي قسمت العالم خارج أوروبا.

1510 أسطول برتغالي يستولي على گوا بالهند كعاصمة لإمبراطوريتهم الأسيوية.

1511 في سانتو دومنگو، يدين الراهب الإسباني مونتيسينوس Montesinos استعباد الهنود الحُمر.

1520 الفاتح الإسباني هرمَن كورتيز Hernán Cortés يهزم إمبراطورية الأزتك ويحتلّ مكسيكو سيتي.

1532 الفاتح الإسباني فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizarro يستولي على إمبراطور الإنكا Inca في كخاماركا في پِرّو.

1545 إفتتحت إسبانيا أكبر منجم للفضّة في العالم في پُوسي في بوليفيا.

1570 إسطول الرابطة المقدّسة المسيحية يُقهر الأسطول العثماني في ليبانتو في اليونان.

1578 قوات مسلمة تذبح ملك البرتغال وأرستقراطية وقادة جيش البلاد في المغرب.

1581 أعلنت سبع مقاطعات متحدة في هولندا إستقلالها عن إسپانيا.

1588 البحرية الإسبانية تفقد نصف اسطولها في غزو فاشل لإنكلترا.

1602 تمّ تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية كأوّل شركة عالمية كبرى.

1618 بدأت حرب الثلاثين عاما في أوروبا.

1648 سلام وستفاليا Westphalia ينهي تلك الحرب.

1689 تشريع قانون الحقوق المدنية في إنكلترا لحماية الحريات الأساسية لجميع الرعايا.

1764 هزمت شركة الهند الشرقية البريطانية امبراطورية المغول في بوكسار شمال شرق الهند.

1771 إفتتح ريتشرد اركرايت أوّل مصنع نسيج في العالم في دربشر في إنكلترا.

1784 قام المهندس الأسكتلندي جيمس واث بتصميم المحرّك البخاري.

1791 بدأت ثورة العبيد في مستعمرة هيتي الفرنسية.

1793 إلي ويتني يخترع محلج القطن. بداية تصنيع القطن الأمريكي على المستوى العالمي التنافسي باستخدام العبيد الأفارقة.

1804 تتويج نابليون إمبراطورا لفرنسا.

1805 البحرية البريطانية تهزم الإسطول الفرنسي/ الإسباني في خليج ترافلگر Cape Trafalgar في المياه الإسبانية.

العصر الإمبراطوري البريطاني

1807 البرلمان البريطاني يحظر تجارة الرقيق.

1813 هزيمة نابليون في معركة لايبزگ في ألمانيا وإرساله للمنفى.

1815 مؤتمر فينا يُنهي الحروب النابليونية.

1833 بريطانيا تحرّر 775 ألفا من العبيد في جزر الهند الغربية مقابل دفع مبلغ 20 مليون جنيها إسترلينيا لمالكيهم.

1857 تمرّد القوات الهندية يضع نهاية لشركة الهند الشرقية ويبدأ الحكم البريطاني المُباشر للبلاد.

1859 حفر أوّل بئر نفط تجاري في العالم في منطقة تيتوسڤل بولاية بنسلفنيا في الولايات المتحدة.

1879 بدأ هنري مورتُن ستانلي الإستكشافات للمطالبة بالكونكو لصالح الملك البلجيكي ليو بولد.

1880 وجود غاز ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوّي بمقدار 280 جزء في المليون، الذي اعتُبِر خطّ الأساس لما قبل "بروز العالم الصناعي".

1882 توماس أديسُن يبني شبكة كهربائية تعمل بالفحم في منطقة مانهاتن السفلى في مدينة نيو يورك.

1885 مؤتمر برلين يقسّم إفريقيا بين الإمبراطوريات الأوروبيّة المُتنافسة.

1896 توقّع العالم الفيزيائي سڤانت آرينيُس Svante Arrhenius أنّ ارتفاع انبعاثات ثاني أوكسيد الكاربون سيؤدي الى تدفئة مناخ القطب الشمالي.

1898 استخدمت القوات البريطانية رشاشات مكسيم لقتل 10800 جهادي مسلم في السودان.

1899 بدأ البريطانيون هزيمة مستوطني البوير في جنوب أفريقيا بحبس جماعي للمدنيين.

1900 عشر إمبراطوريات حكمت 146 مستعمرة غطّت حوالي 40٪ من الكرة الأرضية وثلث ساكنيها من البشر.

1906 أطلقت بريطانيا HMS Dreadnought، وهي أول سفينة حربية في العالم.

1914 بدأت الحرب العالمية الأولى وسرعان ما تحولت الى طريق مسدود باستخدام حرب الخنادق القاتلة.

1916 في معركة جوتلاند، هزمت البحرية البريطانية الأسطول الألماني وحافظت على أمنها الغذائي ضدّ الحصار.

1919 انتهاء الحرب العالمية الأولى، والمنتصرون يتقاسمون إمبراطوريات أعدائهم في مؤتمر السلام في فرساي Peace Conference Versailles

1927 هزم الأسبان الثوار الأمازيغ في شمال افريقيا عن طريق قصفهم بالغازات السامّة.

1935 تختبر الولايات المتحدة B-17 Flying Fortress، وهي أوّل قاذفة فعالة طويلة المدى في سلاحها الجوي.

1937 غزا الزعيم الإيطالي بنيتو موسوليني إثيوبيا مستخدما غاز الخردل ضدّ القوات المحلية والمدنيين.

1940 إحتلت ألمانيا النازية فرنسا، لكنّها خسرت حربها الجوية في سماء بريطانيا.

1941 هاجمت القوات الإمبراطورية اليابانية هواي والفيلبين ومالايا.

1943 ألمانيا النازية تتعرّض لهزيمة ساحقة في معركة ستالينكراد في الإتحاد السوفيتي.

النظام العالمي لواشنطن

1944 أقامت دول الحلفاء نظاما اقتصاديا دوليًا في مؤتمر برايتن وودز في مقاطعة نو هامبشر في بريطانيا.

1945 إعتماد ميثاق الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو واليابان تستسلم بعد اسقاط القنابل الذرية على اراضيها من قبل الولايات المتحدة.

1947 تشكيل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لمواجهة الإتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة.

1948 الجمعية العامة للأمم المتحدة توافق على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

1949 أسست الولايات المتحدة وأوروبا الغربية منظمة حلف شمال الأطلسي.

1953 إنقلاب برعاية وكالة المخابرات المركزية يطيح برئيس الوزراء المُنتخب في إيران ويعيد الشاه الى عرشه.

1954 البحرية الأمريكية تطلق غواصة USS Nautilus، وهي أول سفينة تعمل بالطاقة النووية في العالم.

1956 غزت بريطانيا وفرنسا (ومعهما إسرائيل – المترجم) منطقة قناة السويس، وانسحبت مهزومة.

1958 ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوي يصل الى 316 جزء في المليون، مرتفعا من 280 جزء سُجّل في عام 1880.

1960 المنتجات البترولية (النفط والغاز الطبيعي) تجاوزت الفحم كمصدر رئيسي في إمدادات الطاقة للولايات المتحدة.

1961 إنتهى غزو وكالة المخابرات الأمريكية لكوبا في منطقة خليج الخنازير بهزيمة مُذلة.

1962 فرنسا تتفاوض لأنهاء الحرب الجزائرية، وتحرّر 14 دولة افريقية.

1964 بدأت واشنطن في تصعيد تدخّلها العسكري في حرب فيتنام.

1965 جنرال مدعوم من الولايات المتحدة يستولي على السلطة في إندونيسيا ومقتل مليون بتهمة الشيوعية.

1966 أطلقت الولايات المتحدة أوّل نظام اتصالات دفاعية عبر الأقمار الصناعية في العالم.

1972 بعد تكبّد 58000 قتيلا، الولايات المتحدة تسحب قواتها المهزومة من جنوب فيتنام.

1973 انضمام بريطانيا الى الإتحاد الأوروبي بعد تحرّر آخر مستعمراتها الرئيسية.

1979 وكالة المخابرات الأمريكية تبدأ حربا سرية ضدّ الإحتلال السوفيتي لأفغانستان.

1989 القوات السوفيتية تنسحب من أفغانستان بعد تحمّل خسائر لا تطاق.

1991 بعد تفكك الإتحاد السوفيتي، اصبحت الولايات المتحدة القوّة العظمى الوحيدة في العالم.

2001 الولايات المتحدة تطلق عملية سرية لوكالة المخابرات المركزية للإطاحة بحكومة طالبان في افغانستان.

2002 الصين تحتفل بعامها الأوّل كعضو في منظمة التجارة العالمية.

2003 غزت واشنطن العراق وبدأت تسع سنوات من الإحتلال.

2013 بكين تطلق مبادرة الحزام وطريق الحرير بقيمة ترليون دولارا لتطوير أوراسيا.

2014 بدأت الصين في التجريف لإنشاء قواعد عسكرية على الجزر في بحر الصين الجنوبي.

2015 دول العالم تعتمد إتفاقية باريس للحدّ من تغيّر المناخ.

2016 فوز الديماغوگيين الشعبويين المناهضين للعولمة بمناصب في جميع انحاء العالم، ثم انتخاب دونلد ترامپ رئيسا للولايات المتحدة.

2017 الولايات المتحدة تنسحب من إتفاقية باريس للمناخ.

2018 يصل ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوي الى 410 جزء في المليون.

2019 بكين تطلق Shandong كأول حاملة طائرات صينية الصنع لتنظم الى ترساناتها العسكرية.

2020 الصين تكمل النظام الثاني للإتصالات العالمية في مجال الأقمار الإصطناعية.

2021 الولايات المتحدة تنسحب من افغانستان دون قيد أو شرط مع اطلاق متمرّدي طالبان من الأسر لتهديد المدن والأرياف.

القرن الحادي والعشرون وما بعده

2024 الصين تنهي شبكة سكك الحديد عالية السرعة بطول 24000 ميلا.

2027 استثمار بكين في مبادرة الحزام وطريق الحرير يصل إلى 1.3 ترليون دولارا.

2030 يصل الناتج الإقتصادي الصيني الى 36 ترليون دولارا، وهذا أكبر بنسبة 40٪ منه في أمريكا.

2034 لأوّل مرّة في تاريخ الولايات المتحدة، يفوق عدد الأشخاص فوق سنّ الخامسة والستين عدد من هم دون الثامنة عشر.

2040 يصل متوسط درجة الحرارة العالمية الى 1.5 درجة مئوية أعلى من مستويات ما قبل الثورة الصناعية.

2049 الإنفاق على الرعاية الإجتماعية في الولايات المتحدة للمسنّين يصل الى نسبة 50٪ من دخل الإنفاق الفدرالي.

2050 مع اقتراب ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوّي من 550 جزء في المليون، يرتفع مستوى سطح البحر فيُحدث فيضانات تغرق شنگهاي وسايگون ومومبي وبانكوك.

2060 يصل متوسط درجة الحرارة العالمية الى 3.0 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الثورة الصناعية.

2070 يتعرّض شمال الصين وشمال الهند الى موجات حرارية قاتلة لمن ليس لديهم تكييف.

2100 يصل متوسط درجة الحرارة العالمية الى 5.0 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الثورة الصناعية.

2200 يرفع الإحتباس الحراري مستوى سطح البحر بمقدار سبعة أقدام.

2300 ترتفع درجة الحرارة الى 9.0 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الثورة الصناعية، فيرتفع مستوى سطح البحر بمقدار ثمانية عشر قدما.

الفصل الأوّل

إمبراطوريات ونظم عالمية

عندما ضربت عقارب الساعة مشيرة الى منتصف الليل في رأس السنة الجديدة لعام 2050، كان هناك سبب ضئيل للاحتفال. بطبيعة الحال، كان هناك الخبز المحمّص وتبادل القبلات في الشقق الشاهقة المريحة مكيّفة الهواء، التي يمتلكها الاثرياء. لكنّه بالنسبة لمعظم البشر، كان الأمر كيوم آخر من الشدائد القريبة من البؤس ومحنة يائسة خاسرة في كثير من الأحيان وكفاح للحصول على الطعام والماء والمأوى والأمان.

بعد أن جرفت العواصف العاتية الحواجز الساحلية، التي اقيمت بمستوى هائل من التكلفة، كان منسوب مياه البحر يغمر وسط المدن الكبرى، التي كانت تأوي أكثر من 100 مليون شخصا. لقد غمرت المياه شوارع الإسكندرية وبانكوك ومومبي وسايگون وشنگهاي لعدة اقدام من مياه البحر، التي تلوّثت بمياه أنابيب مجاري الصرف الصحي، وتقصير خطوط الكهرباء، ممّا جعل تلك المدن غير صالحة للسكن. إنّ المناطق المنخفضة مثل دلتا نهر ميكونگ ودلتا النيل وساحل بَنگلادَش قد غرقت أو ستغرق تحت امواج شديدة الإرتفاع ممّا أدّى الى تشريد ملايين الأسر الزراعية. كانت الأمواج لا هوادة فيها تلتهم الشواطئ في جميع انحاء العالم وتضع القرى والبلدات والمدن في دوائر الخطر.[1]

في كلّ صيف، كانت درجات الحرارة في خطوط العرض المدارية في جميع انحاء العالم ترتفع في كثير من الأحيان وتبقى أعلى بكثير من 100 درجة فهرنهايت (38 درجة مئوية) لأسابيع في كلّ مرة. الأراضي الزراعية في إفريقيا وآسيا تضيع بسبب الجفاف والتصحّر بعد أن كانت مصدرا أساسيا لإنتاج الحبوب، وهو الأمر الذي لا يمكن لفقراء العالم أن يتحمّلوه بشكل متزايد. ومع ارتفاع درجة حرارة الأرض بسرعة، كافحت المجتمعات الساحلية للعثور على الأسماك، التي كانت ذات يوم المصدر الرئيسي للبروتين. كما أنّ تغيّر المناخ يُسبّب هجرة 140 مليون شخصا كلاجئين من إفريقيا وأمريكا اللاتينية وجنوب آسيا، حيث ملأوا القوارب والسفن المنخورة أو ساروا برّا في بحث يائس عن الطعام والمأوى، في حين تغلق الدول الثرية في جميع انحاء العالم حدودها في وجوههم وتترك السفن الملأى بالناس تجوب البحار وتدفع حشود اللاجئين بعيدا عن حدودها بالغاز المُسيل للدموع وإطلاق النار.[2]

ومع ذلك، حتى هذه البلدان المضيّفة المتردّدة لم تكن هي نفسها محصّنة ضدّ المعاناة. في الولايات المتحدة، كانت هناك حرارة لا تُطاق وحرائق غابات لا يمكن السيطرة عليها وطقس لا يمكن التنبؤ به وجوع لا ينتهي. تضرب الأعاصير القويّة السواحل الشرقية للبلاد وخلجانها كلّ صيف، ممّا أجبر شركات التأمين على إلغاء تغطية الملايين من اصحاب المنازل. قامت كلّ من نيويورك وبوسطن وسان فرانسيسكو ببناء جدران بحريّة ضخمة للنجاة من العواصف، ولكنّ الحكومة الفدرالية قد تخلت عن ميامي ونيو أورلينز بسبب ارتفاع المدّ والجزر بلا هوادة.[3]

لقد أدّى حرّ الصيف اللاهب والعواصف المدمّرة الى خفض سلال المحاصيل الزراعية في مناطق الغرب والجنوب للبلاد بنسبة 10% الى 20%، ممّا تسبّب في ارتفاع اسعار المواد الغذائية وجلب المزيد من الجوع لفقراء الأمّة. عانت المدن في جميع انحاء امريكا من شهر أو شهرين من الطقس الحار الذي وصل الى درجة

90 فهرنهايت. تحمّلت لوس أنجلس وفينكس بانتظام أسابيع من درجة الحرارة فوق 120 درجة فهرنهايت (49 درجة مئوية). كما دمّرت حرائق الغابات الهائلة على امتداد الغرب الأمريكي عشرات البلدات وآلاف المنازل كلّ صيف.[4]

إنّ مثل هذه المعاناة الواسعة النطاق لن تأتي من كارثة غير متوقعة ولكن من خلل بسيط ومفهوم فاعل في العناصر الأساسية، التي تحافظ على حياة الإنسان؛ الهواء والأرض والنار والماء. يسبّب ثاني أوكسيد الكاربون ارتفاع انبعاثات الوقود الاحفوري الى 550 جزء غير مُستدام لكلّ مليون بحلول عام 2050. وسيرتفع متوسط درجات حرارة العالم بحلول ذلك العام بمقدار 4.2 درجة فهرنهايت (2.3 درجة مئوية. سيؤدّي تغيّر المناخ الى تدهور نوعية الحياة في كلّ بلد وقارة على الأرض بطرق يصعب فهمها. ومع ارتفاع درجة حرارة البحار وانحسار التربة الصقيعية، وجفاف الغابات المطيرة الرطبة في افريقيا والأمزون وفي السّفانا، ستجلب العقود الأخيرة من القرن الحادي والعشرين مزيدا من الظروف المتعاكسة.[5]

هذه الرؤية الكئيبة للحياة على الأرض في منتصف هذا القرن ليست وليدة هروب للخيال الأدبي من جهتي، ولكن من منشور بيئي لعالم في الاحتباس الحراري. لطالما توقعت مثل هذه التقارير المليئة بالبيانات عن المستقبل المضطرب للبشرية. على الرغم من تأثير تغيّر المناخ لا يزال النظام الحالي للحوكمة العالمية غير متأكّد، ويمكننا جميعا رؤية علامات مقلقة للأزمة البيئية الآن في العالم من حولنا؛ فصول الصيف اللاهبة والعواصف القوية والفيضانات المتزايدة وحرائق الغابات المتفاقمة.

الصيف اللاهب لعام 2019–2020

في الواقع كان العالم مشتعلا بالفعل في صيف عام 2019. بلغت درجات الحرارة في جميع انحاء العالم أرقاما قياسية حارقة وشبّت الحرائق المدمّرة في الغابات في ست قارات. بعد أن شهدت ولاية كاليفورنيا ما سمّته الجهات

الرسمية أكثر حرائق الغابات فتكا وتدميرا في تاريخ الولاية في عامي 2017 و2018، تسبب موسم الحريق في عام 2019 في إضرام 7860 حريقا وغطّت النيران 260 ألف فدّانا من اراضي الغابات. وممّا زاد الطين بلة سرعة الرياح القوية التي تجاوزت أكثر من 100 ميلا في الساعة في شمال كاليفورنيا وانخفضت الرطوبة النسبية الى حالة جفاف بلغت حوالي 1٪. أوقفت شركات الخدمة الكهربائية عملها لتجنّب إشعال المزيد من الحرائق في البلدات والمدن التي غطّاها الظلام. لقدّ أطال تغيّر المناخ موسم حرائق الولاية 75 يوما آخر. لذا لم تكن حرائق الغابات هذه حدثا دوريّا، ومن المرجّح أن ينحسر في أيّ وقت في المستقبل المنظور.[6]

في الوقت نفسه، شهدت منطقة الأمَزون في أمريكا الجنوبية أسوأ حالاتها من اندلاع حرائق الغابات خلال فترة أحد عشر عاما. وفقا لوكالة الفضاء البرازيلية، فإنّ زيادة عدد حرائق الغابات بلغت 30٪ وتمثلت بحوالي 89178 حريقا دمّرت 2.4 مليون فدانا. وهذه مساحة تفوق مساحة أكبر متنزّه في امريكا وهو متنزّه يَلوستّون الوطني. منذ عام 2004 فقدت ولاية بارا البرازيلية وحدها غابات تغطي مساحة قدرها 15 مليون فدّانا، وهي مساحة بقدر حجم جزيرتي آيرلندا أو شريلانكا. وهذا يهدّد البقاء طويل الأمد لغابات الأمَزون المطيرة الشاسعة.[7]

وحين انقلبت الأرض على محورها وجاء الصيف الى جنوب نصف الكرة الأرضية حاملا معه درجات الحرارة التي بلغت 120 درجة فهرنهايت (49 درجة مئوية) في مدينة سدني، تسبّب هذا في اندلاع عواصف من حرائق الغابات في جميع انحاء أستراليا. في شهر تشرين الأول ضرب البرق جبل جوسبّيرز بولاية نو ساوثوَيلز، ممّا أدّى الى اندلاع حريق أتى على مليوني فدانا قبل أن تكتمل السيطرة عليه. وسرعان ما اجتاحت عشرات من الحرائق المماثلة جنوب شرق البلاد المكتظّ بالسكان، فدمّرت ستة عشر مليون فدانا من الغابات على مدى الأشهر الأربعة التالية. على الرغم من أنّ الحكومة حشدت ثلاثة آلاف من جنود

الإحتياط للمساعدة في محاربة النيران، لكنّه قُتِل 34 شخصا ودُمّر أكثر من 2700 منزلا وتفقت مئات الملايين من الحيوانات البريّة. غطّت سحب الدخان سماوات مدن كانبرّا وملبُرن وسدني، وشكلت عمودا عملاقا بحجم الولايات المتحدة حلق حول العالم ولوّث الهواء فوق المدن في نوزيلاندا ووصل الى مدن بعيدة في أمريكا الجنوبية.[8]

في شهر كانون الأوّل من ذلك العام وبينما كان العالم لا يزال يحترق، عقدت الأمم المتحدة مؤتمر المناخ في مدريد واجتمع مندوبو ما يقرب من مئتي دولة بتفويض لاعتماد ضوابط صارمة للإنبعاثات الحرارية والتحكّم في أيّة زيادة في متوسط درجة حرارة الكرة الأرضية لأقلّ من 1.5 درجة مئوية، وهو الهدف الذي حدّدته الأمم المتحدة قبل اربع سنوات في مؤتمر باريس للسيطرة على المناخ. ذكر الأمين العام للأمم المتحدة أنتونيو گوتّريز في خطاب الإفتتاح، "القرارات التي نتخذها هنا ستُحدّد في النهاية ما إذا اخترنا طريق الأمل أو طريق الإستسلام. لدينا الأدوات ولدينا العلم ولدينا الموارد. دعونا نظهر أنّ لدينا الإرادة السياسية التي تطالب بها شعوب الأرض قاطبة".[9]

لسوء الحظّ، كانت تلك الإرادة السياسية مفقودة للأسف. على الرغم من اليأس والجهود المتأخرة لإصلاح الإتفاق بشأن الإنبعاثات، فشل المؤتمر بشكل غير مفاجئ بسبب معارضة الدول القليلة جدًا المسؤولة عن انتاج الكثير من غازات الدفيئة حول العالم. ذكرت صحيفة الوشنطن پوست أنّ ممثلي الدول الأصغر اتّهموا أستراليا والبرازيل والولايات المتحدة، وهي الأماكن ذاتها التي احترقت فيها الغابات، "بعرقلة أجزاء رئيسية من المفاوضات وتقويض روح إتفاقية باريس للمناخ وأهدافها".[10]

لم يقتصر الأمر على إصابة الدبلوماسيين الذي يمثلون البلدان الثلاثة في المؤتمربالشلل الفكري، بل قاموا ايضا بطلب من السياسيين المشهورين بمعارضتهم الشديدة لعلوم البيئة ولإيمانهم العميق في إنكار تغيّر المناخ. إنّه

أفضل طريقة للدفاع عن السيادة الوطنية وحماية النظام العالمي الذي طالما أكّد على ازدهار بلدانهم.

بالنظر الى أنّ أستراليا تنتج 37٪ من صادرات الفحم العالمية، فإنّ للحكومة المحافظة حصة قويّة في اعتماد الإقتصاد العالمي على وقود الكاربون. يذهب كلّ هذا الفحم تقريبا الى الصين، ممّا يضيف الى زيادة انبعاث ثاني أوكسيد الكاربون ويجعل هذه الدولة الأسيوية المصدر الرائد في العالم لإطلاق غازات الإحتباس الحراري. لطالما كان رئيس الوزراء سكّوت موريشُن عدوانيا مدافعا عن صناعة الفحم الأسترالية، خاصّة شهرة ظهوره أمام البرلمان خلال موجة الحرّ الشديدة التي تلوح بتكتّل أسود كثيف وقال بهدوء، "هذا فحم، لا تخافوا، لا تخافوا!" في شهر كانون الأول من عام 2019 نفى أيّة صلة بين جحيم بخرّب أرض بلاده وتغيّر المناخ قائلا، "هناك بعض الحرائق، التي اندلعت للتو نتيجة الإهمال وكان البعض منها نتيجة للحرق المتعمّد المباشر، وكان الكثير منها ناتج عن ضربات البرق في المناطق الجافة." في الوقت نفسه، شجب نائب رئيس الوزراء جهود نشطاء البيئة الذين ربطوا الحرائق بتغيّر المناخ وصناعة الفحم. وأطلق على تلك الإدّعاءات بأنّها، "هذيان بعض المستنيرين الذين ايقظوا مشاعر خضرة العاصمة."[11]

بينما كانت غابات الأمَزون تحترق، ألقى الرئيس الشعبوي خافير بولسِنَارو باللوم على دعاة حماية البيئة إذ قال، "فيما يتعلق بالحرائق في منطقة الأمَزون، لديّ انطباع بأنّه كان للمنظمات غير الحكومية دور فيها، لأنّهم طلبوا المال." وحين اصدرت وكالة الفضاء البرازيلية بيانات الأقمار الإصطناعية، التي اظهرت ارتفاعا حادًا في عمليات إزالة غابات الأمَزون، وصف بولسِنَارو التقرير بأنّه "كذبة" واطلق حملة تهجّم على العالم الفيزيائي الذي ترأس الوكالة. وأدان البابا فرَنسيس "العقلية العمياء المُدمّرة لأولئك الذين يقفون وراء تدمير الغابات المطيرة." لكنّ بولسِنَارو ردّ خلال خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في

شـهر تشـرين الأول مـن ذلـك العـام قـائلاً،"البرازيـل عـذراء يريـد المنحرفـون الأجانب النيل منها" وأصرّ على أنّ تلك الغابات "لم تُمسّ عمليًا" وهاجم وسائل الإعلام الكاذبة والمثيرة لنشر اخبار الحرائق، ورفض أن تكون غابات الأمزون المطيرة بأنّها "تراث للبشرية"، [12] a Heritage of Humankind.

ومع ذلك، تفوّق دونلد ترامب على الرئيس البرازيلي في إنكاره الحازم لعلم المناخ. في عام 2012، غرّد المواطن ترامب قائلاً، "تمّ اطلاق مفهوم الإحتباس الحراري من قِبل الصينيين من أجل الحدّ من التنافس مع الولايات المتحدة في التصنيع. خلال الحملة الرئاسية لعام 2016 وصفها المرشح ترامب بأنّها "خدعة". وفي شهر حزيران من عام 2017، أعلن الرئيس المُنتخب حديثا انسحابه من إتفاقية باريس حول المناخ، التي رعتها الأمم المتحدة. كان الإدّعاء بأنّها "تضرّ بالولايات المتحدة لصالح الدول الأخرى." وحين أصدرت إدارته التقييم الوطني للمناخ في شهر تشرين الثاني من عام 2018، بما في ذلك التحذير الجسيم بشأن مخاطر تغيّر المناخ، قال ترامب إنّ ارتفاع غازات الإحتباس الحراري "أمر لا أصدّقه." ولغرض دعم آرائه هذه، ضاعف فريق البيت الأبيض من إلغاء كافة التدابير المُحتملة للتحكّم بالإنبعاثات المُعتمدة من قبل إدارة أوباما. [13]

تحدّث ترامب الى قادة العالم في شهر كانون الثاني من عام 2020 في مؤتمر دافُس في سويسرا وقال بابتسامة مدروسة للمديرين التنفيذيين للشركات الذين احتلوا المقاعد الأمامية، "علينا أن نرفض أنبياء الهلاك الدائمين وتنبوءاتهم حول نهاية العالم... أنّهم ورثة ثروة عرّافي الأمس الحمقى. لقد توقعوا أزمة اكتظاظ سكاني في الستينات ومجاعات جماعية في السبعينات ونهاية النفط في التسعينات." ثمّ صوّر نفسه على أنّه مخلّص مدافع عن النظام العالمي الحالي. أضاف قائلاً، "هؤلاء المُرعبون يطالبون دائما بنفس الشيء، القوّة المُطلقة للسيطرة وتحويل كلّ جانب من جوانب حياتنا. لن ندع أبدا الإشتراكيين الراديكاليين يدمّرون اقتصادنا ويدمّرون بلدنا ويقضون على حرّيتنا." [14]

وقع هجوم ترامب على علم المناخ اثناء الدخان المتصاعد نتيجة حرائق الصيف التي لا تزال مشتعلة في القسم الجنوبي من الكرة الأرضية، والتي خلفت خسائر بشرية تعدّ من أقسى المفارقات في التاريخ. من خلال إنكارهم الحازم لتغيّر المناخ، فإنّ زعماء أستراليا والبرازيل والولايات المتحدة كانوا يدمّرون النظام العالمي ذاته. كانوا على ما يبدو عازمين جدا على الدفاع عن آرائهم. وعلاوة على ذلك، هناك خطابهم الشعبوي وعدم حساسيتهم قصيرة النظر لخطورة اللحظة التاريخية، التي كان يتقاسمها معهم جيل صاعد من القادة السياسيين في جميع انحاء العالم.

في الولايات المتحدة، كانت النخب السياسية الليبرالية والمحافظة الجديدة متفقة على أنّ محور نيو يورك – واشنطن للقوة يجب أن يكون على رأس العالم، طالما أنّهم لا يتذكّرون كيف وصلوا الى مواقعهم. في عام 1945 عقب كارثة الحرب التي خلفت 70 مليون قتيلا وعددا لا يُحصى من المدن والبلدات والقرى المُدمّرة، قادت واشنطن العالم من خلال تشكيل نظام عالمي جديد في الحكم تجسّده الأمم المتحدة. لم يضمن ذلك هيمنة الولايات المتحدة فقط، ولكنه ايضا عزّز حقبة من السلام والإزدهار غير المسبوقين. ولكن مع سيطرة الشعبوية والقومية ومعاداة العولمة على الخطاب العام للبلاد بحدود عام 2010، كان من المدهش انّ عددا قليلا من من القادة الأمريكيين نهضوا للدفاع عن نظامهم العالمي عندما بدأ تسارع الإحتباس الحراري لإضعاف ذلك النظام الدولي. بدا الكثير غافلين عن مخاطر تغيّر المناخ والتزموا الصمت الى حدّ ما بعد انسحاب ترامب عام 2017 من إتفاقية المناخ للأمم المتحدة. خلال انتخابات الرئاسة عام 2020 أيّد مرشحو الحزب الديمقراطي بإخلاص علم المناخ. لكنّهم حصروا النقاش على مرّة واحدة سرعان ما نسيها اجتماع "مجلس المدينة" وظلّ التركيز على القضايا الداخلية لبقية وقت الحملة. في الواقع، في شهر شباط من عام 2020 وفي واحدة من أكثر النقاشات التمهيدية الديمقراطية،

لم يتمّ طرح سؤال واحد حول تغيّر المناخ. خلال المناظرات الرئاسية في ذلك الخريف، طرح مديرو المناظرة السؤال الأول حول تغيّر المناخ خلال 20 عاما الأخيرة. دفع هذا ترامب الى القاء اللوم في حرائق الغابات الكارثية في كاليفورنيا ليس بسبب الإحتباس الحراري بل على مستوى فشل الولاية في جرف أوراق الغابات. ووعد منافسه الديمقراطي بايدن بتخصيص 2 تريليون دولارا لخطة تحقيق صافي إنبعاثات صفرية بحلول عام 2050، مع الحفاظ بطريقة أو بأخرى على دور صناعة النفط والغاز.[15]

يحاول المواطنون العاديّون فهم مدى قوة تغيّر المناخ خلال العقود التالية، والسؤال الحقيقي ليس مستقبل الهيمنة الأمريكية العالمية ولكن مصير النظام العالمي الذي بنته واشنطن في ذروة قوتها بعد الحرب العالمية الثانية. منذ 75 عاما استندت الهيمنة العالمية على "إزدواجية دقيقة."[16] إنّ السياسة الواقعية القائمة على القواعد العسكرية في الخارج والإنقلابات السرية والتدخّلات العسكرية، قد تمّت موازنتها من قبل نظام عالمي ليبرالي مفاجئ، بالتعاون مع دول ذات سيادة واجتماع الأغنياء والفقراء في الأمم المتحدة لمناقشة مشاكل مثل تغيّر المناخ وحكم القانون الدولي الذي يكتم النزاعات المسلحة ومنظمة الصحة العالمية، التي عملت بشكل تعاوني لإنهاء الأوبئة وجهود التنمية التي قادها البنك الدولي والتي انتشلت ما يقرب من نصف البشرية[17] من الفقر المدقع بحلول عام 2020. ومع ذلك فإنّ واشنطن والعالم بأسره ظلّ يواجه سؤالا جوهريًا؛ هل يمكن لهذا النظام الدولي الليبرالي أن يستمرّ في التآكل لقوة الولايات المتحدة العالمية في ضوء الكوارث المحتملة لاحترار الكوكب؟

على الرغم من التحدّيات العديدة التي واجهتها السياسة الخارجية الأمريكية، ظلت النخب على ثقة تامة بأنّ النظام العالمي لواشنطن سيؤمن البقاء على قيد الحياة حتى كسوف الهيمنة العالمية للبلاد. في الواقع، كثير منهم راهنوا بسمعتهم على هذا الإقتراح القابل للنقاش. في شهر أيلول من عام 2018 جرى

اجتماع في فيلادلفيا حضرته حفيفة الشخصيات البارزة من القادة الأمريكيين، بمن فيهم بايدن ومستشارة الأمن القومي السابقة سوزن رايس ومستشار الأمن القومي السابق أيج آر مَكماستر. خلص الأخيران الى القول إنّ التحوّلات التكتونية Tectonic Shifts في النظام العالمي ومؤسساته ممكنة.[18] ولكنّ انتشار المُستبِدّين الشعبويين في جميع انحاء العالم وهجماتهم على الإقتصاد العالمي جعل عالِم السياسة في جامعة پرنستُن جون إيكِنبري أن يظلّ واثقا من أنّ النظام العالمي الأمريكي الصنع سيستمرّ لأنّ القضايا الدولية مثل تغيّر المناخ جعلت له وكشفت "رؤية حميدة من الترابط والتعاون الأكثر."[19] ويحذّر أكثر الى حدّ ما ذكر الرئيس المؤثر الذي خدم لفترة طويلة في مجلس العلاقات الخارجية، رِچَرد هاس في مقال صدر عام 2019 مفاده أنّه "لا يمكن استعادة نظام ما بعد الحرب الباردة" ولكن لا يزال بإمكان واشنطن "إستعادة سمعتها كلاعب جيّد" وبالتالي إنقاذ العالم من "الفوضى الأعمق" أو حتى "الإتجاهات التي تنذر بالكوارث."[20]

يبدو أنّ هؤلاء الخبراء يقولون إنّ تراجع القوة العالمية للولايات المتحدة كان في حدّ ذاته لا شيء خاصا. بعد كلّ ما جرى للبشرية في الأربعة آلاف سنة منذ تشكيل أوّل امبراطورية في الهلال الخصيب، فإنّ ما لا يقل عن مائتي امبراطورية ظهرت واصطدمت بالقوى الإمبريالية وانهارت في الوقت المناسب.[21] في القرن الماضي وحده سقطت 24 إمبراطورية حديثة وانهارت وازدهر العالم في اعقابها. لا يبدو أنّ النظام العالمي يومض حتى عندما كانت قوة عظمى أخرى في حقبة الحرب الباردة، وهي الإمبراطورية السوفيتية، قد تفكّكت في عام 1991 فتحرّرت "الجمهوريات" الخمسة عشر والأقمار السبعة التي دارت في الفلك السوفيتي لتصبح 22 دولة رأسمالية جديدة. إعتبرت واشنطن هذا الحدث التاريخي خطوة الى حدّ كبير. لم تجرِ احتفالات انتصار كبيرة كما في تقاليد روما القديمة كاقتياد الأسرى الروس بمذلّة وعرض كنوزهم المنهوبة في جادّة پَنسلڤينيا (حيث يقع البيت الأبيض). وبدلا من ذلك إشترى

مطوّر عقارات في مانهاتن قطعة من الخرسانة بطول 20 قدما من بقايا جدار برلين ليعرضها بالقرب من شارع ماديسُن، والتي بالكاد يلاحظها المتسوقون المشغولون.[22]

وبناء عليه، إذا لم يكن تدهور القوة العظمى الوحيدة للكوكب، ولنقل الإنهيار السوفيتي، ما يجعلنا نتساءل، هل سيتطلب الأمر تغيير النظام العالمي لواشنطن؟ أو كما فكّرت مرة واحدة بطريقة مختلفة قليلا لتلاشي القوة العالمية للولايات المتحدة، ما هو نوع الإرث الذي ستتركه، والى متى سيستمر هذا الإرث؟ لمعالجة مثل هذه الأسئلة المعقدة، من الضروري أن تنتقل الى التاريخ. من المسلم به أنّ التشبيهات دائما ما تكون ناقصة، ولكن الماضي يظلّ أفضل وسائلنا لفهم الحاضر وقابليتنا الوحيدة للحياة هي الدليل الى المستقبل.

بصرف النظر عن الدول وفوق ذلك الإمبراطوريّات، هناك مستوى أقلّ وضوحا وأكثر ديمومة للحوكمة العالمية؛ النظام العالمي. على الرغم ممّا طغى عليه من خلال صعود الإمبراطوريات وانهيارها، فقد لعب بشكل مفاجىء دورا مهما، نادرا ما تمّ التأكيد عليه في العلاقات الدولية. خلال الخمسة قرون الماضية ومن خلال طريقة هيكلة العلاقات بين الدول وتشكيل ثقافات الشعوب، التي تعيش داخلها، يمكن للأنظمة العالمية أن تدوم أكثر من الإمبراطوريات القويّة. تلك الأنظمة العالمية بدورها، تمّ تشكيلها تاريخيا والى حدّ كبير من خلال كيفية التعامل مع مفتاحين في القضايا السياسية، وهما حقوق الإنسان وسيادة الدولة. لأكثر من خمسمائة سنة وتغيّر تعريفات هاتين الناحيتين الصغيرتين في حياة البشر الواقعية، أنتج المجتمع تحوّلات زلزالية في النظام العالمي وظروف الحياة لكثير من البشر.

إنّ الأنظمة العالمية مندمجة بشكل أعمق في المجتمع أكثر ممّا قد تكون تصوّر. في الواقع، على مدى القرون الخمسة الماضية كان اقتلاعها من الجذور أمرا ضروريا نتجت عنه عاصفة كاملة من أقوى قوى التاريخ. إسقاط ذلك

الماضي في المستقبل، بجعل تغيّر المناخ يجمع الآن قوة مدمّرة كافية لشلّ النظام العالمي الليبرالي في واشنطن ويفتح فرصة أمام بكين، وهي من غير الليبراليين بالتأكيد. إذا فشلت تدابير التحكّم في الكاربون لمنع حدوث تلك الدوامة البيئية الوشيكة، ثمّ خسوف التيار، سيكوّن للنظام العالمي بلا شكّ عواقب وخيمة دائمة للكوكب والشعوب، تاركة إرث النظام العالمي لواشنطن شيئا يقرب من أهمية تلك الكتلة من خرسانة جدار برلين الموضوعة في شارع ماديسُن. لفهم الآثار المترتبة على هذه التغيّرات الوشيكة، نحن بحاجة لفهم طبيعة الأنظمة العالمية، ولا سيّما بشكل مدهش تأثيرها العميق.

طبيعة النظم العالمية

على الرغم من هالة قوتها المُذهلة، تميل الإمبراطوريات الى أن تكون سريعة الزوال، والمثل على ذلك إبداعات غزاة فردية من قبيل الأسكندر الأكبر أو نابوليون بونابرت، اللذين تلاشت امبراطوريتهما بسرعة بعد موت الأول وهزيمة الثاني. على النقيض من ذلك الأنظمة العالمية الأكثر تجذّرا ومرونة والتي تمّ إنشاؤها بفعل التقارب بين القوى الإقتصادية والأيديولوجية والجيوسياسية. من الناحية الظاهرية، إنّها تنطوي على اتفاقيات دبلوماسية بين أقوى الدول، والتي هي عادة بين أولئك الذين لديهم إمبراطوريات رسمية أو نفوذ دولي. تفتقر الأنظمة العالمية الى سيادة الدول والقوة الخام للإمبراطوريات، وهي اتفاقات واسعة بشكل أساسي حول العلاقات بين الدول القومية والشعوب، ممّا يُضفي عليها صفة غير مبلورة، بل ومراوغة أحيانا.

ومع ذلك وعلى المستوى الأعمق، تتشابك الأنظمة العالمية في الثقافات والتجارة وقيم المجتمعات التي لا حصر لها، وتؤثّر على اللغات التي يتحدثها الناس والقوانين التي تنظّم حياتهم والطرق التي يعملون بها وحتى طقوس العبادة والألعاب الرياضية. إنّ هذه الأنظمة منسوجة في نسيج الحضارة بأكملها، مع

القدرة على العيش بعد زوال الإمبراطوريّات التي شكّلتهم. إذا كانت العولمة الإقتصادية في القرنين المُنصرمين عملية، إذاً فإنّ النظام العالمي الحالي هو تاجها النهائي. للأنظمة العالمية قوة مرئية أقلّ بكثير من تلك التي تتمتّع بها الإمبراطوريّات، لكنّها أكثر انتشارا واستمرارية. إنّ إقتلاع مثل هذا النظام العالمي الراسخ يتطلب حدثا غير عادي يصل حدّ الكارثة. عبر امتداد القارات الخمس وستة قرون من الزمن، كانت هناك سلسلة من الكوارث، منها الأوبئة المدمّرة من عام 1350 حتى أزمة المناخ القادمة في عام 2050، انتجت سلسلة متتالية من صعود الإمبراطوريات والأنظمة العالمية الآخذة في التلاشي.

إذا ركّزنا على القرون الخمسة الماضية، يبدو أنّ انظمة عالمية جديدة تظهر عندما تتزامن عواصف الموت أو الدّمار مع بعضها البعض بشكل أبطأ وأعمق من التحوّل الإجتماعي لإزالة النظام القديم. منذ بداية عصر الإستكشافات في القرن الخامس عشر ظهرت حوالي 90 إمبراطورية كبرى وصغيرة جاءت وذهبت أدراج الرياح.[23] كانت هناك ثلاثة أنظمة عالمية فقط، كلها نشأت في الغرب، وهي الأيبيرية بعد عام 1494 وعهد الإمبراطورية البريطانية منذ عام 1815 وعالم واشنطن منذ عام 1945 لغاية عام 2030.

لقد حدث كلّ انتقال الى نظام عالمي جديد بشكل كبير بالتزامن مع كارثة مدمّرة مع تغيير اجتماعي كبير. الذي سبق عصر الإستكشاف الآيبيري مثلا، قرن من الأوبئة المعروفة مثل الطاعون الأسود، الذي قتل 60٪ من سكّان أوروبا والصين. كما أنّ تمزيق قيود النظام الإجتماعي في العصور الوسطى بصورة مماثلة قد آذن ببزوغ فجر الإمبراطورية البريطانية عندما خرّبت حروب نابليون وتزامنت مع ديناميكية الثورة الصناعية واطلاق العنان لقوة الطاقة البخارية التي تعمل بالفحم وبروز الحكم الإمبراطوري لتغيير وجه الكرة الأرضية. بعد الدّمار غير المسبوق للحرب العالمية الثانية، بدأت القيادة في واشنطن في إعادة بناء وإعادة ترتيب الكوكب المُتضرّر في شكل نظام العالم الحالي. بحلول منتصف

عقد القرن الحالي، إن لم يكن قبل ذلك، من المرجّح أنّ الإحترار الناجم عن انبعاثات الوقود الأحفوري، أن يساوي أو يتجاوز تلك الكوارث السابقة على النطاق العالمي من حيث "حجم الكارثة" مع إمكانية تعجيل كسوف النظام العالمي لواشنطن وصعود نظام بكين العالمي.[24]

إنّ مثل هذه الأنظمة العالمية ليست مجرّد تخيّلات المؤرّخين، الذين يحاولون لعقود أو قرون لاحقة، فرض منطقهم الخاصّ على الماضي الفوضوي. في كلّ حالة، تحاول القوى الإمبريالية العظمى في الوقت المعني إعادة ترتيب عوالم الأجيال القادمة من خلال الإتفاقيات الرسمية. والدليل على ذلك معاهدة تورديسيلّس Tordesillas عام 1494 ومؤتمر فيّنا عام 1815 ومؤتمر سان فرانسسكو لوضع مسودّة ميثاق الأمم المتحدة عام 1945. هل ينبغي على الصين أن تبرّ أمريكا كقوّة بارزة في العالم؟ من المُرجّح أن ينظر مؤرّخو المستقبل مرّة أخرى في مشروع الحزام وطريق الحرير، الذي جلب في عام 2017 ممثلين عن 130 دولة الى بكين، كبداية رسميّة للعصر الصيني.

بعد أسابيع فقط من عودة الملاح كرستوفر كولومبس من الأمريكتين في عام 1493، منح البابا إسبانيا جميع الأراضي الواقعة غرب خطّ وهمي، ثمّ رسم الخط أسفل منتصف المحيط الأطلسي وأكّد على ما قبل مطالبة البرتغال بالأراضي والبحار شرق ذلك الخط. والى حدّ كبير وافق الفاتيكن واعطى المملكتين الحقّ في الهيمنة على كافة الشعوب الأصلية في المناطق التي غزتاها أو استولتا عليها لتصبح مجالات عالمية للعبودية الدائمة. لتحديد تلك المواقع للخط بالضبط، اجتمع ممثلو هاتين القوّتين الآيبيريتّين لأشهر قليلة في مدينة إسبانيّة للتفاوض بشأن معاهدة تورديسيلّس المُشار اليها. لم تفعل سلطات البابا ذات الصلة ذلك فقط، بل قسّمت العالم خارج أوروبا بين هاتين المملكتين، لكنّها شكّلت أيضا أوّل نظام عالمي في التاريخ من خلال فرض نظام ديني يفصل بين المسيحيين و"الوثنيين"، والذي استمرّ من أجله ثلاثمائة سنة أخرى.

تمّ تشكيل النظام العالمي البريطاني لاحقا نتيجة مؤتمر فيّنا عام 1815، والذي كان من شأنه إعادة تقسيم أوروبا بعد هزيمة نابليون، وبعد مؤتمر برلين عام 1885، الذي قسّم القارة الأفريقية بين القوى الأوروبيّة على أساس تفوّقها العنصري المفترض. مع انهيار العصر الإمبراطوري البريطاني بعد حربين عالميّتين، كانت واشنطن الجديدة تشكّل النظام العالمي في مؤتمرين رئيسيين. عُقد الأوّل في برايتُن وودز في مقاطعة نو هامشِر البريطانية عام 1944، حين أنشأت 44 دولة حليفة تمويلا دوليّا للنظام الذي يجسّده البنك الدولي. وبعد عام اعتمدت 50 دولة ميثاق الأمم المتحدة في مؤتمر مدينة سان فرانسيسكو.

شكلت المعاهدات المنبثقة عن ذلكما المؤتمرين عوالم في اكثرها جوهرية طرق لصياغة مبادئ عالمية تهدف الى تحديد طبيعة الأمم وحقوق كافة البشر الذين يعيشون فيها. وعلى مدار نصف ألف عام تقريبا وتعاقب الأنظمة العالمية المهيمنة، جرى أيضا كما يبدو وكأنّه نقاش لا ينتهي الى حدّ كبير داخل تقاليد الغرب الفكرية حول طبيعة حقوق الإنسان وحدود سيادة الدولة.

في تقسيم العالم بين ملكين كاثوليكيين خلقت معاهدة Tordesillas والمراسيم البابوية الموازية شكلا واسعا من قوّة الدولة، التي يمكن أن تُسمّى السيادة الإمبراطورية. لا يمكن فقط أن تنشأ الإمبراطوريات باحتلال قارات بأكملها، ولكن أيضا بتوسيع سيادتها لتشمل المحيطات وفق قانون البحار المغلقة (*Mare Clausum*). وبموجب هذا المبدأ اكتسبت البرتغال السيادة على المحيط الهندي بينما طالبت إسبانيا بالمحيط الهادئ، وحين بدأ الهولنديون البروتستانت استكشاف المحيط الهندي بعد قرن من الزمن، رفضوا هذا المبدأ وأخذوا يجادلون من أجل "حريّة البحار"، وهي عقيدة جعلها البريطانيون لاحقا أساسا لعصرهم الإمبراطوري، في نفس الوقت، امتدّت سيادة واشنطن الى السماء وحتى في الفضاء. في تطوّر مثير للسخرية، هزّت الصين الصاعدة مؤخّرا النظام العالمي الحالي من خلال إحياء المبدأ الأيبيري الخاصّ وفق

(*Mare Clausum*) وطالبت بأن يكون البحر المجاور خاضعا لسيادتها.[25]

خلال القرون الخمسة التي تلت معاهدة Tordesillas، بدأت هذه الأشكال الممتدة لسيادة الدولة تتشابك مع المفاهيم المُتغيّرة. لقد صبّت كلّ دولة مهيمنة عالمية نوعا ما في وقتها الغضب على الإنسانية وإلهام الإصلاحيين لبلورة معايير أعلى من أجل حقوق الإنسان والحريّات. بتشجيع الفتح الكاثوليكي لأقاليم ما بعد البحار، استُخدمت المراسيم البابوية في القرن الخامس عشر للتمييز بين المسيحيين والوثنيين لإضفاء الشرعية على استعباد الهنود الحمر والإتجار البشري بملايين الأفارقة. في اللحظة التي بدأت فيها تلك الإنتهاكات تقريبا، كان القادة الدّينيون الأسبان مثل بارتولومي دي لاس كاسَس وفرانسيسكو دي فيتوريا يعبّران عن إداناتهما لتلك الجرائم، فبدأت عملية النضال السياسي وتواصلت عبر عقود من الزمن وغذّت الإدراك بأنّ البشرية جمعاء واحدة، وبالتالي وُضِع هذا المفهوم كأساس لكلّ من حقوق الإنسان والقانون الدولي.

حين اجتاح الإصلاح البروتستانتي أوروبا في القرن السادس عشر تمرّد الهولنديّون ضدّ الإمبراطورية الأيبيرية للمطالبة بالإستقلال الوطني بموجب دستور يوضح مبادئ الحرية الدينية. بعد قرن من الزمن، أطاح البرلمان البريطاني بالملك جيمس الثاني، الملك الكاثوليكي الذي هدّد عقيدتهم البروتستانتيّة، وسنّ قانون الحقوق لعام 1689، الذي أوضح لأوّل مرّة تأسيس مبادئ الحرية الفردية. في نفس العام، نشر الفيلسوف جون لوك كتابه المؤثّر "أطروحتان للحكومة" بحجة أنّه بموجب القانون الطبيعي، لكلّ فرد الحقّ الحياة والحريّة والملكية. إحتفظت بعد ذلك الإمبراطوريتان الهولندية والبريطانية بهذه الحريّات لمواطنيهما، وتركهم أحرار في ممارسة تجارة الرقيق في آيبيريا ودفع السيادة الأصلية الى آفاق جديدة. بعدها قام الإصلاحيون الديّنيّون في بريطانيا بالنضال لعقود من أجل حلّ التناقض بين الحرية في الوطن والعبودية في الخارج. أطلقت البحرية الملكية في النهاية وابتداء من عام 1807 حملة استمرّت 80 عاما للقضاء

على تجارة الرقيق في جزر المحيطين الأطلسي والهندي. وقد أدّى هذا الجهد الناجح الى حدّ كبير في إرساء سمة مميّزة لنظامهم العالمي الناشئ. لكنّه في أواخر القرن التاسع عشر استعمرت القوى وفي مقدمتها بريطانيا التسلسل الهرمي المُخترع بين الأجناس المتحضرة و"السلالات الدونية" Lesser Breeds لتبرير استعمارهم لأفريقيا وآسيا، حيث جرّدوا رعاياهم المُستعمَرين من حقوقهم المدنية وانتزعوها من كلّ منهم ليعمل لأشهر بدون أجر.[26]

كان على الحلّ الرسمي لهذه التناقضات أن ينتظر حتى عام 1945، عندما قادت واشنطن دول العالم لصياغة مشروع ميثاق الأمم المتحدة ووعدت الشعوب بحرية تكوين دولها وفي الموافقة على إعلان آخر بعد ثلاث سنوات، أكّد حقوق الإنسان العالمية. وبوضوح فإنّ قيام النظام الدولي الحالي المكوّن من 193 دولة ذات سيادة وعلى قدم المساواة في الأمم المتحدة يمثّل تقدّما هائلا بعد العصور الإمبراطورية حين حكمت العشرات منها ثلث البشرية. ومع ذلك وفي سعيها وراء القوة العالمية، سرعان ما بدأت واشنطن في تحدّي الإتفاقيات الأمميّة التي حدّدت نظامها العالمي الخاصّ، مخالفة السيادة الوطنية من خلال التدخّلات السريّة لوكالة المخابرات المركزية والحروب الوحشية في جميع انحاء العالم وانتهاك حقوق الإنسان وممارسة التعذيب. على الرغم من أنّ احتضان الولايات المتحدة لحقوق الإنسان قد اعطى في البداية الشرعية لنظامها العالمي، فإنّ سلسلة من الصراعات الدامية وفضائح التعذيب في جنوب فيتنام وأمريكا الوسطى والعراق، من بين أماكن أخرى، سوف تؤدي الى تآكل قيادتها الدولية ببطء.

شهدت القرون الخمسة الماضية استمرارا واضحا في الجدل الدائر حول حقوق الإنسان ضمن التقاليد الغربية، التي ارتدت فجأة ستارا عالميا في الأمم المتحدة عام 1948. ربّما يكون مركز النظام العالمي قد تحوّل من إسبانيا الى بريطانيا ثمّ الى الولايات المتحدة، لكنّ التطوّر المستمرّ للمبادئ الأساسية من

حقبة لأخرى قد سهّل هذه التحوّلات الإمبراطوريّة. الآن ومع بدء القوة العالمية للولايات المتحدة في التلاشي، بدأ عالم صيني ناشئ يتحدّى المعيار العالمي لهذا النظام من خلال إخضاع حقوق الإنسان كمبدأ منافس للسيادة الوطنية غير الخاضعة للرقابة. في مهمّة الإختلاف عن النظام الدولي الحالي، اتّخذت بكين بشكل غير محدّد سلطة قمع حقوق أقليتي التبتيين والإيغور وغيرهما من الإثنيات/ الأقليات الدينية. من خلال القمع في الداخل والضغط الدبلوماسي في الخارج، قامت بكين بما وصفته منظمة هيومن رايتس الدولية "الهجوم الأشدّ على النظام العالمي لفرض حقوق الإنسان منذ أن بدأ هذا النظام في الظهور في منتصف القرن العشرين."[27] وكأوّل هيمنة عالمية غير غربية منذ خمسة قرون، تقدّر الصين الأمن المادي الجماعي على مواجهة الحرية الفردية، التي أقرها المجتمع الدولي مع احتمال تمزيق الخطاب حول حقوق الإنسان القائم منذ عقود طويلة.

بينما كانت هناك وحتى وقت قريب إستمرارية آيديولوجية من نظام عالمي الى آخر، تظهر على السطح بعض الإختلافات الواضحة أيضا. تماما كما كان النظام الإمبراطوري البريطاني أكثر انتشارا من نظيره الآيبيري السالف، تجاوز النظام العالمي لواشنطن كليهما ليصبح صارما منهجيا ومتجذّرا بعمق على نطاق عالمي تقريبا. كان مؤتمر فيّنا عام 1815 بمثابة تجمّع سريع الزوال لعشرين دبلوماسيا وتلاشى تأثيره في غضون عقد من الزمن. في المقابل استطاعت الدول الأعضاء البالغ عددها 193 وعلى مدار أكثر من 75 عاما من تكليف آلاف من الموظفين الدائمين للقيام بمسؤوليات دولية واسعة على مدار كلّ عام تقريبا، وهو انعكاس للجانب الذي يمكن تخيله للمجتمع البشري. لم يقتصر الأمر على اتفاقية بريتُن وودزعام 1944 ومؤتمر إنشاء صندوق النقد الدولي IMF والبنك الدولي، لكنّه أدّى الى تشكيل منظمة التجارة الدولية WTO، التي تنظّم اليوم التجارة بين 164 دولة عضوا.

تحت هذه المبادئ التنظيمية الواسعة للسيادة وحقوق الإنسان، كان الإقتصاد في كلّ نظام عالمي مدفوعا بخاصيّة مميّزة لشكل من أشكال الطاقة. كان أولا حشد قوّة العضلات البشرية ثمّ التمكّن من استخدام قوة الرياح ومؤخّرا الوقود الأحفوري في شكل الفحم والنفط والغاز الطبيعي. الإمبراطوريات بطبيعتها مفترسة نهمة تنهب الكوكب من أجل المواد الخام التي تحتاج اليها للحفاظ على قوتها وترك آثار مدمّرة تؤثّر على البشر وتسبب لهم المعاناة وتخرّب البيئة من حولهم. خلال العصر الآيبيري، سخّرت إسبانيا والبرتغال الرياح لإبحار السفن الى أيّ مكان في العالم اثناء القيام باختطاف جحافل العمّال العبيد من أجل القوّة العضلية للعمل في مناجم العالم الجديد ومزارعه. في منتصف تلك الحقبة تقريبا، اتقنت دولتان صاعدتان استخدام قوّة الرياح والعضلات، حين صقل الهولنديون طواحين الهواء والسفن الشراعية، بينما نقل البريطانيون تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي الى ذروتها التاريخية.

في القرن التاسع عشر، حلّ العصر الإمبراطوري البريطاني محل العصر الإمبراطوري الأيبيري، وطورت ثورتها الصناعية المحرّك البخاري الذي يعمل بالفحم الى نشاط متماسك حول العالم، يدفع البواخر الحديدية عبر المحيطات والقطارات البخارية على طول خطوط سكك الحديد التي أخذت تتقاطع بين القارات. ثمّ عندما حلت أمريكا محلّ بريطانيا، أتقنت صناعتها محرّك احتراق داخلي يعمل بالبنزين لقيادة السيارات على الأرض والطائرات حول العالم والصواريخ في الغلاف الجوّي.

في فجر القرن الحادي والعشرين، بدأ العالم يختنق من انبعاثات الفحم والنفط، ووجدت الهيمنة المتنافسة مع بكين نفسها في مأزق. ظلت الولايات المتحدة متمسّكة بجذور اقتصادها القائم على الكاربون، ومقاومة للتحوّل الى مصادر الطاقة البديلة. في سباقها السريع لتكون صاحبة الإقتصاد الرائد في العالم، بقيت الصين ايضا محاصرة في اعتماد الكهرباء التي تعمل بالفحم والنفط الذي

يعتمد على النفط ممّا أدّى الى ابطاء انتقالها للطاقة المتجدّدة في الداخل والخارج. ومع كلّ من الصعود والهيمنة الراسخة الغارقة في الماضي الذي يغذّيه الكاربون، أصبح مستقبل الكوكب والأنظمة العالمية فيه، سؤالا مفتوحا الى حدّ كبير.

باختصار، لم يتمّ تنظيم كلّ نظام عالمي تال حول إثنين، ولكن ثلاث سمات محدّدة. وهذه هي مبدأ السيادة الذي اعترف بالحدود الإقليمية لكلّ دولة. والثاني هو مفهوم حقوق الإنسان الذي يشمل جميع الشعوب داخل تلك الحدود. والمبدأ الثالث هو الشكل المميّز للطاقة، الذي يدفع الإقتصاد للحفاظ على كلّ شيء. من الملاحظ أنّ هذه المبادئ/العوامل لم تفعل ذلك ببساطة، واستلقت جنبا الى جنب كما لو كانت تقضي الوقت في حمامات الشمس على الشواطئ الصيفية. على الأصحّ كان عليها أن تتفاعل ديناميكيا كما البهلوانيين الذين يربطون الأحزمة ويتسلقون الى أعلى ثمّ يعودون لتفكيك ما وضعوه. إستخدم البريطانيون، على سبيل المثال، الوقود الإحفوري لدفع ثورتهم الصناعية التي عزّزت حقوق الإنسان بتحرير البشرية من قيود النقل والحاجة الى القوة العضلية الحاشدة للعمل بالسخرة. لكنّهم ترأسوا أيضا عصرا إمبراطوريّا حلّ محلّ سيادة الدول الأصلية في آسيا وأفريقيا، بينما كانت تعتمد على العمالة القسرية لما يقرب من ربع البشريّة.

أظهر كلّ من هذه الأنظمة العالمية أيضا إزدواجية مميّزة تمثلت في التوتر الأساسي بين القوّة والمبدأ وبين السياسات الواقعية القاسية التي مارستها الإمبراطوريات بخلاف المبادئ السامية لحقوق الإنسان، التي اعتنقتها أصلا. لم يقم الأيبيريون فقط بتطوير تجارة الرقيق الأفريقية، ولكن ايضا اكتشفوا فيما بعد مبدأ الترياق Antidote في مفهوم حقوق الإنسان. فهم المؤرّخون أنّ السيادة الإمبراطورية كانت تجربة قاسية على رعاياها، ولكن يبدو غالبا أنّ أولئك الرعايا آمنوا بأنّ إمبراطوريتهم إستثنائية الى حدّ ما، وأقلّ وحشية واكثر اعتدالا من بقيّة

الإمبراطوريّات السابقة. سوف يساعدنا استكشاف الثنائيات Dualities في كلّ نظام عالمي على التخلص من هذا الوهم.28

إنّ افتقار الإمبراطورية الى حدود الدولة الإقليمية أو الحضور القوي المرئي، قد تبدو الأنظمة العالمية غير ملموسة أو حتى مُتخيلة، لكنّها تعمل واقعيا وغالبا ما تتطفل بشكل عميق جدّا على الطريقة التي يعيش بها معظم البشر حياتهم. وعادة ما يثبت أنّ هذه الطرق أكثر مرونة من الإمبراطوريّات العظيمة التي انجبتها. ومع ذلك ولأنّ الأنظمة العالمية تتأثر بصعود وانحطاط ثروات القوى العظمى التي كوّنتها، نحن بحاجة الى النظر بإيجاز في طابع الإمبراطوريات الحديثة.

التفكير في الإمبراطورية

في كلّ من تشكيلها وانكسارها، تتشابك الأنظمة العالمية مع أقدار الإمبراطوريّات. تمتلك الإمبراطوريات الناشئة أحيانا القوّة لتشكيل عالٍ جديد، في حين أنّ النظام العالمي المتجذّر يمكن أن ينجو بطريقة ما من تدهور الهيمنة العالمية، التي أوجدتها. فقدت الإمبراطوريات الأيبيرية تفوّقها بحلول أوائل القرن السابع عشر، لكنّ نظامها العالمي استمرّ قرنين آخرين. من جهة أخرى، بدأت الإمبراطورية البريطانية في التراجع قرابة قرن من من الزمن، لكنّ عناصر نظامها العالمي استمرّت بسلاسة الى اللحظة الحالية، بفضل تسليمها الودّي عبر المحيط الأطلسي للإمبراطورية التالية في الولايات المتحدة.

من الواضح أنّ استكشاف الأنظمة العالمية يتطلّب فهما لمصطلح "الإمبراطوريّة"، الذي حمل وصمة آيديولوجية منعت لفترة طويلة دراسة جادّة في الولايات المتحدة. وبفضل هذا النفور، فإنّ العديد من العلماء والمواطنين الأمريكيين على حدّ سواء، ظلّوا غير ملمّين بطبيعة الإمبراطوريات والديناميكيات المعقدة لصعودها وسقوطها.

في الولايات المتحدة ولمعظم القرن العشرين، ظلّ موضوع الإمبراطورية حقل ألغام آيديولوجي بالنسبة للمؤرّخين. في اعقاب الحرب الإسبانية الأمريكية المريرة عام 1898 والتهدئة الدمويّة للفِلِبين، أصبح مصطلح "الإمبريالية" صفة حزبية القاها الديمقراطيون التقدّميون على خصومهم الجمهوريين. خلال 40 عاما من الحرب الباردة إستخدمت موسكو الماركسية مصطلح "الإمبريالية" لتشويه سمعة الولايات المتحدة. لذلك وداخل الولايات المتحدة يمكن اعتبار واشنطن "زعيم عالمي" أو حتى "قوّة عظمى" لكنّها ليست إمبراطورية أبدا. في حربها الباردة، كان العدو "الإتحاد السوفيتي" هو الذي لديه إمبراطورية، وفي الواقع أنّ الرئيس دونلد رَيگن قد وصفها بـ "إمبراطورية الشرّ"[29] منذ أن نشأت الولايات المتحدة، من المُفترَض أنّها أمّة "إستثنائية" فازت بطريقة ما بالقوة العالمية، ويمكن للمؤرخين الأمريكيين المناسبين تجنّب تحاشي أيّ شيء يشبه الإمبريالية ولم يُدرّس موضوع الإمبراطورية خلال الحرب الباردة.

في اعقاب الهجمات الإرهابية عام 2001 وغزو العراق عام 2003 فقد المصطلح نزعته التخريبية، وخسر المتخصّصون عبر الطيف السياسي الفرصة فبدأوا يتساءلون عمّا إذا كانت القوّة العالمية لأمريكا في حالة تدهور أم لا.[30] في هذه اللحظات الحاسمة عندما تعرّضت هيمنتها للتحدّي، أكثر ما حدث في العالم، يمكن القول إنّ الإمبراطورية القويّة كانت الأقلّ دراسة، ممّا حرم المواطنين والعلماء من الأدوات التحليلية، التي يحتاجونها لتتبّع مستقبل بلدهم.

كانت الإمبراطورية هي إحدى أعظم اشكال الحكم البشري في مهد الإنسانية هذا المُسمّى بالهلال الخصيب، حيث ظهرت المكوّنات الأساسية للحضارة في تتابع سريع نسبيّا. ظهرت الزراعة حوالي 8500 عاما قبل الميلاد وبدأ استئناس/ تدجين الحيوانات البرية حوالي 8000 عاما قبل الميلاد، وعلم المعادن البرونزي عام 4000 قبل الميلاد واختُرعت الكتابة بحدود 3200 عاما قبل الميلاد، ونشأت أوّل إمبراطورية في التاريخ على يد سرجون الأكدي عام 2300

قبل الميلاد. وعليه وخلال ستة آلاف عاما فقط، وهي تمثل طرفة عين بالنسبة لمدة ثلاثة آلاف عاما من تاريخ البشرية، جاءت الإمبراطورية كنظام حضاري مكتمل بعناصره الأساسية.[31]

منذ 4 آلاف عاما لظهور الإمبراطورية الأولى، شهد العالم تعاقبا مستمرّا لنحو 200 إمبراطورية، كانت 70 منها كبيرة وعمّرت لفترات طويلة.[32] من هذا المنظور، نصرّ أمريكا على أنّها عالمية الوجود العسكري، كأنّ أي شيء غير إمبريالي هو أشبه بالقول بأنّ مُزارعيها لم يعملوا في الزراعة. الإمبراطوريّات ليست إنحرافا، وإنّها من غير المحتمل أن تُمحى في المستقبل المنظور نتيجة التغيّر التكنولوجي أو يتمّ إصلاحها في الوجود من خلال القانون الدولي.

مع المخاطرة لتبسيط التسلسل الزمني المعقد بشكل غير ملائم، يمكننا تقسيم تلك الأربعة آلاف سنة من التاريخ الإمبرطوري إلى ثلاث فترات متميّزة. خلال مرحلة كلاسيكية أولية دامت حوالي ألفي سنة ونصف (من 2300 قبل الميلاد الى 400 ميلادية) شهد العالم تعاقبا لا هوادة فيه من الإمبراطوريات المتنافسة، آشور وبلاد فارس وأثينا ومقدونيا وقرطاج وروما. خاضت هذه الإمبراطوريات حربا نسبيّة شملت جزء محدودا من الكوكب امتدّ ما بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي. في أمكنة أخرى خلال نفس الفترة كانت هناك مراكز للقوّة الإمبريالية، التي ظهرت في الصين والهند وجنوب شرق آسيا وأمريكا الوسطى، ممّا خلق حالة دائمة من الحضارات في كافة تلك المناطق.

كانت إمبرطوريتا روما والصين من بين إمبراطوريات هذه المرحلة الكلاسيكية. أثبتت كلّ منهما أنّها إستثنائية لمزيجها من المتانة الإمبراطورية والتوسّع لأكثر من أربعة قرون. ضمّت الإمبراطورية الرّومانية 55 مليون شخصا ومليوني ميلا مربّعا من الأراضي عبر أجزاء ثلاث قارات وامتدت من بريطانيا الى بابل. كانت هناك علاقة حميمة بين الإمبراطوريّة والنظام الإجتماعي الأوسع. ذكر المؤرّخ يوهان گالتونگ أنّ بقاء الإمبراطورية على قيد الحياة يرجع الى أنّ

"الكثير من الأفراد ألمّوا بالحروف اللاتينية واصبحت اللاتينية لغتهم وأنّ الأعراف الرومانية *Weltanschauung* غدت (وجهة نظرهم العالمية)".[34]

بعد ذلك، كسرت الهجرات الجماعية والتغيّر الإجتماعي سيطرة تلك الإمبراطورية الكلاسيكية، فدخل العالم في فترة "خلو العرش" استمرت ألف عام تقريبا منذ 400 الى 1400 ميلادية. كانت الإمبراطوريات المستقلة منتشرة في جميع أنحاء العالم مع القليل من الإتصال عبر القارات. بينما كانت حضارات المايا والإنكور والصينية والبيزنطية، التي تمثلت في سيطرة الإمبراطوريات الرومانية المقدسة في مناطقها، كان نفوذها الإقليمي محدودا وعمرها قصيرا. حتى الخلافة الأموية، التي جلبت فتوحاتها الإسلام الى شعوب متنوّعة من شمال الهند الى جنوب إسبانيا، عاشت لفترة أقلّ من 90 عاما (661 لغاية 750 ميلادية) قبل أن تتفكّك. وبالمثل كان المغول والترك. كان نفوذ الفاتحين بقيادة جنكيز خان وتيمور لنگ متفاوتا على نطاق واسع عبر سهول أوراسيا ورمالها من 1200 الى 1400. فتح القائدان مساحات شاسعة إنقسمت بسرعة الى قوى إمبريالية إقليمية.[35] حدث هذا في منتصف الألفية، حين كانت حضارة الإنكور في عظمتها الداخلية وكذلك حضارة المايا في بلادهم ذات الغابات الكثيفة، والحكم البيزنطي للأراضي المتقلصة باستمرار. يمكن أن يعلمنا مضيق البُسفور اشياء كثيرة، ولكن بفضل عزلة كلّ منها، كان تأثيرها قليلا نسبيا على طبيعة النظام العالمي.

في العصر الإمبراطوري الأخير، الذي يعود تاريخه الى بداية الإستكشافات البرتغالية في عام 1420، حين جلبت إمبراطوريات أوروبا مناطق ما وراء البحار الى القارات الأخرى وجعلتها في اتصال مستمرّ، ممّا سمح بتشكيل أوّل عالم حقيقي في التاريخ. بحلول الثلاثينات من القرن الماضي، غطّت المُستعمرات الجديدة والمستعمرات السابقة 85٪ من مساحة الأرض في العالم، ممّا جعل الإمبريالية تجربة بشريّة عالمية.[36] تنافست الإمبراطوريّات على الأرض والبحار

من أجل الهيمنة الإقليمية أو العالمية، فظهرت سلسلة من ثلاثة أنظمة عالمية مرنة تمّ تصنيف كلّ منها باعتبارها إمبراطورية، وهي الأيبيرية والبريطانية والأمريكية.

نظرا لأنّها وُلدت من أرحام الحروب والغزوات، جمعت الإمبراطوريات أشكالا غير مستقرّة، وحتى متقلبة من الحوكمة، التي غالبا ما تظهر بسمات متناقضة. فهي ثابتة الى حين تتغيّر ومثالية لكنّها بربرية وقويّة لكنها هشّة. خُذ هذا المثال من ذلك التناقض المركزي للقوّة والهشاشة. في ذروة هيمنتها على العالم، يبدو أنّ الإمبراطوريّات تمتلك قوّة لا تُقهر تتجلى في رعب أسلحتها. في عام 1570، قادت إسبانيا اسطولا مسيحيًا مكوّنا من 203 سفينة حملت 60000 مقاتلا و1800 مدفعا ودمّرت أسطولا إسلاميا مشابها في البحر الأبيض المتوسط[37] في عام 1906. أطلقت البحرية البريطانية أول بارجة حقيقية، HMS Dreadnought مزوّدة بمدافع إطلاق النار السريع التي تلقي قذائف بوزن 850 رطلا بدقة لمسافة تقرب من 12 ميلا. بعد قرن من الزمن وفي عام 2001، سيطرت البحرية الأمريكية على البحار بعشرات حاملات الطائرات مثل USS إنتربرايز. وهي حقيقة قلعة عسكرية عائمة فيها 6 آلاف بحارا و70 طائرة نفاثة، وتشكّل رمزا للقوّة عسكرية لا مثيل لها على هذا الكوكب. وجدير بنا أن نتذكّر بأنّ جميع الامبراطوريّات كانت على بُعد عقود فقط من الإنهيار بسبب مواجهة تحدّيات خارجية وداخلية، تنهي سيادتها.

بالإضافة الى ضغوط القوى المنافسة، تتهالك الإمبراطوريات أيضا بسبب الضعف الداخلي، حين تثبت النُخب الحاكمة عجزها عن إدارة التحدّيات. طوال فترة توسّعها في القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية البريطانية تُدار من قِبَل نخبة متعلمة جيّدا من خريجي جامعتي أوكسفُرد وكيمبرج ودافع عنها ضباط البحرية المدرّبين بصرامة للقيادة. أثناء حلّ بريطانيا الجزئي لإمبراطوريتها بعد الحرب العالمية الثانية، فإنّ القادة من ارستقراطية الجزيرة

المعزولة تحرّكوا بدافع شعور التفوّق العرقي وارتكبوا كوارث قاتلة خلال حركات إنهاء الإستعمار في الهند وكينيا ومصر والسودان. في الأثناء، كانت الأعمال التجارية والدبلوماسية الأمريكية ونخبها العسكرية، قد تسلّمت الأمور لإدارة الوضع الإستثنائي لقوة واشنطن العالمية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة. ومع ذلك، وبعد سبعة عقود، تعزّز التغيّر الإقتصادي وعدم المساواة الشديدان داخل الولايات المتحدة، ممّا أدّى الى ظهور فئة من المليارديرات المتعجرفين الذي استولوا على الحزب الجمهوري ونالوا رئاسة البلاد، وما ترتب على ذلك من تكاليف لنظامها العالمي.[39] عندما يتراجع حكم الحزب السياسي عن العقلانيّة ويتحوّل الى السياسة الوهميّة، تفقد الأمة قدرتها على القيادة العالميّة.

بصفتها تحالفات من دول وشعوب متنوّعة، يمكن القول إنّ الإمبراطوريّات هي الأكثر تعقيدا وتنوّعا من بين جميع الحكومات، وقد تتولى مسؤوليات مختلفة الأشكال وتعاني مصائب متباينة طوال أربعة آلاف سنة من التاريخ. إستمرّ الكثير منها عقدا أو أقلّ من بعض القرن أو أكثر، وعدد قليل منها عاش الألفية بأكملها. في كيان شديد التفاوت والتنوع، لا يوجد عامل واحد ولا حتى عنصر مركزي مثل القيادة، يمكن أن يوفر شرحا كاملا لمصير الإمبراطورية. ومع ذلك، إذا كان هناك عنصر واحد يمكن أن يساعد في الصعود والإنحطاط عبر الزمن، فمن المحتمل أن يكون ذلك جيوسياسيّا.

استخدامات الجغرافية السياسية

إستخدم عدد لا يُحصى من المعلقين خلال القرن الماضي مصطلح "الجغرافية السياسيّة" لشرح مصير الأمم والإمبراطوريّات. لكنّ القليل منهم استوعب المعنى الكامل والتاريخ المشحون، اللذين يُعتبران جزء لا يتجزّأ من هذا المفهوم المراوغ. الجغرافية السياسية هي في الأساس طريقة لإدارة

الإمبراطوريّة من خلال استخدام الجغرافية الجويّة والبريّة والبحريّة لتعظيم الميزة العسكرية والإقتصادية. على عكس الدول التقليدية، التي يمكن تعبئة شعوبها بسهولة للدفاع عن النفس، فإنّ الإمبراطوريّات وبسبب انتشارها خارج الحدود الإقليمية والمخاطر المُتأصّلة في نشر القوّات المسلحة في الخارج، يحوّلها بطريقة مدهشة الى شكل من اشكال الحكومة. يبدو أنّها تتطلب رؤية ستراتيجية من قِبل من يستطيع دمج التضاريس والمواقع البحرية والمجتمعات في نظام عالمي مُستدام يسمح لهذه الإمبراطوريات المعزّزة بقوة غير عادية واستثنائية بحصد الفرص الإقتصادية.

لتقليل مخاطر الحملات العسكرية في مناطق غير مألوفة بعيداً عن الوطن، أي إعطاء الإمبراطورية فرصة للقتال والبقاء على قيد الحياة رغم الإحتمالات الهائلة ضدّها، يتطلب الأمر بنية جيوسياسية مرنة. سواء عن طريق الحدس الملهم أو الدراسة المُتأنيّة، كان من بناة الإمبراطورية الناجحين، يوليوس قيصر والرئيس الأمريكي دوايت آيزنهاور. أثبتا في كثير من الأحيان أنّهما ستراتيجيان ماهران واكتسبا حلفاء وأقاليم أمكنهما الدفاع عنها. مع تدهور الإمبراطوريّات، ثبت نفس الشيء بالنسبة للعمارة الستراتيجية، التي أكّد صعودها أنها مصيرية كمنافس للقوى، التي تشنّ ضربات ماهرة، غالبا بتقنيات عسكرية جديدة لخرق نقطاط ضعفها عند الحدود مترامية الأطراف لترسيخ هيمنتها. ومع ذلك فقد يتم استخدام أو إساءة استخدام مصطلح "الجغرافية السياسية" الأنسب لمثل تلك المخططات الإمبريالية.

إنّ ممارسة الجغرافية السياسية، حتى لو كان من على ظهور الخيل، أمر قديم قِدم الإمبراطورية، حتى فجر القرن العشرين. كان الفاتحون أنفسهم، من الإسكندر الأكبر إلى يوليوس قيصر الى بونابَرت، لديهم الرؤية الجيوسياسية، التي وُجّهت بلا هوادة للتوسّع الإمبراطوري.

أوضحت أثينا القديمة جيّداً الدور الأساسي للجغرافية السياسيّة في تشكيل مصير الإمبراطورية لمدة قرنين من الزمن، ما بين حوالي 500 الى 300 عاما قبل

الميلاد، أقامت أثينا إمبراطوريّة بحريّة جعلتها القوّة المهيمنة في شرق البحر الأبيض المتوسط. تحت قيادة Themistocles، صاحب الرؤية الإمبراطورية الذي قام بتحصين ميناها في Piraeus وشكّل أسطولا قوامه نحو مئتين من سفن القادس ترايريم Trireme Galley Ships، التي أدارها نحو 17 ألفا من المحاربين المجدّفين فاستطاع هزيمة الغزو الفارسي الشامل عام 480 قبل الميلاد. بمجرّد تشكيلها بالكامل، إجتاحت البحرية الإثينيّة أساطيل العدو وطردتها من مياه بحر إيجه وأنشأت رابطة دِليَن Delian League، التي فرضت بموجبها على حكّام المدن اليونانية المنتشرة في جزر البحر المذكور التبرّع إمّا بالسفن أو الفضّة للحفاظ على هيمنة السلطة الأثينيّة.[40]

على مدار القرن التالي، تدفقت التجارة وازدحم ميناء بيرايوس بالسفن وازدهرت ثقافة مثيرة للإعجاب للسياسة الإثينيّة والديمقراطية والفلسفة والفنون. كانت نتيجة ذلك كتابات أرسطو وسقراط وخُطب ديموستين الشهيرة وفنّ حكم بيركليس وتاريخ هيرودوت وثوسيديدس ودراما يوريبيدس وسوفوكليس، كلها تاريخ من تلك الفترة غير العاديّة. ومع ذلك فإنّه بحلول القرن الخامس قبل الميلاد، جعل النمّو المطّرد أثينا أكبر مدينة في العالم اليوناني. بلغ عدد سكّان الحضر فيها 65000 نسمة وكانت واردات الحبوب حاسمة لبقائها.[41] وفقا لما ذكره ديموستينيس فإنّ أثينا وفرت الأمن الغذائي لنحو 100000 مواطنا في منطقتها الأصلية أتيكا عن طريق استيراد حوالي 26400 طنّا متريّا من القمح سنويّا نصفه من كامل هذا المجموع قادم من مناطق البحر الأسود عبر مضيق البُسفور على ظهر ما يزيد عن مائة سفينة تجارية. ومع ذلك فإنّ هذا يعني أنّ المدينة كانت معرّضة لخطر المجاعة إذا أغلق العدوّ الممرّات البحرية في مضيقي البُسفور والدردنيل، اللذين يربطان البحر الأسود ببحر إيجه.[42]

تمّ الكشف عن هذا الضعف الجيوسياسي خلال الحرب البِلوبونسيّة Peloponnesian War عندما واجهت أثينا تحالفا بين المدن بقيادة سبارطا. استمر

الصراع ما بين السنوات 431 الى 404 قبل الميلاد. بعد ربع قرن من القتال الدؤوب، دمّر القائد المُتقشّف ليساندر الإسبارطي بحرية أثينا في الدردنيل ومنع وصول شحنات الحبوب القادمة من مناطق البحر الأسود، ممّا أدى الى المجاعة في المدينة واضطرها للإستسلام خلال شتاء طويل بارد بائس. حطّمت هذه الهزيمة الساحقة رابطة دِلْيَن وأنهت عصر إمبراطورية أثينا البحرية المزدهرة.[43]

في الكتابة على اعتاب إنحدار اليونان وصعود روما القديمة، عزا المؤرّخ اليوناني بلوتارخ Plutarch مصير هاتين الإمبراطوريتين الى شخصيات قادتهما، في كتابه الشهير *الحياة المتوازنة*. حاول بلوتارخ أن يوضح ضخامة غزو يوليوس قيصر لبلاد الگول Gaul، فرنسا وبلجيكا الحديثتين، من خلال سرد الأرقام لأظهار حجم ذلك الإنتصار. "في غضون 9 سنوات من الحرب، إقتحم قيصر أكثر من 800 مدينة وهزم 300 قبيلة وخاض معارك ضارية مع 3 ملايين مقاتلا، قتل منهم مليونا وأخذ عددا كبيرا من الأسرى." قال بلوتارخ إنّ سبب هذا النجاح يكمن في شخصيّة قيصر لأنّه كان مصدر إلهام لقواته "لمواجهة كلّ خطر طواعية". نام مرتديا درعه وقاتل في الصفوف الأمامية بجانب جنود فيلقه.[44]

ولكن في روايته الخاصّة، إختصر قيصر نفسه في هذا القصة عن الضرورات الجيوسياسية. ذكر قوله المشهور، "بلاد الگول بكاملها مقسّمة الى ثلاثة أجزاء." هذه هي الجملة الأولى من مذكّراته العسكرية عن حرب الگول. من بين هؤلاء البلجيك هم الأشجع لأنّهم الأقرب الى الألمان الساكنين وراء نهر الراين، ويشنّون حروبا معهم باستمرارولديهم سبب تفوّق Helvetii ايضا على بقيّة الإغريق في الشجاعة، ويشتبكون مع الألمان في معارك شبه يومية. "حين خرج هؤلاء Helvetii الشجعان وعددهم 400 ألفا من كانتوناتهم في جبال الألب، احتلوا الأراضي المنخفضة في الگول في عام 58 قبل الميلاد. استخدم قيصر الأساليب الجيوسياسية من أجل هزيمتهم. إستولى على التضاريس الستراتيجية وتحكّم في إمدادات الحبوب واستغل القبائل المنافسة. وبدلا من بيع Helvetii المهزومين

كميد مثلما فعل الجنرالات الرومان الآخرون سابقا، كان قيصر واعيا بالتوازن الجيوسياسي لإمبراطوريته. أعاد الأسرى الى مناطقهم في جبال الألب محمّلين بالمؤن السّخيّة، كي لا يملأ الألمان الفراغ ويعبرون نهر الراين ويزعزعون استقرار بلاد الگول عند حدود النهر الطبيعية.[45]

الدراسة الحديثة للجغرافية السياسية

في العصر الحديث، حيث بدأت الدول الصناعية في العالم تتنافس لتكوّن إمبراطوريات حوالي عام 1900، لجأت الى العلماء المتخصّصين من أجل وضع تصميمات جيوسياسية كبيرة لتوجيه توسّعها الإمبراطوري. من خلال الوظائف الإستثنائية لأربعة فقط من العلماء والمسؤولين، الذين طوّروا ونشروا الجغرافية السياسية خلال القرن العشرين، يمكننا أن نرى التأثير المُدهش لهذا المفهوم في تشكيل مصير الأمم والإمبراطوريّات. في العملية الفعلية لبناء الإمبراطوريات أثبتت أفكارهم عادة أنها أدوات فظّة في أحسن الأحوال. ولكنّهم قاموا أيضا بصياغة بعض الأدوات الأكاديمية الحادة، التي تسمح لنا بتجاوز كلّ شيء يعود للتعقيدات التاريخية من أجل تحليل أسباب الإنحدار الإمبراطوري.

عندما خطت واشنطن خطوتها الأولى على المسرح العالمي في تسعينات القرن التاسع عشر، جادل مؤرخ البحرية الأمريكية الكابتن ألفرِد ثاير مَيهَن بأنّ القوة البحرية، ومن خلال التنقل الإستثنائي للسفن الحربية، هي مفتاح الأمن القومي والنفوذ الدولي. ألهمت كتاباته قرار واشنطن ببناء بحرية المياه الزرقاء والإستيلاء على إمبراطورية من الجزر لقواعد بحريّة تمتدّ في منتصف الطريق حول العالم من بورتّريكو الى هَوائي الى الفِلِبين. كان تأثير مَيهَن الدولي غير عادي. كان رأيه أنّ الحروب الحديثة تحولت الى التركيز على السفن الضخمة لشنّ "معارك حاسمة" هدفها إفشال ستراتيجيات المانيا في الحرب العالمية الأولى واليابان في الحرب العالمية الثانية.[46]



جزيرة ماكِندَر وموقعها القويّ الطبيعي في عام 1904

بعد أكثر من عقد بقليل من كتابة مَيهَن لدراسته الأساسية عن القوّة البحرية، نشر عالِم الجغرافية الإنكِليزي السّير هـالفُرد ماكِندَر كتابا رائعا ومقالة مؤثّرة حوّلت تركيز الجغرافية السياسية من البحر الى البرّ. كتب في عام 1904 حين كانت خطوط السكك الحديدية العابرة لسايبريا تكمل بناء 5700 ميلا بين موسكو وڤلاديڤُستُك، فجادل بشأن المستقبل وكيف أنّ القضبان ستربط أوراسيا في كتلة أرضية موحّدة جنبا الى جنب مع إفريقيا، واطلق مصطلح "جزيرة العالم" القارية الثلاثية. عندما يجيء يوم تتحالف فيه روسيا مع قوّة بريّة أخرى مثل ألمانيا، يمكن أن تتوسّع عبر أوراسيا الشاسعة وتصبح "قلبها"، ممّا يسمح "باستخدام موارد قاريّة واسعة من أجل بناء الأسطول وإمبراطورية عالمية تلوح في الأفق."[47]

في نهاية الحرب العالمية الأولى، أعطى إندلاع الثورة في روسيا مصداقية لأفكار ماكِندَر الشاملة والبصيرة حول "قلب" أوراسيا. ومع افتتاح مؤتمر ڤرساي للسلام عام 1919، تحوّل المقال الشهير الى كتاب إحتوى أكثر مقولاته التي لا تُنسى استنتاجات من قبيل، من يحكم أوروبا الشرقية يحكم هارتلَند، ومن يحكم هارتلَند يمكنه التحكم بجزيرة العالم.[48] في محاولة مشؤومة لتطبيق تلك

الستراتيجية الكبرى، قامت الحكومة البريطانية بإرسال ماكِندَر للتفاوض مع المناهضين للقوات البلشفيّة الذين ما زالوا صامدين في جنوب روسيا. عاد ماكِندَر ومعه مخطط متهوّر لوقف تشكيل الإتحاد السوفيّتي، سرعان ما رفضته الحكومة ودُفِع به الى التلاشي بهدوء في الخفاء. ولولا الجاذبية المتكرّرة لأفكاره في فترتي ألمانيا النازية والحرب الباردة لكان ذكره في طي النسيان.

إثر معاهدة فرساي للسلام في نهاية الحرب العالمية الأولى، جُرّدت ألمانيا من إمبراطوريتها الإستعمارية وكُلفت القوات الأجنبية باحتلال جبهة راينلَند، فقام محلل جيوسياسي مؤثر آخر يُدعى كارل هوشوفر باستبدال الجنرال العسكري باستاذ للجغرافية من جامعة ميونخ. طبّق هذا مفهوم ماكِندَر لـ "قلب أوراسيا وطوّر فكرة المجال الحيوي *Lebensraum* أو مساحة المعيشة، ليؤكّد أنّ وطنه لن يعاني مرة أخرى من الأخطاء الستراتيجية، التي أدّت الى هزيمتها المخزية عام 1918 [50].

بينما كان ماكِندَر يغازل الأفرياء في لندن في فترة ما بعد الحرب، كان هوشوفر يعلم الجغرافية السياسية لكبار النازيين في ميونخ، أوّلا مساعده رودولف هِس، الذي أصبح لاحقا نائب الفوهرر، ثمّ الى أدولف هِتلر نفسه. بينما كان الزعيم النازي يكتب *كفاحي* من داخل سجن لانديسبيرگ في ميونخ عام 1924، قضى هوشوفر خمسة أشهر عقد خلالها اجتماعات أسبوعية مع هتلر ودرّسه الجغرافية السياسية. وفي بيان هتلر لاحقا، ردّد أفكار هوشوفر عن المجال الحيوي *Lebensraum*، قائلا إنّه لن يكون ذلك "على حساب ألمانيا لصالح روسيا... وعلى ألمانيا أن تستلّ سيفها وتعمّق محاريثها لشقّ التربة من أجل زراعة الحبوب وجنيها لتوفير الخبز للشعب." كوفئ هوشوفر بمنصب هام في الرايخ الثالث، كما كوفئ ابنه ألبَرخت بمنصب مستشار للدبلوماسيين النازيين حول التشبّث بالمبدأ الجيوسياسي لقهر القارة الأوروبيّة. [51]

في عام 1942، أرسل الفوهرر مليون رجلا وعشرة آلاف مدفعا وخمسمائة دبابة لاختراق نهر الفولگا واحتلال مدينة ستالِنگراد والإستيلاء على "قلب

الأرض" الروسية من أجل المجال الحيوي. وفي النهاية تكبّدت قوات الرايخ 850000 ضحية من القتلى والجرحى والأسرى، في محاولة عبثية لاختراق "حافة" أوروبا الشرقية الى "قلب" منطقة أوراسيا.

وبعد ربع قرن من تراجع الولايات المتحدة عن احترافها في هزيمة بالغة في حرب فيتنام، إنتقل الأرستقراطي البولندي المهاجر زبكنيو برجنسكي، قدر تعلق الأمر بالجغرافية السياسية، من تدريس العلاقات الدولية في جامعة نيو يورك لخدمة الرئيس جمي كارتر، كمستشار للأمن القومي في العاصمة واشنطن. وهناك اكتسبت مخاطر مناوراته الجيوسياسية جمهورا يقظا في البيت الأبيض خاصّة بعد غزو موسكو لأفغانستان عام 1979 [52].

كواحد من أتباع ماكيندر فكريّا، أثبت برجنسكي براعة في تطبيق القول البريطاني الشهير حول الصلة الجيوسياسية بين أوروبا الشرقية و"قلب" أوراسيا من خلال عملية سريّة لوكالة المخابرات المركزية كلفت مليارات الدولارات. دقّ برجنسكي أسفينه الحاد بدفع الإسلام المتطرّف من أفغانستان الى عمق آسيا الوسطى السوفيتية. دفعت هذه المناورة الجيوسياسية موسكو الى عقد مُنهك من الحرب الأفغانية، التي أضعفت الإتحاد السوفيتي بدرجة كافية لتحرّر أخيرا شرق أوروبا، التي تبعد ثلاثة آلاف ميلا عن ميدان المعارك، من قبضة الإمبراطورية، التي تُمسك بها. حين سُئِل برجنسكي عن المعاناة الإنسانية الهائلة لستراتيجيته الجيوسياسية وما جرّته على أفغانستان من الويلات والفوضى التي خلقتها بظهور الإسلام المتشدّد المعادي للولايات المتحدة، لم يعتذر على الإطلاق. ردّ في عام 1998 "ما الأهم في تاريخ العالم، طالبان أم إنهيار الامبراطورية السوفيتية؟ إثارة بعض المسلمين أو تحرير وسط أوروبا ونهاية الحرب الباردة؟" [54]

أستأنف برجنسكي بعد تقاعده دراسته لنظرية ماكيندر، مثبتا ذلك أكثر توازنا كمحلل سياسي، ممّا كان عليه كمُستشار رئاسي. في كتابه ***The Grand Chessboard***. حذّر برجنسكي بقدر كبير من البصيرة، أنّ هيمنة الولايات المتحدة على أوراسيا

ستظل أساسا مركزيًا للأولوية العالمية والمطلب الرئيسي لهيمنة واشنطن Washington's Hegemony.[55]

وكما توضح التقلبات في مسيرة برجنسكي المهنية بوضوح، فإنّ مفهوم الجغرافية السياسية أكثر فائدة لأولئك الذين يفضلون إسقاط الإمبراطوريات بدلا من بنائها من خلال فصل تحليل الجغرافية السياسية عن الأسباب المريبة، التي احتضنتها مثل الإمبريالية والفاشية. يمكننا استعادة بعض الأفكار المفيدة حول القوى، التي غالبا ما تشكّل مصير الإمبراطوريات وانظمتها العالمية. إذا جمعنا تركيز مَيهَن على القوّة البحرية مع تركيز ماكِندَر على "جزيرة العالم" سنجد أنّ سلسلة الإمبراطوريات الرائدة بما فيها البرتغالية والهولندية والبريطانية والأمريكية والصينية، قد حاولت تحقيق القوّة العالمية من خلال السيطرة على تلك الكتلة الأرضية الثلاثية لقارات أوروبا وآسيا وأفريقيا. في الواقع، إنّ سلسلة موانئ البرتغال المحصّنة في القرن السادس عشر والتي ضمّت 50 ميناء حول أفريقيا وعبر المحيط الهندي، مشابهة بشكل لافت للنظر لسلسلة التيار الصيني المؤلف من 49 ميناء تجاريًا تغطي نفس التضاريس. بالطبع، تمّ تعزيز مكانة الصين أيضا من خلال وجود شبكة السكك الحديدية العابرة للقارات وخطوط الأنابيب. تحت القضايا الظاهرة، التي تناقش كثيرا حول التجارة والتكنولوجيا، أصبحت الستراتيجية الجيوسياسية بمثابة كبش كبير لبكين لكسر سيطرة واشنطن على أوراسيا وبالتالي تحدّي هيمنتها العالمية.

سأتناول في الفصول التالية منظور الجغرافية السياسية لاختصار الحروب الطويلة، سواء حرب الثلاثين عاما أو الحرب العالمية الثانية، الى الأساسيات الستراتيجية في صفحة أو فقرة من خلال التدقيق والاختيار من التفاصيل العديدة، التي غالبا ما يستخدمها المؤرّخون العسكريّون التقليديّون لملء كتب كاملة عن معركة واحدة. تماما كما تعلم العلوم العسكرية تكتيكات الضباط من أجل النشر الأمثل للقوات الحربية، هو ما فعله الجغرافية السياسية في كثير من

الأحيان عن طريق إرشاد قادة العالم لتبني تشكيل عسكري واقتصادي ودبلوماسي معقد من القوى المذكورة لممارسة القوة العالمية. وسواء كان فوز التصميم الجيوسياسي آتيا من صهوات الجياد أو التخطيط في المكاتب الأكاديمية المريحة، توجّب على كلّ إمبراطورية تشكيل حدود يمكن الدفاع عنها، ووجود معاقل ستراتيجية وحلفاء مخلصين وتأمين خطوط الإتصال من أجل النقل الفعّال للأسلحة والمؤن وشؤون المقاتلين. من الناحية المثالية، يجب أن تتقاطع كافة هذه المكوّنات وتتداخل لتحقق تكاملا منهجيًا وتآزرا حقيقيا وقوة مجموعها السياسية. في العالم الحقيقي، حيث غالبا ما يتمّ إنشاء الإمبراطوريات من خلال مزيج من النتف والحظ Mix of Pluck and Luck والعيوب الجيوسياسية، سواء كانت راسخة في البداية أو تطوّرت بمرور الوقت، يمكن أن تحدّد في كثير من الأحيان مصير الإمبراطورية.

وممّا يضاعف من هذه التعقيدات أنّ الجغرافية السياسية نفسها مراوغة للغاية، ممّا يجعل من الصعب التمييز بين المُبْتَذل والرائع منها. يمكن للجغرافية السياسية في يد قائد عظيم أن تسحق الجيوش أو تغزو قارات بأكملها. لكن الستراتيجيات المتشابهة على ما يبدو يمكن أن تؤدّي الى هزيمة شديدة. بعد ما يقرب من ألفي عام بعد غزو قيصر لمنطقة الگول، سعى نابليون للحصول على توازن ستراتيجي مماثل من خلال تشكيل العشرات من الدويلات الألمانية الصغيرة في ما سُمّي إتحاد نهر الراين. التوازن الجيوساسي الماهر لقيصر بين بلاد الگول والمناطق الألمانية المحاذية لنهر الراين استمر لحوالي 400 عاما، في حين استمرت محاولة نابليون لسبع سنوات فقط. إنّ إظهار الفرق بين الإستخدام اللامع وغير الكفؤ للجغرافية السياسية في الوقت الحالي أو حتى بعد مرور فترة طويلة على الحقيقة، يمثّل تحدّيا. لذلك، في هذا التحليل عن تفاعل الإمبراطوريات، التي شكّلت تعاقب الأنظمة العالمية، يجب أن يكون الحذر كلمة السّرّ في تطبيق الجغرافية السياسية لشرح صعودها وهبوطها.

ستركّز هذه الرواية التاريخيّة، التي نشأت على مرّ القرون على بعض الأبعاد السياسية لتاريخ البشريّة ويبذل قصارى الجهد لإظهار كيف أنّ أمور العالم تتشكّل وتعمل وتفشل تاركة إرثا يشكّل العصور التالية. مثلما توجّه الجغرافية السياسية دراستنا للإمبراطوريّات، كذلك فإنّ المصادر المتغيّرة باستمرار، ستكون الطاقة وبمثابة الموضوع الرئيسي في تحليل تعاقب النظم في العالم. من خلال استكشاف العبوديّة كشكل من أشكال الطاقة، التي دفعت الإقتصادي العالمي في العصر الأيبيري، ستكتب تقديرا أعمق لغموض إرث الوقود الإحفوري، الذي طوّرته بريطانيا وأتقنته أمريكا. في تحرير الإنسانيّة من مثل هذه العبوديّة القاسية، ستدين في نفس الوقت معاناة البشريّة من محنة تغيّر المناخ.

يُعدّ استخدام الطاقة لشرح العبوديّة أو الجغرافية السياسية لتحليل الإمبراطوريات، أمران هامّان لمحاولة التعامل مع التعقيدات الرهيبة لأنظمة هذه السياسة العالمية. من المؤكّد أنّ مثل هذا الجهد لا يهدف الى الإحتفال بأسلوب أمجادها الخاصّ أو حتى إدانة تجاوزاتها العديدة، على الرغم من أنّ مجرّد التصريح بتلك التفاصيل كما سأفعل، مثقل باللوم الواضح. يُضيف سبر التاريخ من هذه الإمبراطوريات المهيمنة الى فهمنا لكيفية كلّ منها على تشكيل النظام العالمي القادم، ممّا يقودنا خطوة بخطوة الى عتبة المُستقبل. نأمل أن يلقي هذا النهج ضوء جديدا على القرون الخمسة الماضية من تاريخ العالم، بينما يعلّمنا شيئا عن الطابع الأساسي لعصرنا والتحدّيات الفريدة التي نواجه في حملها الى الأمام في المستقبل.

مصادر وملاحظات الفصل الأول

Chapter 1: Empires and World Orders

1. Jonathan Watts, "The Environment in 2050," *Guardian*, 12/30/2019, https://www.theguardian.com/environment/2019/dec/30/environment-2050-flooded-cities-forced-migration-amazon-turning-savannah; DeniseLu and Christopher Flavelle, "Rising Seas Will Erase More Cities by 2050, New Research Shows," *NYT*, 10/29/2019,
https://www.nytimes.com/interactive/2019/10/29/climate/coastal-cities-underwater.html;
Tim McDonnell, "Climate Change Creates a New Migration Crisis for Bangladesh," *National Geographic*, 1/24/2019,
https://www.nationalgeographic.com/environment/2019/01/climate-change-drivesmigration-crisis-in-bangladesh-from-dhaka-sundabans.
2. Kanta Kumari Rigaud et al., *Groundswell* (2018), xix, 110-11, https://openknowledge.worldbank.org/handle/10986/29461.
3. Office of Coastal Management, National Oceanic and Atmosphere Administration, *Climate Change Predictions* (5/5/2021),
https://coast. noaa.gov/states/fast-facts/climate-change.html; US Global Change Research Program, *Fourth National Climate Assessment*, vol. 2 (2018), 55-57, 73-75.
4. US Global Change Research Program, *Fourth National Climate Assessment*, vol. 2, 55-57, 73-75, 240-49, 412-14; Watts, "The Environment in 2050."
5. Intergovernmental Panel on Climate Change, "Summary for Policy Makers," *Climate Change 2014* (2014), 12,
https://www.ipcc.ch/ report/ar5/syr/; Matthew Collins et al., "Long-Term Climate Change," in Thomas F. Stocker et al., eds., *Climate Change 2013* (2013), 1031, 1058, https://www.ipcc.ch/site/assets/uploads/2017/09/WG1AR5_Frontmatter_FINAL.pdf.
6. Cal Fire, "2019 Incidents Archive," https://www.fire.ca.gov/ncidents/2019/; Susie Cagle, "California's Fire Season Has Been Bad," *Guardian*, 11/1/2019, https://www.theguardian.com/us-news/2019/nov/01/california-wildfire-season-2019.
7. Reuters Staff, "Fires in Amazon Forest Rose 30% in 2019," *Reuters*, 1/8/2020, https://www.reuters.com/article/us-brazil-amazon-fires/fires-in-amazon-forest-rose-30-in-2019-idUSKBN1Z804V; Rhett A. Butler, "Amazon Deforestation Rises to 11 Year High in Brazil," *Mongabay*, 11/18/2019,
https://news.mongabay.com/2019/11/amazon-deforestation-rises-to-11-year-high-in-brazil/.
8. Livia Albeck-Ripka et al., "'It's an Atomic Bomb,'" *NYT*, 1/4/2020, https://www.nytimes.com/2020/01/04/world/australia/fires-military.html;

Jamie Tarabay, "Why These Australia Fires Are Like Nothing We've Seen Before," *NYT*, 1/21/2020,
https://www.nytimes.com/2020/01/21/world/australia/fires-size-climate.html.

9. António Guterres, "Remarks at Opening Ceremony of UN Climate Change Conference COP25," 12/2/2019,
https://www.un.org/sg/en/content/sg/speeches/2019-12-02/remarks-opening-ceremony-of-cop25.
10. Brady Dennis and Chico Harlan, "U.N. Climate Talks End with Hard Feelings, Few Results and New Doubts about Global Unity," *WP*, 12/15/2019,
https://www.washingtonpost.com/climate-environment/un-climate-talks-end-with-hard-feelings-few-results-and-newdoubts-about-global-unity/2019/12/15/38918278-1ec7-11ea-b4c1-fd0d91b60d9e_story.html.
11. Angus Grigg and Angela Macdonald-Smith, "The Trade War Is Making China More Reliant on Australia," *Financial Review*, 8/15/2019,
https://www.afr.com/companies/energy/the-trade-war-is-makingchina-more-reliant-on-australia-20190814-p52gyn;
Damien Cave, "Australia Wilts from Climate Change," *NYT*, 8/21/2018,
https://www.nytimes.com/2018/08/21/world/australia/australia-climatechange-malcolm-turnbull.html/; Katharine Murphy, "Scott Morrison Brings Coal to Question Time," *Guardian*, 2/9/2017,
https://www. theguardian.com/australia-news/2017/feb/09/scott-morrisonbrings-coal-to-question-time-what-fresh-idiocy-is-this; Somini Sengupta, "Climate Change Policy Toppled Australia's Leader," *NYT*, 8/24/2018,
https://www.nytimes.com/2018/08/24/climate/australia-climate-change.html;
Matthew Brockett, "Australian PM Downplays Climate Change as Cause of Deadly Fires," *Bloomberg*, 12/22/2019,
https://www.bloomberg.com/news/articles/2019-12-22/australian-pm-downplays-climate-change-as-cause-of-deadly-fires.
12. "Brazilian President Bolsonaro Blames Environmentalists for Amazon Fires," *Democracy Now!*, 8/22/2019,
https://www.democracynow.org/2019/8/22/headlines/brazilian_president_bolsonaro_blames_environmentalists_for_amazon_fires; Herton Escobar, "Brazilian Institute Head Fired after Clashing with Nation's President over Deforestation Data," *Science and Policy*, 8/4/2019,
https://www.sciencemag.org/news/2019/08/brazilian-institute-head-fired-after-clashing-nations-president-over-deforestation; Jon Lee Anderson, "At the U.N. Jair Bolsonaro Presents a Surreal Defense of His Amazon Policies," *New Yorker*, 9/24/2019,

https://www.newyorker.com/news/daily-comment/at-the-united-nations-jair-bolsonaro-presents-a-surreal-defense-of-hisamazon-policies.

13. Edward Wong, "Trump Has Called Climate Change a Chinese Hoax," *NYT*, 11/18/2016, https://www.nytimes.com/2016/11/19/world/asia/china-trump-climate-change.html; "Trump on Climate Change Report," *BBC News*, 11/26/2018, https://www.bbc.com/news/world-us-canada-46351940; Brady Dennis, "Trump Makes It Official," *WP*, 11/4/2019, https://www.washingtonpost.com/climate-environment/2019/11/04/trump-makes-it-official-us-willwithdraw-paris-climate-accord/; Coral Davenport and Mark Landler, "Trump Administration Hardens Its Attack on Climate Science," *NYT*, 5/27/2019, https://www.nytimes.com/2019/05/27/us/politics/trumpclimate-science.html.
14. Quint Forgey, "Trump Cautions Davos on Heeding 'Prophets of Doom' on Climate Change," *Politico*, 1/21/2020, https://www.politico.com/news/2020/01/21/donald-trump-davos-climate-change-101327.
15. David E. Sanger and Maggie Astor, "Democratic Candidates Reject Trump's Foreign Policy, but Don't Agree on Theirs," *NYT*, 2/7/2020, https://www.nytimes.com//2020/02/07/us/politics/democraticcandidates-foreign-policy.html; Stephen Collinson, "What Happened during CNN's Climate Town Hall and What It Means for 2020," *CNN Politics*, 9/5/2019, https://www.cnn.com/2019/09/05/politics/climate-town-hall-highlights/index.html; Catherine Garcia, "Alexandria Ocasio-Cortez Says It Was 'Horrifying' the Debate Didn't Have Any Climate Change Questions," *The Week*, 2/25/2020, https://theweek.com/speedreads/898187/alexandria-ocasiocortez-says-horrifying-debatedidnt-have-climate-change-questions-bernie-sanders-agrees; Emily Holden, "What Does the First Climate Question at a US Debate in 20 Years Reveal?," *Guardian*, 9/30/2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/sep/30/presidential-debate-climate-crisis-question-trumpbiden-analysis; Lisa Friedman, "A Debate Pledge to 'Transition' from Oil Puts Climate at Center of Campaign Finale," *NYT*, 10/23/2020, https://www.nytimes.com/2020/10/23/climate/biden-debate-oil.html.
16. Alfred W. McCoy, "Beyond Golden Shower Diplomacy," *TomDispatch*, 5/22/2018, http://www.tomdispatch.com/blog/176426/.
17. Nicholas Kristof, "Why 2018 Was the Best Year in Human History!" *NYT*, 1/5/2019, https://www.nytimes.com/2019/01/05/opinion/sunday/2018-progress-poverty-health.html; Max Roser and Esteban Ortiz-Ospina, "Global Extreme Poverty," *Our World in Data*, 3/27/2017, https://ourworldindata.org/extreme-poverty.

18. Nicholas J. Bell and Muira McCammon, *Colloquium Report on Competing Visions of the Global Order and Status Report on the Global Order* (2018), 8, https://drive.google.com/file/d/1QVBxBCRU096eE6YozvsYNnbdKx6UZQ4K/view.
19. Daniel Deudney and G. John Ikenberry, "Liberal World," *Foreign Affairs* 97, no.4 (2018), 16-24.
20. Richard N. Haass, "How a World Order Ends," *Foreign Affairs* 98, no. 1 (2019), 22-30.
21. "List of Empires," *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_empire.
22. David W. Dunlap, "A Section of the Berlin Wall Will Again Stand in Manhattan," *NYT*, 4/8/2015,

    https://www.nytimes.com/2015/04/09/nyregion/a-20-foot-section-of-the-berlin-wall-will-return-to-manhattanthis-summer.html.
23. "List of Empires," *Wikipedia*.
24. Harold D. Foster, "Assessing Disaster Magnitude," *Professional Geographer* 28, no. 3 (1976), 241-47.
25. Tom Phillips et al., "Beijing Rejects Tribunal's Ruling in South China Sea Case," *Guardian*, 7/12/2016,

    https://www.theguardian.com/world/2016/jul/12/philippines-wins-south-china-sea-case-against-china.
26. Rudyard Kipling, "Recessional," *A Choice of Kipling's Verse Made by T.S. Eliot* (1943); John Darwin, *Unfinished Empire* (2012), 30-32; A.W. Brian Simpson, *Human Rights and the End of Empire* (2001), 18-33.
27. Human Rights Watch, "China's Global Threat to Human Rights," *World Report 2020* (2020),

    https://www.hrw.org/world-report/2020/china-global-threat-to-human-rights.
28. Bartolomé Yun-Casalilla, *Iberian World Empires and Globalization of Europe 1415-1668* (2019), 445-49; Dr. Ruth de Llobet, personalcommunication with author, 5/19/2020.
29. Andrew Glass, "Reagan Brands Soviet Union 'Evil Empire,' March 8, 1983," *Politico*, 3/8/2018,

    https://www.politico.com/story/2018/03/08/this-day-in-politics-march-8-1983-440258.
30. Chalmers Johnson, *The Sorrows of Empire* (2005); Andrew J. Bacevich, "New Rome, New Jerusalem," in Andrew J. Bacevich, ed., *The Imperial Tense* (2003); Andrew J. Bacevich, *American Empire* (2002); Charles S. Maier, *Among Empires* (2006); Jeet Heer, "Are We Witnessing the Fall of the American Empire?," *New Republic*, 3/7/2018,

    https://newrepublic.com/article/147319/witnessing-fall-american-empire;
    Ryan Cooper, "The American Empire Is Crumbling," *The Week*, 12/29/2017,

https://theweek.com/articles/745597/american-empire-crumbling; Thomas J. Wright, *All Measures Short of War* (2017), 1-27, 158-71.

31. Jared Diamond, *Guns, Germs, and Steel* (1999), 360-63; Benjamin Foster, *The Age of Agade* (2016).
32. Niall Ferguson, *Colossus* (2004), 14-15; "List of Empires," *Wikipedia*.
33. Rein Taagepera, "Size and Duration of Empires," *Social Science History* 3, nos. 3/4 (1979), 115-38; John D. Durand, "Historical Estimates of World Population," *Population and Development Review* 3, no. 3 (1977), 253-96.
34. Johan Galtung et. al., "On the Decline and Fall of Empires" (1979), 5, https://www.transcend.org/galtung/papers/HSDR-GPID1-PDF.
35. Gerald A. Danzer, *An Atlas of World History* (2000), 46-47, 56-57; William Shepherd, *Historical Atlas* (1911), 53, 92.
36. D.K. Fieldhouse, *The Colonial Empires* (1982), 373.
37. John Francis Guilmartin Jr., *Gunpowder and Galleys* (1974), 221-52.
38. Paul Kennedy, "The Eagle Has Landed," *Financial Times*, 2/2/2002.
39. Eric Levitz, "The GOP Has No New Ideas Because Elderly Billionaires Own Its Brain," *New York Magazine*, 8/30/2018, http://nymag.com/intelligencer/2018/08/gop-ideas-billionaires-donors-tax-cuts-onepercent-paul-ryan.html; Benjamin I. Page et al., "What Billionaires Want," *Guardian*, 10/31/2018, https://www.theguardian.com/us-news/2018/oct/30/billionaire-stealth-politics-america-100-richest-what-they-want; Russell Berman, "A Guide to the Billionaires Bankrolling the GOP Candidates," *Atlantic*, 4/24/2015, https://www.theatlantic.com/politics/archive/2015/04/a-guide-to-thebillionaires-bankrolling-the-gop-candidates/391233/; Christine Mai-Duc and Jazmine Ulloa, "These Are the Billionaires Hoping to Influence Elections That Will Determine Control of Congress," *Los Angeles Times*, 11/5/2018, https://www.latimes.com/politics/us-news/2020/sep/30/presidential-debate-climate-crisis-question-trumpbiden-analysis; Lisa Friedman, "A Debate Pledge to 'Transition' from Oil Puts Climate at Center of Campaign Finale," *NYT*, 10/23/2020, https://www.nytimes.com/2020/10/23/climate/biden-debate-oil.html.
40. John R. Hale, *Lords of the Sea* (2010), 10-14, 70-74, 82-89.
41. Ian Morris, "The Growth of Greek Cities in the First Millennium BC," *Princeton/Stanford Working Papers in Classics* (2005), 3, http://www.princeton.edu/~pswpc/pdfs/morris/120509.pdf.
42. Errietta M.A. Bissa, *Governmental Intervention in Foreign Trade in Archaic and Classical Greece* (2009), 169-77; Alfonso Moreno, *Feeding Democracy* (2007), 32-

33; Arthur de Graauw, "Merchant Ships," *Ancient Port—Ports Antiques* (2021), http://www.ancientportsantiques.com/ancient-ships/merchant-ships/.

43. Hale, *Lords of the Sea*, 233-46, 308-18.
44. Jeffrey Henderson, ed., *Plutarch Lives*, vol. 7 (1919), 477-511.
45. Gilles Laurén, *Caesar's Commentaries* (2012), chapters 1-29.
46. Alfred Thayer Mahan, *Influence of Seapower upon History, 1660-1783* (1957); Holger H. Herwig, "The Failure of German Sea Power, 1914-1945," *International History Review* 10, no. 1 (1988), 68-105; Paul Kennedy, "The Influence and the Limitations of Sea Power," *International History Review* 10, no. 1 (1988), 2-17; Yōichi Hirama, "Japanese Naval Preparations for World War II," *Naval War College Review* 44, no. 2 (1991), 63-81.
47. H.J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History (1904)," *The Geographical Journal* 170, No. 4 (2004), 298-321.
48. H.J. Mackinder, *Democratic Ideals and Reality* (1919), 185-89.
49. B.W. Blouet, "Sir Halford Mackinder as British High Commissioner to South Russia, 1919-1920," *Geographical Journal* 142, no. 2 (1976), 228-36; Gerry Kearns, *Geopolitics and Empire* (2009), 202-10.
50. Henning Heske, "Karl Haushofer," *Political Geography Quarterly* 6, no. 2 (1987), 135-44; Trevor J. Barnes and Christian Abrahamsson, "Tangled Complicities and Moral Struggles," *Journal of Historical Geography* 47 (2015), 64-73.
51. Edmund A. Walsh, S.J., "The Mystery of Haushofer," *Life* 21, no. 12, 9/16/1945, 107-20; Barnes, "Tangled Complicities," 64-73; Arvid Brodersen, "Albrecht Haushofer 1903-1945," in Albrecht Haushofer, *Moabit Sonnets* (1978), sonnet 36, "My Father," 77-78.
52. Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard* (1998); Daniel J. Sargent, *A Superpower Transformed* (2015), 170-73, 230-31.
53. Brzezinski, *Grand Chessboard*, 38.
54. Andrew Marshall, "Terror 'Blowback' Burns CIA," *Independent*, (10/23/2011), http://www.independent.co.uk/news/terror-blowback-burns-cia-1182087.html; "Interview with Zbigniew Brzezinski," *Le Nouvel Observateur* (Paris), 1/15-21/1998, 76, http://www.globalresearch.ca/articles/BRZ110A.html; Brzezinski, *Grand Chessboard*, 38-39; Zbigniew Brzezinski, *Strategic Vision* (2013), 130-31.
55. Brzezinski, *Grand Chessboard*, 35, 39.

الفصل الثاني

العصر الآيبيري

في شهر أيلول من عام 1960 وعلى الواجهة البحرية التاريخية للشبونة، نظّمت البرتغال بشكل تفصيلي إحياء ذكرى أمير صغير يُعرف باسم هنري الملاح، الذي توفي عام 1460. حضر الحفل رئيس البرازيل ووفد من الشخصيات المرموقة وقصّوا شريط نصب الإكتشافات المذهلة، الذي يقع على نهر تَيگس وفوق قمّة تخطف الأنفاس يبلغ ارتفاعها 171 قدما. يقف الأمير هنري في قمّة هذا الهيكل الخرساني الهائل، أكبر من الحياة رافعا نموذج السفينة الشراعية التي حملته عبر الأطلسي ومشيرا بيده نحو "طريق البحر."

وعلى بعد حوالي مائتي ميل جنوبا في شبه جزيرة ساگرش، تشكل موكب سفن حربية من أربع عشرة دولة أبحر باتجاه قلعة الأمير، بينما كانت مقاتلات نفاثة من دول بريطانيا وإسبانيا والولايات المتحدة تحوم في الجو مدوّية فوق رؤوسنا. كما جرى حفل تكريم لخريجي أكاديمية ساگرش الشهيرة، حيث كان هنري مشهورا بجمع أكثر رسّامي الخرائط وعلماء الرياضيات الأكثر ذكاء في العالم لرسم طرق الإستكشافات. وبعد أن تلاشى هدير الطائرات وأبحر موكب السفن بعيدا، حضر أكثر من ثلاثمائة مؤرّخ مؤتمرا دوليا في لشبونة لمناقشة الدور الرائع لذلك الأمير العالمي في إطلاق عصر الإكتشافات.[1]

ولكن كان هناك تاريخ آخر لسيرة الأمير وعواقبها التاريخية العظيمة. ومع ذلك لم تجرِ مناقشة الكثير ممّا جرى خلال أيام عام 1441، وهو العام الذي صادف بداية الصراع الحديث حول حقوق الإنسان. كان ذلك العام، هو الوقت الذي وصلت فيه إحدى رحلات الأمير هنري الإستكشافية الى نقطة على الساحل الأفريقي على بعد ثمانمائة ميلا الى الجنوب من لشبونة. إنّ السفينة التي أطلق عليها الطاقم إسم Rio Douro (نهر الذهب) بدلا من "الذهب" كانوا يبحثون عن مكافأة غير متوقعة، تمثلت في 12 شخصا من العبيد الأسرى، الذين من المحتمل أن يكون قد استولي عليهم من مخيم للطوارق في الصحراء. عندما عادت السفينة الى لشبونة ورست على بعد أميال قليلة من النهر حيث يقف النصب الشامخ الآن، لم يكن ردّ الأمير كما كان يتوقع المرء من مثل هذه الشخصية الشهيرة.

كتب المؤرّخ الملكي عن ردّ فعل هنري، "أرى أمام عينيّ، كم كانت فرحته عظيمة... ليس لعدد هؤلاء الأسرى، لكنّ الأمل أيّها الأمير القدّوس! للآخرين بما يمكن أن يكون لديك في المستقبل." في الواقع وبعد ثلاث سنوات، عاد المزيد من سفنه وهي محمّلة بالمطوفين حدّ طاقتها باحتجاز 235 من العبيد في غارات على طول الساحل الأفريقي. حين تجمّعت الحشود عند السفينة الراسية، إدّعى الأمير من على صهوة حصان قويّ، أنّ نصيبه الشرعي من امتلاك "الحمولة البشرية" هو الخُمس فقط ويبلغ 46 عبدا. كما أفادت سجلات المحكمة، بأنّ تقسيم الباقين الى مجموعات سيشتت شمل العائلات ويُسبّب الكثير من البكاء. ذكر أحد المؤرخين بأنّ الأمّهات تشبّثن باطفالهن، ووسط الصراخ والعويل والتوّسلات غير المجدية، تعرضت هؤلاء النسوة المنكوبات للجلد بسياط المختطفين.[2] ومع ذلك فقد احتفل هذا المؤرّخ باستعباد هؤلاء الأفارقة، الذين "عرفوا فقط كيف يعيشون كالحيوانات الوحشية الكسلانة" لكنّهم "استداروا بحسن نية نحو طريق الإيمان الحقيقي."[3]

إذا وضعنا جانبا كلّ صناعة الأساطير، فإنّ الأمير لم يفعل كما في مثل كتاب القدّيسين. إدّعى ترأس الإبتكارات في الملاحة والهندسة البحرية، التي جعلت عصر الإستكشافات ممكنا. لم يكن هناك علماء اكاديميّون لوقف عاصفة ذلك التوجّه الأرعن في ساگرِش. لا حكماء ولا أفكار للحوار والمناقشة، بل مجرّد قلعة باسوار حجرية وبوصلة زخرفية في حديقتها. قام هنري بتنظيم حملات العبوديّة وتفاوض مع البابا للموافقة على إضفاء الشرعية على تجارة الرقيق من الأفارقة الأسرى. وقبل كلّ شيء كانت تلك هي بداية أوّل مزارع قصب السكّر، التي جعلت العبودية عملية مُربحة.[4]



تمثال الراهب أنطونيو دي مونتِسينوس من إبداع النحّات أنطونيو كابتيلانوس (Credit: Alamy)

على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي وفي شهر تشرين الأول من عام 1982، إفتتحت المكسيك وجمهورية الدومينكن نصبا تذكاريًا برسالة ذات مغزى حزين Somber Message. إرتفع تمثال لمائة قدم فوق الواجهة البحرية لسنتو دومينگو للراهب أنطونيو دي مونتيسنوس، وهو يحدّق عبر البحر الكاريبي ويرفع يدا برونزية عملاقة في لفتة غاضبة لإحياء ذكرى الخطبة الحماسية، التي ألقاها في ذلك المكان عام 1511 وشجب فيها الإساءة الإسبانية لسكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر. محاطا بشلة من افراد الجيش النظامي لكلي البلدين، أشار رئيس المكسيك الى أنّ هذه كانت هي "المرّة الأولى التي جرت فيها شرعية رفع الصوت دفاعا عن حقوق الإنسان. لم يسبق من قبل في التاريخ أن شكّك المُنتصر في أساس إنتصاره." في الواقع، كانت تلك الخطبة بمثابة بداية التقييم الطويل المؤلم في العالم الأيبيري للنظر في الجانب الدوني المظلم من تراث الأمير هنري.[5]

في عام 1502، كانت السفن الأولى تحمل المستعمرين والغزاة الأسبان الى العالم الجديد. وحين اقتربت من شاطئ سانتو دومينگو، خاطبهم قائدهم بالقول، "لقد وصلت في لحظة جيّدة. يجب أن نشنّ حربا ضدّ الهنود وسنكون قادرين على أخذ العديد من العبيد." على مدى السنوات العشر التالية، إجتاح هولاء الغزاة جزيرة هِسپانيولا فاستعبدوا السكان الأصليين وذبحوا كلّ من قاومهم. كانت نتيجة تلك الحملة انخفاض عدد السكان من 400 ألفا الى 60 ألفا فقط. بحلول عام 1511 كانت النتيجة مروّعة للغاية، وكان الأب مونتيسنوس، الذي وصل مؤخّرا مع أوّل من وصل الى العالم الجديد مع مجموعة من الرّهبان الدومنيكن، الذين شعروا بأنّهم مضطرّون لإلقاء خطبة عيد الميلاد، التي من شأنها في النهاية أن يتردّد صداها عبر المحيط الأطلسي. حتى الآن وبعد ما يزيد عن خمسمائة من السنين، يبدو أنّه من اللافت أنّ هذا الكاهن كان بإمكانه التحدّث بصدق تام.[6]

خاطب الكاهن المستعمرين الأسبان من رعيته قائلا، "أنا صوت المسيح في صحراء هذه الجزيرة." ثمّ مضى للقول:

كلكم في خطيئة مميتة وتعيشون وتموتون فيها بسبب القسوة والإستبداد، اللذين تمارسونهما مع هؤلاء البشر الأبرياء. قولوا لي بأيّ حقّ وبأيّة عدالة تكبّلون هؤلاء الهنود بقيود العبوديّة الرهيبة؟ بأيّة سلطة تشنّون مثل هذه الحرب البغيضة وتجلبون خرابا وموتا لم يُسبق لهما مثيل على هؤلاء الناس، الذين كانوا يعيشون بسلام في أراضيهم؟ كيف يمكنكم الإحتفاظ بها وهم مُرهَقون ومُضطهدون محرومون من الطعام... فتسبّبون في موتهم، أو بشكل أكثر دقة قتلهم؟ كلّ هذا حتى نتمكّن من الحصول على مزيد من الذهب يوميا. أليس هؤلاء كائنات بشرية؟ أليس لديهم أرواح وعقول؟ هل أنتم غير مضطرّين أن تحبّوهم كما تحبّون أنفسكم. ألا يمكنكم سماع هذا؟ هل تستطيعون ألّا تشعروا به؟[7]

كانت تلك اللحظة بمثابة بداية نقاش حادّ حول العبودية وحقوق الإنسان بالنسبة للهنود الأمريكيين، والتي كان من المُفترض أن تعكّر صفو إمبراطوريتي آيبيريا حول العالم في ذلك القرن. كان ديگو كولومبُس، نائب الملك على جزر الهند وابن المُستكشف الشهير جالسا مع المصلين في ذلك اليوم التاريخي. شعر بالغضب وسرعان ما تمّ استدعاء الأب مونتيسوس بالرجوع الى اسبانيا والمثول أمام الملك فرديناند، الذي كان منزعجا ممّا ورد في خطبة الكاهن. ومع ذلك دعا الملك في عام 1512 لصياغة ما سُمّي قوانين بورگُس Laws of Burgos، التي اعترفت بحقوق الهنود الأمريكيين لامتلاك الأراضي وكسب الأجور وتلقي التعاليم المسيحية. ومع ذلك وبموجب هذه القوانين، فإنّ اللغة الإسبانية كانت واضحة في التعبير عن مطالب الفاتحين. جرى تحذير السكان الأصليين أنّهم إذا رفضوا قبول سلطة الكنيسة على الفور كسيّدهم ورئيسهم، "فأنّني سأشنّ الحرب في كلّ مكان، وسآخذ زوجاتكم واطفالكم واجعلهم عبيدا." عندما ثبت أنّ تلك

القوانين غير مناسبة بشكل مؤسف، فإنّ حفيد الملك ووريث الإمبراطور چالز الخامس أصدر قوانين جديدة في عام 1542 منعت بشكل صارم استعباد الهنود الحمر للدرجة أنّ تنفيذها أجّج ثورة بين المستعمرين الأسبان في پيَرو. كما عيّن الإمبراطور الأب مونتيسيوس كحام للهنود في ڤنزويلا، حيث قام مستوطن اسباني باغتياله عام 1540 بسبب قيامه بواجبه.[8]

بهذه الطريقة ومنذ بدايته تقريبا، طوّر النظام العالمي الأيبيري الإزدواجية بين الحكم الإمبراطوري القاسي، الذي يتّسم بالعبوديّة والقتل وبين مُثل السموّ الإنسانية المشتركة. لقد غزا المحتلون الأسبان منطقة البحر الكاريبي بسيوفهم الفولاذية وأوقعوا الذبح بالسكّان المحليين، الذين لم يحملوا سوى الأسلحة الخشبية. إرتدّ قساوسة الكاثوليك وشجبوا ما يجري بشكل لافت للنظر وطالبوا العمل وفق المبادئ الحديثة لحقوق الإنسان. لا يوجد نظام عالمي ينتهك حقوق الإنسان بالكامل، ولم يتألم أيّ شخص آخر لتلك الجرائم ويشعر بتأنيب الضمير. في نهاية القرن الأول من عمرها كقوّة عالمية، حاولت إسبانيا موازنة منح الحماية للهنود الحمر وتوفير العمالة الكافية للمناجم والمزارع في العالم الجديد من خلال تسوية قاسية تمثلت في تجارة الرقيق الأفارقة.[9]

منذ أوّل الشحنات البشرية للأمير هنري في أربعينات القرن الرابع عشر نمت حركة جلب العبيد الأفارقة خلال القرون الأربعة التالية لتصبح تجارة واسعة حملت ما بين 10 الى 12 مليون مكبّلا مخطوفا عبر المحيط الأطلسي في واحدة من اعظم واقسى هجرات التاريخ. لم يبدأ المستكشفون البرتغاليون حركة المرور غير الإنسانية فقط، بل كانوا ايضا مديري التجارة التي نقلت 52000 عبدا افريقيا الى أمريكا الإسبانيّة بين الأعوام 1520 لغاية 1595، ممّا جعل العبوديّة إحدى السمات المميّزة للعصر الأيبيري. إزدادت حركة نقل البشر المختطفين خلال اتحاد البرتغال مع إسبانيا من 1580 الى 1640، حين شحن البرتغاليون 300000 من العبيد الأفارقة الى أمريكا الإسبانية.[10]

إذا أردنـا رسـم تـاريخ العـالم بالفرشـاة العريضـة لخبراء سـير القديسـين، لأمكننا القول إنّ الأمير هنري قد أرسـى الأسـس الجديدة لطريقة حكـم الكرة الأرضـية. لقد وجد المسـتكشـفون البرتغاليّون والأسـبان مسـارات عبر مياه العـالم لاستعمار أجزاء من آسيا وإفريقيا والأمريكتين خلال القرنين الخامس عشر والسـادس عشـر، وشكلوا نظاما آيبيريا ومعرفة بنظرة موسّـعة للسـيادة تُبرّر الغزو الإمبراطـوري، ومـن خـلال رؤيـة ضـيّقة لحقـوق الإنسـان عـزّزوا الإسـتعباد الجماعي.

لا يزال هذا النظام يلقي بظلاله على عصرنا الحديث. ولد الطاعون الأسود الذي اكتسح أوروبا بين الأعوام 1350 لغاية 1450، العالم الأيبيري واستمرّ النظام لمدة ثلاثة قرون قبل أن تحلّ حقبة الإمبراطورية البريطانية محله في عام 1815. ومع ذلك، إخترع التسلسل الهرمي الذي أدّعى تحرير المسيحيين واعتبرهم متفوّقين على العبيد الأفارقة واطلق صراعا على طبيعة حقوق الإنسـان لا يزال مستمرّا حتى يومنا هذا. وبالمثل، سلّمت سلطة الفاتيكن المقدّسة حلّ الخلافات الدبلوماسية الى الأمم المتحدة والمحكمة العالمية، غير أنّ المبدأ الأساسي للولاية القضائية العالمية Universal Jurisdiction الذي يتجاوز بقايا الحدود الوطنية، ظلّ قائما.

شهد العصر الأيبيري أيضا إنتقال أوروبا الى ما بعد الإعتماد الحصري على الطاقة الحيوانية والطاقة المائية. في فترة القرون الوسطى المتقدمة، كانت القرية النموذجية التي يسكنها 300 شخصا بالغا، لديهم 15 حصانا فقط لمساعدة العمل البشري ويكملها بثلاثين أخرى من قطيع من 60 حيوانا للجرّ و3 خيول إضافية لتشغيل العجلة المائية لطحن الحبوب وتحويلها الى دقيق. كانت طواحين المياه المُستخدمة منذ روما القديمة مصدرا حيويا لاغراض عديدة من طاقة براميل البارود الى طحن الزجاج. جادل المؤرخ مارك بلوخ بأنّ اختفاء العبودية من أوروبا بحلول القرن العاشر تزامن مع انتشار الطاقة المائية و"استخدامها بكفاءة أكبر من القوى الطبيعية غير الحيّة."[11]

ومع ذلك، إكتسب النظام العالمي الأيبري امتداده العالمي الإستثنائي من خلال تسخير أشكال جديدة من الطاقة؛ قوّة العضلات المتكتلة التي زادت ناتج جسم الإنسان وتيّارات الرياح التي دفعت الطواحين والسفن. وصلت طواحين الهواء الى أوروبا من بلاد فارس في القرن الثاني عشر وانتشرت بسرعة بحيث بلغ عددها في انكلترا 4500 طاحونة بحلول القرن الرابع عشر و4000 طاحونة في هولندا بحلول القرن السابع عشر. من خلال اعتماد شراع مثلث الشكل، ضاعفت السفن البرتغالية مثل *كارفلا دي أرمادا* الشهيرة المواسعة بين المراكب الشراعية في إقترابها من سرعة الريح، ممّا جعلها سيدة عالم المحيطات. مقارنة بعجلة الماء للمركبة الشراعية المتواضعة التي تبلغ قوتها 3 أحصنة في عجلة المياه، كانت آلات قويّة تنتج 50 حصانا. وأمكن هولندا أن تشغّل طواحين الماء الكبيرة لما يصل الى قوّة 60 حصانا.[12]

على مدى القرون الثلاثة التالية، كانت السفن الشراعية تنقل ملايين العبيد الأفارقة عبر المحيط الأطلسي للعمل في نوع جديد من الزراعة وهو العمل في مزارع السكّر القاسي للغاية والمربح للغاية. في حين كان إنتاج مزارع أوروبا مقيّدا بحدود جسم الإنسان الفردي والطقس المعتدل لمدة 6 أشهر فقط لموسم العمل، إحتشد العمال العبيد في مزارع المنطقة الإستوائية وتمّ دفعهم بلا رحمة للعمل على مدار العام لتحقيق مستويات غير مسبوقة من الإنتاجيّة. في القرن السادس عشر، وبعد تطوير مزارع قصب السكّر أو *Fazenda*، كشكل جديد من اشكال الأعمال التجارية الزراعية في جزيرتي *ماديرا وساو* تومي، قبالة الساحل الأفريقي، نقل البرتغاليون هذا النموذج الى البرازيل.

إنتقل من هناك الى المستعمرات الأوروبيّة في منطقة البحر الكاريبي. واستمرت تلك المؤسسة الفريدة المرادفة لتجارة الرقيق لما يقرب من 4 قرون.[13] كانت مزارع العبيد مُربحة للغاية ومُثمرة للغاية وكان هذا الإتجار بالبشر شكلا من العمل لم يمتّ بسبب إنهاك الإقتصاد الطبيعي. تطلب الأمر

لاستئصاله القوة الكاملة للإمبراطورية البريطانية وحرب أهلية أمريكية. باختصار تمّ تمثيل انتقال الطاقة في العصر الأيبيري بواسطة اثنين من العوامل الرئيسية، المركب الشراعي الذي غزا محيطات العالم ومزرعة الرقيق فازندا، التي حُشدت فيها العضلات البشرية بشكل استثنائي من أجل الأرباح والإنتاجية.

كارثة الطاعون الأسود

وُلِد العصر الأيبيري من رحم جائحة الطاعون الأسود (حوالي 1350 لغاية 1450)، التي لم تكن أقلّ من أكبر موجة من الوفيات الجماعية في تاريخ العالم. في غضون أربع سنوات فقط، قتل وباء الطاعون الدبلي Bubonic Plague ما يصل الى 60٪ من مجموع سكان أوروبا، ممّا أسفر عن مقتل حوالي 50 مليون مواطنا،[14] حسب الإحصاءات الأقلّ دقة. كانت نسبة الوفيات هناك قابلة للمقارنة مع انخفاض عدد السكان من 123 مليونا في عام 1200 الى 65 مليونا فقط بحلول عام 1393. يسجل أحد الأحداث أنّ 9 من كلّ 10 اشخاص في مقاطعة هيبي بالصين قد ماتوا نتيجة الإصابة بالطاعون.[15] إنّ هذه التقديرات أقلّ من الواقع، لكنّها لا تزال مدمّرة. تكرر الطاعون الأسود خلال نصف القرن التالي، فانخفض عدد سكان العالم بما يقرب من 20٪، أي من 440 مليونا الى 350 مليونا فقط. ولم يتمّ التعافي بالكامل حتى لقرن آخر.[16]

بدأً من الصين، إنتشر الطاعون عبر الأراضي العشبية في وسط بلدان آسيا، حيث أدّى صعود الإمبراطورية المغولية لخلق ظروف مثالية لانتقال المرض عبر مسافات كان من المتعذّر الوصول اليها. بعد ألف عام من أرسال الغزاة الفرسان للسيطرة على أوروبا من الشرق والوسط، أنتجت آسيا أقوى زعيم لها في شخص جنكيز خان، الذي وُلِد ليصبح زعيما قبليا ثمّ ليكون تكتيكيا لامعا. بدأ من عام 1215 وبعد غزو شمال الصين، توجّهت جحافل الجيوش المغولية من الرماة وهم على صهوات جيادهم غربا واخترقوا أوروبا حتى نهر الدانوب

واستولوا على العظيم من مدن الشرق الأوسط بعد أن قطعوا خمسة آلاف ميلا عبر أوراسيا عام 1280. إستقرّت الإمبراطورية المغولية في آسيا الوسطى بدرجة كافية سمحت للقوافل التجارية للسفر على طريق الحرير بأمان بين الصين وأوروبا. بعد نصف قرن كانت القوافل تحمل القوارض، التي حملت الطاعون الأسود. لقد جاء الموت من الصين عبر السهوب العشبية حتى أطراف أوروبا.[17]

حين وصل الطاعون، كانت أوروبا تعاني بالفعل من ركود اقتصادي خطير جعلها عرضة للإصابة بالأمراض في بداية القرن الرابع عشر. كان مناخها قد تحوّل الى برد قارس ورطوبة عالية مع تقدّم الأنهار الجليدية في جبال الألب. بدأت المحاصيل في الإنهيار بوتيرة قاتلة ممّا أدّى الى نهاية مفاجئة لعدة قرون من الإزدهار الذي تمّ تحديده من خلال توسّع الإنتاج الزراعي وزيادة عدد السكان الذين وصلوا الى 75 مليون شخصا.[18] خلال ذلك "العصر الجليدي الصغير" تجمّد بحر البلطيق ما بين الأعوام 1303 و1306. مع انخفاض غلة الحبوب بمقدار النصف، عانت القارة من تكرار نوبات المجاعة، حين انخفض عدد السكان بنسبة 10٪ الى 25٪.[19] بحلول ذلك الوقت، ضرب الطاعون في عام 1347 واصبحت أوروبا قارة مزدحمة، يكافح الجزء الأكبر من سكّانها ويفشل في كثير من الأحيان في انتاج ما يكفي من الغذاء. وهي الظروف التي جعلت القارة عرضة بشكل خاصّ للموت الأسود.[20]

وصل الطاعون لأوّل مرّة الى أوروبا في عام 1347 عندما حاصرت القوات المغولية ميناء كافا في شبه جزيرة القرم، ثم الميناء التجاري في اقصى شرق جَنَوا Genoa التي أضحت البؤرة الإستيطانية التي دمّرها المرض فجأة. قبل انسحابهم، وبحسب ما ورد، استخدم المغول مناطق قلع الأحجار مكانا لرمي الجثث المتقيحة عند اسوار المدينة. حين استسلم المدافعون عن جَنَوا في إيطاليا، فرّوا في عشرات السفن التي تحمل أطقما مريضة وفئران مصابة. بحلول الوقت الذي وصل فيه الأسطول الى ميناء ميسينا في صقلية في شهر تشرين الأول، كان البحارة يعانون من شدّة المرض حدّ العظام.[21]

على مدى السنوات الست التالية، إستشرى الطاعون في جميع انحاء أوروبا وانتشر من موانئ البحر الأبيض المتوسط الى شمال إيطاليا وفرنسا وإنكلترا وبولندا واسكتلندا قبل الوصول الى أعالي القارة في الدول الإسكندنافية. على الرغم من الإجراءات الصارمة للصحة العامة كانت فينيا هي المدينة الأكثر ازدهارا في ذلك الوقت. ومع ذلك عانت من 72000 حالة وفاة بين سكانها البالغ عددهم 120000 شخصا. كما فقدت فلورنسا 100000 ساكنا من أهاليها وسط الفوضى والهروب الجماعي. كتب الشاعر جيوفاني بوكاچيو قصيدة بعنوان "كم عدد القصور الكُبرى" لحبيبته فلورنسا. "كم منازل فخمة، وكم عدد المساكن الرائعة التي كانت تعجّ بالخدم والملوردات والسيدات الملاح. تُركت الآن مُقفرة من كلّ شيء حتى العبيد اللئام!" شهدت سينا المجاورة 88000 حالة وفاة من بين 97000 شخصا، ممّا دفع كاتب العدل المحلي أن يدوّن "هذه نهاية العالم." في أفينون في جنوب فرنسا، حدثت 62000 حالة وفاة في 3 أشهر فقط، فتركت 7 آلاف منزلا فارغة. في إنكلترا، خسرت منطقة ونچستر 8000 شخصا من بين 10000 نسمة، وقطع الطاعون رقعة مماثلة عبر لندن.[22]

سعت إحدى السفن التجارية الموبوءة التي طُردت من إيطاليا الى اللجوء أوّلا الى ميناء مرسيليا ثمّ الى إسبانيا، لكن الوباء كان ينتشر في كلّ ميناء ومرسى، قبل أن ينتقل من السواحل إلى الدواخل عبر خمس نقاط منفصلة لعدوى الطاعون الأسود. وصلت الوفيات الى حوالي 35٪ من شبه الجزيرة الآيبيرية خلال فترة عامين، ممّا ادّى الى تدمير السكّان، الذي اضعفوا بالفعل بسبب الحروب الطويلة. في الجنوب وفجأة، إجتاح الجيش القشتالي، الذي كان يحاصر إمارة غرناطة المُسلمة وإجتاحها عام 1350. غير أنّ القائد الملك ألفونزو الحادي عشر توفي يوم الجمعة العظيمة لإصابته بالمرض، ليصبح العاهل الأوروبي الوحيد الذي استسلم لذلك الوباء.[23]

لو كان هذا الوباء الذي حلّ بالقارة كارثة فريدة لكان السكان قد تعافوا في غضون جيل. لكنّه، كما يجادل مؤرّخ القرون الوسطى روبَرت س. گوتفريد، بأنّه ظهرت له تحوّرات جعلته فريدا من بين كافة "الأوبئة القاتلة." ظهرت تلك التحوّرات كلّ 5 الى 12 عاما للفترة بين 1361 حتى عام 1494 في اجزاء من اوروبا قضت على ما يصل الى نسبة 20٪ من السكّان. عانت إسبانيا، على سبيل المثال ثماني نوبات من الطاعون، ممّا أدّى الى خفض سكان مقاطعة كَتَلونيا ومدينتها الساحلية برشلونة من 430000 مواطنا الى 278000 مواطنا عام 1497. خلال القرن التالي، قد تكون العدوى الأولى في أوروبا والتحوّرات المتكرّرة، قد كلفت القارة أكثر من 75٪ من مجموع سكانها، ممّا جعلها، كما ذكر المؤرّخ دَيفِد هِرلَيهي، "أشدّ الكوارث الطبيعية التي ضربت أوروبا تدميرا على الإطلاق."[24]

في عملية التصفية التي لا هوادة فيها، ضرب هذا الوباء نظام المجتمع القديم وحفّز التحوّل في القارة نحو اتجاهات جديدة مثيرة. على المستوى الأساسي، تسبّب في نقص دائم في العمالة التي أدّت الى انخفاض ايرادات العقارات الإقطاعية وأجبر الأرستقراطيين على البحث عن دخول بديلة من خلال شنّ الحروب، وبروز قرن من الصراع المستمرّ في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا للتعامل مع ندرة العمالة وارتفاع تكاليفها.[25] شهدت تداعيات الطاعون أيضا ما سمّاه هِرلَيهي "فترة مثيرة للإعجاب"، بما في ذلك التقنيات الزراعية المُبتكرة وتوفير العمالة في ميدان الطباعة و"ثورة النقل البحري" باستخدام السفن الشراعية الأكبر، من التي تحتاج الى أطقم أصغر.[26] من خلال تكرّر الخسائر السكانيّة، إختفى نظام العزبة Manorial System، الذي عمل فيه الأقنان Serfs لخدمة المالكين ومصالحهم، في غرب أوروبا ووسطها وحلّ محله نظام المُزارعين اليُمان Yeoman المستقلّين. كما أنّ ضعف النقابات التجارية أدّى الى شكل من أشكال التجارة أكثر تنظيما. دفع هذا حسب رأي گوتفريد، "التجار الأيبيرين والإنگليز والهولنديين الى البحث عن أسواق جديدة وتجارة مفتوحة من أوروبا الى بقيّة العالم."[27]

كـان لتلـك الكارثـة الديموغرافيـة أيضـا تـأثير جيوسياسـي عميـق. إثـر تـأمين الحـدود الشـرقية الهشّـة لأوروبـا وتحريرهـا، جـرى الإنعطـاف غربـا لاسـتكشـاف المحيطـات. لمـا يقـرب مـن ألـف عـام مـن غـزو أتيلا الهـون Attila the Hun لمـناطق الإمبراطوريـة الرومانيـة عـام 447 ميلاديـة بعـد هزيمـة العثمـانيين للجيـش البيزنطي بالقرب من القسطنطينية عام 1302، إستسلمت أوروبا لموجات متتالية من الجيوش "البربرية" المنطلقة من مراعي الشرق. خلال عدة قرون قبل عام 1300، كانت غـارات المحاربين الفرسان من وسط آسيا قد وصلت ذروتها. كتب المـؤرّخ وليَم ماكنيل، "ولكن عندما دمّر الوباء هؤلاء الرعاة الرُحّل، فقد دُمّر مجتمع السـهوب بشكل فعّال ووضـع حدّا للتهديدات المسـتقبلية القادمة من آسيا الوسطى الى أوروبا، وأيضـا تقلّص نفوذ المغول، الذي اسـتمرّ قرنـا مـن الزمن لفرض السـلام بالقوّة في جميـع انحاء المنطقة. وهكذا قطع الطـاعون الطرق التجارية الرئيسـية، التي نقلت ثروات آسـيا الى أوروبا، مشجّعا البحث عن بدائل."[28]

بشكل مُختصـر، أدّى الطاعون الأسود الى تحريك القارة واطلاق الإنتقال الى نظام عالمي جديد. اطلقت هذه الأزمة في شبه الجزيرة الأيبيرية العنان للنظام الإجتماعي في العصـور الوسـطى وتجميع القوة المستمرة في أوروبـا للإبتكـارات في مجـالات البنـوك والحـرب والملاحـة لإرسـال السـفن بعيـدا في المحـيط الأطلسـي، حيث بحث الملاحون عن جزر ليستقرّوا فيها ويجدوا الطرق للتجارة المباشرة مع آسيا. خلال القرن، الذي أعقب نهاية أسوأ الأوبئة في عام 1420، فإنّ الإستكشـاف الآيبيري سيجعل الإتصـالات بين القـارات منتظمـة لأوّل مرّة في التاريخ، وبالتالي السماح بتشكيل العالم وتنظيم تفاعلاته.

عوالم مُتفرقة في عام 1400

من الصعب اليوم تخيّل مدى انفصال القارات عشية التوسّع الأوروبي عام 1400. بلغ عدد سكان العالم 350 مليون نسـمة فقط، أي 4٪ من الإجمالي الحالي،

حيث مساحات شاسعة من الأرض لم يحتلها سوى الصيادين والرعاة الرُّحّل. كانت أوروبا مكتظة بالسكان نسبيًا وقوية وفيها 20٪ من مجموع سكان العالم. على الجانب الآخر كانت الصين هي المنطقة الأخرى الوحيدة المماثلة في الوزن الديموغرافي، على الرغم من أنّ الهند لم تكن بعيدة عن الركب. كانت هناك محيطات مفصولة غير مُستكشفة وصحاري لا نهاية لها وغابات كثيفة ومناطق قليلة مستقرّة في هذا الكوكب، الذي ضمّ عددا كافيا من السكان للحفاظ على دولة ما قد بدأ للتوّ وانبثق من قرون من العزلة الإقليمية ونسج الخيوط الأولى للتجارة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

في هذه العملية، أصبح البحر الأبيض المتوسط مفترق طرق لثقافات وتجارة تلك القارات الثلاث. ممتدا لمسافة 2500 ميلا من عواصف المحيط الأطلسي، كانت رياح هذا البحر أكثر اعتدالا والعديد من الجزر اصبح الوصول اليها متاحا بواسطة سفن صغيرة وبدون خرائط وأدوات ملاحية. كان البحر نفسه منطقة حرّة خارج سيطرة أيّة دولة ممّا اتاح الفرص للإستيلاء على مئات السفن خلال هذا السنوات من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين. علاوة على ذلك، كانت هناك حرب محلية مستمرة بين دول المدن في شبه الجزيرة الإيطالية. وفي البحر الإدرياتيكي كانت هناك منافسة تجارية بين جَنَوا وفينيسيا وفي البلقان مع العثمانيين.[29]

في الطرف الغربي من البحر الأبيض المتوسط، كانت شبه الجزيرة الأيبيرية منطقة حرب مستمرّة وتلاقح ثقافي بين متشدّدين مسيحيين في الشمال وإمارة إسلامية في الجنوب. طوال القرن الرابع عشر، استمرّت المجتمعات المحاربة في الشمال والمكونة من مملكتي قشتالة وأرّگون الأيبيريين في حملاتهما العنيفة ضدّ الملوك المسيحيين المنافسين وغرناطة المُسلمة. في عام 1400 كانت آيبريا لا تزال منغمسة في عالمها المتوسطي العاصف وعالمها نحو التحوّل الى استكشاف المحيط الأطلسي الذي كان لا يزال على مبعدة عدة عقود.[30]

إنفصلت منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط عن معظم شعوب أفريقيا بفعل صحراء رملية واسعة. ولكن اعتبارا من القرن الحادي عشر وفي يوم ما، قاد تجار البربر القوافل عبر الصحراء من غرب افريقيا الى مناجم الذهب في غانا ومالي وتوريد ثلثي السبائك الذهبية في أواخر العصور الوسطى الى أوروبا. على الجانب الآخر من قارة افريقيا الشاسعة، حكمت سلطنة مسلمة السواحل الشرقية امتدادا من كيلوا في تنزانيا الحالية، بينما سيطر ملوك شونا جنوبا في زمبابوي، حيث توجد مناجم الذهب والنحاس بين نهري ليمبوبو وزامبيزي.[31]

بحلول عام 1400، ربطت طرق التجارة العربية عبر المحيط الهندي أفريقيا بالممالك الغنية في الهند وإندونيسيا والصين. كان جزء كبير في شمال الهند في حالة اضطراب بعد غزو القوات التركية المغولية بقيادة تيمورلَنك عام 1398، ولكن في جنوب غرب شبه القارة الهندية كانت إمبراطورية Vijayanagar تحكم المنطقة خلال العصر الذهبي الهندوسي وتجارته الخارجية النشطة.[32] شرقا وعبر خليج البنغال سيطرت سلطنة الملايو التي كان عدد سكانها 50000 نسمة على مضيق ملقا وتجارة التوابل من الجزر في أقصى الشرق في اندونيسيا. الى الشمال والعاصمة الداخلية لإمبراطورية الأنگور، في الوقت الحاضر كمبوديا، كانت على وشك الإنهيار نتيجة تغيّر المناخ، التي سرعان ما حوّلت تلك المدينة التي يبلغ عدد سكانها مليون نسمة الى خراب بعد أن ابتلعتها مياه البحر.[33] أمّا الأدغال عبر الجبال الوعرة، التي تفصل جنوب شرق آسيا عن الصين، كانت سلالة مِنگ الجديدة قد طردت مؤخّرا الغزاة المغول، ولكن تراجعت الآن خلف توسيع سور الصين العظيم لمنع المزيد من غزوات الرعاة الرحّل والإبتعاد عن البحر بتوسيع قناة كبرى طولها ألف ميلا الى عاصمتها الجديدة في بكين.[34]

خارج هذه الدوائر التجارية، كانت هناك ثلاث قارات لا تزال غير معروفة لأيّ شخص خارج شواطئها. بحلول عام 1400، وبعد عدة قرون من التجارة

والسفر والغزو والهجرة جلبت هذه اليابسة ثلاثية قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا في اتصال وثيق. لكنّ أستراليا والأمريكتين المحاطة بالبحار الشاسعة بقيت غير معروفة، إلّا لسكانها الأصليين. فمثلا، عاش السكان الأصليون في أستراليا على الكفاف ولم يعرفوا التجارة، ولم يتمّ تعيين قارتهم النائية على الخارطة لغاية اربعة قرون أخرى.

ظهرت بحدود عام 1400 تشكيلات "الدولة" في اربع مناطق من العالم الجديد في الأمريكتين. في جبال الأنديز كانت الإنكا قد بدأت للتوّ الفتح، الذي سيجعلها قريبا أميرة مملكة جبلية ممتدّة لمسافة ثلاثة آلاف ميلا من الأكوادور حاليا الى چلي. في شبه جزيرة يوكتان، كانت هناك إمبراطورية المايا العظيمة في چچن إيتزا، التي تفكّكت واستُبدلت بعاصمة أصغر في مايابان التي آوت 15 ألفا من السكان. في اقصى الشمال في وادي المكسيك كان يوجد عدد من دول المدن الصغيرة المنخرطة في حروب مستمرّة من شأنها أن تنبثق عنها بعد 30 عاما فقط مملكة تصبح إمبراطورية الأزتك القويّة. في أمريكا الشمالية، ظهرت مستوطنة في منطقة المَسّيسبي ضمّت ساحات ومعابد متدرّجة بالقرب من سَينت لِوِس الحالية، لكنّها انهارت بحدود عام 1300 تاركة مكانتها القبلية الأكثر محليّة لاتحادات قبلية قارية من الإيروكوا والچوروك والكريك والناچز The Iroquois, Natchez, Cherokee, Creek وغيرهم، من الذين واجهوا يوما ما الأوروبيّن.[35]

آيبيريا تقيم نظاما عالميا

في العقود التي تلت عام 1400 وبعد العزلة الإقليمية والتجارة الهشّة، أفسحت آيبريا المجال للغزو والتجارة والإستكشاف، التي من شأنها لأكثر من قرن بقليل، ربط القارات معا في نظام عالمي جديد.. مثل تيمورلنگ، الذي اجتاح بفرسانه آسيا الوسطى، إستولى الأتراك العثمانيون على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عام 1453، وحوّلت مملكتا آيبيريا إستكشافاتهما نحو البحر لمدة قرن.

لم يقتصر الأمر على البرتغال، إذ وسّعت إسبانيا إمبراطوريتها الى أربع قارات وأنشأت ايضا للمرّة الأولى نظاما عالميا جديرا بهذا الإسم. نظام عالمي واحد يمزج التجارة بالفتوحات والتحوّل الديني. إبتداءً من عام 1420 أبحر البرتغاليون بسفنهم الحربية الخفيفة القاتلة التي صنعت التطورات في الملاحة والحرب البحرية، واندفعوا جنوبا الى أسفل الساحل الإفريقي. خلال أيام القرن التالي داروا حول طرف افريقيا واستولوا على المحيط الهندي وبنوا ما يقرب من 50 ميناء محصّنا أمتدّت ما بين البرازيل الى جنوب شرق آسيا، ممّا سمح لهم بالسيطرة على الكثير من التجارة لمعظم القرن السادس عشر. وبعد قليل لاحقا، تبع الغزاة الأسبان كولومبُس عبر المحيط الأطلسي وبسطوا سيطرتهم واعلنوا قيام إمبراطورية ما وراء البحار، التي شملت الكثير ممّا يُعرف الآن بأمريكا اللاتينية.

لم يكن الإستكشاف البحري في حدّ ذاته شيئا جديدا. في الواقع عبرت السفن من عدة مجتمعات بالفعل أوسع وأعمق محيطات العالم. لما يقرب من أربعة قرون من عام 700 الى 1050 جالت سفن الفايكِنگ الطويلة المدن حول أوروبا وشقت عباب المياه في المناطق غير المُستكشفة في شمال المحيط وجرى انشاء مستوطنات في آيسلندا حوالي 874 وگرينلاند حوالي 982 ونوفاوندلاند لفترة وجيزة في عام 1001. واحدة من السفن القليلة الباقية بُنيت بحدود عام 890 وهي ذات صارية قويّة بطول 87 قدما تتوسط هيكلا عريضا من الألواح الخشبية المرنة القادرة على الطفو فوق المحيط الأطلسي العاصف كورقة من أوراق الخريف.[36]

بينما كان الفايكِنگ يستكشفون شمال الأطلسي، كان البحّارة الأسترونوزيّون Austronesian يستخدمون أذرع التوازن في سفنهم وجالوا الجزر التي تغطّي نصف محيط الكرة الأرضية الجنوبي. في وقت مُبكّر من عام 500، كان هؤلاء البحّارة قد عبروا بالفعل المحيط الهندي من أندونيسيا ليستقرّوا في

مدغشقر وابحروا عبر المحيط الهادي مستعينين بالنجوم وتيارات المياه فبلغوا جزر الهوائي حوالي عام 900 وجزيرة الإيستر Easter Island حوالي عام 1200.[37] عندما بدأ البرتغاليون في المغامرة أسفل الساحل الغربي لأفريقيا، أرسلت الصين أميرالها البحري جِنگ خَه لاستكشاف جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي حتى وصل الى شرق إفريقيا. وبدلا من الإستمرار، قرّرت أسرة مِنگ التوغّل في الداخل بدلا من غور البحار.[38] لدى المجتمعات في جميع أنحاء العالم القدرة على الإستكشاف، ولكن حتى البرتغاليين بدأوا تقدّمهم البطيء على سواحل أفريقيا، ولم يكن أيّ من تلك المجتمعات يجمع ما بين التجارة ورأس المال والقوّة البحرية لإنشاء إمبراطورية يمكن أن تجعل القارات على اتصال وثيق ومستمرّ.

على عكس الإستكشافات السابقة لتسوية الخلافات أو فرض الجزية أو من أجل النهب، فإنّ آيبيريا ثبّتت التوسّع في الخارج وفق مشروع تجاري مصمم ومدفوع بالسعي وراء التجارة والربح. في طريق العودة من رحلته الأولى الى العالم الجديد في شهر مارس عام 1493، كان البحار الإيطالي الذي قام برحلته تلك نيابة عن إسبانيا، قد لجأ الى ميناء لشبونة بسبب عاصفة بحرية اعترضت طريقه. شعر الملك البرتغالي "بالإشمئزاز والحزن" من اخبار اكتشافات كولومبُس، فأمر تجهيز إسطوله للإستيلاء على الأراضي الجديدة لنفسه. عند معرفة هذا التهديد، أرسل الملكان الإسبانيّان، فرديناند وإيزابلا، مبعوثا الى لشبونة وطلبا في نفس الوقت دعم الفاتيكان لحقّ إسبانيا في المطالبة بسيادتها على العالم الجديد. ردّا على ذلك، أصدر البابا الگزندَر السادس وهو الإسباني المولد والودود اتجاه الملك فردناند مرسومين *Inter Caetera* and *Eximiae Devotionis* منح فيهما التاج الإسباني السيادة الدائمة على جميع الأراضي بمقدار "مائة فرسخ باتجاه الغرب والجنوب من أيّ من الجزر بشكل عام أو المعروفة باسم جزر الآزور."[39]

بإصدار ذلكما المرسومين، قام البابا ألكزندر السادس بتفليل مدى مرسوم بابوي آخر أصدره عام 1455 رومانُس بونتيفكس، اعطى بموجبه البرتغال الحق الحصري في "التملك... الجزر والأراضي والموانئ والبحار في افريقيا، والسلطة في إخضاع جميع المسلمين والوثنيين... ووضع أفرادهم تحت العبودية الدائمة."[40] على الرغم من أنّ الفاتيكان كان حينها يقوم مقام المحكمة الدولية، فإنّ هذه الإدّعاءات المدعومة بالمراسيم البابويّة المتناقضة تطلبت حينها بعض الدبلوماسية المباشرة.

لتحديد أين يجب أن يقع خطّ الفاتيكان لتقسيم المناطق بين إسبانيا والبرتغال، إلتقى دبلوماسيو البلدين لشهور في عام 1494 في المدينة الأسبانية الصغيرة Tordesillas. أدّت المفاوضات الى رهانات كبيرة لتحريك خط البابا للتقسيم بدفعه الى الغرب ليمرّ في منتصف الطريق عبر المحيط الأطلسي. وبشكل فعّال عنى ذلك تقسيم العالم غير المسيحي بين هاتين الدولتين الآيبيريتين. من خلال هذا التقسيم، احتفظ البرتغاليون بمطالبتهم الحصرية بالساحل الأفريقي وعبر المحيط الأطلسي لضم البرازيل، التي اصبحت ضمن مجالهم، بينما حصلت إسبانيا على سيطرة دون منازع على بقية أمريكا الشمالية والجنوبية. وذات مرّة طاف الملاح البرتغالي فرديناند ماجلّان وطاقمه عام 1522 مناطق إسبانيا والبرتغال لحلّ التوترات الناتجة، عن طريق التفاوض في نهاية المطاف وتعيين خط إضافي فاصل عبر المحيط الهادئ.[41]

استخدم الآيبيريون من خلال الإستكشاف والتوسع تلك المراسيم البابويّة لترسيخ نظامهم العالمي الناشئ وفق مبدأين أساسيين. أوّلا، ستكون السيادة الإمبراطورية غير محدودة وقادرة على شمول الأراضي غير المسيحية من كلّ صنف ونوع عن طريق الغزو والإستكشاف في أكبر محيطات العالم. ثانيا، وبشكل أكثر جوهرية، غزو الأراضي الغربية كي تصبح مسيحيّة، لأنّ الملك مفوّض أخلاقيا وقانونيًا من قبَل السلطة البابوية، بأنّ شعوب تلك الأراضي يجب أن تُستعبَد الى الأبد.

إمبراطورية البرتغال العالمية

للوهلة الأولى، لا بُدّ أنّ البرتغال بدأت بسفنها توسّعا غير متوقع بالنسبة لأوروبا. أخذت المملكة شكل دولة صغيرة نسبيا خلال قرنين من الزمن وأنّ مهمتها الرّهبانية المتشدّدة قد قامت على يد فرسان الهيكل Avis وتنظيمهم الذي كافح ضدّ الإحتلال الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيريّة. إستولت حملتهم الصليبية أخيرا على لشبونة عام 1147 وطردت آخر المسلمين من الجنوب عام 1249، ممّا جعل البرتغال واحدة من أقدم دول أوروبا. بعد أن نُصّب القائد الكبير للطائفة الدينية Avis، دوم جواو الأول *Dom I João* على العرش عام 1385، ضمن الملك الجديد استقلال البلاد وصدّ غزو ملكة قشتاليا واسع النطاق. أسّس هذا الإنتصار سلالة أفيز Aviz Dynasty، التي ستحكم البرتغال للقرنين التاليين.

على الرغم من استقرارها السياسي كانت المملكة الجديدة واحدة من أفقر الممالك في أوروبا؛ حيث تسقط الأمطار بشكل غير منتظم وتربتها صخرية وعدد سكّانها قليل ولديها القليل من الغابات لقطعها للحصول على الأخشاب لبناء السفن. كما تسبّب الطاعون الأسود عام 1350 في خسائر فادحة تطلبت قرنا كاملا لتعافي السكان. في بداية استكشافاتها، كان عدد سكان البرتغال أقلّ من مليون شخصا وأكبر مدنها لشبونة تضم فقط 40000 نسمة. حتى في ذروة قوّتها الإمبراطورية في القرن السادس عشر، كان لدى البرتغال 300 سفينة فقط، معظم أطقمها من البحارة الأجانب. وقد شيّدت البلاد اسطولها البحري باستخدام خشب الساج الإستوائي Teakwood الذي جاءوا به من گوا Goa، إحدى مُستعمراتهم على الساحل الغربي للهند.[42]

على الرغم من مهارة ملاحيها وشجاعة جنودها، إلّا أنّ الفقر كان متأصلا في البلاد ممّا أدّى الى أنّ نهجها التجاري للإستكشاف الذي استمر قرنا من الزحف على طول الساحل الغربي لأفريقيا، قد جعل تجارة الرقيق هي تصديرها الرئيسي. وهو الأمر الذي دفع بعزم الدبلوماسية التي شرّعت بشكل فعّال هذه

الحركة البشرية الناشئة. كما أنّه خلال قرن سيطرتها على المحيط الهندي، استخدمت البرتغال قوّتها البحرية للسيطرة على التجارة القائمة للتجار الآسيوين.

لجأ البرتغاليون الى البحر باعتباره المصدر الوحيد المحتمل للثروة. غير أنّه كان للتاج العديد من المزايا المهمة، مثل القادة المغامرين والإبتكارات في التنقّل بفضل التواصل مع المجتمع الإسلامي، رغم أنَّ المهمة متعصّبة لهزيمة الإسلام. في عام 1415 قاد الملك دوم جواو أوّل رحلة استكشافية تألفت من 200 سفينة و20000 رجلا عبر مضيق جبل طارق واستولى على ميناء سبتة الإسلامي الغني، وبوابة المحيط الأطلسي والمحطة النهائية للقوافل التي عبرت الصحراء ونقلت الذهب من مناجم السودان وغرب أفريقيا. أظهر الملك حماسة دينية استهلكته في النهاية. نهب جيش السلالة الحاكمة Avis المدينة القديمة وقتل نصف سكانها العرب المسلمين وبيع سكان النصف الآخر كعبيد. كان الى جانب الملك في ذلك القتال البطولي والإستيلاء على المدينة، إبنه هنري الرابع الذي عُرف لاحقا باسم "الملاح". وهو السلف المشهور لعصر الإكتشاف.[43] من خلال التقاط مفتاح معقل المضائق الستراتيجية، تمكّنت البرتغال أن تحوّل شبه جزيرة آيبيرا الى حارس لتأمين طرق التجارة نحو المحيط الأطلسي غربا والمغامرة جنوبا نحو الساحل الأفريقي الغربي.[44]

في نقطة ارتكاز بين التجارة المنقولة بحرا من المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، اصبحت البرتغال في وضع جيّد للإستفادة من عدد لا يُحصى من ابتكارات القرن الخامس عشر، التي جعلت اكتشاف المياه الزرقاء ممكنا. كانت المشكلة الأولى والأكثر صعوبة للحلّ هي المَلاحة. لما يقلّ عن قرن مضى في حينه كان قباطنة البحر الأبيض المتوسط يبحرون في المياه المفتوحة بقياس خط العرض مع النجوم واستخدام نجمة القطب الشمالي أو البوصلة لتعيين الإتجاهات. بحارة الأطلسي الذين ابتعدوا عن الساحل اعتمدوا على

الرياح الغربية المألوفة لتعيدهم الى الشاطئ بأمان. ولكن لمّا دفع المستكشفون البرتغاليون سفنهم تحت خط الإستواء، إختفى نجم الشمال، وواجهوا في جنوب المحيط الأطلسي رياحا وتيارات سائدة ومتقلبة غير معروفة لديهم.

حلّ الملاحون البرتغاليون خلال القرن الخامس عشر مثل هذا الإشكال من خلال مزيج من البحث الأكاديمي والإبحار العملي. قاموا بترجمة كتاب الجغرافية لبطليموس الى اللاتينية، وهو الذي سرد خطوط الطول وخطوط العرض المعروفة في العالم القديم، ممّا خلق معيارا إضافيا لوضع الجداول. بالإعتماد على علماء الفلك العرب وخبراتهم، جاء البحارة البرتغاليون لاستخدام الإسطرلاب الدائري المُبسّط أو الإسطرلاب المتقاطع لقياس زاوية الميْل بين الشمس أو النجوم والأفق لتحديد خط سير السفن في المياه المفتوحة. كتتويج لكلّ هذا البحث وفي عام 1478 نشر عالم الفلك الأسباني إبراهام زَكوتو كتابه المعنون "الكتاب العظيم" بالعبرية والذي احتوى 64 جدولا مفصّلا مرافقا لنسخة محسّنة من الإسطرلاب البحري. بعد أن طردت إسپانيا اليهود عام 1492، هرب صاحبنا الى لشبونة، حيث اصبح عالم فلك البلاط. واصل هناك عمله مستخدما اللغة اللاتينية لتدريب الملاحين البرتغاليين.[45] خلال الأعوام من 1419 لغاية 1460، ومع وجود تلك الإبتكارات في متناول اليد، إنطلق البحارة من لشبونة في بعثات لاستكشاف الساحل الأفريقي حتى وصلوا الى الرأس الأخضر. في سياق تلك الرحلات التي بلغت 35 رحلة، إكتشفوا في عام 1427 المنطقة شبه الإستوائية لدورة تيار شمال الأطلسي North Atlantic's subtropical Gyre أي الملتقى الرائع لتيارات المحيط. وعندما توجّهت السفن نحو الوطن عائدة للبرتغال قبالة الساحل الأفريقي بالقرب من جزر الكناري، وجد القباطنة أنّ تيارا شمال غربيّا دفعهم باتجاه جزر الآزور في وسط المحيط الأطلسي، حيث حملهم تيار آخر شرقا لمسافة 1000 ميلا والعودة بأمان الى لشبونة.[46]

في حين أنّ أدوات الملاحة المُحسنة قد مكّنت البحارة البرتغاليين من سبر غور البحار المفتوحة، كانوا بحاجة أيضا الى سفن أفضل للبقاء على قيد الحياة في مثل تلك المياه ذات الأمواج العالية والرياح العاتية. باستخدام سفن ذات هياكل واسعة واشرعة مربّعة كانت هي المهيمنة على تجارة البحر الأبيض المتوسط. لكنّه كان من الصعب مناورة تلك السفن في بحار المحيط الأطلسي، خاصة الإبحار مباشرة في مهبّ الريح اعتمادا على التصاميم العربية والإيطالية. دعت الحاجة في القرن الرابع عشر الى ابتكار تصميم سفن بقاعدة مسطحة عميقة وتكون أشرعتها مثلثة الشكل تنتصب صاريانها في مؤخرة السفينة لمنحها القدرة على المناورة. بلغ هذا التصميم ذروته في صنع الكارَفَيل البرتغالي Portuguese Caravel وهي سفينة شحن رشيقة تزن 50 طنا بشراعين في مؤخرتها، وسفينة حربية أخرى أثقل وزنا بحدود 150 طنا سموها *Caravela de Armada* بأربع صواري. جنبا الى جنب مع الأشرعة المُثلثة الخاصّة بها، كانت هذه أفضل بكثير من حيث ملائمة الإبحار عكس اتجاه الريح، وهذه المهارة الجديدة كمثل اسلافهم العرب كانت مثالية للإبحار نحو الشواطئ الأجنبية البعيدة أو استكشاف الأنهار.[47]

ومع ذلك وقبل كلّ شيء، وُضعت المدافع البرتغالية على ظهور قوافل سفن الأرمادا، وهي أكثر الأسلحة فتكا في عصرها. هي في الواقع من اسلاف الحرب البحرية الحديثة. ظهرت المدفعية الأولى في أوروبا عام 1326، بعد اربعة قرون من اكتشاف الصين للبارود. بحلول عام 1430، كانت المدافع الثقيلة قادرة على قذف 1500 رطلا من الكرات الحجريّة، ممّا يزيد من قدرة أقوى الكرات لتحويل جدران أيّة قلعة الى انقاض في يوم واحد.[48] في عام 1499، اصبحت المدفعية البحرية عاملا حاسما في معركة زونچيو Zonchio في خليج كورنث Corinth في اليونان عندما أغرق الأسطول العثماني سفن ڤينيسيا التي حملت مدافع ثقيلة، ممّا أثار قلق باقي سفن الأسطول المسيحي التي تراجعت مهزومة.[49]

بحلول ثلاثينات القرن الخامس عشر، كان هذا معيارا لقوانين الحرب في البحر الأبيض المتوسط، أن يكون في كلّ سفينة 5 مدافع منها مدفع ضخم يزن 5000 رطلا ويُطلق كرات تزن 50 رطلا، ومحاطا بزوجين من المدافع الأخفّ وزنا. نظرا لأنّ المدفعية على ظهر السفن كان مداها مائتي ياردة فقط، أمكن لأساطيل السفن عادة إطلاق كرة واحدة فقط قبل حصول الإشتباكات اليدوية بين المقاتلين، وهو نموذج القتال في الحرب البحرية في البحر الأبيض المتوسط منذ أيام روما القديمة.[50]

عزّز التاج البرتغالي الإبتكارات في المدفعية على متن السّفن بتعزيز أسطح الكارَفيل لدعم حمل المدافع الثقيلة في عام 1474 وما بعده، ووجود فرق تدريب المدفعيّة المهرة. بدلا من 5 مدافع على السطح الأمامي، حملت سفن الكارَفيل صفوفا من المدافع تحت السطح ووجود فتحات في الجوانب لفوهات المدافع، ممّا يساعد في استمرار الهجوم وحماية اطقم تلك المدافع داخل السفن. كان رجال المدفعيّة البرتغاليين ماهرين بشكل استثنائي، وفي وقت لاحق اعتبارهم مرتزقة من قبل الملوك الآسيويين في الهند وفي جنوب شرق القارة.[51] وبتصميم كابينات من الواح خشبية مسمّرة على إطارات قويّة، أمكن للسفن البرتغالية أن تحافظ على ارتداد مدافعها المتكرّرة بطرق أخفّ وزنا وأكثر عمليّا من السفن الآسيوية.[52]

إنّ تحوّل سفن الحرب في البحر الأبيض المتوسط من العمل بالمجاديف الى استخدام قوّة الرياح، كان أيضا تحوّلا في التجارة البحرية والقتال. ذكر المؤرّخ كارلو سيبولا، "عنى هذا التبدّل في الأساس الإنتقال من القوّة البشرية الى القوّة غير الحيّة." من خلال تسخير طاقة الرياح الهائلة، أمكن بناء السفن الشراعية ذات الهياكل الأعمق والأكثر قوة وذات الأسطح المعزّزة بالمدافع الضخمة القادرة على ضرب العدو بالنيران الحارقة القويّة، إلى جانب توفير حاضنات واسعة كبيرة لحمل البضائع. أضاف سيبولا القول، "ولكن خاصّة

حين اتجهت الى المحيط الأطلسي برياحه الغربية وامواجه العالية، لم تكن لتلك السفن الشراعية فرصة على الإطلاق فغرقت بمدافعها العظيمة بعد أن وقعت فريسة لعناصر الطبيعة الغاضبة."[53]

ولكن بحلول عام 1500 كان لدى الكارَڤِيل البرتغالية أدوات ملاحية لعبور أوسع محيط وأشرعة كافية لمقاومة أقوى رياح معاكسة. وبين الهياكل القوية والمدافع الفتاكة وحمولتها من البضائع، تمكنت الكارَڤيل من تدمير أساطيل الأعداء واختراق اسوار المدن الساحلية. نتيجة لذلك تمكن أسطول من الكارَڤيل البرتغالي، لا يزيد عدد أفراده عن 1000 جنديا وبحّارا من هزيمة أسطول آسيوي أكبر بكثير من خلال شقّه الى نصفين وإشعال النار فيه من جانبين وتحاشي الإشتباك معه بالقتال اليدوي الدموي. بالنظر الى توفّر مثل هذه الإمكانيّات، لم يكن من المُستغرب أن تنمو إمبراطورية لشبونة لتشمل نصف الكرة الأرضية خلال ثلاثة مراحل متميّزة. الأولى التي طال أمدها استكشاف 5 آلاف ميلا من الساحل الأفريقي، ثمّ التمشيط عبر المحيط الهندي خلال عقد من الحروب للإستيلاء على المواني المُحصّنة امتدادا من الخليج الفارسي حتى جزر التوابل في شرق إندونيسيا، وأخيرا الحفاظ على تلك السيادة لمدة قرن كامل، حتى وقت استطاع الهولنديون والبريطانيّون أخيرا من الحلول محلّهم بعد عام 1600.

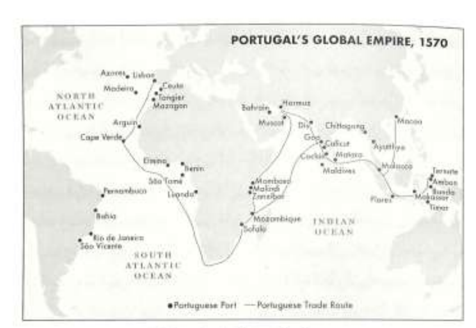
الإبحار نحو الطرف الجنوبي للقارة الإفريقية

على مدى 80 عاما وتناوب 5 ملوك على الحكم، تقدّمت أساطيل البرتغال فوصلت الى أسفل الساحل الغربي لأفريقيا. كان زحفا بطيئا متقطعا بسبب هوس السعي وراء الذهب وأسر العبيد. أرسل الأمير هنري إثنين من مساعديه في مهمة لمداهمة السفن الإسلامية، ابتعدت البعثة البحرية عن مسارها عام 1418 واكتشفت بالصدفة أرخبيل مَديرا على بعد 600 ميلا في المحيط الأطلسي،

فمنحهما الأمير حقوق تملك المنطقة. أصبحت هذه قاعدة للبرتغاليين ممّا شجّع الأمير هنري على إرسال حملتين للإستيلاء على جزر الكنّري واقتطاعها من إسپانيا. على الرغم من صدّ الحملتين، قام البرتغاليون بنقل حمولات من الأسرى الأفارقة، الذين تحوّل أغلبهم الى المسيحية كعبيد. ردّا على احتجاجات أسقفه، أصدر البابا يوجين الرابع ثلاثة مراسيم تطلب الإعتقاق الفوري لأولئك الأسرى ووضع حدّ لمزيد من الغارات البرتغالية على الجزر الإسپانية.[54]

كما قام التاج البرتغالي أيضا بتمويل خمس عشرة رحلة على طول أفريقيا قبل أن يتمّ تطهير رأس بوجادور أخيرا في الصحراء الغربية عام 1433. تقع جنوب جزر الكنّري، التي تكتنفها الأساطير حول وحوش البحر، وكان أحد خلجانها عقبة نفسية وجسديّة هائلة أمام المزيد من استكشاف الجنوب. يعود ذلك الى المياه الضحلة الخطيرة، التي تمتدّ خمسة عشر ميلا في البحر والتيارات القويّة والضباب المتكرّر والرياح السائدة الصعبة. وقد اطلق الجغرافيون العرب على تلك المياه إسم "بحر الظلام الأخضر".[55]

وحين تمّ اختراق هذا الحاجز أخيرا، أمضى الأمير هنري عقدا آخر من إرسال المزيد من الرحلات الإستكشافية على امتداد 1000 ميلا من ساحل أفريقيا حيث تلتقي الصحراء بالبحر. في عام 1443 وصل البرتغاليون لأوّل مرّة واستقرّوا في مناطق حول Cap d'Arguin وهي الآن متنزّه وطني في موريتنيا الحديثة. وهناك انغمسوا في غارات اصطياد العبيد، ممّا أدّى الى ابطاء الإستكشافات لعقود.[56] بحلول عام 1448 أبحرت حوالي 51 قافلة خارج كَيب بوجادور وعادت بما مجموعه 927 من الأسرى العبيد. كانت حركة نقل هؤلاء مربحة جدّا لحدّ أنّه في عام 1456، شيّد الأمير هنري أوّل ميناء محصّن للبرتغال *Feitoria* في منطقة آرگوين Arguin.. حين توفّي الأمير عام 1460، كانت رحلاته العديدة قد قطعت 1500 ميلا فقط، وتُرك معظم الساحل الغربي للقارة دون استكشاف.[57]



الإمبراطورية البرتغالية العالمية عام 1570

حين قام قباطنته بتسليم أوّل وجبات الأسرى الأفارقة، عمد الأمير هنري للقيام بحيلة دبلوماسية ذكيّة، إذ التمَس من الفاتيكَن رفع استكشافاته لتكون بمثابة حملات صليبيّة. وهو ما دفع البابا يوجين الرابع الى اصدار مرسوم بابوي *Romanus Pontifex* عام 1452 من شأنه شرعنة "العبودية الدائمة" لجميع الأسرى غير المسيحيين.[58] على الرغم من أنّ إرث الإمبراطورية الرّومانية من العبودية المنتشرة كان قد تلاشى من أوروبا بحلول القرن العاشر، فإنّ *Justinian Digest* لخّصت القانون الروماني، الذي شكّل المفهوم الحربي للعصور الوسطى ودعا الى إستعباد أسرى الحرب بدلا من ذبحهم. في حين أنّ المراسيم البابويّة في وقت سابق قد أعطت الصليبيّين درجة محدودة من حق استعباد الأسرى المسلمين في الأراضي المقدّسة، فإنّ البابا قام بتوسيع هذا الإذن للسماح بالعبوديّة الدائمة لجميع الشعوب فيما وراء العالم المعروف.[59]

بعد سنوات قليلة فقط من تأييد الفاتيكَن لتجارة الرقيق، أصدر البابا نِكولاس الخامس مرسوما في عام 1454 لتوسيع تلك التجارة، لحدّ أنّ المؤرّخ

جالز بوكس قد أطلق عليه "ميثاق الإمبريالية البرتغالية". في تلك الوثيقة الموسّعة، أعلن البابا "سمعنا مؤخرا أنباء لا تخلو من الفرح والرضا، كيف أنّ إبننا الحبيب، الشخصية النبيلة هنري أمير البرتغال... كجندي كاثوليكي ومسيحي حقيقي... تزاوج مع المسيحيين الأرثوذوكس في بعض الجزر المعزولة في بحر المحيط... ومن ثمّ تمّ الإستيلاء على العديد من الغينيين وغيرهم من الزنوج بالقوّة... فتحوّلوا الى الإيمان." في ضوء هذه الأعمال، فإنّ البابا منح البرتغال سيادة دائمة على كامل الساحل الأفريقي الجنوبي اعتبارا من رأس بوجادور، مع الحقّ "في الغزو والبحث والإستيلاء وقهر وإخضاع كافة المسلمين والوثنين على الإطلاق... وتحويل الأشخاص الى العبودية الدائمة." من جهة أخرى، كان العرفان بالجميل، الذي رتّبه ملك البرتغال كاملا للغاية حين تمّ الإعلان الرسمي لهذا المرسوم البابوي في كاتدرائية سانتا ماريّا في لشبونة. تمّت قراءة ترجمة المرسوم من اللغة اللاتينية الأصلية إلى اللغة البرتغالية بحضور ممثلي الجاليات الأجنبية في العاصمة.[60]

جاء المرسوم المذكور كنقطة تحوّل مهمّة في تاريخ تجارة العبيد في أوروبا منذ عهد الإمبراطوريّة الرومانية بعد أن هدأت تلك التجارة ببطء لحدّ أنّ الكنيسة حظرت استعباد المسيحين عام 992. بحلول القرن الثاني عشر أفسحت هذه الممارسة الطريق للعبودية في شمال أوروبا، على الرغم من استمرار حركة نقل البشر حول البحر الأبيض المتوسط، خاصّة في إسبانيا، حيث كانت الممالك المسيحية والإسلامية تستعبد الأسرى من كلي الجانبين. ومع ذلك ظلت هذه الحركة محدودة، غير أنّه تمّ تنظيم ظروف العبودية بعناية في القرن الثالث عشر وفق القانون الأسباني Siete Partidas، الذي أعطى العبيد الحقّ في الزواج ووضع شروطا لنيل حريّتهم.[61]

ترك الطاعون الأسود خلال القرن الرابع عشر انقساما واضحا في ممارسات العمل في قلب أوروبا. في إنكلترا وفرنسا وألمانيا، شجّعت ندرة العمل على

التحوّل من نظام القنونة Serfdom الى العمل بأجر مجّاني، أي نظام السخرة. في المقابل، شهدت مجتمعات البحر الأبيض المتوسط زيادة في الجنوب على طلب عمل الأسرى. جاء العبيد من اليونان وشبه جزيرة القرم لتشكيل نسبة كبيرة من السكان المحليين في إقليمي توسكانا وكتولونيا، اللذين عانيا من خسائر كارثة الطاعون.[62]

ومع ذلك فإنّ الإستكشاف البرتغالي لأفريقيا حوّل الشحن بالعشرات في تجارة العبيد الى الآلاف منهم. بينما كلف المسلمون عبيدهم بمهام متنوّعة من الواجبات المنزلية الى الخدمة العسكريّة، ركّز البرتغاليون على تشغيل أسراهم في مزارع قصب السكّر أوّلا في الجزر الواقعة قبالة سواحل أفريقيا ثمّ في البرازيل. في نصف القرن الذي اعقب وصول أوّل الأسرى الى لشبونة في عام 1441، أستعبد قباطنة البحر البرتغاليين حوالي 150000 أفريقيا ونُقلوهم الى جزر الآزور وماديرا للعمل في المزارع، والى إسبانيا وإيطاليا والبرتغال نفسها، التي كانت جميعا تعاني من نقص شديد في العمالة بعد عقود من وباء الطاعون.[63] وليس من المُستغرب أن يُجرّد أولئك القباطنة أسراهم الأفارقة من إنسانيتهم، ووصفهم في أحد سجلات المسافرين على ظهر السفن عام 1508 بأنّهم،"آكلة لحوم البشر، عراة ولهم أسنان قويّة وحادّة مثل تلك التي لدى الكلاب والبشر القدماء المتوحّشين."[64]

سرعان ما اكتملت تجارة الرقيق في البرتغال واصبحت تجارة منتظمة نتيجة الدعم الملكي والمباركة البابوية. أسس التاج البرتغالي لها مراكز عديدة في فيتوريا في جزيرة آرگوين في موريتَنيا عام (1456) وفي قلعة الميناء في غانا عام (1482) وعلى جزيرة ساو تومي في خليج غينيا عام (1493). كما وطوال القرن التالي، أبحرت سفن الكارَفيل شمالا من فيتوريا ومن قلعة ميناء غانا متوجّهة الى لشبونة وهي تحمل شحنات من "غبار الذهب" ليتمّ سكّها واصدار عملة كروزادو *Cruzado* الذهبية الشهيرة.[65] ونظرا للوجود البرتغالي طويل الأمد في

غرب أفريقيا، حلّت التجارة محلّ الغارات، ممّا أدّى الى مفاوضات معقدة مع الممالك المحلية لتأمين إمدادات ثابتة من الذهب والعبيد.[66]

نشط مقرّ الإحتكار الملكي في منطقة الواجهة البحرية لميناء لشبونة، التي تضمنت ايضا بناء زنزانات، وبعث سفن الكارَڤيل المجهّزة بالسلاسل وحلقات العنق الى أفريقيا كلّ عام إبتداء من عام 1510 لغاية 1550. كانت السفن تعود بحوالي 2000 عبدا سنويّا، ومن هناك يُعاد شحنهم الى إسبانيا والأمريكتين. بعد أن سمح ملك إسبانيا، چالز الخامس بالعبودية المباشرة، إستورد العبيد الى مستعمراته الأمريكية في عام 1518، فنمت تجارة البرتغال عبر المحيط الأطلسي بسرعة. بحلول عام 1650، تمّ إرسال 703600 عبدا الى الأمريكتين، ليكدحوا الى حدّ كبير في مزارع قصب السكّر البرازيلية ومنطقة البحر الكاريبي. اصبح الإتّجار بالبشر مصدرا مهمّا لإيرادات البرتغال، وجلب من الدخل ما يقرب من ضعف تجارة الذهب المحمول من أفريقيا.[67]

طوّرت البرتغال نموذجها الجديد لمزارع قصب السكّر في جزيرتين قبالة ساحل افريقيا الغربي. كحاكم لماديرا، أرسل الأمير هنري خبراء يحملون عيّنات من قصب السكّر من جزيرة صقلية ومنحهم الإذن بانشاء عصّارة لاستخراج السكّر. ورغم وعورة الجزيرة، حافظت المزارع على انتاج السكّر الى أكثر من 2240 طنّا بحلول عام 1500 نتيجة العمل الشاق لألفي عبد أفريقي. كان اقصى جنوب جزيرة ساو تومي هو الأكثر صلاحية للزراعة، واستُخدِم العبيد لدفع عجلة صناعة سكّر مزدهرة وصلت صادراتها الى 25000 طنا بحلول نهاية القرن السادس عشر، ممّا جعل ذلك القسم الخصب من الجزيرة أكبر منتج للسكّر في العالم. كان لكلّ فازندا *Fazendas* مُربحة في الجزيرة قوّة عاملة تتكوّن من 150 الى 300 عبدا يكدحون في معصرة لاستخراج السكّر من القصب تعمل بالطاقة المائية. أصبحت هذه نموذجا جديدا للأعمال الزراعية التجارية الإستوائية، التي من شأنها أن تزدهر عندما انتشرت لاحقا عبر المحيط الأطلسي الى البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي.[68]

إنّ فهم كيف اصبحت زراعة قصب السكّر مركزية يثير سؤالا أكثر جوهرية. لماذا من بين جميع النباتات الموجودة على سطح الكوكب، أصبح السكّر شائعا للغاية، وزاد الطلب عليه من قبل المُستهلكين فاصبحت تجارته مربحة بشكل مذهل؟ منذ الوقت الذي يذوق فيه الطفل الرضيع حليب أمّه، يتطوّر عنده مذاق طعم الحلاوة. فهو صيادنا جميعا، واستخدمه الأسلاف كمفتاح واحد للتمييز بين الصالح للأكل وغير الصالح من النباتات. على الرغم من أنّ البشر بدأوا في تدجين النحل بغية الحصول على العسل قبل حوالي 9 آلاف عاما، ألا أنّ طعم السكّروز المُستخرج من قصب السكّر، كان غير معروف عند الأوروبيين حتى حوالي عام 1100. عندما قدم الفاتحون المسلمون الأوائل جلبوا معهم تلك الصناعة من مناطق البحر الأبيض المتوسط، لا سيّما جزر كريت وقبرص ومالطا وصقلية. في البداية، حين كان العرض محدودا والسعر لا يزال مرتفعا، اصبح طعم السكّر الجذّاب امتيازا ارستقراطيا. ولكن حين انتشرت المزارع على جانبي المحيط الأطلسي ازداد الإنتاج بسرعة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، واصبح السكّر ميسور التكلفة وقابلا للتكيّف في النظام الغذائي الأوروبي. تمّ استخدامه في المشروبات مثل البيرة كمُحلٍ لجعل مذاقها أكثر قبولا، وكمُكوّن في عدد لا يُحصى من الأطباق وفي النهاية في الحلويّات المخبوزة مثل كافة انواع الكيك. بحلول منتصف القرن الثامن عشر، كان فنجان الشاي البريطاني مُحلى به، وبمزج الكافين والسكّروز كعامل تنشيط في منتصف النهار، تخطى السكّر الإنقسام الطبقي وتقاسمه الجميع من التجار الأثرياء والأيدي العاملة الأشدّ فقرا. مع توسع الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، كان عنصر السكّر التغيير الأكثر أهمّية في النظام الغذائي البريطاني. في الواقع ارتفعت نسبة استهلاكه الى خمسة أضعاف ووفّر سدس السعرات الحرارية لدى مواطني البلد. وهذه قصة نجاح لا مثيل لها في تاريخ العالم.[69]

بهذه الطريقة اصبحت المزارع القائمة على استغلال العبيد عنصرا آخر مُحدّدا للعصر الآيبيري، الذي وفّر لاقتصاد أوروبا شكلا جديدا ومربحا للزراعة. إنّ جسم الإنسان آلة غير فعّالة نسبيّا وقادرة على إنتاج مستمرّ لا يتجاوز "نصف حصان" خلال 10 ساعات من العمل في اليوم الواحد. من خلال العمل في قطع أراضي صغيرة خلال موسم نمو معتدل مدته 6 أشهر، ينتج مزارعو اليوم في أوروبا محصول حبوب يعادل فقط 20٪ من انتاج حقول الأرز في الصين. وانخفضت هذه العوائد خلال القرون الثلاثة من الحكم الآيبيري.[70]

لكنّه بحلول نهاية القرن الخامس عشر كسرت المزارع البرتغالية في ساحل افريقيا حواجز متعدّدة أمام الإنتاجيّة بشكل فعّال نتيجة إمكانات قوّة العضلات البشريّة، اعتمادا في ذلك على العاملين في مزارع المنطقة الإستوائية على مدار العام. إنّ حشد العمال العبيد في مساحات كبيرة من الأراضي والنانج المُنسّق للعمل الجماعي ونوع الإكراه المفروض بكثافة لا هوادة فيها من الجهد، كدح هؤلاء العبيد الأفارقة ضعف ساعات عمل المزارعين البريطانيين. كانت النتيجة أنّ متوسط حياة العمل في مزارع البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي كان سبع سنوات فقط. في ثلاثينات القرن السادس عشر كتب مدير مزرعة مسيحي في البرازيل بنشوة متباهيا، بأنّ معدّل الوفيات بين العبيد تتطلب استبدالا سنويّا بنسبة 6٪. كما أبلغ ملاكو مزارع جزيرة بربّيدوس عن نفس معدل خسائر العبيد قائلين، "يجب أن نشتري نصف دزينة من الزنوج كلّ عام لمواكبة الوفيات بين كلّ 100 منهم." طالما أنّ حركة الإتجار بالبشر ونقلهم عبر الأطلسي كانت قادرة على تغذية هذا الشره والشهيّة للعبيد الجُدد، في الواقع، اثبتت المزارع أنّها مستدامة ومربحة للغاية. ذكر تحليل اقتصادي قياسي للزراعة الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر أنّ مزارع الرقيق الجنوبية كانت أكثر كفاءة بنسبة 35٪ من المزارع العائلية في شمال البلاد.[71] من خلال العمل الكادح للفرق الحاشدة من العبيد حتى الموت، عزّزت مزارع السكّر الإستوائية إنتاج طاقة جسم الإنسان،

ممّا خلق منطقا اقتصاديًا قاسيا من شأنه أن يدفع بلا رحمة أو هوادة توسيع تجارة الرقيق للأربعمائة سنة القادمة.

بعد توقف دام عدة عقود للإستكشاف في أفريقيا، استؤنف النشاط على الساحل ثانية في عهد الملك دوم جواو الثاني، الذي كرّس الكثير من موارد مملكته لهذا الجهد. من قواعد خليج غينيا البرتغالية، عاود القباطنة استكشافهم وصولا الى الطرف الجنوبي للساحل الغربي في غضون 6 سنوات وهي سرعة مذهلة مقارنة بفترة 55 عاما، التي استغرقتها حركة الإستكشاف لتغطية النصف الشمالي من الساحل الغربي لأفريقيا بين 1482 و1488 أبحر المُستكشفون جنوبا على طول الساحل وثبّتوا أعمدة حجرية من مصبّ نهر الكونغو عند بادراو لغاية رأس الرجاء الصالح.[72]

الإبحار عبر المحيط الهندي

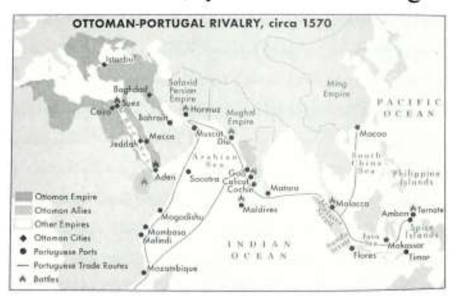
مقارنة باستكشافها المتقطع، الذي دام قرنا من الزمن للساحل الغربي لأفريقيا، أستُكمِل غزو البرتغال لمناطق المحيط الهندي بسرعة مذهلة. أكثر من أيّة مدينة أو بلد أو حتّى قارة، كان هذا المحيط اعظم جائزة للإمبراطورية. من خلال امتداده لما يقرب من 5 آلاف ميلا، كانت تقع على المحيط الهندي عام 1500 بعض من أغنى ممالك العالم. كان ولا يزال يتصف بالأعاصير الموسمية، ولا يتعرّض لموسم الشتاء، كما الحال في عواصف شمال الأطلسي والأعاصير المُتكرّرة للمحيط الهادئ. والأهم من ذلك، أنّ الرياح الموسمية هي رياح موثوقة سنويًا في دورة جنوب غرب/شمال شرق، ممّا يسمح للممالك الآسيوية بإجراء الكثير من تجارتها البحرية مع أوروبا عن طريق الإبحار من الهند نحو جنوب افريقيا والإلتفاف عليه أو من خلال البحر الأحمر ومدينة السويس. من بين جميع محيطات العالم، فإنّ المحيط الهندي هو الأكثر ملائمة للتجارة البحرية.

كان أطول طرق التجارة عبر المحيط الهندي ذا قيمة عالية بسبب وجود التوابل باهظة الثمن مثل جوزة الطيب Nutmeg والقرنفل والفلفل الأسود التي تمّ نقلها من شرق إندونيسيا وجنوب الهند عبر البحر الأحمر الى السويس. ومن هناك يتم نقل الحمولات عبر شبه جزيرة دلتا النيل لشحنها على سفن ڤينيسيا الإيطالية عبر البحر الأبيض المتوسط الى أوروبا. طول السواحل المترامية الأطراف للمحيط الهندي، كان مسلمو الگوجورات والتامل الهندوس ومسلمو الملايو، يتنقلون بحرية بين موانئ المدن المزدهرة، التي ما كانت محصّنة بشكل عام. أكثر من أيّ ممرّ تجاري مشابه، كان المحيط الهندي بحرا مفتوحا.[73]

على الرغم من اتساعه البالغ 27 مليون ميلا مربعا، أي حوالي 14٪، من مساحة سطح الأرض، يوجد في هذا المحيط الشاسع بشكل مدهش عدد صغير من النقاط البحرية الضّيقة، ممّا جعله عرضة للهيمنة الجيوسياسية من قبل القوات البحرية المتصارعة. لتغيير ذلك المحيط المفتوح الى بحر مغلق، استعانت البرتغال بقباطنة محترفين للإستيلاء على أربع نقاط ستراتيجية فقط، وهي ساحل افريقيا الشرقي و(مضيق باب المندب) عند مدخل البحر الأحمر و(مضيق هرمز) عند مدخل الخليج الفارسي ومضيق مَلَقا Straits of Malacca (الواقع بين جزر إندونيسيا وماليزيا – المترجم). مسترشدين بخطة ستراتيجية واضحة لمثل هذه المهمة، أكمل البرتغاليون تلك المهمة باستثناء واحد من تلك المضائق، في غضون عقد واحد فقط من الزمن.

في شهر تموز من عام 1497، غادر الملاح ڤاسكو دي گاما لشبونة باربع سفن وطاقم مكوّن من 70 رجلا. وصلت البعثة الى اليابسة في سيراليون، ثمّ فعلت شيئا غير مسبوق. بدلا من التشبّث بالساحل مثل المُستكشفين الأوائل، توجّهوا جنوبا نحو المحيط المفتوح بركوب التيار العظيم لجنوب المحيط الأطلسي الذي حملهم حول جنوب القارة الأفريقية لمسافة 6000 ميلا باتجاه رأس الرجاء الصالح. إستعان دي گاما من هناك ببحار محلي ماهر ينحدر أصلا من مدينة

جلفار في شرق أفريقيا(*) عبر الأسطول المحيط الهندي مُستعينا بالرياح الموسمية السائدة ووصل الى كاليكور على ساحل كالابار بجنوب الهند في شهر مايس عام 1498. وبذلك أصبح البحارة الأوربيّون الأوائل، هم الذين أكملوا الرحلة الى الهند. عندما وطأ بحارة دي گاما أرض الشاطئ في ميناء هندي مزدهر، إلتقوا بمسلمَين من تونس يتحدثان الإسبانية. سأل احدهما، "ما الذي أتى بكم، بحقّ الشيطان، الى هنا؟" أجابوا بدقة كافية، "جئنا نبحث عن المسيحيين والتوابل." بحلول الوقت الذي عادت فيه سفينتا دي گاما الباقيتين الى لشبونة في شهر أيلول من عام 1499، كان البرتغاليون ابحروا مسافة 23000 ميلا معظمها عبر البحر المفتوح وكانوا روّادا لطريق التجارة البرتغالي الى الهند.[74]



خارطة الصراع ما بين الإمبراطوريتين العثمانية والبرتغالية بحدود عام 1570

(*) أحمدُ بنِ ماجدِ بنِ محمدِ (821هـ–906هـ/ 1418–1501م) «السياوي». ملاح وجغرافي عربي من جلفار (رأس الخيمة)، [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3] برع في الفلك والملاحة والجغرافية، واشتهر في القرن العشرين بأنه من قاد ڤاسكو دي گاما إلى الهند. أطلق عليه البرتغاليون (بالبرتغالية Almirante) ومعناها (أمير البحر ((الأميرال)، ولُقّب بـ "معلم بحر الهند."–

إنّ الأرباح المفاجئة من شحنات الفلفل والتوابل الأخرى، فتحت الشهية لجهود مضاعفة من قبل التاج البرتغالي، والتي أدّت خلال 6 سنوات الى توجّه بعثات إستكشافية سنوية بلغ مجموعها 81 سفينة حملت 7000 رجلا على الطريق الذي كان دي گاما رائدا له. ثم اتجهت واحدة من هذه السفن نحو الغرب بفعل رياح جنوب المحيط الأطلسي لتلتف على ساحل البرازيل مؤكدة مطالبة البرتغال والسماح لها باستعمار لاحق. في رحلته القادمة الى آسيا عام 1502 حوّل دي گاما نفسه من مستكشف الى فاتح مصمّم على الإستيلاء على جيب دائم على الساحل الهندي. غادر لشبونة بأسطول مكوّن من 20 سفينة مسلحة وعليها 800 رجلا. أخذ دي گاما الجزية بالذهب من السلطان المسلم في كيلوا بشرق أفريقيا قبل العبور الى كاليكوت مركز تجارة التوابل المُربحة في جنوب الهند. بعد ذبح 400 شخصا من "الكفار المسلمين" على متن سفينة حجّ في عرض البحر، عاقب الملك الهندوسي في مدينة كاليكوت لرفضه شروطه التجارية بذبح مئات الصيادين المساكين وقصف الميناء، ممّا ألحق أضرارا جسيمة بالمدينة غير المحصّنة.[75]

عندما قام الملك الهندي بتعبئة سريعة لأسطول من 80 سفينة للردّ، أظهر دي گاما القوة المدمّرة للسفن الحربية البرتغالية. وبحسب مؤرخ برتغالي معاصر، "أمر أطقم الكارَفيل ليأتوا الى المؤخرة في طابور وأن يركضوا تحت كلّ أشرعتهم ويطلقوا النار من مدافعهم كلّما استطاعوا". بعد مرور الأسطول الهندي وإطلاق النار على السفن البرتغالية "سارعت السفن الى شنّ حملة أخرى. "إستدارت وهاجمت مرة أخرى مستعملة نيران المدافع الكبيرة لثقب هياكل السفن المعادية وتدمير صواريها، بالإضافة الى استعمال الأسلحة الخفيفة. أغرق الأسطول البرتغالي عدة سفن هندية وألحق أضرارا بأخرى. على النقيض من ذلك، فإنّ المدافع الخفيفة الموجودة على السفن الهندية، سبّبت القليل من الضرر. بقي الجنود البرتغاليون في الطوابق السفلية من سفنهم ووقعت

بينهم إصابات قليلة. كانت النتيجة أنّ مذبحة مروّعة قد أنزلت بالقوّات الهندية المحتشدة على ظهور سفنهم المفتوحة. ومع ذلك رفض ملك كاليكوت الهندوسي الهزيمة وقبول الخضوع. لكنّ حاكم المدينة الساحلية كوچن سمح للبرتغاليين بتأسيس مركز تجاري صغير. غير أنّ دي گاما عاد الى البرتغال بعد أن فشل في بناء ذلك المركز.[76]

في العام التالي أظهر الملك مانويل الأول (1469 – 1521) طموحا في استئناف ذلك المشروع الإمبراطوري. أرسل المزيد من السفن بقيادة الملاح الشهير ألفونزو دي ألبوكَركي، لإنشاء قاعدة دائمة في الهند. عند وصول البرتغاليين الى هناك ودون وقوع حادث مؤسف، وجدوا حليفهم الراجا حاكم كوچن في حالة يُرثى لها، فقد طُرِد من عاصمته نتيجة هجوم قوات ملك كاليكوت القوي. بعد استعادة كوچن، رجع ألبوكَركي وترك وراءه حامية صغيرة من 150 رجلا و 3 سفن تمثلت مهمتها الصعبة في الدفاع عن الراجا. أبحرت سفن ألبوكَركي عائدة الى لشبونة وهي محمّلة بالتوابل. في الوقت نفسه عُيّن النقيب پاچيكو بيرَيرا قائدا لحامية كوچن. أثبت هذا، على حدّ قول المؤرّخ روجر كرولي بأنّه "تكتيكي عبقري وجغرافي وعالم تجريبي." عندما فرض ملك كاليكوت الحصار على كوچن بحشد جيش من 60000 رجلا، تصدّى پاچيكو ومفرزته الصغيرة ومعها قوة الراجا المؤلفة من 8000 رجلا لمقاومة الهجمات المتكرّرة وهزيمة اسطول العدو المكوّن من 52 سفينة. بملاحظة العلاقة بين مراحل/أطوار القمر وتغيّر مستوى مياه البحر بين المدّ والجزر، استطاع پاچيكو خلال 5 أشهر من الحرب على تحريك قواته المتفرّقة بشكل ستراتيجي حول مياه منطقة كوچن الضحلة وتقليل هجمات العدو وزيادة أخفاقاته واحباطه. رفع ملك كاليكوت أخيرا دعوى قضائية من أجل السلام ممّا سمح لپاچيكو بتأمين موطئ قدم للبرتغال في آسيا قبل أن يعود منتصرا الى لشبونة مع الأغنياء في سفن محملة بالفلفل والبهارات.[77]



النقيب پاچيكو بيزيرا المستكشف البرتغالي بحدود عام 1520 (Credit: Alamy)

وهكذا وبُسرعة مذهلة، تشكّلت إمبراطورية البرتغال الآسيوية. مع توفر المشورة من المستكشفين ذوي الخبرة مثل ألبوكّركي وپاچيكو، وضع الملك مانويل ومجلسه الإستشاري إطارا شاملا بشكل مدهش من التصميم الجيوسياسي للهيمنة على المحيط الهندي. صدر الأمر الملكي لبداية الفتح بالسيطرة على ساحل شرق افريقيا عن طريق احتلال الموانئ في كيلوا وومومباسا، ويعد ذلك بناء حصن عند مدخل البحر الأحمر لمنع كافة التجارة من قبل سلطان مصر، وأخيرا تأسيس الموانئ التجارية المحصّنة عبر المحيط الهندي من جنوب الهند الى مضيق مَلقا. على الرغم من أنّ معظم تلك المياه كانت لا

تزال غير مُستكشفة من قبل البرتغاليين، حدّدت أوامر الملك المتعلقة بالمناطق البحرية الحساسة *Mare Clausum* بشكل صحيح نقاط المضائق وفرض السيطرة عليها في تجارة المحيط الهندي.[78] كانت سهولة التحكّم في مثل هذا المحيط الشاسع مفارقة من شأنها أن ترفع البرتغال الصغيرة الى مصاف القوّة العالمية.

من ضمن العناصر لتحقيق تلك الخطط، أنّه كان في خدمة الملك عدد قليل من الحكّام الموهوبين وفرق صغيرة من القوّات الخاصّة. مارس الجنود البرتغاليون وحشية في الحروب الطويلة ضدّ المسلمين في المغرب، وفقا للمؤرخين G.D. Winius وB.W. Diffie. أظهر أولئك الجنود التصميم والإنضباط في المعارك ولم تردعهم الأعداد المتفوّقة وقاتلوا بضراوة حتى عند اصابتهم وهللوا لذبح أعدائهم. بينما قام الغزاة الأسبان بتبيح السكان الأصليين من الأزتك والإنكا في القارة الأمريكية، كان البرتغاليون يواجهون عادة الجنود الذين يفتقرون الى الخيول والدروع الفولاذية والبارود، ودفعوا اعدادا أكبر واسلحة مماثلة لمواجهة القوّات البحرية الآسيوية. وكلما سنحت الفرصة، تصرّف البرتغاليون بناء على عدائهم العميق ضدّ المسلمين وقتلوا أولئك الذين واجهوهم في اعالي البحار أو في مدن الموانئ. ولكن لتأمين جيوبهم العسكرية والدفاع عنها بشكل خفيف، استقطب البرتغاليون دعم بعض القادة المحليين، سواء كانوا من الراجا الهنود أو سلاطين الملايو Indian Rajahs or Malay Sultans.[79]

في محاولتها التي استمرّت قرنا من الزمن للسيطرة على المحيط الهندي، تغلبت البرتغال على المسافة غير العاديّة بين عاصمتها ومحيط إمبراطوريتها من خلال ستراتيجية إدارية مرنة. على المستوى المحلي وعلى عكس الدول الأوروبيّة الكبرى التي استثمرت القليل في الإستكشاف، تصرّفت البرتغال ككيان رأسمالي للمشروع الإمبراطوري يترأسه رجل اعمال. في الخارج، بنى التاج البرتغالي شبكة مرنة من الدمج وذاتية الإكتفاء *Feitorias* لأجل حكم مساحات شاسعة غطّت في ذروتها نصف الكرة الأرضية. من البرازيل الى شرق

إندونيسيا، بنت البرتغال 50 من الموانئ المُحصّنة التي تمّ استخدامها كمعاقل بحرية لفرض الضرائب على السّفن المارة وأماكن لإدارة تجارتها في التوابل والذهب والفضّة والعبيد. أحاطت بتلك المعاقل أسوار حجرية هائلة، وكان كلّ واحد منها مستقلا وقابلا للدفاع عن مجتمع يحكمه وكيل التاج الذي ينظم التجّار من القطاع الخاصّ مع إدارة التجارة الملكية، إذ تعرض أساطيل السفن الصادرة أو الواردة البضائع في السوق. وبنى التاج أيضا فيتوريا *Feitoria* مركزيّة، كاسا دا إنديا Casa da India على نهر تَيجُس في لشبونة، حيث تمّ استقبال الشحنات الغنية من أفريقيا وآسيا المُرسلة الى نقابة التجّار في أنتويرب Antwerp لتولي بيعها وتوزيعها في جميع انحاء أوروبا.[80] في مجموعتها الجيوسياسيّة، كانت الجيوب المُحصّنة للبرتغال تشكل قوسا حول تلك "الجزيرة العالمية" لأفريقيا وأوراسيا، ممّا ضخّم قوتها العالمية وسمح لها بإمبراطورية تجاوزت مرونتها حدود الدولة، رغم الموارد الشحيحة من الرجال والسفن.

منذ تشبّثت الإمبراطورية البرتغالية بالسواحل بدلا من التوغّل في الداخل لاستعمار الأراضي، كانت الإمبراطورية بحاجة الى تطوير دولة مرنة لحكم أرخبيلها العالمي من الجيوب المُحصّنة. لإدارة حوالي 20 فيتوريا على ساحل الهند وحده، عيّن التاج نائبا للملك حكم بعد عام 1530 دولة الهند في ذلك البلد وجعل عاصمتها مدينة گوا، ذات الهياكل الحجرية الرائعة والمظهر الأيبيري في آسيا. اصبح هذا الجيب ايضا بمثابة مقر الجالية البرتغالية المنتشرة في جميع أنحاء آسيا، والتي ازداد عددها لما يقرب من 14000 رجلا، نصفهم من رجال الدين الكاثوليك، والباقي مسؤولون وجنود وتجّار. أثبتت هذه التشكيلة الجيوسياسية من الحصون المرتبطة بالأساطيل أنّها قادرة بشكل معقول على امتصاص الهجمات الآسيوية الحاشدة وصدّ الهجمات من خلف الأسوار الحجرية واستقطاب الدعم من الموانئ القريبة وإخلاء المنطقة بأمان، إذا لزم الأمر.[81] النتيجة هي أنّ الطاغوت الإمبراطوري The Imperial Juggernaut هو الذي سمح للبرتغاليين بالهيمنة على

المحيط الهندي الشاسع ببضع عشرات من السفن وعدة آلاف من الجنود، وتمكّن من تحييد الملوك الآسيويين الأكثر قوة، ومن الذين قدّمت ارضهم الهائلة جيوشا من شبه القارة الهندية الشاسعة التي ضمّت وحدها 150 مليون نسمة.[82]

الشخصيّات الرئيسية في غزو البرتغال لهذا المحيط كانا ضابطين أرسلهما البلاط الملكي لتنفيذ مشروعه الكبير. أبحر أوّلهما من لشبونة عام 1505 بأسطول قوامه 22 سفينة و1500 جنديا، وكان فرانسسكو دي المبدا المعروف باسم "دوم فرانسسكو العظيم" هو الذي عيّنه الملك نائبا أوّل له في الهند ومسؤولا عن فتح إمبراطورية المحيطات. لكنّه سرعان ما وجد نفسه في موقف دفاعي للقتال، وقيل أنّ تحالفا متعدّد الجنسيّات من أولئك الذين شرّدهم استيلاء البرتغال على تجارة التوابل هو من شكّل ذلك التحدّي المُبكّر. حُرم التجار الفينيسيّون من نسبة حوالي 40٪ من ارباح تجارة الفلفل وخسرت سلطنة المماليك في مصر ضرائب العبور التقليدية عبر ارضها على شحنات البهارات التي تعبر من خليج السويس الى موانئها على البحر الأبيض المتوسط.[83]

كمروّجين لهذا التحالف، أرسلت فينيسيا الإيطالية الأخشاب لبناء عشرات السفن الحربية الضخمة في السويس على البحر الأحمر لصالح سلطان المماليك في مصر. في شهر شباط من عام 1507، أرسِل هذا الأسطول مع 1500 جنديا للإنضمام الى السفن الهندية في ميناء ديو على بحر العرب.[84] بعد ذلك بعامين، أبحر المبدا بجرأة نحو ميناء ديو الضيق لقيادة 19 سفينة و1200 جنديّا برتغاليا لمواجهة اسطول إسلامي يزيد عن 100 سفينة و5000 مقاتلا. ونظرا لعدم وجود مكان للمناورة، أطلقت المدفعية البرتغالية مئات القذائف على سفن العدو، بينما صعد جنودهم الى السطح استعدادا للقتال اليدوي. أفنى البرتغاليون اسطول العدو ودمّروا المرفأ ولطخ ألميدا يديه بدماء المندحرين. لقد حقق أحد الإنتصارات "الأكثر حسما" في تاريخ الحروب البحرية ومنح البرتغال السيطرة على جزء كبير من التجارة في ساحل الهند الغربي للقرن التالي.[85]

وبعد أن تمّت مواجهة هذا التحدّي الإسلامي، أرسل نائب الملك الثاني البوكركي من لشبونة، وقضى 6 سنوات في محاولة تنفيذ أعظم تصميم جيوسياسي وأنجز ذلك بنجاح، حتى اشتهر باسم "أسد البحار".[86] لغرض تأمين عاصمة لإمبراطوريّة البرتغال الآسيوية، هاجم البوكيركي ميناء گوا الهندي عام 1510، واقتحم بوابات سور المدينة عند الفجر وخاض مع جنوده معركة شوارع دامية وأحكم السيطرة على المدينة بحلول الظهيرة. لاختطاف أغنى جائزة في جنوب شرق آسيا، قاد البوكركي اسطولا من 18 سفينة و1200 رجلا للإستيلاء على ميناء مَلقا ومضائقه وسحق ما يقرب من 20 ألفا من الجنود المدافعين والمسلحين بألفي مدفع، فحدث قتال شرس في معارك شوارع لُطِخت بالدماء. وبناء على هذا النصر الكبير، أرسل الحاكم حملات استكشافية الى جزر الملوك في شرق إندونيسيا للإستيلاء على مصادر التوابل الفاخرة من القرنفل وجوزة الطيب والتوابل المستخرجة من قشرتها المسحوقة Mace.[87]

بعد تأمين المدخل الشرقي للمحيط الهندي، حاول البوكركي الإستيلاء على ميناء عدن المُحصّن عند مدخل البحر الأحمر في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية. لكنّ كلّ شيء حدث بشكل خاطئ. قذائف المدافع التي ارتدت من جدران القلعة الضخمة هبطت وانغمرت في مياه الساحل، وأثبتت سلالم الحصار لتسلق اسوار القلعة بأنّها قصيرة جدّا.[88] قاد البوكركي أيضا عام 1515 اسطولا هائلا للسيطرة على مضيق هرمز في مصبّ الخليج الفارسي الذي كان بمثابة ممّر للتجارة الغنية من بلاد فارس والهند. بعد دعوة السلطان المحلي ومستشاره المؤثر، وهو وكيل لشاه بلاد فارس للقاء سلمي، أمر البوكركي باغتيال المُستشار على الشاطئ، فأجبر السلطان على تسليم المضيق الستراتيجي للبرتغاليين. كان الإدّعاء هو أنّ الفرس عانوا من هزيمة الجيش العثماني مؤخّرا وكانوا ضعفاء للغاية.[89] في الوقت الذي مات فيه البوكركي في مدينة گوا في الهند، كانت حملاته قد اكتملت بموجب خطط الملك البرتغالي للسيطرة على

المحيط الهندي بكامله باستثناء مضيق باب المندب، الذي سرعان ما اصبح، حسب قول المؤرخ مايكل بيرسُن، "فجوة حيوية في التصميم الجغرافي الستراتيجي للبرتغال." وهو ما سمح للتجار المسلمين من استخدام المسالك الشمالية عبر البحر العربي.[90]

كما اتضح من تلك الكارثة البحرية في ديو، كانت سلطنة المماليك في مصر نظاما في حالة انحدار. تمّ القضاء عليه بسرعة عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تتوسّع ديناميكيا في جميع الإتجاهات من عاصمتها إسطنبول. سارت قواتها جنوبا في عام 1517 وسحقت قوّات المماليك نتيجة قوّة نيرانها المتفوّقة واستولت على المجال بأكمله من سوريا حتّى مصر. وبالتالي جلب هذا الدولة القوية الى شواطئ البحر الأحمر، حيث أعلن الحاكم العثماني سليم المتجهّم Selim the Grim نفسه خليفة للمسلمين وحاميا لمكة. ومع توفر الموارد، توسّعت الإمبراطورية بشكل كبير لحدّ أنّ إبنه ووريثه سليمان القانوني واصل المهمّة من خلال مهاجمة البرتغاليين وملاحقتهم في المحيط الهندي.[91]

في عام 1538، أرسل الوالي العثماني على مصر أسطولا مكوّنا من 72 سفينة و6500 رجلا ومدفعية ممتازة عبر البحر الأحمر ثُمَّ البحر العربي للإنضمام الى أكبر قوّة گوجاركية هندية لشنّ هجوم آخر على الحامية البرتغالية في ديو Diu في شمال ساحل الهند الغربي. على الرغم من وصول إسطول الإغاثة في الوقت المناسب قادما من حامية گوا لإنقاذ 800 مدافعا برتغاليا من هزيمة وشيكة، تمّ صدّ الهجوم البرتغالي المضاد في السويس على البحر الأحمر بسهولة. جرت حروب ضخمة ومناورات ستراتيجية جريئة من قِبل كلي الجانبين تغيّرت قليلا في العقود التالية، وانخرطت هاتان القوّتان الإمبرياليتان المتنافستان في صدامات مستمرّة. لكن القتال ما كان حاسما رغم ارسال قوات لدعم الحلفاء المتحاربين بين ممالك القرن الإفريقي وخوض المعارك البحرية امتدادا من البحر الأحمر حتى مضائق ملقا Straits of Malacca.[92]

في النهاية، أدّى هذا الفشل المُتبادل الى مأزق ستراتيجي. كانت لدى العثمانيين الموارد العالية والقوى العاملة والدعم المحلي من الأخوة المسلمين من شرق أفريقيا حتى اندونيسيا. ومع ذلك فإنّ سفنهم القديمة التي اعتمدت على التجديف، رغم فعاليتها في الدفاع عن البحر الأحمر المُغلق والأكثر هدوءً، لكنّ هذه العناصر أكّدت هزيمتهم ضدّ السفن الشراعية البرتغالية في مياه المحيط الهندي المفتوحة. لأكثر من نصف قرن (1507– 1565)، حاولت الدوريّات البرتغالية منع وصول التجار المسلمين في الهند الى البحر الأحمر، ولكن العام بعد العام تمكّنت سفن أولئك التجار من حمل ما يكفي من التوابل لكسر احتكار تجارة الفلفل البرتغالي المُربحة.[93] خلال سبعينات القرن الخامس عشر كان صاحب الرؤية هو الوزير الأعظم والستراتيجي الجيوسياسي الصقلي محمد باشا. كان مسؤولا عن تنظيم تجارة التوابل العثمانية المُربحة، التي فرضت ضرائب على التجار المسلمين واشرفت على تسيير قوافل السفن المملوكة للدولة للإبحار عبر البحر الأحمر باتجاه السويس من موكا، وهي محملة بمحصول البُنّ اليمني الشهير والتوابل القادمة من الهند.[94]

خلال ثمانينات القرن الخامس عشر، بدأ التنافس الشديد للسيطرة على المحيط الهندي بالتلاشي مع دخول كلّ من الإمبراطوريتين العثمانية والبرتغالية فترات الأزمات الداخلية. إستنزفت الحروب الطائفية المطولة ضدّ الفرس الإمبراطورية العثمانية، وذكر المؤرّخ جيانكارلو كاسال عن الحكومة العثمانية في اسطنبول بأنّها، "كانت حبيسة ما يبدو دائرة لا نهاية لها من الطعن بالظهر وتبادل الإتهامات والفضائح" التي تجسّدت باغتيال الصقلي محمد باشا عام 1579. مات وماتت معه خطط جريئة لجعل اسطنبول مركز الإمبراطورية العالمية من خلال الإستيلاء على البحر الأبيض المتوسط وسلبه من المسيحيين، والتحريض على ثورة إسلامية شاملة ضدّ البرتغال عبر المحيط الهندي، وبناء قنوات في كلّ مكان اعتبارا من السويس حتى جنوب روسيا. عبر التركية القائلة

لمؤامرات القصر والحرب مع الإمبراطورية الفارسية وتصاعد الضغوط العسكرية في البحر الأبيض المتوسط، التي كان العثمانيون يمارسونها، سرعان ما توقفت هذه واكتفى العثمانيون بكونهم "وجودا سياسيا مرئيا" في المحيط الهندي.[95]

في الوقت نفسه، أدّت أزمة كارثية في البرتغال أخيرا الى انهيار الإمبراطورية التي استمرت قرنا من الزمن تحتكر تجارة المحيط الهندي. في عام 1578 تولى المَلك الشاب سيباستيَن، الذي عانى من العجز الجنسي والمزاج الناري الذي جعله "القائد المسيحي" المهووس، قاد زهرة أرستقراطية أمته في حملة صليبية على المغرب. هناك وخلال المعركة المصيرية Alcácer Quibir أبيد الجيش البرتغالي على يد القوّات المسلمة المحلية. قُتِل حوالي 8 آلاف جنديا برتغاليا وأسر منهم 15 ألفا، ونجا 100 فقط. كانت الهزيمة مدمّرة لدرجة أنّها لم تدمّر الملك وبلاطه فحسب، بل عجّلت أيضا بالبلاد لتندمج في الإمبرطورية الإسبانية لمدة 60 عاما.[96] بزوال القيود المفروضة من قبل الإمبراطوريتين العثمانية والبرتغالية، أمكن للتجار والحجاج المسلمين التنقّل مرّة أخرى عبر المحيط الهندي دون عوائق.[97]

من خلال الدبلوماسية الماهرة والحرب البحرية المستمرّة، أمضت البرتغال قرنا في الدفاع عن *Mare Clausum* نفوذها في المحيط الهندي وجنوب محيط الأطلسي. ومع ذلك فإنّ المكاسب من انتصاراتها البحرية كانت تجارتها المُربحة قليلة بشكل مدهش. تمّ إهدار ارباحها السهلة من منطقة آسيا من قبل البلاط الفخم في لشبونة والإفراط الكنسي الذي تجلى في بناء الكنائس والأديرة الكبيرة. وفي نفس الوقت، توقف التغيّر الإجتماعي وكان تشكيل البورجوازيّة التجارية قد تمّ حظره وترك أيّ حافز رأسمالي ليكون من نصيب الفتوحات الإمبريالية الهولندية والبريطانية.[98] بحلول عام 1600، كانت إمبراطورية لشبونة في حالة تدهور ولم تعد تستطيع المنافسة بشكل فعّال ضدّ هولندا، حين ظهرت

أمستردام للوجود بسرعة كمركز تجاري جديد وقوة بحرية في أوروبا. لقد تلاشى مشروع البرتغال المحيطي الهشّ وستتلاشى بعده إمبراطورية إسبانيا الأكثر قوّة وتفشل في الحفاظ على النظام العالمي الأيبيري بعد مرور نصف قرن آخر.

إمبراطورية الفضّة الإسبانية

بالرغم من سيطرة البرتغال على المحيط الهندي وغزو إسبانيا لأمريكا اللاتينية في نفس العقود الأربعة بعد 1500، استخدمت الإمبراطوريتان المتنافستان ستراتيجيّات لتحقيق نتائج اقتصادية مماثلة. في الوقت الذي حافظ فيه البرتغاليون على جيوبهم الساحلية، انطلق الأسبان الى الداخل من أجل الفتح. كافح البرتغاليون للنجاة من هجمات الممالك الآسيوية، فيما أوقع الأسبان المذابح في إمبراطوريتي الهنود الحمر. مارس البرتغاليون خططا جيوسياسية مائلة الى تطويق أوراسيا بالإستيلاء على البحار المحيطة بها، قام الأسبان باحتلال عسكري لقارتين هما أوروبا وأمريكا اللاتينية وممارسة التأثير الإقتصادي العالمي من خلال جعل الفضّة عملة عالمية. مع ما يزيد قليلا عن مليون نسمة، قدّمت البرتغال القليل من سكانها للعيش في مستعمراتها الإمبراطورية الشاسعة. كان لدى إسبانيا ستة أضعاف ذلك العدد من السكان للحفاظ على هجرة كبيرة. أرسلت 130000 قشتاليا الى العالم الجديد بحلول عام 1580. أضف الى ذلك، وجود الإختلافات الجوهرية في أهداف الإمبراطوريتين وقدراتهما والنتائج التجارية التي حققتها كلّ منهما. كان لدى الجانبين إيمان راسخ بالتسلسل الهرمي البشري المقدّس إلاهيّا برئاسة العاهل الملكي. وكان لدى كلّ منهما فائض من الأرستقراطيين الضعفاء المنحدرين من أجيال الصليبيين المسيحيين، الذين قاتلوا الحكم الإسلامي على شبه الجزيرة الأيبيرية، من الذين كانوا حريصين على السعي وراء ثرواتهم في الشواطئ الأجنبية البعيدة. ترى العديد من الرجال قد أبحروا من لشبونة الى گوا في الهند

بينما انطلق آخرون من إشبيلية متوجّهين الى المكسيك. كتب القسّ اليسوعي في عام 1590، "بسهولة مثل المزارع الذي انتقل من قريته الى المدينة."[99]

أدار ملوك كلّ من إسبانيا والبرتغال امبراطوريتيهما على النحو التالي: الهيمنة الإقتصادية والتحكّم المباشر عن طريق المُعيّنين والوكلاء واستخلاص "الخمس الملكي" من جميع الشحنات الواردة كرسوم إقطاعية Feudal Dues. إذا تمّ في إحدى المرّات تفريغ شحنات الذهب والفضة والتوابل على رصيف ميناء مصبّ نهر تُيگس في لشبونة أو نهر Guadalquivir في إشبيلية، تمّ تحويل هذه البضائع مباشرة الى سلع رأسمالية نتجت بسرعة من سيطرة كلتي الإمبراطوريتين على العوالم الخارجية، وتمّ تسويق هذه الشحنات من قبل تجّار الأنتويرْپ Antwerp وتجّار أمستردام، أو بيعت لصالح المصرفيين في أوكسبُرگ وجَنَوا.[100] بالنسبة لكلّ من القوّتين الأيبيريتين، فإنّ هذا التدفّق شبه السلس للكنز الإمبراطوري الهائل قد حبس السلطتين في ماضٍ شبه إقطاعي وفشلا في تحفيز التحوّل الرأسمالي.

بعد قرن من الزمن على اكتشاف البرتغال واستغلالها للأمريكتين بطرق عكست طابع النظام الملكي، تمّ دمج مقاطعتي آرّگون وقشتالة عن طريق زواج الملكين الكاثوليكيّين فرديناند وإيزابلا عام 1469 في مملكة واحدة. كان فرديناند أمير آرّگون في شمال شرقي إسبانيا وكان ميناء برشلونة في يوم ما هو الميناء التجاري الرئيسي وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط. غير أنّ موجات الطاعون الأسود والأوبئة الأخرى قد تسببت في خسائر فادحة، حيث انخفض عدد سكان برشلونة والمناطق المحيطة بها الى نصف ما كان عليه. ومثل برشلونة، إنهارت البنوك الرائدة في ثمانينات القرن التاسع عشر وملأ التجار الشطّار من جنوا الفراغ واستولوا على الكثير من التجارة في البحر الأبيض المتوسط ونشروا نفوذهم عبر إسبانيا.[101]

إذا كان اقتصاد آرّگون راكدا، فإنّ قشتالة الملكة إيزابيلا كانت ديناميكية ومزدهرة اقتصاديا من تجارة الصوف والتوسع عسكريا من خلال حروبها مع

الإمارة المسلمة في جنوب إسبانيا. ليس فقط غطّت قشتالة ثلثي شبه الجزيرة، لكنّ عدد سكانها بلغ 5 ملايين نسمة، حين تضاءلت كلّ من آرّگون والبرتغال. من خلال ما وصف المؤرّخ جون إليوت عن "الوفرة الإبداعية للقشتاليين وتنظيم قدرات آرّگون،" وضع هذان الملكان الزوجان الأسس لدولة إسبانية قويّة. خلال 30 عاما بين تتويج إيزابيلا عام 1474 ووفاتها عام 1504، إرتفعت عائدات الضرائب في المملكة من 900000 ريالا الى 26 مليون ريالا. بينما كان فرديناند يدير السياسة الخارجية، إشتهرت إيزابيلا برعايتها للتعليم،[102] بما فيه توسيع جامعة سالامانكا لتضمّ 7 آلاف طالبا.[102]

لأكثر من عقد من الزمن قاد فرديناند وإيزابيلا آخر حملة صليبية في أعقاب النصر الذي جاء أخيرا بسقوط غرناطة المسلمة في جنوب إسبانيا عام 1492. احتفلت الكنيسة المسيحية بهذا طوال الوقت كعقاب لاستيلاء المسلمين على القسطنطينية. بدأ الملكان في بناء إمبراطورية كاثوليكية ضمّت غرناطة الى قشتالة وطُرِد ما يقرب من مائتي ألف يهوديا (وكافة العرب المسلمين– المترجم) من المملكة وجرى التخطيط للتوسّع في الخارج. بعد 3 أسابيع من انتصارهم، التقى الملكان بكرستوفر كولومبُس ووافقا على تمويل استكشافه باتجاه الغرب نحو آسيا، على أن يمُنح عشر تجارة أيّة مناطق جديدة يجدها. بدلا من اكتشاف الصين وصل الى البحر الكاريبي، حيث حاول انشاء مستعمرات للمُستوطنين الأسبان.[103]

خلال الثلاثين عاما التالية من سيطرة حكّام إسبانيا، بما فيهم كولومبُس نفسه وابنه ديگا، ترأسوا جهدا بائسا لاستعمار منطقة البحر الكاريبي. تميّزت الفترة بالإقتتال الداخلي المرير واستعباد السكان المحليين ومحدوديّة المكافئات. في العقدين الأولين جمع الأسبان حوالي 14 طنّا من ذهب تلك الجزر. وبعد ذلك بدأوا في تثبيت تداعياتهم الآيلة لسقوط المشروع الإمبراطوري عن طريق إدخال زراعة قصب السكّر في جزيرة هسپانيولا

Hispaniola. خلف كولومبُس حاكما للجزيرة إسمه نيكولاس دي أوڤاندو، الذي أسّس نظام *Encomienda* واعطى المستعمرين الجُدد ليس الأرض فقط بل السيطرة على الهنود الحمر كعمالة وخلق ظروفا وصفها المؤرخ إليوت، "بالكاد يمكن تمييزها عن العبودية الصريحة".[104] في هذا الحضيض من مشروع الأسبان الإمبراطوري، خلف فِرديناند حفيد آل هابسبُرگ، چالز الخامس، الذي سرعان ما عبّر عن رغبته وسعيه الحثيث للأرض والسلطة في التوسّع المتجدّد للإمبراطورية.

بعد ما يقرب من ثلاثة عقود وهم محصورون في مستعمرات جزر الكاريبي، بدأ الجيش الأسباني غزو أمريكا اللاتينية بسرعة وقسوة على غرار اكتساح البرتغال المفاجئ عبر المحيط الهندي. بينما استخدمت لشبونة الأساطيل الصغيرة والمدافع المتفوّقة ضدّ أفضل أكبر أسطول آسيوي، عمد الأسبان الى استخدام مهاراتهم العسكرية الفولاذية وميليشياتهم الصغيرة لإبادة السكان المحليين من اتباع الحضارتين العظيمتين لهنود الإزتك والإنكا. في واحدة من أكثر الحملات غير العادية في التاريخ العسكري، كان ترقيم الجنود الأسبان لما يزيد عن 1000 وحدة مهزومة من السكان المحليين البالغ عددهم 30 مليون شخصا. كان معظم الغزاة من الرجال الشباب غير المتزوجين الذين تلقوا تدريبا عسكريًا وعادة ما تمّ اختيارهم من أسفل رتب النبلاء القشتاليين الطموحين بشدة ومعهم الأرستقراطيين الكاثوليكيين، الذين لا يرحمون تماما والمعروفون باسم هيدالگُس *Hidalgos*.[105]

في شهر شباط من عام 1519، أبحر الفاتح هِرنان كورتيز، وهو هيدالگو فقير أصبح مزارعا ثريًا في كوبا، من ميناء هَڤانا ليقود 11 سفينة وعليها 600 رجلا و16 حصانا وبعض المدفعية الخفيفة. قال، "لقد جئت الى هنا لأصبح ثريا، وليس لأحرث الأرض كفلاح." بعد إغراق سفنه بالقرب من ميناء ڤيراكروز الحالي لكي يُظهر لرجاله أنّ التراجع ليس ممكنا، قاد كورتيز رجاله الى الداخل فيما

أصبح حملة دامت سنتين لغزو المكسيك. على الرغم من أنّ عاصمة الأزتُك في تينوچيتيلان، بدت المدينة الضخمة المُذهلة التي بلغ عدد سكّانها ربع مليون نسمة، عاصمة ضعيفة فضفاضة بسبب تحالف ثلاث مدن من وادي المكسيك لخوض حرب شرسة ضدّها خلال قرن من الزمن وانضمت لتلك المدن مناطق بعيدة مستاءة من خضوعها للإمبراطورية. من خلال تحالف كورتيز مع مملكة تلاكسكلان، إحدى تلك المناطق المضطربة، هاجم حليفا للأزتك وقتل حوالي 3000 من جنودهم. أحيط كورتيز بعدها بهالة من القوّة من ذلك الإنتصار عديم الرحمة. دخل عاصمة الأزتك وسار في طرقها وسط منطقة تينوچيتيلان، حيث رحبّ بهم الإمبراطور مونتيزوما. بعد أن أنتصر هؤلاء الضيوف الغزاة على المدينة وبعد احتلال استمرّ لفترة 6 أشهر، إنتخب زعماء الأزتك المُستائين إمبراطورا جديدا ورجموا مونتيزوما بالحجارة.[106]

تراجع كورتيز الى مملكة تلاكسكلان بالقرب من خليج المكسيك واستمد التعزيزات من كوبا وشكّل تحالفا بين دول المدن المحلية ممّا سمح له بالسير الى العاصمة بقيادة 900 عسكريًا إسبانيًا وجيش من قوات المليشيا المحليّة تعداده 10000 جنديا. لكسر مقاومة الأزتك، دمّر الأسبان المدينة بشكل منهجي وذبحوا الآلاف قبل أن يقبضوا أخيرا على الإمبراطور الجديد كواوتيموك بين أنقاض عاصمة الأزتك العظيمة، فأصبحت مدينة تينوچيتيلان عاصمة إسبانية جديدة سمّوها مدينة المكسيك.[107]

الى الجنوب، استغلّ الجندي فرانسيسكو بيزارو منصبه كرئيس بلدية مدينة پَنما الجنوبية لتنظيم رحلة استكشافية صغيرة بإبحار نحو أسفل المحيط الهادئ لساحل أمريكا الجنوبية الغربي. بعد عبور خطّ الإستواء وصل الى شمال پيرّو عام 1528. سمع هناك قصصا عن مملكة في الداخل "مرصّعة بالذهب". كانت في الواقع أحد أكبر حضارات العالم، وامتدت لما يقرب من 3 آلاف ميلا على طول جبال الأنديز. غطّت حضارة الإنكا مساحة قدرها 350000 ميلا مربّعا وضمّت 10

ملايين مواطنا. على الرغم من افتقارها الى الفولاذ والعجلات والكتابة والحيوانات لجر العربات، إلّا أنّ حضارة الإنكا قامت على دولة قويّة مركزية بجيش ضخم ومدن كبيرة. كان لدى الإنكا نظام ريّ متقن و24000 ميلا من الطرق، التي جعلتها في حينها واحدة من أكبر شبكات الطرق في العالم. نظرا لأنّ الإنكا كانوا يعبدون الشمس، فإنّ الأمبراطور السابا إنكا Sapa Inca "إبن الشمس" قارب بين الدين والدولة في شخصيّة العاهل المُبجّل. خلقت هذه المركزيّة المفرطة للسلطة أيضا نقطة ضعف من شأنها أن تسمح لعدد قليل من الجنود الأسبان بقهر إمبراطوريّة شاسعة. كانت دولة الإنكا The Inca State أقوى بكثير وأشدّ توحيدا من أمبراطورية الإزتك Aztec، ولكن ثبت للمفارقة أنّها أسهل بكثير في عملية إخضاعها.[108]

بعد رحلة الى إسبانيا، حيث عيّنه الملك چالز الخامس حاكما لِبِيْرُو، أبحر بيزارو وأخوته الأربعة من بَنما في شهر كانون الثاني من عام 1532 بقوّة صغيرة مدهشة قوامها 168 رجلا و62 حصانا وبعض البغال لحمل سلاح المدفعية. بحلول شهر نيسان تمكّن بيزارو من الإتصال بإمبراطور الإنكا الجديد أتاهوالبا، الذي كان يشنّ حملة لقيادة جيشه لقمع تمرّد ضدّ سلطته وجعل مملكته منقسمة. المثير للدهشة أنّ الإمبراطور وافق على مقابلة هؤلاء الغرباء في مدينة كاخامارا في مرتفعات الإنديز. لدى وصوله، كان بيزارو قد أعدّ له كمينا في ساحة الإحتفالات في المدينة. بتاريخ 16 تشرين الثاني وصل الإمبراطور ومعه هدية من صفيحة ذهبية Gold Palanquin حملها 80 من النبلاء ومحاطا بحوالي 4000 مرافقا من الحاشية وخلفه 8000 من الجنود العزّل. تقول إحدى الرّوايات، إنّ الحاكم أعطى الإشارة باللغة الإسبانية لسلاح الفرسان والمشاة للخروج من مخابئهم في الأزقة والطرق المؤدّية للساحة واطلاق النار على الكتل البشرية من الهنود العزّل المحتشدين فيها "... وسط قعقعة السلاح ودويّ المدافع ونفير الأبواق وضجيج سنابك الخيول وهي تضرب بلاط الساحة واصوات العيارات النارية

من البنادق، ارتعب الهنود وحدثت الإرتباكات بين صفوفهم، فانزل الأسبان بهم السيف وقطّعوهم الى أشلاء مبعثرة." في خضمّ المعركة، شقّ بيزارو صفوف النبلاء من حاملي الهدية الذهبية والقى بنفسه القبض على سابا إنكا.[109]

لغرض دفع الفدية التي طلبها بيزارو، قضى مبعوثو الإمبراطور أتاهوالبا شهورا في تنشيط المملكة بحثا عن المعادن الثمينة وتقديم كنوز من فنون الإنكا للأسبان. بلغت الفدية التي قُدّمت للغزاة 7 أطنان من الذهب و13 طنا من الفضّة. وبعد تسلم الفدية، قام بيزارو بخنق الإمبراطور سابا إنكا وأتخذ زوجته محظية، فأنجبت منه فيما بعد طفلين. مع انتشار خبر موت حاكمهم، إنتحر الآلاف من الناس لينضمّوا الى إلههم، وكادت المقاومة أن تتوقف. بعد 5 أشهر إحتلّ الأسبان عاصمة الإنكا، كوزوكو دون مقاومة، وعيّنوا إمبراطورا جديدا هو الفتى المراهق مانكو يوبانكي، الذي قضى السنوات الأربع التالية في سحق المقاومة لدخوله سلسلة من المعارك غير المتكافئة. غير أنّه بعد هجوم فاشل على الحامية الإسبانية في كوزوكو، قاد إمبراطور الإنكا الجديد اتباعه للتراجع والإختفاء في المرتفعات الوعرة حول فيلكابامبا، حيث عاشوا مستقلين أين وُجدوا لنصف قرن آخر.[110]

بمجرّد هزيمة جيوش الإنكا انقلب الغزاة القساة على بعضهم البعض في نوبات من الإنتقام الملطخ بالدماء. لمنع التحدّي لسلطة بيزارو، أعدم شقيقه نائبَ القائد العسكري ديگو دي الماگرو. وانتقاما لذلك قام أنصار الماگرو باغتيال بيزارو نفسه في مدينة ليما. بعد 4 سنوات وحين اصدر الإمبراطور چالز الخامس الأوامر بمنع إسترقاق الهنود الحمر، تمرّد الأخ الأصغر لبيزارو وهو گونزالو، وأعلن توليه تاج الإنكا لحكم جبال الأنديز وعقد الأمور بأن قاد تمردا إنفصاليا عن إسبانيا لمُلاك العبيد حتى أعدمه نائب الملك عام 1548.[111] بحلول وقت وفاته، كانت إسبانيا قد كسبت امبراطورية شاسعة امتدّت 4500 ميلا من شمال المكسيك حتى وسط چلي، وبلغ عدد سكّانها 35 مليون نسمة.

حين اكتمل إنفاق غنائم حرب تدمير حضارتي الأزتك في المكسيك والإنكا في بِيْرو، إستمرّ الآيبيريون في مشاريعهم الإمبراطورية من خلال صناعتين تطلبتا جحافل كبيرة من العمالة الإلزامية في ميداني الزراعة والتعدين. في عام 1545، إكتشف منقب أمريكي هندي أغنى مناجم للفضة في العالم في پوتوسي في جبال الأنديز العالية في بوليفيا. بحلول نهاية القرن، نمت پوتوسي لتصبح مدينة يبلغ تعداد سكانها 160000 نسمة، مساوية في الحجم حينها لمدينتي لندن أو باريس. جرى تسخير 59000 من عمال المناجم الهنود، الذين انتجوا ثروة لا يمكن تصوّرها لصالح إسپانيا. بعد عام من ذلك الإكتشاف، عثر المستعمرون الأسپان على أول منجم من أصل 6 مناجم على طول جبال سييرا مادرا الغنية بالفضة في المكسيك. أنتج هذان الموقعان كنوز السبائك التي تدفقت محمولة على أساطيل السفن التي أبحرت كلّ عام من كوبا وهي تحمل شحنات غنيّة جدًّا لدرجة أنّها ضاعفت في النهاية المعروض في أوروبا بمقدار 3 مرّات. على مدى القرون الثلاثة المقبلة، أنتجت أمريكا الإسپانية حوالي 80٪ من فضّة العالم.[112]

بينما كان الأسپان ينقّبون في جبال أمريكا اللاتينية بحثا عن الذهب والفضّة، كان البرتغاليون يطوّرون مزارع قصب السكّر على طول ساحل البرتغال. استخدموا مخزون البذور وتكنولوجيا طحن القصب وتكرير العصير قبل سنوات في جزيرتي ماديرا وساو تومي، ونقلوا تلك الخبرات الى مزارع قصب السكّر على طول الساحل البرازيلي من ريو حتى رِسيفي. بحلول عام 1630، شحنت البرتغال 261000 من العبيد الأفارقة عبر جنوب المحيط الأطلسي للعمل في 350 مزرعة برازيلية، أنتجت كلّ منها أكثر من 16000 طنّا من السكّر سنويّا. مع ضعف تجارة التوابل في المحيط الهندي نتيجة المنافسة مع الهولنديين، أصبح سكّر البرازيل الدعامة الإقتصادية لإمبراطورية لشبونة العالمية.[113]

كانت كلتا الصناعتين، الفضّة والسكّر، شرهتين في طلب اليد العاملة، التي اصبح من المستحيل توفيرها بشكل دائمي ومتزايد اعتمادا على المصادر

المحليّة. في البداية حاول الأسبان حلّ مشكلة نقص العمالة عن طريق استعباد السكان الأصليين في المناطق القريبة لنشاطاتهم. وأشارت المصادر الى أنّ سوء المعاملة والمرض قد أهلكا سكان الأراواك Arawak المحليين البالغ عددهم حوالي 400000 نسمة في جزيرة هِسپانيولا. كما استعبد الإسبان حوالي 40000 شخصا في جزر البهاما و200000 آخرين من نيكَراگوا من أجل توفير العمالة اللازمة لمزارع اقصب لسكّر المتنامية في منطقة البحر الكاريبي.[114]

كما ذكرنا سابقا، فإنّ وحشية الإسترقاق الإسباني كانت مستمرة ونتج عنها انقراض جميع السكان الأصليين في منطقة البحر الكاريبي وأثارت أوّل نقاش سياسي حول حقوق الإنسان. منذ البداية أثارت إساءة معاملة المستعمرين للسكان الأصليين معارضة من قِبل رجال الدين الإسبان، واشهرها معارضة الراهب الدومِنيكي بارتولومي دي لاس كاسَس Bartolomé de Las Casas. في عام 1502 الذي جاء وهو في سنّ الثامنة عشر الى هِسپانيولا كمستعمر عادي مع واحدة من أوّل حمولات كبيرة من المستوطنين الأسپان المهيئين لإخضاع السكان الأصليين. في غضون عام حصل على واحدة من هبات الحاكم أوفاندو Ovando's *Encomiendas* ومعها تخصيص حصة من العبيد من الهنود الحمر. حين ألقى القس الدومينيكي أنطونيو دي مونتِسينوس خطبته الشهيرة في سانتو دومِنگو، التي هاجم فيها بقوّة الإنتهاكات الإسبانيّة، كان لاس كاسَس على ما يبدو حاضرا وسجّل تلك الكلمات الغاضبة حرفيا في إحدى مذكراته اللاحقة عن العالم الجديد. لم ينزعج من ذلك النقد اللاذع، وانضمّ الى الغزو الإسباني الوحشي لكوبا، حيث شهد المزيد من الفظائع وكوفئ مرة أخرى بعدد من العبيد الهنود. بعد ذلك بعامين، تهيأت له فرصة في قراءة الكتاب المقدس حيث أشار أحد فصوله Ecclesiastes الى إدانة استغلال العمّال، ممّا أجبره على التخلي عن عبيده الكوبيين وتكريس حياته لقضية الهنود الحمر في أمريكا اللاتينية.[115]

على مدار الأربعين عاما التالية من الإلتماسات والوفود والبيانات، إنضم لاس كاسَس الى الرّهبان الدومانيكّن في حملتهم الحماسية لتأكيد إنسانيّة الهنود الحمر. بينما رأى المستعمرون الأسبان أنّ السكّان الأصليين هم من دون البشر، شعرّ الرهبان الدومانيكّن أنّهم يجسّدون نموذج أرسطو حول الصفحة النظيفة (Tabula Rasa)، التي يمكن لهم أن يكتبوا عليها أنقى أشكال المسيحيّة. إعتقد الدومانيكّن أيضا أنّ الحريّة حقّ طبيعي يتمّ الحصول عليه باعتباره نعمة من الرّب، ولا يمكن أن يسقط هذا الحقّ بواسطة العبوديّة. في عمله الإستثنائي ومهمته مدى الحياة، حاول لاس كاسَس إنشاء مجتمع طوباوي لتطوير "الهنود الأحرار" في فنزويلا ضمن عقيدة التبشير الإنسانية خلال رحلاته عبر أمريكا الوسطى، وشغل منصب أسقف مقاطعة چيابَس في گواتيمالا، حيث عارض بقوّة استعباد السكان الأصليين من الهنود. بعد 30 عاما بصفته مُبشّرا، عاد الى وطنه ليصبح مستشارا مؤثرا في المحكمة الأسبانيّة ومجلس جزر الهند التابع لها، فضغط بلا كلل من أجل الإصلاح.[114]

بشفاعة رجال الدين الأسبان من قبيل لاس كاسَس وغيره، أصدر البابا مرسوما (Sublimis Deus, 1537)، أعلن فيه أنّ "الهنود هم حقا رجال وأنّهم ليسوا فقط قادرين على استيعاب وفهم الإيمان الكاثوليكي،... ولكنّهم يرغبون بشدة أن يستظلوا بخيمة هذا الإيمان." أضاف المرسوم، "إنّ الهنود وغيرهم من البشر الذين قد يستكشفهم المسيحيون لاحقا يجب ألا يُحرَموا، بأيّة حال من الأحوال، من حريتهم أو مصادرة ممتلكاتهم... ولا ينبغي أن يكونوا مُستعبَدين بأيّ شكل من الأشكال."[117]

بدأ الجدل المتزايد حول معاملة الهنود يثير الشكوك في مدريد حول الأساس القانوني لمطالبة إسبانيا بالعالم الجديد. في جامعة سالامانكا، تناول فرانسيسكو دي فيتوريا، أستاذ اللاهوت والكاهن الدومينيكي ومستشار الملك چالز الخامس، هذه القضايا خلال محاضراته عن "الهنود الأمريكيين." بدأ

فيتوريا برفض الفكرة الشائعة القائلة بأنّ البابا تبرّع بأولئك الهنود الأمريكيين للتاج الأسباني، وذكر أنّها يمكن أن تتجاوز السيادة الأصلية لكي تصبح أساسا قانونيًا كاف لحكم بلاده. قال، "إنّ الهنود لديهم حقّ السيادة مثل غيرهم من الناس، ويتجلى ذلك في قوانينهم وصناعتهم وتجارتهم. وكلّ ذلك يتطلب استخدام العقل." وعليه فإنّهم يمتلكون "سيادة حقيقية في كلّ من الشؤون العامة والخاصّة." ومع ذلك إدّعى الأسبان بأنّهم يمكن أن يكونوا بمثابة "محرّرين" لهم بشن حروب عادلة بهدف "وضع حدّ لتلك الطقوس الدنيئة لأكل لحوم البشر والتضحية بهم في المعابد." ولكي يُحكم الهنود "لمصلحتهم الخاصّة" فقد يتولى الأمراء الأسبان زمام إدارة أمورهم وتنصيب... حكّام نيابة عنهم، كما لو كانوا مجرّد أطفال،" حتى أنّه سُمح لهم بأن "يُحكموا جزئيا كعبيد." في الواقع جادل فيتوريا بأنّ الحضارة الأسبانيّة المتفوقة تبرّر تعليقها لسيادة الهنود الحُمر، وبالتالي صياغة أساس قانوني جديد للحكم الإمبراطوري الذي ستستخدمه الإمبراطوريات التالية.[118]

في تلك الأثناء كان لاس كاسس في المحكمة في مدريد يلتمس إنهاء الأمر لإستعباد الهنود الحمر وصاغ روايته القصيرة عن تدمير جزر الهند *Destruction of the Indies Short Account of the* لدعم هذا الموقف. ردًا على ذلك، أصدر العاهل چارلز الخامس قوانين جديدة عام 1542 حدّدت من عبودية الهنود الحمر لجيل واحد. حين حاول نائب الملك تنفيذ الإصلاحات في پِرّو قُتِل على يد المُستعمرين الأسبان. ولم ينجح خليفته لإعادة السلطة الإسبانية إلا بحملة عسكرية بلغت ذروتها في إعدام گونزالو الشقيق الأصغر للمغدور پيزارو، وتهدئة النزاعات بين الإسبان. غير أنّ العاهل چارلز ببساطة ألغى إصلاحاته وأدام العبودية وترك الأمر دون حلّ.[119]

بعد وصول المزيد من التقارير عن التجاوزات، أمر العاهل بتعليق الفتوحات الأخرى في العالم الجديد حتى ترسم لجنة من المتميّزين من علماء

اللاهوت طرقا لضمان معاملة عادلة للسكان الأصليين في جزر الهند الغربية. إجتمع مجلس مخصص من 14 عضوا في منطقة بلد الوليد Valladolid للإستماع الى مناقشة بين الأسقف لاس كاسَس ومنافسه الرئيسي الباحث خوان كِنِس دي سيبولفيدا. في اليوم الأوّل من شهر آب لعام 1550 المقترح للنقاش، تحدّث سيبولفيدا لمدة 3 ساعات مستخدما الحجّة بأنّ "الإسبان يحكمون تماما على البرابرة الذين هُم في الحكمة والموهبة والفضيلة والإنسانية أقلّ شأنا من الإسبان، من الأطفال الى البالغين ومن النساء الى الرجال... قد أقول تقريبا مثل القردة مقارنة بالبشر." ردّ لاس كاسَس خلال الأيام الخمسة التالية بقراءة حرفية من مخطوطة تدافع عن إنسانية الهنود الحمر وتُدين وحشية الغزو الإسباني. على الرغم من أنّ المجلس إنعقد مرّة أخرى في شهر نيسان من العام التالي لمتابعة نقاش الخصمين، لم يُصدِر القضاة حكما.[120]

نتيجة اليأس من الحصول على أيّ علاج رسمي، إنتقل لاس كاسَس الى إشبيلية، حيث الفجر الهائل للطاقة الفكرية، وأشرف على نشر تسع أطروحات مهمة في غضون عامين اعتمادا على خبرته المباشرة في البحر الكاريبي. كانت أكثر اعماله التي أمكن الحصول عليها هي سرد قصير للدمار الذي حلّ بجزر الهند الغربية، وتفاصيل القصف الإسباني "الإستبدادي والشيطاني"، والحرق والمجازر و"العبودية الوحشية" التي عصفت بالسكان الهنود الأصليين. نقلا عن سلسلة من الفظائع التي شهدها شخصيا في جزيرة هِسبانيولا، إتّهم لاس كاسَس زملائه المستعمرين بعمليات سفك الدماء القاتلة. ذكر أنّه في كوبا، إستقبل السكان الأصليون الأسبانَ بالطعام والهدايا "وبدون أدنى استفزاز، ألهم الشيطان القادمين الجدد روح القتل فأرهقوا أمام عينيّ نحو 3 آلاف روحا بريئة من الرجال والنساء والأطفال حين كانوا جلوسا أمامنا. أنزل أحد المسؤولين الملكيين القساة وحده السيف بحوالي 300 من العبيد الهنود، لنرجة أنّه بقي منهم 30 فقط على قيد الحياة بعد ثلاثة أشهر."[121]

بعد مرور خمس سنوات من وفاة لاس كاسَس في عام 1566، أمر مجلس جزر الهند الغربية بنقل مخطوطاته الضخمة من إشبيلية الى مدريد، حيث تمّ الرجوع إليها في المداولات التي أدّت الى صدور مرسوم ملكي وقعه العاهل فِلِب الثاني، والذي حرّر بموجبه الهنود من مزيد من الإنتهاكات الممنهجة. بفضل عقود من النضال الذي قاده لاس كاسَس ورفاقه من رجال الدين، أنهت تلك الإصلاحات الملكية أخيرا إستعباد الهنود الحمر، لكنّها لم تشمل العبيد الأفارقة.[122]

في الواقع وخلال سنواته الأولى كمصلح، قدّم لاس كاسَس التماسا الى الإمبراطور چارلز الخامس اقترح فيه بأنّ العبيد الأفارقة قد يثبتون فعاليتهم بديلا عن الهنود الحمر. قال، "سموّك، يجب أن تحافظ في كلّ مجموعة 20 زنجيّا أو عبيدا آخرين للعمل في كلّ منجم." سواء ما إذا كان هذا قد حدث فعلا أو لم يتأثّر الإمبراطور بتلك المشورة، فقد وصلت أوّل شحنة مباشرة من الأسرى الأفارقة المخطوفين الى أمريكا الإسبانيّة بعد عامين لاحقا، وتوسّعت بعدها تجارة الرقيق بشكل ملحوظ. في كتابه الضخم تاريخ الهند الغربية *History of the Indies* الذي أكمله قبل خمس سنوات من وفاته، تاب لاس كاسَس قائلا، "كما رأيت لاحقا وتأكّد لي أنّ عبودية السّود كانت أيضا ظلما لحق بهم كما لحق بالهنود من قبلهم. لقد أدركت كيف كان العلاج غير حكيم باقتراح جلب السّود من أجل إتاحة الحرية للهنود."[123] في آخر مخطوطاته الأخيرة، توصّل لاس كاسَس الى تأكيد أقرب الى إقرار بحقوق الإنسان على المستوى العالمي. "كافة شعوب العالم بشر، ولا يوجد سوى تعريف واحد لكلّ البشر... هذا هو أنّهم عقلانيون... وعليه فإنّ كافة الأجناس البشرية واحدة."[124]

لقد شارك القساوسة الدومَنِكَن الآخرون في هذا الإدراك، لا سيّما رئيس الأساقفة في المكسيك ألونزو دي مونتيفار، الذي كتب خطابا لاذعا في عام 1550 ووجّهه الى العاهل فِلِب الثاني حين بدأ أوّل العبيد الأفارقة الوصول الى

المستعمرات الإسبانية. نبذ مونتيفار التبريرات الشرعية والدينية للعبودية الأفريقية وجادل بأنّ التجّار البرتغاليين كانوا يشاركون في عمل مربح يمنح القليل من "الروحانيات والمزايا الجسدية" على الأسرى. وبمجرّد أن انتهت عمليات الخطف والنقل، فإنّ التبشير المقدّس بالإنجيل بين الأفارقة في اراضيهم، حيث "قد يكونون أحرارا في أجسادهم ولكن قد يكونون أكثر في أرواحهم." ولكن مع وصول آلاف العبيد الأفارقة كي يحلوا محلّ الخسائر الهائلة في السكان المكسيكيين نتيجة الأمراض والإرهاق، طغت مقتضيات الإمبراطورية على احتجاج رئيس الأساقفة.[125]

بحلول الوقت الذي أنهى فيه الملك فيليب الثاني استعباد الهنود الحمر، كانت الأوبئة الرئيسية تجتاح إمبراطوريته بالفعل ممّا أدّى الى "كارثة الموت العظيم"، التي من شأنها أن تغيّر العالم الجديد. خلال نصف قرن من وصول الإسبان، كان الجدري بالإضافة الى تجاوزات المستعمرين، إنخفض عدد سكان هيسبانيولا من الهنود من مئات الآلاف الى الصفر تقريبا. بمعدّل عال ايضا ولكن لا يزال قاسيا، انخفض عدد سكان المكسيك تحت الحكم الإسباني من 25 مليونا في عام 1520 الى 1.4 مليونا فقط بحلول عام 1600. وبالمثل كانت الخسائر في مرتفعات بيّرو فادحة. بشكل عام يقدّر أنّه من 60 مليونا الى 89 مليونا من الهنود الحمر قد فقدوا حياتهم بين الأعوام 1500 الى 1600، أي ما يعادل حوالي 15٪ من سكان العالم.[126]

لملأ هذا الفراغ الديموغرافي العميق، حملت تجارة الرقيق حوالي 11 مليون أفريقيا عبر المحيط الأطلسي وهم مقيّدون بالسلاسل على مدى أربعة قرون، وتمّ إسكانهم في جزء كبير من العالم الجديد، وحقّق المستوطنون ارباحا ثابتة كبيرة من خلال تجارة الرقيق ومزارع قصب السكّر. بين الأعوام 1500 الى 1630 شحن التجار الأيبيريون ما يُقدّر بحوالي 727000 عبدا للبرتغال والبرازيل وأمريكا الإسبانيّة. وحين دخل التجار الهولنديون هذا المجال، ارتفعت صادرات العبيد الأفارقة بسرعة

ووصلت الى ما مجموعه 1.2 مليونا في القرن السابع عشر. وعندما انخرطت البحرية التجارية الديناميكية البريطانية في تلك التجارة في القرن التالي، قفزت حركة المرور عبر الأطلسي الى 5.6 عبدا مخطوفا خلال القرن الثامن عشر. وحتى بعد أن حظرت بريطانيا تجارة الرقيق في عام 1807، كان هناك ما يقرب من 3.4 مليون أفريقيا مخطوفا ما زالوا يعبرون المحيط الأطلسي متّجهين للعمل كعبيد في المزارع المزدهرة لقصب السكّر ومزارع البُنّ في البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي.[127]

خلال ثلاثة قرون من الهيمنة غير المضبوطة على أمريكا اللاتينية، حافظت اعمال السخرة على التدفق المستمر للمعادن الثمينة والسلع المربحة الى آيبيريا. تقليدا لما فعلته البرتغال من تأسيس Portugal's Casa da India في الهند، أسس التاج الإسباني مكتبا مماثلا باسم Casa de Contratación لإدارة الإحتكار الملكي للتجارة الخارجية. بين الأعوام 1500 لغاية 1650، شحنت مستعمرات أمريكا اللاتينية 180 طنّا من الذهب و16000 طنا من الفضة لإسبانيا. لردع القرصنة وتأكيد احتكارها لهذه الثروة، أصدر التاج مرسوما يقضي بأن تنضمّ جميع السفن التي تحمل الفضّة الى الأسطول الرسمي في هَفانا كلّ شهر لعبور المحيط الأطلسي الى إشبيلية، وإنشاء نظام لنقل هذا الكنز الضخم وتقليل حوادث القرصنة لفترة 250 عاما تقريبا، بينما كان هذا الطريق الرسمي يحمل معظم إنتاج مناجم الفضة في مدينة پولوسي في بوليڤيا الحديثة، كان هناك "باب خلفي" غير رسمي سمح لتجار القطاع الخاصّ بإرسال حوالي ثلث الإنتاج المذكور باستخدام نهر ريو دي لا پلاتا الى بوينس آيرس لغرض شحن الفضّة الى البرتغال، من أجل تمويل تجارة الرقيق وتسديد ديون في أمستردام. خلال نصف قرن من تأسيسها في عام 1602، قامت شركة الهند الشرقية الهولندية بتصدير 500 طنّا من الفضّة لدفع ثمن الواردات المُربحة من الصين.[126]

بينما تركّز معظم الأدبيات على أساطيل نقل الفضّة عبر المحيط الأطلسي، كان هناك تدفق آخر عبر المحيطات مهمّ بشكل مدهش أيضا. نتج عن حركة

استكشافات إسبانيا إنشاء مستعمرة في الفليبين في أواخر القرن السادس عشر. بدأت سفينة ملكية بقطع رحلة عبور سنوية للمحيط الهادي من أكابولكو في المكسيك الى مانِلا، واستمرّت لأكثر من قرنين من الزمن حاملة شحنات من العملات الفضيّة وتعود محمّلة بالحرير الصيني. نقلت شحنات تصدير الفضّة رسميًا ما مجموعه 750 طنًا من السبائك الى آسيا بحلول عام 1815. كما قام تجّار القطاع الخاصّ بتهريب ما متوسطه حوالي 128 طنًا من الفضة بشكل غير مشروع عبر المحيط الهادئ كلّ عام.. حين استولى البريطانيون على السفينة الشراعية الأسبانية *Covadonga* قبالة مانِلا عام 1743، وجدوا أنّها تحمل أكثر من 34 طنًا من الفضّة كانت مخبّأة داخل عوارض مجوّفة. خلال القرن الثامن عشر شحنت الشركات البريطانية والهولندية والفرنسية حوالي 160 طنًا متريًا أخرى من الفضّة من أوروبا كلّ عام لتمويل واردات تلك الدول من السلع الآسيوية. من خلال كلّ هذه التجارة، أصبح الدولار الإسباني المسكوك هو العملة الرئيسية للتجارة الآسيويّة، ممّا عجّل بتحوّل شركة Ming China من الأوراق النقدية والنقدية النحاسية الى سبائك الفضّة، وبالتالي فتح اقتصادها القائم بذاته للتجارة العالمية وجعلها "بالوعة الفضّة في العالم" The World's Silver Sink.[129]

وعلى نطاق واسع، خلق هذا الإنتشار الهائل للعملة الفضّية إرثا مهما للعصر الأيبيري، فقد كان ذلك الدولار أوّل عملة مشتركة في العالم. بمجرّد ظهور هذه العملة الفضية المسكوكة في مدينة المكسيك وليما وبوتوسي، أنتجت السلطات الإسبانية شكلا موحّدا من العملات الفضية بقيمة 8 دولارات/ ريالات استمر استعماله لما يقرب من ثلاثة قرون، وسُمّي "قطعة الثمانية". كما حملت التجارة العالمية ملايين الدولارات الفضيّة المسكوكة الى جميع انحاء العالم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين اصبح للعملة الإسبانية الحصّة المتزايدة من استعمال البشر واستخدمها كلّ فرد من أفريقيا حتى مالكي المزارع في فرجينيا الأمريكية. حتى في بعض الدول الأوروبية، التي كانت لديها عملاتها

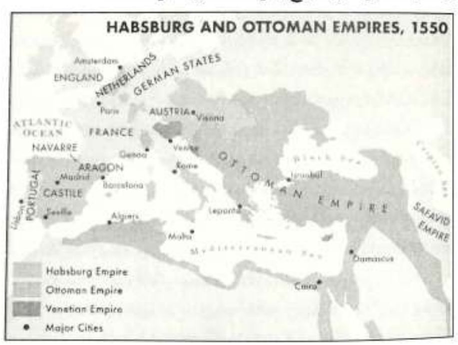


چالز الخامس، الإمبراطور الروماني المقدّس، حوالي 1519 (Credit: Alamy)

الخاصّة، سُمح باستخدام العملة الفضية المسكوكة القادمة من العالم الجديد باعتبارها العملة الجماعية، التي وضعت النقود في جيب كلّ عامل في المصانع والمزارع هناك. عندما قامت الثورات الوطنية أخيرا في عشرينات القرن التاسع عشر، أغلِقت دور سكّ النقود الفضيّة الإستعمارية الإسپانية، وظهرت محلها عملة جديدة أصبحت نموذجا للعملات الوطنية الجديدة في الأمريكتين، وهي الدولار الفضّي الأمريكي.[130]

اليد التي أمسكت بحنجرة العالم

كما كانت شحنات الفضّة تتدفّق بانتظام وبشكل موثوق عبر المحيط الأطلسي، سرعان ما أصبحت إسبانيا أغنى دولة في العالم وتمتع ملوكها بموارد غير عادية استخدموها الى حدّ كبير بشكل خيالي لشنّ حملات صليبية ميؤوس منها. بعد موت فرديناند وإيزابلا انتقل حكم السلالة الى آل هابِسبُرگ في النمسا. بالنسبة لمعظم القرن السادس عشر، كان هناك ملكان فقط من تلك السلالة النمساوية الموقّرة، وهما چالِز الخامس وابنه فِلِپ الثاني. حكم الملكان خلال صعود الإمبراطورية الأسپانية السريع وهبوطها الشديد. نادرا ما وضعت أسرة واحدة يدها على حلق التاريخ بمثل ذلك التأثير القاتل.



خارطة الإمبراطوريتين العثمانية وهابسبرگ بحدود عام 1550

للحدّ من تنافس السلالات وبالتالي الحفاظ على تجاوز الخلافات والتباين، تزاوج آل هابِسبُرگ مرارا وتكرارا مع ابناء عمومتهم، ما أصبح في

النهاية شيئا قريبا من سفاح القربى Sibling Incest. على مدى مئتي عام، كانت هناك 9 زيجات من أصل 11 زيجة، بين آل هابسبُرگ الأسبان. لم يؤدِ زواج الأقارب بالأسرة الحاكمة إلّا الى الإنقراض النهائي في عام 1700، عندما تولى السلطة ملك "عاجز جنسيًا ومختل عقليا". وحين مات الوريث المتخلف بلا أطفال، لربّما يكون قد أدخل صفة غير منتظمة لعهود ملوك آل هابسبُرگ، الذين تجلّت عظمتهم الشديدة ووسواسهم[131] في التطرف الديني والعناد اللامجدي Obsessive Religiosity, and Monomaniacal Willfulness[131].

في الوقت الذي إعتلى فيه چالز الخامس العرش عام 1516، كان لا يزال مراهقا، وقد منحته أجيال من زيجات آل هابسبُرگ الستراتيجية عالما غطّى معظم أنحاء أوروبا الغربية وجعله ملكا قويا قريبا من أكثر الأحداث التاريخية. بالإضافة الى أجزاء متزايدة من الشمال والجنوب الأمريكيين، ورث ايضا 72 مقاطعة مختلفة منتشرة في جميع أنحاء أوروبا، بما في ذلك كلّ من النمسا ودوقية بورگندي (التي شملت في حينها بلجيكا وهولندا الحاليتين) و4 أقاليم شكّلت نصف إيطاليا ومملكتي قشتالة وآرّگون. بعد انتخابه امبراطورا رومانيًا مقدّسا، أصبح چالز الخامس أيضا صاحب السيادة الفخري لعشرات من أمراء ألمانيا، الذين تعقّد حكمهم بسبب الإنتشار الأخير للمذهب البروتستانتي بين بعضهم. لغرض ربط هذه المناطق المُتباينة في مملكة يمكن التحكّم بها، إعتمد چالزعلى أربعة مكوّنات رئيسية. وهي سلطته كرئيس مدافع عن العقيدة الكاثوليكية ضدّ البروتستانت الزنادقة والكفّار المسلمين. ثانيا الحصول على قروض ضخمة من المصرفين الألمان والإيطاليين والإزدهار الثقافي في إيطاليا والفلاندرز. وفوقها جميعا تاج قشتالة وفرسانه الكثار وثروته الهائلة من الفضّة المُستخرجة من مناجم الأمريكتين.[132]

لتحقيق حلمه في أن يُصبح حاكما للعالم المسيحي الموحّد، سافر چالز الخامس باستمرار خلال العقود الأربعة التي قضاها كإمبراطور، وحشد الأموال

والقوى البشرية في حربين لا نهاية لهما، وهما الصراع ضدّ الملك الفرنسي والدفاع عن أوروبا المسيحية من الهجمات التي لا هوادة لها من قبل جيش الدولة العثمانية وبحريتها. كانت تلك الإمبراطورية الإسلامية الهائلة تتوسّع بلا هوادة تحت حكم سليمان القانوني، الذي تزامن حكمه على وجه التحديد تقريبا مع حكم چالز كإمبراطور روماني مقدّس. كان صراعهما مريرا على عباءة الشرعية لروما القديمة. بالنسبة لچالز الخامس، طمح الى إقامة "إمبراطورية مسيحيّة عالمية" وسُليمان نصّب نفسه بعد احتلاله للمجر "قيصر الرومان." كانت تحالفاتهما المتنافسة تتغيّر باستمرار. من جهة حاول چالز الخامس عقد حلف مع الشاه الفارسي. من الجهة الأخرى حاول سليمان أن يحصل على مساعدة البحرية الفرنسية والأمراء البروتستانت الألمان. خلال تلك العقود من الحروب، كان القتال معارك كرّ وفرّ على طول 1000 ميلا من الحدود اعتبارا من بودابَست أسفل ساحل البحر الإدرياتيكي وعبر الجزر اليونانية ثمّ عبر شرق البحر الأبيض المتوسط. كان التمويل القادم من الأمريكتين هزيلا في بداية الأمر، لكنّه تحوّل الى سيل خلال فترة حكمه. ملأ چالز الخامس صندوق حربه بمكاسب هائلة غير متوقعة وصلت الى 200000 دوكات من الفضة كلّ عام. ولغرض شنّ تلك الحروب التي لا تنتهي، إحتاج چالز الى كلّ ذلك وأكثر منه أنفاق 1000000 دوكات أخرى سنويّا، وبالتالي تراكمت الديون الضخمة عليه بحلول وقت تنازله عام 1556 عن العرش.[133]

بعد أربعة عقود من النضال الدؤوب وحين أدركته الشيخوخة، وقف چالز الخامس منهكا أمام اعضاء حاشيته المخلصين في قاعة مدينة بروكسِل وبدأ يوزّع القابه العديدة عليهم. بكى بحرقة واعتذر عن "أخطاء كثيرة، أخطاء كبيرة... بسبب عواطفي التي حطّمت آمالي في إحلال السلام بين المسيحيين وتوحيد قواهم المقاتلة للدفاع عن العقيدة لكاثوليكيّة ضدّ العثمانيين." قسّم بطريقة حكيمة أراضيه الشاسعة في شرق أوروبا وغربها. قام بتعيين أراضي آل هابسبُرگ التاريخية في وسط

أوروبا لأخيه فرديناند. ثمّ وضع يده على رأس ابنه الوريث فيليب الثاني ممّا جعله حاكما على البقيّة الباقية. بدلا من السيطرة على أوروبا كإمبراطور مسيحي مثل والده، أصبح هذا ملكا حقيقيا لإسبانيا، ممّا جعل مدريد عاصمة امبراطورية ذات اربعة اتجاهات رئيسية، هولندا بتجاريها المزدهرة وإيطاليا بالمال والقوى العاملة للحفاظ على جيشه وقواته البحرية، وقشتالة، المملكة الإسبانية، التي ستوفّر 70٪ من عائداته الأوروبية، وأخيرا الأراضي الشاسعة في الأمريكتين، كمصدر للفضّة، الذي من شأنه أن يوفّر الأموال لذلك العالم المترامي الأطراف.[134]

بخلاف والده، حاول فيليب الثاني حكم إمبراطوريته العالمية الشاسعة مباشرة واستبدل "التبرّع البابوي" بالأمريكتين، بسيادته الملكية الخاصّة وإدارة هذه السيادة من خلال نوّاب الملك. كانت هذه الإمبراطورية الشاسعة تقدم مليوني دوقيّة من الفضة كلّ عام، أي عشرة أضعاف ما قدّمته لوالده من الدخل، ممّا مكنه من تمويل الحملات الصليبية المهووسة ضد العثمانيين المسلمين في البحر الأبيض المتوسط وضدّ البروتستانت لهولنديين. على عكس فيينا والعثمانيين، الذين شاركوا في الحملة الصيفية، ضمنت الموارد الفضية لإسبانيا جيشا متفرّغا للخدمة العسكرية بما في ذلك البحرية النظامية وافواج المُشاة الشهيرة *Tercio* المسلحة بالحراب الطويلة والبنادق القاتلة. كلفته حملاته 21 مليون دوكات في السنة، ممّا جعل مصرفيي جنوا وفلورنسا طابورا خامسا غير مرئي داخل إمبراطوريته. في تسعينات القرن التاسع عشر، حسبت الخزانة الملكية أنّ 10 ملايين دوكات من الفضة كانت تصل كلّ عام من الأمريكتين، لكنّ 6 ملايين منها تقريبا تغادر على الفور إسبانيا وتذهب لإرضاء المصرفيين الإيطاليين.[135]

إنّ تدفّق الفضّة من العالم الجديد للدفاع عن توسع إمبراطورية آل هابسبُرگ، جعل إسبانيا نقطة ارتكاز للتجارة العالمية. لكنّ هذا التدفّق قد خنق التنمية الإقتصادية المحليّة للبلاد ببطء وشلّ الطموحات الإمبريالية لملكها. خلال بداية التوسع الإمبراطوري لمدريد، كان اقتصادها المحلي بالفعل على

اعشاب الإنهيار، برغم أنّ الكثير من أراضي قشتالة كانت مخصّصة لمراعي الأغنام التي أنتجت الصوف للتصدير الى مصانع فلاندَرز. وحين تدفّقت أرباح الفضّة والسكّر من بَرّو والبرازيل الى الخزائن الملكية في إسبانيا والبرتغال، أسرف التاجان في تشييد القلاع الفخمة بما في ذلك El Escorial العظيمة قرب مدريد وقصر Mafra للملك چارلز الخامس قرب لشبونة. كانت الإسكوريال مدينة ملكية حقيقية، جرى تشييدها بتكلفة لا تُحصى طيلة 21 عاما. كانت الكنيسة الصغيرة في القلعة مثلا بحجم كاتدرائية، إتّسع سردابها الكهفي لطبقات من التوابيت الرخامية المُذهّبة، التي تحتوي على بقايا ملوك إسبانيا منذ چارلز الخامس، ولكن ايضا معها جثمان الإقتصاد الإسباني. في النهاية وفي عهد فِليب الثاني أدت شحنات الفضة من الأمريكتين الى خنق الإقتصاد وصناعاته المحليّة ببطء. كما ذبلت المدن وانهار المُصنّعون المحليّون نتيجة تدفّق الفضّة بشكل مُطّرد أكثر من أيّ وقت مضى. اعتبارا من إسبانيا الى إيطاليا وإنگلترا وهولندا، كان هناك عجز في دفع الديون المُستحقة المتزايدة واسعار عدد لا يُحصى من البضائع المُستوردة.[136]

أصبحت حملات فِليب الثاني للدفاع عن الكاثوليكية مُكلِفة من أجل المحافظة عليها من العثمانيين المسلمين في البحر الأبيض المتوسط ومن البروتستانت في مستعمرتها هولندا، ممّا عجّل في انكسار إمبراطوريته. كان العهد الطويل، الذي بلغ 40 عاما، لحكم والده مكرّسا للدفاع عن أوروپا المسيحية من التقدّم العثماني الذي لا هوادة فيه وهدد بابتلاع جنوب شرق القارة. غزا العثمانيون جزء كبيرا من المجر، لكن آل هابسبُرگ دافعوا بنجاح عن ڤيّنّا خلال حصار المسلمين لها، ممّا وضع فعليًا حدًا لهجماتهم البريّة. ومع ذلك، واصل العثمانيون التقدّم عبر البحر الأبيض المتوسط وسحقوا عام 1538 الأسطول المسيحي في برڤيزا في البحر الأيوني.[137]

عانى فِليب الثاني طيلة عقد من الهزائم المدمّرة في حروب الإمبراطورية المسيحية ضدّ الإمبراطورية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط. دفعته هذه الى

بدأ التحالف المقدّس Holy Alliance لقلب مدّ تلك الهزائم. في عام 1559 أرسل أسطولا مكوّنا من 150 سفينة و12000 من الرجال تحت قيادة أدميرال من جَنَوا إسمه جيان أندريا دوريّا للسيطرة على طرابلس الليبية. غير أنّ أسطولا عثمانيا أغرق نصف السفن المسيحية وأخذ 10000 جنديا أسيرا عُرضوا مكبّلين بالسلاسل وساروا في مهانة في شوارع إسطنبول. بعد 6 سنوات، حاصر أسطول تركي ضخم قوامه 40000 جنديا مالطا لمدة 4 أشهر، لكنه تمّ إنقاذ الجزيرة بفعل المقاومة الشديدة لحوالي 2000 فارسا من سكانها ووصول التعزيزات الإسبانية في الوقت المُناسب. كانت تلك معجزة عسكريّة دقت من أجلها أجراس الكنائس في جميع أنحاء أوروبا تعبيرا عن الفرح بإيقاف الأسطول العثماني أخيرا.[138]

غير أنّ ذلك الإنتصار كان وهما مؤقتا. بحلول عام 1570، سجّلت البحرية العثمانية انتصارات كبيرة واستولت على قبرص وهدّدت جزر اليونان المهمة لإمبراطورية فِنيسيا البحرية. في ظلّ تحالف باركه البابا وبقيادة الأخ غير الشقيق لفيليب الثاني، دون خوان، ضمّ الإتحاد المقدّس إسبانيا وفِنيسيا والعديد من المدن الإيطالية التي جمعت أسطولا ضخما من 230 سفينة أبحرت أسفل البحر الكاريبي للإشتباك مع عدد مماثل من السفن العثمانية بالقرب من مياه ليبانتو في اليونان واشتبكت معها في واحدة من أقسى معارك البحر التاريخية دمويّة. تواجهت 480 سفينة ونحو 150000 رجلا و2500 مدفعا عند المدخل الضيّق لخليج كورينث. حين اقتربت السفن من بعضها قوى هدير المدافع وقاتل الرجال بدروع كاملة وبشراسة مع بعضهم البعض وهم يقفزون من ظهر سفينة لأخرى، ممّا تسبّب في خسائر دموية مريعة وقعت في كلي الجانبين. تمكّنت القوات المسيحية من عزل سفينة القائد العثماني الأميرال المسلم علي باشا وأردته بطلق ناري. كان لدى الجانب المسيحي 1800 بندقية وكان ذلك ضعف عدد بنادق العثمانيين، الذي لم يَزِد عن 750 بندقية. وهكذا حُسمت النتيجة. أباد أسطول التحالف المسيحي الأسطول التركي بإغراق 15 سفينة والإستيلاء على

190 سفينة أخرى. ولم يفقد التحالف سوى عدد قليل من القوارب الخاصّة. بلغت خسائر العثمانيين 30 ألف قتيلا واستسلام 8000 مقاتلا آخرين، كان العديد منهم بحارة مهرة. جرى إعدام هؤلاء بشكل إنتقائي، ممّا أدّى الى شلّ أيّ اسطول تركي في المستقبل.[139]

على الرغم من حسم الإنتصار، توجّه أسيان ليبانتو، حسب ما أسماه المؤرخ جون إليوت "سلوكا غريبا مضادا للذروة". بعد نصف قرن من القتال المميت في البرّ والبحر، إنفصلت الإمبراطوريتان ببساطة من صراعهما الملحمي. تحوّل العثمانيون شرقا لقتال الإمبراطورية الفارسيّة المنافسة، وسارت القوّات الإسبانية شمالا لقمع ثورة البروتستانت الهولنديين.[140]

حين أعلن عن دور فِليب الثاني كمدافع عن أوروبا المسيحية، كان لديه هدف خفي أعمق. عند توليه العرش وهو في الثامنة والعشرين، كتب المؤرخ هنري كامن أنّه "مثقف جادّ ومتديّن للغاية،" ولدى العاهل "خبرة واسعة في مشاكل الحكومة. من شأن هذا أن يقود إسبانيا الى عصر ذهبي حقيقي. ومع مثل هذا التقييم، تجاهل العاهل التسامح المطلق الذي جعل حملته ضدّ لهولنديين البروتستانت لا هوادة فيها ودمّر ذاته ممّا استهلك إمبراطوريته في النهاية. كتب فِليب الثاني الى الفاتِكَن في عام 1566، "يمكنك أن تطمئن قداسته أنّه عوضا عن معاداة أقلّ قدرا من الضرر للدين وخدمة الرّب، سأفني حياتي ومئات الأرواح معي لأنّه لديّ خطط لإفناء هؤلاء الزنادقة."[141]

بحكم تنازل والده عن العرش عام 1556، حصل فِليب الثاني على منطقة بُرگندي، وهي عالَم منفصل تماما عن إسپانيا ويشمل هولندا الحديثة وبلجيكا ولُكسُمبُرگ. بدلا من الحكم عليها مباشرة من مدريد البعيدة، كلف أخته غير الشقيقة مارگرِت من بارما لإدارة ما سُمّي بالبلدان المنخفضة كمنطقة خاضعة لحكمها في بروكسل. بحلول ذلك الوقت، اصبح هذا العالم هو الأغنى في أوروبا، بوجود مركز التجارة الرئيسي للإنتويرْب، وصناعة النسيج المزدهرة وآلاف السفن

التجارية وهي تجوب البحار الشمالية وبروز الحياة الفكريّة الحيويّة، التي مثلت النهضة الشمالية. ومع هذه الثقافة الحيّة، فتحت المنطقة للخميرة الروحية Spiritual Ferment للإصلاح البروتِستانتي، والذي كان قد بدأ فعلا في ألمانيا المجاورة. حين اجتاحت موجات من التقوى اللوثريّة والكالڤينيّة هولندا في الماضي، أرسل چالِز الخامس محاكم التفتيش The Inquisition التي فرضت الأرثوذكسية الكاثوليكية على البلاد. تمّ تنفيذ احكام الإعدام علنا بألف متهم بالزندقة وعُذّب عدة آلاف آخرين. إستمرارا لقمع والده، أمر فِلِپ الثاني بإنزال عقوبة الإعدام بكافة الهراطقة، ممّا دفع أفراد الطبقة الأرستقراطية الفلمنكية الى الإستقالة من مناصبهم وشجّع الغوغاء البروتِستانت الى تحطيم الصور داخل الكنائس الكاثوليكية. ردّت مارگرِت باعتدال، ممّا أعاد الهدوء للحظة.[142]



فِلِپ الثاني ملك إسپانيا وأقوى عاهل في العالم سنة 1586 (Credit: Library of Congress)

غير أنّ فِلِب الثاني قد عقد العزم للقضاء على تلك البدعة، فأمر مستشار قشتالة المتقشّف الدوق ألبا للزحف شمالا من إيطاليا بعشرة آلاف جنديا من القوات. سأل أحد الإرستقراطيين الهولنديين الأميرة ماركَريت، "ماذا يمكن أن يفعل الجيش. هل سيقتل 200 ألف هولنديا؟" تحت قيادة ألبا المعروف باسم "الدوق الحديدي" حاول الجيش بالتأكيد فعل ذلك. دعا ألبا الى عقد "مجلس الدّمّ" Council of Blood واستخدم سلطاته القضائية الإستثنائية في الإعتقال والإعدام، فبدأ قطع رؤوس النبلاء الفلمنكيين البارزين. في غضون عام، إنتفض الهولنديون وقاموا بتمرد بقيادة وِلّيَم الصامت، الذي ترك بلاط ماركَريت احتجاجا وأعلن موقفه ضدّ المجزرة. لنشر تمرّده الوليد، أصدر وِلّيَم "خطابات Marque "الى 18 سفينة خاصّة معروفة باسم "متسولو البحار" Sea Beggars بقيادة قباطنة من الهولنديين المنفيين، وكثير منهم كانوا ضحايا محاكم التفتيش. داهمت تلك السفن المتمرّدة السفن الإسبانية بانطلاقها من الموانئ الإنكَليزية، وقامت حينها الملكة إليزابث الأولى بطردهم من إنكَلترا عام 1572. كان الأسطول المتمرّد قد نما الى 84 سفينة، شنّت غارات على مدينة بريل في هولندا للحصول على الإمدادات. في استجابة مفاجئة، فتح مواطنو المدينة الأبواب للترحيب بمتسولي البحار كمُحرّرين. فعلت المدن المجاورة الشيء نفسه، ممّا أثار روحا شعبية سرعان ما وضعت معظم المدن الهولندية تحت سيطرة المتمرّدين.[143]

لكنّ الأسبان هاجموا المدن البروتستانتيّة دون رادع، واطلقوا العنان لجنودهم لذبح جماعات بأكملها. في هارلِم وحدها، أعدموا بشكل منهجي حامية تضم أكثر من 2000 مدافعا هولنديا. زاد ذلك القمع من بأس المقاومة، فبعد 6 سنوات من الفشل في كسر شوكة الثورة، أعفى فِلِب الثاني الدوق ألبا من الخدمة وأرسل قائدا ثانيا موثوقا به الى الشمال. أختار القائد الجديد في البداية المزيد من نفس أساليب سلفه. بحلول الوقت الذي أعيد فيه تقييم تلك

التكتيكات التي أتت بنتائج عكسية، بدأت التنازلات في عام 1574 بعد أن أدّت حملة هولندا الى إفلاس إسبانيا. تمرّدت قواتها التي لم تستلم رواتبها وهاجمت أنتويرب فقتلت 6000 شخصا.[144]

حين تضاعف تدفّق الفضة من مناجم البيرو والمكسيك بين الأعوام 1570 لغاية 1600، حصل فيليب الثاني على ثروة لا يمكن تصوّرها، ممّا مكّنه لعقدين آخرين من الطموح العسكري. ضاعف جهوده لتهدئة هولندا وهاجم إنكلترا وحارب فرنسا. بعد 12 عاما من المذابح المتواصلة ونهضة المقاومة في هولندا، إلتفت فيليب الثاني الى ابن أخيه اليخاندرو فارنيزي، وأوكل إليه مهمة تحقيق استقرار الوضع البائس هناك. جمع هذا بين المهارة العسكرية الكبيرة مع عداء آل هابسبُرگ المُعتاد إتجاه الزنادقة، أستغلّ فارنيز النجاحات العسكرية ووظفها في انتصار دبلوماسي في شهر كانون الثاني من عام 1579 حين وقّع النبلاء الكاثوليك في القسم الجنوبي من البلاد على تحالف الرّآس Union of Arras الذي أكّدوا فيه الولاء لتاج آل هابسبُرگ. بعد بضعة أشهر ظهرت فرقة فارنيز المكوّنة من الجنود الأسبان والألمان واخترقت دفاعات مدينة ماسترخت الهولندية وفجّرت شوارعها وقتلت حوالي 10000 شخصا من سكانها، أي ما يقرب ثلث أولئك السكان. كتب فارنيز بارتياح ظاهر وأفاد أن المنطقة "تعرّضت للدمار الشديد وألحقت أضرار انعكست ليس فقط في قلة المواد الغذائية، ولكنّ الريف سيكون قاحلا لسنوات عديدة."[145]

لعب نجاح السلاح الإسباني في جنوب هولندا دورا كبيرا ولكن بشكل مختلف في الشمال، حيث كان لكلّ من المُثُل البروتستنتيّة والجمهورية انتشار على نطاق واسع. بعد أسبوعين من إعلان الجنوب ولاءه للملكيين، وقّعت سبع مقاطعات شمالية على إتحاد أوتريخت Union of Utrecht، الذي نصّ على الدفاع المشترك ضدّ الجيش الإسباني. وكان هذا الإعلان أيضا إعلانا عن أوّل بيان حول الحريّة الدينية إذ ركّز على "كلّ شخص حرّ في دينه ولا يجوز التحقيق معه أو اضطهاده بسبب

دينه.«[146] بعد ذلك بعامين، إجتمع ممثلو تلك المقاطعات السبع في لاهاي، لإعلان إستقلالهم عن إسبانيا وفق قانون الإنكار Act of Abjuration، بإطلاق ما سمّاه الهولنديون حرب الثمانين عاما ضدّ آل هابسبُرگ. خلال السنوات الأربع، التي أعقبت إعلان الإستقلال، استخدم فارنز مزيجا من الدبلوماسية والقوّة العسكرية لإخضاع المقاومة البروتستانية في المدن الجنوبية بروج وگنت وبروكسل، والأهم إطلاقا ميناء أنتويرپ. ومع أنّ هولندا أصبحت واقعيًا مقسّمة بين شمال بروتستانتي وجنوب كاثوليكي، جرى شنّ حرب مطوّلة على مدى ثلاث مراحل متميّزة. أولا، ستكون هناك 30 عاما من جهود التهدئة المحليّة في إسبانيا ثمّ "12 عاما هدنة" وأخيرا حرب 30 عاما العالمية، التي جرت في خمس قارات.[147]

في غضون ذلك، قاد فِلپ الثاني، الذي كانت أمّه برتغالية، 47000 جنديا وغزا البرتغال. إجتاح البلاد وهي لا تزال مصدومة من المذبحة الأخيرة لكثير من الإرستقراطيين في الحملة الصليبية اليائسة ضدّ المغرب المسلم. مع شغف تجار لشبونة للوصول الى الفضّة الإسپانيّة، كانت الإرستقراطية البرتغالية إمّا قتيلة أو أحتجزت من أجل الفدية. كانت مقاومة الغزو ضعيفة وجرى الفتح بسرعة بقيادة فِلپ الثاني ليصبح في غضون أشهر ملكا على البرتغال. من خلال إتحاد المملكتين، أصبح الأسطول التجاري الإسپاني/البرتغالي هو الأكبر في العالم بإمكانه نقل 300000 طنا من البضائع، ويكون بذلك متقدما على هولندا بمقدار 232000 طنّا وعلى إنگلترا بمقدار 42000 طنّا. ومع ذلك فإنّ إضافة مملكة البرتغال الى إمبراطوريته، قام فِلپ الثاني عن غير قصد بإضفاء الشرعية على البؤر الإستعمارية النائية للبرتغال، ممّا مكّن الهولنديين من استهدافها في خضمّ تلك الحروب الطائفية. وهذه خطوة من شأنها أن تثبت بالنسبة للمؤرّخ جان فردرك شاوب بأنّها "كارثة على مصالح البرتغال الإقتصادية.«[148]

وبتوحيد مجاله، أمضى فِلپ الثاني 4 سنوات في التخطيط الجريء الستراتيجي لانجاز حملة آل هابسبُرگ من أجل تحقيق "ملكية عالمية" على كافة

أنحاء أوروبا. لم يخنق الغزو الناجح لإنكلترا بدعة البروتستانتية فحسب، بل سيكمل مطالبة فِلِب الثاني بعرش إنكلترا نفسها وجعله سيّدا لمحيط آخر هو شمال الأطلسي. كان استدعاء الرجال والمال والتموينات من كلّ ركن من أركان إمبراطوريته المترامية الأطراف، قد مكّن فِلِب الثاني من تجميع أسطول مذهل لا يُقهر تألف من 130 سفينة حملت 30000 جنديا و2500 مدفعا. في شهر تموز من عام 1588، أبحر هذا الأسطول من ميناء لاكورونيا في شمال إسبانيا الى ميناء دنكِرك على القنال الإنكليزي. كان لدى فارنز 17000 رجلا من الأسبان المتمرّسين في القتال بانتظار العبور الى إنكلترا التي تصورها مضطربة لكون الكاثوليك هناك كانوا في ثورة ضدّ ملكتهم المرتدّة إلِزابث الأولى. في الواقع أصبحت تلك الحملة كارثة ملحميّة. منعت السفن الهولندية صعود قوات فارنز الى سفنها وأغرقت سفن النقل الإنكليزية 5 سفن كبيرة من الأسطول الإسباني وفعلت عواصف شمال الأطلسي فعلها لتكمل إفشال الغزو، بحلول الوقت الذي عاد فيه الأسطول الى إسبانيا كان قد فقد نصف سفنه و15000 من رجاله.[149]

كانت هزيمة ذلك الأسطول نقطة تحوّل في تاريخ الإمبراطورية الإسبانية. في وقت كانت الميزانية السنوية للملك فِلِب الثاني بحدود 12000000 دوكات، تكلّف الأسطول وحده ما يُقدّر 10000000 دوكات. بعد أربع سنوات من فشل حملة الأسطول، أعلن التاج الإسباني الإفلاس وتحوّل العجز الى ديون طويلة الأجل وتقييد المزيد من المغامرات الإمبراطورية. حين توفيّ فارنز في عام 1592، لم يتمكن من إخضاع الهولنديين، وكان من الواضح أنّ الحملة الصليبية الكبرى ضدّ المذهب البروتستانتي قد مُنيت بفشل ذريع.[150]

بحلول وقت وفاة فِلِب الثاني عام 1598، تغيّر حكمه الطويل لإسبانيا فيما وصفه عالم الإنثروبولوجيا إرِك وولف بأنه "العالم الطيفي" Spectral World من الإضمحلال وخيبة الأمل "الموصوفة بشكل مثير للذكريات في الرواية العظيمة

(دونثي خُوتّه Don Quixote) لمؤلفها ميگيل دي سِرڤانتِس.* كان هو نفسه من قدامى المحاربين في حروب الملك البحرية التي لا نهاية لها ضدّ العثمانيين، وأصيب في معركة لِبانتو وبقي محتجزا في الجزائر العاصمة مدة 5 سنوات. كانت روايته عن فارس ضال كان يتجوّل في المناطق الريفية الإسبانية المأهولة بشكل كبير بالأغنام، وهو ما تؤكّده ملاحظات الرحالة المعاصرين الذين وصفوا قشتالة كأرض زراعية محتضرة وكانت قراها فارغة. إضافة الى حالة من الإضمحلال، أنجبت محاكم التفتيش الإسبانية في عهد فِلِب الثاني كظاهرة قمعية لجهاز ضمّ 20000 جاسوسا، أحرقوا علانية 2000 مُشتبها بكونهم زنادقة وأحرقوا الكتب وخنقوا التقصي العلمي[151] خلال النصف التالي من القرن. استمرّ تدهور قشتالة ومدنها الصناعية التي صارت في حالة خراب، وتلاشت الزراعة وانخفض عدد السكان. من المفارقات أنّ إسبانيا ظلت المصدر الرئيسي للفضّة في أوروبا وأهمّ سوق لمصوغاتها، ممّا جعل آيبيريا في المرتبة الثانية بعد منطقة البلطيق كمصدر ربح للشحن الهولندي.[152]

بينما أصبحت رواية سِرفانتِس من الكلاسيكيات الخالدة، ظهرت كتابات إسبانية أخرى كان لها تأثير سياسي أكثر فورية. خلال العقود التي لا تنتهي من الثورة الهولندية، ظهرت 25 طبعة من ترجمة تقرير القسّ بارتولومي دي لاس كاسَس القصير عن تدمير جزر الهند الغربية *the Destruction of the Indies Account of Short* الى اللغة الهولندية. بالإعتماد على هذا الحساب، ظهر عدد لا يُحصى من الكتيّبات الهولندية عن الفظائع الإسبانية في أرض هولندا وكما الأحداث السابقة والجارية في الأمريكتين، كما فعل رئيس الجمهورية وليَم الصامت. كتب هذا بيان المتمرّدين الهولنديين الذي ورد فيه أنّ الغزاة الإسبان قد أظهروا لأوّل مرّة "قسوة وطمعا وفخرا في التصرّف الطبيعي في الأمريكتين."[153]

حين دخلت الثورة الهولندية عقدها الرابع عام 1598، كانت الكنيسة البروتستانتيّة قد أصدرت في فرانكفورت ترجمات لاتينية وألمانية لتقرير لاس

كاسس، أوضح فيه روايته المُرعبة لمشاهد عيان موثقة برسومات بلغ عددها 17 رسما للفظائع الإسبانية وهي تظهر الجنود يطلقون العنان للكلاب لمهاجمة الهنود الحمر أو قطع أذرعهم وتعليق العشرات منهم فوق ألسنة اللهب. عندما استؤنفت الحرب الهولندية مع إسبانيا عام 1621، نشرت مطبعة أمستردام طبعة جديدة من تقرير لاس كاسس، المرتبط بسرد مواز للإنتهاكات الإسبانية في هولندا جنبا الى جنب مع رسومات فظائع العالم الجديد ومعها فظائع لصور المواطنين الهولنديين وهم يُذبحون وتُقطع رؤوسهم ويُعلقون من اعضائهم التناسلية. لأوّل مرّة في تاريخ أوروبا، كانت القوّة الصاعدة تستخدم حقوق الإنسان ضدّ إمبراطورية قائمة لتحدّي شرعيتها وبالتالي تبرّر مصادرة مستعمراتها.[154]

نحو نظام عالمي جديد

كانت الهزيمة المدمّرة للإسطول الإسباني بمثابة بداية لتراجع إسبانيا كقوّة مهيمنة في أوروبا. في واحدة من الإنتكاسات المُذهلة في التاريخ، فإنّ هذه الإمبراطوريّة العالمية التي شملت ثلاث قارات ومُحيطين ستكون من الآن فصاعدا في موقف دفاعي ضدّ جمهورية هولندية صغيرة ليس مجموع سكانها أكثر من مليون نسمة. في الجولة الأخيرة من هذا الصراع التاريخي الذي تزامن مع حرب الثلاثين عاما (1618- 1648)، عانت إسبانيا والبرتغال من هزيمة مدمّرة. ومع ذلك، وفي تطوّر متناقض له آثار حتى على عصرنا الحالي، فإنّ تأثير النظام العالمي الآيبيري استمرّ حتى بعد انكسار الإمبراطوريتين. في الواقع، أثبتا القدرة على الصمود بشكل غير عادي والبقاء على قيد الحياة لعقود من الحرب المدمّرة، حتى بعد ظهور الإصلاح البروتستانتي وبروز إمبراطوريّة جديدة. بلغت الصراعات الدينية والإسريّة المتواصلة ذروتها في تدمير أوروبا في حرب الثلاثين عاما، التي ستشلّ إسبانيا والبرتغال لكنّها تركت نظامهما العالمي يتمتع

بمرونة أيديولوجية وتجاريّة كافية للإستمرار لمدة 170 سنة أخرى. بدلا من توسيع أفكارهم الأولية عن حقوق الإنسان والحرية لتشمل غير الأوروبيين والقوى البروتستانتيّة الصاعدة في إنكلترا وهولندا، توسّعت تجارة الرقيق الأيبيريّة الى مستوى غير مسبوق وجُعِل العمل القسري مركزا لبناء الإمبراطورية الناشئة. بدلا من تحدّي المفهوم الأيبيري للسيادة الإمبراطوريّة واختصاصها في الغزو الإقليمي، إحتضنت أمستردام ولندن فكرة الإستحواذ على مناطق شاسعة في أفريقيا وآسيا والأمريكتين.

ولكن تحت السطح المستقر لهذه الإستمراريّة، كان هناك نظام عالمي جديد قد تثبّت بالفعل. السؤال هو، كيف يتمكّن نظام عالمي راسخ أن يفرز قوّة كافية لقلب النظام العالمي نفسه؟ في القرن التاسع عشر، جادل الفيلسوف الألماني جورج فِلهَم هِگِل في كتابه *Phenomenology of Mind* أنّ التاريخ مدفوع "بالدايلكتِك السلبي" Dialectic Negative الذي يملأ كلّ حقبة في وعيها ببذور تدمير ذاتها وخلق التغيير، الذي يحمل البشرية من خلال تعاقب مراحل نمو المجتمع ورفعه بنظم عقلانية. في هذه العملية يكون "رجال تاريخ العالم" مثل قيصر أو نابليون، على الرغم من عدم وعيهم أنّ "الفكرة العامة التي كانوا يبحثون عنها" لا تزال تستخدم كأدوات للتاريخ في الوصول الى "الخطوة التالية في التقدّم."[155]

إذا كانت وجهة النظر للتاريخ هذه تبدو آلية بشكل مفرط، فإنّها لا تزال مفيدة كاستعارة. بينما ظلّ النظام العالمي الأيبيري مهيمنا للغاية، إنتشر نقيضه في شكل الإصلاح البروتستانتي في جميع أنحاء القرن التاسع عشر وزرع بذور التغيير الذي من شأنه أن يزدهر في القرون التالية. الإعتقاد البروتستانتي الأساسي في العلاقة المباشرة لكلّ فرد مع الرّبّ يقوم على أفكار الحريّة الدينية التي ألهمت كافة تمرّدات الهولنديين في سبعينات القرن السادس عشر وثورة إنكلترا المجيدة ضدّ ملكها الكاثوليكي بعد قرن. تحوّلت تلك المبادئ البروتستانتيّة

ببطء نحو المثل العليا الأوسع لحقوق الإنسان، التي من شأنها أن تحفّز على تنامي الحركة المناهضة للعبودية في أواخر القرن الثامن عشر بإنكلترا.

على الفور وبشكل كبير، سمحت الطائفية البروتستانتية للإنكليز والهولنديين بتحدّ تقسيم الفاتيكان للعالم بين القوتين الأيبيرتين وتحدّي امبرطوريتيهما الشاسعتين وانشاء شركات تجارية رأسمالية من شأنها أن تُنشئ مستعمرات جديدة في ثلاث قارات. من خلال ارباحهم غير العاديّة والتوسع الذي لا هوادة فيه، لعبت الشركات المستأجرة كأوّل شركات حديثة وقامت بدور أساسي في انتشار رأس المال التجاري عبر معظم انحاء العالم. بحلول عام 1700، كان من الواضح أنّ السمات المُميّزة للعصر الأيبيري والعبوديّة والغزو الإمبراطوري قد بقيت على حالها. ومع ذلك، فإنّ منطق السوق الرأسمالية التجاريّة والمثل العليا للإنسان والحرية أيضا أن تندمج في قوّة فعالة من أجل التغيير. في الواقع وبعد قرن طويل من الهيمنة الإمبريالية الهولندية والبريطانية تحقق ازدهار أكثر من العصر الآيبيري، لكنّه حمل أيضا إستعباد البشر وانتشاره الى آفاق جديدة، بينما زرع بذور التغيير في نفس الوقت.

بحلول القرن الثامن عشر، كان النظام القديم في أوروبا قد استنفذ نفسه بواسطة الملوك ذوي السلطات المطلقة من الغارقين في سلالة واحدة مميتة وحروب مدمّرة مستمرة حربا تلو أخرى، مما نجم عنها إفلاس شركاتهم الملكية التي وصلت الى أبعد من حدودها كأدوات عالمية. وبالمقابل أصبحت بريطانيا سلفا لنظام عالمي جديد يجمع بين النظام العالمي وحملة مناهضة للعبوديّة وثورة صناعية تعمل بالفحم، لتنتهي أخيرا سلطة العصر الآيبيري.

مصادر وملاحظات الفصل الثاني

Chapter 2: The Iberian Age

1. "Naval Parade off Portugal," *Times* (London), 8/9/1960; G.M.M., "Prince Henry the Navigator," *Hispania* 43, no. 1 (1960), 118-19.
2. Arthur Davies, "Prince Henry the Navigator," *Transactions and Papers (Institute of British Geographers)*, no. 35 (1964), 122-24; B.W. Diffie and G.D. Winius, *Foundations of the Portuguese Empire, 1415-1580* (1977), 78-81; C.R. Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825* (1969), 24-25.
3. Gomes Eannes de Azurara, *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea*, vol. 1 (1896), 84-85.
4. Diffie, *Foundations*, 113-22; W.G.L. Randles, "The Alleged Nautical School Founded in the Fifteenth Century at Sagres by Prince Henry of Portugal, Called the 'Navigator,'" *Imago Mundi* 45 (1993), 20-28; Edgar Prestage, "Prince Henry the Navigator," in Charles Herbermann et al., eds., *Catholic Encyclopedia*, vol. 7 (1910), 239-40.
5. Gregorio Rosas Herrero, "América latina debe superar el 'desierto de la desunión,'" *Correo Económico* (México), 10/25/1982; Merry MacMasters, "Antonio de Montesinos," *El Nacional* (México), 10/11/1982; Isabel Zamorano, "JPL: Ante hegemonías que arruinan y avasallan, unidad," *Excélsior* (México), 10/13/1982; Fernando Meraz, "Imponente figura de 28 metros de alto de Fray Antón de Montesinos," *Excélsior*, 10/9/1982; Máximo Manuel Pérez, "Rendirán hoy tributo Fray Antón Montesinos," *Listín Diario* (Santo Domingo), 10/12/1982. The statue's sculptor was Antonio Castellanos, and his wife, Lavinia, kindly provided these newspaper articles.
6. Anthony Pagden, "Introduction," in Bartolomé de Las Casas, *A Short Account of the Destruction of the Indies* (1992), xiii-xli; Frank Pons, *The Dominican Republic* (1995), 33-34.
7. Bartolomé de Las Casas, *Historia de las Indias*, book 3 (1986), 13-14.
8. J.H. Elliott, *Empires of the Atlantic World* (2006), 67-69, 98-99, 130-33; Pagden, "Introduction," in Las Casas, *Short Account*, xiii-xli; Mary Nona *Orient* (1990), 80-81; Alan Mikhail, *God's Shadow* (2020), 139-43.
9. Elliott, *Empires*, 99-101.
10. Roquinaldo Ferreira and Tatiana Seijas, "The Slave Trade to Latin America," in Alejandro de la Fuente and George Reid Andrews, eds., *Afro-Latin American Studies* (2018), 29-39; Elliott, *Empires*, 100.
11. Marc Bloch, "Les 'inventions' Médiévales," *Annales d'histoire économique et sociale* 7, no. 36 (1935), 634-43; Astrid Kander et al., *Power to the People* (2013), 64-67.

12. Kander, *Power*, 67-70, 75; Frederick Stokhuyzen, *The Dutch Windmill* (1962), 96-97.
13. Sidney M. Greenfield, "Madeira and the Beginnings of New World Sugar Cane Cultivation and Plantation Slavery," *Annals of the New York Academy of Sciences* 292, no. 1 (1977), 536-52.
14. Ole J. Benedictow, *The Black Death, 1346-1353* (2004), 382-83; Ole J. Benedictow, "The Black Death," *History Today* 55, no. 3 (2005), https://www.historytoday.com/archive/black-death-greatest-catastrophe-ever.
15. J.D. Durand, "The Population Statistics of China, A.D. 2-1953," *Population Studies* 13, no. 3 (1960), 209-56; Lawrence G. Gundersen, "A Reassessment of the Decline of the Khmer Empire," *International Journal of Culture and History* 1, no. 1 (2015), 64.
16. United States Census Bureau, "Historical Estimates of World Population," https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/internationalprograms/historical-est-worldpop.html.
17. Jack Weatherford, *Genghis Khan and the Making of the Modern World* (2004), 81-217, 241-44; Giovanna Morelli et al., "*Yersinia Pestis* Genome Sequencing Identifies Patterns of Global Phylogenetic Diversity," *Nature Genetics* 42 (10/31/2010), 1140-43, https://www.nature.com/articles/ng.705; Nicholas Wade, "Europe's Plagues Came from China, Study Finds," *NYT*, 10/31/2010, https://www.nytimes.com/2010/11/01/health/01plague.html.
18. John Kelly, *The Great Mortality* (2006), 43-48; Philip Ziegler, *The Black Death* (1969), 30-35; Andrew Lambert, *Seapower States* (2018), 114-22; Michele Fratianni and Franco Spinelli, "Italian City-States and Financial Evolution," *European Review of Economic History* 10, no. 3 (2006), 261-71; D.N. Ghosh, "Genesis of High Finance," *Economic and Political Weekly* 41, no. 7 (2006), 542-43.
19. Robert S. Gottfried, *The Black Death* (1983), 23-30; Thomas H. McGovern, "The Demise of Norse Greenland," in William W. Fitzhugh
20. David Herlihy, *The Black Death and the Transformation of the West* (1997), 39-40.
21. Gottfried, *Black Death*, xiii.
22. Kelly, *Great Mortality*, xiii, xiv-xv, 8-11, 94-95, 110-11, 119, 150-51, 201, 215-26, 263, 281; Ziegler, *Black Death*, 50.
23. Ziegler, *Black Death*, 40-63, 107-8, 113-16; Benedictow, *Black Death*, 77-90.
24. Gottfried, *Black Death*, xvi, 8-9, 129-34; J.H. Elliott, *Imperial Spain, 1469-1716* (2002), 37; Randal Garza, *Understanding Plague* (2008), 7-10; Herlihy, *Black Death*, 17.
25. Benedictow, *Black Death*, 382-83; Ziegler, *Black Death*, 232-51.
26. Herlihy, *Black Death*, 40-57.
27. Gottfried, *Black Death*, 16-18, 135-47.
28. Weatherford, *Genghis Khan*, 241-54; William H. McNeill, *Plagues and Peoples* (1977), 168-75; Diffie, *Foundations*, 203; Adrian Goldsworthy, *How Rome Fell* (2009), 314-34.

29. Kathryn Reyerson, "Identity in the Medieval Mediterranean World of Merchants and Pirates," *Mediterranean Studies* 20, no. 2 (2012), 129-46.
30. Xavier Gil, "The Shaping of the Iberian Polities in the Late Fifteenth and Earlier Sixteenth Centuries," in Fernando Bouza et al., eds., *The Iberian World 1450-1820* (2020), 7-19.
31. Eric R. Wolf, *Europe and the People without History* (2010), 38-44.
32. Wolf, *Europe*, 44-50.
33. Wolf, *Europe*, 56-58; Brendan M. Buckley et al. "Climate as a Contributing Factor in the Demise of Angkor, Cambodia," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 107, no. 15 (2010), 6748-52.
34. Wolf, *Europe*, 50-56.
35. B.L. Turner II and Jeremy A. Sabloff, "Classic Period Collapse of the Central Maya Lowlands," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 109, no. 35 (2012), 13908-14; Wolf, *Europe*, 58-72.
36. "The Gokstad Ship," UIO Museum of Cultural History, 7/7/2016, https://www.khm.uio.no/english/visit-us/viking-ship-museum/exhibitions/gokstad/gokstad-ship.html;
Beau Riffenburgh, *The Great Explorers and Their Journeys of Discovery* (2017), 7-11; Arne Emil Christensen, "Ships and Navigation," in Fitzhugh and Ward, *Vikings*, 86-97; Neil S. Price, "'Laid
37. Peter Bellwood, *Man's Conquest of the Pacific* (1979), 121, 123-24, 296-311, 329-77.
38. Barbara Bennett Peterson, "The Ming Voyages of Cheng Ho (Zheng He), 1371-1433," *The Great Circle* 16, no. 1 (1994), 43-51; Tansen Sen, "The Formation of Chinese Maritime Networks to Southern Asia, 1200-1450," *Journal of Economic and Social History of the Orient* 46, no. 4 (2006), 421-53.
39. Frances Gardiner Davenport, ed., *European Treaties Bearing on the History of the United States and Its Dependencies to 1648* (1917), 9, 56-79.
40. "The Bull *Dudum Siquidem* of September 26, 1493," http://www. reformation.org/dudum-siquidem.html; Davenport, *European Treaties*, 20-26, 79-83.
41. Davenport, *European Treaties*, 107-11, 118-68; Lawrence A. Coben, "The Events That Led to the Treaty of Tordesillas," *Terrae Incognitae* 47, no. 2 (2015), 148-51; Peter Borschberg, *Journal, Memorials and Letters of Cornelis Matelieff de Jonge* (2015), 8-10.
42. Bartolomé Yun-Casalilla, *Iberian World Empires and Globalization of Europe 1415-1668* (2019), 16; Wolf, *Europe*, 110-12; Boxer, *Portuguese*, 4-5, 13, 56-57.
43. Diffle, *Foundations*, 113-22; Randles, "The Alleged Nautical School," 20-28.

44. Eric Axelson, "Prince Henry the Navigator and the Discovery of the Sea Route to India," *Geographical Journal* 127, no. 2 (1961), 146-47; M.N. Pearson, *The Portuguese in India* (1987), 16; António de Almeida Mendes, "Le Portugal et l'Atlantique," *Rives méditerranéennes* 53 (2016), 139-57; Francisco Rodríguez Mediano, "Iberia, North Africa, and the Mediterranean," in Bouza, *Iberian World*, 106-9.

45. Cirilo Miguel Flórez, "Zacut," in Thomas Hockey et al., eds., *Biographical Encyclopedia of Astronomers* (2007), 1255-56. 46. Axelson, "Prince Henry," 147-48.

47. Filipe Castro, "Shipbuilding in Portugal in the Middle Ages," in Michel Balard and Christian Buchet, eds., *The Sea in History* (2017), 313-18; Diffie, *Foundations*, 118-19; Filipe Castro et al., "A Quantitative Look at Mediterranean Lateen- and Square-Rigged Ships (Part 1)," *International Journal of Nautical Archeology* 37, no. 2 (2008), 349-51; Vaclav Smil, *Energy Transitions* (2017), 62.

48. Geoffrey Parker, "The Gunpowder Revolution 1300-1500," in Geoffrey Parker, ed., *Warfare* (1995), 106-10.

49. Lambert, *Seapower States*, 124-26; John Francis Guilmartin Jr., *Gunpowder and Galleys* (1974), 86-88.

50. Guilmartin, *Gunpowder*, 159-63, 168-73, 199, 226-31.

51. C.R. Boxer, "Asian Potentates and European Artillery in the 16th-18th Centuries," *Journal of the Malaysian Branch of the Royal Asiatic Society* 38, no. 2 (1965), 156-72; Geoffrey Parker, "Ships of the Line 1500-1650," in Parker, ed., *Warfare*, 120-31; K.M. Mathew, *History of the Portuguese Navigation in India, 1492-1600* (1988), 174; J.N. Rodrigues and T. Devezas, *Portugal* (2009), 193, 260-64; Guilmartin, *Gunpowder*, 30-32.

52. Pearson, *Portuguese*, 57-58.

53. Carlo M. Cipolla, *Guns and Sails in the Early Phase of European Expansion 1400-1700* (1965), 80-81, 102-3; Guilmartin, *Gunpowder*, 62-63.

54. Diffie, *Foundations*, 57-73.

55. Boxer, *Portuguese*, 26; Diffie, *Foundations*, 67-69.

56. Davies, "Prince Henry," 122-24; Diffie, *Foundations*, 78-81; Boxer, *Portuguese*, 24-25.

57. Davies, "Prince Henry," 122-24; Diffie, *Foundations*, 90, 315; Boxer, *Portuguese*, 24-27.

58. Richard Raiswell, "Eugene IV, Papal Bulls of," in Junius Rodriguez, ed., *Historical Encyclopedia of World Slavery* (1997), 260-61; Davies, "Prince Henry," 122-24.

59. Jessalynn Bird et al., eds., *Crusade and Christendom* (2013), 124-29; Diana Hayes, "Reflections on Slavery," in Charles E. Curran, *Change in Official Catholic Moral Teachings* (2003), 65-75; José Eisenberg, "António Vieira and the Justification of Indian Slavery," *Luso-Brazilian Review* 40, no. 1 (2003), 89-95.

60. Boxer, *Portuguese*, 20-24; Davenport, *European Treaties*, 20-26.

61. Olivia Remie Constable, "Muslim Spain and Mediterranean Slavery," in Scott L. Waugh and Peter D. Diehl, eds., *Christendom and Its Discontents* (1996), 264-84, William Gervase Clarence-Smith, *Islam and the Abolition of Slavery* (2006), 223-26, Elliott, *Empires*, 106-8.
62. Wolf, *Europe*, 201-2; Clarence-Smith, *Islam*, 223-26.
63. Boxer, *Portuguese*, 22-25, 31; Wolf, *Europe*, 111; Pearson, *Portuguese*, 15; Mendes, "Le Portugal," 14-15.
64. Duarte Pacheco Pereira, *Esmeraldo de situ orbis* (1937), 88-89, 97-99, 110-12, 132, 134; Margaret T. Hodgen, *Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (1964), 362.
65. Diffie, *Foundations*, 154-56; Boxer, *Portuguese*, 28-31.
66. Ivana Elbl, "Cross-Cultural Trade and Diplomacy," *Journal of World*
67. A.C. de C.M. Saunders, *A Social History of Black Slaves and Freedmen in Portugal, 1441-1555* (1982), 1-61; David Eltis, "The Volume and Structure of the Transatlantic Slave Trade," *William and Mary Quarterly* 58, no. 1 (2001), 17-46.
68. Alfred W. Crosby, *Ecological Imperialism* (1986), 77-78; Boxer, *Portuguese*, 88-89; Robert Garfield, "Three Islands of the Portuguese Atlantic," *Shima* 9, no. 2 (2015) 47-59; A.R. Disney, *A History of Portugal and the Portuguese Empire from Beginnings to 1807*, vol. 2 (2009), 79, 84-92, 110-15.
69. Sidney W. Mintz, *Sweetness and Power* (1985), chapters 1, 3.
70. Kander, *Power*, 42-47, 50-52, 88-99; Smil, *Energy*, 59-61.
71. Andreas Malm, *Fossil Capital* (2016), 166-67; Disney, *Portugal*, 250; Boxer, *Portuguese*, 103-4; Hilary McDonald Beckles and Andrew Downes, "The Economics of Transition to the Black Labor System in Barbados, 1630-1680," *Journal of Interdisciplinary History* 18, no. 2 (1987), 238-39; Edward Littleton, *The Groans of the Plantations* (1689), 18-20; Robert W. Fogel and Stanley L. Engerman, *Time on the Cross* (1974), 5, 209; Tomas Weiss, "Time on the Cross," *EH Net*, (11/15/2001).
https://eh.net/book_reviews/time-on-the-cross-the-economics-of-american-negro-slavery/.
72. Axelson, "Prince Henry," 150-53; Diffie, *Foundations*, 156-62.
73. Kirti N. Chaudhuri, "The Portuguese Maritime Empire," *Portuguese Studies* 8 (1992), 57-70; Boxer, *Portuguese*, 44-45; Pearson, *Portuguese*, 29.
74. Diffie, *Foundations*, 175-86, 198-201; Boxer, *Portuguese*, 36-37.
75. Mathew, *History*, 173-75; Diffie, *Foundations*, 187-98, 223-25.
76. Parker, "Ships of the Line," 130-31; Mathew, *History*, 173-75.
77. H. Morse Stephens, *Rulers of India* (1892), 29-34; Roger Crowley, *Conquerors* (2015), 124-29.

78. Diffie, *Foundations*, 227-29; Stephens, *Rulers*, 33, 47-49.
79. Diffie, *Foundations*, 225, 259, 262; Pearson, *Portuguese*, 71-72.
80. Diffie, *Foundations*, 301-2, 311-20, 328, 408-16.
81. C.R. Boxer, *The Dutch Seaborne Empire 1600-1800* (1965), 237; Diffie, *Foundations*, 302, 313-16, 320-29.
82. Pearson, *Portuguese*, 22-23, 26-27, 52-53.
83. Diffie, *Foundations*, 227-30; Pearson, *Portuguese*, 25-26, 40-42.
84. K.S. Mathew, "Calicut, the International Emporium of Maritime Trade and the Portuguese during the Sixteenth Century," *Proceedings of the Indian History Congress* 67 (2006-2007), 251-57; Andreu Martinez d'Alòs-Moner, "Conquistadores, Mercenaries, and Missionaries," *Northeast African Studies* 12, no. 1 (2012), 4-6; Diffie, *Foundations*, 230-39; Chaudhuri, "Portuguese Maritime Empire," 57-58.
85. Diffie, *Foundations*, 240-42.
86. Stephens, *Rulers*, 41-47.
87. Diffie, *Foundations*, 248-58; Boxer, *Portuguese*, 48-49.
88. Boxer, *Portuguese*, 40-41; Diffie, *Foundations*, 263-67.
89. Boxer, *Portuguese*, 40-41; Diffie, *Foundations*, 268-72; Mikhail, *God's Shadow*, 259-69.
90. Pearson, *Portuguese*, 44-45.
91. Giancarlo Casale, *The Ottoman Age of Exploration* (2010), 6-7, 49; Guilmartin, *Gunpowder*, 43-56; Mikhail, *God's Shadow*, 284-310, 343-52, 363-65.
92. d'Alòs-Moner, "Conquistadores," 11-12; Casale, *Ottoman*, 43, 53-63, 69-74, 80-83.
93. Diffie, *Foundations*, 414-18; d'Alòs-Moner, "Conquistadores," 1-28; Casale, *Ottoman*, 74-75, 111-16, 139-47; Guilmartin, *Gunpowder*, 100-3; Pearson, *Portuguese*, 62, 67.
94. Boxer, *Portuguese*, 58-59; Casale, *Ottoman*, 132-35, 139-47, 202-3; "Sokollu Mehmed Pasha," *Biyografya*, https://www.biyografya.com/biyografi/16739; Mikhail, *God's Shadow*, 318-20.
95. Casale, *Ottoman*, 119-39, 149-51, 152-55, 182-84.
96. Lambert, *Seapower States*, 219-26; Casale, *Ottoman*, 152-53; Boxer, *Portuguese*, 367-70.
97. Casale, *Ottoman*, 177-79, 182-85.
98. Pearson, *Portuguese*, 79-80.
99. Elliott, *Imperial Spain*, 13, 25; Guiseppe Marcocci, "Iberian Explorations," in Bouza, *Iberian World*, 284-85; Pedro Cardim et al., "The Political Constitution of Iberian Monarchies," in Bouza, *Iberian World*, 35-38; Yun-Casalilla, *Iberian*, 287.
100. Boxer, *Portuguese*, 30-31, 50-61, 157; Henry Kamen, *Empire* (2003), 287, 288-89, 294-97.

101. Elliott, *Imperial Spain*, 27-31, 36-41.

102. Gil, "Shaping," 22; Elliott, *Imperial Spain*, 15-43, 82-86, 92, 125-29; Yun-Casalilla, *Iberian*, 54.

103. Elliott, *Imperial Spain*, 45, 60-61, 101-2, 109, 122-23; Gil, "Shaping," 25.

104. Kamen, *Empire*, 41-46, 82-83, 85, 88-89; Elliott, *Imperial Spain*, 69-79, 101-2.

105. Elliott, *Imperial Spain*, 62-66, 114-15.

106. Winston A. Reynolds, "The Burning Ships of Hernán Cortés," *Hispania* 42, no. 3 (1959), 317-24; Kamen, *Empire*, 83, 99-104; Felix Hinz, "Spanish-Indian Encounters," in Robert Aldrich and Kirsten Mckenzie, eds., *The Routledge History of Western Empires* (2014), 18-22.

107. Kamen, *Empire*, 83, 99-104; Hinz, "Spanish-Indian," 18-22.

108. Gordon F. McEwan, *The Incas* (2008), 2-8, 112-33, 138-39; Kamen, *Empire*, 105-7.

109. Hinz, "Spanish-Indian," 25-27; Jared Diamond, *Guns, Germs, and Steel* (1999), 67-81.

110. Kamen, *Empire*, 105-19; Juan de Betanzos et al., *Narrative of the Incas* (1996), 180-81; Hinz, "Spanish-Indian," 27.

111. Manuel Ballesteros-Gaibros, "Francisco Pizarro, Spanish Explorer," *Encyclopedia Britannica* (1/7/2021), https://www.britannica.com/biography/Francisco-Pizarro; Elliott, *Empires*, 132-33.

112. Dennis O. Flynn and Arturo Giráldez, "Born with a 'Silver Spoon,'" *Journal of World History* 6, no. 2 (1995), 209; Wolf, *Europe*, 135-39; Jane Burbank and Frederick Cooper, *Empires in World History* (2010), 124.

113. Wolf, *Europe*, 149-51; Stuart B. Schwartz, "Patterns of Conquest and Settlement of the Iberian Americas," in Bouza, *Iberian World*, 325-26, 334-35; Roquinaldo Ferreira and Pablo Miguel Sierra Silva, "Portugal, Spain, and the Transatlantic Slave Trade," in Bouza, *Iberian World*, 381-85.

114. Kamen, *Empire*, 83; Wolf, *Europe*, 133-35; Toby Green, *The Rise of the Trans-Atlantic Slave Trade in Western Africa, 1300-1589* (2012), 185-89.

115. Elliott, *Imperial Spain*, 71-76; Kamen, *Empire*, 83-84; Paul S. Vickery, "Bartolomé de Las Casas," *Mediterranean Studies* 9 (2000), 89-102; Pagden, "Introduction," xiii-xli.

116. Enrique Dussel, "Bartolomé de Las Casas," *Encyclopedia Britannica* (1/4/2021), https://www.britannica.com/biography/Bartolome-de-Las-Casas; Elliott, *Empires*, 70-71; Yun-Casalilla, *Iberian*, 54-55; Eisenberg, "António Vieira," 90-91.

117. Lewis Hanke, *All Mankind Is One* (1974), 6-22, 57-70.

118. Robert A. Williams Jr., *The American Indian in Western Legal Thought* (1990), 97-108; Anthony Pagden, *The Burdens of Empire* (2015), 45-67; Anthony Pagden and Jeremy Lawrence, eds., *Francisco de Vitoria* (1991), xiii-xxvii, 225-26, 231-32, 249-51, 282-92; Antony Anghie, *Imperialism, Sovereignty and the Making of International Law* (2004), 13-31.

119. Hanke, *All Mankind*, 6-22, 57-70; Henry Stevens and Fred W. Lucas, eds., *The New Laws of the Indies for the Good Treatment and Preservation of the Indians* (1893), lxxxvi-xciv; Elliott, *Empires*, 132-33.

120. Hanke, *All Mankind*, 82-105; Brian Tierney, *The Idea of Natural Rights* (2001), 272-74; Anthony Pagden, *The Fall of Natural Man* (1982), 109-18.

121. Las Casas, *Short Account*, 12-17, 27-30; Hanke, *All Mankind*, 113-22.

122. Hanke, *All Mankind*, 113-22.

123. Juan Comas, "Historical Reality and the Detractors of Father Las Casas," in Juan Friede and Benjamin Keen, eds., *Bartolomé de las Casas in History* (1971), 487-538.

124. Hodgen, *Early Anthropology*, 361-64; Tierney, *Natural Rights*, 273-78; Pagden, *Natural Man*, 119-26; John L. Phelan, "The Apologetic History of Fray Bartolomé de las Casas," *Hispanic American Historical Review* 49, no. 1 (1969), 94-99.

125. Pablo Miguel Sierra Silva, *Urban Slavery in Colonial Mexico Puebla de los Ángeles, 1531-1706* (2018), 35-42; Magnus Lundberg, *Unification and Conflict* (2002), 225-26.

126. McNeill, *Plagues*, 177-92; Wolf, *Europe*, 133-35; Alfred W. Crosby, *The Columbian Exchange* (1972), 42-58; Yun-Casalilla, *Iberian*, 64, 149.

127. Eltis, "Transatlantic Slave Trade," 17-46; Wolf, *Europe*, 195-201; Herbert S. Klein, *The Atlantic Slave Trade* (2010), 11, 99-100, 216-17.

128. Timothy Brook, *Vermeer's Hat* (2008), 157-59, 160-61; Kamen, *Empire*, 285-91; Wolf, *Europe*, 138-39.

129. Flynn, "Born," 201-21; Kamen, *Empire*, 210-21; Brook, *Vermeer's Hat*, 161-62, 170-79; Nicholas Cushner, *Spain in the Philippines* (1971), 135-36; William Lytle Schurz, *The Manila Galleon* (1939), 334-35; Herbert S. Klein and Sergio T. Serrano Hernández, "Was There a 17th Century Crisis in Spanish America?," *Journal of Iberian and Latin American Economic History* 37, no. 1 (2019), 46; Jan de Vries, "The Limits of Globalization in the Early Modern World," *Economic History Review* 63, no. 3 (2010), 730.

130. "Coins of Latin America," *Encyclopedia Britannica*, https://www.britannica.com/topic/coin/Coins-of-Latin-America.

131. Cardim, "Political Constitution," 38-39; G. Alvarez et al., "The Role of Inbreeding in the Extinction of a European Royal Dynasty," *PLoS ONE* 4, no. 4 (2009), 5174; Andrea Thompson, "Inbreeding," *Live Science*, 5/6/2021, https://www.livescience.com/3504-inbreeding-downfalldynasty.html.

132. José Javier Ruiz Ibáñez, "The Iberian Polities within Europe," in Bouza, *Iberian World*, 62-66; Yun-Casalilla, *Iberian*, 258-63.

133. Kamen, *Empire*, 49-82; Wolf, *Europe*, 138-39; Parker, "Gunpowder Revolution," 116-17; Burbank, *Empires*, 117, 128, 143-48.

134. Kamen, *Empire*, 91-93; Yun-Casalilla, *Iberian*, 162-63; Gerhard Geissler, *Europäische Dokumente aus fünf Jahrhunderten* (1939), 85.

135. Wolf, *Europe*, 138-39; Kamen, *Empire*, 91-93, 151-67, 192-93, 296; Guilmartin, *Gunpowder*, 109-12; Elliott, *Imperial Spain*, 249-56.

136. Boxer, *Portuguese*, 160-61; Kamen, *Empire*, 294-95.

137. Kamen, *Empire*, 70-77.

138. Kamen, *Empire*, 155-57.

139. Guilmartin, *Gunpowder*, 221-52; Kamen, *Empire*, 183-86; Lambert, *Seapower States*, 138-42.

140. Elliott, *Imperial Spain*, 241-42.

141. Kamen, *Empire*, 151-52; Andrew Pettegree, *Europe in the Sixteenth Century* (2002), 214.

142. Kamen, *Empire*, 77-78; 177; Philip Benedict, *Christ's Churches Purely Reformed* (2002), 174-88.

143. Kamen, *Empire*, 177-80, 190-91; Elliott, *Imperial Spain*, 262-63; Benedict, *Christ's Churches*, 189-92; Fletcher Pratt, *The Battles That Changed History* (1956), 151-69.

144. Kamen, *Empire*, 186-89, 190-91.

145. Violet Soen, "Reconquista and Reconciliation in the Dutch Revolt," *Journal of Early Modern History* 16, no. 1 (2012), 1-22; Kamen, *Empire*, 299-301; Elliott, *Imperial Spain*, 268-70; Earl J. Hamilton, "Imports of American Gold and Silver into Spain, 1503-1660," *Quarterly Journal of Economics* 43, no. 3 (1929), 436-72.

146. "The Union of Utrecht, January 23, 1579," http://www.constitution.org/cons/dutch/Union_Utrecht_1579.html.

147. Kamen, *Empire*, 299-301; Soen, "Reconquista," 9-22.

148. Kamen, *Empire*, 301-4; Elliott, *Imperial Spain*, 268-77; Jean-Frédéric Schaub, "The Union between Portugal and the Spanish Monarchy," in Bouza, *Iberian World*, 136.

149. Garrett Mattingly, *The Armada* (1959), 247; Kamen, *Empire*, 305-9; Parker, "Ships of the Line," 126-26; Jonathan I. Israel, *The Dutch Republic and the Hispanic World 1606-1661* (1982), 23.

150. Elliott, *Imperial Spain*, 285-89.

151. Wolf, *Europe*, 113-14; Elliott, *Imperial Spain*, 217-31, 292-300; Ruiz Ibáñez, "Iberian Polities," 74; Bartolomé Yun-Casalilla, "The Peninsular Economies and the Impact of Globalisation (ca. 1494-1700)," in Bouza, *Iberian World*, 197-201.

152. Israel, *Dutch Hispanic World*, 42-59, 412-23, 438-39.

153. William of Orange, *The Apologie of Prince William of Orange against the Proclamation of the King of Spaine* (1969), 53, 132; Benjamin Schmidt, "Hyper Imperialism," in René Koekkoek et al., eds., *The Dutch Empire between Ideas and Practices, 1600-2000* (2019), 67-88; Martine Julia van Ittersum, *Profit and Principle* (2006), 59-60, 69-71.

154. Benjamin Keen, "The Black Legend Revisited," *Hispanic American Historical Review* 49, no. 4 (1969), 703-19; Pierre Chaunu, "Las Casas et la première crise

structurelle de la Colonisation Espagnole (1515-1523)," *Revue historique* 229, no. 1 (1963), 59-102; J.H. Elliott, *The Old World and The New, 1492-1650* (1970), 95-96; *Le miroir de la cruelle, et horrible tyrannie espagnole perpetrée au Pays Bas* (1620), 15-16, 19, 25, 30, 33, 50-51, 53, 57, 60; Van Ittersum, *Profit and Principle*, 71-77.

155. Steven B. Smith, "Hegel's Idea of a Critical Theory," *Political Theory* 15, no. 1 (1987), 99-126; G.W.F. Hegel, *The Philosophy of History* (1956), 30-31.

الفصل الثالث

إمبراطوريات التجارة ورأس المال

في شهر شباط من عام 1603، أبحر أسطول تجاري برتغالي صغير الى الجنوب من مستعمرة مَكّاو الواقعة على ساحل الصين، متوجها الى جزيرة سنغافورة. بدلا من خطر المرور عبر المضائق الصعبة في تلّقا في أعالي شبه جزيرة الملايو وقد أدركهم الظلام، قرّر قائد الأسطول إلقاء المرساة ليلا عند مصبّ نهر جوهور. كانت سفينة القيادة الرئيسية سانتا كَترينا ضخمة بلغ وزنها 1400 طنّاً، وكانت حقيقة مدينة عائمة وعلى متنها 700 جنديا و100 راكبا ومعبأة بالسلع الفاخرة الصينية. بالرغم من حمولتها الغنية، كان الأسطول مسلحا بأسلحة خفيفة، ممّا يعكس ثقة القوّة الإمبريالية التي هيمنت على المحيط الهندي وتجارته منذ ما يقرب من قرن.

بعد بزوغ الفجر بقليل، رصدت سفينتان من سفن أسطول شركة الهند الشرقية الهولندية كانتا قد أرسلتا الى آسيا، السفينة البرتغالية الراسية. استعدتا للهجوم عليها بقيادة الأدميرال جيكُب ڤان هِمسكَيرك، وهو شاب لذلك المنصب في عمر 35 عاما. إشتهر بالفعل بسبب استكشافه لمنطقة الطريق الشمالي الى آسيا. حين حطّمت كتل الجليد سفينته، نجا من شتاء القطب الشمالي بالسكن في كوخ بناه من الأخشاب الطافية، ثمّ جذف فيما بعد مسافة 500 ميلا عبر البحر المفتوح حتى وصل الى برّ الأمان. غير أنّ مهمة الأدميرال الآن هي الإنتقام.

في كلّ مكان وصلت إليه هذه الحملات الهولندية المُبكّرة في آسيا، كان البرتغاليون عاقدي العزم على الدفاع عن احتكارهم التجاري واستجابوا بإطلاق النار أو القتل. بعد الإستيلاء على السفينة البرتغالية الراسية قبالة شمال ساحل جاوه، كان الأدميرال فان هيمسكيرك غاضبا لاكتشاف رسائل تشير الى أنّ المسؤولين البرتغاليين في مَكّاو كانوا قد ألقوا مؤخّرا القبض على 17 بحارا هولنديًا. أعدموا 6 منهم شنقا وشدوا أيدي وأرجل 10 آخرين واثقلوهم بالحجارة، قبل أن يلقوهم أحياء في البحر. كما تمّ منع محاولة الأدميرال نفسه من شراء التوابل من قبل البرتغاليين، الذين اعتمدوا حملة الأرض المحروقة في جزر البهارات في شرق إندونيسيا وتمّ تدمير المزارع والبساتين لمنع وصول الهولنديين إليها.

في صباح يوم الهجوم، كان السلطان المحلي في جوهور، علاء الدين ريايات الشاه الثالث، على متن سفينة الإدميرال الهولندي، الملقب "الأسد الأبيض". كانت لدى السلطان أسبابه الخاصّة للإنتقام لثنيه عن التجارة مع الهولنديين، أضف الى ذلك أنّ البرتغاليين كانوا يداهمون المدن الواقعة على طول نهر جوهور ويقتلون رعاياه. قبل أن تتمكّن السفينة البرتغالية من رفع المرساة والفرار، كانت السفن الحربية الهولندية تحيط بها وبعثت العديد من الزوارق اليها مصحوبة بالسفن الصغيرة التابعة للسلطان وشرعت بإطلاق النار، ممّا أدى الى اندلاع معركة شرسة استمرّت طوال النهار. وحين حلّ المساء توقف إطلاق النار بأمر الأدميرال الهولندي لتجنب تدمير هيكل السفينة سانتا كّاترينا، "لئلا ينبغي علينا تدمير غنائمنا باستعمال أسلحتنا." فرّت السفن البرتغالية الأخرى طلبا للنجاة في مضيق مَلَقا، تاركة سانتا كَترينا بمفردها بعد أن اعاق الركاب الموجودون على ظهر السفينة طقم سلاح المدفعية من اداء واجباتهم.

بحلول الوقت الذي حلّ فيه الظلام، خسرت السفينة البرتغالية 70 من رجالها وفقدت أشرعتها وكان الماء يتسرّب بشدة الى داخلها. بعد أن رفع

القبطان راية الإستسلام، توصّل الطرفان الى شروط خسر البرتغاليون بموجبها السفينة وحمولتها مقابل ممرّ آمن الى مدينة مَلقا. بعد أن أوفى الأدميرال الهولندي بتعهده وسلم مئات الركاب البرتغاليين والطاقم، عزا مجلس مدينة مَلقا بالإمتنان والحظ الطيب في التقاط مثل هذه البضائع الغنية الى "قدر الله وحكمته الخفية غير المعروفة" Secret and Unknown Judgment of God. أعرب الحاكم البرتغالي لمدينة مَلقا فرناندو البوكيركي عن عمق أسفه لمقتل البحّارة الهولنديين في مَكّاو، وأكّد للأدميرال الهولندي أنّ "الجناة قد تمّ القبض عليهم بالفعل ويجب... دفع ثمن ذنبهم بحياتهم." عزا الأدميرال فان هيمسكيرك أيضا نصره الى عون الله ومساندته وقال، "بما أنّ الله سبحانه وتعالى قد بارك تجارة الهند الشرقية، اصبح لدينا ما لا يُقاس." ثمّ أخبر لاحقا مديري شركته، "دعونا نصبح أصدقاء مع كثيرين من الملوك والدول المختلفة... ونجعل كلا من القدسية والسياسة أساسين لبرلمان المملكة الهولندية المتحدة."

حين عاد الأدميرال الى الوطن ومعه سانتا كَترينا بحمولتها الكاملة بعد أكثر من عام، أذهل الحجم الإستثنائي لجائزة هولندا المواطنين، وجذب انتباه التجّار في جميع أنحاء أوروبا. إضافة الى 60 طنّا من الخزف الصيني، كان هناك 1200 بالة من الحرير الصيني الخام والعديد من البهارات والإقمشة المطرّزة بالذهب، وحتى تاج ملكي مرصّع بالأحجار الكريمة. وصلت قيمة الحمولات 350 مليون گِلدَرا (حوالي 130 مليون دولارا بموجب أسعار اليوم)، أي ما يعادل نصف رأسمال شركة الهند الشرقية الهولندية. عندما اكتمل عرض "الجائزة" للبيع أخيرا، كتب المحامي الهولندي الذي أشرف على ذلك، "لاتتعجبوا من كشف الثروة؟ مَن الذي لم يُصبه الذهول؟ من الذي لم يشعر أنّ المزاد قيد التنفيذ كان عمليًا بيع مِلكيّة مَلكيّة، وليس مِلكيّة خاصة؟"

أثار ثمن الجائزة جميع أنواع المقاضاة. بعد الكثير من الإلتماسات والكثير من المناورات حصل طاقم الأدميرال على 123380 گِلدَرا، وتلقى هو نفسه 31000

گِلدَرا، أي ما يعادل 1.2 مليون دولارا تقريبا بأسعار اليوم. لكنّ الأدميرال لم تكن لديه فرصة للتمتع بثروته. بعد عام واحد فقط، كان يقود البحرية الهولندية في غارة جريئة دمّرت الأسطول الإسباني عند مضيق جبل طارق وساعد في تأمين إستقلال هولندا عن إسبانيا، أصابت قذيفة مدفع معادية منه مقتلا. أعيد جثمانه الى الوطن وجرت له مراسيم جنازة رسميّة تليق بالبطل القومي، ولا يزال متحف ريجاكس في أمستردام حتى اليوم يعرض سيف الأدميرال جيكُب فان هيمسكِرك ودرعه الفولاذي.[1]

على الرغم من أنّها كانت مجرّد حادثة واحدة من بين عدد لا يُحصى من المعارك في ذلك العصر من الإستكشافات، كانت المعركة قبالة شواطئ سنغافورة جولة مبكّرة في ما سيصبح قريبا صراعا ملحميا لمدة 60 عاما للسيطرة على تجارة آسيا البحرية بين نوعين مختلفين جدّا من الإمبراطوريات الأوروبية. لم يكن الغزاة الهولنديون جزء من البحرية الملكية، ولم يكونوا حتى من القراصنة، الذين يحملون "خطاب مارك" Letter of Marque أمير القراصنة المعروف. كانوا موظفين يعملون في أول شركة كبرى عالمية هي شركة الهند الشرقية الهولندية. جنت الأرباح المفاجئة من رحلتها الأولى الى آسيا، وفي نهاية المطاف اصبحت القوّة المتفوّقة لهذا النهج الرأسمالي الجديد للإستكشاف وبناء الإمبراطورية.

ولكنّ الأهم من ذلك، إنّ متاهة القضاء قد أفرزت الأمر الرائع، الذي دفع شركة الهند الشرقية للإحتفاظ بالمحامي الشاب هوخو خورتيُس، الذي تولى عرض قضية قانونية دولية. كان مشبعا بمبادئ الإصلاح البروتستانتي عند الدفاع عن مبرّرات شركة الهند الشرقية للإستيلاء على السفينة سانتا كَترينا، وهي المبادئ القانونية التي من شأنها أن تثبت بشكل أساسي ضرورة هدم النظام الآيبيري العالمي. حين تحقق الأمر بالكامل بعد قرنين من الزمن، كان من شأن أفكاره أن تساعد في قلب فكرة المبادئ التوسّعية لسيادة الإمبراطورية ونظرتها الضيقة لحقوق الإنسان.

إمبراطورية التجارة ورأس المال

جسّد الأدميرال فان هيمسكيرك والمحامي هوخو خورتيس وشركة الهند الشرقية، التي وظّفتهما، الهياج الفكري والبراعة البحرية ورأس المال التجاري، الذي سيجعل أمستردام مركزا من نوع جديد للإمبراطوريّة ومهدا للإبداع في العصر الذهبي الهولندي. في السنوات، التي تلت تأسيس شركة الهند الشرقية في عام 1602، أدّت ديناميكية المدينة الى مجموعة من الإبتكارات المالية، التي سرعان ما جعلتها تدخل التاريخ كما صاغها جان دي فريس "كغرفة للتجارة العالمية". أخذ بنك أمستردام الودائع وحوّل الأموال عبر الحدود الوطنية وجمع فيما بعد كمّيات هائلة من المعادن الثمينة في خزائنه، ممّا جعل المدينة "خزّينة أوروبا للذهب والفضّة." كما أنّ شركة التأمين البحري، عرضت تغطية لعشرات الوجهات الخطيرة، بينما هيّأت صحيفة *Amsterdamsche Courant* لتجّار المدينة معلومات مهمّة حول اسعار البضائع القادمة من الشواطئ البعيدة. كما أسّست أمستردام أوّل بورصة Stock Exchange في العالم، حيث التقى ما يصل الى 5000 تاجرا لتداول أكثر من 400 سلعة في فناء أصبح "المركز العصبي للإقتصاد الدولي بأكمله."[2]

أصبحت مدن هولندا أيضا مراكز فكريّة حيويّة ذات ريادة للمتخصّصين في القانون والطبّ والعلوم واللاهوت والفنون الجميلة. تمّ دمج المستوى العملي للفن والعلم في مجال رسم الخرائط، ممّا جعل أمستردام مركز رئيسيا لإنتاج خرائط دقيقة لتوجيه قباطنة البحار وإبلاغ تجّار المضاربة الحريصين على رأس المال الإستثماري لاستكشافاتهم.[3] على الرغم من قلة عدد سكانها نسبيّا، الذين لم يتجاوز عددهم 100000 نسمة، فإنّ عددا قليلا من المدن في أيّ عصر قد يساوي مدينة أمستردام غير العاديّة في إنجازاتها.

كما قاد اندفاع الهولنديين للإبتكار الى تسخير الرياح بشكل لم يسبق له مثيل وبناء سفن شراعية بحجم 10 أضعاف حجم سفن الكاراڤيل البرتغالية،

وطواحين الهواء القوية التي استنزفت أراضيها الرطبة وعززت الصناعات، وأهم من ذلك قطع الأشجار وتأمين الأخشاب لبناء السفن. واستخدام الأشرعة العملاقة التي يبلغ طول صواريها 90 قدما وعمود الدفع فيها يبلغ وزنه 5 أطنان. وبواسطة العديد من المراوح الشراعية ذات الإطارات بستة شفرات فولاذية لكلّ منها، أمكن لطاقم المنشرة المكون من 4 أشخاص أن يحوّل 60 جذع شجرة الى ألواح موحّدة للحفاظ على ديمومة بناء أسطول التجارة الهولندي الضخم المكوّن من 4000 سفينة عابرة للمحيطات. يمكن القول إنّه بحلول عام 1650، أصبحت منطقة زان القريبة من أمستردام، أوّل منطقة صناعية كُبرى في أوروبا، حيث تواجدت فيها أكثر من 50 منشرة تعمل بقوة الرياح وأكبر حوض لبناء السفن في العالم، حيث يتم أطلاق ما يقرب من 150 سفينة سنويا، بنصف تكلفة بناء السفن الإنكليزيّة. أكثر هذه الهياكل من تصميم هولندي *Fluitschips* وهي سفن رشيقة ثلاثية الصواري بنصف عدد الطاقم المطلوب وذات سرعة مضاعفة في الإبحار وتحمل كلّ منها ما يصل الى 500 طنّا من البضائع.[4]

في الواقع أضحت هولندا أمّة طافية ولديها أسطول صيد ضخم يجول بحر الشمال وهيمنت سفنها التجارية على النشاط من بحر البلطيق الى بحر إسبانيا، وكان لقباطنتها المهارة لاستكشاف طرق جديدة الى آسيا والأمريكتين. فقادت هولندا وانكلترا معا أوروبا بعشرة أضعاف توسيع حمولات الشحن بين 1500 و1780، ورفع الطاقة الإجمالية الى 3.4 مليون طنّا، وما يقرب من 4 أضعاف الكفاءة الإجمالية من حيث الأطنان المحمولة لكلّ بحّار.[5]

كما اصبحت هولندا أيضا أمّة جاثية على ركبتيها للصلاة. إنتشرت أفكار البروتستانتية من ألمانيا المجاورة واصبحت مدن هولندا مراكز للهياج الديني واعتناق المعتقدات الإصلاحية، بخلاف المعتقدات الكاثوليكية الرومانية القاسية وموقفها المترفّت من الإصلاحات. تحت حكم آل هابسبُرگ ومباركتهم، قامت محاكم التفتيش في هولندا عام 1523 بحرق إثنين من الرّهبان

الأوغسطينيين في بروكسل بتهمة الزندقة. وبحلول انتهاء وقت محاكمات التفتيش في عام 1576، تمّ الإعدام العلني لحوالي 1300 بروتستانتيا، وقاسى آلاف آخرون صنوف التعذيب بسبب معتقداتهم الدينية.[6]

وهكذا حمل الهولنديون السلاح وقاوموا خلال حرب الثمانين عاما، الحكم الإسباني ومحاكم التفتيش الكاثوليكية التابعة له. كانت مليشيات المواطنين الهولنديين تبني الأسوار في كلّ مدينة للإستعداد ولصدّ الهجمات التي لا هوادة فيها من قبل قوات المُشاة الأسبانية *Tercio*، التي كانت أقوى قوّة مسلحة في أوروبا. بعد القبض على سانتا كَنّوينا، تحوّلت الحروب من البرّ الى البحر. وبدأ الهولنديون حملاتهم البحرية، التي من شأنها في النهاية تدمير أمبراطوريتي آيبيريا في الخارج. بعد المرحلة الأولى من الحرب الصعبة، والتي كانت معركة من أجل مدن هولندا، نالت الجمهورية ما سُمّي 12 عاما من الهدنة والإعتراف الإسباني الفعلي باستقلالها. ولكن حين استؤنف القتال كجزء من حرب 30 عاما الأوسع في أوروبا، شنّت السفن الحربية الهولندية حملة لعقود بقصد كسر السيطرة البرتغالية على المحيط الهندي والإستيلاء على مزارع قصب السكّر في البرازيل والإستيلاء على الجزر الإسبانيّة في منطقة البحر الكاريبي. كان كلّ ذلك جزء من ستراتيجية محاربة "الإستبداد العالمي" لإمبراطورية آل هَبسبُرگ من خلال مهاجمة "بطنها الإستعماري الضعيف."[7] في تصميمها الجيوسياسي، حاولت الستراتيجية الهولندية أن تحطّم تطويق البرتغال لجزيرة العالم الثلاثية القارية بالإستيلاء على نقاط المفاتيح من غرب افريقيا عبر المحيط الهندي الى إندونيسيا.

لم يقتصر الأمر على هزيمة الجمهورية الهولندية الوليدة في النهاية لتلكما الإمبراطوريتين الأيبيريتين عبر عقود من النضال، لكنّها خلقت ايضا امبراطورية بحتة بشكل رأسمالي من القوة الإمبريالية التي بذرت ببطء النظام العالمي البديل. في غضون عقود قليلة فقط، طوّروا العديد من أساسيات الرأسمالية الحديثة، بما في ذلك الشركات الخاصّة منخفضة التكلفة والتأمين والبنوك

التجارية والأدوات المالية الذكيّة، مثل العقود التجارية الآجلة. بينما كان اقتصاد إمبراطوريتي آيبيريا هجينا يقوم على الإقطاعية و"فرض الخمس الملكي" على مستحقات التجارة العالمية، كانت المستعمرات الهولندية في كلّ من جزر الهند الشرقية والغربية مملوكة من قبل الشركات المساهمة وهي التي تديرها.[8]

أصبحت الجمهورية الهولندية الفتيّة أول دولة علمانية في أوروبا، تضمن حرية العبادة لجميع مواطنيها وتقدم العلم وتحريره من الضغط الديني وترسيخ حكم القانون وفق المبادئ العالمية. أدّى إندماج هذه القوات الى إنشاء الشركات الهولندية البحرية باعتبارها أقوى مؤسسة إمبريالية في العالم يمتدّ مجالها البحري عبر أربع قارات. بالرغم من أنّ هذه الدولة الصغيرة لا يمكن أن تحافظ على مثل هذا الإمتداد العالمي الواسع لأكثر من نصف قرن عابر، كان من شأن الإتحاد الهولندي مع إنكلترا بعد عام 1688 أن يساعد في توجيه الأمّة لتكون أكثر عزما في اتجاه التجارة البحرية المصحوبة بالقوة البحرية، وهي الإتجاهات، التي ستبلغ ذروتها في العصر الإمبراطوري البريطاني.

طمحت الجمهورية الهولندية الى التسامح الديني والمساواة الإجتماعية والحيوية الإقتصادية، ممّا جعلها مقدمة للديمقراطيات الحديثة في أوروبا. ومع ذلك، كانت امبراطوريتها في آسيا والأمريكتين مسألة أخرى، رافضة منح الرعايا المُستَعمَرين نفس الحقوق. طوّرت بريطانيا ازدواجية مماثلة لشكل من أشكال الديمقراطية في الداخل على أساس الحريات المدنية والحقوق الملكية، اثناء الإستحواذ على إمبراطورية عبر البحار على أساس العبوديّة والغزو الإمبراطوري. وهكذا قد يكون الهولنديون والبريطانيّون قد حلوا محلّ الإمبراطوريتين البرتغالية والإسبانية في القرن السابع عشر، لكنّهم أرسوا واتقنوا العديد من السمات الأساسية للعصر الآيبيري.

في اجتماع عقد عام 1618 لحلّ النزاعات اللاهوتية في داخل المذهب البروتستانتي، ظهر الإصلاحي الهولندي سينودس دور درخت، فتبنت الكنيسة

المذهب الكالفيني Calvinist Doctrine ومسألة "الاختيار الألهي" Divine Election، الذي جعل ذلك بعض الأفراد والجماعات مفضلين بحماية الرّبّ. تبعا لهذا المنطق، فإنّ الهولنديين بصفتهم شعب الله المختار God's Elect، يمكن أن يناضلوا بثقة طوال محنة هائلة لنيل استقلالهم عن إسبانيا، بينما ينفون تلك الحرية نفسها للرعايا في الخارج، الذين يفتقرون لمثل تلك النعمة الإلهية. خاصّة وأنّ حكم السينودس حول تحوّل العبد الى المسيحية لا يعني منحه الحريّة، ممّا يؤكّد ضمنيا أخلاق العبوديّة. نتيجة لذلك وخلال جزء كبير من القرن التاسع عشر، هيمن الهولنديون وبضمير مرتاح، على تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي واستخدموا العبيد بدون أجور في مزارع قصب السكّر، وكذا السكان المحليين في جميع انحاء المحيط الهندي سواء في زراعة البهارات في شرق إندونيسيا أو في مزارع جنوب أفريقيا. حتّى في أواخر القرن الثامن عشر، عندما بدأ عصر التنوير، كان الموقف الهولندي مصدر إلهام لحركة إلغاء العبودية في إنكلترا، لكنّ الهولنديين لم يتأثروا به الى حدّ كبير، واستمرّوا في تجارة الرقيق دون قيود، حتى أجبرتهم بريطانيا أخيرا على التوقّف.[9]

صعود النظام الجمهوري

كانت الجمهورية الهولندية التي نشأت عام 1581 مزيجا فريدا من الإقتصاد الديناميكي والطبقات الإجتماعية الصارمة، مع نخبة من 10000 تاجرا، شغلوا مناصب البلدية ومجالس إدارة الشركات، ومثلوا الوجود المأسور في تلك الوجوه القاسية العابسة لمعظم فترة العصر الذهبي، كما تظهره صورهم. كانت أمستردام بالفعل ميناء إقليميا رئيسيًا، ممّا وفّر القوى العاملة والبنية التحتية للإستكشافات اللاحقة. كان هناك 1200 سفينة للشركة الهولندية في تجارة حبوب منطقة البلطيق في عام 1600، ولها في بحر الشمال أسطول صيد ضمّ 1000 سفينة عمل عليها 450 ألف بحّار، أي أكثر من ضعف العاملين في الزراعة الهولندية.

كما أجبرت النهضة الإسـبانية الدمويّة التجّار البروتسـتانت على الفرار من أنتويرْب الى أمستردام طلبا للأمـان، فجلبـوا معهـم مـدينتهم ومـا فيهـا من الإتصـالات والخبرة كسماسـرة في التجـارة الآسـيوية للبرتغـال، مّا جعـل تلـك المدينة الهولندية المركز الجديد للتمويل العالمي.[10]

في وقت لم يتجاوز أكثر من عقد بقليل، توّجت كلّ تلك الخبرة التجارية محاولة هولندية جريئة للسـيطرة على تجارة أوروبا مع آسيا. عندما عادت 8 سفن من رحلة استغرقت 15 شهرا الى الأرخبيل الإندونيسي محمّلة بالتوابل المُربحة، قُرعت أجراس كنائس أمـستردام في انتصار وابتهج المـستثمرون بالربح المفاجئ بنـسبة 400٪. كانـت تلـك عـودة فلكيـة أثارت جنون التكهّـنات التي سرعان ما أرسلت 65 سفينة أخرى الى جزر التوابل الشهيرة في إندونيسيا. في عام 1602، وطّد رجال الدولة البارزون في هولندا مثل تلك المشاريع المتنافسة مع شركة الهند الشرقية الهولندية المسماة *Vereenigde Oostindische Compagnie* واختصارا VOC، التي ستبقى فاعلة لما يقرب من 200 عاما، ودفعت توزيعات أرباح سنويّة منتظمة لما مجموعه 4700 سفينة نقلت ما يقرب من مليون هولنديّا الى آسيا. بموجب ميثاق الولاية الخاص بها ستتمتع VOC لبعض الوقت بالإحتكار التجاري وتغطية نصف الكرة الأرضية من رأس الرجاء الصالح الى مضيق ماجلان. وبتفويض سلطات الدولة لشنّ الحرب وبناء الحصون وإدارة قضايا العدالة والتفاوض حول المعاهدات مع الحكّام الأجانب، أصبحت الشركة، حسب وصف المؤرّخ ماركوس فِنك، "مؤسسة هجينة بوجه جانُس تباعد الفجوة بين التاجر والملك."[11]

في ذروة هـذه الإمبراطوريـة الهولنديـة التجاريـة، التـي جمعـت الإمتـداد العالمي مع ثقافة مؤسسية صارمة، سيطرت مركبات VOC السريعة على المحيط الهندي. أسّست لها موانئ امتدت من كَيب تاون في جنوب افريقيا، وعلى طول ساحل الهند والطريق الى الشرق نحو إندونيسيا. من جهة أخرى، كان لشركة

الهند الغربية كيان مماثل احتل جيوبا في غرب إفريقيا والساحل الشمالي الشرقي للبرازيل ودزينة من جزر بحر الكاريبي والمنطقة المحيطة بجزيرة مانهاتن على ساحل أمريكا الشمالية. لإدارة هذه الإمبراطورية التجارية المتنامية، شيّدت VOC مبنى إداريّا في أمستردام به غرفة اجتماعات بسيطة لممثلي شركات التصدير المشهورين باسم "السادة السبعة عشر" أو *Heeren XVII*. يتم استخدام هذا المبنى المتواضع الآن من حين لآخر كقاعة محاضرات متوسطة الحجم في الجامعة المذكورة. وهذا تناقض يستحقّ الإنتباه للمقارنة مع قصر الملك فِليب الثاني El Escorial بالقرب من مدريد، والذي كان قصرا شاسعا لدرجة أنّ قطعات سلاح الفرسان بكاملها كانت تستعرض في فنائه.

بعد 9 سنوات فقط من تأسيس VOC، حقق الملاح الهولندي هَندرِك بروير انقلابا جيوسياسيّا باكتشافه مسار "رياح الأربعين الهائجة" (خط عرض 40 الى 50 درجة جنوبا). عن طريق ركوب تلك الرياح القوية من رأس الرجاء الصالح مباشرة وعبر المحيط الهندي، تنشر السفن أشرعتها فتدفعها تلك الرياح لتقطع مسافة 6 آلاف ميلا نحو الساحل الغربي للهند، عند مصبّ نهر سوندا. ثمّ تتجه جنوبا ومن خلال مضائق بحر جاوة، اكتشف ملاحو السفن السريعة طريقا مباشرا الى جزر التوابل في إندونيسيا. سمح لهم هذا الطريق البحري الجنوبي تجنّب الحاميات البرتغالية شمال خط الإستواء، من جنوب الهند حتى مضيق مَلَقا. بحلول عام 1619 كانت المراكب الهولندية السريعة قد أنشأت 13 مركزا للتجارة الرئيسية في آسيا، زارتها 246 سفينة، أي ثلاثة أضعاف الرقم البرتغالي خلال نفس الفترة.[12]

على الرغم من أنّ السفن الأولى السريعة الرشيقة للشركة الهولندية، قد أبحرت بحثا عن التجارة، إلّا أنّها سرعان ما حققت أرباحا أكبر بكثير من خلال نهب أصول الإمبراطورية البرتغالية. بعد سنوات قليلة من استيلاء اسطول الأدميرال ڤان هيمسكيرك على سانتا كَترينا، استولت شركة الهند الشرقية

على 30 سفينة برتغالية على الأقلّ. الأكثر أهمية، هو أنّ الهولنديين احتلوا بسرعة معظم جزر التوابل الإندونيسية، التي تحكّمت بها البرتغال لما يقرب من فترة قرن.[13]

حين تحدّى ڤان هِمسكِرك البرتغال واستولى على سانتا كَتَرينا، قوبل ذلك الإنتصار بموقف إيجابي من قبل المحكمة العليا في أمستردام. المعني بذلك، هو ردّ فعل الجمهور على عمل يشبه القرصنة، لكنّ مديري VOC كلفوا المحامي هوخو خورتيُس، الذي كان يبلغ من العمر 21 عاما فقط أن يعدّ دفاعا سريعا لتبرير عملية الإستيلاء. تحقيقا لهذه الغاية، قامت الشركة بتزويده بوثائق وافية



هوخو خورتيُس المحامي والسياسي الهولندي بحدود عام 1640 (Credit: Library of Congress)

من إرشيفاتها لإثبات "الغدر والإستبداد والعداء"، البرتغالي. كما زوّدوه بنسخة من محاضرات رجل اللاهوت الإسباني فرنسيسكو دي فِتوريا، الذي انتقد معاملة إسبانيا المتوحشة للهنود الحمر في الأمريكتين. بدلا من الخوض في جدال قصير لتبرير الإستيلاء على السفينة، عمل خورتيُس لمدة عامين لوضع اطروحة مطوّلة مليئة بالنظريات الرائدة حول السيادة وحقوق الإنسان. بعد 3 سنوات من هذا العمل، قامت VOC في محاولة للتأثير على محادثات السلام الجارية مع إسبانيا، بتشجيع خورتيُس لنشر فصل من دراسته عام 1609 تحت عنوان *Mare Liberum* أي "حرية البحار."[14]

في ذلك المقتطف المطوّل، لاحظ خورتيُس أنّ الله "لم يفرّق بين الكائنات البشرية... وجعلهم في انواع مختلفة وانقسامات متباينة، ولكن شاء أن يكونوا من جنس واحد." كما أنّ الله "قد وضع قوانين معيّنة لم يتمّ نقشها على ألواح من نحاس أو حجر، لكنّها محفورة في عقول جميع الأفراد وأفئدتهم." وهي "ملزمة للكبار والصغار على حدّ سواء"، من الملوك الأقوياء الى الرجال العاديين. تقضي هذه القوانين بأنّ بعض الأشياء "قد خُلِقت من أجل أن يظلّ استخدامها شائعا لجميع افراد الجنس البشري." لقد خلق الله المحيطات التي لفّ بها الأرض وأجرى الرياح فيها لتهبّ بشدّة من كافة الجهات. وهذا "يقدّم دليلا كافيا على أنّ الطبيعة قد أعطت كلّ الشعوب حق الوصول الى كافة الشعوب الأخرى." ونتيجة لذلك، فإنّ "موقع هولندا بشكلها الحالي يعطيها الحقّ في الإبحار الى جزر الهند الشرقية" بموجب بديهية قانون الأمم التي لا يرقى اليها الشكّ، وإنّ "كلّ أمة حرّة في السفر الى الأمم الأخرى للتعامل معها." كان البرتغاليون قد استخدموا المراسيم البابوية "لتبرير استيلائهم الحصري على البحار." كانت تلك المراسيم، بموجب فهم الهولنديين، ناقصة لأنّ "البابا ليس سيد الأرض الزمني، وبالتأكيد ليس لديه السيادة على البحار." كرّر الهولنديون حجّة عالم اللاهوت فِتوريا حول حقوق السكان الأصليين المهدورة وسيادتهم

المسلوبة. أضاف خورتيُس إنّ فعل الأكتشاف لا يعطي البرتغال حق السيادة على جاوة وسريلانكا وممالك الجزر الأخرى لأنّ "لديها الآن ودائما ملوكها وحكوماتها الخاصّة وقوانينها المحليّة." وبموجب "القانون الطبيعي أو البشري الذي تنبع منه السيادة" فإنّه "حتى الوثنيين" هم سادة ممتلكاتهم الخاصة" والسيطرة عليها "هو جرم ليس أقلّ من السرقة والنهب في القانون المسيحي."[15]

كمواطن في ظلّ جمهورية في خضم ثورة مستمرّة ضدّ كافة التبريرات، تجاوز هوخو خورتيُس الإمبراطورية الإسبانية وانتقادات فتوريا المحدّدة. كما أنكر أن تقوم الإمبريالية الإسبانية بتقديم مطالبات شاملة وعالمية بشأن حرمة السيادة الطبيعية على جميع الأمم، المسيحية منها وغير المسيحية. في ذلك العصر الأيبيري، وحين كان خورتيُس شابا مثاليًا غير مساوم، كما في خدمته الدبلوماسية في وقت لاحق، تصوّر بديلا حديثا للنظام العالمي للبشرية جمعاء يكون فيه المواطنون احرارا يتمتعون بسيادة دولهم ويشاركون بالتجارة على قدم المساواة عبر البحار المفتوحة، وحلّ النزاعات باعتبارهم اعضاء في مجتمع دولي وفق القانون الدولي.[16]

كان نفس الإحساس بالعدل الأخلاقي والقدر الألهي، هو الذي ألهم خورتيُس وحافظ على دعم الهولنديين خلال تمرّدهم الشاق ضدّ الإسبان، وجعلهم قادرين على امتصاص الإنتكاسات الكبرى على الأرض لفترة كافية وتحقيق الفوز في بعض الإنتصارات الستراتيجية في البحر. في عام 1607، نظّم الأدميرال فان هيمسكيرك البحرية الهولندية واتجّه صوب مضيق جبل طارق بإمرة 26 سفينة حربيّة. على الرغم من تفوّق الأسطول الإسباني، خسر حوالي 4000 رجلا ودُمّرت كافة سفنه. بالمقابل خسر الهولنديون 100 قتيلا فقط.[17]

بدا أنّ كلي الجانبين قد استُنفذا بعد 30 عاما من الصراع الدامي، الذي دفع إسبانيا الى حافة الإفلاس. دخل الدبلوماسيون في مفاوضات استمرت 14 شهرا وبلغت ذروتها في إعلان هدنه لمدة 12 عاما اعتبارا من شهر نيسان عام 1609.

إنتزع المفاوضون الهولنديون أيضا امتيازا مهما هو أنّ السفن يمكنها أن ترفع اعلام دولها في جميع الموانئ في آسيا وإفريقيا ولا تخضع لمراقبة آيبيريا المباشرة. باختصار، أعطت الهدنة الهولنديين مجالا بحريّا ضيّقا سيوسّعونه قريبا لتصبح جمهوريتهم إمبراطورية عالمية.[18]

حرب الثلاثين عاما

في غضون عقد من هدنة إسبانيا مع هولندا، أبدت أسرة آل هابسبُرگ مزيجا من المؤتمرات السياسية والحماسة الدينية، التي بلغت ذروتها في حرب الثلاثين عاما، التي اصبحت أوّل صراع عالمي حقيقي، مدمّرة أوروبا والقارات الخمس المُتضررة. بعد عقود من التبشير المكثّف من قبل الرابطة الكاثوليكية والإتحاد الإنجيلي البروتستانتي والطائفية المرتبطة بهما، كان المناخ في أوروبا جافا للغاية. في عام 1618، لمّحت الكنيسة الإصلاحية الهولندية على لسان دان سينودس دوردريخت، أنّ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تشبه "عاهرة بابل العظيمة" The Great Whore of Babylon. من ناحية أخرى، أعرب مؤرخ برتغالي عن وجهة نظر موازية مشتركة بين مواطنيه، "أنّ الهولنديين لا يصلحون لشيء سوى حرقهم كزنادقة بائسين."[19]

في نفس العام، حاول وريث أسرة آل هابسبُرگ، الإمبراطور الروماني المقدّس مرة أخرى فرض الأرثوذكسية الكاثوليكية على منطقته في وسط أوروبا. أرسل ممثلين إمبراطوريين للإعلان عن التغيّر في أحد التجمّعات المعروفة باسم محمية براغ Diet of Prague. غضبا من الخسارة المحتملة للحريّة الدينية، ألقى المندوبون البروتستانتيون المبعوثين الإمبراطوريين من نافذة القلعة وألحقت بهم إصابات خطيرة. كان الحادث شرارة الحرب الدينيّة، التي قسّمت أوروبا بين تحالف كاثوليكي ضمّ النمسا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا ضدّ تحالف بروتستانتي ضمّ الدّنيمارك والسويد وهولندا والإمارات الألمانية. بحلول الحرب، التي

تركت 8 ملايين قتيلا، استنفذت إمبراطوريتي آيبيريا، لكنّ نظامهما العالمي، الذي تميّز بحقوق الإنسان المحدودة والسيادة التوسّعية، إستمرّ لفترة 170 عاما أخرى، حتّى مع توسّع الهيمنة الهولندية والبريطانية على مستوى العالم.

عندما بدأ القتال كان الملك الشاب من أسرة آل هابسبُرگ، فِليپ الرابع، متحمّسا للإنضمام الى الصراع الطائفي الكبير، جزئيا لدعم أسرة آل هابسبُرگ باعتباره إمبراطورا رومانيّا مقدّسا، ولكن بشكل أساسي إنهاء التجارة الهولندية الصاعدة، التي سلبت البرتغال من تجارة التوابل ومن إسبانيا ارباحها الكبيرة من الفضّة. لكنّ المستشار الملكي بالتازار دي زونيگا حذّر الملك، "إنّ الدولة الهولندية في أوج عظمتها، في حين أنّ دولتنا غارقة في الإرتباك. أنْ نعدّ أنفسنا بأنّنا قادرون على قهر هولندا هو هدف غير ممكن." ومع ذلك سار جيش إسباني قوامه 24000 جنديا شمالا باتجاه هولندا في مهمة تحقيق ذلك الهدف بالضبط.[20]

خلال معظم العقود الثلاثة، كانت حرب الثلاثين عاما العالمية قد قسمت القتال الى مسرحين منفصلين تماما، هما جبهة وسط أوروپا وجبهة محيطات العالم. على الأرض تحوّل هذا الصراع الطائفي المرير الى عاصفة نارية اجتذبت بشكل أكبر الجيوش لقتال أكثر فتكا من أيّ وقت مضى. عندما انضم ملك السويد گُستافُس أدولفوس وهو أعظم جنرال في عصره، الى الجانب البروتستانتي عام 1630 مع قوته العسكرية المكوّنة من 40000 جنديا، أحدث ثورة في الحرب البرّية. كانوا مسلحين ببنادق خفيفة ذات خراطيش سريعة التحميل. تقدّمت كتائبه عمقا وصاحبها إطلاق نار دوّار قذف وابلا مستمرّا من الرصاص، معزّزا بنيران مدفعية مدمّرة بقذائف الميدان الأخف وزنا والأكثر قدرة على المناورة بالشكل القاتل.[21]

تسبّبت تلك التشكيلات من الحرب البرّية في معاناة لا توصف في مناطق وسط أوروپا. جابت عصابات من المسلحين الأرياف واغتصبت وسلبت وذبحت القرويين كالحيوانات. من بين 8 ملايين قتيلا في تلك الحرب، كان

الأمريكيون فقط 1.8 مليون قتيلا. البقية كانوا من المدنيين. استغرقت الإمبراطورية الرومانية المقدسة قرنا كاملا للتعافي وأوروبا لن تتعرّض لمثل هذا الدّمار مرّة أخرى لما يقرب من 300 عاما.[22]

في تناقض صارخ لمثل الخراب الذي حلّ في المانيا وبوهيميا، تجدّد القتال في المناطق المنخفضة الأقلّ كثافة سكّانية. بدلا من قوافل جند المشاة الطويلة والقاتلة للقوات الهولندية، تقدّم جيش فلاندرز الإسباني عبر جنوب هولندا في منطقة النهر مع صنادل تحمل معدّات بناء ومدفعية ثقيلة لمحاصرة المدن المحاطة بأكثر التحصينات تطوّرا في أوروبا. وتحت غطاء من قذائف المدفعية تمكن الجيش المهاجم عادة من إحداث نفق في أسوار المدينة. بمجرّد وضع براميل البارود في مكانها لتفجير الخرق، قام المدافعون بشكل معقول قبل التفجير بالإستسلام لتجنّب المزيد من القتال. الآن وبعد أن لم يعد المتعصب فيلب الثاني ودوق ألبا بقيادة حرب إبادة ضدّ البروتستانت الزنادقة، جرت معاملة المدن التي تمّ الإستيلاء عليها معاملة إنسانية، وتجنّبت الجيوش ارهاق الدماء في الأرياف الزراعية، وأنقذ القراصنة طواقم السفن التي أغرقوها. لفتح مدينة برَيدا الهولندية المحصّنة، حاصر القائد الإسباني أمبروگيو سپنولا عند اسوار المدينة بجيش تعداده 23000 فارسا لمدة 9 أشهر حتى تفشّت المجاعة بين المدافعين فاستسلموا في النهاية.[23]

جرى تصوير استسلام برَيدا، في الواقع جزء كبير منها، في لوحة الفنان ديگو ڤلاسكيز الضخمة، الموجودة الآن في متحف ديل برادو في مدريد. ظهر فيها سپنولا المنتصر في مقدمة صفوف المشاة المقاتلين Pikemen *Tercio*، في ساحة المعركة، التي يغطيها الدخان. كما ظهر في أسفل اللوحة، وهو ينحني بشهامة ليتقبّل مفتاح مدينة برَيدا من القائد الهولندي المهزوم. غير أنّ ذلك الإنتصار قد استنزف الخزينة الإسبانية، فقرر العاهل في الحال التخلي عن محاصرة المدن والإنتقال الى مهاجمة سفن التجارة الهولندية.[24]

في حين أنّ مثل تلك المعارك الدامية والحصارات، التي طال أمدها، أنتجت الإرهاق والجمود في ساحات المعارك، غطت نوبات القتال في أعالي البحار الممتدة الى مسافات شاسعة، الى تغيير وجه الإمبراطورية العالمية مع القليل من إراقة الدماء نسبيًا. إذا كانت الحرب في أوروبا معركة ضحاياها المدن وأرواح ساكنيها، كانت الحملة البحرية عبارة عن صراع على توابل آسيا وعبيد إفريقيا ومزارع قصب السكّر في البرازيل. لشنّ مثل هذه الحرب في المحيطات، أسّس الهولنديون في عام 1621، شركة الهند الغربية الجديدة، التي بنت أسطولا من 9 سفن "رأسمالية" سعة كلّ منها 500 طنًا.[25]

تزامن اندلاع الحرب مع تعيين شركة الهند الشرقية الهولندية حاكما عاما جديدا لجزر الهند. كان جان بيترزوين كوين هو باني الإمبراطورية الذي لا يرحم، والذي قضى العقد التالي في توسيع التجارة الداخلية للشركة في آسيا وفرض احتكار انتاج جزر التوابل وزاده عن طريق السخرة. في الوقت نفسه، فإنّ مدير شركة الهند قد أنشأ نصف دزينة من المصانع على طول الساحل الغربي لشبه القارة الهندية أثناء التحالف مع البريطانيين لمحاربة البرتغاليين.[26]

من خلال مهاجمة الموانئ البرتغالية المعزولة باستخدام قوّات بحرية متفوّقة، قطعت شركة الهند الشرقية الهولندية ببطء سلسلة جيوب الفيتوريا (الحاميات) البرتغالية Enclaves Portuguese *Feitoria*، التي كانت في يوم ما قواعد عسكرية هائلة. جاءت الضربة الأولى في عام 1622 عندما قام أسطول هولندي/ بريطاني بمساعدة من حلفائهم الفرس، واستولى على البوابة البرتغالية للخليج الفارسي في مضيق هرمز. وبأسطول مكوّن من 85 سفينة حربية، هزم الهولنديون أيضا اسطولا برتغاليا قبالة مستعمرة گوا على الساحل الغربي للهند في عام 1638، ثمّ هاجموا سريلانكا، بالتحالف مع الملك المحلي في حملة دامت 3 سنوات، إستولى فيها الهولنديون على الجزيرة في النهاية. وبعد حصار، تمكّن الهولنديون من الإستيلاء على مَلَقا في عام 1641، فأحكمت سفنهم الحربية

السريعة السيطرة على تلك المضائق الستراتيجية. رغم أنّهم فشلوا في الإستيلاء على الميناء البرتغالي في موزمبيق، وجد الهولنديون بديلا فاستقرّوا في مستعمرة صغيرة في جزيرة قريبة. بحلول عام 1660، استحوذت شركة الهند الشرقية على مناطق المضائق الستراتيجية الثلاث، وبالتالي على التجارة في المحيط الهندي. لقد عزّزوا تصميمهم الجيوسياسي، الذي كان في يوم من الأيام كبيرا شمل مجموعة من الجيوب المعزولة.[27] تكرارا لستراتيجية البرتغال السابقة، اصبحت موانئ السفن السريعة محصّنة وطوّقت "جزيرة العالم" من ميناء الكيب تاون في إفريقيا عبر المحيط الهندي الى سريلانكا ومضيق مَلقا وجزر التوابل في إندونيسيا.

على مدى العقدين التاليين، وصلت الشركة الهولندية ذروة قوّتها وسيطرت على الكثير من تجارة التوابل في آسيا. عن طريق إدخال نفسها في التجارة الداخلية الآسيوية من بلاد فارس الى اليابان، إستفادت VOC في كلّ مكان. أولا استبدلت الحرير الصيني بالفضّة اليابانية، التي اعتادت شرائها بمنسوجات هندية. بعد ذلك استبدلت تلك الأقمشة بالتوابل الإندونيسية، واخيرا شحنت التوابل الى أوروبا للبيع بسعر مرتفع. على عكس البرتغاليين، الذين استخدموا الإكراه لاستغلال التجارة القائمة، إبتكر الهولنديون تعميق الروابط بين الدول والقارات والإستفادة منها بشكل كبير في هذه العملية. بحلول عام 1670، اصبحت السفن الشراعية السريعة هي عالم أغنى شركة لها 40 سفينة حربية و150 سفينة تجارية و5000 موظفا وسلسلة من 20 حامية في آسيا دافع عنها 10000 جنديّا.[28] في وقت متأخّر من عام 1750، كانت هذه التجارة الآسيوية لا تزال تشكّل ربع تجارة هولندا الخارجية.[29]

كانت النتائج التي حققها الهولنديون في جنوب المحيط الأطلسي مختلطة أكثر من ذلك بكثير. في محاولة جريئة للإستحواذ على صناعة السكّر البرازيلية، إستولت شركة الهند الغربية على عاصمة البرازيل البرتغالية في باهيا عام 1624.

على الفور تقريبا، أرسلت مدريد أكبر اسطول عبر المحيط الأطلسي، وهو مكوّن من 56 سفينة تحمل 12500 رجلا، فتمكّنت من استعادة المدينة. بعد سنوات غزت شركة الهند الغربية بيرنامبوكو على مسافة أبعد شمالا واحتلت الساحل الشمال الشرقي للبلاد لمدة ربع قرن من الزمن، حتى تمكّنت ثورة محلية مستمرّة من طردهم أخيرا. عبر جنوب الأطلسي في إفريقيا، إنتهت محاولتهم قصيرة الأجل في احتلال أنگولا حين وصل اسطول الإغاثة البرتغالي من البرازيل. في الواقع، وكما قال أحد اليسوعيين البرتغاليين Portuguese Jesuit، "بدون أنگولا لا عبيد، وبدون العبيد لا برازيل." لكنّ المناورات الهولندية حول خليج غينيا في غرب إفريقيا كانت أكثر نجاحا. فمثلا، اكتسبوا موقعا محوريّا في تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي من خلال الإستيلاء على الحامية البرتغالية في الميناء، وهي غانا حاليا.[30]

استخدمت الشركة الهولندية هذا الحصن لمدة عقدين من الزمن لتبعث ما يصل الى 5000 إفريقيا مُختطفا كلّ سنة الى مزارع قصب السكّر في عشرات الجزر الكاريبية، التي استولى عليها البريطانيون والهولنديون والفرنسيون بعد طرد الإسبانيين منها. بعد ذلك تلاشى الدور الهولندي في تجارة الرقيق ليصل الى المركز الرابع وستهيمن البرتغال مرة أخرى على حركة المرور خلال النصف الأوّل من القرن الثامن عشر وستشحن 600000 أفريقيا مختطفا للعمل في مزارع البُن وقصب السكّر المزدهرة في البرازيل. حيث أنّ الوجود الهولندي في تراجع في منطقة المحيط الأطلسي، شكّلوا جمعية لإستنجار سورينام عام 1682. وعلى مدى القرن التالي، تمّ بناء ذلك "الساحل البريّ" ومنطقة جزر البحر الكاريبي المجاورة وجعلوها مجمّعا يشمل 700 مزرعة يعمل فيها 85000 عبدا وتنتج 100000 طنا من السكّر سنويّا.[31]

من حيث الجوهر الإقتصادي للإمبراطورية، فإنّ الكثير المذهل من القتال كان ثانويا بالنسبة للإتجاهات طويلة الأمد في التجارة العالمية. خلال حرب

الثلاثين عاما الطائفية، استخدم التجار الهولنديون تطوّرا مثيرا للإعجاب هو دور مركزهم المالي والتجاري والشحن في الإمبراطورية الإسبانية ضدّها، للفوز بحصّة متزايدة من الفضّة القادمة من الأمريكتين. بين الأعوام 1616 لغاية 1661، وعندما احتاجت إسبانيا الى كلّ قطعة من السبائك للحفاظ على إطالة أمد مجهودها الحربي، إنخفض المبلغ الذي وصل الى مدريد من 50 مليون بيزو الى 10 ملايين بيزو فقط. ومع ذلك فإنّه في نفس الفترة ارتفعت الفضّة في الواقع من 50 مليون بيزو الى ما يقرب 80 مليونا، وذهبت معظم تلك الزيادة الى التجار والمستثمرين الهولنديين. كانت مثل هكذا خسائر هي التي أفقرت التاج الإسباني، ممّا جعل من المستحيل على مدريد مواصلة حربها ضدّ القوى البروتستانتية. في الوقت ذاته وعلى النقيض من ذلك، استخدمت دار المسكوكات الهولندية إمدادات الفضة من إسبانيا لإنتاج عملات معدنية وفيرة لاستخدامها في التجارة الداخلية والتجارة الخارجية النشطين، حين كان هناك توفّر نقدي للمواطن الهولندي ضعف مثيله في إنكلترا.[32]

مع دخول حرب الثلاثين عاما عقدها الأخير، عانت إسبانيا من سلسلة من الإنتكاسات المنهكة، التي أجبرتها على رفع دعوى من أجل السلام. إستولى الجيش البروتستانتي الألماني على مدينة فايزَخ في منطقة نهر الراين وقطع "الطريق الإسباني" الذي تعوّدت قوّات المشاة *Tercios* استخدامه منذ فترة طويلة للتحرّك طوال فترة سلطة آل هابسبُرگ والتقدّم من إيطاليا الى هولندا. لقد أُجبِر الإسبان الآن على التحرّك عن طريق البحر. تمّ إرسال أسطول إسباني مكوّن من 70 سفينة حربية و30 وسيلة نقل أخرى على متنها 24000 جنديًا لتعزيز قوّات فلاندرز. لكنّ أسطولا هولنديا مكوّنا من 96 سفينة حربية و9900 بحّارا بقيادة الأدميرال مارتِن ترومب هاجم الأسطول الإسباني وهو راسٍ في المياه الإنكليزية المحايدة. مع فقدان سفينة واحدة و100 رجلا فقط، أغرقت القوّة الهولنديّة حوالي 20 سفينة عسكرية إسبانية وقتلت 7000 محاربا. كانت تلك ضربة موجعة حطّمت معنويّات البحرية الإسبانية.[33]

بينما استمرّت الحرب، بدأت إسبانيا نفسها في الإنقسام تحت ضغوط من التعبئة المستمرّة للرجال والمال. في عام 1640، إنتفضت البرتغال وكَتالونيا ضدّ سلطة الملك. وبعد عام إشتبك الجيش الملكي الإسباني مع قوّة فرنسيّة كَتالونية مشتركة على منحدرات قلعة مونتجويك خارج أسوار مدينة برشلونة واضطرّ الى الإنسحاب بعد تكبّد خسائر فادحة. في غضون ذلك دخلت القوات البرتغالية لشبونة المتمرّدة على الحكم الإسباني واستولت على القصر الملكي واعلنت الدوق براگانزا ملكا على البلاد باسم جواو الرابع. نصح رئيس الوزراء الإسباني، الدوق القارس ملكَه قائلا، "الله يريدنا أن نصنع السلام لأنّه يحرمنا بشكل واضح ومُطلق من جميع وسائل الحرب."[34]

مثلما كانت حرب الثلاثين عاما طويلة ومعقّدة، كان الأمر كذلك بالنسبة للمفاوضات، التي وضعت نهاية لها. بعد 3 سنوات شارك أكثر من 100 وفدا في صياغة سلام وَستفاليا Peace of Westphalia، الذي أنجِز وتمّ التوقيع عليه عام 1643. جرى حلّ بعض القضايا الإقليمية المُعقّدة وفق المبادئ العريضة المتقدّمة للعلاقات الدولية. بصرف النظر عن إنهاء الأعمال العدائية، اعترفت التسوية السلمية باستقلال أقاليم هولندا المتحدة والقبول بالتسامح الديني كقاعدة جديدة في أوروبا. على الرغم من أنّ الإتفاقية لم تخلق دولا قومية ذات سيادة علمانية بالمعنى الحديث، فقد أحرزت تقدّما كبيرا في هذا المضمار من خلال تقويض السلطة العالمية لكلّ من البابا وإمبراطورية الرومانية المقدّسة. لقد أغضب قبول البروتستانتية البابا إنوسنت العاشر وأسقط في يده لمعارضة صلح وستفاليا، لكنّه أصرّ على وصفه بأنّه "لاغٍ وباطل، غير صالح وظالم غير عادل وملعون فاسد غير عاقل وخالٍ من المعنى والتأثير في جميع الأوقات." مع نهاية دور الفاتيكّن كمركز للحكم القضائي بحكم الأمر الواقع، عملت الدول الأوروبيّة منذ تلك اللحظة فصاعدا على حلّ خلافاتها من خلال الإتفاقيات الدبلوماسيّة المرتكزة على صيغة متطوّرة من القانون الدولي.[35]

في حين أن صُلح وَستفاليا قد حسم الصراعات الداخلية في أوروبا، إلّا أنّ المعاهدات الجديدة لم تمسّ بالمبادئ الأيبيرية الإساسية لسيادة الإمبراطوريّة التوسّعية وحقوق الإنسان المحدودة. لم تعامل تلك الإتفاقيات فقط المستعمرات وعبيدها على أنّهم غنيمة، لكنّها فشلت الى حدّ كبير في حلّ الصدامات البحرية، التي اجتاحت محيطات العالم. بموجب معاهدة مونستر Treaty of Münster، التي وُقّعت عام 1648 أيضا، إعترف التاج الإسباني رسميّا باستقلال هولندا وتنازل عن جميع الأراضي الشرقية لها، في حين استولت شركة الهند الغربية على البرتغال. بحلول ذلك الوقت، الذي استعادت فيه سلالة برَكَانزا الجديدة في لشبونة استقلال البلاد بعد 60 عاما من الحكم الإسباني، رفضت قبول خسارة مستعمراتها في ما وراء البحار. بمجرّد إزالة محادثات السلام التهديد المُباشر المتمثّل في هجوم إسباني، إستأنفت البرتغال عملياتها الهجوميّة ضدّ الهولنديين، فاستعادت أنگولا بسرعة، إضافة الى جزيرتين قبالة الساحل الغربي لافريقيا، هما ساو تومي وبرنسيبي. كما اندلعت مقاومة محليّة قويّة مماثلة في البرازيل لطرد الهولنديين من بيرنامبوكو واستعيدت مزارع قصب السكّر، التي من شأنها أن تثبت قريبا الخلاص الإقتصادي للبرتغال.[36]

بحلول ستينات القرن السادس عشر، أضطُرّت البرتغال المُنهكة بسبب عقود من الإضطرابات الى إجبارها على التوصّل الى تسويات دبلوماسية مع أعدائها الكثيرين عن طريق دفع الأموال للهولنديين تعويضا للتنازل عن مطالباتهم المتبقّية في البرازيل، إضافة الى التنازل عن سبتة الجيب البحري في شمال إفريقيا الى إسبانيا وقبول فصل المملكتين. كما تطلب الوضع توطيد تحالف مع ملك إنگلترا، چالز الثاني، من خلال زواجه من أميرة برتغالية من سلالة برَكَانزا، ودفع مهر سخيّ. شمل هذا المهر ميناء بومبَي في الهند وطنجة في المغرب، إضافة الى 300000 جنيها إسترلينيّا.[37] توجد الآن 3 لوحات في متحف الصور الوطني في لندن، تكشف تلك التضحية من جانب البرتغال

وأميرتها. بجوار لوحة الملك چالز الثاني ذي الخدّين المجعّدين نتيجة سنوات من العيش الباذخ المُنحوّر، هناك لوحة لزوجته الأميرة ذات السلوك التقي كاترين برّكانزا واللوحة الثالثة لعشيقته الممثلة نَل گوين، وقد كشفت عن صدرها العاري تقريبا.[38]

في أعقاب حرب الثلاثين عاما

بحلول نهاية حرب الثلاثين عاما سنة 1648، كان مركز الإمبراطوريّة الأوروبية قد انتقل بشكل حاسم من الجنوب الى الشمال، أي من آيبيريا الى شواطئ بحر الشمال. علاوة على ذلك، بلغت الإمبراطورية البحرية الهولندية شكلها النهائي، الذي ستحتفظ به لمعظم القرن التالي. بعد أن حصروا البرتغاليين في جيوبهم على ساحل المحيط الهندي والأسبانيين في مانيلا، أصبحوا هم أسياد المحيط الهندي من جنوب إفريقيا حتّى إندونيسيا. غير أنّهم في المقابل واجهوا منافسة قويّة في المحيط الأطلسي، من قبل إسبانيا في منطقة البحر الكاريبي، ومن قبل البرتغاليين في جنوب المحيط الأطلسي ومن قبل بريطانيا في بحر الشمال وشمال الأطلسي. رغم أنّ هذه الضغوط كانت هائلة، إلّا أنّ الهولنديين تشبّثوا بمستعمراتهم في جنوب البحر الكاريبي في أروبا وكوارسالو والعديد من الجزر الأخرى، مع الحفاظ على أحدث مستوطناتهم حول مانهاتن في نيويورك حاليا. وعلى الرغم من أنّها كانت سريعة الزوال، فإنّ انتصاراتهم في حرب الثلاثين عاما قد ضمنت وصولهم الى مستوى أكبر دولة تجاريّة في العالم، وفّرت ارباحا كثيرة لتمويل عصر الحوكمة الذهبي والتجارة والفنون، التي جعلتهم اسلاف نوع جديد من المجتمع العلماني الجمهوري وشكل جديد من أشكال الإمبراطوريّة الرأسمالية والتجارية.[39]

إنّ سرعة الصعود الهولندي قابلها إنحدار شديد في آيبيريا. بحلول الوقت الذي حدثت فيه تلك العقود من الحرب، كانت إمبراطورية البرتغال قد تمّ تقليصها الى حدّ كبير جغرافيا واقتصرت مصادر تمويلها فقط على مزارع قصب

السكّر البرازيلية التي عملت بجهود الأسرى المُختطفين من أفارقة أنگولا. كان من الواضح أيضاً أنّ هيمنة إسبانيا العسكرية على أوروبا قد أوشكت على نهايتها. ولكن على الرغم من الإنتكاسات المؤلمة كانت مدريد لا تزال تحافظ على وحدة أراضي امبراطوريتها في الأمريكتين والفلبين، والمحافظة ايضاً على وجودها البحري *Mare Clausum* في المحيط الهادئ. غير أنّ أتفاقية Münster للسلام لعام 1648 قد أزالت الحظر المفروض على التجار الهولنديين، ممّا أتاح لهم الوصول الى أسواق التجارة الإسبانية وتسريع تدهور الإقتصادي لمدريد الى مرتبة ثانوية. سرعان ما سيطر الشحن الهولندي الفعّال على التجارة الخارجية لإسبانيا وأغرق البلاد بواردات السلع الأساسية وتسهيل تصدير الفضّة الى أمستردام.[40] فقدت كلّ من لشبونة ومدريد نفوذهما كمركزين حضاريين للإمبراطوريتين، ولكنّ مستعمرات كلّ منهما في أمريكا اللاتينية كانت مزدهرة وستبقى مربحة لعدة قرون قادمة. باختصار، إنّ الحرب التي طال أمدها وبكلّ القتل والدّمار الذي أوقعته، كسرت شوكة القوّة البارزة للإمبراطوريتين الآيبيريتين، لكنّها لم تحفّزهما للإنتقال الى نظام عالمي جديد.

في الواقع، أنّ الرؤية الآيبيرية للسيادة التوسّعيّة والإستحواذ على المناطق عن طريق الغزو والمحيطات عن طريق الإستكشافات، ستستمرّ في ظلّ الهولنديين والهيمنة البريطانية، ممّا أوضح قدرة تلك الأنظمة العالمية على البقاء على قيد الحياة في ظلّ الإمبراطوريّات، التي أوجدتها.[41] في القرن الثامن عشر، وسّع الهولنديون استعمارهم في آسيا عبر جاوة، والبريطانيون عبر الهند. كما أنّ عنف الإثنين ضدّ سيادة الدول الأصلية سوف يقترب من أيّ شيء فعله قبلهم الآيبيريون في إفريقيا أو الأمريكتين. بفضل القرارات البريطانية والهولندية تمّ تجريد رعايا المستعمرات من الحريّات المدنية والمضي في تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي الى آفاق جديدة، واستمر التسلسل الهرمي لعدم المساواة البشرية، بكل قسوته ومآسيه.

الإنحدار الهولندي والتوسع الإنكليزي

كان العصر الذهبي الهولندي خلال القرن السابع عشر غير عاديّ بكثافته واتساعه. أضحت أمستردام عاصمة هولندا المتحدة وتجارتها العالمية، وتمتّعت بدفعات من الإبداع في كلّ مجال تقريبا من الجهد البشري. شملت هذه التمويل والتجارة والصناعة والشحن والحرب والطبّ والعلم والحكم والقانون والفنون. برز فيها رسّاموها بمن فيهم رامبرانت ڤان راين وفرانس هالز ويوهانز ڤيرمير، الذين كانوا من بين أفضل الفنّانين في أوروبا. كانت أمستردام أيضا المحور المزدهر لسوق الفن الأوروبي. سيطر الشحن الهولندي على التجارة العالمية وتدفّقت الشحنات الفنيّة الى أمستردام وروتّردام، فاصبحت البلاد العاصمة المالية للعالم. وبفعل تلك الثروة، أنشأت هولندا 5 جامعات جديدة بما فيها جامعة لايدن، التي التحق بها 11000 طالبا بين الأعوام 1626 1650، أي أكثر من الذين التحقوا بجامعة كيمبرج في إنكلترا أو جامعة لايبزش Leipzig في ألمانيا.[47]

ومع ذلك، فإنّ انحدار القوة الإمبريالية الهولندية كان بمثل سرعة صعودها. بعد نصف قرن فقط من وصول البلاد الى ذروتها حوالي 1650، فقدت هولندا قيادتها العالمية بسبب مزيج من التغيّرات المحليّة والإنعكاسات الدولية. في أواخر القرن السابع عشر حدثت تغيّرات ذات أهميّة خاصة حين تحوّلت النخبة الهولندية من المغامرات البحرية ذات الخطورة العالية الى استثمارات مالية أكثر حذرا. لم تعُد الثروة فقط تتركّز في أيدي الأوليگاركية المالية Financial Oligarchy، لكنّ أكثر من نصف رأس مالهم اصبح استثمارا في سندات حكومية آمنة. لقد راكمت هولندا الكثير من رأس المال ممّا سبّب انخفاض اسعار الفائدة الى الصفر تقريبا، وهو ما أجبر المستثمرين على نقل الأموال الى الخارج. بحلول ثلاثينات القرن الثامن عشر، إمتلك المستثمرون الهولنديون الأثرياء ما يقرب من ربع الدين العام لإنكلترا وفي نهاية القرن كان لهم ربع كامل من الدين

القومي للولايات المتحدة أيضا. في غضون ذلك، إنخفض نصيب الهولنديين من الشحن الأوروبي من 40٪ عام 1650 الى 12٪ فقط [43] في عام 1780.

صاحب تلك التغيرات ما حدث "لأسلوب الحياة القديم القاسي والمتقشف" الذي كان علامة قباطنة التجارة الهولندية، وهو فسح المجال لأسلوب حياة جديدة. فمثلا نجل الأدميرال مارتن ترومب اصبح قبطان سفينة وأكل سمك الرنجة المخلل Pickled Herring مشاركة مع بحارته ومات وهو يقاتل الأنكليز. وصل الأبن كورونيلس لرتبة أدميرال، لكنّ صورته تكشف عن خدود ورديّة ملائكيّة لأرستقراطي تغذّى جيّدا بدلا من الخطوط، التي تخلقها الظروف الجويّة في العادة لوجوه البحارة، بما يشبه خطوط وجوه كلاب البحر Weathered. تزوّج كورونيلس من وريثة ثريّة وامضى السنوات، التي سبقت مقتله في عام1691 متنقلا بين منزله الأنيق في أمستردام وضيعة ريفيّة فخمة في ترومبنبرُگ، قام بتزيين جدرانها بلوحات كبيرة لمآثره ومعاركه البحرية. بحلول ذلك الوقت، أصبحت الملاحة الهولندية وصناعة بناء السفن والبراعة البحريّة بتدهور ملحوظ. بالطبع، لدى الإقتصاديين تفسيرات أكثر تجريديّة لأسباب تلك الأزمة التي انهت الإنسجام الكلاسيكي بين التجارة والصناعة والزراعة وقطاعات الصيد. لكنّ أولئك الإقتصاديين يتّفقون على "عواقبها العميقة"، أي إنخفاض مطلق في الناتج الإجمالي للإقتصاد الهولندي. [44]

والأسوأ من ذلك هو الإندلاع المفاجئ للحرب البحرية المستمرّة مع إنكلترا. تقريبا وفي أقرب وقت بعد انتهاء حرب الثلاثين عاما مع أسرة آل هابسبُرگ في عام 1648، إنزلقت القوّتان البحريتان الصاعدتان في أوروبا نحو صراع خاصّ لبسط سيطرتهما. تحدّى الإنكليز الهيمنة التجارية الهولندية في بحر الشمال لعقود، وعلى وجه الخصوص في مجال صيد الأسماك المزدهر، الذي كان مصدر توترات مع إنكلترا. أظهر كتاب الباحث البريطاني جون سَلدَن *Mare Clausum* الذي نُشر بدعم من الرعاية الملكية، واستهدف دحض تلك الحجّة في مسألة حريّة البحار. لقد قضى الفقيه الهولندي هوگو گروتيُس 30 عاما في وقت

سابق لمناقشة الموضوع في كتاب عنوانه *Mare Liberum*. طرح سَلدَن رأيا مخالفا مفاده أنّ "البحار حسب قانون الطبيعة أو الأمم، ليست مشتركة بين جميع الناس، ولكنّها قابلة للسيطرة الخاصّة." ينطبق مبدأ البحر المُغلق، قبل كلّ شيء، على المياه المُحيطة، حسب قول سَلدَن، ببريطانيا "وجعلها ملحقة دائما ولا تنفصل عن الإمبراطورية البريطانية."[45] وباستثناء هذين المؤلفين، اللذين اختلفا بالرأي تماما بشكل واضح، كان التلويح بمثل تلك الطروحات المطوّلة محاولة مبكّرة لاستخدام علمانية القانون الدولي، على أساس العقل وليس السلطة البابوية، كوسيلة لحلّ أو تبرير الخلافات بين الدول.



كورونليس ترومب الأدميرال الهولندي أثناء الحروب الإنكلوهولندية عام 1675 (Credit: Alamy)

في أواخر القرن السابع عشر خاضت هاتان القوتان ثلاث معارك في بحر الشمال، استمرّ كلّ منها لعدة سنوات وتميّز بالمعارك البحرية الدموية والقرصنة المربحة. كانت بريطانيا عاقدة العزم للتشبّث بمبدأ خصوصية البحار *Mare Clausum* فوق بحر الشمال، وأقرّ البرلمان البريطاني عام 1651 قانون الملاحة العام باستثناء جميع التجار الأجانب وفرض ضريبة على كافة السفن الهولندية التي تصطاد في المياه "الإقليمية الإنكليزية." بعد عام أغلق البريطانيون القنال الإنكليزي بوجه الشحن الهولندي، ممّا أثار موجة من عمليات القرصنة وغارات سرعان ما تصاعدت الى حرب مفتوحة. كانت نتيجة الحرب الأولى تعادلا. بعد أن خاضت القوتان سلسلة من المعارك البحرية المدمّرة في البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال، أجبرتا في النهاية على إبرام هدنة أنهت الحرب الإنكلو هولندية الأولى، حيث لم يكن أيّ من الجانبين مستعدا لانفجار قتال بحري شامل.[46]

ومع تصاعد سباق التسلح البحري خلال العقدين التاليين، إنخرطت الأساطيل الأكبر حجما في معارك أكثر تدميرا من أيّ وقت مضى. في عام 1621 كان لدى البحرية الهولندية 9 سفن من سعة 500 طنّا. خلال الحرب الأولى كانت السفن البريطانية مثل *HMS Sovereign of the Seas*، التي تزن 1500 طنا ويحميها 104 مدفعا، لها ميزة ملحوظة بالمقارنة مع السفن الهولندية المشار إليها. استجابة لذلك، بنى الهولنديون اسطولا قتاليا خاصّا بهم بقيادة *De Zeven Provinciën* وكانت سعة السفينة 1500 طنا وتحمل 80 مدفعا.[47] خلال هذه العقود نمى حجم السفن الحربية الى 10 أضعاف ما كان عليه حجم سفن كارا فيلا دي أرمادا البرتغالية Portuguese *Caravela de Armada* التي سيطرت على البحار في فترة عام 1500، حين استُخدِمت قوة الرياح لتسيير السفن الحربية والتجارية.

عندما استؤنفت الأعمال العدائية في الحرب الإنكلو هولندية الثانية، كانت تلك الإتجاهات واضحة بشكل كبير خلال يوم قتال سَينت جَيمس في شهر تموز

من عام 1666 حين اشتبك الأسطول الإنكليزي المكوّن من 89 سفينة حربية مع الأسطول الهولندي المكوّن من 88 سفينة حربية، أبحرت في "خطّ معركة" هائل امتدّ لحوالي 9 أميال على طول القنال الإنكليزي. سُمِع دويّ المدافع لمدة يوم كامل. وبعد شهر داهم أسطول إنكليزي ممرّ Zuiderzee المائي شمال أمستردام وأحرق 140 سفينة تجارية هولندية، إضافة الى تجريف مدينة ساحلية. ردّت البحرية الهولندية الغاضبة في العام التالي بشنّ غارة Medway الشهيرة وأحرقت غالبية سفن الأسطول البريطاني الراسية في ميناء Chatham. تسبّبت تلك الواقعة في ضربة مدمّرة للمعنويات الإنكليزية وانهاء تلك الجولة من الحرب البحرية بشكل فعّال.[48] باختصار كانت هذه الحرب الثانية كارثة مُتبادلة.

بدأت الجولة الثالثة من تلك الحروب المُدمّرة، حين دعا الملك الإنكليزي چالز الثاني الملكَ الفرنسي لويس السابع عشر الى عقد حلف رسمي مناهض لهولندا. إنضمت فرنسا، التي كانت تضمّ أقوى جيش في أوروبا، الى إنكلترا وقامتا بهجوم بحري برّي على شكل كمّاشة لسحق الجمهورية الهولندية الصغيرة. كما هو الحال في العادة، تقدّم نحو 150000 جنديًا فرنسيًا بلا هوادة عبر هولندا. فضّل العديد من الإثرياء الهولنديين الإستسلام، ولكن تصاعدت في وجههم حركة احتجاج جماهيري قادها الأمير الشاب ولْيَم أورنج، الذي ترقى الى منصب اللورد الملازم شديد العزم المُصمّم على "الموت... دفاعا عن الخندق الأخير." فتح الهولنديّون سدودهم لإغراق أميال من الحقول وبالتالي تشكيل "خط مياه" لصدّ الهجوم الفرنسي على أمستردام. حين تجمّدت المياه في ذلك الشتاء، تقدّم حوالي 11000 جنديا فرنسيًا لمسافة 12 ميلا وغرق الكثير منهم عند ذوبان الجليد. في الوقت نفسه، خاض الإنكليز 3 معارك بحرية ضخمة ضدّ البحرية الهولندية في بحر الشمال في الصيف التالي. اشتبك الجانبان وكان اسطول كلّ منهما يتألف من 130 الى 150 سفينة. كانت القوّة النارية المشتركة للأسطولين غير مسبوقة واستخدم فيها 10000 مدفعا. قاد الأدميرال الأسطوري

ميشيل دي رويتر تلك المعارك البحرية وكسر الحصار البريطاني، بهدف تجويع أمستردام وإجبارها على الإستسلام وإنهاء أيّة محاولة لإنزال جيش من الغزاة.[49]

كشفت اللوحة البانورامية للمعركة الأخيرة حول جزيرة تكيسل الإرتباك وحتى الفوضى خلال المعركة على مستوى سطح البحر. وسط الدخان المتصاعد الكثيف الناجم عن إطلاق النار والسفن المحترقة، كان الأدميرال كورونليس ترومب، يشرف على اطلاق نار مدافعه الثمانين والعلم الهولندي يرفرف فوق رأسه، نحو السفينة البريطانية HMS Charles، التي ردّت بإطلاق نيران 96 مدفعا. على الرغم من أنّ الهولنديين قد كسبوا المعركة رسميًا، لكنّ هذا كما وصف المؤرّخ تيموثي بروك. "إنتصار باهظ الثمن لم تكن الجمهورية الهولندية قادرة على تحقيقه والتعافي بالكامل من نتائجه." وهو ما أجبرها في النهاية على الدخول في تحالف غير متكافئ مع بريطانيا العُظمى. مع الهولنديين وهم في ذروة مجدهم الإمبراطوري والأنكليز في طريقهم للصعود، أمكن لكليهما أن يلحقا الضرر ببعضهما البعض، ولكن لم يكن بمقدور أيّ منهما أن يلحق الهزيمة أو يُدمّر الآخر تماما.[50]

وعلى أيّة حال، كان هناك مقطع ختامي ساخر أضفى أهمية دائمة على تلك الحروب الأنكلو هولندية المنسية بطريقة أخرى بلغت ذروتها في ما عرّفها المؤرّخ جونثن إسرائيل بأنّها "واحدة من أعظم الأحداث في تاريخ العالم." في الوقت الذي استمر فيه القتال لتهديد بقاء هولندا وسيادتها، سعى وُليَم أورنج، الذي كانت زوجته ماري الأبنة الكبرى لملك إنكلترا، الى تحالف دائم من خلال محاولة محفوفة بالمخاطر لكنّها وضعت زوجته على العرش الإنكليزي. في نفس الوقت كان النبلاء البروتستانت في إنكلترا يخشون أنّ الملك جَيمس الثاني كان يُخطط لإعادة الكاثوليكية للبلاد، فدعوا وُليم أورنج البروتستانتي الهولندي لغزو بلادهم. مع فقد نصف رأس المال الإستثماري للبلاد منذ الغزو الفرنسي الكبير وقليل من فرص التعافي، قرّر تجّار أمستردام استثمار مواردهم

المالية الهائلة وجعلها في متناول وُليم لكي يتمكن من الوصول الى العرش الإنكليزي. بلغ هذا التقارب الإستثنائي للمصالح ذروته في ثورة مجيدة عام 1688. بعد تعبئة أذهلت سرعتها الدبلوماسية المراقبين، عبر وُليَم القنال باسطول يزيد عن 400 سفينة نقل و53 سفينة حربية تحمل 40000 رجلا بينهم 21000 رجلا من القوّات الهولندية مع خيولهم ومدفعيتهم. حين وقفت الأمواج على ظهور السفن تشكّل موكب صاحبه نفخ الأبواق وهبوط الجيش الهولندي دون معارضة على الساحل الجنوب الغربي لإنكلترا. حشد الملك جَيمس الثاني جيشا للدفاع عن مملكته، لكنّ العديد من قوّاته انشقّت وانضمّت الى الهولنديين، ممّا أجبره على الإنسحاب دون قتال. بعد شهر فرّ الملك جَيمس الثاني الى فرنسا وسار وُليَم أورنج في شوارع لندن دون معارضة. مع وجود العرش الشاغر الآن توّجَت ماري ملكة على البلاد بالمشاركة مع زوجها وُليَم في شهر نيسان التالي في كنيسة وستمِنستر آبي، تحت حراسة القوّات الهولنديّة.[51]

كشرط لتتويجهما، سنّ البرلمان قانون الحقوق Bill of Rights لعام 1689، الذي أصبح "الوثيقة الدستوريّة الأساسيّة" للبلاد وذا الأهمية التاريخية الدائمة لتلك الأحداث. لأوّل مرّة اصبح كافة البريطانيين من الرعايا والبرلمانيين يتمتعون بحماية رسمية "للحقوق والحريّات القديمة،" بما في ذلك الحق في تقديم الإلتماس والإجراءات القانونية الواجبة للغرامات أو السجن والمحاكمة أمام هيئة محلفين والحماية من العقوبات "القاسية وغير العاديّة" والإنتخابات الحرّة والتسامح الديني وحريّة التعبير والنقاش في البرلمان. جعلت التشريعات اللاحقة دعوة البرلمان مسألة تخصّ النظام الأساسي، بدلا من كونها امتيازا ملكيّا وفرض قيود تشريعية على الملكية وإنهاء طابعها الأسري. على الرغم من أنّ العديد من البنود كانت خاصّة بتلك الأزمة السياسيّة، إلّا أنّ الإعلان المذكور أصبح فيما بعد نموذجا لمشروع قانون الحقوق في دستور الولايات المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة والإتفاقية الأوروبيّة لحقوق الإنسان.[52]

إقترن زواج التيجان الملكية بدمج رأس المال وصناعة السفن. بموجب اتفاق تمّ التوصّل اليه عند تتويج وِليَم وماري، هو التحالف البحري الذي سيوفّر السفن الحربية لحروب مستقبلية بريطانية/ هولندية بنسبة 5 الى 3. وهي ما أطلق عليه المؤرّخ جَونثَن سكَوت "الثورة المالية الإنكلو هولنديّة." شهد عهد وِليَم أيضا تحديث الإقتصاد البريطاني على طول الخطوط الهولندية وتمثّل ذلك في تأسيس بنك إنكلترا وبورصة لندن والعديد من البنوك الخاصّة وشركات التأمين والشركات المساهمة. لم يقتصر الأمر على اتّباع البريطانيين للهولنديين بجعل الديون الوطنية من شأن الدولة وليس مسؤولية ملكيّة، لكنّهم ذهبوا الى أبعد من ذلك من خلال جعل الإدارة المالية لبنك إنكلترا مركزيّة. ارتفعت عائدات الحكومة البريطانية في القرن التالي من 3٪ من الدخل القومي الى 20٪، ممّا جعل الإنكليز أكثر الأشخاص دفعا للضرائب في أوروبا بعد الهولنديين والسماح للدولة في الإقتراض من أجل الحرب دون خوف التخلف عن تسديد الديون. وعلاوة على ذلك وبحلول عام 1760 حصل المستثمرون الهولنديون على ثلث الأسهم في بنك إنكلترا وشركة الهند الشرقية البريطانية. بعد 20 عاما أصبح أكثر من 80٪ من الإستثمار الأجنبي في إنكلترا هولنديا ووصل الى 335 مليون گلدرز Guilders. ساعد مجموع هذه التغيّرات في جعل بريطانيا أمّة تجارية لأوّل مرّة في تاريخها، حيث ضاعفت حصتها التجارية في الخارج 4 مرّات على الأقلّ خلال القرن الثامن عشر.[53]

بالإضافة الى ذلك، وخلال الحروب الإنكلو هولندية سيطر الأسطول البريطاني على مانهاتن وجرى تغيير اسم المدينة من نو أمستردام الى نو يورك وتوطيد سيطرة إنكلترا على معظم ساحل أمريكا الشمالية من نوفاوندلاند الى كارولاينا. علاوة على ذلك، فإنّ السفن البحرية العادية والسفن الحربية المصمّمة لهذا الغرض والبحارة المُدرّبين، سيصبحون من الآن فصاعدا جزء لا يتجزّأ من كلّ دولة أوروبيّة قويّة. في الواقع وبحلول ثمانينات القرن السادس

عشر، كان لدى البحرية الهولندية 69 سفينة والفرنسية 93 سفينة والإنكليزية 100 سفينة، ولكلّ منها طابقان أو ثلاثة طوابق وتتسلح بمدافع عددها 50 مدفعا و100 مدفعا ثقيلا. كانت التكلفة هائلة، لكنّها أتاحت للدول السعي للحصول على إيرادات موسّعة. بحلول تسعينات القرن السادس عشر، أصبحت أحواض بناء السفن الحربية في إنكلترا تشغّل 4000 عاملا. وحين اندلعت الحرب ثانية في أوروبا خلال نفس العقد، تضاعف عدد سفن البحرية الملكية الى 323 سفينة مزوّدة بحوالي 9900 مدفعا، وبميزانية تمويل بقدر 19 مليون جنيها إسترلينيا، أي ما يعادل 3.6 مليار جنيها إسترلينيا اليوم.[54] لقد غيّر تشكيل البحرية الكبيرة بضباطها المحترفين من طبيعة الحروب والدول التي شاركت فيها.

مهما كانت الضغوط المالية، فإنّ نموّ البحرية الملكية البريطانية قد أعطاها ميزة ستراتيجيّة بحيث لم يمكن التغلّب عليها في الصراعات الرئيسية الثلاثة التي عكّرت صفو القارة خلال القرن الثامن عشر، تاركة وطنها سليما وإمبراطوريتها في وضع جيّد لتصبح أعظم قوّة في العالم. إنّ صعود البحرية الملكية كقوّة عسكريّة رئيسية للدولة البريطانية أوجد نخبة جديدة من الضباط. على مدى قرنين من الزمن تخمّر في أذهانهم تأثير نظرة الداخل الى الداخل والسياسة الضيقة لطبيعة القيادة الأرستقراطية. كان لدى البحرية عام 1810 ما يقرب من 145000 رجلا في الخدمة، وهو ما يقرب من 3٪ من مجموع السكّان الذكور في بريطانيا. وهذا وحده حجم كاف لإحداث تغيير إجتماعي. وفقا للمؤرّخ البحري مايكل لِوِس، أنّه طوال القرن الثامن عشر فإنّ "عامّة النقباء... كانوا من خلاصة الطبقة الوسطى" بينما كان 25٪ من رجال البحرية خلال الحروب النابوليونية من طبقة النبلاء وكان 50٪ منهم من أبناء المهنيين وما يقرب من 10٪ من خلفيات تجاريّة أو من الطبقة العاملة. على الرغم من أنّ الأصول الإجتماعية قد خفّفت بالتأكيد من ترويج العقلانية في المؤسسة البحرية التي لاهوادة فيها، فقد سمحت الحرب لعامة الناس في الإرتقاء من خلال الجدارة، وأحيانا من جندي بسيط

على ظهر السفينة الى رتبة ملازم أو كابتن أو حتى أدميرال يفوز أحيانا بمنزلة النبلاء، التي من شأنها أن تضعه في الموقع الفعلي للقوّة.[55]

عكست هذه الإتجاهات داخل البحرية الملكية ما ذكره المؤرّخ سي بلي، الذي دعا الى، "نمو كبير في قوّة الإمبراطورية البريطانية واهدافها" بعد الحكم الإستبدادي والتمرّد، الذي كلّفها المستعمرات الأمريكية. تحرّكت بريطانيا نحو تشكيل خدمة مدنيّة وإصلاح حكومتها وبدأت خدمات البريد. اصبحت إصلاحات الجدارة جزء من مناهج جامعة كَيمبرج وكليتين لإعداد موظفي الخدمة المدنية في الهند، فبدأ تكوّن كادر من الاداريين المهرة لجهاز الدولة الآخذ في الإتّساع في الداخل والخارج.[56]

الإستعمار والمركانتيلية

كان توسّع البحرية الملكية طوال القرن الثامن عشر، مظهرا من مظاهر التعاون غير العادي للتجارة الخارجية والصناعة والإبتكارات، التي قادت صعود بريطانيا المُطّرد نحو القوّة العالمية. بوجود اسطولها البحري، الذي لا مثيل له والذي أمّن مرور السفن التجاريّة دون عوائق في آسيا والأمريكتين، نمت تجارتها الخارجية بشكل مُطّرد وارتفعت صادراتها الى 7 أضعاف، من 6.5 مليون جنيها إسترلينيّا عام 1700 الى 43.2 مليونا في عام 1800 [57].

بعد تشكيل شركة الهند الشرقية الهولندية VOC ومنافستها البريطانية EIC بحدود عام 1600، تمتّعت كلّ منهما بمستوى مُذهل من النجاح التجاري، وسرعان ما اطلقتا شرارة مجموعة من المشاريع المماثلة. كان الإستعمار الأوروبي خلال غالبية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر القوة الدافعة لتأسيس عدد لا يُحصى من الشركات المساهمة، لا سيّما شركات فرجينيا وخليج ماسّجوسِت وجزر الهند الغربية الهولندية والهند الشرقية الفرنسية وخليج هِدسُن ورويّل أفريكَن وغيرها الكثير.

خلال هذه العمليّات، كانت إمبراطوريات أوروبا قد تطوّرت بعيدا عن شبه الوجود للنظام الأيبيري ونحو تجارة أكثر رأسمالية وقائمة على السوق. في عواصم أمستردام ولندن وباريس، نقل الملوك والمجالس التشريعية جزء من سلطة الدولة الى تلك الشركات الإستعمارية، التي كانت أولى الشركات الحقيقية في العالم، بميزانيّات عمومية ومساهمين واعضاء مجلس إدارة مُنتَخَبين وشخصيات إعتبارية. خلال القرن السابع عشر أصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية EIC، مثل نظيرتها الهولندية وبحكم الواقع "دولة داخل دولة" تتمتّع بتفويض السلطة الملكية لبناء الحصون وسنّ القوانين وتوقيع المعاهدات وصكّ النقود وإجراء الإعتقالات. ضمن المحيط الإمبراطوري، كانت تلك الشركات الإستعمارية بمثابة نقاط ارتكاز للإتصال بين الممالك الأوروبية وحكام الدول الأصلية، سواء المهراجا الهنود والأمراء العرب والزعماء الأفارقة. وببطء ربط الأوروبيون الجيوب التجارية للإمبراطوريّات مع المناطق الإقليمية، التي من شأنها في القرن الثامن عشر، أن تمتدّ لتشمل الهند وإندونيسيا بأكملهما.[58]

كانت هناك منذ البداية، إختلافات كبيرة في طابع هذه الشركات التجارية. عكست ديناميكية المجتمع الهولندي في عصره الذهبي إطلاق شركة الهند الشرقية الهولندية VOC بميثاق تفصيلي ورأس مال أولي مقداره 550000 جنيها إسترلينيا مع توفّر البحارة المهرة.[59] على الرغم من أنّ منح الشركة البريطانية EIC ميثاقا واسعا مماثلا في نفس عام 1600، إلّا أنّ رأس مالها ما كان كافيا ولم يتجاوز 68000 جنيها إسترلينيّا قدّمه 36 مساهما فقط. خلال الخمسة عشر عاما الأولى منذ تأسيسها، أرسلت EIC البريطانية بعثات تجارية صغيرة الى آسيا وعادت بأرباح متواضعة وإدراك واقعي بأنّه لم يمكنها التنافس مع الشركة الهولندية في الحصول على التوابل الإندونيسيّة. ومع ذلك كانت مكاسبها المحدودة كافية لجذب المُستثمرين ورفع رأس مالها الى 418000 جنيها إسترلينيا في عام 1613 و1.6 مليون جنيها إسترلينيا في عام 1617. الآن ومع هذا

التمويل الكافي، أنشأت EIC البريطانية 4 مواقع مربحة محصّنة على طول سواحل الهند، وهي سورات في الشمال الغربي وبومبّي في مكان قريب منها، والتي سرعان ما أصبحت معقلا بحريا يسكنه 60000 شخصا. ثمّ مدراس في الجنوب الشرقي، والتي نمت لتصبح مدينة تجارية بلغ تعداد سكّانها 300000 نسمة في نهاية القرن. والأهمّ من تلك المواقع كلها، كلكتّا، الميناء المزدحم الذي يمكنه أن يوصل الى البنغال وحقول الأفيون والنسّاجين المهرة. بحلول خمسينات القرن الثامن عشر، كان هناك حوالي 300 كاتبا في مقرّ شركة East India House في شارع ليدنهّول في لندن. أنتجت الشركة أرباحا بنسبة 8٪ وتعاملت مع واردات الشاي والحرير والأقمشة القطنية بقيمة مليون جنيها إسترلينيّا سنويّا، وهذه شريحة ضخمة من مجموع واردات بريطانيا البالغة 8 ملايين جنيها إسترلينيّا.[60]

آخر المشاريع التجارية الأسيوية الكبرى هو شركة الهند الشرقية الفرنسية. تأسست كمشروع حكومي في عام 1664 وأنشأت أوّل ميناء محصّن ليكون مركزا تجاريّا في بونديشيري، على الساحل الجنوبي الشرقي للهند. بعد سنوات من الخسائر المُتكرّرة، قام مُموّل من أسكتلندا بإعادة تنظيم الشركة على أنّها شبه حكومية، رغم الإستثمارات الملكية والمسؤولين الأرستقراطيين. في حين كانت مشاريعها التجارية ناجحة بشكل هامشي فقط، شكّل مديرها العام جوزيف فرانسوا دوپلِكس سريّة عسكريّة من القوّات الهندية في عام 1746 لاستغلال أيّة فرصة قد تنشأ من الفوضى السياسية التي اكتسحت البلاد حينئذ. سرعان ما تبع البريطانيون خطّتهم المماثلة باستخدام ضباط أوروبيّين وتدريب قوّات هنديّة Sepoys على التكتيكات الحديثة، وبالتالي تشكيل جيش أستعماري من شأنه أن يُثبت أنّه محوريّ لغزو شبه القارة الهندية في المستقبل.[61]

استخدمت هذه الشركات الإستعمارية شكلا هجينا من التجارة يُسمّى المذهب التجاري الماركنتيلي Mercantilism، الذي دمج إكراه الدولة لتأمين الإحتكار التجاري من أجل تحقيق الأرباح العالية [62] State Coercion and

Commercial Monopoly to Secure Hyper-Profits. هذا بينما دعا الهولنديون الى التجارة الحرّة وفتح البحار. من حيث المبدأ كانت السفن السريعة الخاصة بهم قاسية في سحق أيّة منافسة على التوابل في جنوب شرق آسيا. للتحكّم في تصدير جوزة الطيب والصولجان Nutmeg and Mace تمّ تقليص الإنتاج عبر المنظم في جزر باندا في شرق أندونيسيا عن طريق ذبح سكّانها أو ترحيلهم للعمل كعبيد في مكان آخر. حتّى على الرغم من أنّها وافقت على مشاركة مرافق الموانئ مع رئيس شركة EIC البريطاني، قام رئيس الشركة الهولندية في أمبون بتعذيب وقطع رأس وكيل الشركة الإنكليزية وتسعة من زملائه قبل طرد الشركة من جزر التوابل في إندونيسيا. في الوقت الذي اتقنت فيه شركة الهند الشرقية الهولندية VOC احتكارها للتوابل في ثمانينات القرن السادس عشر، كان الشحن والتجارة المحليّان قد انتهيا عمليا في شرق إندونيسيا.[63]

سعيا وراء الأرباح التجاريّة، نشطت الإمبراطوريّات الأوروبيّة في آسيا خلال القرن الثامن عشر ووجدت تجارة في المواد المُسبّبة للإدمان مثل القهوة والشاي والتبغ والأفيون مربحة فاصبحت هذه عوامل جذب للإحتكارات الساعية لذلك الهدف. هيّأت خفّة وزن هذه المواد وقيمتها العالية واليقين لدى العملاء إذا اعتادوا على الكافين والنيكوتين والمورفين، سيستمر طلبهم عليها بشكل دائم، ثمّ طمأنة الشركات لضمان المبيعات المتكرّرة والأرباح المرتفعة. بعد اكتشاف المكاسب الإستثنائية التي يمكن جنيها من تجارة أفيون الهند والصين، زادت الشركة الهولندية، التي يقع مقرّها الرئيسي في جاكرتا عاصمة إندونيسيا، من وارداتها من الأفيون الهندي من 617 كيلوگراما فقط عام 1660 الى 87 طنّا متريّا بحلول عام 1699، مع الإحتفاظ ببعض منه للمبيعات المحلية وإرسال الباقي الى الصين حيث بدأ الإدمان ينمو بسرعة. بدءاً من عام 1720 ايضا، استخدمت VOC سيطرتها على مناطق جاوة الغربية لاحتكار صادرات البُنّ الى أوروبا وأمريكا مهيمنة على تجارة البُنّ العالمية حتى اصبح إسم

الجزيرة مرادفا لشرب القهوة. اعتمادا على ستراتيجية مماثلة قامت إسبانيا خلال حكمها للفلبين بتمويل واحتكار زاعة التبغ وبيعه، أوّلا في الأسواق المحليّة ولاحقا للتصدير الى أوروبا.[64]

غير أنّ نفوذ هذه الشركات تضاءل أمام سرعة الشركة البريطانية لغزو الهند والنمو اللاحق لتجارة الشاي والأفيون. طوال القرن الثامن عشر كانت إمبراطورية المغول القويّة في الهند تفقد سلطتها لصالح الحكام الإقليميين، ممّا سمح للبريطانيين والفرنسيين بتوسيع نفوذهم على الهوامش. أقام الفرنسيون تحالفا مع الحاكم النوّاب في مقاطعة البنغال في شمال شرق الهند ودفعوه لتحدّي البريطانيين، الذين استاءوا من التعدّي على سيادتهم، خاصّة وأنّ النّواب قد سيطر على منطقة استثمار شركة الهند الشرقية البريطانية واستولى على حامية وليم بالقرب من كلكتا عام 1756. غير أنّ البريطانيين شنّوا هجوما مضادّا في معركة بلاسي تحت قيادة الشاب روبرت كلايف، الكاتب المتواضع في الشركة، الذي تحوّل الى تكتيكي موهوب لجيش الشركة الوليد والمكون من حوالي 3000 جنديّا معظمهم من الهنود Sepoys وهزم قوة بنغالية ضخمة قوامها 50000.[65]

أدّت التوترات، التي لم يتمّ حلها بين الشركة وحكّام شمال شرق الهند الى معركة أخرى في منطقة اعالي نهر بوكسار الذي يصبّ في خليج البنغال عند مدينة كلكتا. ألحق 19000 من جنود السبوي التابع للشركة هزيمة ساحقة في قوّة قوامها 150000 جنديا بقيادة النّواب البنغالي ذي الشخصية الكارزمية والإمبراطور المغولي شاه علم الثاني. ونجم عن تلك الخسارة أن وقع الامبراطور المغولي اتفاقية سلام في عام 1765 وعين الشركة وكيلا عنه لتجمع الضرائب من مناطق البنغال وبيهار وأوريسا. (أبعد النّواب وأسرته الى العراق فسكن في منطقة الكاظمية في بغداد. ينحدر الشاعر العراقي مظفر النواب من تلك الأسرة– المترجم). من خلال هذه المعاهدة، اصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية EIC

هي الحاكم الفعلي لغالبية مناطق الهند، التي شهدت إزدهارا وبلغ عدد سكّانها 20 مليون نسمة. تمّ تخصيص 2–3 ملايين جنيها إسترلينيًا من الإيرادات الضريبية الأقليمية السنوية للشركة، لاستيراد سبائك الذهب كدفع مقابل للملابس الهندية والتوابل والأفيون، التي كانت تصدّرها الى أوروبا وآسيا. بعد ذلك فَرَضت احتكار إنتاج الأفيون وسعر الأقمشة القطنية من انتاج النساجين المحليين بأقلّ من اسعار السوق.[66]

في الواقع، حوّلت هذه الإنتصارات الشركة البريطانية من شركة ضعيفة الوجود تتشبّث بحفنة من الجيوب الساحلية الى ما وصفه المؤرخ ك.ن. چودوري "القوّة الإقليمية القويّة"، ممّا منحها المال والقوّة البشريّة العسكرية لتنفيذ غزواتها اللاحقة لشبه القارة الهندية الواسعة. بعد مرور 40 عاما على انتصارها في معركة بوكسار في عام 1765، نمت جيوش الشركة خلال عدد من المعارك ضدّ الولايات الهندية لتصبح قوّة هائلة قوامها 120000 جنديًا من المُدرّبين تدريبا جيّدا والمدعومين بترسانات ضخمة من الأسلحة. خلال سلسلة من الحملات التي خاضتها بشقّ الأنفس في بداية القرن التاسع عشر، نشر البريطانيون هذه القوّة المتفوّقة للقضاء على ما تبقّى من الوجود الفرنسي وإخضاع آخر حكّام الهند الإقليميين الأقوياء، وبلغت ذروتها في الإحتلال البريطاني للعاصمة المغولية دلهي وفرض الإقامة الإجباريّة على شاه علم الثاني، الذي اصبحت جاذبيته من الآن فصاعدا هي اضفاء الشرعية على حكمهم. على الرغم من أنّ بريطانيا كانت دولة جزيرة صغيرة بسكنها 10 ملايين مواطنا، أضحت الآن في طريقها للسيطرة على شبه القارة الهنديّة التي يبلغ عدد سكّانها 200 مليون نسمة. وقد حقق لها ذلك توفير القوة العاملة والتجنيد في القوّة العسكرية وزيادة الموارد للسيطرة المستقبلية على الكثير من مناطق آسيا. كتب الضابط البريطاني الكبير تومَس مونرو، "نحن الآن أسياد كامل الهند ولا شيء يمكن أن يهزّ قوّتنا إذا اتخذنا الإجراءات المناسبة لتأكيدها."[67]

سهّل غزو الشركة البريطانية لشمال شرق الهند على التوسّع الهائل في تجارتها الآسيوية من خلال صادرات الإفيون الهندي الى الصين وواردات الشاي الصيني الى إنكلترا. بدلا من المقايضة الثنائية البسيطة، التي مارسها منافسوهم، أتقنت الشركات التجارية البريطانية التبادلات متعدّدة الأطراف التي زادت من أرباحها. كان الكثير من توسّع إنكلترا خلال القرن الثامن عشر مرتكزا على مثلثين تجاريين متوسّعين يغطيان نصف الكرة الأرضية. واحد في المحيط الأطلسي لتجارة العبيد والسكّر والسلع المُصنّعة، والمثلث الآخر في آسيا ويقوم على الأفيون والشاي والقطن المغزول آليا.

ظهر مثلث التجارة الآسيوي المُربح خلال عهد الغزو الإستعماري. بعد السيطرة على شمال شرق الهند، فرضت EIC إحتكار إنتاج الأفيون في مقاطعتي البنغال وبيهار، ممّا أجبر الفلاحين في مناطق معيّنة على زراعة كمّيات محدّدة وبيعها لوكلاء الشركة باسعار ثابتة كي يجري شحنها الى جنوب الصين، حيث بدأ انتشار الإدمان. تحققت أرباح عالية من صادرات الأفيون، التي بلغت حدّها الأقصى 280 طنّا سنويًا للشركة. كما قام تجّار القطاع الخاص بتمويل شراء الشاي الصيني لشحنه الى أمريكا الشمالية وأوروبا وإنكلترا.[68]

نظرا لأنّ الشحنات الأكبر من أيّ وقت مضى من الصين غذّت الذوق الإنكليزي للشاي، فإنّ بريطانيا وازنت حسابها التجاري عن طريق تصدير معدّات حديدية وآلات غزل الخيوط القطنية لمصانعها الأولى للنسيج. ومن خلال هذه الصناعات المُبكّرة، تكون بريطانيا قد اطلقت عملية انتقال الطاقة من الرياح وقوّة العضلات، التي تميّز بها العصر الأيبيري الى الطاقة البخاريّة التي تعمل بالفحم، والتي اصبحت فيما بعد تحديدا لسمة عصرها الإمبراطوري. كما تجاوز الفحم حرق الأخشاب في عمليات تدفئة البيوت في وقت مبكّر من عام 1620، لكنّه لم يصبح مصدرا مهمّا للطاقة الصناعية حتى أواخر القرن الثامن عشر. كجزء من ثورتها الصناعية المستمرّة، بدأت بريطانيا في اتخاذ خطوات

ملحوظة في علم المعادن، بما في ذلك صهر وتشكيل الحديد المستخدم في إنتاج الأدوات والبنادق منخفضة التكلفة. مثل العديد من عشرات الأفران الجديدة التي تعتمد على الفحم، التي أفتتحت في أواخر القرن الثامن عشر، زاد إنتاج بريطانيا من الحديد 12 ضعفا، أي الى 250000 طنّا حوالي عام 1800. بحلول ذلك الوقت، احتاجت صناعة التعدين في إنكلترا الى 9 ملايين طنّا من الفحم سنويّا، ومثّل ذلك أكثر من 80٪ من إجمالي الإنتاج العالمي، لتوفير 90٪ من احتياجاتها من الطاقة الحرارية.[69] في السنوات الأخيرة من العصر الأيبيري، تحوّلت طاقة إنكلترا إلى عصر الوقود الإحفوري Fossil Fuels على قدم وساق، والذي حرّر البشرية بعدها من القوّة العضلية الحاشدة للعبودية.

في غضون ذلك وكما كان الإفيون الهندي هو الدافع الرئيسي لقيادة المثلث التجاري الآسيوي، لعب العبيد الأفارقة دورا موازيا في نظيره عبر المحيط الأطلسي. في المرحلة الأولى من ثلاث مراحل، تطلب الإبحار من التجّار البريطانيين 300 يوما من برستُل أو لِفَربول للوصول إلى الموانئ المحصّنة في غرب إفريقيا لحمل شحنات مصنّعة من البضائع والمعدّات ومشروب الرّم والمنسوجات القطنية والبارود، وقبل كلّ شيء الأسلحة النارية. خلال القرن الثامن عشر، كانت هناك زيادة ملحوظة في عدد الشحنات البريطانية للبنادق من طراز فلينتلوك، التي ارتفعت الى 20000 بندقية سنويّا في ثمانينات القرن الثامن عشر، ممّا أدّى الى "ثورة البارود" على طول ساحل إفريقيا الغربي. شكّلت هذه الأسلحة نحو 25٪ من الشحنات البريطانية، حيث أدخلت الشبكات التجارية، التي نسيطر عليها، عسكرة قبائل إفريقيا في Asante, Benin, Dahomey, Oyo, Kongo وغيرها. في مقابل هذه السلع التجارية، باعت تلك القبائل المحلية العبيد، الذين تمّ أسرهم في الحرب أو ألقي القبض عليهم في غارات أو التقصير في دفع الديون المُستحقة لمحميات أوروبا ومراكزها التجاريّة على الساحل. كتب المُخرّج الهولندي في قلعة الميناء في غانا عام 1730 "عن كميّة كبيرة من البارود

والبنادق، التي جلبها البريطانيون وتسبّبت في حروب رهيبة بين الزعماء والأمراء... في تلك المناطق، من الذين جعلوا أسرى الحرب عبيداً لهم، وتمّ شراء هؤلاء العبيد على الفور من قِبل الأوروبيين وزيادة الأسعار بشكل مُطّرد." ونتيجة لذلك، زادت واردات الأسلحة النارية الى غرب إفريقيا بمقدار 10 أضعاف وقابلها ارتفاع بمقدار 5 أضعاف من صادراتها من العبيد، لتصل الى مستوى الذروة التاريخية في ثمانينات القرن الثامن عشر عند 77000 أسيرا سنويا.[70]

في المحطة الثانية لمثلث التجارة عبر المحيط الأطلسي والمعروفة باسم "الممرّ الوسط" كانت كلّ سفينة تحمل شحنة من عدة مئات من الأسرى الأفارقة الى مناطق زراعة قصب السكّر في البرازيل أو منطقة البحر الكاريبي، حيث كانت المزارع المحلية ذات شهيّة لا تشبع للعمل القسري. كان القرن الثامن عشر حسب وصف العالِم إرك وولف، "العصر الذهبي للعبوديّة"، حين تمّ نقل 6 ملايين إفريقيا قسرا الى الأمريكتين، أي ما عادل 5 أضعاف اعداد القرن السابق. على الرغم من التقاليد المحلية بصدد الحريّة المكرّسة في قانون حقوق الإنسان لعام 1689، كانت التجارة البحرية البريطانية المزدهرة مسؤولة بالنسبة لكثير من الزيادة لحمل 2.4 مليون مُستَعبدا، أو ما يعادل 40٪ من إجمالي حركة المرور عبر الأطلسي. منح ميثاق التاج في عام 1672 إحتكار كافة التجارة البريطانية مع القارة لفترة 1000 عاما، ومكّن الشركة الملكية الإفريقية The Royal African Company من إنشاء 6 حصون تجارية على ساحل إفريقيا الغربي. بحلول عام 1700، كانت الشركة ترسل 80 سفينة عبر المحيط الأطلسي كلّ عام محمّلة بالعبيد للعمل القسري في المزارع البريطانية في منطقة البحر الكاريبي وكارولاينا.[71]

في غضون ذلك جرى نقاش عام استمرّ عقدين من الزمن بصدد عدم ترخيص تجار الرقيق البريطانيين، من الذين تعرّضت سفنهم للمصادرة من قِبل سلطات البحرية الملكية. استلم البرلمان وابلا من الكتيّبات والعرائض التي

أصرّت على حرية التجّار كإنكليز للمتاجرة بالأفارقة المُستعبَدين دون عائق لهذا الإحتكار. تماما وكما كان المفروض أن تكون التجارة غير المقيّدة طبيعية وعلى قدم المساواة أمام المحاكم وهيئات المُحلفين، جادل هؤلاء أنّ تجارة المحيط الأطلسي حرّة بما فيها تجارة العبيد. بحلول الوقت الذي أنهى فيه البرلمان هذا الإحتكار في عام 1712 كانت شركة RAC قد اقتربت من شحن 150000 إفريقيا أسيرا وحققت أرباحا طائلة للمستثمرين فيها. وهو الوقت الذي جمع فيه المدير إدوَرد كولستُن ثروة طائلة ضمنت له مقعدا في البرلمان ممثلا لمدينة برِستُل. بلغت قيمة ممتلكاته 171000 جنيها إسترلينيًا، أي ما يعادل 26 مليون جنيها إسترلينيا اليوم. وهوما جعله قادرا على دفع مِنح سخيّة للمدارس والمستشفيات والجمعيّات الخيريّة، بحيث أنّ المدينة كرّمته لاحقا بنصب تمثال له ودرع تكريم باعتباره "واحدا من أبناء المدينة الأكثر فضيلة وحكمة." في عام 2020، تمّ إسقاط ذلك التمثال وألقي في البحر من قبل اعضاء حركة Black Lives مع إزالة قيود احتكار السفن البريطانية وإبحارها حاملة أكثر من 2000000 عبدا عبر المحيط الأطلسي بحلول نهاية القرن الثامن عشر. بالمقارنة، لعبت فرنسا والبرتغال دورا أصغر في تلك الفترة، حيث نقلت كلّ منهما 600000 عبدا أسيرا.[72]

كانت الأسواق الرئيسية لسفن نقل العبيد الإنكليزيّة هي المزارع الفرنسية والهولندية والإنكليزيّة، حيث أدخل التجّار الهولنديون تكنولوجيا زراعة قصب السكّر وإمدادا منتظما لعبيد السخرة الى المستعمرة البريطانية في بَربَيدُس، بسبب تحوّل المستوطنين الإنكليز من مزارع التبغ الصغيرة، التي عمل بها عمال آيرلنديون بالسخرة الى مزارع قصب السكّر الكبيرة، التي عمل بها عبيد أفارقة. بحلول عام 1667 وعندما سيطرت الشركة الملكية الإفريقية على حركة المرور، زادت الشحنات الهولندية من العبيد عدد سكان بَربَيدُس الى 7 أضعاف تقريبا، أي الى 40000 شخصا. كما في البرازيل، احتاج المزارعون البريطانيون الى

تعويض 7٪ من العمالة، التي تموت بسبب الإرهاق، ممّا شجّع على استمرار نقل الأفارقة المخطوفين.[73]

من الجدير بالذكر أنّ جَمَيكا اصبحت مركز صناعة السّكّر لبعض الوقت بعد الإستيلاء على تلك الجزيرة الجبلية الكبيرة من إسبانيا في عام 1655. ترك البريطانيون عاصمتها في بورت رويال لتكون موطنا للقراصنة والقبطان هنري مورگن، الذي شنّ غاراته الشهيرة على ما يصل الى 36 سفينة وقاد لذلك الغرض 2000 قرصانا، هاجموا الموانئ الإسبانية الغنيّة في انحاء منطقة البحر الكاريبي. غير أنّ المستوطنين البريطانيين ورغم ذلك، قاموا بتوسيع صناعة السّكّر في الجزيرة بسرعة كبيرة لدرجة أنّ جَمَيكا سرعان ما امتلكت 775 مزرعة عمل بها ما يقرب من 205000 من العبيد وانتجوا ما يقرب من 54000 طنًا من السكّر سنويا، أي ما يقرب من نصف إجمالي انتاج منطقة الكاريبي الى إنكلترا. من ناحية أخرى، شكّلت صناعة السكّر في الهند خلال القرن الثامن عشر 10٪ من الدخل القومي البريطاني بأكمله، وخلقت ثروة للمزارعين الذين رُفعوا الى منزلة النخبة البريطانية بينما كان العبيد يعانون البؤس، وهذا ما جعلهم ينهضون بشكل دوري في ثورات يائسة.[74]

أمّا الجانب الثالث من تجارة الأطلسي فهو أنّ الأسطول التجاري البريطاني نقل شحنات القطن والتبغ والسكّر والدّبس الى إنكلترا. فقط في نهاية القرن الثامن عشر بدأ الجنوب الأمريكي يتفوّق على المستعمرات البريطانية في جزر الهند الغربية في إنتاج القطن الخام وشحنه لمصانع النسيج البريطانية. وكان هذا بداية التحول البطيء في الجانب الثالث.

نهاية العصر الآيبيري

بقيت مستعمرات الشركات الإستعمارية لأكثر من قرن تشكّل جوهر الآيبيرية في نهجها اتجاه المسائل الأساسية للسيادة وحقوق الإنسان. ولكن إبتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت آثار كوارث الحروب، التي طال

أمدها على جانبي الأطلسي، بما افيها لثورات الوطنية في الأمريكتين والحملات النابليونية في أوروبا، للتخلّص من تلك النزعات وإطلاق القوّة العقلانية للصناعة والعلوم ومُثُل التنوير لخلق نوع جديد من العصور الإمبراطورية.

بدأ النظام العالمي الأيبيري في الإنهيار، ومثل البريطانيين والهولنديين، أصبحت الشركات الفرنسية المساهمة للإدارة المبكّرة للإمبراطوريّات بشكل متزايد، هجينة ضعيفة غير قادرة على الحكم الإستعماري الفعال وغير الكفؤ لتحقيق الأرباح العالية. معظم تلك الشركات ومنها الملكية الإفريقية والهولندية، والهند الغربية والهند الشرقية الفرنسيتين، وحتى الهند الشرقية الهولندية جميعًا بحكم المُلغاة بحلول عام 1799[75].

على نطاق أوسع، تمّ الكشف عن سلسلة من الحروب المُستمرّة والمُدمّرة بشكل متزايد نتيجة فشل العائلات الملكية في أوروبا، مثل آل بُربون وآل هابسبُرگ وآل هوهنزلّرن، لإنشاء انظمة دول مستقرّة في القارة، ممّا كلّف تلك العائلات الشرعية الشعبية في الداخل والخارج. أطلق هذا بدوره العنان لعصر الثورة في أوروبا والأمريكتين، التي من شأنها خلال قرن من الزمن أن تزعزع أسس تلك الأنظمة الإستبدادية. استنفذت حرب الأسبان ما بين السنوات 1701 لغاية 1714 طاقات أسرة آل هابسبُرگ لفرض الهيمنة على القارة. كما أنّ حرب السنوات السبع التالية اعتبارا من 1756 لغاية 1763 أعاقت طموح النظام الملكي الفرنسي لفرض ذلك الوضع المماثل. وفي مطلع القرن التالي جرت حروب نابليون المدمّرة بين السنوات 1796 لغاية 1815. وهي الحروب التي كان من شأنها أن تزعزع أوروبا بدرجة كافية حفّزت ظهور قوّة بريطانيا ونظامها العالمي الجديد.

كان أوّل هذه الصراعات نوعا على مستوى الأسر الحاكمة وخلّف تداعيات خطيرة على توازن القوى في أوروبا. خلال قرنين من زواج الأقارب، عجّل ذلك في انقراض أسرة آل هابسبُرگ. وضعت هذه أخيرا وريثا للعرش

الإسباني هو چالز الثاني، الذي كان يعاني من مرض مُزمن مع تشوّه في فكّه ممّا جعل حديثه غير واضح، إضافة الى عدم قدرته على إنجاب وريث بعده، وتوفي عن عمر يناهز 38 عاما. لمنع أسرة آل هابسبُرگ النمساوية من الإستيلاء على التاج الإسباني وإمبراطوريته الشاسعة، قام الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، والذي كانت زوجته أميرة إسبانيّة، بالمناورة لجعل حفيدهما، فِليب الخامس، على رأس سلالة آل بُربون الجديدة، التي ستحكم إمبراطوريّة إسبانيا وثروتها من فضّة أمريكا اللاّتينية.[76]

خشية الخوف ممّا يعنيه هذا التوسع في القوّة الفرنسية بالنسبة لكلّ من بريطانيا وهولندا، وقفت إنگلترا الى جانب النمسا وأرسلت أكبر جيش بريطاني للقتال في القارة منذ أكثر من قرن. في عام 1704، بعد أن تقدّم الجيش الذي بلغ تعداده 21000 جنديا بما في ذلك 16000 جنديّا من الإنگليز، وبعد قطع مسافة 250 ميلا من بّفاريا، إنضمّ دوق مارلبورو الى الحلفاء الألمان لتدمير قوّة فرنسية متفوّقة في معركة بلِنهايم التاريخية. بعد انتصار آخر على الفرنسيين في معركة رامِليس بالقرب من بروكسل، أنهى مالبورو فعليّا تطلعات لويس الرابع عشر للهيمنة على أوروبا. في تلك الأثناء، استخدمت البحرية الملكية البريطانية ميزاتها الستراتيجية للضرب حوّل القارة وإلحاق سلسلة من الهزائم بإسبانيا. وبعد 14 عاما من القتال، الذي تميّز بثلاثة اشتباكات بحريّة كُبرى و16 حصارا مطوّلا و19 معركة دامية خلّفت 700 ألف قتيلا، تولى فِليب، العرش بشرط منع أيّ اتحاد مع التاج الفرنسي.[77]

بغضّ النظر عن قضايا الأسرة الحاكمة، أمدّت معاهدة أوترِخت عام 1713 إعادة تنظيم خفيّة لكنّها مهمّة للسلطة. ظهرت إسبانيا موحّدة تحت حكم سلالة آل بُربون الجديدة وحافظت على معظم أجزاء إمبراطوريتها. على النقيض من ذلك، أصبحت البرتغال دولة عميلة لبريطانيا بينما أصبحت هولندا حليفا بريطانيّا آخر، ولكن تمّ تقليص قوّته البحرية الى درجة ثانوية. أكّدت بريطانيا

تفوّقها البحري والتجاري والمالي من خلال ستراتيجية الموانئ الإسبانية في البحر الأبيض المتوسّط، بما في ذلك جبل طارق وتأمين عقد احتكار مُربح لتصدير الأفارقة العبيد الى مستعمرات إسبانيا في أمريكا اللاتينية.[78] ومع ذلك صارعت بريطانيا فرنسا للهيمنة على العالم وانتظرت جولة ثانية حاسمة ونهائية.

بعد 40 عاما من التوتّرات، التي لم يتمّ حلها بين الأسر الحاكمة في أوروبا، إندلعت حرب ثانية مدمّرة وجرت مبارزة أخرى بين لندن وباريس للسيطرة على العالم الأوسع. إبتدأ نزاع مسلح في عام 1756 بين بروسيا وتحالف من 5 دول بقيادة النمسا. توسعت حرب السنوات السبع بسرعة الى الحرب العالمية الثانية في التاريخ. في شمال أوروبا، استمرّت القوّات البروسية المنضبطة تحت قيادة فردرك العظيم وشمويل بريطاني، بالمحافظة على اعدادها المتفوّقة في النمسا بعد خوض 24 معركة دامية. أمّا في جنوب أوروبا، فقد صدّ جيش مشترك من الإنكليز والبرتغاليين 3 محاولات غزو من قبل القوات الفرنسية الإسبانية المتفوّقة وذبح أكثر من نصف رجالها البالغ عددهم 42000 رجلا. وبشكل ملحوظ توقّف 210000 جنديا عن القتال في جميع الجبهات، ممّا أشار الى أنّ جماهير القارة لم تعد راغبة في التضحية والموت من أجل نزوات ملوكهم الشاغبين. وبخلاف ذلك، تغيّرت نتائج الحرب الهامة للمعارك خارج أوروبا قليلا.[79]

لقد أدّى مثل هذا القتال في الخارج الى أفول الإمبراطوريّة الفرنسية وما قابله من صعود القوّة البريطانية. بعد أن أوقفت الطموحات الفرنسية في الهند، أرسلت لندن حوالي 9000 جنديًا للإستيلاء على مدينة كُبِك في كندا خلال صيف عام 1758، والتي نجحت بعد ذلك من حصار فرنسي بعد وصول إسطول الإغاثة.[80] وقت انتهاء حرب السنوات السبع، أضحت بريطانيا قوّة مهيمنة في كثير من أمريكا الشمالية والهند، وهما المكوّنان الرئيسيّان لإمبرطوريتها العالمية الناشئة. من خلال تحرّي ملف الصّراع البحري، الذي بلغ ذروته في 7 معارك

كبرى، أثبتت البحرية الملكية البريطانية نفسها على أنها أقوى قوّة في أعالي البحار.[81]

من منظور عالمي، وضع هذا التعاقب المُكلف للحروب الدموية ممالك أوروبا على حافة الإفلاس ماليا وأدى الى نقطة إنهيارها. وهذا هو ما حفّز بروز عصر الثورات، التي اجتاحت جانبي المحيط الأطلسي خلال نصف قرن عاصف بين الأعوام 1775 ولغاية 1824. لقد ارتفعت النفقات العسكرية البريطانية في أمريكا الشمالية بنحو 10 أضعاف ما كانت عليه، وحاولت لندن على سبيل المثال تحقيق توازن من خلال فرض قانون الطوابع في عام 1765 على المستعمرات الأمريكية. كما سعت الى إخماد أيّة انتفاضات بين سكّان أمريكا الشمالية الأصليين. وعُرف هذا القمع بأنّه مكلف خاصّة من خلال حظر أيّة تسوية بعد ذلك في مناطق جبال الأپلّيشيا Appalachian Mountains. أدّت تلك الإجراءات معا الى إشعال الصراعات، التي بلغت ذروتها في الثورة الأمريكية. بينما أهتزّ النظام القديم، أثبتت مُثُل الحرية التنويرية أنها أخطر من عاصفة من أعمال الشغب الثوريّة، وتحدّت الثورة على مدى نصف قرن معظم الأنظمة الملكيّة في أوروبا ومحو أجزاء كبيرة من ممتلكات الإمبراطوريّات فيما وراء البحار. بحلول نهاية الحقبة الثورية، فقدت فرنسا كافة كندا وفقدت بريطانيا المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر وفقدت البرتغال إمتدادها الشاسع في البرازيل وفقدت إسبانيا معظم دول أمريكا اللاتينية.[82]

عصر الثورة

مع بزوغ فجر عصر جديد، أعلن القادة المتطرّفون في أمريكا وفرنسا وإسبانيا مبادئ المساواة الإنسانية، التي تحدّت نظام العبودية في العصر الأيبري. ومع ذلك كان اقتصاد كافة إمبراطوريات أوروبا لما وراء البحار يعتمد على العبوديّة بدرجات متفاوتة، ممّا جعل القضية على حدّ سواء محرجة

ومعقدة. بتاريخ 4 تموز من عام 1776، اعلنت وثيقة الإستقلال الأمريكي، "نحن نعتبر هذه الحقائق بديهية، بأنّ كلّ البشر مخلوقون على قدم المساواة، وأنّ خالقهم وهبهم شيئا لا يمكن المساس به من الحقوق. من بينها الحياة والحرية والسعي وراء السعادة." وبالمثل بعد 6 أسابيع فقط من إندلاع الثورة الفرنسية عام 1789، إعتمدت الجمعية الوطنية إعلان حقوق الإنسان والمواطن، التي نصّت في المادة الأولى، "يولد الرجال ويبقون أحرارا ومتساوون في الحقوق." خلال المرحلة الأكثر راديكالية للثورة جاء بأنّ أولّ حكومة فرنسية يتعين تنظيمها كجمهوريّة وتأسيس مؤتمر وطني وحظر خاصّ للعبودية في الدستور عام 1793. وسرعان ما حرّر الجميع العبيد في إمبراطوريتها فيما وراء البحار. ومع ذلك فإنّه في غضون بضع سنوات فإنّ دستور الولايات المتحدة والمواثيق الفرنسية المتعاقبة قد عادت لتسوية مثل تلك الحقوق والإعلانات العالمية من خلال وضع استثناءات حافظت على العبودية في اقتصادات المزارع Plantation Economies.[83]

بينما أطاحت الثورة الفرنسية عام 1789 بملكية آل بُربون وأسّست جمهورية مساواة، وما اعقب ذلك من إضطراب إجتماعي وصراع وعنف حزبي وحرمان إقتصادي، سرعان ما خلقت الرغبة في النظام والإنفتاح على الأوتوقراطية. في خضمّ هذه الأزمة جاء نابُليون بونابَرت، وهو ضابط شابّ من عائلة نبلاء محليّة في جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. برزت كورسيكا باعتبارها سلفا سياسيّا جديدا لفرنسا الى جانب الكثير من دول أوروبا. في الواقع كاتب سيرة واحد على الأقلّ قد احتفل به باعتباره "عملاق العصر الحديث، الذي قدّم أهم الإبتكارات التي غيّرت جذريّا المشاهد الماديّة والقانونية والسياسية والثقافية لأوروبا."[84]

مهما كانت الصلاحية التي قد تكون لهذا التقييم محصورة بوجهة نظر أوروبية، فإنّه من منظور تاريخي مدرك للأنظمة العالمية، على العكس من ذلك، يمكن اعتبار نابُليون شخصية رجعية كان حكمها "الخاتمة الدكتاتورية الحتمية



إمبراطور فرنسا نابليون الأول (Credit: Musée de l'Armée)

للثورة.*[85] كانت فترته القصيرة كسيّد لأوروبا من شأنّها أن تجسّد نسخا من السيادة الإمبراطوريّة وحقوق الإنسان، التي كانت جوهر العصر الآيبيري. وهي التي تمثلت في الإستيلاء على الأراضي الأجنبية باستعمال حقّ الغزو والدفاع

عن العبودية وتقسيم المناطق بين الأقارب، مثلما فعل إمبراطور آل هابسبُرگ في القرن السادس عشر وخلق اقتصاد قاري مغلق على غرار المذهب التجاري في القرن السابع عشر. في مواجهة إندلاع ثورة اليعاقبة ومبادئهم الفرنسية الراديكالية للحرية في جزيرة هَيتي الكاريبية Radical French Jacobin Principles، حيث تمرد العبيد وأعلنوا العصيان من أجل كسب حريتهم، أرسل نابُليون جيشا مارس نوعا من القسوة المذهلة، التي مورست لقمع ثورات العبيد في أيّام روما القديمة. في الداخل شكّل "دولة بوليسيّة" انتشرت وقمعت كلّ حريّة للتعبير، وأسس مكتبا للضرائب لجمع الإيرادات لدعم جيشه الذي اصبح قوامه مليون رجلا وشرّع التجنيد الإجباري الذي جرّ جميع الشباب الذكور لتكون أجسادهم طعاما لآلته الحربية، التي لم تشبع.[36]

على النقيض من ذلك، إستمرّ عدو نابليون في بريطانيا، الذي كان أكثر تحفّظا للدفاع عن سياسات التجارة الحرّة والمحيطات المفتوحة والغاء الرّقّ. جعلته هذه المواقف سلفا للتقدم وللنظام العالمي الجديد. في الواقع، أنّ ملايين القتلى والدمار الذي لا يوصف الذي تميزت به سنوات ذلك الصراع العنيف، جنبا الى جنب مع التحفيز المالي والإبتكارات الصناعية البريطانية، أدّت في النهاية الى نظام عالمي جديد وتنامي أهميّة دائمة لعقود الحروب المستمرّة.

في خضمّ الوسط السياسي العاصف لفرنسا الثورية، رُقيَ نابُليون الى رتبة لواء وهو في سنّ السادسة والعشرين. تولى قيادته الأولى لجيش مكوّن من 40000 رجلا من القوّات المتناثرة لجيش مقهور بشكل شامل. تألّق في عرضه التكتيكي خلال حملة هزمت القوات المعارضة عبر شمال إيطاليا خلال 12 شهرا فقط. ثمّ تقدّم بلا هوادة نحو فِيِّنا، حين كان بإمكانه إملاء تسوية سلمية على الإمبراطورية النمساوية القويّة عام 1797. في غضون عام، إبتكر نابُليون ستراتيجية جيوسياسية لخّصها في بديهية إمبراطورية بليغة، "لإسقاط إنگلترا حقا، يجب أن نحتلّ مصر." إقتنع بأنّ منطقة السويس هي نقطة ارتكاز لزعزعة استقرار الهند البريطانية. أبحر

بصحبة 36000 جنديا الى مصر، حيث هزم جيشا عثمانيا واحدا في منطقة الإهرامات، ودمّر آخر في أبو قير بالقرب من الإسكندرية، وهزم ثالثا في فلسطين، وأمر بقتل 3000 جنديا مستسلما بسبب نهبهم لمدينة يافا "خلال عربدة اغتصاب وقتل". وأرسل جيشا رابعا الى الإسكندرية وقاده حتى وصل الى البحر. لحماية الهند، بعث البريطانيون اسطولا واحدا دار حول إفريقيا ليتحكّم في غلق البحر الأحمر. واسطولا آخر عبر البحر الأبيض المتوسط لتولي إغراق سفن النقل الفرنسية. ومع استنزاف الجيش الفرنسي في معركة دامية واحدة إثر أخرى، لاحظ نائبه بصيرة أنّ نابُليون "يحتاج بشكل عام الى دعم من الرجال قدره 10000 رجلا في الشهر." وعكس ما رغب إنحرفت الضربة الجيوسياسية التي خطط لها، وتحوّلت الى كارثة. تخلى نابُليون عن خطته بعد تدمير جيشه وأبحر من الإسكندرية تحت جنح الظلام. نزل في جنوب فرنسا وتوجّه الى باريس وسط هتاف الجماهير واستولى على سلطة القنصل الأوّل في انقلاب عسكري، وبعد 4 سنوات توّج نفسه إمبراطورا في كاتدرائية نوتردام.[87]

نتيجة العقد اللاحق للحرب التي امتدت فشملت 5 قارات من خلال التفاعل المراوغ للجغرافية السياسية على عدة مستويات؛ العالمية والقارية والإقليمية. على الرغم من التكتيكات المتألقة التي لا مثيل لها والتي دحرت بانتظام القوّات المتفوّقة في ساحة المعركة، أثبت نابُليون أنّه ستراتيجي جيوسياسي ضعيف، فشل في ترجمة العديد من انتصارات جيوشه لتحقيق إمبراطورية مستقرّة.

عقدت البحرية الفرنسية تحالفا مع البحرية الإسبانية فتشكّلت قوة هائلة للحروب النابُليونية. لكنّ نائب الأدميرال البريطاني هوراشيو نِلسُن حقق انتصارات عظيمة على تلك القوّة عند مصبّ نهر النيل وميناء كوبنهيگن وبرزخ ترافلگر، وسرعان ما قطع إتصال نابُليون بالإمبراطورية خارج فرنسا وحصر طموحاته في أوروبا.[88] كان نِلسُن ضابطا قادته حياته المهنية التقليدية الى

ستراتيجية غير تقليدية، ليس فقط لهزيمة كاسحة ولكن لتدمير البحرية الفرنسية بالكامل. وُلِد نِلسُن في حالة فقر مدقع كابن قسّ قرية خلّف 12 طفلا. إنضمّ الى البحرية الملكيّة وهو في سنّ 13 عاما وتمت ترقيته الى نقيب في سن 20 عاما وتولى قيادة فرقاطة في منطقة البحر الكاريبي. كان غير راض عن مستوى العقيدة البحرية، التي أوعزت لسفن خط التماس الحربي أن تتبع بإخلاص أوامر أميرالها الرائد في تبادل اطلاق النار غير الحاسم. طوّر تكتيكات تسمح لقبطان كلّ سفينة للحكم الذاتي للإشتباك مع سفن العدوّ وتدميرها باستخدام مهارات الملاحة المتفوّقة.[89]

بينما كان نابُليون يحتلّ مصر، هاجم اسطول نِلسُن 13 سفينة حربية فرنسية بالقرب من مرسى قريب من الإسكندرية وتمّ الإستيلاء عليها بعد تدمير 11 سفينة منها والفوز بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط. بعد عامين، اعطى الإنتصار البريطاني على الأسطول الدّنيماركي في كوبنهَيگن، البحرية الملكية حريّة الوصول الى بحر البلطيق. ثمّ قبالة الساحل الإسباني في كَيب ترافَلگَر في عام 1805. قادت فرقة "أخوة اللورد نِلسُن في السلاح" الإسطورية حملة مكوّنة 27 سفينة وهاجمت اسطولا فرنسيا إسبانيًا أكبر فدمّروا 19 سفينة وقتلوا 15000 بحّارا. أعطى هذا الإنتصار للبحرية الملكية ميزة ستراتيجية فيما بقي من عقد الحرب، ولكنّه أيضا جعل بريطانيا القوّة البحريّة العظمى في العالم، القادرة على الوصول بدون قيد الى الأسواق العالمية.[90]

ومما ضاعف الصعوبات التي واجهتها فرنسا في الخارج، هو أنّ هَيتي، أغنى مستعمرة لها، بدت على استعداد للتحرّر بعد تمرّد العبيد الذي طال أمده. على مدى 10 سنوات قبل قيام الثورة، إزدهرت مزارع جزر الهند الغربية الفرنسية واصبحت هَيتي المستعمرة الأكثر ربحيّة في العالم. تضخّم عدد سكان الجزيرة من الرقيق فوصل الى 470000 شخصا، عملوا في 8000 مزرعة انتجت ثلث ما يحتاجه العالم من السكّر ونصف قهوته، ممّا تطلب نقل 1000 سفينة للبضائع

الغنية الى أوروبا كلّ عام. اتّفقت هَيتي نظام المزارع في العصر الأيبيري أكثر من أيّة مستعمرة أخرى مماثلة، كما تجلت فيها مواصفات النظام العامّ الجامد ونظام العبودية الوحشي والأسواق المحميّة والأرباح العالية.[91]

أدّى الإضطهاد الى اندلاع ثورة هائلة للعبيد عام 1791 بعد عقد من النضال وتشكيل جيش قويّ للمعركة مع بروز زعيم عسكري لامع تمثل في شخصية العبد المثقف ذاتيا توسان لوفِرتور Toussaint L'Ouverture. حين بدأت سيطرة فرنسا على الجزيرة بالضعف، كان أوّل من ظفر بهذه الجائزة الإمبراطورية الغنية هي بريطانيا. كان رئيس الوزراء في حينها هو وِليَم بِت الأصغر، الذي حرص على اقتطاف ما سُمّي "جنة عدن في العالم الغربي." أرسل جيشا مؤلفا من 30000 جنديًا من أجل إحتلال فاشل للجزيرة دام لخمس سنوات، والذي انتهى بموت 60٪ من الجنود نتيجة للمرض والقتال الشرس الذي اظهرته المقاومة المُصمّمة. لغرض استعادة تلك الجائزة الإمبراطورية المربحة وفرض نظام العبوديّة مجدّدا، أرسل نابُليون جيشا قوامه 60000 جنديًا بقيادة صهره الجنرال چالز لوكلَير Charles Leclerc، الذي استطاع على عجل احتواء التمرّد واعتقال الزعيم الثائر لوفَرچر. وبمجرّد وصول أخبار هَيتي، أعادت فرنسا فرض نظام العبودية في أماكن أخرى من منطقة البحر الكاريبي. أحيت ثورة بمثل ذلك الإنتشار الروح التي ارغمت الجنرال لوكلير أن يتراجع عن حملة ذبح منهجيّة انتهت فقط حين وقع هو نفسه ضحية لمرض الحمّى الصفراء. غير أنّ خليفته استمرّ في عمليات القتل الجماعي المروّعة والوحشيّة. ولكن لم يمضِ وقت طويل وبسبب المرض والوفيّات في القتال حتى انتهت الحملة الفرنسية ببقاء 10000 ناجيا فقط. بعد الإنسحاب، أعلنت هَيتي استقلالها في شهر كانون الثاني عام 1804، ممّا دفع باريس لبيع ما تبقى من مستعمراتها في أراضي أمريكا الشمالية للولايات المتحدة. شملت الصفقة شراء لويزيانا الشهير، الى جانب الإنتكاسات المماثلة في الهند. لقد جرّدت هذه الكوارث فرنسا الى حدّ كبير من إمبراطوريتها

الإستعمارية.[92] على الرغم من طغيان مآسي الحروب النابوليونيّة في أوروبا، أصبحت ثورة هَيتي أوّل ثورة عبيد ناجحة في العالم، وبالتالي لعبت دورا محفّزا جنبا الى جنب مع جهود الغاء العبودية في بريطانيا، التي جاءت لاحقا وساهمت في القضاء على مزارع العبيد، التي كانت سمة مُميّزة للعصر الآيبيري.

بعد أن أغلِقت أعالي البحار في وجهه، حاول نابُليون بدلا من ذلك تعزيز الضوابط الإقتصادية على إمبراطوريته القارية الشاسعة. بعد حملات عبر أوروبا بين سنتي 1805 و1806، سرعان ما بسط سيطرته على 44 مليون شخصا إمتدادا من إسپانيا غربا الى پولندا شرقا والنروج شمالا الى إيطاليا جنوبا. بينما قدّم اصلاحات التحديث على الورق، كان تأثيرها محدودا بسبب "نظام الغنائم المُتقن" والذي سمح لجنوده في البداية من نهب الأراضي المحتلة مثل وباء الجراد، خاصّة بعد أن قسّم كثيرا من إيطاليا وألمانيا وپولندا الى إقطاعيات كبيرة



إمبراطورية نابُليون بحدود عام 1810

للأعضاء البالغ عددهم 3600 عضوا من أرستقراطيته الإمبريالية. لمواجهة الحصار البريطاني لموانئه، شكّل نابُليون نظامه القاري الشهير، ممّا منع أيّة تجارة مع بريطانيا وإنشاء منطقة إقتصاديّة أوروبيّة متكاملة. حين استمرّت البضائع البريطانية في الدخول عبر إسبانيا وروسيا، غزا كُلا منهما بعد دمج جيشه في حملة نهبيّة غير مثمرة في إسبانيا كلفته 300000 جنديا وانسحابا كارثيا شتويا من روسيا، فقد فيه 500000 جنديا آخرين.[93] بحلول عام 1810 وخلال تجربته في الإكتفاء الإقتصادي الأوروبي الذاتي، أنتج ما وصفه المؤرّخ الفرنسي فرانسوا كروزيه "الأزمة الحادّة التي كسرت زخم التصنيع النابُليوني."[94]

أضعف تركيب هذه الإخفاقات مناورات نابُليون الجيوسياسية كما ثبّت عدم استقرار المستوى الإقليمي. مثل يوليُس قيصر قبل ما يقرب من 2000 عاما مضت، بدا وكأنّه ينظر الى نهر الراين على أنّه نقطة ارتكاز للسيطرة على القارّة. بعد أن هزم تحالف النمسا وبروسيا وروسيا في معركة أوسترلتز الكُبرى Battle of Austerlitz في عام 1805، حلّ الإمبراطور الفرنسي الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، التي حكمت أوروبا الوسطى لفترة وحاول استبدالها بتصميم جيوسياسي جديد. من خلال العمليات العسكريّة في العامين التاليين، قطع أراضي بروسيا الى نصفين واستولى على حصونها العظيمة على نهر أودر واحتلّ عاصمتها برلين. وفي نفس الوقت، جمع ما يقرب من 35 إمارة ألمانية في دولة تابعة لفرنسا أطلق عليها أسم كونفدرالية نهر الراين، التي تركّزت على أربع ممالك مركزية هي بَفاريا وسَكسونيا ووَستفَليا وفورتمبَرگ. إمتدت هذه الكونفدرالية من سويسرا الى بحر الشمال وكان من المُفترض أن تكون تلك الدولة الجرمانية الجديدة بمثابة دولة جيوسياسيّة عازلة لحماية فرنسا من القوّة العسكرية للنمسا وبروسيا.[95]

على الرغم من التدخّل الفرنسي المستمرّ، تماسك الإتحاد لمدة 7 سنوات فقط، وعندها تمرّدت بروسيا بالإنضمام للنمسا وروسيا في تحدّ متجدّد

لإمبراطورية نابُليون. قدّمت بريطانيا تمويلا لحلفائها القاريين على شكل مبلغ هائل في حينه مقداره 22 مليون جنيها إسترلينيًا على شكل منح ومنه قروض بمليون جنيه كإمدادات عسكرية تمّ شحنها مباشرة الى موانئ بحر البلطيق. عاقدا العزم على سحق التحالف الهائل المُحتشد ضدّه، سار نابُليون الى المانيا في ربيع عام 1813 على رأس جيش تمّ تجديده مؤخّرا بعد الخسائر الفادحة التي عاناها خلال ذلك الإنسحاب الشتوي الكارثي من موسكو. بعد عدة محاولات فاشلة لاستعادة برلين، إلتقى العدوّ في لايبزغ في منطقة سَكسونيا، حيث تكبّدت قواته 73000 ضحيّة. هجره الحلفاء في كونفدرالية الراين، وبدأ في التراجع نحو فرنسا. وممّا يدلّ على عمق فشل نابُليون الجيوسياسي، هو هروب جيشه بعد أن هاجمته قوات حليفه السابق من الجيش البافاري، الذي حاول دون جدوى عرقلة إنسحاب الجيش الفرنسي وبالتالي تمكين الحلفاء من الإمساك به وسحقه تماما.[96]

أولدت المناورة الجيوسياسيّة لنابُليون أكبر انتصاراته في خلق كونفدرالية الراين والإستيلاء على بقية الدول الأوروبيّة لتكون ضمن إمبراطوريته. في هذه المرّة سار أعداؤه الى باريس وأرسلوه الى المنفى في جزيرة إلبا الصغيرة في البحر الأبيض المتوسط. إجتمع أكثر من 20 دبلوماسيًا في ما سُمّي كونگرس فيّنّا لإعادة ترتيب العالم بعد ربع قرن من الحروب. بعد 9 أشهر من المفاوضات المُغلقة، توصّلت القوى الكُبرى الى الإتفاق على منح المُنتصرين الغنائم، وفي نفس الوقت تحقيق استقرار القارة طيلة القرن التالي. كما حدث تماما في معاهدة تورديسيلاس Treaty of Tordesillas عام 1494 لتأسيس النظام العالمي الآيبيري، هيأت قمة فيّنّا الظروف من أجل قيام نظام عالمي جديد هو عصر الإمبراطوريّة البريطانية.

كما هي العادة في ممارسة لعبة الدبلوماسية التقليدية، إستقرّت القوى المُنتصرة وهي النمسا وروسيا وبروسيا على اقتطاع الأجزاء المعتادة من

الأراضي بعضها رمزيًا والآخر كبيرا. خرجت فرنسا من القمّة وقد صودر ثلث أراضيها وأعيد ترسيم حدودها لزيادة ضعفها وتقليص إمبراطوريتها الى عدد قليل من الجزر الإستوائية ودفع التعويضات المستحقة، التي من شأنها أن تخنق الإنتعاش الإقتصادي وإنزال خسارة في السكان قُدّرت بحوالي مليوني حالة وفاة مرتبطة بالحرب. بفعل حرب العصابات الإسبانيّة، كان للمقاومة الحاسمة دور في هزيمة نابُليون. ولكن لم تفعل الجهود الدبلوماسية للحلفاء الكثير لمساعدة مدريد كي تتعافى من ويلات الإحتلال الفرنسي، وتُركت ضعيفة لدرجة أنّ بقايا إمبراطوريتها في أمريكا اللاتينية قد انهارت بعد ذلك بوقت قصير وسقطت في مدار لندن. روّج المبعوثون البريطانيّون لدمج بلجيكا في هولندا المتحدة لتعويض أمستردام عن أخذ مستعمراتها في سريلانكا وكَيب تاون ومالطا.[97] على الرغم من أنّ كونگرس ڤِيَنّا قد حافظ على السلام من خلال المؤتمرات المنتظمة، فإنّه بعد أقلّ من عقد من الزمن، نجحت تلك القمّة في تحقيق الإستقرار في القارة وتحويل الصراعات من الحروب الى الدبلوماسية.[98]

في ڤِيَنّا، كان هناك أيضا نقاش كبير حول المبادئ السياسية. إستحضر القيصر الروسي الكزندر الأوّل رؤيته الشخصية للمُثل المسيحية ودافع عن التحالف المقدّس المشؤوم لحماية المَلكية وسحق الديمقراطية. وفي مقابل ذلك سعى مبعوث بريطانيا، فيكونت كاسلرّيه Viscount Castlereagh، للحصول على دعم دبلوماسي لحملة بلاده الجديدة ضدّ تجارة الرقيق، التي بدأت فعلا قبل بضع سنوات عندما حظر البرلمان حركة مرور سفن نقل العبيد عبر الأطلسي. من خلال جهوده، تضمّنت المعاهدة العالمية الموقعة في ڤِيَنّا اتفاقية تنصّ على أنّ التجارة المعروفة باسم "تجارة الرقيق" تُعتبَر في رأي الرجال العادلين والمستنيرين من جميع الأعمار على أنّها أمر بغيض يتعارض مع المبادئ الإنسانية والأخلاق العالمية. "عقدت كافة القوى الموجودة العزم على إنهاء هذه الآفة التي دمّرت إفريقيا منذ فترة طويلة وسببت تدهور أوروبا والبشرية المنكوبة." وُصِف هذا الإلتزام بأنّه إنتصار

أخلاقي عظيم. قال اللورد كاسلرّيه لبرلمان بلاده، "إنّ مؤتمر فِيَنّا يستحقّ إمتنان البشرية... لأنّ كافة القوى العظمى في أوروبا أصدرت إعلانا وصف تجارة الرقيق بأنّها مشينة وجعل كلّ دولة حريصة أن تخرج منها." لتعزيز هذه المبادئ، وقّعت بريطانيا معاهدات مع إسبانيا والبرتغال على منع حركة الإتجار بالبشر من المرور شمال خط الإستواء. ولكن في تسوية ديلوماسية مؤسفة، تُرِكت تجارة الرقيق في جنوب المحيط الأطلسي في يد البرتغال. على الرغم من رنين إدانة العبوديّة، فشلت بريطانيا في كسب دعم الحلفاء لحظرها خلال مؤتمرين ديلوماسيين لاحقين. ولقد اضطرّها هذا الى إجراء حملة إلغاء عقوبة الإعدام من تلقاء نفسها.[99]

تراث الحرب

إنتهت مغامرات نابُليون العسكرية من خلال تسوية دبلوماسية حققت الإستقرار وقضت على أيّ تحدّ فرنسي آخر لهيمنة بريطانيا على محيطات العالم وسهّلت صعود لندن لتكون إمبراطوريّة عالمية. على نطاق أوسع، كان الدمار الذي سبّبته عقود من الحرب، جنبا الى جنب مع ديناميكية الثورة الصناعية التي تعمل بالفحم في البلاد، خُلِقت ظروف مثالية لصعود الإمبراطوريّة البريطانية وتشكيل نظام عالمي جديد.

أكثر من أيّ وقت مضى للصراعات السابقة في القرن الثامن عشر، كانت حروب نابُليون دوّامة عصفت بالقارة من خلال 228 معركة دمويّة و91 حصارا مُدمّرا وخلّفت 6 ملايين قتيلا. لقد ضحّت فرنسا بجيل كامل من شبابها وخسرت إسبانيا بعدها بقايا إمبراطوريتها. وبالمقابل، تكبّدت بريطانيا خسائر قليلة في قوّتها العاملة ولم تتعرّض لأضرار ماديّة. بدلا من ذلك، إكتسبت لندن ميزة اقتصادية كبيرة كمصرفي وورشة عمل لحلفائها القاريين. خلال قرن من الحرب انتهى بمؤتمر فِيَنّا، كانت بريطانيا قد ألغت كلّ واحد من المُنافسين القدامى من إمبراطوريات ما وراء البحار، البرتغال وإسبانيا وهولندا وأخيرا فرنسا. من خلال

الإستيلاء على مستعمرات جديدة خلال تلك العقود من الحرب، توسّع عدد سكان الأراضي البريطانية الى خمسة أضعاف، من 12.5 مليون نسمة في عام 1750 الى 61 مليون نسمة في عام 1815[100].

لم يكتفِ مؤتمر فِيَنّا برسم حدود آمنة نسبيًا في أوروبا فقط، بل أنّ هذا الأمن سيستمرّ قرنا آخر. كما استقرّت العلاقات بين دولها الكبرى بعد قرنين من الحروب على مستوى القارة وملايين من الخسائر البشرية والدمار وتكاليف اعادة الإعمار الهائلة. تمتعت أوروبا بقرن تقريبا من السلام النسبي، الذي مزّقته فقط بعض الصراعات الإقليمية، على وجه الخصوص في محيطها الجنوبي الشرقي في البلقان.[101]



لويس وإدوينا آخر مندوبين ساميين للتاج البريطاني في الهند عام 1947 (Credit: Alamy)

مع استقرار القارة بالتغلب على منافسيها البحريين، تفرّغت بريطانيا لبناء إمبراطورية عالميّة وترأس إزدهارها نظاما عالميا بديلاً كانت مبادئه الأساسية تقوم على عدة قرون. صاغ العصر الذهبي الهولندي خلال القرن السابع عشر مفاهيم جديدة للتجارة الحرّة وحرية البحار وحقوق الإنسان. تماشت تلك المبادئ العريضة مع الأفكار البريطانية المماثلة حين اندمجت المملكتين خلال الثورة المجيدة. في الكسوف الطويل للعصر الأيبيري، أثبتت بريطانيا أنّها غير جاهزة لممارسة تلك المُثُل العليا، واستخدمت انتصاراتها العديدة على إسبانيا لتحلّ محلّ القوى الآيبيريّة كدولة رئيسية في تجارة الرقيق من إفريقيا. ومع ذلك، وبحلول نهاية الحروب النابُليونية، عادت لتنادي بمبادئ التجارة الحرّة وحريّة الإنسان ممّا أكسبها قوة أخلاقية كافية لتبني تلك المبادئ، ولكن بشكل غير مكتمل كأساس للعلاقات الدولية بعد بزوغ العصر الإمبراطوري البريطاني.

بينما شرعت بريطانيا في تشكيل حقبة جديدة، لوّح دبلوماسيوها براية التجارة الحرّة لفتح الأسواق. لكنّهم استخدموا المبدأ كذريعة للتدخّلات العسكرية، التي انتهكت سيادة الدول في جميع انحاء العالم. حتى عندما استولت البحرية الملكية على سفن الرقيق باسم حريّة الإنســان، كانت بريطانيا تبني إمبراطورية واسعة من شأنها إخضاع ربع البشرية على أساس العرق وليس لأسباب دينيّة. خلال حقبة الهيمنة البريطانية العالمية، كانت مناهضة العبوديّة حملة بلا شكّ دفعت بقضيّة حقوق الإنسان، إلا أنّ ظروف المظالم لحكمها الإستعماري قد تُركت على حالها حتى توفر مجال كبير لمزيد من التقدّم.

مصادر وملاحظات الفصل الثالث

Chapter 3: Empires of Commerce and Capital

1. Peter Borschberg, "The Seizure of the Sta. Catarina Revisited," *Journal of Southeast Asian Studies* 33, no. 1 (2002), 31-62; Leonard Blussé, "Brief Encounter at Macao," *Modern Asian Studies* 22, no. 3 (1988), 647-64; Peter Borschberg, *Hugo Grotius, the Portuguese and Free Trade in the East Indies* (2011), 49-55, 114, 129, 194-95, 200-1, 203; "Jacob van Heemskerck," Rijksmuseum, https://www.rijksmuseum.nl/en/rijksstudio/historical-figures/jacob-van-heemskerck; Martine Julia van Ittersum, "Hugo Grotius in Context," *Asian Journal of Social Science* 31, no. 3 (2003), 511-48; Martine Julia van Ittersum, *Profit and Principle* (2006), 8-9, 35-40, 42, 56-67; Yasuaki Onuma, "Hugo Grotius, Dutch Statesman and Scholar," *Encyclopedia Britannica* (1/6/2020), https://www.britannica.com/biography/Hugo-Grotius.
2. Jan de Vries and Ad van der Woude, *The First Modern Economy* (1997), 83-84, 91, 127-29, 131-34, 137, 147-49, 151, 155; "Stock Market History/Historical Milestones/Amsterdam, 1602," TreeTop Asset Management, https://www.treetopam.com/behind-the-numbers/en/stock-market-history/historical-milestones/amsterdam-1602/.
3. James A. Welu, "The Sources and Development of Cartographic Ornamentation in the Netherlands," in David Woodward, ed., *Art and Cartography* (1987), 147-73.
4. Rex Wailes, "A Note on Windmills," in Bent Sorensen, ed., *Renewable Energy*, vol. I (2018), 81-86; De Vries, *First Modern Economy*, 296-303, 346-47; Frederick Stokhuyzen, *The Dutch Windmill* (1962), 14-19, 21,24, 37, 49-54, 91, 96-97, 100; Vaclav Smil, *Energy Transitions* (2017), 63-64; "Houtzaagmolen (1593)," *Nationaal Archief* (Netherlands), https://web.archive.org/web/20110704055714/http://uitvindingen.nationaalarchief.nl/uitvinding/houtzaagmolen;
   Richard W. Unger, "Dutch Shipbuilding in the Golden Age," *History Today* 34, no. 1 (1981), 16-21.
5. Astrid Kander et al., *Power to the People* (2013), 69-70, 100, 193.
6. Philip Benedict, *Christ's Churches Purely Reformed* (2002), 174-79; Jonathan Israel, *The Dutch Republic* (1995), 79-84, 93-100; Nanne van der Zijpp, "Punishment of the Anabaptists in the Low Countries," *Global Anabaptist Mennonite Encyclopedia Online* (1959), https://gameo.org/index.php?title=Punishment_of_the_Anabaptists_in_the_Low_Countries.
7. Benjamin Schmidt, "Hyper Imperialism," in René Koekkoek et al., eds., *The Dutch Empire between Ideas and Practices, 1600-2000* (2019), 67-88.

8. C.R. Boxer, *The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800* (1965), 21-23, 50; De Vries, *First Modern Economy*, 134, 139-41, 151.
9. Kerry Ward, *Networks of Empire* (2009), 21, 70-74; Gerrit J. Schutte, "Between Amsterdam and Batavia," *Kronos* 25 (1998-1999), 17-49; Jonathan I. Israel, *Democratic Enlightenment* (2011), 555-57; Guus Boone and Leendert Groenendijk, "The Dutch Calvinist Moral Offensive and the Colonial Training of Sailors and Tradesmen, 1595-1790," *Paedagogica Historica* 31, no. 1 (1995), 108-9; Charles H. Parker, "Converting Souls across Cultural Borders," *Journal of Global History* 8, no. 1 (2013), 50-71; Gert Oostlandie and Bert Paasman, "Dutch Attitudes towards Colonial Empires, Indigenous Cultures and Slaves," *Eighteenth-Century Studies* 31, no. 3 (1998), 349-55; De Vries, *First Modern Economy*, 475-76.
10. Boxer, *Dutch*, 6-7, 12-13, 20-21, 48-49; Eric Ketelaar, "Accountability Portrayed," *Archival Science* 14, no. 1 (2014), 69-93.
11. Markus Vink, *Encounters on the Opposite Coast* (2016), 118-19; Boxer, *Dutch*, 24-27, 50-51; Holden Furber, *Rival Empires of Trade in the Orient, 1600-1800* (1976), 132-33; D.K. Fieldhouse, *The Colonial Empires* (1982), 147-48; Timothy Brook, *Vermeer's Hat* (2008), 17-18; Peter Borschberg, *Journal, Memorials and Letters of Cornelis Matelieff de Jonge* (2015), 17-18; Ward, *Networks*, 34, 50-55.
12. Boxer, *Dutch*, 220-21; Geoffrey Parker, "Ships of the Line," in Geoffrey Parker, ed., *Warfare* (1995), 130-31.
13. Borschberg, "Seizure of the Sta. Catarina," 31-62; Boxer, *Dutch*, 28; C.R. Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825* (1969), 110-11;Andrew Lambert, *Seapower States* (2018), 164-65.
14. Van Ittersum, "Hugo Grotius," 520-45; Van Ittersum, *Profit and Principle*, 1, 24-27, 50, 98; Peter Borschberg, "Hugo Grotius, East India Trade and the King of Johor," *Journal of Southeast Asian Studies* 30, no. 2 (1999), 225-48; James Brown Scott, *The Spanish Origin of International Law* (2000), xiii; Borschberg, *Hugo Grotius*, 1-5, 10-11, 61, 80, 107, 110-11, 122-23, 151-52, 159-64; Peter Borschberg, "Grotius, the Social Contract and Political Resistance," *International Law and Justice Working Papers* (2006-2007), 14-18, 48-49, 55.
15. Hugo Grotius, *The Freedom of the Seas* (1916), 1-2, 7-8, 11-13, 15-17, 45-46.
16. Borschberg, "Hugo Grotius," 230-48; Van Ittersum, "Hugo Grotius," 520-41.
17. Lambert, *Seapower States*, 164-65; Jacob F. Field, "Battle of Gibraltar," *Encyclopedia Britannica* (4/18/2021), https://www.britannica.com/event/Battle-of-Gibraltar-1607; Jonathan I. Israel, *The Dutch Republic and the Hispanic World, 1606-1661* (1982), 11-12.
18. Peter Limm, *The Dutch Revolt, 1559-1648* (2014), 65-67; Borschberg, *Journal*, 35-40.
19. Boxer, *Portuguese*, 109.

20. Boxer, *Dutch*, 23; Henry Kamen, *Empire* (2003), 314-19; Brook, *Vermeer's Hat*, 38-39; Bartolomé Yun-Casalilla, *Iberian World Empires and Globalization of Europe, 1415-1668* (2019), 351, 357, 363.

21. Michael Clodfelter, *Warfare and Armed Conflicts* (2017), 36-41; Geoffrey Parker, "Dynastic War, 1494-1660," in Parker, *Warfare*, 154-58; Carlo M. Cipolla, *Guns and Sails in the Early Phase of European Expansion, 1400-1700* (1965), 52-58.

22. Clodfelter, *Warfare*, 36-41.

23. Israel, *Dutch Hispanic World*, 96-97, 100-2, 106-9, 171, 182-83, 186-89, 250-65.

24. Israel, *Dutch Hispanic World*, 163-67, 170, 176-77; Diego Rodriguez de Silva y Velázquez, "The Surrender of Breda" (1635), Room 009A, Museo del Prado, viewed 11/25/1997,
https://www.museodelprado.es/en/the-collection/art-work/the-surrender-of-breda/0cc7577a-51d9-44fd-b4d5-4dba8d9cb13a.

25. Parker, "Ships of the Line," 126; Boxer, *Portuguese*, 109-110.

26. Furber, *Rival Empires*, 34-38, 41-50; Borschberg, *Journal*, 44, 132-38.

27. Israel, *Dutch Hispanic World*, 277; Boxer, *Portuguese*, 106-11, 114-15.

28. Israel, *Dutch Republic*, 938-43; Boxer, *Portuguese*, 52-53, 57, 114-15;Ward, *Networks*, 55-64; Jan de Vries, "The Limits of Globalization in the Early Modern World," *Economic History Review* 63, no. 3 (2010), 710-33; Jane Burbank and Frederick Cooper, *Empires in World History* (2010), 161; Om Prakash, "The Portuguese and the Dutch in Asian Maritime Trade," in Sushil Chaudhury and Michel Morineau, eds., *Merchants, Companies and Trade* (1999), 175-88.

29. Fieldhouse, *Colonial Empires*, 147-48.

30. Stuart B. Schwartz, "Looking for a New Brazil," in Michiel van Groesen, *The Legacy of Dutch Brazil* (2014), 42-46; Wim Klooster, "The Geopolitical Impact of Dutch Brazil on the Western Hemisphere," in Van Groesen, *Dutch Brazil*, 25-26, 33-40; Boxer, *Portuguese*, 111-13.

31. Brook, *Vermeer's Hat*, 132; Boxer, *Dutch*, 28-29; Kamen, *Empire*, 328-29; Schwartz, "Looking for a New Brazil," 46-52; Franz Binder and Norbert Schasseloch, "Dirck Dircksz," *Bulletin van het Rijksmuseum* 27 (1979), 7-29; Roquinaldo Ferreira and Tatiana Seijas, "The Slave Trade to Latin America," in Alejandro de la Fuente and George Reid Andrews, eds., *Afro-Latin American Studies* (2018), 37; De Vries, *First Modern Economy*, 467-81, 678.

32. Herbert S. Klein and Sergio T. Serrano Hernández, "Was There a 17th Century Crisis in Spanish America?," *Journal of Iberian and Latin American Economic History* 37, no. 1 (2019), 46, 64, 43-80; Boxer, *Dutch*, 23; Lambert, *Seapower States*, 166; Kamen, *Empire*, 403-6; De Vries, *First Modern Economy*, 83-91.

33. Boxer, *Dutch*, 28-29; Lambert, *Seapower States*, 165-66; Kamen, *Empire*, 398-99; J.H. Elliott, *Imperial Spain, 1469-1716* (2002), 340-49; Israel, *Dutch Hispanic World*, 266-70.
34. Elliott, *Imperial Spain*, 341-49.
35. Derek Croxton, "The Peace of Westphalia of 1648 and the Origins of Sovereignty," *International History Review* 21, no. 3 (1999), 569-91.
36. Boxer, *Dutch*, 28-29; Boxer, *Portuguese*, 119-27; Elliott, *Imperial Spain*, 353-57.
37. Boxer, *Portuguese*, 112-14.
38. Portrait of Catherine of Braganza, circa 1661, by or after Dirk Stoop (NPG 2563); Portrait of King Charles II, by John Michael Wright, circa 1660-1665 (NPG 531); Portrait of Nell Gwyn, attributed to Simon Verelst, circa 1670 (NPG L248), all viewed at Room 7, National Portrait Gallery, London, 7/20/2019, https://www.npg.org.uk/collections/search/portrait-list.php.
39. Pieter C. Emmer, "The Rise and Decline of the Dutch Atlantic, 1600-1800," in Gert Oostindie and Jessica V. Roitmann, eds., *Dutch Atlantic Connections, 1680-1800* (2014), 339-56.
40. Israel, *Dutch Hispanic World*, 410, 412-13, 416-21, 437-40.
41. Croxton, "Peace of Westphalia," 569-91; Sebastian Schmidt, "To Order the Minds of Scholars," *International Studies Quarterly* 55, no. 3 (2011), 601-23; Henry Kissinger, *World Order* (2014), chapter 1; G. John Ikenberry, *Liberal Leviathan* (2011), 50-55.
42. Emmer, "Dutch Atlantic," 339; Israel, *Dutch Republic*, 547-64, 569-86.
43. Boxer, *Dutch*, 29, 35,120-23, 319-20; Emmer, "Dutch Atlantic," 345-46; De Vries, *First Modern Economy*, 118-19, 142, 144.
44. Boxer, *Dutch*, 41-42; Portrait of Cornelis Tromp, by Peter Lely, National Maritime Museum, Greenwich, 1675 (BHC 3060), https://collections.rmg.co.uk/collections/objects/14533.html; *The "Gouden Leeuw" at the Battle of the Texel, 21 August 1673*, by William van de Velde, National Maritime Museum, Greenwich, 1687 (BHC 0315), https://collections.rmg.co.uk/collections/objects/11807.html; De Vries, *First Modern Economy*, 673-74.
45. John Selden, *Mare Clausum* (1663), 11, 171-72.
46. Lambert, *Seapower States*, 173-76, 185-86.
47. Parker, "Ships of the Line," 126-27; Lambert, *Seapower States*, 176-77; "Dutch Ship *De Zeven Provinciën* (1665)," *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Dutch_ship_De_Zeven_Provinciën_(1665).
48. Parker, "Ships of the Line," 127-28.
49. Israel, *Dutch Republic*, 776-806; Parker, "Ships of the Line," 127-28; S. Lindgrén and J. Neumann, "Great Historical Events That Were Significantly Affected by the

Weather," *Bulletin of the American Meteorological Society* 64, no. 7 (1983), 770-78; "William III, King of England," *Encyclopedia Britannica*, vol. 28 (1911), 662-64.
50. Van de Velde, "*Gouden Leeuw*"; Israel, *Dutch Republic*, 797-814; Brook, *Vermeer's Hat*, 223.
51. Israel, *Dutch Republic*, 841-54; Jonathan Scott, *How the Old World Ended* (2019), 194-201; De Vries, *First Modern Economy*, 676-81.
52. Geoffrey Lock, "The 1689 Bill of Rights," *Political Studies* 37, no. 4 (1989), 540-61; Scott, *Old World Ended*, 203-4; "The Bill of Rights 1689," Parliament of the United Kingdom, https://www.parliament.uk/about/living-heritage/evolutionofparliament/parliamentaryauthority/revolution/collections1/collections-glorious-revolution/billofrights/.
53. Scott, *Old World Ended*, 201-10; Boxer, *Dutch*, 122-24; Israel, *Dutch Republic*, 852-54, 971; Emmer, "Dutch Atlantic," 344-45; De Vries, *First Modern Economy*, 127-28, 141, 155; François Crouzet, "The Second Hundred Years' War," *French History* 10, no. 4 (1996), 445-46.
54. Parker, "Ships of the Line," 128-30.
55. Nicholas Blake and Richard Lawrence, *The Illustrated Companion to Nelson's Navy* (2005), 64-79; Brian Lavery, *Nelson's Navy* (1989), 88-99; Michael Lewis, *England's Sea-Officers* (1939), 192-99.
56. C.A. Bayly, *Imperial Meridian* (1989), 114-21.
57. E. Lipson, *The Economic History of England*, vol. 2, *The Age of Mercantilism* (1943), 188.
58. Philip J. Stern, *The Company-State* (2011), 12-13, 207-14.
59. Ian Barrow, *The East India Company, 1600-1858* (2017), 19.
60. William Dalrymple, *The Anarchy* (2019), 9, 12-15, 20-25, 63-65, 81-83; John Darwin, *Unfinished Empire* (2012), 54-55.
61. Dalrymple, *Anarchy*, 48-49.
62. J.F. Rees, "Historical Revision: XC—Mercantilism," *History* 24, no. 94 (1939), 129-35.
63. Boxer, *Dutch*, 109-12, 211-12, 219; D.K. Bassett, "The 'Amboyna Massacre' of 1623," *Journal of Southeast Asian History* 1, no. 2 (1960), 1-19.
64. Om Prakash, *The Dutch East India Company and the Economy of Bengal, 1630-1720* (1988), 145-57; Jan C. van Ours, "The Price Elasticity of Hard Drugs," *Journal of Political Economy* 103, no. 2 (1995), 261-79; Edilberto de Jesus, *The Tobacco Monopoly in the Philippines* (1980).
65. Stern, *Company-State*, 196-97, 204-6; Fieldhouse, *Colonial Empires*, 151-52; John A. Lynn, "States in Conflict," in Parker, ed., *Warfare*, 178-85; Dalrymple, *Anarchy*, 31-48, 64-69, 240-42; Robert Travers, "Imperial Revolutions and Global Repercussions," in David Armitage and Sanjay Subrahmanyam, eds., *The Age of Revolutions in Global Context, c. 1760-1840* (2010), 146-47.

66. Dalrymple, *Anarchy*, 139-40, 187-213.
67. K.N. Chaudhuri, *The Trading World of Asia and the English East India Company 1660-1760* (1978), 19-21; Kaushik Roy, "Military Synthesis in South Asia," *Journal of Military History* 69, no. 3 (2005), 651-90; M.S. Naravane, *Battles of the Honourable East India Company* (2006), 76-77; Dalrymple, *Anarchy*, 207, 335-82.
68. Sir John Strachey, *India, Its Administration and Progress* (1903), 133-42; J.F. Richards, "The Indian Empire and Peasant Production of Opium in the Nineteenth Century," *Modern Asian Studies* 15, no. 1 (1981), 59-82.
69. Smil, *Energy*, 37-39, 100-101; R.F. Tylecote, *A History of Metallurgy*, 2nd ed. (1992), 122-25.
70. Eric R. Wolf, *Europe and the People without History* (2010), 204-31; Warren C. Whatley, "The Gun-Slave Hypothesis and the 18th CenturyBritish Slave Trade," *Explorations in Economic History* 67 (2018), 80-104; Herbert S. Klein, *The Atlantic Slave Trade* (2010), 59-60, 63-69, 105-6, 87-88, 119-23, 216-17.
71. Wolf, *Europe*, 195-201; William A. Pettigrew, *Freedom's Debt* (2018), 1-16; David Eltis, "The Volume and Structure of the Transatlantic Slave Trade," *William and Mary Quarterly* 58, no. 1 (2001), 17-46.
72. Wolf, *Europe*, 197-98; Pettigrew, *Freedom's Debt*, 1-16, 46-48, 104-5, 110-12, 115-17; Kenneth Morgan, *Edward Colston and Bristol* (1999), 1-18; Kenneth Morgan, "Colston, Edward (1636-1721)," *Oxford Dictionary of National Biography* (1/3/2008), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-5996.
73. Emmer, "Dutch Atlantic," 342-43; Schwartz, "Looking for a New Brazil," 48-49; Hilary McDonald Beckles and Andrew Downes, "The Economics of Transition to the Black Labor System in Barbados, 1630-1680," *Journal of Interdisciplinary History* 18, no. 2 (1987), 225-47; Dr. Karl Watson, "Slavery and Economy in Barbados," *History* (2/17/2011), https://www.bbc.co.uk/history/british/empire_seapower/barbados_01.shtml; J.H.Elliott, *Empires of the Atlantic World* (2006), 104-5.
74. R.B. Sheridan, "The Wealth of Jamaica in the Eighteenth Century," *Economic History Review* 18, no. 2 (1965), 292-311; Michael Ray, "Sir Henry Morgan," *Encyclopedia Britannica* (1/1/2021), https://www.britannica.com/biography/Henry-Morgan-Welsh-buccaneer; Lorraine Murray, "Port Royal," *Encyclopedia Britannica*, (5/11/2018), https://www.britannica.com/place/Port-Royal-Jamaica; Klein, *Atlantic Slave Trade*, 35.
75. Fieldhouse, *Colonial Empires*, 144-56; De Vries, "Limits of Globalization," 727-28; Israel, *Democratic Enlightenment*, 535-57.
76. Kamen, *Empire*, 439-42; Elliott, *Imperial Spain*, 361-62.

77. Kamen, *Empire*, 439-49; Lynn, "States in Conflict," 174-75; Clodfelter, *Warfare*, 70-75.
78. Kamen, *Empire*, 446-49; G.M. Trevelyan, *A Shortened History of England* (1942), 363; Boxer, *Portuguese*, 158-60; Israel, *Dutch Republic*, 968-75.
79. Clodfelter, *Warfare*, 82-89; Darwin, *Unfinished Empire*, 314-18; A.D. Francis, "The Campaign in Portugal, 1762," *Journal of the Society for Army Historical Research* 59, no. 237 (1981), 25-43.
80. Lynn, "States in Conflict," 182-85.
81. Clodfelter, *Warfare*, 85-89; Lynn, "States in Conflict," 174-85.
82. Josep M. Fradera, *The Imperial Nation* (2018), 17, 41, 50-51; Darwin, *Unfinished Empire*, 234-35.
83. Fradera, *Imperial Nation*, 53, 55, 57, 63, 73; Adam Hochschild, *Bury the Chains* (2005), 267.
84. Andrew Roberts, *Napoleon* (2014), xxxiv-xxxvi.
85. Stuart Woolf, "The Construction of a European World View in the Revolutionary-Napoleonic Years," *Past and Present* 137 (1992), 72-101.
86. Michael Sibalis, "The Napoleonic Police State," in Philip G. Dwyer, ed., *Napoleon and Europe* (2014), 79-94; Michael Broers, "Policing the Empire," in Dwyer, *Napoleon and Europe*, 153-68; Geoffrey Ellis, *The Napoleonic Empire* (2003), 26-27, 32-40, 48-58, 63-73.
87. Count Yorck von Wartenburg, *Napoleon as a General*, vol. 1 (1902), 38-39; Charles Esdaile, *Napoleon's Wars* (2008), 49-70; Travers, "Imperial Revolutions," 155-59; Darrell Dykstra, "The French Occupation of Egypt, 1798-1801," in M.W. Daly, ed., *The Cambridge History of Egypt*, vol. 2 (1998), 113-38; J. Christopher Herold, "Napoleon in Action," in Frank A. Kalker and James M. Laux, eds., *Napoleon and His Times* (1989), 22-36; Paul Strathern, *Napoleon in Egypt* (2007), 36; William Doyle, *The Oxford History of the French Revolution* (2003), 376-92.
88. J. Holland Rose, "Napoleon and Sea Power," *Cambridge Historical Journal* I, no. 2 (1924), 138-57.
89. Michael A. Palmer, "Lord Nelson," *Naval War College Review* 41, no. 1 (1988), 105-16; Tom Pocock, "Horatio Nelson British Naval Commander," *Encyclopedia Britannica* (10/17/2019), https://www.britannica.com/biography/Horatio-Nelson/Victory-at-Trafalgar; N.A.M. Roger, "Nelson, Horatio, Viscount Nelson (1758-1805)," *Oxford Dictionary of National Biography* (5/21/2009), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-19877.
90. Palmer, "Lord Nelson," 105-16; A. Lambert, "'The Glory of England,'" *Great Circle* 28, no. 1 (2006), 3-12; Marianne Czisnik, "Admiral Nelson's Tactics at the Battle of

Trafalgar," *History* 89, no. 4 (2004), 549-59; Lynn, "States in Conflict," 208-10; Darwin, *Unfinished Empire*, 24-25.

91. Fradera, *Imperial Nation*, 27-28, 30-31, 74-88; Hochschild, *Bury the Chains*, 258-61; Perry Viles, "The Slaving Interest in the Atlantic Ports, 1763-1792," *French Historical Studies* 7, no. 4 (1972), 529-43; Lynn Hunt, "The French Revolution in Global Context," in Armitage, *Age of Revolutions*, 26.
92. Hochschild, *Bury the Chains*, 256-58, 261, 268-79, 288-96; C.L.R. James, *The Black Jacobins* (1989), 90-93, 269-370; Philippe R. Girard, "'Liberté, Égalité, Esclavage,'" *French Colonial History* 6 (2005), 55-77.
93. Esdaile, *Napoleon's Wars*, 314-24, 418-28, 440-48, 479; Lynn, "States in Conflict," 204-5; Doyle, *French Revolution*, 356-60; Ellis, *Napoleonic Empire*, 57, 79, 85-87, 102-6, 123.
94. François Crouzet, "Wars, Blockade, and Economic Change in Europe, 1792-1815," *Journal of Economic History* 24, no. 4 (1964), 567-88; Lynn, "States in Conflict," 203-4.
95. Michael V. Leggiere, "From Berlin to Leipzig," *Journal of Military History* 67, no. 1 (2003), 41-44; Hans A. Schmitt, "Germany without Prussia," *German Studies Review* 6, no. 1 (1983), 9-39.
96. Leggiere, "From Berlin to Leipzig," 39-84; von Wartenburg, *Napoleon*, vol. 2, 318-69.
97. Esdaile, *Napoleon's Wars*, 532-65; Lynn, "States in Conflict," 208; Clodfelter, *Warfare*, 170-71; Crouzet, "Second Hundred Years' War," 432-50.
98. Henry A. Kissinger, "The Congress of Vienna," *World Politics* 8, no. 2 (1956), 264-80; Richard Langhorne, "Reflections on the Significance of the Congress of Vienna," *Review of International Studies* 12, no. 4 (1986), 313-24.
99. Kenneth Morgan, *Slavery and the British Empire* (2007), 174-75; T.C. Hansard, *The Parliamentary Debates from the Year 1803 to the Present Time*, vol. 32 (1816), 200-201, vol. 27 (1818), 232-34. 100. Immanuel Wallerstein, "The Congress of Vienna from 1763 to 1833," *Review (Fernand Braudel Center)* 36, no. 1 (2013), 1-24; Esdaile, *Napoleon's Wars*, 560-65; Bayly, *Imperial Meridian*, 3; Clodfelter, *Warfare*, 170-72.
101. Paul Gordon Lauren, *The Evolution of Human Rights* (2011), 74-75.
102. Boxer, *Dutch*, 101-5, 114.

الفصل الرابع

بريطانيا تتحكّم بالبحار

بتاريخ 22 نيسان من عام 1848 كانت السفينة HMS *Grecian* التي تحمل 16 مدفعا وترفع علم البحرية الملكية البريطانية، تبحر قبالة سواحل البرازيل كجزء من دوريّات مكافحة تجارة الرقّ لبريطانيا العظمى. في وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم لاحظ القائد ل.س. تيدال "مركبا مريبا رافعا اشرعته وتدفعه الرياح نحو منطقة باهيا، حيث تعتمد مزارع قصب السكّر المحلية على أعمال السخرة.

كان لدى القائد سبب وجيه للشكّ، على الرغم من أنّ سفن البحرية البريطانية قد استولت على مئات سفن نقل العبيد المتجهة الى البرازيل منذ عام 1808، حين كانت حركة مرور البشر لا تزال مزدهرة. في عام 1848 وحده هرّب تجار الرقيق ما يقرب من إجمالي 61757 إفريقيا أسيرا الى البرازيل. كانت الوجهة المحتملة للسفن هي مدينة باهيا، وتسمّى الآن السلفادور، وهي أكبر ميناء ثان لنقل العبيد عبر المحيط الأطلسي، وكانت موقعا للتجارة القاسية، التي أثرت النُّخب المحلية من السكان الأصليين.

بعد أن أطلقت السفينة HMS *Grecian* إطلاقة تحذير، استمرت مطاردة السفينة المشبوهة لعدة ساعات، ونجح البحّارة البريطانيون أخيرا في الصعود على ظهر *Bella Miquelina* قبل منتصف الليل بقليل. وجدوا في أسفل السفينة 517 إفريقيا من الرجال والنساء والأطفال وهم مقيّدون بالسلاسل ويعانون من الجوع

الشديد. في الرحلات الأخيرة للسفينة خلال الأشهر الستة الماضية استمرّ معدّل الوفيات بين الأسرى المنقولين لحوالي ٪10 من مجموع المُختطفين. في إحدى المرات وخلال عبور المحيط، مات 95 شخصا من أصل 895 شخصا. في هذه الرحلة، انطلقت السفينة *Bella Miquelina* من جزيرة لَيگوس على الساحل الأفريقي الغربي بعد أن إشترى القبطان شحنته البشرية من زعيم محلي هو الملك كوسوكو، واستغرق عبور المحيط الأطلسي 30 يوما.

بعد القبض على سفينة تهريب العبيد، واجه القائد تِندال في حينه اختيارا صعبا. كان الأفارقة في حالة مزرية من الضعف الواضح بعد أن قضوا شهرا كاملا من الحرمان. كانت السفينة تعاني "من نقص المؤن ولم يتوفّر الكثير لتزويد العبيد بالطعام." قرّر القائد وضع طاقم من بحارته لقيادة سفينة التهريب وجرّها الى باهيا القريبة لتأخذ الإمدادات الكافية لرحلة العودة الى إفريقيا للمستعمرة البريطانية في سيراليون تحت حراسة *HMS Grecian*، حيث ستقرّر محكمة أميرالية مصير السفينة. على الرغم من أنّ البرازيل قد علقت مؤخّرا معاهدة بالسماح لبريطانيا بتفتيش السفن، واصلت البحرية الملكية دورياتها للإستيلاء على تجارة الرقيق، ولم يغفل تجار الرقيق ولا البرازيليون الكثير لمنعهم. إنّ استدعاء المتهم البرازيلي لا ينبغي أن يشكّل صعوبات لعمل الميناء. وعليه بدا قرار القائد البريطاني سليما.

ومع ذلك في الطريق هبّت عاصفة رهيبة اجتاحت المحيط الأطلسي فصلت بين السفينتين، وبعد ظهر اليوم التالي دخلت السفينة *Bella Miquelina*، التي يقودها طاقم بريطاني الى خليج آولسَينتس والقت مرساتها على بعد مائة ياردة فقط من الشاطئ في ميناء باهيا. في غضون ساعات، إتّصل مهربو الرقيق البرازيليون بالمسؤولين المحليين وعقدوا اجتماعا مع رجال من رعايا المدينة الفقيرة. وعدهم الأغنياء بالمكافآت مقابل الإستيلاء على سفينة الرقيق سواء في ريو أو بيرنامبوكو أو باهيا. تجّار الرقيق الذين وصفهم القنصل البريطاني

"بالمتبوقين من الجنس البشري" كانوا رأسماليين أقوياء قاموا برشوة المسؤولين وطالبوا بتطبيق القوانين المحلية لحماية تجارتهم المُربحة.

بعد أكثر من خمس ساعات بقليل إتّجه زورقان على ظهرهما 80 رجلا مسلحا نحو سفينة تهريب الرقيق بيلا مِكِلينا. فتح طاقم قيادة السفينة البريطانيون النار على القاربين فور إدراك نوايا القراصنة القادمين واستمروا في ذلك حتى تراجع القاربان. إستمر إطلاق النار والإشتباك بالسيوف لحوالي 15 دقيقة وأسفر عنه جرح 3 من البحارة البريطانيين ولقي 3 من المهاجمين مصرعهم.

غضب المسؤولون البريطانيون وبعد نحو 90 دقيقة فقط من الهجوم على بيلا مِكِلينا، إتّصل القنصل إدموند پورتر بمنزل الحاكم البرازيلي Messias de Leão Manoel يبلغه الأحداث وطلب منه المساعدة. بعد عدة أيام كتب السفير البريطاني اللورد هاودن، الذي حدث أن كان في باهيا، الى وزير الخارجية في لندن، اللورد پالمرستّون قائلا، "لو كان كُتِب النجاح لمحاولة المغيرين على السفينة لتمت إعادة أسر العبيد، وليس هناك شكّ في أنّ جميع افراد طاقم قيادة السفينة البريطانيين لكانوا في عداد القتلى، وتمّ نقل السفينة من المرفأ، مع فرصة ضئيلة للغاية للتعرّف على مرتكبي الجريمة."

بعد الفجر بقليل بعد يومين، ألقت السفينة HMS *Grecian* مرساتها عائدة الى باهيا. وسرعان ما أدرك القائد تيندال أنّه في وضع خطير، ذلك لأنّ الحاكم البرازيلي قد عقد العزم على تأكيد سيادة بلاده وفتح تحقيقا في الهجوم وطلب حضور طاقم سفينة التهريب بيلا مِكِلينا البريطانيين الى المحكمة لغرض الإدلاء بإفاداتهم. خوفا من قيام الغوغاء بمهاجمة البحّارة، أخبر القنصل پورتر الحاكم بأنّ مواطنيه لن يشاركوا. ردّ الحاكم في لهجة أكثر حزما وابلغ پورتر أنّ السلطات البرازيلية وحدها لها الحقّ في تقرير مصير سفينة تهريب الرقيق. قام القنصل بترتيب تكليف مدير مكتب اسكتلندي محلي للإصدار والإستيراد إسمه وِلسُن سونز بتوصيل الطعام ومياه الشرب للسفينة الراسية بحمولتها من العبيد.

كتب تَندال الى القنصل البريطاني:" رؤية بيلا ميكيلينا جاهزة للإبحار، لست قادرا على الموافقة أن تبقى راسية لوقت غير محدّد في هذا الميناء، وسأغادر على الفور وآخذها معي." متحديا سلطة محاكم باهيا وتأكيد الحاكم على السيادة الوطنية، أبحرت السفينتان باتجاه ريو دي جانيرو للتجهز بالمؤونات المطلوبة لعبور المحيط الأطلسي عائدتين الى إفريقيا. بعد ستة أسابيع وصلت السفينتان الى ميناء فريتاون في سيراليون، حيث أمرت محكمة نائب الإميرالية البريطانية بمصادرة السفينة بيلا ميكيلينا لارتكابها جرائم تهريب العبيد وحملهم لما يقرب من 30 عاما. أمرت المحكمة ايضا بإطلاق سراح الأفارقة المُختطفين في مدينة فريتاون، وقدّمت لهم مجموعات الدّعم البريطانية بعض المساعدة لبدء حياة جديدة.[1]

في كافة أشكال الدراما والمآسي الإنسانية في أعالي البحار، يكشف تاريخ تلك السفينة عن المثابرة غير العادية لتجارة العبيد الأفارقة وقيم النظام العالمي البريطاني، الذي حاول وقفها. من خلال تاريخهم القومي، يعتقد معظم الأمريكيين أنّ تجارة الرقيق كانت ظاهرة القرن الثامن عشر. ولكن في القرن التاسع عشر، أثبتت حركة المرور البشرية مقاومتها للإلغاء بشكل ملحوظ، وظلت هذه التجارة أمرا ضروريا لاقتصاديّات المزارع في البرازيل والبحر الكاريبي. في الواقع، بين عام 1831 وأوائل خمسينات القرن التاسع عشر، قامت سفن تهريب العبيد بنقل 738000 أسيرا إفريقيا الى البرازيل وحدها. ربّما تكون البحرية الملكية قد حكمت محيطات العالم عام 1848، ولكنّه عندما ألقى القائد تِندال ورجاله بمرسى سفينتهم في ذلك الميناء البرازيلي فقد واجهوا اقتصادا يقوم على تجارة العبيد وذا مخالب "غُرِزَت في أعماق مجتمع باهيا." كما أنّه لأكثر من قرن من الزمن، كان لعصابات الإتّجار بالعبيد وجود قويّ في غرب إفريقيا، لدرجة أنّه كان لها حصن تجاري في مدينة Whydah في بنين. يكشف كلّ وجه من جوانب هذه الأحداث عن القوّة الإستثنائية لنظام العبودية، الذي كانت البحرية الملكية البريطانية تحاول سحقه.[2]

باستيحاء من مبادئ التنوير العليا للحرية والمبادئ البروتستانتية للمساواة البشرية أمام الله، إلتزمت الإمبراطورية البريطانية بتجميع القوّة لإستئصال تجارة الرقيق. حُظِر الإتجّار بالبشر بموجب قانون صدر عن البرلمان عام 1807، بالغاء الرقّ في منطقة البحر الكاريبي الخاصّة بمستعمراتها في عام 1833، وانتشرت البحرية الملكية لما يقرب من 80 عاما لوقف تجارة الرقيق. باستخدام نفوذها الدبلوماسي، وقعت بريطانيا معاهدة لمكافحة الإتّجار بالبشر مع الدول الأوروبية وجمهوريات أمريكا اللاتينية والممالك الأفريقية.

يكشف إلقاء نظرة فاحصة على التفاعل بين المسؤولين البريطانيين والبرازيليين خلال تلك الأيام الخمسة في باهيا عن وجه آخر لعمر هذه الإمبراطورية؛ إمبراطورية غير رسمية. تحت غطاء القوّة البحرية التي ألقت بها جنوب المحيط الأطلسي، كان بإمكان بريطانيا السيطرة على الأحداث في ذلك الميناء البرازيلي، الذي يعمل فيه 100 ألف شخصا، بواسطة 5 رجال فقط هم السفير وقائد السفينة والقنصل پورتر وزوج من الأخوة الإسكتلنديين هما أبني وُلْسُن، اللذين أدارا واحدة من العديد من الشركات البريطانية الديناميكية، التي طوّقت ساحل أمريكا اللاتينية. من خلال هذه المحافات التجارية غير المرئية، تدفّق رأس المال والدوريّات الحربية من لندن، فكانت بريطانيا في الواقع قادرة على فرض التنازل عن السيادة في دول مثل الأرجنتين والبرازيل والصين ومصر وبلاد فارس، وبالتالي الحفاظ على إمبراطوريّة غير رسميّة واسعة سيطرت بشكل ملحوظ على معظم انحاء العالم بتوجيه مجموعة صغيرة من الشخصيّات.

الإمبراطوريّة العالمية

بحلول الوقت الذي استولى فيه ثيندال على سفينة نقل العبيد، كانت بريطانيا تبني نظاما عالميا جديدا نبذ السمات الرئيسية للعصر الآيبيري السابق، بدءاً من القضاء على الإتّجار بالبشر والإنهاء الإفتراضي لتميز تلك الحقبة بين

المسيحي والوثني الذي كان شرع لوقت طويل إستعباد الأفارقة.

ولكن حتّى مع انتهاء حملتها ضدّ العبوديّة في ثمانينات القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا مستمرّة في تبنّي مفهوم رئيسي واحد للعصر الأيبيري، الحقّ في غزو الشعوب وتجريدها من الحريّات المدنية وإخضاعها لأعمال السخرة، باعتبارها غير مدفوعة أجر للعمّال في الإقتصاد الإستعماري. في مثل صارخ على الإزدواجية الإمبريالية، استبدل البريطانيون التمييز الديني الذي برّر العبودية بالتسلسل الهرمي العنصري الذي شرّع الحكم الإستعماري الأوروبي على ثلث الإنسانية. وهي الشعوب التي اشتهر الشاعر الإمبريالي روديارد كيبلنگ بتسميتها "السلالات الصغرى بدون القانون."[3] وحتى لو قبل المرء بذلك، فقد كان الحرمان الإستعماري من الحريّات المدنية أقلّ إهانة من العبودية الصريحة وفقدان السيادة الوطنية والحقوق المدنية، لا تزال هذه الحقبة الإمبراطورية تشكّل، في أحسن الأحوال، نقطة في منتصف الطريق المستمرّ نحو تحرير الإنسان.

ظهرت إمبراطوريّة بريطانيا العالمية ونظامها العالمي الجديد نتيجة عقود طويلة من حروبها ضدّ نابُليون. حشدت لندن في تلك السنوات مليون جنديًا وبحّارا لغزو أراض أجنبية، فتزايد عدد سكان إمبراطوريتها من 12.5 مليون شخصا فقط عام 1750 الى 200 مليون شخصا بحلول عام 1820. بينما شعر العالم كلّه بنمو القوّة البريطانية وتوسّعها، كان الأعظم منه في البحر الأبيض المتوسط وجنوب إفريقيا والمحيط الهندي.[4]

خلال حقبة الحروب النابُليونيّة جعلت البحرية الملكية البحر الأبيض المتوسط حتى اليوم الأخير Latter-Day *Mare Nostrum* إنّه (بحرنا)، والإستيلاء على قواعد دائمة في جزيرتي مالطا وكورفو بينما انقلب الوجود العثماني الضعيف بتحويل الإمبراطورية الى دولة عازلة لوقف احتمال وجود نوايا توسع المجر النمساوية وروسيا في ذلك البحر. سيطرت بريطانيا أيضا على الهند بشكل كامل واستولت على كيب تاون وجنوب إفريقيا وسريلانكا من الهولنديين. كما

انتزعت جزيرة مُوريشْيُس من الفرنسيين وأخضعت مشيخات القراصنة في الخليج الفارسي وفتحت مواقع شبه جزيرة الملايو في بِنانگ وسنغافورة وأرسلت المستوطنين الأوائل الى أستراليا. وأخيراً أكمل البريطانيون احتلالهم لحدّ كبير لشبه القارة الهندية الشاسعة. ومع ذلك، فقد أكملوا تلك الخطوات وليس لديهم إمبراطورية بالمعنى العادي لامتلاك مستعمرات واسعة النطاق. بالنظر الى "تفضيل لندن" لاستعمال مصطلح "التجارة" على مصطلح "السيادة"، كانت الإمبراطورية لا تزال على ما وصفها المؤرّخ فِنسنت هارلو بأنّها "سلسلة من المواقع التجارية المحميّة في النقاط الستراتيجية بقواعد بحريّة."[5]

خلقت مدة الحروب النابُليونيّة ودمارها شيئاً آخر سمّاه المؤرّخ سي آي بَيلي "أوّل أزمة عالمية حقيقية منذ غزوات المغول في القرن الثالث عشر"، والتي من شأنها أن تجعل بريطانيا العُظمى تخرج للعالم "بإرادة أيديولوجية وسياسية لعالم إمبراطوري أكثر نشاطاً." بينما كانت البرتغال تنتشر في سواحل إفريقيا وآسيا وشيّدت جيوباً محصّنة، كانت المستعمرات الإسبانية في امريكا اللاتينية مشغولة باستخراج الفضة وسكّ العملات الفضيّة للعالم. توسّعت بريطانيا في هاتين السّمتين وشكّلت أوّل إمبراطوريّة عالمية حقيقية في التاريخ. حققت البرتغال هيمنة جزئية على المحيط الهندي من خلال الاستيلاء على ثلاثة من أصل أربعة مضائق ستراتيجية. لكن بريطانيا امتلكت في وقت قصير المضائق الأربعة، وهي كَيپ تاون والسويس وهرمز ومضيق ملقا. علاوة على ذلك أتت السيطرة البحريّة الملكيّة على جميع المياه حول "جزيرة العالم" في أوراسيا وإفريقيا امتداداً الى سنغافورة، بينما غطّت الهيمنة البريطانية ببطء على الكثير من تلك القارات من خلال الحكم الإمبراطوري المباشر وغير المباشر. لم يقتصر الأمر على الجنيه الإسترليني البريطاني ليصبح بمثابة عملة احتياط عالمية، لكن لندن تولت الرئاسة أيضاً لنظام دولي موسّع للصناعة والتجارة والصادرات الرأسمالية. وفي الوقت نفسه مدّت خطوط السكك الحديدية واستعملت البواخر

وطلمت بخطوط التلغراف، وفي النهاية طوّرت موجات الأثير ليصبح الراديو الجهاز الذي ينسج العالم معا. بحلول عام 1900، كان التأثير الإجتماعي والإقتصادي للإمبراطورية البريطانية عميقان جدًا لدرجة أنّ العلماء أطلقوا إسمها على قرن الهيمنة بأنّه "العصر الأوّل للعولمة."[6] بالمعنى الكامل للبريطانيين، أصبح العصر الإمبراطوري حريقا پروميثانيًا Promethean Fire أدّى الى تشكيل نظام عالمي جديد أكثر انتشارا بكثير من أيّ شيء حدث من قبل.

في الوقت نفسه جلبت الثورة الصناعية في بريطانيا تحوّلاً في مجال الطاقة، التي من شأنها أن تحرّك العالم نهائيا بعد قوة الرياح والعضلات في العصر الأيبيري. مع توفّر إمدادات الفحم بتكلفة رائدة ومنخفضة وابحاث الطاقة من قبل علماء مثل مايكل فَرَدَي واللورد كيلفن، انتجت بريطانيا "الإختراعات الهامّة... التي تولّد الطاقة وتحوّلها." أولاً، المحركات البخارية التي تعمل بالفحم والتي بدأت في عام 1780، ثمّ المولّدات الكهربائية التي تعمل بالفحم أيضا بعد عام 1880[7].

بدأت المحرّكات البخارية في تشغيل المصانع عام 1786 والقوارب النهرية عام 1810 والسكك الحديدية في عام 1825 والبواخر عبر المحيط الأطلسي في ثلاثينات القرن التاسع عشر وسفن البحرية الملكية بحلول اربعينات نفس القرن، بينما ارتفع انتاج الفحم في البلاد بشكل مطّرد من 9 ملايين طنا في عام 1800 الى ذروة 292 مليون طنا في عام 1913[8]. كما ألغيت في بريطانيا الرسوم على صادرات الفحم وقيود بيع التكنولوجيا البخارية، ممّا جعل "عصر الفحم" تجربة عالمية مشتركة. إنتشرت طاقة البخار في جميع انحاء العالم وارتفع انتاج الفحم العالمي من 80 مليون طنّا سنويا في عام 1850 الى 1.3 مليار طنّا في عام 1914[9].

بحلول خمسينات القرن التاسع عشر، كان اسطول المحرّكات البخارية يغيّر طبيعة العمل في جميع انحاء العالم، بما في ذلك تحريك مناشر الخشب ودرس الحبوب وتقشير الأرز وجرّ المحاريث وسحق قصب السكّر. شمل الأمر معدّات البناء التي تعمل بالفحم لتغيير سطح الأرض، حيث تحرّكت

المجارف البخارية لأوّل مرّة عام 1839 في المناطق الجبلية، وكذلك الحفارات البخارية لقطع القنوات عام 1844 وتطبيع الطرق وتسويتها بالعربات البخارية عام 1867. بين الأعوام 1880 لغاية 1900، كان عدد المحرّكات البخارية قد تضاعف في الولايات المتحدة بمقدار ثلاث مرّات من 56000 محركا الى 156000 محرّكا، وهو ما مثّل في حينه 77٪ من كافة القوّة الصناعية الأمريكية.[10]

كان الفحم حافزا للثورة الصناعية، إذ استخدمته تكنولوجيا البخار لإنتاج الصُلب وجعل بريطانيا سيدة العالم في المحيطات. إنّ اكتشاف تقنية "التفجير الساخن" Hot Blast لإزالة الشوائب قد رفع إنتاج الحديد البريطاني 30 ضعفا. تماما ومثل ما فعل بسمّر وتومَس- گِلكرِست، توسّعت عمليات إنتاج الصُلب في أوروبا فقط من 125000 طنّا عام 1861 الى 32 مليون طنّا بحلول عام 1913. سمحت ابتكارات مراجل الغلايات والمراوح والهياكل المغلفة بالحديد في احواض بناء السفن البريطانية لبناء السفن التجّارية الكبيرة مثل *SS Agamemnon* بزنة 2200 طنّا والتي يمكن أن تُبحر دون توقّف مسافة 8500 ميلا بشحنة واحدة من الفحم، وبالتالي اختصار قطع المسافة الى الصين من 90 يوما الى 65 يوما فقط. وليس من المُستغرب إذن أنّه خلال نصف قرن بعد ذلك في عام 1860 كانت السفن البريطانية تشكّل أكثر من ثلث سفن اسطول التجارة في العالم.[11] بدلا من الحصول على ارباح السكّر من عرق عمال السخرة في عدد قليل من الجزر الإستوائية، بدأ الإقتصاد البريطاني الآن يصدّر رأس المال والبضائع الصناعية الى الأسواق العالمية.

خلّد فنانون مثل الرسام ج.م.و. تيرنَر قدوم عصر القوّة البخارية في لوحات ضخمة الحجم محفوظة في المتحف الوطني الى جانب الصور الملكية للإنتصارات العسكرية. تصوّر إحداها غروب الشمس بشكل مجازي وفي الخلفية ساحبة سوداء تقذف البخار وتسحب البارجة الحربية *Fighting Temeraire* ذات الثلاث صواري. كانت تلك لوحة تمثل القتال المرير الذي توّج بالإنتصار في معركة ترافلگر. ولكنّ البارجة الآن بيضاء كالطيف قد طوت

أشرعتها العالية وهي تتجه باستسلام نحو حوض إصلاح السفن. تماما وكما عُرضت *Temeraire* تراجع عصر طاقة الرياح الى زاوية النسيان، تصوّر لوحة أخرى "الغرب العظيم بعد مدّ سكّة الحديد" حيث اندلعت القاطرة البخارية وكأنها خارجة من ضباب الماضي وإطاره مسرعة ببريطانيا نحو المستقبل.[12]

حين أفسحت قوة الرياح والعضلات في العصر الآيبيري الطريق للبخار أولا، ثمّ لاحقا افساح المجال للمحرّكات الكهربائية والبنزين، تمّ تحرير الجنس البشري ببطء من العبودية الغاشمة بأشكالها العديدة القديمة: القنانة والخداع والسخرة، وقبل كلّ شيء العبودية. الواقع أنّ بريطانيا، التي بدأت تعمل بالفحم، لم تكن الثورة الصناعية والغاء العبودية مجرّد مصادفة، لكنّها علاقة سببية. كلّ خطوة في القضاء على العبوديّة كانت تُنذر بها مرحلة استخدام بريطانيا للطاقة التي تعمل بالفحم، بما في ذلك إدخال قوة البخار في المطاحن والمناجم. بحلول الوقت، الذي حظر فيه البرلمان تجارة الرقيق في عام 1807، تطوّرت المحرّكات البخارية الخاصّة بالنقل البحري والبرّي قبل إلغاء الرّق في جزر الهند الغربية عام 1833. كان اعتماد الفحم لتوليد القوة البخارية في جميع الصناعات البريطانية بحلول خمسينات القرن التاسع عشر تقريبا، أي عندما وصلت دوريات البحرية الملكية المناهضة للعبودية ذروتها القسرية. ظهرت في وقت لاحق أشكال جديدة للطاقة الأحفورية مثل الكهرباء ومحرّكات الإحتراق الداخلي، التي ستؤول الى أنّ العمل القسري للعصر الإمبراطوري قد اصبح فائضا عن الحاجة.

لكنّ التحرّر، مثله مثل كلّ تغيير إجتماعي مهم، كان جاء دون توقّع التكاليف. أحرز التقدّم في اكتشاف الوقود الأحفوري من باطن الأرض في زيادة الخسائر بشكل غير مرئي كلّ عام. بدأ ثاني أوكسيد الكاربون الناجم عن دخان الفحم وانبعاثات الإحتراق الداخلي تتراكم في الغلاف الجوي. كما لاحظ بول كروتزن، الحائز على جائزة نوبل، أنّ "التركيزات العالمية المتزايدة لثاني أوكسيد الكربون والميثان" في الغلاف الجوّي "قد تزامن مع تصميم جيمس وات للمحرّك

البخاري عام 1784." في الواقع، شكّلت بريطانيا وصناعاتها 80٪ من انبعاثات الوقود الأحفوري في عام 1825 و62٪ في عام 1850. بحلول نهاية القرن التاسع عشر نشر الفيزيائي السويدي سفانتي أرنيوس تقريره الأول عن قدرة الإنبعاثات الصناعية على إحداث ظاهرة الإحتباس الحراري. من خلال ساعات لا تُحصى من الحسابات اليدويّة المُضنية، توقّع ببصيرة خارقة ودقّة كبيرة أنّ "درجة الحرارة في مناطق القطب الشمالي سترتفع حوالي 8 درجات الى 9 درجات مئويّة، إذا زاد ثاني أوكسيد الكاربون بمقدار 2.3 أو 3 أضعاف نسبته السارية."[13]

لم يستطع شيء واسع ومعقد مثل النظام العالمي البريطاني أن يظهر فجأة مثل الآلهة أثينا التي قفزت مسلحة بالكامل من رأس أبيها زيوس. كانت بريطانيا القوة البارزة في العالم لأكثر من قرن. ولكن مع ذلك، تجاوزت هيمنتها خلال قرنين مراحل متميّزة. أشرفت الى حدّ كبير منذ عام 1815 لغاية 1889 على "إمبراطوريّة غير رسميّة" مع هيمنة فضفاضة على الدول التابعة في جميع أنحاء العالم. في فترة "الحكم الإمبريالي السامي" من 1880 لغاية 1940، جمعت الإمبراطورية غير الرسمية السيطرة على دول مثل الصين ومصر وإيران مع حكم مباشر على المستعمرات في إفريقيا وآسيا شملت نصف البشرية جمعاء.

في النصف الأوّل من قرنها كقوّة مهيمنة عالمية، إتّبعت بريطانيا رؤية اللورد بالمرستون، الذي طمحت سياسته في الإمبراطوريّة غير الرسميّة الى وصول التجارة دون سيطرة إقليمية. خلال السنوات الخمس عشرة، التي قضاها كسكرتير للشؤون الأجنبية، لعب القوى الكُبرى ضدّ بعضها البعض، ممّا منح بريطانيا حريّة التصرف والحصول على مستعمرة هونگ كونگ وتأمين زرع نفوذها في الدول التابعة في مصر وإسبانيا وتركيا العثمانية وأمريكا اللاتينية. كرئيس للوزراء، واصل بالمرستون الترويج لمصالح بلاده دون توسيع مستعمراتها. ذكر، "دعونا نحاول تحسين كلّ هذه من خلال التأثير العام لتجارتنا." وأضاف موضّحا، "ولكن دعونا نمتنع عن حملات فتوحات صليبية ستجلب علينا... إدانة جميع الأمم المتحضّرة الأخرى. يجب أن

نتوقع أنّ الدول الضعيفة الأقلّ تحضّرا ستفشل في احترام معاهداتها التجارية. ولكن ماذا بعد ذلك؟" وصف "استعراض القوّة المتفوّقة" عادة من قبل البحرية الملكية بأنّه يمكن أن يكون ضروريًا.[14]

بالتوازي مع سياسة الإمبراطوريّة غير الرسميّة هذه، ذهب اقتصاد إنكلترا من خلال فترة انتقالية موسّعة كمثل للمذهب التجاري، وهو الشكل الأقدم من التنظيم. استمرّت التجارة التقليدية في تحقيق الأرباح، التي استحوذت على رأس مال جديد من الصناعة والتمويل والتجارة الحرّة. في تداخل زمني بين العصور، إستمرّت الأشكال القديمة للتجارة الخاضعة للرقابة حتى في بريطانيا لتلغي العبوديّة في مستعمراتها الكاريبية وأنهت احتكارات شركة الهند الشرقية المُربحة على التجارة الآسيوية. كالثورة الصناعية، اكتسبت زخما فنمت حصة بريطانيا في التصنيع العالمي من 47٪ في عام 1830 الى 59٪ في عام 1860. طغى هذا على الولايات المتحدة بنسبة 13٪ وألمانيا بنسبة 9٪ فقط.[15]



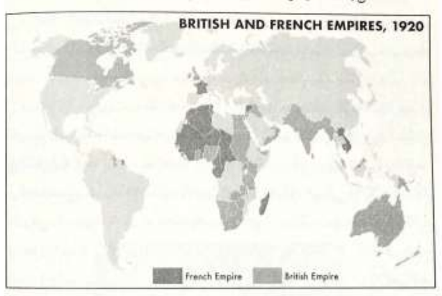
اللورد بالمرستون وزير الخارجية ومهندس الإمبراطورية البريطانية حوالي عام 1850 (Credit: Alamy)

عندما أفسحت الإمبراطورية غير الرسمية المجال للحكم الإستعماري الرسمي في تلك الفترة "الإمبريالية العالية" بعد عام 1880، أصبحت بريطانيا واحدة من إثني عشر دولة وقوى مختلفة تتنافس بشكل قويّ على المستعمرات، فأغرقت الكوكب في عربدة الفتوحات. بحلول عام 1900 استحوذت الإمبراطوريات الخمس عشرة في العالم على 146 مستعمرة إمبراطورية غطّت 40% من مساحة اليابسة وتحكّمت بحياة 550 مليون شخصا، أي ثلث البشرية. صنعت هذه الحقبة بأقصى معانيها ما يمكن تخيّله للعصر الإمبراطوري.[16]

على الرغم من المنافسة المتزايدة، إستمرّت التجارة البريطانية الخارجية في التوسع، حين أرسلت مصارفها الجزء الأكبر من رأس مالها السائل الى الخارج في استثمارات بلغت قيمتها ما يقرب من 4 مليارات جنيها إسترلينيًا وحققت أرباحا سنوية قدرها 200 مليون جنيها إسترلينيا، أي حوالي 10٪ من الدخل القومي. وتبعتها 17 شركة هندسية بريطانية في استثمار رأس مالها في الخارج وتصدير السكك الحديدية والمحرّكات وعربات النقل لبناء شبكات في جميع انحاء العالم، بينما وضعت شركات التلغراف التابعة لها خطوطا للإتصالات السريعة عبر المحيطات.

تزامن الإنتقال الى الإمبريالية العالية مع ابتكارين مهمّين في استخدام الوقود الأحفوري. بعد حفر أوّل بئر عميق في العالم في منطقة أويل كريك بولاية بنسلفانيا، ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في ستينات القرن التاسع عشر باعتبارها أكبر منتج للنفط في العالم. وهو منصب احتفظت به طوال جزء كبير من مرحلة المائة عام التالية. بعد التطوّر السريع في سبعينات القرن التاسع عشر لحقول نفط Bibi-Heybat بالقرب من باكو في طاشقند، على بحر قزوين، قام المنقّبون الأوروبيّون بالمثل في استكشاف حقول غنيّة في إندونيسيا وبورما وإيران. بحلول نهاية القرن، أوجدت مثل هذه الإكتشافات مخزونا كافيا من النفط لتمكين التّحوّل من البخار الى محرّكات الإحتراق الداخلي في السفن

والقطارات والسيارات وفي النهاية الطائرات. بما أنّ النفط يحتوي ضعف الطاقة الحرارية للفحم، قرّرت البحرية الملكيّة تحت قيادة وِنستُن چرچِل، بصفته اللورد الأوّل للإمبريالية في عام 1912 أنّه ستكون جميع السفن الحربية من الآن فصاعدا تعمل بالنفط. وسرعان ما تبعتها البحرية الأمريكية.



خارطة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية بحدود عام 1920

بينما كان لدى أمريكا إمدادات وفيرة من النفط المحلي، لكنّ البحرية الملكية بالمقابل لم تستثمر أيّ شيء في شركة النفط الإنگلو- فارسية، سوى توفير رأس مال محدود لتطوير حقل بعيد في جنوب إيران وبناء مصفاة ضخمة في عبادان على الخليج الفارسي. سرعان ما أصبح النفط أمرا بالغ الأهمية للنقل، لكنّه لم يحلّ محلّ الفحم كمصدر للطاقة في أوروبا والولايات المتحدة حتى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وهو ما جعل انتشار البترول لاحقا مرادفا للنظام العالمي لواشنطن.[18]

على النقيض من ذلك، انتقلت الكهرباء من مقدمة الإكتشاف الأوّلي الى كلية الوجود في مسألة عقود. في عام 1882، إفتتح تومَس أديسُن أول مكان قابل

للحياة في عالم محطة توليد الكهرباء في جنوب مانهاتن. جلبت هذه الخطوة شكلا جديدا من الطاقة الأحفورية الى المنازل لغرض الإضاءة، والى المصانع من أجل إنتاج أكثر كفاءة. بعد ثلاث سنوات قام جورج وَستينگهاوس بوضع نظام التيار المتردد في مدينة پِتسبَرگ، الذي تغلب على قيود المسافة في شبكة أديسُن، وبالتالي إنشاء التكنولوجيا في وقت لاحق لشبكة الكهرباء الوطنية. بالتوازي مع تلك التطوّرات، بنى المهندسون البريطانيون أوّل محطة طاقة مركزيّة رئيسيّة في العالم في منطقة دِتفورد بلندن عام 1888، والتي كانت قادرة على إضاءة مليوني مصباحا كهربائيا. إنتشرت المحطات الكهربائية بسرعة وتمّ تشغيل المولدات بواسطة أول توربينات بخارية تعمل بالفحم، وانتجت مائة كيلوواط من الطاقة، وهو أمر غير مسبوق وربط وصلة بين الفحم والكهرباء استمرّت حتى يومنا هذا.[19]

رغم توسّع إمبراطوريتها الإقليمية، إنحسرت القوة الإقتصادية لبريطانيا بانخفاض حصّتها من الناتج الصناعي العالمي الى 14٪ فقط في عام 1913، بعيدا عن الولايات المتحدة، التي حققت 47٪ وألمانيا 21٪. كما تخلفت بريطانيا في إنتاج الكيمياويات والسلع الكهربائية ومنتجات الصّلب التي وقعت في قلب "الثورة الصناعية الثانية."[20] منذ صعود قوّتها العالمية بعد الحروب النابُليونية المفاجئة لغاية أزمة الزوال المفاجئ إثر أزمة السويس عام 1956، شكّلت الطاقة، الناتجة سواء عن الفحم أو النفط، مصير الإمبراطوريّة البريطانية.

إمبراطورية بريطانيا "غير الرسمية"

في العقود التي أعقبت هزيمة نابُليون، إزدهرت الإمبراطوريّة البريطانية الآخذة في اتساع سيطرتها غير المباشرة من خلال الدول التابعة، التي ظلت مستقلة إسميّا بينما لا تزال منفتحة على نفسها لقيادتها تجاريّا وسياسيّا. كانت أمريكا اللاتينية مثالا رئيسيّا، كما ورد في ملاحظة عرضية مباشرة بعد أن اجتاحت

الثورات الوطنية قروناً من الإستعمار الإسباني. قال وزير الخارجية جورج كاننگ في الهند عام 1824، "أمريكا الإسبانيّة حرّة، وإذا لم نسيء إدارة شؤوننا بشكل مؤسف فهي إنگليزيّة."[21] مدّت الشركات البريطانية شبكة من طرق الشحن على طول ساحلي القارة وربطتها بإنگلترا. بحلول عام 1860، إمتلكت بريطانيا 76٪ من السندات الحكوميّة في أمريكا اللاتينيّة وسيطرت على العديد من المناجم والسكك الحديدية والمرافق العامة. بحلول عام 1913، شكّلت هذه المُقتنيات ما يقرب من ربع جميع الإستثمارات البريطانية في الخارج. كانت البحرية البريطانية دائمة التواجد، ممّا وفّر الشعور بالأمن لتلك المشاريع[22] بدلاً من الحكم المباشر من قبل حكّام المُستعمرات. تولى التجّار والمصرفيون البريطانيون شؤون الشحن والتأمين والقضايا المالية في الموانئ الرئيسية، ممّا جعل أمريكا اللاتينية جزءاً لا يتجزّأ من موانئ إمبراطورية لندن غير الرسمية للتجارة ورأس المال.

كان لهذا الموقف الإمبراطوري البسيط جذوره الفكريّة في عصر التنوير لانتقاد الحكومات المطلقة، لا سيّما القيود المفروضة على الحرية الفردية وتجارة السوق الحرّة. في كتابه "ثروة الأمم"، هاجم الفيلسوف الأسكتلندي آدم سميث المذهب التجاري، الذي احتكر التجارة على افتراض أنّ الثروة محدودة. جادل بدلاً من ذلك أنّ كلي الشريكين يستفيدان من التبادل الحرّ للسلع على أساس الميزة النسبيّة. "تضييق نطاق المنافسة دائماً من مصلحة المضاربين Dealers،" مشيراً الى الماركنتيليّة. "إنّ التضييق يأتي بطلب من الرجال، الذين لا تتشابه مصالحهم مع مصلحة الجمهور، والذين لهم مصلحة عامة في خداعه وحتى قمعه."[23]

من خلال تأثير سميث وزملائه من المفكّرين في التنوير الأسكتلندي حول تطوير إقتصاديات عدم التدخّل، ألغى البرلمان مذهب القوانين التجارية، الذي كان يحمي التجارة البريطانية لعدة قرون، بدءاً من إلغاء احتكارات الهند الشرقية

التجارة الآسيوية. كان تمرير قانون الإصلاح العظيم في عام 1832، قد وسّع نطاق الناخبين والغى "المقاطعات الفاسدة" Rotten Boroughs التي كانت تسيطر عليها طبقة النبلاء الريفية واعقبها القضاء الحرّ باصلاحات السوق، التي من شأنها أن تمثل نهاية المذهب التجاري. في عام 1846 ألغى البرلمان قوانين الذرة، التي كانت تمنح الامتياز للمقاطعات الأرستقراطية لفرض الضرائب على استيراد الحبوب وتوفير الخبز للفقراء. بعد ثلاث سنوات، ألغى المشرّعون أيضا قوانين الملاحة شديدة التقييد، التي كانت تحمي الشحن البحري البريطاني من المنافسة الأجنبية منذ القرن السابع عشر.[24]

في الإنتقال الطويل من مذهب الماركنتيليّة الى التجارة الحرة، كانت هناك تجارتان مسيطرتان على التجارة الخارجية البريطانية خلال القرن الثامن عشر الذي شهد الأقدار المتناقضة. في إطار سياسة مناهضة العبودية، قضت بريطانيا بشكل منهجي على الأعمدة الرئيسية القديمة في مثلث عبر الأطلسي، بدءاً من إلغاء تجارة الرقيق عام 1807. في نفس الوقت أدّى ازدهار انتاج المنسوجات البريطانية الى ظهور نهم لا يشبع من الطلب على القطن، الذي حوّل دائرة التجارة الأطلسية في شمال الكاريبي باتجاه الولايات المتحدة، حيث ستدعم الجنوب في مسألة عبودية المزارع لنصف قرن آخر. على النقيض من ذلك، استمرّت تجارة بريطانيا الآسيوية تبدي تغيّرا طفيفا ملحوظا في سياسة الإمبراطورية غير الرسميّة، لنشر القوّة البحرية لفرض الإقتصادات المنفتحة والمغلقة مثل ما حدث في الصين، وتنمية التجارة الخارجية لاستكمال الصناعات المحلية والتلاعب الدبلوماسي بالدول الضعيفة.

تشكّل المثلث التجاري الآسيوي من خلال تآزر غير عاديّ بين مكننة غزل القطن في بريطانيا واحتكار زراعة الأفيون في الهند. منذ سبعينات القرن الثامن عشر فصاعدا، قامت شركة الهند الشرقية وحدها بتوجيه تجارة الأفيون، من الزراعة الى التحضير الى حقّ التصدير. كان للشركة مصانع التكرير الخاصّة في

باتنا وبيناريس في قلب منطقة زراعة الأفيون شمال شرق الهند. أشرف ضبّاط بريطانيون كبار على 2000 وكيلا هنديا كانوا يتجوّلون في حقول الخشخاش التي غطّت حوالي 500000 فدّانا من الأراضي الزراعية الرئيسية. وقدّم هؤلاء الوكلاء الإئتمان وجمع الأفيون الخام من أكثر من 1000000 مزارعا هنديا. تمّت معاجة المحاصيل تحت أشراف صارم في تلك المصانع بتجفيف الناتج وتحويله الى كرات صغيرة وتعبئته في صناديق خشبية يزن كلّ منها 140 رطلا. نُقِلت الصناديق بزوارق تجري في نهر الگنجي الى كلكتا لتُباع هناك في مزاد للتجار البريطانيين والهنود.[25]

كانت الصين قد حظرت الأفيون باعتباره "رذيلة مدمّرة ومربكة"، ولكن لم يمنع هذا من قيام قباطنة بحريّون بريطانيون برشوة أفراد في مقاطعة ماندرين وعاصمتها كانتون في جنوب البلاد. قاموا من هناك بتهريب الصناديق الى داخل الصين، حيث توجد مكاتب تجارية للشركة التي كانت تبيعه بضعف سعر المنتجات المنافسة الرديئة،[26] وحيث تمّنت شركة الهند الشرقية الإستقرار فوق الربح. حمل البريطانيون لأكثر من 20 عاما، المزيد من صادرات الأفيون الهندية بحيث وصلت الى ما يقرب من 4000 صندوقا، أو 280 طنّا، وهو ما كفى فقط تمويل مشترياتها من محصول الشاي الصيني.[27]

إنتهت تلك التجارة الخاضعة للرقابة في عام 1833، حين ألغى البرلمان كافة احتكارات شركة الهند الشرقية وتحرير التجّار الأمريكيين والبريطانيين بحيث أمكن القباطنة توسيع شحنات الأفيون الى الصين. عاقدة العزم على الدفاع عن حصتها في السوق مقابل مصادر الأفيون المنافسة من تركيا والساحل الغربي للهند، حاولت شركة الهند الشرقية البريطانية "جعل المنافسة غير مربحة" بمضاعفتها زراعة الخشخاش في شمال شرق الهند. كما غمر الإنتاج الهندي المزدهر في كانتون، زادت واردات الأفيون، التي لا تزال غير قانونية بموجب قوانين الصين، عشرة أضعاف ما كانت عليه ووصلت الى 2814 طنّا بحلول عام 1840. وبدلا من

عمليات التهريب السرية إزدحمت المراسي بالسفن السريعة وهي محملة بشحناتها غير المشروعة وصدّ ضباط الجمارك الصينيين بالرشاوى وأحيانا باستخدام الأسلحة النارية. اصبح تدخين الأفيون مشكلة إجتماعية كبيرة يمارسها 27٪ من الذكور البالغين في البلاد فانتشرت مشكلة الإدمان بحلول نهاية القرن.[28]

بعد حوالي خمس سنوات من هذا المشهد، عيّن امبراطور الصين شخصا من مقاطعة ماندَرين إسمه لين زاكسو Lin Zexu ليكون مفوّضا ساميًا خاصا له مع صلاحيات واسعة "للذهاب والتفتيش واتخاذ الإجراءات المطلوبة". بعد إغراق لين لكمية بلغت 95 طنًا من الأفيون البريطاني في خندق مليء بالملح والجير، أرسلت لندن اسطولا من 6 سفن حربية و7000 جنديًا لتبدأ حرب الأفيون الأولى للإستيلاء على كانتون وعدد من المدن الساحلية في الصين. إنتهوا من "تلقين الصين درسا" سمّاه اللورد پالمرستون، "أكثر نموذجية حين تخلت بكين عن هونگ كونگ عام 1842 وفتحت 5 موانئ للتجارة الخارجية بموجب المعاهدة الجديدة." كما وافقت على دفع تعويض قدره 6 ملايين دولارا، وهذه امتيازات من شأنها أن تجعل الصين قريبا جزء من إمبراطورية بريطانيا غير الرسمية.[29]

خلال نصف القرن الذي احتكرت فيه شركة الهند الشرقية إنتاج شمال شرق الهند، كانت صادرات الأفيون على حدّ سواء مربحة للغاية ومتوازنة بعناية، وبلغت قيمتها 21 مليون جنيها إسترلينيا من الأفيون والسلع القطنية التي تمّ شحنها من الهند الى الصين، وإرسال الشاي الصيني بقيمة 20 مليون جنيها إسترلينيًا الى بريطانيا و24 مليون جنيها إسترلينيا[30] لقيمة المنسوجات والآلات البريطانية التي يتم استيرادها الى الهند. كمحطة أخيرة لتصدير المنسوجات الى الهند، ارتبطت هذه التجارة لآسيويّة بالثورة الصناعية البريطانية، باعتبارها الجناح الثالث للتحوّل التكنولوجي، بعد إنتاج الحديد والطاقة البخارية.

كان لتصنيع انتاج المنسوجات أصولٌ متواضعة بشكل مدهش. في عام 1771 طوّر رِچرد آركرايت، وهو حلاق شعر غير متعلم، آلة لغزل ألياف القطن

وتحويلها الى خيوط وبناء أوّل مصنع للنسيج في العالم على ضفة نهر في منطقة مِدلاندز البريطانية. بعد ثمان سنوات، إخترع عامل النسيج صَموئيل كرومبتُن المجمّع الدوار Spinning Mule، الذي خفّض تكلفة صناعة الغزل ومنح بريطانيا ميزة هائلة على منافستها الرئيسية في البنغال في شمال شرق الهند، وتُصبح منتجا رئيسًا لكل الخيوط المغزولة يدويًا وابتكارات المنسوجات اليدوية الصغيرة. قضى الغزل الميكانيكي للخيوط الى حدّ بعيد على معظم العمالة في ذلك المجال. كما منح جزء مكثّف من انتاج المنسوجات لبريطانيا ميزة في صنع سلعة أساسية من شأنها أن تستمر على مدى نصف القرن التالي مجالاً عالميا للتواصل التجاري.

في ابتكار حاسم آخر، أتقن المخترع الأسكتلندي جَيمس وات المحرّك البخاري لدفع الحركة الدورانية، التي سيتم تطبيقها بعد ذلك على الغزل والنسيج.[32] بحلول عام 1800 تمكن وات من صنع 325 محركا استخدم ثلثها في مصانع النسيج.[33] بحلول عام 1812، كان هناك 5 ملايين من المغازل في بريطانيا تعمل بقوة البخار، ممّا قلل الوقت اللازم لإنتاج 100 رطلا من خيوط القطن. أختُزلت 50000 ساعة عمل يدوي في الهند الى 300 ساعة فقط لعمال مصنع بريطاني. إرتفعت صادرات المنسوجات البريطانية الى الهند، ممّا أدّى فعليا الى القضاء على صادرات المنسوجات البنغالية بحلول عام 1860 وتشريد 560000 عاملا هنديًا. بحلول ذلك الوقت، كانت مناطق الطاحونات البريطانية في لانكشر تعمل بالبخار بالكامل تقريبا وتمّ حرق 6 ملايين طنًا من الفحم سنويًا.[34]

أدّى ازدهار المنسوجات هذا أيضا الى تحوّل في التركيب التجاري البريطاني الآخر. في شمال الأطلسي وفي عام 1793 كان تصنيع إنتاج القماش البريطاني متسارعا بفضل اختراع مهندس يانكي إسمُه ألي ويتني لآلة بسيطة لحلج الأقطان، التي قضت على عملية كثيفة العمالة لفصل بذور النبات عن أليافه وجعل الألياف القصيرة الأمريكية أصنافا تنافسيّة دوليًا. وسرعان ما اصبح

القطن ملكا للولايات المتحدة فارتفع الإنتاج من 3000 بالة، تزن كلّ منها 500 رطلا الى 732000 بالة بحلول عام 1830. عندما بدأ أصحاب المزارع عملية نقل 835000 عبدا الى المناطق المستقرّة على ساحل المحيط الأطلسي للعمل في التربة الغنيّة لزراعة القطن في دلتا نهر المسيسيبي، قرّرت واشنطن فتح تلك الأراضي بالكامل من خلال الطرد القسري للأمريكيين الأصليين. بعد عام 1830، طُرِد ما يقرب من 60000 فردا من 5 قبائل هي الشيروكي والكريك وشوكتا وچيكاشاو وسيمينَول Choctaw, Chickashaw, and Seminole Cherokee, Creek ونُقلوا بالقوة الى مناطق أوكلاهوما على "درب الدموع" Trail of Tears، حيث مات اغلبهم بشكل جماعي نتيجة للبرد والجوع. عشية الحرب الأهلية الأمريكية عام 1860 كان هناك 3 ملايين أمريكيا من أصل إفريقي عبيدا انتجوا ما يقارب من 4.5 مليون بالة من القطن سنويّا شُحِنت منها 350000 بالة الى بريطانيا لتوفير فرص عمل لنحو 440000 عاملا. ومثلت هذه حوالي نصف إجمالي الصادرات الأمريكية، بينما شكّلت المنسوجات القطنية حصّة مماثلة من الصادرات البريطانية.[35]

ساعدت الزيادة في الصادرات الأمريكية من القطن الخام في تغيير طابع التجارة عبر الأطلسي. حين ألغت بريطانيا نظام العبيد الخاصّ بها في منطقة البحر الكاريبي بدرجات، أصبحت تعتمد على عبودية المزارع الأمريكية. تحولت التجارة الأطلسية في هذه العملية شمالا لتشكل تبادلا ثلاثيا جديدا تماما يحمل القطن من الولايات الجنوبية للولايات المتحدة عبر المحيط الأطلسي الى ميناء لِڤربول. وتمّ نقل البضائع بريطانية الصنع الى مانهاتن، ومن هناك الى أسفل الساحل الشرقي للجنوب الأمريكي.[36] ظلت العبودية بطبيعة الحال القوّة الدافعة في هذه الدائرة التجارية، ممّا زاد في حدّة الجدل حول إلغائها على كلي جانبي المحيط الأطلسي.

حتى عندما حوّلت الطاقة البخارية طبيعة العمل في المصانع في أوائل القرن التاسع عشر، ظلت مزارع الرقيق الجنوبية منتجة بشكل مدهش من اشكال

الزراعة. بفضل مزيج من أبشع انواع الإكراه والعنف والحوافز الماديّة، كانت العمالة في مزارع العبيد النموذجية، وفقا للمؤرخين الإقتصاديين، "تعمل بجدّ وأكثر كفاءة من مزارع البيض في شمال البلاد." حتى عشيّة الحرب الأهلية ظلت اقتصاديات المزارع الجنوبية تحقق عائدا بنسبة 6% من مبيعات القطن وحققت مكسبا رأسماليا سنويا بنسبة 7.6% رغم ارتفاع قيمة العبيد بين السنوات 1850 و1860. في الحقيقة، شهدت العبودية في ذلك العقد توسّعا سريعا في زراعة القطن في "الجنوب الجديد" الذي ضمّ ولايات آركنسا ولويزيانا وتكسس.[37]

بالرغم من التصاق الجنوب بقوّة بنظام العبيد المُربح، قرّر الشمال أنّ هذا الرجس الأخلاقي يجب أن ينتهي، فكانت النتيجة المنطقية أن تبدأ حرب أهلية حول قضية العبوديّة. عكست ضخامة القضايا في المحكّ، فكانت تلك حربا شاقّة دامت 4 سنوات، وتركت 750000 قتيلا لدى كلي الجانبين. كان هذا القتل أكثر من جميع الحروب الأمريكية الأخرى مجتمعة.[38] مثل البريطانيين، كانت البحرية الملكية تكتشف في جهودها المتزامنة لإلغاء تجارة الرقيق في البرازيل، أثبتت القوّة المسلحة أنّها ضرورية في القضاء على نظام مزارع العبودية، الذي استمرّت ربحيته الإستثنائية لمدة 4 قرون.

إلغاء العبوديّة

بعد سيطرتها على تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي والإستفادة من منطقة العمل في مزارع البحر الكاريبي، كانت بريطانيا على اعتاب انعكاس غير عادي. في السنوات الأخيرة من العصر الأيبيري، واجهت اخلاقية وشرعية العبودية تحدّيات قويّة في كلّ من أوروبا والأمريكتين. كمثل للتنوير الذي اجتاح إنكلترا، خلص المفكّرون العلمانيون والدينيّون الى أنّ العبودية مسألة خاطئة من الناحيتين الأخلاقية والقانونيّة. وصف الفيلسوف آدم سميث مالكي العبيد بأنّهم "دنيئون" Sordid. أمّا زميله في التنوير، أستاذ القانون جون ميلار، فقد علق على

نفاق الأباء المؤسسين لأمريكا، الذين تحدّثوا عن "حقوق الإنسان غير القابلة للتجاوز" ولكن لم يكن لديهم شكّ في حرمان عبيدهم من "كل حقّ تقريبا على الإطلاق." شكّلت طائفة الكويكرز الإنگليزية جمعية لإلغاء تجارة الرقيق. كما قامت الطائفة الإنجليكانية وممثلها وليَم ولبرفور بنشاط داخل البرلمان لصالح القضيّة. ومع انتشار حملة إلغاء عقوبة الإعدام، بلغ عدد مقدّمي الإلتماسات حوالي 1.5 مليون شخصا بين سكّان بريطانيا البالغ عددهم 10 ملايين، وطالبوا البرلمان بوضع حدّ لتجارة العبيد. عندما تشكّلت حكومة إئتلافيّة خلال الإضطرابات السياسية الناجمة عن حروب ناپُليون، ضمّت دعاة إلغاء الرّق البارزين، فصوّت كلا مجلسي البرلمان لإنهاء تلك التجارة. حتى ذلك الوقت، كان دعاة إلغاء عقوبة الإعدام مثل وِلبرفورس يرون أنّ تحرير أولئك المُستَعبدين يقتصر على بريطانيا وينبغي ترك منطقة البحر الكاريبي لبعض الوقت لمناقشات عميقة تفصيلية تجري فيما بعد.[39]

بعد انتهاء الحروب النابليونيّة، ارسلت البحرية الملكية عددا من السفن الى غرب إفريقيا وفق أوامر صريحة، "يجب استخدام كلّ ما في الوسع لمنع استمرار الإتّجار بالعبيد." كانت المهمة أكثر صعوبة والتكلفة أكثر من تصوّر أيّ شخص. إذا نظرنا الى ساحل إفريقيا الغربي نجد أنّه يمتدّ الى مسافة 2000 ميلا مكسوة باللون الأخضر ويصبّ فيه نهر عرضي فقط اصبحت دلتاه مكانا يمكن أن يخفي سفن نقل الرقيق بسهولة. في المناطق الإستوائية خفيفة الرياح، كانت حركة السفن الحربية التابعة للبحرية الملكية غير مكافئة لحركة سفن تهريب العبيد السريعة، ولم يكن بمقدورها الوصول الى الساحل لاعتراض عمليات التهريب. كما تعرّض البحارة البريطانيون للإصابة بالملاريا والديزنتري بعد نجاح عمليات التصدّي. أضف الى ذلك أنّ تجّار الرقيق كانوا على استعداد أكبر للقتال، بالقرب من منطقة دلتا النَيجَر. عندما صعد بحارة السفينة الشراعية البريطانية پرمروز *Primrose* على ظهر سفينة التهريب *Veloz Pasagera*، التي كانت

تحمل 555 عبدا، دار قتال بالأيدي ترك 46 بحارا إسبانيًا و3 بحارة بريطانيين قتلى. على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، قال مسؤولون إنّ 3 أسواق رئيسية للرقيق في البرازيل وكوبا وجنوب الولايات المتحدة قد تواطأت مع المهرّبين بشكل شنيع.[40]

على مدى 60 عاما اللازمة لإيقاف حركة المرور عبر الأطلسي، قامت 32 سفينة حربية ملكية بالاستيلاء على 1800 سفينة تهريب للرقيق وحرّرت حوالي 160000 إفريقيا. تماما كما فعلت مع سفينة *Bella Miquelina*، التي أتينا على ذكرها سلفا، إقتادت سفن البحرية الملكية سفن التهريب الى مستعمرة سيراليون البريطانية في غرب إفريقيا. وهناك عرضت محكمة نائب الأميرالية السفن المضبوطة للبيع واستخدمت الأموال لتولي مسؤولية العناية بالعبيد المحرّرين وتسجيلهم كمواطنين بريطانيين.

مرّ خلال السنين التالية، 82000 أسيرا مُطلق السّراح عبر سيراليون. بقي كثير منهم هناك والبعض الأخر تمّ تجنيده بينما عاد آخرون الى أوطانهم الأصلية. ما بين الأعوام 1816 لغاية عام 1867، أنفقت بريطانيا في المتوسط 72 من مجموع ميزانية الدخل القومي على حملة إلغاء العبودية. وهو الأمر الذي جعل عدة علماء يطلقون على تلك الحملة "أغلى جهد أخلاقي دولي في تاريخ العصر الحديث." مات حوالي 17000 بحارا بريطانيا خلال هذا الجهد، بعضهم في المعارك، لكن الأغلب نتيجة اصابتهم بالأمراض المستوطنة في المناطق المدارية.[41]

على النقيض من ذلك، فإنّ الأسطول الإفريقي الأصغر للبحرية الأمريكية كان غير فعّال بشكل عام. بعد فترة سنوات عديدة اسفرت عن مناوشات محدودة، كُشِف عن تحركات ذلك الأسطول عشية الحرب الأهلية من خلال الإستيلاء على 22 سفينة لتهريب الرقيق. كان من أبرزها السفينة أري *Erie*، التي تمّ الإستيلاء عليها بالقرب من مصبّ نهر الكونغو ووجهتها كوبا وهي تحمل 893 عبدا، معظمهم من الأطفال المحشورين بشكل غير إنساني في الطوابق

السفلى. تمّ أطلاق سراح الأسرى في لايبيريا واقتيدت السفينة الى مدينة نو يورك مع قائدها نَثْيال جوردُن، من سكان مدينة بورتلاند في ولاية مَين. كان هذا معروفا بين رفاقه من تجّار الرقيق باسم "لَكي نات" لجرأته الكثيرة في الهروب من دوريّات مكافحة الرّق. بعد أن أدين بعقوبة الإعدام باعتباره قرصانا، أستأنف محامو جوردُن لدى الرئيس إبرَهام لِنكُن. ردّ الرئيس، "أيّ رجل من... لا يحفّزه إلا الجشع، يمكن أن يسلب من أفريقيا الأطفال ليبيعهم في عبودية لا نهاية لها، لن أعذره أبدا." برغم من محاولة الإنتحار التي أقدم عليها جوردُن بأخذ الأستركنين وأحياه طبيب السجن، ندّد جوردُن بالرئيس لِنكُن وسماه "حقير"، وهو في طريقه ماشيا الى المشنقة داخل السجن المطلّ على إحدى مقابر المدينة. كان هو الوحيد الذي مارس تجارة العبيد ودفع حياته ثمنا لذلك في الولايات المتحدة.[42]

بعد أن حظر البرلمان تجارة الرقيق، رفع دعاة إلغاء عقوبة الإعدام من البريطانيين اصواتهم لعقود حول ما إذا كان سيتمّ إنهاء مزارع العبودية في جزر الهند الغربية البريطانية، معربين عن مخاوفهم من أنّ الأفارقة بحاجة الى "الإستعداد" للحرية. رفضا لهذا الموقف، شكّل دعاة إلغاء عقوبة الإعدام الأكثر إلتزاما حركة مناهضة للرّق في عام 1823، أرسل العديد من المتحدثين باسم الجمعية وطبعت الملايين من الكتيّبات والمنشورات عن الموضوع. وبدعم من مصالح اصحاب مزارع السكّر الغنية في جزر الهند الغربية، فإنّ بريطانيا المحافظة اعتبرت أنّ إلغاء العبودية "حماقة كبيرة" وأوقفت أيا من تلك الإجراءات خلال سنوات الحكومة الطويلة. لكنّ الإنتخابات العامة سنة 1830 جلبت أخيرا اليمينيين الإصلاحيين الى الحكومة، فقدّموا التشريع أمام مجلس النواب. في ذلك المنعطف التاريخي الدقيق، أعلن العبيد الأفارقة الثورة واصبحوا أسياد أنفسهم فتمّ تحرير جزيرة جَمَيكا البائسة.[43]

في انتفاضة عيد الميلاد في جَمَيكا عام 1831، كان هناك حوالي 20000 عبدا قاتلوا لأكثر من شهر مليشيا اصحاب المزارع والجنود البريطانيين، واحرقوا

عددا لا يُحصى من حقول قصب السكّر والمباني الزراعية. وحين تمّ سحق الإنتفاضة بقسوة، حدث المشهد الدنيء بشنق جماعي لحوالي 340 متمرّداً. ألهمت تلك الجريمة موجة متجدّدة من التحريض ضدّ العبودية في بريطانيا، لحدّ أنّ البرلمان أقرّ مشروع قانون لتحرير كافة العبيد البالغ عددهم 775000 عبدا في جزر الهند الغربية البريطانية وفي بَرمودا، مع تقديم 20 مليون جنيها إسترلينيا كتعويض لأصحاب المزارع (وطبعا لا شيء للعبيد السابقين.)[44]

جرى خلال هذه العقود نقاش ومفاوضات للحكومة البريطانية لعقد معاهدات مع البرازيل والبرتغال سمحت للقوات البحرية الملكية للقيام بدوريات اعتراض للسفن المتجّهة الى اسواق الرقيق الرئيسية في البرازيل وكوبا، حيث كان إنتاج السكّر لا يزال في أوجه. عندما ألغت البرازيل معاهدة السماح بتفتيش سفنها، أمر وزير الخارجية البريطانية اللورد بالمرستون سفن البحرية الملكية بزيادة اعتراض سفن تجّارة الرقيق والقبض عليها مثلما حدث لبيلا ميكاليا في مياه أوطانها، ممّا أدّى الى معارك ضارية بين مشاة البحرية البريطانية والقوات البرازيلية. لقد أدّت تلك المعارك الى تخفيض تجارة العبيد من 61000 عبدا في عام 1848 الى 800 عبدا فقط بعد 4 سنوات. تلاشت تجارة العبيد في البرازيل، ومع ذلك توسّعت حركة المرور الى كوبا فقط. بدأت واشنطن أخيرا في التعاون، وطبّقت القوّتان ما يكفي من الضغط على كوبا لحظر حركة المرور وأدى ذلك الى وقف تهريب العبيد عبر الأطلسي بحلول عام 1867. وهكذا انتهت تجارة الرقيق بعد 350 عاما. في خضمّ التفكير بهذه الأحداث، اعلن اللورد بالمرستون في نهاية حياته السياسية الطويلة، "أنّ الإنجاز الذي أعود اليه بأعظم وأنقى متعة، هو إجبار البرازيليين على التخلي عن تجارة الرقيق."[45]

مع انتهاء حركة تهريب العبيد عبر المحيط الأطلسي، حوّلت البحرية الملكية مناهضتها للعبودية بتسيير دوريّات في المحيط الهندي، حيث أنّه في أواخر القرن التاسع عشر، كان التجّار العرب يشحنون نحو 1.6 مليون أسيرا من

سواحل أفريقيا الشرقية الى الخليج الفارسي. مع إلغاء عقوبة الإعدام، قام القنصل البريطاني في زنجبار والمبشّر الشهير دَيفِد لِفنْگستُن بفضح أهوال حركة تهريب العبيد من شرق إفريقيا. بدأت حملة إنهاء "تجارة الرقيق العربية" تبرز باعتبارها من الأسباب العظيمة للعصر الڤِكتوري.[46] غير أنّ شركة الهند الشرقية التابعة للبحرية الملكية قد خصّصت 11 سفينة فقط لتغطية 3000 ميلا من ساحل موزمبيق الى مضيق هرمز، ممّا يعني أنّ هذا الجهد لم يضاهي ما جرى قبله في المحيط الأطلسي. ومع ذلك أعلنت الأميرالية البريطانية أنّ تجارة الرقيق في المحيط الهندي "أصابها الشلل" في عام 1884، بعد بيع السفينة الرائدة في ذلك وهي *HMS London*. إنتهت بذلك حملة مناهضة العبودية بشكل رسمي في تلك المنطقة بعد ما يقرب من 80 عاما.[47]

الإمبريالية في أوجها

في اللحظة التي انتهت فيها الجهود لإلغاء العبودية تقريبا، بدأت بريطانيا في التحرّك الى ما هو أبعد من الإمبراطورية غير الرسمية لاحتضان الحكم الإستعماري المباشر، الذي خلق أشكالا جديدة من العبودية البشريّة. قام ذلك على توسيع الأنظمة الإستعمارية الأوروبيّة في طول إفريقيا وعرضها وفي كثير من دول آسيا. بدأوا عادة يفرضون ضريبة عمل تتطلب من السكان المُستَعمَرين العمل لأسابيع أو حتى شهور بدون أجر على الطرق والقنوات مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية، بما في ذلك حقوق الملكية والإجراءات المطلوبة بموجب القانون، وحريّة التعبير والحق الأساسي في اختيار الحكومات الخاصّة بهم.

أكثر من أيّ حدث آخر، عجّل التمرّد الهندي عام 1857 بهذا الأمر وجرى التحوّل الى الحكم الإستعماري المُباشِر في شبه القارة الهندية وبشكل أوسع في كافة أنحاء الإمبراطورية. خلال احتلالها الجزئي للهند في أوائل القرن التاسع

عشر، احتفظت شركة الهند الشرقية بنحو 560 ولاية أميرية لتأسيس حلف مجنون من القاعدة غير المباشرة التي عكست تفضيل لندن للإمبراطورية غير الرسمية. غير أنّه خلال فترة الحاكم العام دالهوزي، بدأ الراج البريطاني في تمركز السلطة. شمل الأمر طرد جامعي الضرائب الهنود من ذوي النفوذ وفرض انضباط صارم بإمرة 200000 جنديا هنديًا من جنود Sepoy.[48]

إندلعت أوائل توترات هذا الإنتقال حين تمردت ثلاثة أفواج من أولئك الجنود الهنود عام 1857 وقتلوا ضباطهم الإنگليز. كما اجتاح العنف بشكل عفوي على طول طريق Grand Trunk Road عبر شمال الهند. هاجم المتمرّدون عدة مدن وقتلوا مدنيين بريطانيين واحتلوا عاصمة الموگال في دلهي وجعلوا امبرطورها المُسنّ قائدا. فرضت القوّات البريطانية حصارا على المدينة وتمكّنت في النهاية من اختراق دفاعاتها، وشرعت في ذبح المدنيين عشوائيا وأعدمت المتمرّدين في مشهد من القسوة المروعة.[49]

في اعقاب تلك الخاتمة الفظيعة، ألغى التاج البريطاني شركة الهند الشرقية وشكّل الخدمة المدنية الهنديّة، التي استخدمت 1000 بريطانيا تمّ اختيارهم بعناية وبدعم 70000 جنديا بريطانيًا لحكم 300 مليون هنديًا. بحلول عام 1876، عزّز البريطانيون ما يكفي للسيطرة على هذه المُستعمرة الشاسعة لحدّ إعلان الملكة ڤكتوريا إمبراطورة للهند في مشهد رائع شمل المهراجا الذين استعرضوا وهم يركبون الأفيال أمام نائب الملكة البريطانية وهو جالس على منصّة ارتفاعها 80 قدما.[90]

كان هذا التغيير الكاسح في الهند أيضا بمثابة بداية لعصر إمبراطوريّة عالمية من شأنها أن تخضع ثلث البشرية للحكم الاستعماري، الذي تميّز دائما بالإستغلال الإقتصادي ومؤسسته العنصرية، بالإضافة الى العديد من حملات التهدئة، التي أدّت الى ارتفاع عدد الضحايا. عنت الإمبريالية في أوجها عبودية الملايين في آسيا وإفريقيا، وجلبت أيضا الفرصة للعديد من فقراء أوروبا. بدأت

في القرن العشـرين خطـوط البـواخر البريطانيـة الـى جانـب الخطـوط الفرنسـية والألمانية المنافسة عبر المحيطات وفي طرق آمنة سلسة وهي تحمـل 100 مليـون مهـاجرا مـن أجـل حيـاة أفضـل الـى أسـتراليا والأمـريكتين.[51] قامـت شـركات التلغراف بمدّ 234000 ميلا من الكيبلات البحرية البريطانية المرتبطة بحوالي 8 ملايين ميلا من الخطـوط الأرضـية، ليتمّ تبادل الأخبـار في جميـع أنحـاء العـالم بمعدّل 40 كلمة في الدقيقة.[52] وعبرت السكك الحديدية قارة أمريكا الشمالية عام 1869 وأوراسـيا عام 1904 وأمريكا الجنوبية عام 1910 وأستراليا في عام 1917[53].

أحتلت لندن بؤرة كلّ تلك النشـاطات، فأصـبحت أوّل مدينة عظيمـة عالميـة في التاريخ وبلغ عدد سكّانها 7 ملايين نسـمة. كموطن لبنك إنكلترا وعشـرات مـن البنوك التجاريّة الأخرى، أصبحت لندن العاصـمة بمثابة بؤرة للإقتصـاد العـالمي مـن خـلال الإسـتثمارات الخارجيـة، التـي بلغـت 3.8 مليـارا مـن الجنيهـات الإسترلينية، وتمّ اعتماد الجنيه الإسترليني كإحتياطي عالمي للعملة.[54] الى الغرب مباشرة توجد مقار المحاكم. وهي مجموعة من الساحات تعود للعصر الإلزابيثي وتضمّ المكاتب القانونية في المدينة، تجسيدا لقواعد القانون في إنكلترا. وابعـد مـن ذلك بقليل تقع منطقة مسـرح وسـت إند البوهيميـة وهـي مهـد حي سـوهو للإبـداع ومقر فليت ستريت لأخبار رويترز واكبر الصحف في العالم.[55] بالقرب من الحي الرسمي وقصر بكنگهام ومبنى مجلس البرلمان، الذي أعيد بناؤه بعد حريق على الطراز القوطي، حيث ارتفع برج السـاعة الأيقونية بگبن. في المقابل وعلى الجانب الشـرقي عند منعطف نهر التّيمز تقع مراسـي السفن التي تسـتقبل الحمـولات التجارية العالمية، وتحيط بها الأحياء الفقيرة النتنة، التي ألهمت رواية چالز دِكِنز، *أوليفر تويست*. حُفرت أنفاق النقل وقنوات صرف المياه الصحية تحت الشـوارع، وارتفعت المداخن التي لاحصر لها وهي تحرق الفحم لتدفئة البيوت والمبـاني وتلقي مظلة دائمة من السخام الرمادي على المدينة، التي حُجبت عنها الشـمس وسُميت "مدينة الضباب الأسود" الذي قتل الآلاف.[56]

بإضافة الفولاذ الى مجموعة الإمتيازات في أعلاه، إمتلكت البحرية الملكية 300 سفينة حربية كوّنت شبكة للتحكّم بالبحار بسائدها 30 حصنا في مناطق المضائق وقناة السويس، التي أكملت عام 1869 وأدت الى خفض مسافة الأبحار ووقته اللازم الى النصف من لندن الى بومبي. وهكذا أمّنت البحرية البريطانية شمال الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي،[57] بجيش دائم قوامه 99000 رجلا وميزانية دفاع أستهلكت باجمعها ما يقرب من 2.5٪ من الناتج المحلي الإجمالي للبلاد. إنّ اقتصادا غير عادي القوّة سمح لدولة جزيرة صغيرة أن تحافظ على إمبراطورية رسمية وغير رسمية غطّت ما يقرب من نصف الكرة الأرضية.[58] أعلن وزير المستعمرات جوزف چمبرلن دفاعا عن تلك الإلتزامات العالمية، "من دونها ستكون أمّة من الدرجة الخامسة تعيش في معاناة أكثر بوجود الجيران الأقوياء."[59]

بحلول عام 1910، ضمّت الإمبراطورية البريطانية أكثر من 412 مليون شخصا، أي حوالي 28٪ من البشرية وغطّت 12.3 مليون ميلا مربّعا أو 22٪ من مساحة اليابسة في العالم. تمّ تقسيم تلك الإمبراطوريّة الرسمية الى تاج المستعمرات ومناطق الحكم الذاتي، التي شملت أستراليا وكندا ونوزيلاندا وجنوب إفريقيا، بينما امتدّت هيمنتها على نصف البشرية من خلال سيطرة غير رسميّة على مناطق شاسعة شملت مصر وبلاد فارس والصين والكثير من أمريكا الجنوبية. حرصت القوى الأوروبيّة المنافسة على المشاركة في نجاح بريطانيا وطالبت بنصيبها بشرائح من إفريقيا وآسيا، بينما انضمّت اليابان والولايات المتحدة الى السباق في الإستيلاء على الأراضي الآسيوية في تسعينات القرن التاسع عشر. إستولت طوكيو على كوريا وتايوان واحتلت واشنطن الفليبين وضمّت هوائي. إحتلت القوى الأخرى مستعمرة واحدة أو إثنين فقط، مثل الكونگو التي احتلتها بلجيكا وجزر الهند الشرقية، التي اصبحت من نصيب هولندا. على الرغم من أنّ الإمبراطورية الفرنسية كانت أكثر توسّعا وغطّت حوالي 4.3 مليون ميلا مربّعا في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، فإنّها تفاخرت ببلوغ عدد سكانها الى 62 مليون نسمة.[60]



جوزف چمبرلن وزير المستعمرات البريطانية عام 1900 (Credit: Alamy)

مثلما لم يقلل استمرار العبوديّة من وحشيتها، كذلك لم يمكن أن يخفي الإمتداد غير العادي للإستعمار تجاوزاته. بعيدا وبمعزل عن الأنظار، تعرضت الشعوب المُستَعمَرة لأعمال السخرة والإعتقال الطائفي والإهانات اليومية ومصادرة الأراضي وتبرير السيطرة السياسية بسبب دونية تلك الشعوب عنصريًا وعدم أهليتها المتأصلة لأجل الحُكم الذاتي.

أيديولوجية التفوّق العنصري

بعد عام واحد فقط من اختتام بريطانيا لحملتها ضدّ العبودية، بدأ التدافع الجدّي على المستعمرات في إفريقيا، مشفوعا بشكل جديد من التسلسل الهرمي البشري تحت ستار العنصرية العلمية. على الرغم من انعقاد مؤتمر فيّنا بين عامي

1814 – 1815 قد أطلق العصر البريطاني، كان مؤتمر برلين عام 1885 حول إفريقيا، والذي أوضح مبادئ حقوق الإنسان والسيادة الإمبراطورية، التي اصبحت مرادفة للنظام العالمي لبريطانيا.

مع تصاعد التوترات بين القوى الأوروبيّة بسبب تقسيم إفريقيا، عقد المستشار الألماني العنيد أوتو فون بسمارك مؤتمرا لوضع قواعد للمطالبات الإستعمارية المتنافسة. مثلما قسّمت البرتغال وإسبانيا العالم بموجب معاهدة Tordesillas، إجتمعت القوى الإمبراطورية الأربعة عشر في برلين بعد أربعة قرون، واصدرت تبريرا يخدم المصالح الذاتية لتقسيم قارة إفريقيا بكاملها. عكست نظريات الإختلاف العنصري المستمدّة من العلوم الزائفة للداروينية الإجتماعية، ما وافق عليه ممثلو الدول المجتمعون هناك على "مراقبة الحفاظ على القبائل الأصليّة والعناية بها وتحسين ظروف رفاهيتها المعنوية والماديّة والمساعدة في وقف الرّق، خاصّة تجارة الرقيق." من خلال السحر الخبيث للخطاب الإمبراطوري، أشار إعلان المؤتمر الى "قبائل الأفارقة" بدلا من "الأمم" أو "الشعوب"، ممّا برّر تعليق مسألة السيادة لديهم والسماح لهم بالإرتقاء من قبل سلطات يُفترض أنّها متحضّرة حقا.[61]

تحت غطاء هذه العقيدة العنصرية لاستعمار إفريقيا بعد مؤتمر برلين، نُفّذت القرارات بشكل وحشي غير عاديّ. منذ بداية التدافع في ثمانينات القرن التاسع عشر حتى نهايتها في ثلاثينات القرن العشرين، إستولت القوى الإمبريالية القديمة والجديدة على الأراضي وسحقت أيّة مقاومة بعنف غير منضبط، وأنتج عن واحدة من أكثر سجلات النهب الدنيئة المستدامة في تاريخ البشرية.

مثلما شرّعت الكنيسة المسيحية العبودية في العصر الأيبيري، فإنّ تشويه العلوم التطوّرية شكل الإطار الأيديولوجي للعصر الإمبراطوري البريطاني، وخلق تسلسلا هرميا عرقيّا لتبرير قوة الفتح الأوروبي وقوة حكمه الإستعماري في إفريقيا وآسيا. بدأ التصنيف العلمي للنباتات والحيوانات عندما

نشر عالم الطبيعة السويدي كارل لينّيوس كتابه *Systema Naturae* في عام 1735، لتصنيف كافة الكائنات الحيّة حسب الجنس والنوع. كفكرة لاحقة في طبعة منقحة من عمله، قام لينّيوس بتقسيم البشريّة الى أربعة "أصناف" اعتمادا على القارة ولون الجلد؛ على وجه التحديد، (أبيض أوروبي) *Europaeus Albus* و(أمريكي أحمر) *Americanus Rubescens* و(أسمر آسيوي) *Asiaticus Fuscus* و(أسود إفريقي) *Africanus Niger*. في عام 1795، قام الأستاذ الألماني يوهان فردرش بلومنباخ، الذي يُعتبر مؤسس الإنتروبولوجيا الفيزيائية الإنسانية، بوضع تسلسل هرمي من 5 أعراق تتفاوت بين الأعلى والأدنى. حكم على الجمجمة الأوروبية من القوقاز باعتبارها "أجمل شكل للجمجمة من أيّ... يتباعد الأخرون عن طريق التدرّجات اللونية الواضحة". وأدّى هذا الى ظهور المصطلح العنصري "قوقازي" Caucasian.[62]

بعد نشر كتاب چالز داروين *عن أصل الأنواع* *On the Origin of Species* في عام 1859، تبنّى العديد من المشهورين الأوروبيين تشبيها زائفا حول تطوّر الأنواع الطبيعية وتقدّم المجتمعات البشريّة وتعزيز التسلسل الهرمي للإختلاف العنصري، الذي أصبح يُعرف باسم "الداروينية الإجتماعية". مع تسارع الغزوات الإستعمارية في العصر الڤكتوري، إكتشف داروين اندماج التطوّر الذي أشار إليه مع النظريات العرقية الخاطئة ومحو التنوير بشكل فعّال حول الإيمان بالمساواة البشريّة، التي ألهمت مناهضة العبودية البريطانية خلال الحملة الإنتخابية. لإنشاء تسلسل هرمي للقدرة المعرفيّة، جمعت المتاحف الأوروبيّة بعض جماجم السكان الأصليين وقام العلماء بقياس الإختلافات في الشكل والوزن وقدرة الجمجمة Cranial Capacity. كان لدى الكلية الملكية للجراحين في لندن عرض كبير شمل 350 جمجمة للسكان الأصليين الأستراليين، الذين يُعتبرون الأدنى قيمة وفق هذا المنطوق التطوّري المُفترَض. في فيلادلفيا خلال فترة ما قبل مدنية سنوات الحرب، قام الطبيب المحلي صَموئيل مورتُن بجمع 867

جمجمة من جميع انحاء العالم واستخدمها للدفاع عن الإختلافات العرقية المتأصّلة بين "Caucasoid" و"Negroid" التي يعود تاريخها الى عبيد مصر القديمة. أشادت بتلك الإكتشافات مجلة طبّية في الجنوب، الذي احتفظ بالعبيد "ووضعهم في مكانهم كعرق أدنى". على الرغم من ذلك، وجد عالم الأحياء ستيفن جي گولد لاحقا أنّ "معظم مجموعات البيانات الرئيسية المُقدّمة للترتيب العرقي قد احتوت على أخطاء واضحة" وشكّلت التحيّز في الطرق العلمية، التي تفضّل الإيمان بالإختلاف العنصري المتأصّل. في الواقع، قال عالم الطبيعة الفرد راسِل وَلاس، أحد مؤسسي مفهوم التطوّر إنّ من شأن النضال الإنساني أن يؤدّي الى "الإنقراض الحتمي لكلّ أولئك الذين يعانون من دونية وعقلية السكان غير المتطوّرين، الذين يتعامل معهم الأوروبيّون."[63] بعد ملاحظة الإبادة الأوروبيّة للشعوب الأصلية في أستراليا وأمريكا الجنوبية، كتبَ داروِن نفسه، "تبدو انواع البشر المختلفة أنّها تفعل ببعضها البعض كما تفعل الأنواع المختلفة من الحيوانات، يقضي القويّ دائما على الضعيف."[64] Always Extirpating the Weaker. Strong the

طوّرت نظرية الداروينية الإجتماعية في أوسع تطبيقاتها "التلخيص الجدلي،" على حدّ قول ذلك الموسوعي الفكتوري الرائد هربَرت سپنسر بأنّ "السمات الفكرية لغير المتحضر... هي السمات التي تتكرّر في أبناء الحضارة". بعبارة أخرى، جاء الإمپرياليون للقول إنّ الأفارقة والآسيويين "كالأطفال" يحتاجون الى وصاية إستعمارية لتسلق السلم التطوري نحو النضج القومي. تمّ ترديد أبيات شعر تعود الى روديارد كيلنگ حثّ فيها الأمريكيين على تحمّل "عبء الإنسانية" في الفِلپين بإرسال أفضل سلالة لرفع "الشعوب المتجهّمة الجديدة، التي تمّ اصطيادها كنصف شيطان ونصف طفل." بنفس الروح، أعلن المندوب السامي البريطاني في الهند، اللورد كرزُن، أنّ الامبراطورية البريطانية أداة عظيمة لخير البشريّة." أسرّ بذلك لصديق له، لأنّ الناس الذين حكمهم كانوا

"معوجّي العقول وفاسدين Crooked-minded and Corrupt... وأجرؤ على القول أنّني بالأحرى تحدثت مثل ناظر مدرسة، يتولى أمر إدارة الملايين من اطفال المدارس."[65]

بحلول بداية القرن العشرين، تزايدت وسائل الإعلام الجماهيرية في أوروبا وأمريكا وكانت تعمل على تعميم هذه الأفكار الداروينية الإجتماعية حول التسلسل الهرمي العرقي في الصحف والمجلات. توسع النشر ليشمل حتى خلال المعارض العالمية، والحديث هنا عن معرض سينت لِوِس عام 1904، الذي زاره نصف جميع البالغين الأمريكيين. إستخدم الرئيس السابق لمكتب الإثنولوجيا الأمريكي، وِليَم ج. مَكْجي، ملفا تزامن مع حضور دورة الألعاب الأولوميّة في سَينت لِوِس لمرحلة عنصريّة سمّوها "الأولومبياد الخاص." عُرِض تسلسل هرمي زائف للقدرات البدنية، حيث وضع دول الشمال في القمّة والأمريكيين الأصليين في الأسفل.[66] كان مركز المعرض المترامي الأطراف مخصّصا للجناح الفِلِبيني المزدحم بحضور 1200 فِلِبينيّا، معظمهم من الأقليّات القبلية. قدّم هؤلاء عروضا مثيرة في الرماية بالأقواس وطقوس القتال بالرماح وأكل الكلاب. لتوجيه رسالة الداروينية الإجتماعية داخليا، قدّمت نشرة المعرض الرسمية شكلا مصوّرا بعنوان "تطوّر الفِلِبين" أظهر صيادا أسود قصير القامة وجامع ثمار يرتدي مئزرا باعتبارهما "أدنى نوع من البشر في جزر الفِلِبين." من ناحية أخرى، أظهر نفس الشكل خليطا من Mestizos الأسبان باعتبارهم مستنيرين وذوي تعليم عالٍ راقٍ."[67]

على الرغم من رفضها السريع من خلال البحث الإنثروبولوجي الدقيق، استمرّت عقيدة الإختلاف العنصري بين الأمريكيين لتبرير احتلالهم للفِلِبين وبين البريطانيين كي ينظروا الى استعمار إفريقيا كجزء من النظام الطبيعي، الذي من شأنه أن يسمح للأعراق الأعلى بالإرتقاء وفي نفس الوقت رفع تلك التي يُفترَض بأنّها من "السلالات الأدنى."[68]

التدافع في استعمار إفريقيا

مع وقوع السكان والممالك المحلية والسُفانا الأفريقية المترامية الأطراف في قبضة المستعمرين، أصبحت الغابات والأدغال الكثيفة في العصر الفِكتوري لوحة قماشية شاسعة للأوروبيين المخوّلين لرسم استكشافات ملحمية ووضع خطوط للتقسيم الإستعماري. في كلّ رَبع من الساحل، إنغمس المغامرون الأوروبيّون في التوغّل داخل القارة للإستكشاف وقد أغرتهم الأنهار، التي بدت لهم وكأنّها فضيّة ذات مسارات متعرّجة تغري بالإستكشاف. كانوا أوّلاً مفتونين بالبحث عن منبع النيل بعيد المنال، ثم استطلاعهم الأعظم والأصعب لنهر الكونغو. على الرغم من صحافة الأيام التي احتفلت بالبطولات والمآثر، كان الإستكشاف نشاطاً إمبرياليًا جادًا لمسح التضاريس والمطالبة بالحصص. في عصر كانت فيه اسماء مثل بارث وبِرتُن وبرازا ولِفِنگستُن وروودس قد أبهرت التخيّلات الأوروبيّة، فلا شيء يمكن أن يساوي السمعة المدويّة لهنري مورتُن ستانلي.

وُلِدَ لقيطاً ونشأ في مصنع بريطاني باقس، سعى ستانلي وراء الثروة في أمريكا، حيث خدم في جيشي الكونفدرالية والإتحاد خلال الحرب الأهلية. بعد فترة وجيزة بدأ العمل كصحفي، فأرسلته صحيفة نيو يورك هيرالد في عام 1871 الى إثيوبيا لتغطية الغزو البريطاني لتلك المملكة القديمة. بعد أن فاز بالمنافسة من خلال رشوة عامل تلگراف لإرسال تخطياته أوّلاً، انطلق ستانلي في تغطية مهمة أخرى والمشي لمسافة 800 ميلا عبر التضاريس الوعرة للعثور على مبشّر أسكتلندي مفقود، هو الدكتور دَيفِد لِفِنگستُن. إقترب أخيراً من مقلع الأحجار الذي امتلكه بالقرب من سواحل بحيرة تَنجَنيقا، بادره بالقول المشهور، "د. لِفِنگستُن، أعتقد؟"[69]

في عام 1874، إنطلق ستانلي مرّة أخرى بصحبة 258 إفريقيا و3 أوروبيين وتتبّعوا نهراً من بحيرة تَنجَنيقا اعتقدوا أنّه قد يكون مصدر نهر النيل ولكن تبيّن

فيما بعد أنّه نهر الكونغو، ثاني أكبر نهر في العالم. بعد 3 سنوات من التجديف والتوقّف لمسافة 1500 ميل في اتجاه مجرى النهر، تحرّكت البعثة نحو منحدرات وشقت طريقها عبر قرى إفريقية. وفي النهاية وصل ستانلي و115 شخصا فقط من الناجين الى مستوطنة استعمارية بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي، وعُدّ ذلك إنجاز بطولي في عبور القارة. في طريق العودة الى لندن لنشر مذكراته عبر القارة المُظلمة، تمّ التعرّف على ستانلي في محطة قطار فرنسية من قبل مبعوثين من قبل ليولد الثاني، ملك بَلجيكا. إقترحوا عليه، دون جدوى، أن يعود الى إفريقيا على عجل بصفته المفوّض الشخصي للعاهل.[70]

بعد أكثر من عام بقليل، عاد ستانلي بالفعل الى الكونغو بصفته ممثلا رسميا للرابطة الإفريقية الدولية، الذي أخفى لقبه الذي بدا إنسانيا في مقارنة مع جشع نوايا الملك ليولد. أسّس ستانلي على مدى السنوات الخمس التالية مستعمرة خاصّة بالملك هناك من خلال الإشراف على بناء محطّات تجارية على طول نهر الكونغو واستخدم زوورقين بخاريين للتنقل وأسس جيشا خاصّا وانتزع معاهدات من 450 زعيما قبليّا، ممّا منح الملك ليولد الثاني احتكارا تجاريّا لأرضهم. في غضون ذلك عاد الى بَلجيكا، فاستعان الملك بالسفير الأمريكي السابق في بروكسل هَنري شِلتُن سانفُرد، في محاولة ناجحة للضغط على واشنطن من أجل الإعتراف بمطالبة الملك الملفقة بالكونغو. أستغلّ ليولد بسرعة ذلك الإنقلاب الدبلوماسي للحصول على تنازلات مماثلة من قبل فرنسا وألمانيا، التي كان احتلالها طويل الأمد لأنكولا تحت التهديد من قِبل البرتغال. ناشد المستشار الألماني بِسمارك حلّ تلك المطالبات المتنافسة.[71]

ومن هنا جلس دبلوماسيون من 14 دولة لمدة 3 أشهر بين العامين 1884 لغاية 1885 حول طاولة مستديرة وأمامهم خريطة عملاقة لإفريقيا، ورسم بِسمارك بقلمه الخطوط ووضع القواعد الأساسية لانتزاع الأراضي القارية من قبل الدول الأوروبية. ضمّ الوفد الأمريكي الشجاع ستانلي، العائد من الكونغو



المستكشف البريطاني هنري مورتن ستانلي مع خادمه الإفريقي كلولو عام 1872
(Credit: National Portrait Gallery)

والذي جذب الإنتباه بوصف المناظر الطبيعية الخلابة. تدخّل المندوب الأمريكي الكبير جون كاسُن، في ملاحظة اعتراضية وجادل أنّ القانون الدولي إعترف "بحقّ القبائل الأصلية في... وأنّ أرضهم موروثة." غير أنّ الدبلوماسيين الألمان همّشوا بمهارة أيّ نقاش حول السيادة الأصلية، التي كان من الممكن أن تقضي على طموحاتهم الإستعمارية. وافق المؤتمر على تجاهل أيّة مطالبات إفريقية بأراضي لأهل القارة، وفاز مبدأ "الإحتلال الفاعل" Effective Occupation لتأسيس السيادة الإمبراطوريّة على الأراضي، وهو ما سمح للقوى الأوروبيّة قضاء 30 عاما القادمة وهي مشغولة بالتقطيع والضمّ، دون إثارة حرب فيما بينها.[72]

بينما أمكن لفرنسا وبريطانيا التوسّع في موطئ قدمي كلٍّ منهما في الجزائر وكَيب كولوني، أدّى مؤتمر برلين الى تسوية أمور ميدان القوى الأضعف والمتأصّلة، وهي بَلجيكا وألمانيا وإيطاليا. طالبت ألمانيا بمستعمرات كبيرة امتدت من تنزانيا في الشرق الى ناميبيا في الجنوب الغربي. للتحقّق من التوسّع الفرنسي شجّع البريطانيون الإيطاليين الى ما وراء جيبهم الراسخ في جيبوتي نحو اطماع في القرن الأفريقي سمحت لهم باحتلال إريتريا وغزو إثيوبيا. بعد أن قتلت المملكة الإثيوبية القديمة أكثر من نصف الجيش الإيطالي، غزا الإيطاليون واشتبكوا في معركة أدوا عام 1896 فحصلوا على الشريط الساحلي الكبير لإريتريا والصومال قبل الإستيلاء على ليبيا من يد العثمانيين. رُبّما كان أعظم انقلاب في مؤتمر برلين، هو حصول الملك البلجيكي على اعتراف بإفريقيا الدولية مطالبا المجتمعين بكامل الكونغو، ثمّ سرعان ما أسقط غطاء المساعدات الإنسانية، وهو ما جعل أكبر مستعمرة في القارة ملكا خاصّا له، فسمّاها دولة الكونغو الحرّة.[73]

حتى في عصر الإنغماس في التجاوزات الإستعماريّة، أثبت حكم ليوبولد للكونغو أنّه غير إنسانيّ لدرجة أنّ أصبح أكبر فضيحة في العصر الإمبراطوري. على الرغم ممّا سُمّي بعقيدة برلين، التي نصّت على أنّ القبائل الإفريقية يجب أن تستمرّ في حياتها كمحميّات، فإنّ ميليشيا الملك المكوّنة من 19000 رجلا، اصبحت القوّة العامة للضغط على القرويين من أجل العمل القسري ومعاقبة أيّ تمرّد بالتعذيب أو الموت. سرعان ما انحدر الضباط الأوروبيّون الى الوحشيّة، وعلى وجه الخصوص القائد البلجيكي في منطقة ستانلي فولز، ليون روم، الذي جلس على كرسي تحيط به الجماجم من جهة والمشنقة من جهة أخرى. كتب روم في مذكراته عام 1899 تبريرا لتلك الممارسات القاسية فقال، "الإحتلال الرئيسي للرجل الأسود يشبه التمدّد على حصيرة في اشعة الشمس الدافئة، ولكن حَذارِ من التماسيح الزاحفة فوق رمال الشاطئ."[74]



الإمبراطوريات الأوروبيّة في إفريقيا عام 1910

حين بدأت شركة دنلوب Dunlop الأيرلندية في تصنيع المطاط القابل للنفخ وانتاج إطارات السيارات والدرّاجات في تسعينات القرن التاسع عشر، ارتفع الطلب على المطاط الخام، ممّا جعل قسوة المستعمر البلجيكي متقلبة منهجيّة. بأخذ رهائن أو بقطع الأيدي لفرض حصص جمع المطاط بواسطة القرويين، سرعان ما اصبحت مزارع الإمبراطور قادرة على انتاج 11 مليون رطلا من المطاط كلّ سنة. كان تأثير ذلك مُدمّرا وتسبّب في وفاة حوالي 10 ملايين قرويّا فانخفض عدد سكان الكونغو بنسبة 50٪ خلال العقود الثلاثة من حكم هذا

الملك. إقترب معدّل الوفيات الجماعي من تأثير إسبانيا على المكسيك.[75]

لسنوات عديدة تظاهر ليوبولد بأنّه مصلح وعمل على ترسيخ تعاون الحلفاء في حركة مناهضة العبودية خلال ثمانينات القرن التاسع عشر ردّا على تقارير الإتجار العربي في وسط إفريقيا. على عكس ما جرى سابقا، وحصريّا في حركة إلغاء البروتستانتيّة للعبودية، كانت الحملة الجارية كاثوليكيّة قويّة شارك فيها وقادها الكاردينال چالز لاڤگري، مؤسّس جمعية التبشير الإفريقية Société des Missionnaires d'Afrique. من خلال تأثير لاڤگري، أصدر البابا ليو الثالث عشر رسالة عامة في عام 1888، عبّر فيها عن أسفه لأنّه "عادة في كلّ عام يُباع 400000 إفريقيا كالماشية، نصفهم تقريبا منهك من وعورة المسالك ويهلك آخرون بعد بيعهم." من أجل السعي للسيطرة على حركة الكاردينال، إستضاف الملك البلجيكي ليوبولد مؤتمرا كبيرا حول العبودية في بروكسل، توّج باتفاق 17 دولة "لوضع حدّ لتجارة الرقيق الزنوج عن طريق البرّ والبحر." كما حصل الملك على مساعدة الكاردينال في اقناع المواطنين البلجيك الكاثوليك لتأييده.[76]

على الرغم من جهود الملك ليوبولد الجذابة للسيطرة على التغطية الصحفية لمستعمرته الشخصية، بدأ المُبشّرون في تسريب الحكايات المروّعة عن الحياة في ذلك "المنزل الإستعماري المأجور". من خلال معلومات سرية سرّبها المسؤولون عن دولة الكونگو الحرّة، معزّزة بصور الفضائع المروّعة، التي التقطها أحد المُبشرين والمصلح لحقوق الأنسان إدموند مورل. وهو إنگليزي نشر مقالات عن الموضوع أدّت الى استفسارات رسمية من قبل بريطانيا وفي بلجيكا نفسها. كانت المقالات موثقة حول نظام عمل قسري مدفوع بالضرب وحرق القرى وأخذ الرهائن والتشويه. بعد قراءة مثل هذه الإستنتاجات المؤذية، أصيب الحاكم العام للكونگو، بول كوسترمانس بالإكتئاب فانتحر بعد أيام. كما فعل دعاة إلغاء عقوبة الإعدام قبل قرن من الزمن، استخدم الإصلاحي مورل وزملاؤه هذا التوثيق الدقيق في إذكاء الغضب العام، بمساعدة الكتّاب المشهورين مثل مارك توين، الذي رسم

صورة ساخرة مدمّرة للملك لِيوپولد ومستعمرته الشخصية الخاصة، الكونغو. كما أدانه الكاتبان آرثر كَونَن دوّيل وجوزَف كونراد الذي ألّف رواية *قلب الظلام*، عن تجربته المريرة كقائد لقارب في نهر الكونغو.[77]

في حين أنّ النقّاد الدوليين، الپروتستانت في المقام الأوّل، كشفوا عن المشاكل في دولة الكونغو الحرّة، تُرِك لبَلجِكا وكاثوليكها النضال من أجل حلّ تلك المشاكل، لا سيّما الأستاذ اليسوعي في علم اللاهوت الأخلاقي في جامعة لوڤين. في كتابه الناقد المنشور عام 1906 بعنوان *المسألة الكونغولية* *La question Congolaise*، جادل آرثر ڤِرمَيرش بشكل مقنع أنّ وحشية مستعمرة لِيوپولد الخاصّة يجب أن تحلّ محلها إدارة بلجيكية مسؤولة. في عام 1908، كان هذا هو الذي صعّد الضغط على الحكومة البلجيكية لتخليص الكونغو من قبضة الملك، ودُفع له تعويض كبير لنقل كافة مستعمراته الخاصّة الى سيطرة الدولة.[78]



الملك البلجيكي لِيوپولد الثاني حاكم دولة الكونغو الحرّة في عام 1903 (Credit: Alamy)

كشف هذا التغيير الصغير ولكن المهم، عن سمة هامة للنظام العالمي البريطاني في ذروته. على الرغم من أنّه بدا مجانيًا للجميع للتدافع لنيل حصصهم من أرض إفريقيا وشعوبها، ما زالت هناك معايير دولية للإعتراف بشرعية الدولة. مثلما أمكن للفاتيكان أن يُعاقب الملوك المُتوّجين لأسباب أخلاقية خلال العصر الأيبيري، طبّق النظام الإمبراطوري البريطاني ذلك كله على الدول، سواء كانت مُستعمرَة أو وطنيّة، بأن تلبي معايير غير رسمية لحقوق الإنسان التي تمّ لاحقا تدوينها من خلال الإتفاقيات الدولية تحت نظام واشنطن العالمي.

لقد انتهت التجاوزات الوحشية لنظام ليوبولد، ولكنّه استمرت تعبئة العمالة القسرية في مستعمرات إفريقيا الأخرى. حتى بعد كلّ الغضب من قسوة ليوبولد، كانت الكونغو البلجيكية الآن تطبق نظام 60 يوما في السنة "للعمل الجماعي" بدون أجر مدفوع للرعايا الأفارقة على مدى 30 عاما من ذلك التاريخ. وهو نفس العبوديّة التي كانت مصدرا لجميع الإنتهاكات في دولة ليوبولد الحرّة في الكونغو. بموجب قانون العمل الإستعماري البلجيكي، تمّت معاقبة العمال الأفارقة بالسخرة وأمكن جلدهم من قِبل اصحاب العمل. لنصف القرن المُقبل واجه مواطنو الكونغو البلجيكية ما وصفته المؤرّخة جوليا سيَرت "واقع العنف اليومي للإكراه والإستغلال."[79]

في تركيزها الفريد على الملك ليوبولد، أغفلت حركة حقوق الإنسان أنظمة مماثلة للعمل الجبري في مستعمرات إفريقية أخرى. مثل الكونغو البلجيكية، طلبت أنغولا البرتغالية من القرويين العمل لمدة 60 يوما في السنة بدون تلقي أجر. وبالمثل طالبت المستعمرات البريطانية 30 يوما من العمل المجاني في السنة. وفرضت غرب إفريقيا الفرنسية ضريبة عمل سنوي تتراوح من 5–12 يوما.[80] في آسيا، فرضت شركة الهند الشرقية الهولندية 66 يوما من العمل القسري حتى عام 1870 و26 يوما في عشرينات القرن الماضي، بينما كانت الهند الصينية الفرنسية وفق النصوص الرسمية تفرض 16 يوما.[81]

بصرف النظر عن العمل القسري، أثقلت الإمبراطوريّات الأوروبيّة ايضا جحافل من العمّال بعقود طويلة المدى من خلال الهجرة لمسافات طويلة. بين الأعوام 1834 و1916، هاجر أكثر من مليون هنديًا الى المزارع البريطانية في جميع أنحاء العالم، بينما انتقل حوالي 3 ملايين عاملا صينيًا وفق عقود للعمل في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ ومنطقة البحر الكاريبي. في مزارع المطاط الفرنسية بالقرب من سايگون، عاني حوالي 50000 عاملا فيتناميا متعاقدا من الجلد بالسياط ومعدلات الوفاة المرتفعة للغاية. وبالمثل، اعتمدت مزارع الشاي في ولاية آسام في شمال شرق الهند على "الرجال المسلحين" للإشراف على 10000؟ عاملا، تقاضوا نصف اجور السوق الحرّة وعانوا من معدل وفيات بلغ 25٪ نتيجة للإكراه في عمل المزارع في جميع انحاء العالم. وصف العلماء العمل بالسخرة للعصر الإمبراطوري باعتباره "نظاما جديدا للعبودية."[82]

برغم استيلاء الإستعمار على ما يصل الى 20٪ من القوة العاملة، ربّما كانت حياة المزارعين الفقراء في إفريقيا وآسيا أقلّ سوء مقارنة بمن كانوا تحت العبودية الصريحة. لكنّ حالة هؤلاء مع ذلك، كانت تجسيدا للإستغلال الجسيم وانتهاكا صارخا لحقوق الانسان. تجمع كلّ التوثيق الدقيق للمصلحين وكتاباتهم المؤثرة في تأطير دولة الكونگو الحرّة كحالة فريدة وانحراف، بدلا من الرواية التحذيرية من الإستعمار، التي كان ينبغي أن تكون. مرّت 40 سنة أخرى قبل أن يُدرك العالم تجاوزات الإمبراطورية غير القابلة للإصلاح والتي تطلبت المزيد من التغيير الأساسي. المرّة تلو المرّة، لعبت الطاقة غير الحيّة دورا غير مرئي في تسهيل إعادة تشكيل المجتمع. ومع ظهور أشكال جديدة من طاقة الوقود الأحفوري بعد عام 1900 واكتشاف الكهرباء ومحرّكات الإحتراق الداخلي والحاجة الى المواد الخام، إنخفضت قيمة القوة العضلية، ممّا جعل الأعمال القسرية اقتصادا فائضا عن الحاجة قبل وقت طويل من إلغائها رسميًا بعد الحرب العالمية الثانية.

الحروب الإستعمارية في إفريقيا

بصرف النظر عن العبء الثقيل للعمل القسري، كانت السمة المميزة الرئيسية للإمبريالية في أعلى أشكالها سلسلة متوالية من الحروب التي خاضتها القوى المعنية مع أهل القارة. كان هناك اختلال ملحوظ في القوّة العسكريّة، التي وصلت في كثير من الأحيان الى ارتكاب المجازر. خلال نصف قرن من الغزو الذي أعقب مؤتمر برلين، استولت القوّات الأوروبيّة على الأراضي دون قيود على عنف الأساليب. يمكن تعقب أثر الدماء في طول القارة وعرضها من خلال جشع البلجيكيين في الكونغو والبريطانيين بلا هوادة في السودان وجنوب إفريقيا، وكوارث الإيطاليين في إثيوبيا والألمان بلا رحمة في ناميبيا وتنزانيا والفرنسيين الى ما لا نهاية في شمال إفريقيا.[83]

من بين هذه الفظائع، كانت التهدئة الألمانية لناميبيا استثنائية في عنفها الشديد، والتي وصفها المؤرخ يورگن زمرير بأنّها "سابقة أولية مهمة" للنازية اللاحقة و"تفكير بالإبادة الجماعية". عندما قاوم الأفارقة تدفّق المستعمرين على قارتهم في عام 1904، أطلق الجنرال القائد "أوّل إبادة جماعية على يد الألمان" بإعلانه، "سأبيد القبائل المتمردة وأجعل الدماء تسيل أنهارا."على مدى السنوات الأربع التالية قتلت القوات الألمانية ما يقرب من 80000 شخصا، أكثر من نصف قبائل هَريرو وقبائل نما The Herero and Nama Tribes، وأقامت "معسكرات للإعتقال" مورس فيها القتل والتمييز العنصري وأساليب وتكتيكات "الإبادة" الكاملة، التي ظهرت لاحقا في الهُلوكوست.[84]

باعتبارها القوّة الأولى في العالم، امتلكت بريطانيا قوّة أكبر واستخدمتها بشكل متكرّر أكثر من أيّة إمبراطورية أخرى، حيث قاتلت 72 بلدا صغيرا خلال فترة حكم المالكة فكتوريا الطويل الذي امتد بين الأعوام 1837 لغاية 1901. في حملاتهم الإفريقية، استخدم البريطانيون سلاحين منحاهما الأغلبية الساحقة في كثافة النيران، وهما بندقية مارتيني، أو هنري الجديدة ذات الست إطلاقات في

الدقيقة ورشاش مكسيم القادر على قذف 500 طلقة في الدقيقة.[85] بالنسبة للداروينيين الإجتماعيين، فإنّ قدرة بريطانيا على قتل الأفارقة بهذه الطرق المذهلة كانت الأرقام هي الدليل الواضح على بقاء الأصلح، والأصلح هو حقّ أوروبا في حكم "القارة السوداء".

في كلّ خطوة خلال تقدّمها عبر إفريقيا، استخدمت بريطانيا القوة النارية لحصد أرواح مزيد من رجال القبائل المحليّة. عندما استولى الوطنيون المصريون على السلطة، أنزلت بريطانيا 25000 جنديًا على شاطئ السويس واستولت على القناة في عام 1882. بعد هزيمة القوات المصريّة في معركة حامية الوطيس في الطريق الى القاهرة، استولى البريطانيون على العاصمة مقابل خسارة 57 جنديا فقط. فرضوا في أعقاب ذلك حماية غير رسمية على طول القناة واشتروا من حاكم مصر المُفلس حصّة في أسهم الشركة منحتهم على مدى 70 سنة قادمة، هيمنة غير رسمية على شركة قناة السويس المستقلة إسميًا. للسيطرة الحاسمة على هذا الممرّ المائي الحاسم للإمبراطوريّة، تولى إيفلين بارنگ، حفيد مؤسس مصرف بارنگز، لمدة ربع قرن من الزمن منصب القنصل البريطاني، ولعب دور سيّد الدُمى في توجيه الخديويين الحاكمين في مصر، بمساعدة فيلقه المكوّن من 662 "مستشارا".[86]

أسّست الإمبراطورية نفس النوع من البيروقراطية في الجانب الآخر من القارة في جنوب إفريقيا. شغل ملك الماس، سيسَل رودِس، منصبا بصفته الرجل المتقدّم للإمبراطورية البريطانية، ووجد رشّاش مكسيم ضروريا للإستيلاء على جزء كبير من جنوب إفريقيا من أجل شركاته الخاصّة، التي سرعان ما اصبحت مستعمرات تابعة للتاج البريطاني. لدى وصول رودِس الى جنوب إفريقيا في عام 1870، إكتسب ثروة طائلة فأسّس ابن الأسرة الفقيرة أصلا شركة تعدين باسم De Beers Mining لاحتكار مناجم الماس في كِمبَرلي وبنى "مجتمعا مغلقا" على الحريّات المدنية المقيّدة لعماله السود، وبالتالي خلق لاحقا نموذجا لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.[87]

بعد مؤتمر برلين، أعطت بريطانيا رودِس ميثاقا لشركته في جنوب إفريقيا، التي غطت كافة الأراضي الممتدة بين نهري لِمبوبو وزامبيزي. وعندما تمرّدت مملكة ماتابيلي القوية، أرسل رودِس 700 رجلا من المرتزقة المسلحين بخمس رشاشات مكسيم، حصدت أرواح 1500 مقاتلا إفريقيا في معركتين دمويتين. كان ذلك للسيطرة على منطقة أصبحت فيما بعد تشكل جنوب روديسيا، التي تسمّى الآن زِمبابوي.[88]



سيسِل رودِس ملك الماس في جنوب إفريقيا عام 1890 (Credit: Alamy)

جاء العرض النهائي لقوّة هذا السلاح في عام 1898 عندما كان الجنرال القاسي هِربَرت كُچنَر قائدا للجيش الأنكلو- مصري. سار جنوبا من مصر الى السودان في حملة تكونت من 26000 جنديا مسلحين بثمانين مدفعا و44 رشّاشا

من نـوع مكسـيم لقمـع الثـورة المهديـة الإسـلامية التـي قـام بهـا رجـال القبائل الصحراوية.[89] في مدينة أمّ درمان على النيل، أطلقت مدافع كُچنَر ورشاشاته النار لمـدة 5 سـاعات بـلا انقطـاع وهـاجم جنـوده 52000 جهاديّـا مسـلحين بالبنـادق القديمة والسيوف فقتلوا 10800 رجلا منهم بينما خسر الجانب البريطاني 40 رجلا فقط. حضر الشاب وِنستُن چَرچِل تلك الواقعة كمراسل حربي ومسح ساحة معركـة تـناثرت فيهـا أشـلاء مـن الجّثث، فاعتبرهـا مفارقـة غير مقصـودة و"أكبر انتصار تمّ تحقيقه على الإطلاق من قبل المتسلحين بالعلم ضدّ البرابرة." كسرت المذبحة سيطرة طائفة المهدية الإسلامية على الدولة، ممّا جعل السودان محميّة بريطانية طوال 50 سنة القادمة.[90]



هربرت كُچنَر قائد الجيش الأنگلو- مصري عام 1895 (Credit: National Portrait Gallery)

في الطرف الآخر من القارة، حققت بريطانيا انتصارا ثانيا في جنوب إفريقيا من خلال حرب وحشية ضدّ جمهورية ترانسفال ودولة أورنج الحرّة، اللتين سكنهما المستوطنون الهولنديون المعروفون باسم بوَرز Boers. كان عددهم قليلا بحيث لم يستطيعوا تجنيد أكثر من 42000 جنديا خاضوا حربا للبيض ضدّ البيض، كما ورد في سجلّ الفتوحات الإفريقية. بعد انقضاء فترة الهدنة بين مستعمرة الكَيب البريطانية وجمهورية البوَرز في عام 1886، إكتشفت جمهورية ترانسفال مناجم غنيّة جدّا بالذهب، للدرجة أنّ مدينة جوهانزبَرك أنتجت ربع سبائك العالم من الذهب. بدعم سرّي من وزير المستعمرات البريطاني، جوزف چَمبَرلِن، أرسل رودِس 600 من رجال شرطة شركته في مداهمة فاشلة لإحداث ثورة واستيلاء بريطاني على ترانسفال. رأى البوَرز أنّ الغارة نذيرٌ لفتح بريطاني، فاستعدّوا للحرب عن طريق استيراد بنادق الماوزر الألمانية والمدفعيّة الميدانية.[91]

في شهر تشرين الأوّل من عام 1899 هاجم البوَرز وحاصروا عدة مستوطنات بريطانية، كانت تحميها قوّة امبراطورية مؤلفة من 22000 عسكريّا ظلت في موقف دفاعي. بعد زيادة قوتهم العسكرية الى 87000 جنديا، بدأ البريطانيون بهجوم مضادّ أوقف هجوم البوَرز واستولوا على مدينتي پرتوريا وبلومفاونتِن. بدلا من الإستسلام، استحوذت قوات كوماندوز من البوَرز على الموقف وبدأت حرب عصابات ضدّ القوات البريطانية استمرت لحوالي 18 شهرا أخرى. ردّا على ذلك، اغرقت لندن البلد باحضار 450000 جنديّا بقيادة الجنرال كُچنَر، الذي تبنّى سياسة الأرض المحروقة. لكسر مقاومة البوَرز، أحرق البريطانيون 30000 بيتا ريفيّا ووضعوا 160000 مستوطنا مدنيا في معسكرات الإعتقال، حيث فقد حوالي 28000 شخصا حياتهم، وكان معظمهم من الأطفال، الذين ماتوا بسبب سوء التغذية.[92]

بحلول نهاية الحرب، كانت بريطانيا قد استنفذت مواردها المعنوية والمادية وانفقت الكثير من هيبتها الإمبراطوريّة ومبلغ 270 مليون جنيها

إسترلينيا أو 14٪ من دخلها القومي السنوي. لم ينكسر البوَرز رغم الهزيمة، ووافقوا في النهاية على الهيمنة البريطانية مقابل الحكم الذاتي. أصبح لويس بوتا، القائد السابق للبوَرز رئيسا للوزراء في اتحاد جنوب إفريقيا، واصبح العديد من قدامى الكوماندوز أعضاء في مجلس الوزراء. حكمت حرب البوَرز على المحافظين في إنكلترا، الذين خدموا لفترة طويلة، بهزيمة قاسية في انتخابات 1906 وأعطى حزب الإصلاح الليبرالي المتحالف مع حزب العمل الجديد فرصة للفوز بالسلطة تحت قيادة زعماء مثل لويد جورج، الذي استنكر القتال ووصفه بأنّه "حرب إبادة". وهذا من شأنه أن "يلطخ سمعة البلد."[93]

على مدى 40 سنة القادمة، ظلت أرض إفريقيا صيدا للوافدين في وقت متأخّر للتنافر الإمبراطوري. بينما كانت رشّاشات مكسيم القاتلة سمة العصر الفكتوري، إستخدم الإسبان والإيطاليون في إفريقيا غاز الخردل، الذي تمّ حظره في عام 1925 بموجب برُتوكول جنيف، لأنّه ثبت أنّه لا يرحم ويُسبّب حروقا شديدة وعمى ونزيفا داخليًا وكذلك السرطان فيما بعد.[94]

في الحملة الأولى من نوعها، حاولت إسبانيا اخضاع 240 ميلا من الساحل الإفريقي بين الجيبين في مدينتي سبتة ومليلة، الذي أطلق عليه إسم المغرب الإسباني. تمرّدت القبائل البربريّة المحليّة على الجيش الإسباني وشكّلت جمهورية *الريف* عام 1921. أطلقت إسبانيا جهود تهدئة مدّتها 6 سنوات تميّزت بقصف جويّ واستعمال غاز الخردل ووصلت الدّبابات الى القرى وانتشرت البرمائيات التي حملت 123000 جنديا ضغطوا بلا رحمة على 12000 رجلا من رجال حرب عصابات الأمازيغ حتى استسلموا.[95]

بينما تجاهل العالم حرب الريف الى حدّ كبير، أصيب الرأي العام بالصدمة بسبب الغزو الإيطالي الفاشي لإثيوبيا. إبتداء من عام 1935، أطلق الدكتاتور الفاشي بينيتو مّوسوليني 230000 جنديا، مدعومين بحوالي 700 مدفعا و150 دبابة و150 طائرة ضدّ جيش الإمبراطور هَيلا سِيلاسي، الذي لم يكن لديه سوى 4

دبابات و12 طائرة. وبسبب البسالة التي قاوم بها الإثيوبيون بشكل غير متوقّع، ضاعف موسوليني انتشاره وأمطر الإثيوبيين المنسحبين بما يقرب من 80 طنًا من الغازات السامة. خسر الإيطاليون 4300 قتيلا، وقتل الجيش الإيطالي الآلي 275000 إثيوبيًا. كانت الإصابات والخسائر غير متناسبة وقاسية وشكّلت جرائم حرب.[96]

الدوافع الجيوسياسية للحروب العالمية

كانت هذه الحروب الإستعمارية المتأخّرة في إفريقيا علامات على تراكم الضغوط على النظام العالمي البريطاني. خلال قرن من الهيمنة، تطلبت ستراتيجية لندن الحفاظ على توازن القوى في أوروبا والتأكيد على الهيمنة العالمية من قبل البحرية، التي لم تحمي الإمبراطورية فقط، بل ضمنت التجارة العالمية. من خلال سيطرتها على قناة السويس، التي كانت بمثابة الرابط الستراتيجي بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، ضمنت البحرية الملكية مرور الواردات والصادرات السلعية والصناعية، التي عزّزت الجزر البريطانية. وعلى الرغم من هذا السطح الهادئ، كانت الهيمنة العالمية بمثابة موجات قويّة من التنافس الإمبراطوري. مثلا كانت روسيا تتحرّك عبر آسيا الوسطى نحو الهند، وكانت هناك اشتباكات متكرّرة في منطقة البلقان. كان الفرنسيّون يضغطون بطلبات متنافسة في شرق إفريقيا. وقبل كلّ شيء، كانت ألمانيا تبني أسطولا قويًا خاصًا بها.[97]

كما اتّضح فيما بعد، فإنّ الستراتيجية الجيوسياسية، التي أثبتت فاعليتهاالإمبراطورية خلال زمن السلم، واجهت صعوبات حين اختبرتها القوى المتنافسة خلال حربين عالميتين. إبتداء من حوالي عام 1900، عيّن القيصر الألماني ڤلهلم الثاني الأدميرال ألفرد فون تريبتز، صاحب الرؤية الستراتيجية الذي نصّب نفسه لمهمّة بناء قوّة بحرية كبيرة بما يكفي لردع أيّ هجوم بريطاني.[98] ومع ذلك وفي أقلّ من عقد من الزمن إنهارت تلك الستراتيجية الكُبرى عند مواجهتها برؤية بحريّة حقيقية. قرّر اللورد البحري البريطاني جون الأوّل "جاكي" فِشَر بناء أوّل سفينة حربيّة

حقيقية في العالم، HMS *Dreadnought* بلغ وزنها 17900 طنّا. وهي ذات محركات توربينيّة تعمل بالبخار ومسلّحة بعشرة مدافع قوية بحجم 12 بوصة. ردّ الإدميرال الألماني تِربيتز على تلك المفاجأة ببرنامج كلفته مليار ماركا لبناء بارجة وزنها 18000 طنّا. ومن هنا بدأ سباق تسلّح أجبر بريطانيا على رفع ميزانيتها البحرية بنسبة 50٪ وتدمير الموارد المالية لألمانيا. كما وجّهت البحرية الملكية السفن نحو الوطن لأغراض الدفاع. لم يكن أمام بريطانيا خيار سوى التخلي عن سياستها القائمة بذاتها وابتدأت سياسة إبرام معاهدات الدفاع المُشترك مع اليابان وفرنسا وروسيا، التي عزلت ألمانيا دبلوماسيا. وجد طاقم البحرية في برلين عام 1905 أنّ عزل ألمانيا عن بقيّة العالم سيُسبّب لها "أزمة مالية واجتماعية ذات عواقب لا حصر لها."[99]



الأدميرال ألفرد فون تربيتز مهندس البحرية الألمانية عام 1905 (Credit: Library of Congress)



جون "جاكي" فِشَر لورد البحار وصاحب مشروع السفينة الحربية HMS Dreadnoughts عام 1915
(Credit: Library of Congress)

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى، لم تكن الأزمة المتوقعة طويلة الأجل. كانت البحرية الملكيّة لا تزال مهيمنة بما يكفي لحصر أسطول القوات البحرية الألمانية لأعالي البحار داخل مياهه الإقليمية، وفرضت حصار بحريّا من شأنه أن يتسبّب في مجاعة أدت لوفاة 763000 مدنيّا ألمانيا في نهاية الحرب. حاولت برلين من جانبها زيادة الحرمان المماثل لبريطانيا من خلال حرب الغوّاصات غير المقيّدة التي تسبّبت في إغراق 5700 سفينة. لكن قوافل البحرية الملكية والحجم الهائل لأسطولها التجاري، تحمّل الخسائر الفادحة ولم تقع مجاعة في بريطانيا. عاقدة العزم على كسر الحصار البريطاني، دفعت ألمانيا في شهر مايس من عام 1916 بكامل أسطولها لأعالي البحار المكوّن من 83 سفينة و6

طرّادات تعمل جميعا بالمحرّكات البخارية والمتواجدة في بحر الشمال، لخوض "معركة حاسمة، "حسبما وصفها ذات مرّة الستراتيجي الأمريكي ألفرد ثاير مّهان. غير أنّ الأسطول البريطاني المتفوّق أمطرها بوابل من القذائف أجبرها على التراجع، وبالكاد الهروب من منطقة المعركة، فيما سُمّي فيما بعد بمعركة جوتلَند.[100]

في خطوة ستراتيجية أخرى، هاجمت بريطانيا الإمبراطورية العثمانية، حليفة ألمانيا، على حدودها الجنوبية في الخليج الفارسي واستولت على المدينة الساحلية البصرة وتأمين مصفاة شركة النفط الأنكلو - فارسية في عبّادان، وبالتالي ضمان إمداد البحرية الملكية بالوقود. بعد عامين آخرين من الدماء التي لطخت الجمود في الخنادق على الجبهة الغربية، إنهارت جهود الحرب الألمانية وسط الجوع والتمرد المفتوح لاسطولها البحري وجيشها غير الراغب في القتال وعمالها الجياع المضربين عن العمل في المصانع، اضطر القيصر على التنازل عن العرش.[101]

على حساب مليون قتيلا، خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب العالمية الأولى باعتبارها "القوة العظمى العالمية" الوحيدة. على الرغم من كلّ البلاغة الكلامية، التي خدمت الذات باسم الحريّة، أثبت مؤتمر فرساي للسلام في نهاية الحرب أنّه مأدبة امبراطورية لاقتسام الغنائم، حيث قامت الدول المنتصرة بتقسيم أراضي الدول المهزومة. في إفريقيا، استحوذت بريطانيا على المستعمرات الألمانية السابقة في تنجَنيقا وناميبيا واجزاء من الكاميرون وتوگو، وبالتالي الحصول على سلسلة غير منقطعة من المستعمرات على طول تلك القارة الشاسعة، من القاهرة الى كّيب تاون. واضافت اليها الشرق الأوسط بما فيه العراق والأردن وفلسطين. في المحيط الهادئ، حصلت بريطانيا على السيادة في أستراليا وعلى غينيا الجديدة الألمانية، بينما ورثت نوزيلندا ساموا من ألمانيا. بحلول الوقت، الذي أجريت فيه محادثات السلام المشار إليها، عزّزت

الإمبراطورية البريطانية مكانتها، وبلغت الذروة بإحكام قبضتها على 450 مليون نسمة تحت حكمها.[102]

بعد 20 عاماً، إستعادت الحرب العالمية الثانية نفس الديناميكيات الجيوسياسية، على الرغم من أنّ النتيجة كانت مختلفة تماماً بالنسبة للإمبراطورية البريطانية. بعد اختبار حدود النظام الدولي في إثيوبيا والحرب الأهلية الإسبانية في ثلاثينات القرن العشرين، قوى محور ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والإمبراطورية اليابانية. أغرقت قوى المحور هذه العالم في حرب من شأنها إجهاد القوة المالية والمرونة الجيوسياسية في لندن الى اقصى درجة. غادرت بريطانيا المحيط الهادئ، حيث لعبت دورا هامشيّا بعد الإذلال باستسلام سنغافورة لليابانيين في عام 1942. من جهة أخرى، أثبت مسرح العمليات العسكرية في أوروبا أنّه حرب استنزاف بين القوّة القاريّة لألمانيا والتفوق البحري البريطاني. من خلال الحرب الخاطفة لاختراق فرنسا وبولندا، جاء الرايخ الثالث بأدولف هتلر للسيطرة على كافة أوروبا تقريبا. بحلول منتصف عام 1940، كان موقف ألمانيا الجيوسياسي ضعيفا في هوامشها البريّة والبحريّة. في التوسع السريع لهتلر والنازيين، استرشدت القيادة بالأفكار الستراتيجية للأستاذ كارل هاوشوفر، أستاذ الجغرافيا في جامعة ميونخ، والذي كان رائدا في ألمانيا ومن دعاة الجغرافية السياسية.

إثر الإنتصارات الألمانية المبكّرة عام 1940، نشر الحزب النازي أطلس النصر الذي حدّد ستراتيجيته لهزيمة بريطانيا العظمى. كان بين معدّي الدراسة إلبرخت هاوشوفر نجل الأستاذ المذكور في أعلاه وأستاذ الجغرافية في جامعة برلين. استخدم "علم الجغرافية السياسية الجديد" لشرح كيف كان رايخ هتلر سينجو في النهاية من مصير حرب الإمبراطورية الألمانية. خلال الحرب العالمية الأولى، هزم الحصار البريطاني ألمانيا من خلال "المجاعة المحليّة والعجز الإقتصادي". الآن ومع ذلك، كانت هزيمة الرايخ الثالث لفرنسا قد جعلتها

"محصّنة ضدّ الحصار" وإحداث "صدمة" لنظام الإمداد البريطاني بجلب الغواصات النازية أقرب بكثير الى إنكلترا. علاوة على ذلك، حوّل غزو الرايخ الثالث للنرويج في شهر نيسان من عام 1940، بحر الشمال الى "بحر ألماني" وفتح طريقا لألمانيا نحو الأطلسي وأعطى قواتها "موقعا جديدا للهجوم ضد الساحل الشرقي لإنكلترا"، بدلا من فرض حصار لبحر الشمال على بعد 250 ميلا. كما فعلت في الحرب الأخيرة، واجهت بريطانيا الآن مهمة الدفاع المستحيلة عن طوق بحري بطول 2200 ميلا يمتدّ من آيسلندا الى مضيق جبل طارق، ممّا أعطى ألمانيا وإيطاليا "فرصا ممتازة لكسب السيطرة على شرق المحيط الأطلسي".[103]

إسترشادا بهذه الستراتيجية الجيوسياسية، اطلق الرايخ الثالث لهتلر 3 محاولات فاشلة لتركيع بريطانيا على ركبتيها بين شهري حزيران وتشرين الأول من عام 1940. خسر سلاح الجو الملكي 1700 طائرة في مقاومته لمحاولة هتلر قصف البلاد حتى الخضوع. لكن معركة بريطانيا تركت معقل الجزيرة غير خاضع. في الحقيقة جعلها في وضع جيّد لتهديد قلعة الحدود الغربية للرايخ. بعد ذلك تحوّلت ألمانيا الى حرب الغوّاصات في محاولة لقطع مليون طنّا من الواردات، التي تحتاجها بريطانيا كلّ اسبوع للبقاء على قيد الحياة. ألحقت غوّاصات يو الألمانية بالفعل خسائر فادحة بالبريطانيين وسفن الإمدادات الأمريكية، التي عبرت شمال الأطلسي، وحتى مزيج قوافل الحلفاء والدوريّات الجوية، التي قلبت المدّ الألماني ببطء، ممّا سمح بتجمّع هائل للقوات الأمريكية في بريطانيا. بحلول الوقت، الذي انتهت فيه معركة المحيط الأطلسي، كان الحلفاء قد حطّموا البحرية النازية وخسروا 3500 سفينة تجارية، لكنّهم أغرقوا 104 غواصة.[104]

في الوقت نفسه، بذلت قوّات المحورمحاولات متكرّرة للتقدّم عبر ليبيا والإستيلاء على قناة السويس، تكرارا لستراتيجية نابليون لقطع الإمبراطورية البريطانية في نقاط ارتكازها الجيوسياسية في مصر. برغم أنّ البحرية الملكية لا

تزال تهيمن على البحر الأبيض المتوسط، فقدّمت ليبيا، التي كانت مستعمرة إيطالية في الجوار، قواعد لهجوم المحور. في معركتين صحراويتين هائلتين في منطقة العلمين على بعد 160 ميلا فقط غرب القاهرة، أوقف الجيش البريطاني الهجمات الألمانية الأيطالية وبدأ في دفع المهاجمين للخلف عبر شمال إفريقيا. في الوقت نفسه، تقدّم الجيش الياباني بلا هوادة عبر جنوب شرق آسيا واستولى بالفعل على المعقل البريطاني في سنغافورة، واجبر الجيش البريطاني للتراجع مسافة 900 ميلا عبر الأدغال من بورما حتى الهند. لأنقاذ جوهرة التاج الإمبراطوري، حشد البريطانيون جيشا هنديا من مليوني جنديا ووعدوا باستقلال البلد بعد الحرب. مع تأمين كلّ من شريان الحياة في السويس والدفاع عن حدود الهند، ضاعفت بريطانيا امتياز انتاج النفط في إيران، وهيّأت مصفاة عبّادان أكبر إمداد لقوّات الحلفاء في أوروبا والإتحاد السّوفيتي وآسيا.[105]

في تلك الأثناء وعلى الجبهة الشرقية في منتصف عام 1942، أرسل هتلر مليونا من جنوده لغزو جنوب الإتحاد السّوفيتي بهدف قطع خط الأنابيب الرئيسي في البلاد جزئيا. وهو الخط الممتد من حقول النفط على بحر قزوين ولمنع شحنات مساعدات الحلفاء الحرجة، التي تصل روسيا عن طريق إيران. استمرّ القتال حول مدينة ستالينگراد لمدة 5 أشهر، حين عانى الألمان خسائر فادحة ولم يعُد جيشهم قادرا على وقف الهجوم السوفيتي المضاد. بالإنتقال الى الدفاع عن امبراطوريته، حشد هتلر 32000 أسيرا واستخدمهم لبناء حصنه الشهير في أوروبا Festung Europa، وزرع ما يقرب من 6 ملايين لغما ومصائد للدبابات لمنع غزو الحلفاء عبر القنال الإنكليزي. غير أنّ قوّة برمائية من قرابة 3 ملايين جنديا أمريكيا وبريطانيا وكنديا، اخترقت ذلك الجدار الأطلسي بالهبوط في نورمَندي في شهر حزيران من عام 1944، فشقت هجمات الحلفاء طريقها عبر فرنسا. أمّا على الجبهة الشرقية، فقد حرّر الجيش الأحمر بولندا أوّلا قبل الإستيلاء على برلين، العاصمة النازية في شهر نيسان من عام 1945.[106]

على الرغم من أوجه التشابه القوية في الجغرافية السياسية بينهما، كانت هناك اختلافات عميقة في النتائج السياسية للحربين العالميتين. إذا كانت الحرب العظمى قد أكّدت في النهاية الحكم الإمبراطوري على الشعوب المُستعمرة في إفريقيا وآسيا، فإنّ الحرب العالمية الثانية حملت عنصرية العصر الإمبراطوري الى ازدهار قاتل. في نهاية الحرب العالمية الأولى، جاء الوفد الياباني الى مؤتمر فرساي عام 1919، لتأمين بند المساواة العرقية في ميثاق عصبة الأمم الجديدة.

رغم وعوده بالحريّة والتخطيط الدوري لما بعد الحرب بقصد تعزيز السلام العالمي، كان الرئيس الأمريكي وودرو وِلسُن من دعاة الفصل العنصري في الجنوب الأمريكي وقام بتحديد خدمة السود في الوظائف المدنية. أضف الى ذلك أنّه استضاف في البيت الأبيض مناسبة لولادة الأمة الجديدة، وبالتالي رعى انشاء منظمة الكو كلكس كلان Ku Klux Klan، ذات التصوّر العنصري الشديد المعادي للأمريكيين الأفارقة. تزامن هذا مع مخاوف المسؤولين البريطانيين المماثلة من أنّ إعلان المساواة البشرية من شأنه أن يخلق "مشاكل خطيرة للغاية" لإمبراطوريتهم الإستعمارية. حين نال مطلب اليابانيين تأييد الغالبية في المؤتمر، لجأ وِلسُن، باعتباره رئيس جلسة المؤتمر، الى تجاهل ذلك الإتجاه والحفاظ على التسلسل الهرمي العرقي للعصر الإمبراطوري. وتم خلال هذا المؤتمر تحرير الأوروبيين من الحكم الإمبراطوري النمساوي والروسي. ولغرض استمرار السيطرة الإستعمارية على شعوب آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط والحفاظ على الحكم الإمبراطوري، تولت عصبة الأمم فكرة نظام الإنتداب، التي أسست شكلا من أشكال السيادة المعلقة. وهي فكرة جاء بها أصلا الفقيه الإسباني فرانسيسكو دي فِتوريا في القرن السادس عشر. في الحقيقة، أدّى رفض وِلسُن التعسّفي للمساواة العرقية الى شلل القيادة الأخلاقية لعصبة الأمم منذ ولادتها، تماما مثلما أدّى ضعفه غير الكفء والقاتل الى الفشل في حصوله على موافقة الكونگرس لدعم مشاركة الولايات المتحدة لنفوذها العالمي.[107]

بعد أكثر من عقد بقليل لانعقاد مؤتمر قصر فرساي، صعد هتلر الى قمّة الرايخ الثالث وفق التسلسلات الهرمية العرقية للعصر الإمبراطوري واحتضان منطق الداروينية الإجتماعية من أنّ القويّ يجب أن ينتصر على الضعيف. في هذه القمّة النازيّة للسلطة، جادل المنظّر السياسي كارل شميت بأنّ الولاية الفضائية العالمية لعصبة الأمم، كانت خيالاً يتمّ استبداله الآن بفضل هيمنة ألمانيا على أوروبا، ومن خلال تقسيم العالم بين الأقوى. بهذه الروح وقعت ألمانيا وإيطاليا واليابان على الميثاق الثلاثي الطموح الداعي الى نظام عالمي جديد قائم على ما لدى المؤرّخ مازور من مبادئ تُسمّى "السلطة والمنطقة والتسلسل الهرمي، وليس المساواة والسيادة العالمية." في مفارقة قاسية، حلّ تحالف المحور الثلاثي التناقض بين السيادة الوطنية والحكم الإمبراطوري الكامن وراء العصر البريطاني، بجعل حقّ الفتح أساس النظام العالمي الجديد.[108]

بعد غزوه الخاطف لبولندا في بداية الحرب عام 1939، قسّم هتلر البلاد ودمج نصفها الغربي في ألمانيا وأدار الباقي من خلال حاكم نازي أعلن أنّ، "بولندا سوف تُعامل كمستعمرة. يجب أن يكون البولنديون عبيدا للرايخ الألماني الأكبر." مع تقدّم جيوشه عبر أوروبا الشرقية، تحرّك رايخ هتلر من العبودية الى إبادة الشعوب، التي اعتبرها النظام العنصري أقلّ شأنا، لا سيّما السلاف واليهود والغجر. من بين سكان دول أوروبا الشرقية الذين بلغ عددهم 210 مليون نسمة، كان بينهم 200 مليون سُلافيًا و9 ملايين يهوديًا. حاول النازيون تطهير المجال الحيوي أو مساحة المعيشة بقتل حوالي 4 ملايين أوكرانيًا و3 ملايين بولنديًا من غير اليهود، وأكثر من 90٪ من السكان اليهود في بولندا، أي نحو 3 ملايين يهوديًا.[109]

بينما كان ذبح السلاف عشوائيًا خلال المجازر الدموية والترحيل القسري والمجاعة الجماعية والسخرة الوحشية خلال سنوات الحرب، كانت أبادة النازيّة لليهود منهجيّة وبلا هوادة. كخطوة أولى، قتلت فرق هتلر شبه العسكرية

الخاصّة حوالي 1.4 مليون شخصا. ثمّ بدأ النازيّون في إرسال قطارات مغلقة محمّلة باليهود عبر أوروبا الى 6 معسكرات موت رئيسية في بولندا. ورغم ذلك، كان هناك وجود قويّ من المقاومة داخل الأحياء اليهودية البولندية، حيث كان اليهود يتركّزون لشحنهم الى المعسكرات المذكورة. وفي داخل المخيّمات نفسها وفي نهاية الحرب، أدّى "الحل النهائي" للنازية الى مقتل 6 ملايين يهوديًا، حوالي ثلثي السكان اليهود في أوروبا قبل الحرب. من وجهة نظر إمبراطورية، جعلت المحاولة أوروبا الشرقية سلة خبز للرايخ الثالث فقط، وأسفرت عن مجاعة جماعية للآخرين، وجرى في نفس الوقت النّهب المنتظم لممتلكات اليهود واصولهم ومواردهم المالية في مختلف الأراضي المحتلة، التي ساوت قيمتها 2 ترليون دولارا بعملة اليوم. ولكن ثبت أنّ الأمور ليست مستدامة وفي نهاية المطاف أتت السياسات العنصرية ونظامها الإقتصادي، التي بشّر بها مازور، "بنتائج عكسية تماما كفلسفة للحكم."[110]

بينما حاولت ألمانيا إبادة الشعوب الأوروبيّة، التي اعتبرتها أقلّ شأنا، تبنّت اليابان سياسة عرقية استيعابيّة لإمبراطوريتها الآسيوية في زمن الحرب من خلال النشر القسري للغة اليابانية وثقافتها وأيضا نشر ديانة الشنتو. تماما كما روّج النازيّون للهجرة الألمانية الى المزارع المحتلة في بولندا، أرسلت اليابان بدءاً من عام 1936، 322000 من مواطنيها القرويين لاستيطان الأراضي المحتلة في منشوريا. بسبب شعورهم بالتفوّق العنصري والروحي، كان ردّ فعل قادة اليابان العسكريين قاسيا ضدّ أيّة معارضة. وهي المعاملة التي قادت الى قيام حرب عصابات ضدّ اليابان في الصين ثمّ في جنوب شرق آسيا لاحقا.[111]

حين اصبحت الإبادة الوحشية والمجازر الجماعية، التي جلبتها سياسة المحور، أكثر وضوحا خلال الحرب، أجبر الحلفاء على فحص إخفاقاتهم. بدأوا مراجعة التسلسل الهرمي العرقي لأمبراطوريتهم في الشرق الأقصى. خلصت وزارة الخارجية البريطانية في عام 1941 الى أنّه "من المستحيل السماح

بالتميز في العالم كما هو قائم اليوم." لكن التقدم سيكون صعبا بالنظر الى أنّ الأمريكيين أيضا بعيدين عن أي إيمان حقيقي بالمساواة العرقية. "ومع ذلك وبحلول عام 1944 خلصت المفوّضية الأمريكية لدراسة تنظيم السلام الى أنّ "إنجيل هتلر بالتفوّق الآري... زرع بذور الحرب." لقد محوا عذاب الذاكرة عن "رفض الرئيس ولسُن في باريس لمبدأ المساواة العرقية." حثّت المفوّضية على اتخاذ اجراءات ما بعد الحرب للنهوض بحقوق الإنسان قائلة، "من خلال الإشمئزاز من المذاهب النازيّة، يمكننا... تسريع العملية لجعل ممارساتنا الخاصّة في كلّ أمّة أكثر انسجاما مع بلدنا الذي أعلن المثل العليا."[112] في عام 1945، وضع الحلفاء ميثاقا للأمم المتحدة يقوم على مبادئ المساواة العرقية، التي من شأنها أن تصبح مبادئ تأسيسية للنظام العالمي بعد الحرب.

على الرغم من أنّ النازيين، على حدّ قول مازور، "أعادوا الحقائق الى الوطن من الإستعمار" لشعوب أوروبا المحتلة، فقد إستغرق الأمر عقدا أو أكثر للمسؤولين في لاهاي ولندن وباريس، لاستيعاب هذا الدرس بالكامل. ومع ذلك وعلى الفور، وثقت محاكمات نورمبُرگ جرائم الحرب النازية وفي طليعتها الهُلوكوست ليهود أوروبا بشكل تفصيلي كبير، كما أنشئ نموذج للجان الحقائق اللاحقة لفحص جرائم الأنظمة الإستبدادية. كما ساهمت تلك الوثائق في تصديق اتفاقية الأمم المتحدة بشأن الإبادة الجماعية في عام 1948، UN Convention on Genocide كعلامة بارزة في هيئة عالمية ناشئة عن قانون حقوق الإنسان.[113]

لا يزال النطاق غير العادي للدمار الذي خلقته الحرب، يتجاوز حدود الخيال البشري. من خلال تقنيات الدمار الشامل الجديدة، أدّت الحرب العالمية الثانية الى مقتل ما يُقدّر بنحو 77 مليون شخصا. لجني هذا الحصاد المميت، استخدمت جيوش العالم 600 مليون لغما و2 مليون مدفعا و450000 قاذفة مقاتلة و300000 دبابة و170000 قاذفة ثقيلة و4000 سفينة حربية (وقنبلتين نوويتين

أمريكيين - المترجم). كان الأمر وكأنّ كافة العالم الصناعي قد تمّ تسخيره لتحريك آلة الموت والخراب الهائلة. كان ثلثا قتلى الحرب من المدنيين مقارنة بنحو 20٪ في الحرب العالمية الأولى. دمّر القصف حوالي 30٪ الى 40٪ من جميع المساكن في المدن الكبرى في ألمانيا واليابان، بينما خسرت الأمم الأوروبيّة 20٪ الى 30٪ من مجموع مساكنها.[114] كان هذا الدمار بمثابة كارثة ذات نطاقين كافيين لإنهاء عصر إمبراطوري غطّى العالم بالمستعمرات لأكثر من قرن.

جاء انتصار بريطانيا في الحرب العالمية الثانية بتكلفة غير عاديّة، إذ تضرّرت مدنها وتقلصت مواردها المالية واستُنزف أهلها. من بين 4.7 مليون عسكريًا تمّ حشدهم، أي ما يعادل 20٪ من جميع الذكور البريطانيين، قُتِل 403000 جنديًا. علاوة على ذلك، قتل القصف الألماني نحو 60 ألف مدنيًا ودمّر آلات صناعية قيمتها 900 مليون جنيها إسترلينيًا، ودُمّر أو تخرّب أكثر من مليون منزلا. لخوض حرب عالمية لمدة 6 سنوات طويلة، كانت بريطانيا قد أجرت "صفقة بيع تاريخية" إمبراطوريّة من خلال الإعتماد على أصولها لاقتراض 2.7 مليار جنيه إسترليني من الإمبراطورية واقترضت أيضا 5.3 مليار جنيها إسترلينيا من الولايات المتحدة، شريان حياة واشنطن الذي قُطع على الفور في نهاية الحرب. أدّى ضعف المحاصيل الى تقنين المواد الغذائية في فترة ما بعد الحرب وكان أكثر صرامة من التقنين خلال فترة الحرب، واستمر لعقد آخر. بعد معاناة شديدة، فضّل الشعب البريطاني إعادة الإعمار المحلي والخدمات الإجتماعية الأفضل في المنازل على حساب الإمبراطوريّة، في حين أنّ المستعمرات نفسها لم تعد مستعدّة لقبول الحكم الأجنبي. واجهت بريطانيا خيارا، إمّا أن تتخلى عن إمبراطوريتها، وكانت فكرة لا يزال لا يمكن تصوّرها تقريبا، أو البحث عن طرق جديدة لجعلها مصدرا للأرباح وإعادة بناء الإقتصاد المحلي المحطّم.[115] في اعقاب تاريخ الحرب الأكثر تدميرا، فإنّ المحاولة الخيالية للحفاظ على الإمبراطورية قد دفعت البلاد الى عقدين من الإضطراب السياسي غير العادي.

إنهاء الإستعمار في ما بعد الحرب

بينما كانت المدن الأوروبيّة تقبع تحت الأنقاض، كانت إفريقيا وآسيا في موضع الذروة وعلى عتبة واحدة من أعظم التحوّلات في التاريخ الحديث. خلال 20 سنة التي أعقبت الحرب، بدأت الإمبراطوريات العشر، التي حكمت تلك البشرية بفسح المجال لنحو 100 دولة حديثة للإستقلال. بعد 6 أشهر فقط من استسلام اليابان، أبلغ فِليب باكّيي، وهو ديلوماسي أمريكي صغير عمل في كلكتا والدار البيضاء خلال الحرب، بما أثبت دقّة ملفتة للنظر. "يمرّ العالم بأزمة استعمارية لا مثيل لها في التاريخ. الإمبراطوريّات العظيمة، التي بنتها قوى أوروبا الغربية خلال 4 قرون... تنهار أمام أعيننا."[116]

كحدث تاريخي، دُفِن نظام عالمي ووُلِد نظام عالمي آخر. كان إنهاء الإستعمار في بعض الأحيان عنيفا بشكل غير عادي. قاتل الإستعماريون بشقّ الأنفس حروبا ثوريّة في إندونيسيا وفيتنام والجزائر وكينيا ودول إفريقية أخرى، وحققت المستعمرات الإستقلال بتكلفة مذهلة. حتى التحوّلات التفاوضيّة في بورما والهند والملايو أشعلت شرارة الخلافات الداخلية المريرة، التي خلفت ندوبا اجتماعية دائمة. على الرغم من أنّ عصر الإمبراطورية قد انتهى بوضوح، إلا أنّ عددا من الدول الناشئة وجدت نفسها مُجبرة على محاربة بقايا الأنظمة الإستعمارية المتمرّدة المتشبثة بشراسة حتى آخر بقايا القوة الإمبريالية. في نهاية الحرب، حاولت واشنطن تعزيز إنهاء الإستعمار بشكل سلمي من خلال تأسيس مجلس وصاية في الأمم المتحدة، لكنّ حلفاءها الأوروبيين أصرّوا على استثناء إمبراطورياتهم. "بالنسبة لي، لن يكون هناك ما يشير الى وضع الإمبراطورية البريطانية في قفص الإتهام،" كما صرّح چَرچِل في مؤتمر يالطا عام 1945. "إتركوا الأمر ليتمّ فحصه من قبل الجميع ليروا ما إذا كان الأمر متناسبا مع معاييرهم." أثناء صياغة ميثاق الأمم المتحدة في وقت لاحق من ذلك العام، نجحت بريطانيا في الحدّ من مناقشة موضوع إنهاء الإستعمار الى مطلب غامض وهو أن يكون

الحكام على دراية "بمصالح سكان المستعمرات وخطط الحكم الذاتي أو الإستقلال في نقطة غير محدّدة في المستقبل." بين المبدأ والقوّة، خفّفت واشنطن من موقفها المناهض للإستعمار ترضية للبريطانيين والفرنسيين، لكنّها اتخذت موقفا مُتشدّدا اتّجاه الهولنديين.[117]

في جزر الهند الشرقية التابعة لهولندا، رفض الهولنديّون قبول واقع القومية الإندونيسية ولجأوا الى مناورات يائسة للحدّ من نفوذها. حين أعلن قادة إندونيسيا من جانبهم الإستقلال الوطني في شهر آب من عام 1945، بذل الهولنديون جهدا عسكريًا حازما لاستعادة حكمهم الإستعماري. أرسلوا في النهاية 140000 جنديا، وبعد 4 سنوات من الممارسات الوحشية، فشلت الحملة العسكرية في فرض تهدئة مليئة بالفظائع. إنسحب الهولنديون أخيرا حين مارست واشنطن ضغوطا دبلوماسية شديدة. حتى ذلك الحين، أصرّت هولندا على الإحتفاظ بالنصف الغربي من غينيا الجديدة، حتى أجبرها المزيد من الضغط الدولي على التراجع النهائي في عام 1962[118].

كان انهاء إستعمار الإمبراطورية الفرنسية أكثر عنفا، وتميّز بحروب مريرة ضدّه استمرت لمدة 15 عاما بعد الحرب العالمية الثانية. أدّى القتال في الهند الصينية خلال السنوات 1946 لغاية عام 1954 الى خسارة 45000 جنديا فرنسيًا و175000 جنديًا فيتناميا.[119] في نفس الوقت، أطلق حزب وطني في مدغشقر إنتفاضة يائسة على طول ساحل الجزيرة الشرقي، بعد أن قتلت عملية التهدئة 89000 شخصا، تاركة البلاد مصابة بصدمة نفسية وسوء الإستعداد عندما جاء الإستقلال أخيرا في عام 1960. إذا كانت الهند الصينية ومدغشقر حرائق بعيدة، فإنّ الجزائر كانت الجحيم القريب، الذي أدخل فرنسا في الإضطرابات السياسية والحرب الأهلية. لأكثر من قرن من الزمن، أنشأ الحكم الإستعماري الفرنسي نظام فصل عنصريّ في ذلك الوقت في منطقة شمال إفريقيا، التي كانت جاهزة للثورة. بينما حُرم نحو 9 ملايين مسلما من العمل أو التعليم المناسب، صادر

المستعمرون الفرنسيّون، الذين أطلق عليهم إسم Pieds-Noirs، افضل الأراضي الزراعية والوظائف الحكومية المُحتكَرة من قِبَلِهم. فشلت كافة محاولات الإصلاح للحدّ من امتيازات Pieds-Noirs، الذين دافعوا بحجج أنّ المسلمين أقلّ شأناً منهم من الناحية العرقية.[121]

بعد 8 سنوات من النضال الثوري، الذي قتل 17500 جنديّا فرنسيا وخلف 141000 شهيدا جزائريا من مقاتلي جبهة التحرير، جاءت النهاية على يد الرئيس شارل ديگول. وكما اعتاد بهيبته الهائلة تخليص فرنسا من الإمبراطورية، لم يكمل التفاوض فقط لإنهاء الحرب الجزائرية ولكن أيضا منح 14 دولة إفريقية الإستقلال الكامل في عام 1960.[122] أخِذت التجربة الفرنسية المريرة كتحذير، فغادرت بلجيكا الكونگو على وجه السرعة في نفس العام، وتركت أمّة غير مهيّأة غرقت بعدها في عقد من فوضى النزاع. كانت البرتغال أوّل وآخر الإمبراطوريات العالمية المغادرة بعد حروب استمرّت 15 عاما ضدّ حركات التحرير الوطنية في أنگولا وغينيا وموزمبيق، لغاية انهيار نظامها الإستبدادي في الداخل عام 1974، حين مُهّد الطريق لحكم قريب من الإستعمار في إفريقيا وجنوب شرق آسيا.

مثل القوى الأوروبيّة الأخرى، حاولت بريطانيا جاهدة بعد الحرب العالمية الثانية لتكييف إمبراطوريتها الرسمية وغير الرسمية الشاسعة مع هذا العالم المُتغيّر، الذي من شأنه جعل إنهاء الإستعمار حقيقة لا مفرّ منها. حتّى في أحلك الأيام خلال الحرب العالمية الثانية، كان الإمبرياليّون من حزب المحافظين، مثل وزير الخارجية أنتوني إيدن يمثلون "الجيل الفِكتوري،" الذي لا زال ينضح بما وصفه المؤرّخ كريس بايلي "الثقة بالنفس التي لا تُقهَر" في مستقبل إمبراطوريتهم. على الرغم من موقفها من المبادئ الإشتراكية، أعلنت حكومة حزب العمّال بعد الحرب دعمها من أجل "الإمبراطورية القديمة المُبهجة" Jolly Old Empire، واشترك كلا الحزبين في الإقتناع بأنّ المُستعمرات ستحتاج الى سنوات عديدة من التحضير قبل الإستقلال. حين تحرّرت الهند في عام 1947،

أمضت الحكومات البريطانية المتعاقبة العقد التالي في محاولة اللحاق بالتطلعات الوطنية وصياغة المخططات للإحتفاظ بما تبقّى من نفوذ المُستعمرات. بالنسبة لحزب العمال، كان الدافع الرئيسي هو تمويل برامج الرفاهية الإجتماعية، في حين سعى المحافظون لإنعاش الإقتصاد والمحافظة على حالة القوّة العالمية لبريطانيا. بدءاً من إراقة الدماء التي رافقت استقلال الهند وسلسلة الأزمات الإستعمارية في منطقة الملايو وفلسطين ومصر وكينيا وأماكن أخرى، قادت الأحداث البريطانيين تدريجيا للإدراك المتأخر بأنّ العصر الإمبراطوري قد انتهى، وحفّزهم هذا الإدراك على التراجع السريع. من خلال مجموعة من هذه الضغوط، خلال 20 سنة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، إنخفض عدد سكّان مستعمرات الإمبراطورية البريطانية من 700 مليون نسمة الى 5 ملايين نسمة فقط.[123]

مع الحدّ الأدنى من المفاوضات لتوجية الإنتقال، تراجعت بريطانيا غالبا حين كانت امبراطوريتها غير الرسمية عرضة لعواصف إنهاء الإستعمار الرسمي. في عام 1949 وعلى طول ساحل الصين من كانتون الى شنگهاي، اجتاحت الثورة الشيوعية المناطق واستحوذت على البنوك البريطانية والبيوت التجارية، باستثناء هونگ كونگ، حيث استمروا في الصمود لنصف قرن آخر. في إيران، سعت الحكومة الوطنية للحصول على عوائد عادلة من شركة النفط الأنگلو – فارسية ومصفاة عبادان. وصلت الأمور الى ذروتها الهائلة في الإنقلاب الصاخب، الذي دبرته وكالة المخابرات المركزية، فحلّ النفوذ الأمريكي محلّ النفوذ البريطاني المنتشر في السابق مع نظيره الأمريكي. في مصر، أصبح الحد على تراجع النفوذ البريطاني بمثابة ناقوس موت للإمبراطورية البريطانية الرسمية.

قضى البريطانيون في امبراطوريتهم ومستعمراتها ومحميّاتها فترة 15 عاماً التي تلت الحرب العالمية الثانية لإنهاء الإستعمار. كان الكثير من قادتها أرستقراطيين جموحين متعصّبين فضاعف هذا الكوارث الإمبراطورية.

استشهادا بذلك المثل الرئيسي، قامت بريطانيا باستعدادات غير ملائمة على الإطلاق لتقسيم الهند وخلق دولة باكستان، إنطوت تلك الحركة المفاجئة على هجرة حوالي 11 مليون شخصا. ساهم عنف الغوغاء في إذكاء مذابح طائفية بين الهندوس والمسلمين خلفت ما لا يقلّ عن مليون قتيلا.[124]

هناك الكثير من اللوم الذي يلتفّ حول آخر مندوب سامي بريطاني في الهند، وهو اللورد لويس مونتباتن، إبن عمّ الملك البريطاني، الذي أساء إدارة إنتقال استقلال الهند بطرق زادت من احتمالات العنف. وصل مونتباتن في شهر آذار من عام 1947، وهو لا يعرف شيئا عن الإنقسامات الهندوسيّة الإسلامية، التي عصفت بتلك الأرض، التي بلغ عدد سكانها سُبع سكان العالم. سرعان ما قرّر مونتباتن أنّ التقسيم الى دولتين هو الحلّ والسرعة بذلك كانت ضروريّة. بعد اختزال 10 أشهر من الموعد المقرّر، ترأس مونتباتن احتفالات الإستقلال في شهر أيلول، ووقف لالتقاط الصّور بزيّه البحري الأبيض النظيف. حين اكتملت التغطية الصحفية للإحتفال بهذا الإنتقال "السلمي" للسلطة، سُمح بإصدار الخرائط التفصيلية التي أظهرت لكلّ أحد ما دعاه المؤرخون "خطوط التقسيم المرسومة على عجل وغير المتكافئة." أضف الى ذلك أنّه منع أيّة استعدادات لتخفيف معاناة ملايين المهاجرين. نجمت عن ذلك فظائع حفرت جراحا عميقة في شبه القارة لا زالت واضحة حتى بعد مرور 75 عاما من تلك الأحداث المأساوية. بعد سنوات، فكّر مونتباتن بدوره واعترف صراحة لمراسل البي بي سي قائلا، "لقد أفسدت الأمر."[125]

مع حلّ مشكلة الهند المثخنة بالجراح، حاولت لندن أن تتبع ستراتيجية من ثلاثة عناصر لأجل حلّ مسألة الحرب المستدامة وتقليص الإمبراطورية الى حدّ كبير. أوّلا، دمج المستعمرات الأصغر في اتحادات ذات مداخيل عالية. وبعد ذلك السيطرة على الصادرات لجني أرباح العملة الصعبة وأخيرا التشبّث بالقواعد العسكرية الحاسمة للدفاع الإمبراطوري. على سبيل المثال، دمجت 9

سلطنات واثنين من مستعمرات التاج في إتحاد الملايو، للسيطرة على جني الدولارات من صادرات المطاط، التي وفّرت بحلول عام 1952 35٪ من صافي ميزان مدفوعات بريطانيا في منطقة الدولار. كان هذا التدفّق حرجا جدًا لدرجة أنّ لندن أرسلت 50000 جنديا لغرض سحق ثورة شيوعيّة والحفاظ على الملايو ضمن الكومنوَلث البريطاني. وبالمثل، ضمّ اتحاد إفريقيا الوسطى 3 مستعمرات لتأمين الحصول على الدولارات من صادرات النحاس في زامبيا مع دعم مجموعة صغيرة من المستوطنين البيض في زمبابوي، روديسيا الجنوبية آنذاك. خصّصت 50 مليون فدّانا من الأراضي الزراعية لأولئك المستوطنين البيض، مقابل 29 مليون فدّانا فقط للأفارقة من سكّان البلاد الأصليين. في الخليج الفارسي، قامت شركة بريتش پترولـيُم بالتنقيب عن النفط في الجانب الغربي من الخليج وفي نفس الوقت قاد المُستشارون 7 شيوخ الى اتحاد أصبح فيما بعد غنيًا بالنفط والغاز هو اتحاد الإمارات العربية. على المدى البعيد أثبت إتحاد الملايو والإمارات العربية أنهما دولتان مستقلتان مستقرّتان نسبيًا، بينما تفكّك المشروع البريطاني في إفريقيا الوسطى بعد احتجاجات جماهيرية وحماقة سياسية للقمع الإستعماري في دول ملاوي وزامبيا وزمبابوي.[126]

كان للجوانب الإقتصادية والعسكرية لهذه الستراتيجية الإمبراطورية البريطانية المزيد من النتائج المختلطة. لحماية تدفّق النفط من الحقول التي تديرها بريطانيا في شبه الجزيرة العربية والعراق وإيران، احتفظت لندن بقاعدتها البحرية في البحرين وتحوّل الخليج الفارسي حتى منطقة قناة السويس الى معقل عسكري فيه عشرة مطارات وقواعد يحرسها 200000 جنديًا. في شرق إفريقيا، خططت بريطانيا الإحتفاظ بكينيا كموقع لقاعدة جوّية وكموقع "مستعمرة للرجل الأبيض" يسكنها 60000 مستوطنا إنكليزيًا تملكوا المزارع الكبيرة العديدة، التي حُرم منها الأفارقة البالغ عددهم 6 ملايين شخصا. في أماكن أخرى من شرق إفريقيا، خصّصت الحكومة الإستعمارية في تَنجنيقا 5 ملايين فدّانا للمستوطنين

الإنكليز، وقرّر مجلس التسويق الإمبراطوري في أوغندا بيع محصول القهوة بمقدار مائة ضعف الكمية، التي خصّصها للمزارعين الأفارقة الفقراء. في غرب إفريقيا، تلاعب مكتب مجلس المراقبة الإستعماري بانتاج الكاكاو وبيعه، ودفع للمزارعين الغانيين اسعار أقلّ من اسعار السوق وفرض أجورا مصرفية تزيد عن نصف أرباح المزارعين بالدولارات. وصلت قيمة الأجور هذه لنحو 50 مليون دولارا في عام 1948. نتج عن هذا الإستغلال المكثف تعافيا لاقتصاد بريطانيا لفترة ما بعد الحرب ومعالجة أضرارها واسعة النطاق. قويت عملة البلاد بسبب الصادرات الإستعمارية من البُنّ والنحاس والكاكاو والزيت والمطّاط. في الوقت نفسه، نمت صادراتها الصناعية 6 أضعاف بحلول عام 1951، إذ وصلت الى 2.5 مليار جنيها إسترلينيّا، ذهب نصفها لخزينة الإمبراطورية. صحيح أنّ هذه الستراتيجية الإمبراطورية قد حلّت مشاكل بريطانيا الإقتصادية على المدى القصير، لكنّها عمّقت آثار الكراهية العميقة في الدول الإفريقية الناشئة، ممّا أدّى في النهاية الى بعض التمزّقات العنيفة للنواة الجيوسياسية.[127]

اصبح الشرق الأوسط بعد الحرب النواة الجيوسياسية لإمبراطورية بريطانيا المتلمجة. أضحت قواعدها في منطقة قناة السويس قوّة ضخمة ثقيلة لقاذفات القنابل البريطانية، التي كانت بمثابة "وسيلة الردع الرئيسية" المستعدّة لضرب الصناعة في قلب جنوب روسيا إنْ هاجم الإتحاد السوفيتي البريطانيين وقوات الإحتلال في ألمانيا الغربية. من خلال الممّر الأمني المكوّن من القواعد في البحرين والسويس وكينيا، لا يزال بإمكان البحرية الملكية حماية ممرّات الشحن الى جنوب شرق آسيا وحركة النفط من الخليج الفارسي الى أوروبا. رأى القادة البريطانيون من حزب العمال والمحافظين على نطاق واسع، الشرق الأوسط باعتباره "أعظم أصولهم الجيوستراتيجية" Greatest Geostrategic Assets، ممّا سمح لهم بادّعاء "القيادة المُشتركة" للتحالف الغربي مع واشنطن.[128]



إيڤلن بارِنگ، حاكم كينيا وهو يتفقد رجال الحرس الملكي الإفريقي المسلحين بالبنادق عام 1957
(Credit: Imperial War Museum)

كانت حدود ستراتيجية الإمبراطورية البريطانية في فترة ما بعد الحرب واضحة لأوّل مرّة في كينيا، حيث جرت محاولة محكوم عليها بالفشل لتحويل بلد أفريقي الى موطن للبيض بقوّة السلاح والقمع الوحشي. خلال النصف الأول من القرن السابق، أدّى الحكم البريطاني الى تقليص عدد سكان كينيا الى ما يقرب من 20٪ وحُجزت 70000 فدّانا رئيسيا للزراعة في "المرتفعات البيضاء" للمستوطنين الأوروبيين. في عام 1952 عندما كان الشعب يعاني من الفقر المدقع، شكّل الأفارقة حركة مقاومة سمّوها الماوماو. فرض الحاكم الإستعماري لكينيا إيڤلن بارِنگ، نجل الحاكم البريطاني الذي حكم مصر ذات مرّة، حالة الطوارئ على البلاد. سرى الإعتقاد بأنّ الماو ماو "كانت حركة شريرة ولديها دوافع تتطلب قمعها." حوّل

بارنگ المستعمرة المزدهرة ذات يوم إلى دولة بوليسية بهدف القضاء على أيّ حديث عن الإستقلال. جند كتائب الجيش البالغ عددها 12 كتيبة ودعمها بحرس داخلي قوامه 25000 جنديًا بريطانيا لاحقوا أنصار الحركة الوطنية وقتلوا 11000 رجلًا من مقاتليها واكتسحوا مليون أفريقيا وحصروهم في 850 قرية. كما وضعوا 70000 من المتمردين المُشتبه بهم في 50 معسكر للإعتقال، حيث تعرضوا للتعذيب المنهجي. رافق تلك الإجراءات لقمع الثورة، تقارير صحفية تحدثت عن بشاعة أساليب الترهيب والتعذيب. في عام 1960، ضغطت واشنطن من أجل قرار لمواجهة الدعاية السوفيتية، فبدأت لندن محادثات مع الزعيم الوطني السجين لديها، جومو كينياتا. وبعد 3 سنوات، وُلدت دولة جديدة مستقلة في شرق إفريقيا برئاسة الزعيم كينياتا نفسه.[129] ضعفت لندن بعدها بكامل هيبتها الدولية ولم تعد قادرة على مقاومة المطالب الأمريكية، كما ثبت ذلك في أزمة قناة السويس.

أزمة السويس

بعد عقد من الضغط المستمرّ للإنسحاب من مستعمرة واحدة أخرى بعد ذلك، تراكم الضغط العاطفي على حزب المحافظين الحاكم في بريطانيا للمشاركة في محاولة كارثية لاستعادة قناة السويس من مصر. تسبّب هذا التدخّل العسكري الفاشل، بدوره في "خلق أزمة أخلاقية عميقة في لندن." وحسب ما وصفه وزير خارجية سابق بأنّه "التشنّج المحتضر للإمبرياليّة البريطانية." وهو الذي كشف ليس فقط تراجع القوّة البريطانية، ولكن أيضا انحطاط المؤسسة المحافظة الحاكمة في البلاد. من خلال تخيّلاتهم عن إمبراطوريّة لا نهاية لها، وأوهام التفوّق العنصري والطعن بالظهر والمؤامرات السياسية، أظهرت النخبة الحاكمة في البلاد أنّها لم تعد قادرة على القيادة العالمية.[131]

تماما، كما اعتبر الأمريكيون يوما ما قناة بَنما بمثابة انتصار البراعة الهندسية لبلدهم، كان المحافظون البريطانيون يرون ولفترة طويلة أنّ قناة السويس شريان

حيوي يربط جزيرتهم الصغيرة بامبراطوريتهم العالمية. في مكان مجاور وعلى الرغم من أنّه تمّ تأميمها من قبل إيران في عام 1951، إلّا أن شركة برِتِش بِتروليُم ومصفاة عبادان استمرت تشحن انتاجها النفطي عبر القناة وتزوّد البحرية الأمريكية بالوقود والنقل الداخلي والكثير من صناعة البلد. في أواخر عام 1953، احتفظت بريطانيا بنحو 80000 جنديا وسلسلة من القواعد العسكريّة لتأمين منطقة قناة السويس.[132]

بمجرّد أن أدّت المفاوضات الثنائية مع مصر الى قيام بريطانيا بسحب قواتها من السويس في أواخر عام 1954، أكّد الزعيم المصري عبد الناصر، الذي كان قد اطاح مؤخرا بالعميل البريطاني الفاسد الملك فاروق، حياد مصر خلال الحرب الباردة بشراء أسلحة السوفييتية، وبالتالي زيادة التوترات مع لندن وواشنطن. وقبلها تعرّض موقع بريطانيا في الشرق الأوسط الى خلافات ثابتة، إثر انسحابها الذليل من فلسطين وسط الإرتباك في شهر مايس من عام 1948، وحدوث اعمال الشغب المناهضة لبريطانيا في القاهرة، التي أحرقت المئات من المباني، بما في ذلك مبنى بنك باركليز الشهير في شهر كانون الثاني من عام 1952،[134] وطرد البعثة الدبلوماسية البريطانية من طهران في شهر تشرين الأول من ذلك العام.

كان رجل الساعة في بريطانيا، الذي تعامل مع ازمة الشرق الأوسط المتنامية، هو وزير خارجيّتها أنتوني إيدن، الذي اصبح اسمه مرادفا لانهيار الإمبراطوريّة. تماما كما الحال مع صعود اللورد بالمرستون المطّرد، وُلد أنتوني عام 1897 لأمّ بارونة جميلة وشخصية إجتماعية معروفة تمتلك 8 آلاف فدّانا. ورث الأبن الأناقة عن والدته و"المزاج العنيف" من والده. ورغم أنّه كان الطفل الرابع لأسرة إيدن، كان عليه برغم ذلك أن يعمل من أجل لقمة العيش والإهتمام بدراسته في جامعة أوكسفُرد، حيث تخصّص باللغات الشرقية واصبح يتقن اللغتين الفارسية والعربية.[135]

بعد أن ورث ثروة صغيرة من والدته، وتزوّج إبنة مصرفيّ، دخل السياسة كمحافظ وعمل مع وِنستُن چَرچِل حين شغل منصب وزير الخارجية في الحرب العالمية الثانية، ومرّة أخرى عندما عاد الى المنصب عام 1951[136]. لغرض دعم النفوذ البريطاني المتلاشي في الشرق الأوسط، شكّل إيدِن حلفا أمنيّا متبادلا سُمّي حلف بغداد وضمّ العراق وإيران وتركيا وپاكِستان ولكن ليس مصر، وهو الأمر الذي جعل عبد الناصر ينظر اليه بأنّه حلف مثير للإنقسام. خلال زيارته الى القاهرة عام 1955، حاول إيدِن أن يسحر عبد الناصر في حفل استقبال جرى في سفارة بلاده. حين تكلم معه العربية بطلاقة، قال له عبد الناصر، إنّ من الممتع التواجد داخل هذا المكان، وأنّه سعيد أنّه يحكم سياسة بلاده الخارجية. أجاب إيدِن بعجرفة، "ربّما لا أحكم، أنا بالأحرى أقدّم المشورة." زادت تلك الكذبة المكشوفة من نفور الرئيس المصري.[137] بعد وقت قصير من عودته من القاهرة، كان إيدِن على ما يبدو غاضبا من چَرچِل بشكل كبير، فدفع مثله الأعلى جانبا، واصبح رئيسا للوزراء.[138]



وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدِن والرئيس المصري جمال عبد الناصر عام 1955
(Credit: Getty Images)

لغرض إبعاد عبد الناصر عن المعسكر السوفيتي، عرضت بريطانيا والولايات المتحدة دعم قرض من البنك الدولي بقيمة 200 مليون دولارا لبناء سدّ أسوان العالي على نهر النيل، والذي وعد برفع الملايين من الفلاحين المصريين من حالة الفقر المدقع.[139] لكنّ مصر أغضبت الإدارة الأمريكية بقيادة دوايت أيزنهاور بسبب الإعتراف بجمهورية الصين الشعبيّة. بعد أن سحبت واشنطن مساعدتها لقرض بناء السدّ العالي في شهر تموز، سعى عبد الناصر للحصول على بديل لتمويل مشروع السّدّ من خلال تأميم قناة السويس. وهي خطوة شغلت العالم العربي ورفعت شعبية عبد الناصر الى المرتبة الأولى بين قادة العالم.[140]

على الرغم من أنّ السفن البريطانية لا تزال تمرّ بحريّة عبر القناة، أصرّت واشنطن على حلّ دبلوماسي للأزمة. لكنّ إيدن ورفيقه وزير المالية هارولد مَكميلَن، وجدا عبد الناصر وطنيّا حازما مقلقا للغاية. في إحدى المرّات، وبّخ إيدن وزير خارجيته أنتوني نَتِنگ قائلا، "ما كلّ هذا الهراء حول عزل ناصر أو تحييده. أريد تدميره، ألا تفهم؟ أريد قتله."[141]

بمجرّد تأميم القناة، أصدر إيدن الأوامر بتنفيذ تهديده، وكانت الإمبراطورية لا تزال في ذروة قوّتها. في أواخر تموز، شكلت الحكومة لجنة خاصّة بمصر بقيادة إيدن ومَكميلَن اللذين إتفقا على أنّ "الهدف المباشر هو تحقيق إسقاط الحكومة المصرية الحالية." قامت اللجنة بتجنيد المصريين المنفيين وضباط من وكالة M16، وهي النسخة البريطانية من وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكية، لتنفيذ مؤامرة اغتيال عبد الناصر. تمّ اختيار نائب رئيس المخابرات الجويّة المصرية كعنصر أساسي للعملية. إتضح فيما بعد، أنّه عميل مزدوج موال لعبد الناصر، "ممّا سهّل القبض عليه وعلى اعضاء الشبكة بأكملها تقريبا. وكان بينهم 4 بريطانيين و11 مصريّا.[142]

بعد فشل هذا الخيار، بدأ إيدن ولجنته المصرية التخطيط لوضع عملية عسكرية سرّيّة للإستيلاء على القناة. خلف دخان شاشة دبلوماسية زائفة مصمّمة

لخداع حلفائهم الأمريكيين، إلتقى وزير الخارجية البريطاني سرّا مع رئيس وزراء فرنسا ورئيس وزراء إسرائيل في منزل آمن بالقرب من باريس، حيث اتفقوا على غزو من مرحلتين للسيطرة على قناة السويس.[143]

بتاريخ 29 تشرين الثاني من عام 1956، تحرّك الجيش الإسرائيلي بقيادة الجنرال المشهور موشيه دَيان فاجتاح شبه جزيرة سيناء ودمّر الدبابات المصرية ومراكز القوات المصرية في نطاق 10 أميال من القناة. استخدِم هذا القتال ذريعة من أجل التدخّل لاستعادة السلام. قامت قوات مشاة البحرية الأنگلو- فرنسية المحمولة جوا بالإنزال بسرعة والإنضمام الى الهجوم. إبتداء من يوم 31 تشرين الثاني، بدأت القوات الغازية قصفا مدمّرا من ست حاملات للطائرات ومن طائرات حليفة انطلقت من المطارات البريطانية في قبرص. استطاعت خلال 3 أيام فقط من سحق القوات الجوية المصرية، فدمّرت 104 طائرة من مقاتلاتها السوڤيتية الجديدة من طراز مَگ و130 طائرة أخرى.[144] بعد انهيار الجيش المصري عمليا إثر تدمير السلاح الجوي، وحرمانه من الغطاء نزلت خسائر بقوات سيناء. نفّذ عبد الناصر ستراتيجية رائعة رغم بساطتها. مُلأت عشرات السفن القديمة بالحجارة وبعض المتفجّرات لاغراقها في شمال القناة عند مدخلها بالبحر الأبيض المتوسط، وسرعان ما أغلق شريان الحياة النفطي لأوروبا من الخليج الفارسي. في الوقت الذي أُنزِل فيه 22000 جنديًا بريطانيًا وفرنسيًا لاقتحام الشاطئ عند طرف القناة الشمالي بتاريخ 6 تشرين الثاني، كان هدفهم تأمين حرية حركة السفن، لكنّ النصر كان قد أختطِف من أيديهم.[145]

منذ اللحظة، التي بدأ فيها القصف البريطاني، واجهت حكومة إيدِن ردّ فعل دبلوماسي هائل. في اجتماع طارئ للأمم المتحدة، أيدت الجمعية العامة والولايات المتحدة والإتحاد السوڤيتي الإقتراح الداعي الى الوقف الفوري لإطلاق النار. في واشنطن، شعر الرئيس أيزنهاور أنّ أيّ دعم امريكي للبريطانيين "قد يكون بمثابة اصطفاف للعالم نفسه من داكار الى جزر الفِلِبين ضدّنا."

خروجا على رئيس وزرائه ودعم وقف إطلاق النار المقترح، أخبر مَكميلَن مجلس الوزراء، "أنّ هناك انخفاضا حادًا في سعر الجنيه، تمّ تنظيمه بشراسة في واشنطن" وزاد من الشعور بالأزمة الإقتصادية من خلال الإبلاغ الكاذب بأنّ البلد قد نزف إحتياطي الذهب بمقدار 100 مليون جنيها إسترلينيا. في الواقع كان الإنخفاض 32 مليون جنيها إسترلينيا فقط. في مكالمة هاتفية عبر الأطلسي في نفس اليوم، ورد أنّ آيزنهاور قد سأل إيدن قائلا، "أنتوني، هل اصابك مسّ من الجنون؟" وافق إيدن على وقف مؤقت لإطلاق النار، بعد مرور 48 ساعة فقط من إنزال قواته على أرض مصر.[146]

عندما طالبت واشنطن ثانية بالإنسحاب الكامل من منطقة القناة كثمن لإنقاذ الإقتصاد البريطاني المُنهار، بدأ إيدن يدرك التهديد بالإنهيار الإمبراطوري. إستسلمت بريطانيا أخيرا بإعلان الرحيل الفوري لجميع القوّات، ورتّب البيت الأبيض في الحال حزمة طارئة بقيمة 1.8 مليار دولارا لدعم الجنيه الإسترليني.[147] أذلّ الإنسحاب القسري إيدن وبدا وكأنّه رجل محطم وتمّ تعويضه نفسيا عن طريق الأمر بمحاولة اغتيال أخرى لعبد الناصر. في محاولة للحصول على التأييد، تحولت وكالة المخابرات البريطانية M16 الى بعض "الضباط المصريين المنشقّين"، لكنّ المؤامرة باءت بالفشل عندما تمّ اكتشاف الأسلحة المخفية خارج القاهرة.[148]

مع تصاعد الإنتقادات لطريقة تعامل إيدن مع أزمة السويس، قام شريكه في مخطط الغزو، هارولد مَكميلَن بالمناورة بمهارة الغشّ ليحل محلّ حليفه السابق كرئيس للوزراء. وبعد مغادرة آخر جندي بريطاني أرض مصر بتاريخ 22 كانون الأول من عام 1956، قدّم إيدن استقالته من منصبه، فاقدا المصداقية ومُكللا بالعار بعد 21 شهرا فقط من تولي المنصب.[149]

بعبارة أخرى، كشفت أزمة السويس عن الفساد العميق داخل جهاز السلطة في بريطانيا، الذي تجلى برفض الحزب الذي بنى الإمبراطورية البريطانية

الإعتراف بالطبيعة الكارثية لغزو السويس. من بين 20 وزيرا في حكومة إيدن، الذي دعموا التدخّل بشكل كامل، كان أكثر من نصفهم يحملون لقب اللوردات، قد جعلوا ارتباط الحزب غير العقلاني بأزمة القناة علامة فتنة ونتيجة انحراف فردي. اضطرت البحرية الملكية التي تحكّمت ذات مرّة أن تعيد السفن الحربية القديمة وتبيعها للتجار لتكوّن اسطولا لسفن شحن بنقل البضائع.[150] بدلا من القيادة الدبلوماسية العالمية التي شهدها الكون في فيّنا عام 1815 وفرساي عام 1919، وجدت بريطانيا نفسها في موقف توبيخ من قبل المجتمع الدولي في الأمم المتحدة. لأوّل مرّة تخص الوضع المصرفي العالمي، وجدت لندن نفسها أنّها تفتقر الآن الى الموارد المالية لتغطية تدخلها العسكري المتواضع واجبارها على قبول النقد الدولي في أول خطة من نوعها لإنقاذ صندوق عملتها وتجنب انهيار تلك العملة. أضف الى ذلك، أنّ مخابراتها الأسطورية قد كشفت عن عجزها وعدم كفاءتها. في أعقاب كارثة السويس ومنذ ذلك الحين فصاعدا حلّت الولايات المتحدة محلّ بريطانيا في الشرق الأوسط لأنّها على حدّ تعبير أيزنهاور حين صرّح قائلا، "خسر البريطانيون والفرنسيون موقعهم هناك ولم يعد لهما تأثير."[151] إختلق الأسد البريطاني، الذي كان يوما ما عظيما أزمة السويس، لكنّه بدا وكأنّه حيوان سيرك مروّض مستعدّ من الآن فصاعدا للقفز داخل الأطواق النارية كلما سمع صوت ضرب سياط واشتطن.

في غضون 4 سنوات من كارثة السويس وما خلفته من الضغوط السياسية والإقتصادية المتمدّدة، أدرك رئيس الوزراء مَكميلَن بشكل مؤلم أنّ بريطانيا لم يعد بوسعها تحمّل مسؤولية الإمبراطورية، على الرغم من فوز حزبه بأغلبيّة قويّة في انتخابات عام 1959 البرلمانية. أظهر البريطانيون القليل من الإهتمام ببقاء الإمبراطورية، والعديد من المحافظين المُنتخبين حديثا شاركوا الأعضاء الآخرين هذا الرأي. في العام التالي، إعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دون أيّة معارضة، القرار رقم 1514 الداعي الى إنهاء قاعدة الإستعمار، التي نصّت

على أنّ "إخضاع الأجنبي والسيطرة عليه واستغلاله تشكّل إنكارا لحقوق الإنسان الأساسيّة." تحدّث مَكميلَن في جنوب إفريقيا ذات الفصل العنصري، فقال "إنّ رياح التغيير تهبّ على هذه القارة، وهذا الوعي الوطني حقيقة سياسية." اكتسب العقد التالي أهمية تاريخية، حين منحت بريطانيا الإستقلال لنحو 30 مستعمرة سابقة في إفريقيا وآسيا ومنطقة البحر الكاريبي والمحيط الهادئ، وعملت على تصفية امبراطوريتها العالمية. أتى انقلاب الرحمة في شهر كانون الثاني من عام 1968، حين أعلن رئيس حزب العمال ورئيس الحكومة، هارولد وِلسُن، أنّ بريطانيا ستسحب جميع قوّاتها شرق السويس في غضون 3 سنوات، منهيا دورها كقوّة آسيوية وأيّ دور آخر في ادّعاء القيادة العالمية. أخيرا وفي عام 1973، أكملت بريطانيا انحدارها من قوة عالمية الى لاعب إقليمي واصبحت واحدة من 9 دول تشكّل الإتحاد الأوروبي.[152]

كسوف شمس الإمبراطورية

نتجت نهاية الحقبة الإمبراطورية البريطانية عن مزيج من الوطنية المتصاعدة والتدهور الإقتصادي والتحوّلات الستراتيجية، التي جعلت الولايات المتحدة واسطولها النووي أكثر أهمية من القوّة البحرية التقليديّة. كانت النتيجة بروز نظام عالمي تحت قيادة واشنطن، باعتبارها قوّة عظمى مهيمنة ترأس مجتمعا دوليا جديدا يضمّ حوالي 190 دولة ذات سيادة.

بعد مرور ما يقرب من قرن من الزمن كقوّة مهيمنة عالمية، كانت الستراتيجية الجيوسياسية لبريطانيا هي تطويق اليابسة الأوراسية بسلسلة من المعاقل البحرية بلغت ذروتها في هزيمة قاسية. في عام 1904 زحفت السكك الحديدية عبر سايبيريا جغرافيا نحو مدينة فلادِفُستُك، فحذّر هالفَرد ماكِنْدَر أنّ عصر القوّة البحرية، الذي قامت عليه إمبراطوريات أوروبا البحرية، التي كانت تهيمن على أوراسيا، قد قارب على نهاياته.[153]

بينما كانت توقعات ماكِندر سابقة لأوانها، غير أنّ رؤيته الجيوسياسية كانت دقيقة. بفضل أصولها العسكرية الممتدة الى أقصى حدّ، طوّقت الإمبراطورية البريطانية أوراسيا. ومثل البرتغال وهولندا قبلها، لم تمتدّ الى ما وراء سنغافورة كثيرا. لملء الفجوة في تلك الستراتيجية الجادة، تفاوضت لندن لإيجاد تحالف إنكلو- ياباني في عام 1902، سمح للبحرية الملكية لتركيز قوّتها في المحيط الأطلسي لهزيمة ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى. بعد انقضاء تلك المعاهدة في عام 1922، إنضمت طوكيو الى قوى المحور. لم تستطع بريطانيا منع اليابان من اكتساح سواحل المحيط الهادئ في بداية الحرب العالمية الثانية واستيلائها على معقلها البحري في سنغافورة، ومن هنا بدأ حقّا تفكك الإمبراطورية شرق السويس. إنّ مثل هذا الضعف الستراتيجي من جانب بريطانيا قد سلط الضوء على أهميّة الموقع الجيوسياسي لواشنطن بعد الحرب، باعتبارها أوّل قوّة للسيطرة على الألفية والقبض على كلي طرفي المحورين لأوراسيا.

كما عزّز قرن الإستعماري البريطاني مجموعة من التناقضات في قلب نظام إمبراطوريتها العالمي، الذي كان مستقرًا في يوم من الأيام، تركت لندن لواشنطن إرثا في حالة من الغموض. على المدى الأقرب خاصّة، فشلت الدبلوماسية البريطانية في بناء نظام تحالف مستقرّ، ممّا سمح للتوترات بين الإمبراطوريات المتنافسة أن تتفجّر في صراعات قاتلة في عام 1914 ومرة أخرى في عام 1939. في النهاية حصل تدمير هائل واصبحت الحرب العالمية الثانية كارثة مماثلة للطاعون الأسود، أنهت عهد الإمبراطورية البريطانية والسماح بصعود النظام العالمي لواشنطن. في حين أنّ أكثر من 15 مليون حالة وفاة في الحرب العالمية الأولى تركّزت على طول الجبهة الغربية في فرنسا، لكنّ الحرب العالمية الثانية نشرت دمارا عالميا وفقدَ 70 مليون إنسانا حياتهم وخلفت الحرب مدن مدمّرة في أوروبا وآسيا، بما في ذلك مدينتان يابانيتان كانتا اهدافا لأولى القنابل النووية الأمريكية. وهذه أسلحة تمتلك القدرة على تدمير الحياة على الكوكب.[154]

إعترف البريطانيون في النهاية بما افسحته الحرب العالمية من الطريق أمام الحرب الباردة، وحقيقة نهاية إمبراطوريتهم وتمكّنوا من التراجع للطرق التي من شأنها الحفاظ على الإستقرار العالمي الشامل. بالإضافة الى دعم تشكيل واشنطن مؤسسات لنظام عالمي جديد، نقل البريطانيون أيضا الأصول الإمبراطورية الرئيسية الى حلفائهم الأمريكيين، من خلال التعاون الدبلوماسي الرسمي وتعاون المؤسسات السريّة. كان الأمر تكرارا ملفتا يشبه التحوّل السلس من الهيمنة الهولندية الى القوة البحرية البريطانية خلال ثورة إنكلترا المجيدة عام 1688. أصبح الممرّ الإمبراطوري عبر المحيط الأطلسي من لندن الى واشنطن آمنا وضمن انتقالا عالميا سلسا بشكل مدهش. في خضمّ عملية إنهاء الإستعمار السريعة لإمبراطوريات أوروبا، برزت المواجهة العسكرية مع الإتحاد السوفيتي، وساعدت هذه التحالف المستقرّ الناطق باللغة الإنكليزية لمحاولة واشنطن كي تصبح أقوى إمبراطوريّة في التاريخ وهندسة نظام عالمي جديد.

لم تساعد لندن صعود واشنطن فحسب، بل تركت أيضا مهمّة إرث لممارسة القوة العالمية. إكتسبت الإمبراطوريّات الأوروبيّة السابقة جيوبا ومستعمرات غطّت أجزاء كبيرة من انحاء الكرة الأرضية. ومع ذلك كانت بريطانيا أوّل من خلق شبه ظلّ قوّة تتجاوز الأراضي لتشمل الكوكب بكامله. بتكلفة منخفضة بشكل مدهش في الدم والمال البريطانيين، أثبتت البحرية الملكية أنّها أداة "رشيقة" لإسقاط السلطات المحلية لتأمين الممرّات البحرية للتجارة العالمية وحماية الإستثمارات وفرض الأوامر الإمبراطورية. بالنظر الى دورها الرائد في حقوق الإنسان في بريطانيا وحملتها ضدّ تجارة الرقيق، لعبت تلك البحرية أيضا دورا رئيسيّا في ترسيخ النظام العالمي على أساس السلطة الأخلاقية. كمصرفي للعالم، حقّقت لندن تعاونا مستقرّا بين تقاسم ابتكاراتها التكنولوجية وضمان ربحية صناعاتها. قدّمت خدماتها السرّية في الوقت المناسب

واستخباراتها الدقيقة ودبلوماسييها البارعين في تعظيم النفوذ باستخدام الحدّ الأدنى من القوّة العسكريّة. من خلال هذا التآزرمتعدد الأوجه، بنت بريطانيا إزدواجيّة في القوّة العالمية التي وازنت بين نظام العالم الليبرالي لإمبراطوريتهم وتضخيم الذات، وهو ما خلق نموذجا للنظام العالمي لواشنطن.

كما تركت بريطانيا أيضا إرثا آخر أكثر غموضا في شكل انتقال الطاقة، الذي من المرجّح أن يساهم في تدهور النظام العالمي للولايات المتحدة. طوال القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا قد طوّرت تقنية الطاقة البخارية التي تعمل بالفحم، والتي انتقلت بعد ذلك عبر المحيط الأطلسي لتجعل الولايات المتحدة في المرتبة الأولى في القوّة الصناعية على المستوى العالمي. بحلول نهاية القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا أيضا دولة رائدة في مجال شركات التنقيب العالمية عن النفط، ووفّرت إمدادات من سوائل الكاربون لتزويد السيارات والطائرات والنقل البحري بالوقود، الذي أصبح مرادفا لنظام واشنطن العالمي.

ومع ذلك وعلى المدى البعيد، كان تحوّل طاقة الإمبراطورية البريطانية الى الوقود الأحفوري قد فتح أيضا زيادة لا هوادة فيها بمقدار 70 ضعفا في السنة من انبعاثات الكاربون على المستوى العالمي. إرتفع هذا من 28 مليون طنّا فقط في عام 1800 الى 2 مليار طنّا بحلول عام 1940. في عصر "ما قبل الصناعة" كان يوجد 280 جزء في المليون من الكاربون في الجو عام 1880. بدأت تركيزات ثاني أوكسيد الكاربون تتجمّع في الغلاف الجوي وارتفعت الى 410 جزء في المليون بحلول عام 2020. وهو ما سبّب التغيّر في المناخ، الذي يمكن أن يزعزع في النهاية استقرار الهيمنة الأمريكية، الى جانب الكثير من الأشياء الأخرى.[155] من خلال كونها إمبراطورية عالمية ودورها المركزي في انتقال الطاقة، تركت بريطانيا إرثا مختلطا من شأنه أن يؤثّر بعمق على صعود النظام العالمي لواشنطن وانحداره.

مصادر وملاحظات الفصل الرابع

Chapter 4: Britannia Rules the Waves

1. Dale T. Graden and Paulo Cesar Oliveira de Jesus, "The *Bella Miquelina* Affair," *Atlantic Studies* 13, no. 4 (2017), 196-215; Christopher Lloyd, *The Navy and the Slave Trade* (1968), 141-42; Siân Rees, *Sweet Water and Bitter* (2011), 260-61, 278-80; Herbert S. Klein, *The Atlantic Slave Trade* (2010), 139; "Our History," Wilson Sons,
   https://www.wilsonsons.com.br/en/grupo/our-history. In the 1840s, Bahia was still an alternate name for the city of Salvador, as seen in Henry S. Tanner, *New UniversaAtlas* (1846), 40,
   https://www.loc.gov/resource/g5400.br000011/?r=-0.304,0,1.608,1.242,0.
2. Graden, "The *Bella Miquelina* Affair," 197-202; Roquinaldo Ferreira and Tatiana Seijas, "The Slave Trade to Latin America," in Alejandro de la Fuente and George Reid Andrews, eds., *Afro-Latin American Studies* (2018), 38.
3. Rudyard Kipling, "Recessional" (1897), in *A Choice of Kipling's Verse Made by T.S. Eliot* (1943),
   https://www.poetryfoundation.org/poems/46780/recessional.
4. C.A. Bayly, *Imperial Meridian* (1989), 3, 16-17, 72-73, 102.
5. Bayly, *Imperial Meridian*, 72-73, 104-5, 110-11, 121, 194-95; Vincent T. Harlow, *The Founding of the Second British Empire, 1763-1793*, vol. 1 (1952), 4, 9.
6. Michael D. Bordo et al., "Is Globalization Today Really Different than Globalization a Hundred Years Ago?," NBER Working Paper No. 7195, National Bureau of Economic Research (May 1999),
   https://eml.berkeley.edu/~eichengr/research/brooking.pdf; Martin Thomas and Andrew Thompson, "Empire and Globalisation," *International History Review* 36, no. 1 (2014), 142-70; Bayly, *Imperial Meridian*, 99.
7. Jürgen Osterhammel, *The Transformation of the World* (2014), 651-52.
8. Vaclav Smil, *Energy Transitions* (2017), 38-39, 43, 66-67, 101-3.
9. On Barak, "Outsourcing," *International Journal of Middle East Studies* 47, no. 3 (2015), 425-45; Osterhammel, *Transformation*, 655.
10. Ulbe Bosma and Roger Knight, "Global Factory and Local Field," *International Review of Social History* 49, no. 1 (2004), 1-25; Richard B. Sheridan, "Changing Sugar Technology and the Labour Nexus in the British Caribbean, 1750-1900," *New West Indian Guide* 63, nos. 1/2 (1989), 59-93; G. Roger Knight, *Sugar, Steam and Steel* (2014), 11-31; O.H. Spate, "Beginnings of Industrialization in Burma," *Economic Geography* 17, no. 1 (1941), 75-92; Osterhammel, *Transformation*, 657; US Census Bureau, *Abstract of the Twelfth Census of the United States, 1902* (1902), 330.

11. Astrid Kander et al., *Power to the People* (2013), 176-79, 200-203; *Agamemnon* (1865), passenger/cargo vessel, National Maritime Museum (SLR0052), https://collections.rmg.co.uk/collections/objects/66013.html.

12. J.M.W. Turner, *The Fighting Temeraire Tugged to Her Last Berth to Be Broken Up, 1838*, painting, National Gallery, London (NG-524), https://www.nationalgallery.org.uk/paintings/ joseph-mallord-william-turner-the-fighting-temeraire; J.M.W. Turner, *Rain, Steam, and Speed—The Great Western Railway*, painting, National Gallery (NG-538), https://www.nationalgallery.org.uk/paintings/josephmallord-william-turner-rain-steam-and-speed-the-great-western-railway.
Both viewed at the National Gallery, London, 7/20/2019.

13. Andreas Malm, *Fossil Capital* (2016), 13; Kander, *Power*, 37; Paul J. Crutzen, "Geology of Mankind," *Nature* 415, no. 6867 (2002), 23; A.J. Stockwell, "Power, Authority, and Freedom," in P.J. Marshall, ed., *The Cambridge Illustrated History of the British Empire* (1996), 148-49; Svante Arrhenius, "On the Influence of Carbonic Acid in the Air upon the Temperature of the Ground," *London, Edinburgh and Dublin Philosophical Magazine and Journal of Science*, 5th ser., 41 (1896), 237-76; Rudy M. Baum Sr., "Future Calculation," *Distallations* (7/18/2016), https://www.sciencehistory.org/distillations/magazine/future-calculations.

14. David Steele, "Temple, Henry John, third Viscount Palmerston (1784-1865)," *Oxford Dictionary of National Biography* (5/21/2009), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-27112.

15. Timothy H. Parsons, *The British Imperial Century, 1815-1914* (2019), 22-28; John J. Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics* (2001), 220; Bayly, *Imperial Meridian*, 9.

16. Parsons, *British Imperial Century*, 28-34; Jane Burbank and Frederick Cooper, *Empires in World History* (2010), 288; John Darwin, *Unfinished Empire* (2012), 90, 390-94; O.P. Austin, *Colonial Administration, 1800-1900* (1903), 1199-1200, 1497.

17. Timothy H. Parsons, *The Second British Empire* (2014), 32; Darwin, *Unfinished Empire*, 182-85.

18. Smil, *Energy*, 43; Kander, *Power*, 256-58, 261-64; "Petroleum and Sea Power," American Oil and Gas Historical Society (6/28/2020), https://aoghs.org/petroleum-in-war/petroleum-and-sea-power/;
Alexander Melamid, "The Geographical Pattern of Iranian Oil Development," *Economic Geography* 35, no. 3 (1959), 199-218; Erik J. Dahl, "Naval Innovation from Coal to Oil," *JFQ* (Winter 2000-2001), 50-56.

19. Smil, *Energy*, 50-53; Kander, *Power to the People*, 266-68, 304-5; J.F. Wilson, *Ferranti and the British Electrical Industry, 1864-1930* (1988), 36-37.
20. Mearsheimer, *Tragedy*, 220; Parsons, *Second British Empire*, 31; Kander, *Power*, 267.
21. Piers Brendon, *The Decline and Fall of the British Empire, 1781-1997* (2010), 61.
22. Alan Knight, "Britain and Latin America," in Andrew Porter, ed., *The Oxford History of the British Empire*, vol. 3 (1999), 135-36; Robert G. Albion, "Capital Movement and Transportation," *Journal of Economic History* 11, no. 4 (1951), 361-74; Parsons, *British Imperial*, 25; Darwin, *Unfinished Empire*, 87.
23. Adam Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* (1776), book 4, chapter 8, 145; Jonathan Israel, *Democratic Enlightenment* (2011), 237-41.
24. Bayly, *Imperial Meridian*, 151-52, 235-38, 246-47; David Fieldhouse, "For Richer, for Poorer," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 108-9.
25. Sir John Strachey, *India, Its Administration and Progress* (1903), 133-42; Nancy Gardner Cassels, *Social Legislation of the East India Company* (2010), 303-15; J.F. Richards, "The Indian Empire and Peasant Production of Opium in the Nineteenth Century," *Modern Asian Studies* 15, no. 1 (1981), 66-76.
26. Michael Greenberg, *British Trade and the Opening of China 1800-42* (1951), 109-10.
27. Tan Chung, "The Britain-China-India Trade Triangle, 1771-1840," *Indian Economic and Social History Review* 11, no. 4 (1974), 411-31; Richards, "Indian Empire," 67-69.
28. Charles C. Stelle, "American Trade in Opium to China in the Nineteenth Century," *Pacific Historical Review* 9, no. 4 (1940), 427-42; Greenberg, *British Trade*, 127, 221; David Edward Owen, *British Opium Policy in China and India* (1934), 105-8, 113-45; Richards, "Indian Empire," 65; International Opium Commission, *Report of the International Opium Commission: Shanghai China, February 1 to February 26, 1909* (1909), 44-66.
29. Owen, *British Opium*, 146-89; Darwin, *Unfinished Empire*, 123.
30. Tan, "Trade Triangle," 426-27.
31. Robert C. Allen, "The Industrial Revolution in Miniature," *Journal of Economic History* 69, no. 4 (2009), 901-27; Eric R. Wolf, *Europe and the People without History* (2010), 273-74.
32. Smil, *Energy*, 13, 66-67.
33. Richard Brown, *Society and Economy in Modern Britain 1700-1850* (1991), 43-69; Thomas H. Marshall, *James Watt, 1736-1819* (1925), chapter 8.
34. Edward Baines, *History of the Cotton Manufacture in Great Britain* (1835), 199-207; H.B. Rodgers, "The Lancashire Cotton Industry in 1840," *Transactions and Papers (Institute of British Geographers)* 28 (1960), 135-53; Indrajit Ray, "Identifying the Woes of the Cotton Textile Industry in Bengal," *Economic History Review* 62, no. 4

(2009), 857-92; Wolf, *Europe*, 273-74; Brown, *Society*, 86; Theo Balderston, "The Economics of Abundance," *Economic History Review* 63, no. 3 (2010), 569-90; Malm, *Fossil Capital*, 56, 69-70, 75, 80, 150-51, 252.

35. Gene Dattel, "When Cotton Was King," *NYT*, 3/26/2011, https://opinionator.blogs.nytimes.com/2011/03/26/when-cotton-was-king/; R. Arthur Arnold, *The History of the Cotton Famine* (1865), 36-37; Wolf, *Europe*, 278-85; William J. Phalen, *The Consequences of Cotton in Antebellum America* (2014), 174-75; Brown, *Society*, 172-73; Ethan Davis, "An Administrative Trail of Tears," *American Journal of Legal History* 50, no. 1 (2008), 49-100.

36. Wolf, *Europe*, 282-84.

37. Robert W. Fogel and Stanley L. Engerman, *Time on the Cross* (1974), 5, 209; Tomas Weiss, "Time on the Cross," *EH Net*, 11/15/2001, https://web.archive.org/web/20111220190203/http://eh.net/node/2749; Alfred H. Conrad and John R. Meyer, "The Economics of Slavery in the Ante Bellum South," *Journal of Political Economy* 66, no. 2 (1958), 95-130; Richard Sutch, "The Profitability of Ante Bellum Slavery: Revisited," *Southern Economic Journal* 31, no. 4 (1965), 365-77; James D. Foust and Dale E. Swan, "Productivity and Profitability of Antebellum Slave Labor: A Micro-Approach," *Agricultural History* 44, no. 1 (1970), 39-62.

38. Guy Gugliotta, "New Estimate Raises Civil War Death Toll," *NYT*, 4/2/2012, https://www.nytimes.com/2012/04/03/science/civil-war-toll-up-by-20-percent-in-new-estimate.html.

39. Kenneth Morgan, *Slavery and the British Empire* (2007), 148-71; Adam Hochschild, *Bury the Chains* (2005), 72-78, 85-105, 306-8; Israel, *Democratic Enlightenment*, 229, 241; P. J. Marshall, "1783-1870," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 44.

40. Lloyd, *Navy*, 67; W.E.F. Ward, *The Royal Navy and the Slavers* (1969), 43-44, 46-47, 62-63, 99-101, 127, 129-33, 138-51, 162-66.

41. Leslie Bethell, "The Mixed Commissions for the Suppression of the Transatlantic Slave Trade in the Nineteenth Century," *Journal of African History* 7, no. 1 (1966), 79-93; Morgan, *Slavery*, 158-59; Ward, *Royal Navy*, 182; Padraic X. Scanlan, *Freedom's Debtors* (2017), 3, 102-7, 169-70; Lloyd, *Navy*, 79-81; Royal Naval Museum, "Chasing reedom Information Sheet," http://www.royalnavalmuseum.org/visit_see_victory_cfexhibition_infosheet.htm; Marcel van der Linden, "Introduction," in Marcel van der Linden, ed., *Humanitarian Intervention and Changing Labor Relations* (2011), 13; Christopher Leslie Brown, "The Abolition of the Slave Trade," in Gad Heuman and Trevor Burnard, eds., *The Routledge History of Slavery* (2011), 287-92; Rees, *Sweet Water*, 308; Klein, *Atlantic Slave Trade*, 194-95.

42. Donald L. Canney, *Africa Squadron* (2006), 117, 215-16, 233-34; Ward, *Royal Navy*, 222; Ron Soodalter, "The Limits of Lincoln's Mercy," *NYT*, 2/23/2012, https://opinionator.blogs.nytimes.com/2012/02/23/thelimits-of-lincolns-mercy/; "The Execution of Gordon," *NYT*, 2/22/1862, https://www.nytimes.com/1862/02/22/archives/the-execution-ofgordon-scenes-incident-to-his-last-moments-attempt.html.
43. Morgan, *Slavery*, 172-89.
44. Seymour Drescher, *Abolition* (2009), 248-66; Morgan, *Slavery*, 127-45, 188-92, 197-98; Hochschild, *Bury the Chains*, 337-43.
45. Brown, "Abolition," 287-92; Howard Hazen Wilson, "Some Principal Aspects of British Efforts to Crush the African Slave Trade, 1807-1929," *American Journal of International Law* 44, no. 3 (1950), 516-20; Lloyd, *Navy*, 139-48; Ward, *Royal Navy*, 205-19; Rees, *Sweet Water*, 295-308; Ferreira and Seijas, "Slave Trade," 39-40; Klein, *Atlantic Slave Trade*, 195; Roquinaldo Ferreira and Pablo Miguel Sierra Silva, "Portugal, Spain, and the Transatlantic Slave Trade," in Fernando Bouza et al., eds., *The Iberian World 1450-1820* (2020), 384.
46. Richard B. Allen, "Suppressing a Nefarious Traffic," *William and Mary Quarterly* 66, no. 4 (2009), 873-94; Matthew S. Hopper, "East Africa and the End of the Indian Ocean Slave Trade," *Journal of African Development* 13, no. 1 (2011), 39-65.
47. Hopper, "East Africa," 39-65; Wilson, "Some Principal," 520-23; Lloyd, *Navy*, 278.
48. Philip J. Stern, *The Company-State* (2011), 207-14; Brendon, *Decline*, 98-99, 125-33.
49. William Dalrymple, *The Last Mughal* (2008), 186-87, 394-402; Brendon, *Decline*, 133-40.
50. David Cannadine, *Victorious Century* (2017), 375-76, 381; Brendon, *Decline*, 234-39; Darwin, *Unfinished Empire*, 204-5.
51. Benedict William Ginsburg, "Steamship Lines," *Encyclopedia Britannica*, vol. 25 (1911), 850-60; Thomas, "Empire," 146.
52. John Ambrose Fleming, "Telegraph," *Encyclopedia Britannica*, vol. 26
53. Hugh Munro Ross, "Railways," *Encyclopedia Britannica*, vol. 22 (1911), 819-22.
54. Niall Ferguson, *Empire* (2002), 201-4; Michael Lisle-Williams, "Merchant Banking Dynasties in the English Class Structure," *British Journal of Sociology* 35, no. 3 (1984), 333-62.
55. Cannadine, *Victorious Century*, 193-94, 250-51, 257-60, 388-89, 491-93.
56. Barbara Freese, *Coal* (2003), 99-101, 167-68; Cannadine, *Victorious Century*, 260-62, 274-82, 299, 491-93; Kander, *Power*, 61, 191.
57. Fred T. Jane, *Jane's Fighting Ships* (1900), 68-70; Clark G. Reynolds, *Navies in History* (1998), 104-20.
58. T.A. Heathcote, "The Army of British India," in David Chandler, ed., *The Oxford History of the British Army* (1994), 379; *World Almanac and Encyclopedia 1899* (1899), 342.

59. Marshall, "1870-1918," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 59-61, 64-67; Peter T. Marsh, "Chamberlain, Joseph [Joe] (1836-1914)," *Oxford Dictionary of National Biography* (10/3/2013),
https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-32350.

60. Angus Maddison, *The World Economy* (2001), 97; Austin, *Colonial Administration*, 1497; D.K. Fieldhouse, *The Colonial Empires* (1982), 373; Rein Taagepera, "Expansion and Contraction Patterns of Large Polities," *International Studies Quarterly* 41, no. 3 (1997), 501-2; Darwin, *Unfinished Empire*, 11-12, 86-88; Parsons, *Second British Empire*, 11-13, 40-41.

61. Antony Anghie, *Imperialism, Sovereignty and the Making of International Law* (2004), 58-60, 69, 83-84, 90-97; "General Act of the Berlin Conference on West Africa, 26 February 1885," *South African History Online*,
https://www.sahistory.org.za/archive/general-act-berlin-conference-west-africa-26-february-1885.

62. Caroli Linnaei, *Systema Naturae* (1748), Quadrupedia Anthropomorpha, 3; Stephen Jay Gould, "The Geometer of Race," *Discover* 15, no. 11 (1994), 64-69.

63. Brendon, *Decline*, 149-52; Stephen Jay Gould, "The Great Physiologist of Heidelberg—Friedrich Tiedemann," *Natural History* 108, no. 6 (11999), 26-36; Marshall, "Imperial Britain," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 333; Stephen Jay Gould, *The Mismeasure of Man* (1996), 104-51, 176-263; Photograph of the Royal College of Surgeons, 1941, *The* "Museums Confront the Skeletons in Their Closets," *NYT*, 5/24/2013,
https://www.nytimes.com/2013/05/25/arts/design/museums-move-toreturn-human-remains-to-indigenous-peoples.html;
Emily S. Renschler and Janet Monge, "The Samuel George Morton Cranial Collection," *Expedition* 50, no. 3 (2008), 30-38.

64. Charles Darwin, *Journal of Researches into the Natural History and Geology of the Countries Visited during the Voyage of H.M.S. Beagle round the World* (1845), 435; Tony Barta, "Mr. Darwin's Shooters," *Patterns of Prejudice* 39, no. 2 (2005), 116-37.

65. Gould, *Mismeasure*, 142-48; Parsons, *Second British Empire*, 8-9; Stockwell, "Power," 173.

66. Richard B. Woodbury and Nathalie F.S. Woodbury, "The Rise and Fall of the Bureau of American Ethnology," *Journal of the Southwest* 41, no. 3 (1999), 283-96; Nancy J. Parezo, "A 'Special Olympics,'" in Susan Brownell, ed., *The 1904 Anthropology Days and Olympic Games* (2008), 59-126; Mark Dyreson, "The 'Physical Value' of Races and Nations," in Brownell, *1904 Anthropology Days*, 127-55; W.J. McGee, "Report of the Department of Anthropology to Frederick J.V. Skiff, Director, Universal Exposition

of 1904, Division of Exhibits," 5/10/1905, file series 3, subseries 11, Louisiana Purchase Exposition Collection, State Historical Society of Missouri, St. Louis.

67. Robert W. Rydell, *All the World's a Fair* (1987), 154-83; "The Evolution of the Filipino, as Shown in the Philippine Exhibit, World's Fair, St. Louis, U.S.A.," *World's Fair Bulletin* 5, no. 8 (1904), 53, https://dl.mospace.umsystem.edu/mu/islandora/object/mu:356701/datastream/JPG/view.
68. Jerry D. Moore, *Visions of Culture* (2009), 33-46.
69. Adam Hochschild, *King Leopold's Ghost* (1998), 21-32; Brendon, *Decline*, 159-62; "Sir Henry Morton Stanley," *Encyclopedia Britannica*, vol. 25 (1911), 778-81.
70. Brendon, *Decline*, 162-66; "Stanley," 778-81; Hochschild, *King*, 47-57.
71. "Stanley," 778-81; Hochschild, *King*, 47-72, 75-84; G. Macharia Munene, "The United States and the Berlin Conference on the Partition of Africa 1884-1885," *Transafrican Journal of History* 19 (1990), 73-79; G.N. Uzoigwe, "Reflections on the Berlin West Africa Conference, 1884-1885," *Journal of the Historical Society of Nigeria* 12, nos. 3/4 (1984), 12-14.
72. Hochschild, *King*, 84-87; Uzoigwe, "Reflections," 9-22; Charles H. Alexandrowicz, "The Juridical Expression of the Sacred Trust of Civilization," *American Journal of International Law* 65, no. 1 (1971), 149-59; Cathal M. Doyle, *Indigenous Peoples, Title to Territory, Rights and Resources* (2014), 46-68.
73. Mark I. Choate, "New Dynamics and New Imperial Powers, 1876-1905," in Robert Aldrich and Kirsten Mckenzie, eds., *The Routledge History of Western Empires* (2014), 121-22, 126-27; Hochschild, *King*, 86-87.
74. Hochschild, *King*, 118-19, 123-25, 127, 137, 145, 148.
75. Adam Hochschild, "In the Heart of Darkness," *New York Review of Books* 52, no. 15 (10/6/2005), 39-42; Hochschild, *King*, 158-66, 232-33.
76. Antoine Mioche, "De Livingstone à Lavigerie," *Cahier Charles V* 46 (2009), 203-39; Samantha Travis, "Turning Points in Transnational Anti-Slavery Activism" (MA thesis, Tufts University, 2017), 44-78; Catherine Ann Cline, "The Church and the Movement for Congo Reform," *Church History* 32, no. 1 (1963), 46-56; David M. Gordon, "Slavery and Redemption in the Catholic Missions of the Upper Congo, 1878-1909," *Slavery and Abolition* 38, no. 3 (2017), 577-600; François Renault, *Cardinal Lavigerie* (1994), 367-85; "In Plurimis," Libreria Editrice Vaticana, http://www.vatican.va/content/leo-xiii/en/encyclicals/documents/hf_l-xiii_enc_05051888_in-plurimis.html; Paul Gordon Lauren, *The Evolution of Human Rights* (2011), 53.
77. Hochschild, *King*, 195-220, 235-52, 270-72; Cline, "Church," 48-49; Lauren, *Evolution*, 83-85.

78. Cline, "Church," 53-54; Arthur Vermeersch, *La Question Congolaise* (1906), 30-39, 47-54, 92-93, 142-92, 327-68.

79. Julia Seibert, "More Continuity Than Change?," in Marcel M. Linden and Magaly Rodriguez Garcia, eds., *On Coerced Labor* (2016), 369-86; Sven Van Melkebeke, "Coerced Coffee Cultivation and Rural Agency," in Linden, *Humanitarian*, 185-207.

80. Hochschild, *King*, 257-59, 279-83; Marlous van Waijenburg, "Financing the African Colonial State," *Journal of Economic History* 78, no. 1 (2018), 40-80.

81. Pim de Zwart and Jan Luiten van Zanden, "Labor, Wages, and Living Standards in Java, 1680-1914," *Journal of Economic History* 19, no. 3 (2015), 215-34; Van Waijenburg, "Financing," 40-80; Clifford Geertz, *Agricultural Involution* (1963), 52-53.

82. Linden, "Introduction," 30-32; Alec Gordon, "Contract Labour in Rubber Plantations," *Economic and Political Weekly* 36, no. 10 (2001), 847-60; Martin J. Murray, "'White Gold' or 'White Blood'?," *Journal of Peasant Studies* 19, nos. 3/4 (1992), 41-67; Pierre Brocheux, "Le rolétariat des plantations d'hévéas au Vietnam Méridional," *Le Mouvement Social* 90 (1975), 55-86; Rana Behal and Prabhu Mohapatra, "'Tea Money versus Human Life,'" *Journal of Peasant Studies* 19, nos. 3/4 (1992), 142-72.

83. Burbank, *Empires*, 316.

84. Benjamin Madley, "From Africa to Auschwitz," *European History Quarterly* 35, no. 3 (July 2005), 429-64; Jürgen Zimmerer, "Colonialism and the Holocaust," in A. Dirk Moses, ed., *Genocide and Settler Society* (2004), 49-76.

85. Brendon, *Decline*, 144-45; Ferguson, *Empire*, 211; Darwin, *Unfinished Empire*, 136-44.

86. Ferguson, *Empire*, 238-39; Brendon, *Decline*, 146-47, 171-72, 178-83; J.G. Darwin, "Baring, Evelyn, First Earl of Cromer (1841-1917)," *Oxford Dictionary of National Biography* (1/3/2008), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-30583; Marshall, "1870-1918," 74; Fieldhouse, "For Richer," 115; Darwin, *Unfinished Empire*, 144-47.

87. Shula Marks and Stanley Trapido, "Rhodes, Cecil John (1853-1902)," *Oxford Dictionary of National Biography* (10/3/2013), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-35731.

88. Ferguson, *Empire*, 186-88, 190-92; Michael Clodfelter, *Warfare and Armed Conflicts* (2017), 208-9; Marks and Trapido, "Rhodes, Cecil John"; Marshall, "1870-1918," 73-74.

89. Keith Nelson, "Kitchener, Horatio Herbert, Earl Kitchener of Khartoum (1850-1916)," *Oxford Dictionary of National Biography* (1/6/2011), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-34341.

90. Brendon, *Decline*, 207-10; Ferguson, *Empire*, 221-26; Clodfelter, *Warfare*, 203.

91. Brendon, *Decline*, 191-93; Ferguson, *Empire*, 226-36; Marks and Trapido, "Rhodes, Cecil John."

92. Brendon, *Decline*, 222-31; Clodfelter, *Warfare*, 210-12.

93. Ferguson, *Empire*, 229-36; Brendon, *Decline*, 228-30; Parsons, *Second British Empire*, 32.

94. Lauren, *Evolution*, 121.

95. Anna Chotzen, "Beyond Bounds," *Humanity* 5, no. 1 (2014), 33-54; C.R. Pennell, *A Country with a Government and a Flag* (1986), 83-89, 196-218; Clodfelter, *Warfare*, 354.

96. Andrew Stewart, *The First Victory* (2016), 12-13; Clodfelter, *Warfare*, 355.

97. Marshall, "1870-1918," 52-56.

98. Williamson A. Murray, "Towards World War, 1871-1914," in Parker, *Warfare*, 256-60; Holger H. Herwig, "The German Reaction to the Dreadnought Revolution," *International History Review* 13, no. 2 (1991), 273-83.

99. Paul G. Halpern, "Fisher, John Arbuthnot, First Baron Fisher (1841-1920)," *Oxford Dictionary of National Biography* (9/23/2010),
https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-33143;
Herwig, "German Reaction," 277-83; Darwin, *Unfinished Empire*, 328-29.

100. C. Paul Vincent, *The Politics of Hunger* (1985), 141; Clodfelter, *Warfare*, 423-34; Williamson A. Murray, "The West at War, 1914-18," in Parker, *Warfare*, 282-83; Holger H. Herwig, "The Failure of German Sea Power, 1914-1945," *International History Review* 10, no. 1 (1988), 82-85, 103.

101. Clodfelter, *Warfare*, 423-34; Murray, "The West at War, 1914-18," 387-423; Eugene Rogan, *The Fall of the Ottomans* (2015), 79-90.

102. Parsons, *Second British Empire*, 54-55; Clodfelter, *Warfare*, 430-32.

103. Giselher Wirsing et al., *The War in Maps 1939-40* (1941), 8-19, 54-57.

104. Arthur B. Ferguson, "The AAF in the Battle of the Atlantic," in Wesley Frank Craven and James Lea Cate, eds., *The Army Air Forces in World War II*, vol. 1 (1983), 514-53; Williamson A. Murray, "The World in Conflict, 1919-41," in Parker, *Warfare*, 310-11; Williamson A. Murray, "The World at War, 1941-45," in Parker, *Warfare*, 324-25; "Major British and Dominion Warship Losses in World War 2," Naval History Home Page, National Museum of the Royal Navy,
http://www.naval-history.net/WW2aBritishLosses10tables.htm.

105. Vincent O'Hara and Enrico Cernuschi, "The Other Ultra," *Naval War College Review* 66, no. 3 (2013), 117-138; Melamid, "Geographical Pattern," 201, 213; Danny M. Johnson, "The Persian Gulf Command and the Lend-Lease Mission to the Soviet Union during World War II," *On Point* 20, no. 2 (2014), 6-13; Darwin, *Unfinished Empire*, 338-39.

106. Clodfelter, *Warfare*, 472-73.

107. Paul Gordon Lauren, "Human Rights in History," *Diplomatic History* 2, no. 3 (1978), 257-78; Lauren, *Evolution*, 102-7, 116-29; Andrew J. Crozier, "The Establishment of the Mandates System 1919-25," *Journal of Contemporary History* 14, no. 3 (1979), 483-513; Kendrick A. Clements, *The Presidency of Woodrow Wilson* (1992), 172-202; Anghie, *Imperialism*, 136-56; James Brown Scott, *The Spanish Origin of International Law* (2000), 286-87; Becky Little, "How Woodrow Wilson Tried to Reverse Black American Progress," *History.com*, (7/12/2020), https://www.history.com/news/woodrow-wilson-racial-segregation-jim-crow-ku-klux-klan; John Milton Cooper Jr. "Wilson and Race," *Princeton Alumni Weekly*, 12/2/2015, https://paw.princeton.edu/article/wilson-and-race-historians-perspective.

108. Mark Mazower, *Hitler's Empire* (2008), 576-88.

109. Henry J. Gwiazda II, "The Nazi Racial War," *Polish Review* 59, no. 4 (2014), 45-72; Burbank, *Empires*, 404-6.

110. Gwiazda, "Nazi Racial War," 45-72; Burbank, *Empires*, 404-6; Michael Berenbaum, "Holocaust," *Encyclopedia Britannica* (9/10/2020), https://www.britannica.com/event/Holocaust; "Introduction to the Holocaust," US Holocaust Memorial Museum (3/12/2018), https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/introduction-to-the-holocaust.

111. Louise Young, *Japan's Total Empire* (1998), 95-101, 147-49, 321-34, 362-73; A.J. Grajdanzev, "Japan's Co-Prosperity Sphere," *Pacific Affairs* 16, no. 3 (1943), 311-28.

112. Paul Gordon Lauren, "First Principles of Racial Equality," *Human Rights Quarterly* 5, no. 1 (1983), 1-26.

113. Gwiazda, "Nazi Racial War," 45-72; Mazower, *Hitler's Empire*, 2-8, 181-222, 298-312, 576-97; Berenbaum, "Holocaust."

114. Clodfelter, *Warfare*, 526-29.

115. Darwin, *Unfinished Empire*, 340, 351-52; Clodfelter, *Warfare*, 526-28; Geir Lundestad, "Empire by Invitation?," *Journal of Peace Research* 23, no. 3 (1986), 263-77; Parsons, *Second British Empire*, 116-17.

116. Stewart Patrick, *Best Laid Plans* (2009), 299-300; Office of Public Affairs, "Bagby, Philip Hazal," *Biographic Register of the Department of State: April 1, 1949* (1949), 29.

117. Patrick, *Best Laid Plans*, 200-201, 297-318, 330-31; Parsons, *Second British Empire*, 145-46.

118. Bob Moore, "Dutch Decolonization," in Martin Thomas et al., eds., *Crises of Empire* (2008), 244-93; Christopher Bayly and Tim Harper, *Forgotten Wars* (2007), 193.

119. Clodfelter, *Warfare*, 611-16.

120. Anthony Clayton, *The Wars of French Decolonization* (1994), 79-87.

121. Alistair Horne, *A Savage War of Peace* (2006), 28-43, 60-65.

122. Horne, *Savage War*, 3-20, 349-72, 415-60, 480-504; Clodfelter, *Warfare*, 548-51.

123. Brendon, *Decline*, 605; Parsons, *Second British Empire*, 115-18, 168; Bayly and Harper, *Forgotten Wars*, 95-98; Christopher Bayly and Tim Harper, *Forgotten Armies* (2004), 240-44.

124. Ian Talbot and Gurharpal Singh, *The Partition of India* (2009), 1-24; Parsons, *Second British Empire*, 120-21; P.J. Marshall, "1918 to the 1960s," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 94, 98-100; Tapan Raychaudhuri, "British Rule in India," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 362-63; Burbank, *Empires*, 311.

125. Stanley A. Wolpert, *Shameful Flight* (2006), 1-11, 130-45, 163; Larry Collins and Dominique Lapierre, *Freedom at Midnight* (1997), 72; Bayly and Harper, *Forgotten Wars*, 284-301.

126. Parsons, *Second British Empire*, 123, 179, 185; Toyin Falola, "Africa," in Marshall, *Cambridge Illustrated History*, 348; Bayly and Harper, *Forgotten Wars*, 98-100, 408-9, 470-96.

127. Parsons, *Second British Empire*, 132, 138-40; Fieldhouse, "For Richer," 112-13; Darwin, *Unfinished Empire*, 356-57; Bayly and Harper, *Forgotten Wars*, 408-9.

128. John Darwin, "The Geopolitics of Decolonization," in Alfred W. McCoy et al., eds., *Endless Empire* (2012), 197-99; Darwin, *Unfinished Empire*, 342-43, 361-63.

129. Brendon, *Decline*, 551-74; Parsons, *Second British Empire*, 42, 79-81, 138-40, 154, 165-67, 177-78, 183-84, 186; W.T.W. Morgan, "The 'White Highlands' of Kenya," *Geographical Journal* 129, no. 2 (1963), 140-55; Ian Cobain and Peter Walker, "Secret Memo Gave Guidelines on Abuse of Mau Mau in 1950s," *Guardian*, 4/11/2011, https://www.theguardian.com/world/2011/apr/11/mau-mau-high-court-foreignoffice-documents; Anthony Clayton, "Baring, (Charles) Evelyn, First Baron Howick of Glendale (1903-1973)," *Oxford Dictionary of National Biography* (9/28/2006), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-30789.

130. Brendon, *Decline*, 504.

131. Darwin, *Unfinished Empire*, 396.

132. Ferguson, *Empire*, 295-96.

133. Anthony Gorst and Lewis Johnman, *The Suez Crisis* (1997), 27-35, 38-39.

134. Ervand Abrahamian, *The Coup* (2013), 11-17, 74-79, 207-11; Brendon, *Decline*, 480-86, 491, 495-96.

135. D.R. Thorpe, *Eden* (2004), chapters 1, 3; D.R. Thorpe, "Eden (Robert) Anthony, First Earl of Avon (1897-1977)," *Oxford Dictionary of National iography* (5/19/2011), https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-31060.

136. Alden Whitman, "Anthony Eden Is Dead at 79," *NYT*, 1/15/1977, https://www.nytimes.com/1977/01/15/archives/anthony-eden-is-deadat-79-anthony-eden-although-typecast-for.html.

137. Brendon, *Decline*, 494-95.

138. Whitman, "Anthony Eden"; Cahal Milmo, "Churchill and Eden," *Independent*, 2/4/2008, http://www.independent.co.uk/news/uk/politics/churchill-and-eden-their-struggle-777683.html.

139. Gorst, *Suez Crisis*, 40-44.

140. Roger Hardy, "How Suez Made Nasser an Arab Icon," *BBC One Minute World News*, 7/25/2006, http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/5204490.stm; "Egypt, the Counterpuncher," *Time*, 8/27/1956.

141. Stephen Dorril, *MI6* (2002), 613; Gorst, *Suez Crisis*, 46-47; Andrew Roth, "Sir Anthony Nutting Obituary," *Guardian*, 2/25/1999, https://www.theguardian.com/news/1999/feb/26/guardianobituaries1.

142. Keith Kyle, *Suez* (2011) 138-39, 148-51, 218-19; Peter Wright, *Spycatcher* (1987), 84-85, 160-61; "Suez—The Missing Dimension," *Archive Hour*, BBC Radio 4, October 28, 2006, 20:02-21:00, https://www.nlpwessex.org/docs/BBCSuez.htm#MissingDimension.

143. David A. Nichols, *Eisenhower 1956* (2011), 170-75, 188-204; Kyle, *Suez*, 314-31, 589-91; Ian Black, "A Painful Lesson in Diplomacy," *Guardian*, 10/30/2006, https://www.theguardian.com/world/2006/oct/31/worlddispatch.egypt; Ian Black, "Secrets and Lies at the Heart of Britain's Middle Eastern Folly," *Guardian*, 7/11/2006, https://www.theguardian.com/uk/2006/jul/11/egypt.past.

144. Martin Bowman, *Cold War Jet Combat* (2016), 156-67; Kyle, *Suez*, 382-84.

145. Clodfelter, *Warfare*, 573; Nichols, *Eisenhower 1956*, 213.

146. Gorst, *Suez Crisis*, 126-33; Kyle, *Suez*, 464-71; Brendon, *Decline*, 499; Geoffrey Warner "Review Article," *International Affairs* 67, no. 2 (1991), 309-10; Thorpe, "Eden"; Darwin, *Unfinished Empire*, 361.

147. Derek Brown, "Suez and the End of Empire," *Guardian*, 3/14/2001, https://www.theguardian.com/politics/2001/mar/14/past.education1; James M. Boughton, "Was Suez in 1956 the First Financial Crisis of the Twenty-First Century?," *Finance and Development* 38, no. 3 (2001), http://www.imf.org/external/pubs/ft/fandd/2001/09/boughton.htm; Gorst, *Suez Crisis*, 137-46.

148. Kyle, *Suez*, 467-68; Wright, *Spycatcher*, 160-61. suez_01.shtml; H.G.C. Matthew, "Macmillan, (Maurice) Harold, First Earl of Stockton (1894-1986)," *Oxford*

Dictionary of National Biography (1/6/2011),

https://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-40185.

150. Kyle, *Suez*, 488-92; "Suez Crisis: British, French Rush Warships to Area," *Universal International News*, 1956,

https://www.youtube.com/watch?v=4qA0Ffbljt8; Brendon, *Decline*, 499.

151. Warner, "Review Article," 316; Parsons, *Second British Empire*, 87.

152. Parsons, *Second British Empire*, 145-46, 171-72, 184-86; Darwin, *Unfinished Empire*, 378-80.

153. H.J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History (1904)," *Geographical Journal* 170, no. 4 (2004), 309-11; H.J. Mackinder, *Democratic Ideals and Reality* (1919), 67.

154. Clodfelter, *Warfare*, 430, 527; World Health Organization, "Ten Things You Need to Know about Pandemic Influenza (Update of 14 October 2005)," *Weekly Epidemiological Record* 80, nos. 49/50 (12/9/2005), 428-31; "Worldwide Deaths in World War II," National World War II Museum,

https://www.nationalww2museum.org/students-teachers/student-resources/research-starters/research-starters-worldwide-deaths-world-war.

155. Smil, *Energy*, 20, 152; Nicola Jones, "How the World Passed a Carbon Threshold and Why It Matters," *Yale Environment 360* (1/26/2017),

https://e360.yale.edu/features/how-the-world-passed-a-carbon-threshold-400ppm-and-why-it-matters; Chris Mooney, "Earth's Atmosphere Just Crossed Another Troubling Climate Change Threshold," *WP*, 5/3/2018,

https://www.washingtonpost.com/news/energy-environment/wp/2018/05/03/earths-atmosphere-just-crossed-another-troublingclimate-change-threshold/; Hannah Ritchie and Max Roser, "Co2 and Greenhouse Gas Emissions," *Our World in Data*, (2019),

https://ourworldindata.org/co2-and-other-greenhouse-gas-emissions#how-haveglobal-co2-emissions-changed-over-time.

الفصل الخامس

عصر الهيمنة الأمريكية



الرئيس ثيودور روزفلت يحيّي الأسطول الأبيض العظيم عام1909 (Credit: Naval History)

بتاريخ 22 شباط من عام 1909، وقف الرئيس ثيودور روزفَلتْ على منصة فولاذية لبرج مدفع على متن المُدمّرة كَنَتِكت *Connecticut* وهو يرتدي قبعة عالية

ومعطفا أنيقا يحميه من رياح الشتاء، التي هبّت من البحر في ميناء هامتُن رودز في ولاية فرجينيا. تحت فوهة مدفع ضخم من قياس 12 بوصة، تجمّع مئات البحارة على مقربة منه لسماع كلماته، وهو يشيد بعودة "الأسطول الأبيض العظيم" المكوّن من 16 سفينة حربية جديدة تماما بعد اكمال رحلة ملحميّة مدتها 14 شهرا حول العالم.

خاطبهم قائلا، "يا ضباط اسطول المعركة ويا رجاله، قلوب كلّ من رآكم مسرورة يملأها الفخر حين بدت هياكل السفن البحرية الجبارة تلوح في الأفق... لقد أبحرت في كافة المحيطات العظيمة ولامست سواحل كلّ قارة." ثم أضاف، "إنّه اسطول المعركة الأول، الذي طاف حول العالم قبل أيّ وقت مضى."[1]

ردّا على الصعود القويّ للقوة البحرية اليابانية، كان روزفلت قد أرسل سفن الأسطول الأطلسي حول كيب هورن في طرف قارة أمريكا الجنوبية ليظهر لطوكيو أنّ الولايات المتحدة بالفعل من دول المحيط الهادئ. لكنّ العالم الأوسع رأى أنّ تلك إيماءة رسالة مختلفة. حين دار الأسطول حول كيب هورن وعبر من المحيط الهادئ الى هوائي وأستراليا، صُدمت حشود كبيرة وهي تهتف للأسطول الأمريكي هائل الحجم. لقد شهد الجمهور مرور آلاف السفن الحربية والتجارية وشهد ملايين آخرون وهم يقرأون عنها في الصحف اليومية، لكنّ هذه الرحلة كانت بمثابة علامة على وصول أمريكا الى مستوى القوّة العسكرية الكبرى.[2]

بعد 40 عاما، وفي شهر ايلول من عام 1948، وقفت إلِنور روزفلت، إبنة أخت ثيودور روزفلت وأرملة الرئيس الراحل حديثا فرانكلين روزفلت، أمام جمهور من الدبلوماسيين والطلاب في جامعة السوربون في باريس، وهي ترتدي فستانها الأسود المتواضع المعتاد لتقول، "لقد جئت هذا المساء للتحدث البكم عن واحدة من اعظم قضايا عصرنا، وهي الحفاظ على حرية الإنسان." بدأت السيدة الأولى السابقة في ارتفاعها المضيء وهي تؤكد بصوت إنساني بأنّه،

"يجب أن يشهد المستقبل اتساع نطاق حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم... بالمعنى الحقيقي، كون حقوق الإنسان هي هدف أساسي للقانون والحكومة في المجتمع العادل."[3]



إلنور روزفلت، رئيسة لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان عام 1947 (Credit: United Nations)

في وقت تصاعدت فيه التوترات مع الإتحاد السوفيتي، كانت إلِنَور روزفَلت توجّه نداء من أجل تمرير إعلان حقوق الإنسان من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة. خلال 85 جلسة خصومة مريرة و1400 تصويت إجرائي منفصل خلال شهرين متتاليين، قالت بصفتها رئيسة لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، "سنقاتل بصلابة التصميم على هذه المبادئ ضدّ المعارضة السوفيتية الشديدة. يولد جميع البشر أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق،" كما جاء في المادة الأولى من مشروع الإعلان. وظلت تدقّ بلا هوادة على الحرية الفردية.

"لقد وُهبوا العقل والضمير ويجب أن يتعلموا من بعضهم البعض بروح الإخاء."
لكنّ صحافة موسكو، التي عارضت بشدّة مثل هذه الفردانية البورجوازية Bourgeois Individualism، سخرت منها باعتبار "أنّ إلنور روزفلت عجوز ثرثارة ضعيفة."[4]

ولكن في الدقيقة الرابعة قبل منتصف الليل بتاريخ 10 كانون الأول من عام 1948، صوتت الجمعية العامة 48 صوتا مقابل صفر للكتلة السوفيتية وجنوب إفريقيا وامتناع السعودية عن التصويت. وعليه تمّت الموافقة على نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وعندما أعلن رئيس هيئة التصويت النتيجة خلال الجلسة، إنفجرت للمرة الأولى والوحيدة في تاريخ الجمعية، وبشكل عفوي حفاوة بالغة بالمندوبة إلنور روزفلت، "رُفع إسمها عاليا لشرف أكبر."[5]

ومع ذلك، لم يكن الشرف لها وحدها. الكثير من لغة ذلك الإعلان كان في طور التكوين لما يقرب من 300 عاما، إمتدادا من شرعية الحقوق الإنكليزية English Bill of Rights وإعلان الثورة الفرنسية لحقوق الإنسان Man Rights of واعلان الإستقلال الأمريكي US Declaration of Independence.

أعلن قادة الحلفاء بما في ذلك زوجها الراحل فرانكلن طوال الحرب العالمية الثانية، هذه المبادئ العالمية بالضبط في محاولة لإلهام المجهود الحربي. الآن وعند هذا الحدّ بين الحرب العالمية والحرب الباردة، كانت لواشنطن مكانة كبيرة والقوّة لإقناع دول العالم بالحاجة الى مثل هذا الإقرار الذي لا هوادة فيه.

وفاء بهذا الإلتزام بحقوق الانسان، فإنّ الولايات المتحدة ستفعل ذلك وتواجه بعض التحدّيات الإستثنائية. على عكس القوى الإمبريالية، فقد كانت هي نفسها مستعمرة سابقة ولديها تاريخ طويل في العبوديّة ومن بعدها نظام تال للفصل العنصري، الذي من شأنه المساومة على التزامها بهذه المبادئ في

الداخل. مع نموّ قوّتها العالمية خلال عقود ما بعد الحرب، قادت واشنطن كلّ ما من شأنه أن يزرع حلفاء مناهضين للشيوعية بين القادة الإستبداديين في آسيا وإفريقيا وامريكا اللاتينية، وأبدت ضمنيًا التعذيب والقمع في أراضي تلك الدول. حتى بينما كانت الولايات المتحدة تمارس الفصل العنصري في الداخل وتدعم الدكتاتوريين، الذين لا يرحمون في الخارج، إستمرّت مجموعات المجتمع المدني في جميع انحاء العالم تناضل من أجل حقوق الإنسان، تماما كما ناضل الأمريكيّون من أصل إفريقي من أجل حقوقهم المدنية في الداخل، ممّا جعل هذا المبدأ العالمي سمة مميّزة للنظام العالمي لواشنطن، تقريبا على الرغم منها.[6]

إزدواجية القوّة العالمية للولايات المتحدة

جنبا الى جنب، يكشف هذان الخطابان اللذان يحتفلان بالقوّة والمبدأ عن الغموض الذي طالما ظلّ في قلب الهيمنة الأمريكية العالمية. حتى في ذروة القوّة في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، سعت واشنطن لتحقيق القوّة العسكرية الإحادية الجانب والمتوازنة مهما كانت بسيطة من خلال تعزيزها للمجتمع الدولي من الدول ذات السيادة وتحكم على قدم المساواة تحت سيادة القانون. بحلول الوقت الذي تشكّل فيه النظام العالمي لواشنطن بالكامل في أواخر خمسينات القرن الماضي، كانت هي القوّة التي لا مثيل لها بفعل قاذفاتها النووية وقواعدها العسكرية فيما وراء البحار وتدخّلاتها السرّية في شؤون أمم لا تُعدّ ولا تُحصى، واضطرت أن تتعايش بتوتر مع النظام العالمي الجديد، كما تجسّده الأمم المتحدة. كان الهدف منه حماية سيادة حتى الدول الصغيرة وتعزيز حقوق الإنسان العالمية. هذه الإزدواجية الكامنة في نسخة واشنطن ستظهر القوة العالمية نفسها في تناقضات عديدة خلال 70 سنة من عمر هيمنتها العالمية.



إلياهو روت وزير الخارجية والحربية الأمريكي ومصمّم قوتها العالمية عام 1902
(Credit: Library of Congress)

منذ أن صعدت الولايات المتحدة الى المسرح العالمي حوالي عام 1900، تجسّد الغموض في سياستها في وظيفتي رجلين أثبتا أنّهما من اسلاف وجودها العالمي. من خلال نشر أطروحته المؤثرة عن القوّة البحرية في عام 1980، اصبح الكابتن ألفرد ثاير ماهان، عميد الكلية الحربية البحرية، مدافعا قويّا لبناء البحرية في المياه الزرقاء، التي من شأنها أن تسمح للبلاد لإبراز قوّتها عند الشواطئ الأجنبية. خلال عقده كوزير للحربية ووزير للخارجية، بنى الرجل الآخر إلياهو روت جهازا متقنا لتشكيل سياسة الدولة الخارجية والتزامها بتوقيع القاعدة الدولية للقانون. هذه الإزدواجية الصارخة للقوّة العسكرية الفجّة وانضمامها بصعوبة الى الأمميّة، بقيت هذه المبادئ هي السمة المميّزة للهيمنة الأمريكية في القرن العشرين، حتى مع صعود البلاد الى قوّة عالمية غير مسبوقة.

لقد تمّ نسيان روت الى حدّ كبير اليوم، لكنّه ترأس تحوّل البلاد من دولة قارية منعزلة الى لاعب رئيسي على المسرح العالمي.[7] بالرغم من خلفيته المتواضعة كابن أستاذ للرياضيات في كلية هاملتُن وافتقاده الى "أوراق اعتماد" من جامعات النخبة Ivy League، أرتقى روت بسرعة بفضل فطنته القانونية الرائعة وحنكته الماهرة التي تعلمها من النخبة الحاكمة في العصر الذهبي، بما في ذلك إثنين من الرؤساء في وقت لاحق والعديد من المموّلين. بعد 30 عاما كمحام لشركة في نيو يورك، دافع عن صناديق الإحتكار والبارونات السارقين وعمدة المدن الفاسدين، كرّس روت بقية حياته المهنية الطويلة للخدمة العامة. لقد مارس فنّ مغازلة المسؤولين واصحاب الثروة والجاه لخدمة اهدافه التي لا تنتهي.[8]

بصفته سكرتيرا لمجلس الوزراء وسنتورا ثمّ مبعوثا دبلوماسيًا خاصًا، بنى روت جهاز القوّة العالمية للولايات المتحدة ووضع الأمة في نفس الوقت كبصمة على طابع المجتمع الدولي الناشئ.[9] لتحويل دولة الولايات المتحدة الضعيفة في العصر الذهبي الى أداة للقوّة العالمية، أمضى ربع قرن في السعي وراء ثلاثة أهداف متشابكة.؛ تجديد الحكومة الفدرالية الى جهاز فعّال للتوسّع في الخارج، وزراعة الإجماع بين النخب في البلاد لمثل هذه السياسة الخارجية الناشطة، وانشاء أشكال جديدة للحوكمة العالمية تكون عرضة لتأثير واشنطن. باختصار، عمل روت على تحريك بلدنا ومجتمع الأمم بعد العصر الإمبراطوري البريطاني ودبلوماسية الزوارق الحربية، الى نظام عالمي جديد يحلّ خلافات الدول ذات السيادة من خلال القانون الدولي.[10]

كوزير للحربية من عام 1899 لغاية عام 1904، قام روت بتحويل الجيش الأمريكي من قوّة صغيرة تركّز على الدفاع الساحلي الى جهاز مستعد للتدخّل في الصين ومنطقة الكاريبي والفيليبين وفي النهاية أوروبا. لتكييف جمهورية مع مهمّة أمبراطورية، تعامل مع الآثار المضطربة للحرب الإسبانية الأمريكية عام 1898 من خلال تأسيس الأنظمة الإستعمارية في بورتريكو والفيليبين. كما أنهت الولايات

المتحدة إحتلال كوبا بإملاء شروط استقلالها، التي تنازلت فيه الأخيرة عن قاعدة بحرية كبيرة في خليج گوانتّنامو وحق التدخّل متى شاءت في شؤون تلك الجزيرة.[11]

حين كان وزيرا للخارجية بين 1905 الى 1909، قاد روت جهودا متواصلة لزيادة النفوذ الدبلوماسي لأمريكا باستخدام هذا النفوذ في نفس الوقت لتعزيز سيادة القانون الدولي. كأول وزير خارجية قام بجولة حول العالم، جعل واشنطن لاعبا رئيسيا في العلاقات الدولية. بعد "زيارة انتصار" الى ريو دي جَنيرو لحضور مؤتمر أمريكي دولي في عام 1906 حول قارة أمريكا الجنوبية، حضر على متن طرّاد بحري، فاستُقبلته الحشود المبتهجة في كلّ ميناء. بعد عام ذهب الى مؤتمر لاهاي للسلام في هولندا وكان لدى مندوبي الولايات المتحدة ما يكفي من النفوذ الدبلوماسي بدعم من 17 من جمهوريات أمريكا اللاتينية من بين 44 دولة حضرت المؤتمر، دفع فكرة المحكمة الدولية الدائمة كبديل للنزاع المسلح. لإيواء تلك المحكمة، التي اصبحت أوّل مؤسسة للحكم العالمي، تحول روت الى مصلحة صديق هو بارون الصلب أندرو كارنگي، مقابل 1.5 مليون دولارا لبناء مزخرفة قصر السلام في لاهاي، وساعد في إنشاء أكاديمية القانون الدولي.[12]

كوزير للخارجية وعضوا في مجلس الشيوخ الأمريكي من عام 1909 الى عام 1915، أقام روت تحالفا وثيقا مع بريطانيا. على وجه الخصوص، روّج لمعاهدات حلّ النزاعات الإقليمية، التي عكست العلاقات مع العالم البارز كأفضل جزء من القرن، وهو العمل الذي أكسبه جائزة نوبل للسلام. حتى عندما كان متقاعدا في السبعينات من عمره، خدم في لجنة عصبة الأمم، التي أنشأت محكمة العدل الدولية في عام 1920. على الرغم من أنّه فشل مرارا وتكرارا في إقناع الكونگرس للإعتراف بتلك المحكمة، فإنّها ظلت تجسّد رؤيته الراسخة للمجتمع الدولي الذي تحكمه سيادة القانون وكانت بمثابة مقدّمة مباشرة لمحكمة العدل الدولية التابعة للأمم المتحدة.[13]

قام روت أيضا بتطوير شبكات اجتماعية جديدة ودمج الممولين في نيو يورك بساسيي واشنطن والخبراء الأكاديميين في الجامعات، بأسلوب مميز

لعملية شكّلت السياسة الخارجية من خلال حوار المجتمع المدني. قام من أجل هذا بجولة في أمريكا اللاتينية واصطحب د. پول راينش من قسم العلوم السياسية بجامعة وِسكونسُن، وكلف هذا الأكاديمي الشاب في مهمة دبلوماسية ستأخذه لاحقا الى الصين كسفير. من خلال صداقته الوثيقة مع أندرو كارنِگي، ترأس روت استثمار جزء كبير من ثروة هذا الرجل في تشييد بُنية مؤسسية لأمريكا من خلال طريقة فريدة لإشراك العالم. في هذه العملية، أنشأ روت وترأس كلا من معهد كارنِگي للعلوم ومؤسسة كارنِگي الخيرية للسلام العالمي. بلغ هذا الجهدَ ذروته في عام 1921 عندما قاد روت مجموعة من الممولين والصناعيين ومحامي الشركات لإنشاء مجلس العلاقات الخارجية في نيو يورك، والذي سرعان ما اصبح منتدى الدولة الأوّل للترويج لسياسة خارجية توسعيّة. باختصار، لقد نسج العناصر الرئيسية للنخبة الأمريكية في رابطة متعددة الطبقات من المال والنفوذ والفكر، وبالتالي خلق سياسة خارجية فريدة من شأنها أن تساعد في تحديد الأولويات الدبلوماسية للبلد خلال القرن التالي.[14]

إذا كان روت يمثل المبادئ الليبرالية للديمقراطية وحكم القانون الذي من شأنه أن يبثّ في وقت لاحق النظام العالمي لواشنطن، جسّد ماهان القوة العسكرية التي ستدفعها في النهاية لتصبح قوة عالمية. كان شخصا واقعيا شعر أنّ أمن الأمّة يكون في بناء البوارج والإستيلاء على المعاقل البحرية. كمندوب الى مؤتمر لاهاي الأول للسلام عام 1899، عارض بشدة إنشاء محكمة دولية دائمة. وكتب حينها: "ينسى الرجال ما كان عليهم لكنّهم ما زالوا مدينين للسيف."[15]

إذا كان ماهان محترما، باعتباره الستراتيجي الرائد في البلاد، فذلك لكونه وُلد في وَست پوينت، حيث كان والده يدرّس العلوم العسكرية لضباط الجيش باستخدام كتاب من تأليفه لما يقرب من 40 عاما. على الرغم من "العزلة والشخصية الإنفرادية" في أناپولِس وكأحد افراد البحرية، الذين كانت خدمتهم في البحر ليست مميّزة، كانت لدى ماهان قدرات تحليلية نادرة من شأنها أن تجعله ملك البلاد كستراتيجي

عسكري أصلي. تمّ تعيينه لتوجيه الضباط في منتصف حياتهم المهنية في الكلية الحربية البحرية المنشأة حديثا. أمضى الكابتن ماهان أوّل عام في اعداد المحاضرات التي اصبحت أساسا لشهرته حين جمعها في كتاب عام 1890 بعنوان *دراسة تأثير قوّة البحر على التاريخ بين الأعوام 1660- 1783*. مع نفس الأقوال التي ميّزت كتابات والده عن الحرب البريّة، إفترض ماهان أنّ القوّة البحرية هي العامل الحاسم في صعود الإمبراطوريات وهبوطها. للوصول الى مكانة قوّة عظمى لا يمكن تحقيق قيادة البحر إلا من خلال التفوق البحري والتجارة البحرية مع المستعمرات البحرية والأسواق الخارجية. كان لهذا العامل عنفه ذائع الصيت في أيامه، حيث قرأه الجميع بما فيهم القيصر الألماني فِلهَلم الثاني، وعلى أنّه إنجيل أدميرالات اليابانيين. مقولته بأنّ الحروب الكبرى تتحوّل الى "معركة حاسمة" كانت الصورة في تشكيلات البحرية الستراتيجية الألمانية في الحرب العالمية الأولى وتوجيه العمليات البحرية اليابانية في الحرب العالمية الثانية.[16]



ألفرد ثاير ماهان ستراتيجي البحرية الأمريكية حوالي عام 1910 (Credit: Library of Congress)

أعِدّ الكتاب في وقت كانت فيه أمريكا قد بدأت للتوّ صعودها نحو قوّتها العالمية وتوسيع أسطولها البحري. قدّم كتاب ماهان الحجّة الحاسمة بأنّ واشنطن تحتاج بناء اسطول قتالي كي تستولي على قواعد الجزر ويمكن أن تتحكّم في الممرات البحرية، خاصّة في منطقة البحر الهادي. في تباين ملحوظ مع سلسلة المعاقل المحصّنة التابعة للبحرية الملكيّة لجعل "إمبراطورية واسعة مثل إنكلترا آمنة،" فإنّ السفن الأمريكية "لا المؤسسات الأجنبية سواء كانت مستعمرة أو عسكرية" مثل الطيور البريّة غير القادرة على الطيران بعيدا عن شواطئها. لتوفير أماكن للراحة لها... سيكون هذا واحدا من أول واجبات الحكومة، التي تقترح على نفسها تطوير قوّة الأمّة في البحر."[17] في مراجعة للكتاب في مجلة اتلانتك الشهرية كتب الشابّ تيودور روزفلت، "يُظهر النقيب ماهان بوضوح شديد الأهمية عملية التاريخ البحري... نحن بحاجة الى بحريّة كبيرة لا تتكون من طرّادات فحسب، بل تشمل ايضا على نسبة كاملة من البوارج القويّة."[18]

خلال سبعينات القرن التاسع عشر، كان للولايات المتحدة قوّة بحريّة أهلتها أن تكون في المرتبة 12 بين دول العالم، بعد كلّ من چلي وتركيا. كانت أول طرّاداتها ذات الهيكل الفولاذي أدنى بكثير من مستوى السفن البريطانية والفرنسية، وعقلية القيادة لا تزال معزولة بالكامل من حيث التحديث الرئيسي بموجب قانون البحرية لعام 1890، الذي سمح فقط باسطول دفاعي من "زوارق طوربيد قصيرة المدى" و"خطّ ساحلي بحري تحرسه البوارج." حتى أنّ الكونگرس قيّد نطاق قدرة السفن المخصصة لنقل الفحم.[19]

لكنّ أمريكا كانت تتغيّر. ضاعفت موجات المهاجرين من تعداد سكانها ثلاث مرّات، وحلت محلّ بريطانيا كقوّة اقتصادية رائدة في العالم. في عام 1860 انتجت بريطانيا 59٪ من الثروة الصناعية في العالم مقابل 13٪ فقط كحصة لأمريكا. بعد 5 عقود، ارتفعت حصة الولايات المتحدة وبلغت 48٪، بينما تراجعت بريطانيا الى 15٪ فقط في عام 1904. بدأ الرئيس روزفلت، صديق ماهان والمعجب جدّا به،

بناء "أقوى بوارج مسلحة من التي يمكنها أن تبحر لمدى أطول." في غضون 3 سنوات، اطلقت احواض بناء السفن في البلاد 11 مشروعا جديدا لبناء البوارج، ممّا جعل البحرية الأمريكية تقفز الى المرتبة الثانية بعد بريطانيا. ثمّ أتى الإعلان عن وصول البلاد كقوّة الى المحيط الهادئ حين أرسل روزفلت الأسطول الأبيض العظيم المكوّن من 16 سفينة حربية في تلك الرحلة الملحمية حول الكرة الأرضية. بعد أن صعّدت بريطانيا سباق التسلح بإطلاق سفينة HMS *Dreadnought* بسرعتها وحجمها وقوّتها النارية غير المسبوقة، واكبت الولايات المتحدة ذلك التحدّي من خلال بناء اسطول مثير للإعجاب خلال 6 سنوات مكوّن من 14 سفينة من نوعية *Dreadnought*، بما فيها USS *Pennsylvania* التي بلغ وزنها 31400 طنّا والتي كان حجمها 3 أضعاف حجم السفن الساحلية القديمة.[21]

في مقالته المؤثرة، جادل ماهان أيضا بأنّ حفر قناة بنما ضرورة للأمة وتجارتها في المستقبل، مضيفا أنّ هذه القناة ستتطلب حماية واشنطن وهيمنتها على منطقة الكاريبي. قال بأنّه كتب في مجلة اتلانتيك الشهرية بأنّ السيطرة على أيّة قناة مستقبلية في بنما ستكون حاسمة بالنسبة "للتنمية الكاملة... وأمن الوطن." قال إنّه إذا كانت هناك قوّة أخرى لشقّ هذه القناة، "فستكون كارثة على الولايات المتحدة، وستكون خطرا بشكل خاصّ على ساحل المحيط الهادئ."[22]

كان توسّع امريكا محسوسا أوّلا في البحر الكاريبي. ضغطت واشنطن في وقت مبكّر من عام 1895 على لندن للتخلي عن إمبراطوريتها غير الرسمية في امريكا اللاتينية والإعتراف بالهيمنة الأمريكية في نصف الكرة الغربي. حين بدأت التوترات على الحدود بين غيانا البريطانية وفنزويلا، أصرّت واشنطن على أنّ "الولايات المتحدة هي عمليّا لها السيادة على هذه القارة" ممّا أجبر البريطانيين على التراجع. وبعد 3 سنوات، دفع القمع الإسباني الوحشي لسكان كوبا الولايات المتحدة للتدخّل قضائيا أوّلا. خلال الأشهر الأربعة القصيرة من الحرب الأمريكية الإسبانية، ضمّت واشنطن بورتريكو وحرّرت كوبا، مقابل

الحصول على قاعدة دائمة في خليج غُوَنتانامو. وعندما حاصر أسطول إنكلو-ألماني- إيطالي الميناء الرئيسي لفنزويلا لإجبار مدفوعات سندات مستحقة، أرسل الرئيس روزفلت جنود البحرية لمنع هبوط أيّة قوّات أجنبيّة. تمّ تبرير الإجراء لاحقا بإعلان "قوّة شرطة دولية" لمنع حالات المخالفة "الصارخة" أو العجز "في أيّ مكان في أمريكا اللاتينية."[23]

في عام 1903، أرسل روزفلت سفن حربية الى منطقة البحر الكاريبي وحاصر ساحل كولومبيا حين أعلن المتمردون في مقاطعة بَنَما استقلالهم. في غضون 3 أيام وبسرعة وصفت نو يورك تايمز القضية برمّتها بأنّها "غزو دنيء." منحت الجمهورية الفتيّة واشنطن عقد إيجار دائم لمنطقة القناة بعرض 50 ميلا على طول جانبي القناة. على مدى السنوات العشر التالية، قامت 68 مجرفة بخارية ضخمة و40000 عاملا متعاقدا عانوا من امراض المناطق المدارية والأراضي الوعرة لحفر القناة عبر البرزخ الجبلي، الذي أصبح أكبر وانجح مشروع هندسي في العالم. كانت زنة كلّ من آلآت الحفر التي عملت بالبخار 90 طنّا ويمكنها رفع 8 اطنان من التراب والحجر في كلّ جرفة. هذا إضافة الى مئات المثاقب الهوائية وكسارات الصخور الهيدرولوكية. كانت هذه رمزا لنوع جديد من الإمبراطورية، التي يمكن أن تستخدم هذه الإمكانات للبحث عن الوقود الإحفوري لتحلّ محلّ العمل القسري. عندما اكتملت القناة في عام 1914 اصبح من الممكن رفع سفينة تزن 50000 طنا لمسافة 85 قدما خلال 11 ساعة فوق سطح البحر في كلّ من البحيرات الإصطناعية الثلاثة التي تتحكّم بها بوابات ضخمة ومصممة بدقة تسمح للسفن بالمرور من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادئ وبالعكس.[24]

مع اقتراب القناة من الإكتمال، كان لدى الولايات المتحدة بالفعل سلسلة من القواعد العسكريّة عبر منطقة البحر الكاريبي، بما في ذلك مواقع للجيش في بورتريكو والقاعدة البحرية في كوبا والمدفعيّة الساحلية على طرفي القناة. عندما

افتتحت القناة أخيرا، حاول الرئيس الأمريكي وودرو ولسُن تأمين الجانب الجنوبي للبلاد، فأطلق تدخّلات عسكرية طويلة الأمد في نيكراكوا والمكسيك وهَيتي.[25]

كان ماهان مقتنعا أيضا بأنّ الولايات المتحدة يجب أن تصبح قوّة في المحيط الهادئ. رأى أنّ القواعد البحرية في ذلك المحيط مهمّة جدّا للدفاع عن أمريكا لدرجة أنّه جادل في مقال معروف أنّه "يجب أن يكون قرارا مصونا لسيادتنا الوطنية ينصّ على أنّه لا ينبغي لأيّ دولة أوروبيّة من الآن فصاعدا أن تحصل على مواقع للفحم في نطاق 3000 ميلا من سان فرانسسكو." وهي مسافة تشمل جزر هوائي وجزء كبيرا من المحيط الهادئ، والتي سرعان ما اصبحت الحدود الأمريكية التالية للتوسّع الخارجي.[26]

في الوقت الذي ادّعت فيه الولايات المتحدة هيمنتها على منطقة البحر الكاريبي خلال تسعينات القرن التاسع عشر، لم يقابل أحد هذا الإدّعاء بأيّة مقاومة حقيقية، لكنّ المحيط الهادئ كان مسألة أخرى تماما. جرى تأمين الساحل الشرقي من خلال التحصينات الساحلية المتقنة والتحالف الخاصّ مع بريطانيا العظمى، لكنّ الساحل الغربي وحدود المحيط الهادئ كانت الى حدّ كبير غير محميّة. وقت انغمست بريطانيا والمانيا واليابان في سباق تسلح بحري في تسعينات القرن التاسع عشر، قرّر قادة الحزب الجمهوري تحويل بديهيات ماهان الى أفعال. كتب رُوزفَلت، "فيما يتعلق بهوائي، أنا أتفق مع آرائك تماما. وستراتيجيا لو كان لديّ طريقي لضم تلك الجزر غدا لفعلته." عندما وصلت الأزمة الكوبية الى درجة الغليان بعد الغرق الغامض للسفينة الحربية الأمريكية USS *Maine* في ميناء هَفانا في أوائل عام 1898 أبرق رُوزفَلت، بصفته القائم بأعمال وزير الحربية، للأدميرال جورج ديوي باعتباره قائد الأسطول الآسيوي الراسي في هونگ كونگ، التحضير "لعمليات هجومية في جزر الفِلبين." بعد أن أعلنت واشنطن الحرب على إسبانيا في نيسان، حققت سفن ديوي العاملة بالبخار نصرا ساحقا في خليج مانيلا واغرقت 7 طرّادات أسبانية، ولم تتكبّد أيّة خسائر.[27]

على الرغم من الحاجة إلى مشاركة 75000 عسكريًا أمريكيا لمدة 4 سنوات في حملة التهدئة، التي من شأنها أن تقتل 200000 فلبينيًا وتهزم جمهورية الفلبين الوليدة، خدم انتصار ديوي في خليج مانيلا من المنظور الدولي فرض سيادة الولايات المتحدة على تلك الجزر. بعد شهر من انتصار مانيلا، تمّ تكليف سفينة من الأسطول الآسيوي للإستيلاء على جزيرة گوام من إسبانيا، وبعد شهر وقع الرئيس وليم مَكِنلي على قرار الكونگرس الأمريكي بضمّ جزر هوائي. وبعد عام، أمّنت الولايات المتحدة الممر البحري من هَنَلولو الى مانيلا واستولت على جزيرة وَيك ثمّ عبرت خط الإستواء للمطالبة بساموا. بحلول الوقت الذي اكتملت فيه عملية الإستحواذ هذه، كانت منطقة بَنما قد اصبحت تابعة لواشنطن بسرعة مذهلة ومدهشة وتمّ انجازها بالقليل من التخطيط، ففازت الإمبراطورية الجديدة بالجزر التي وصلت الى منتصف العالم تقريبا، وعلى طول مدار السرطان من بورتَريكو وعبر المحيط الهادئ الى الفِلبين.

مثل العديد من دعاة الجغرافية السياسية، استخدم ماهان الدقة على ما يبدو في طرح المفاهيم الستراتيجية لإبراز وضع بلاده الحالي في صورة للمستقبل غامضة وغير مؤكدة. إنّ مناشداته المقنعة بخصوص البحرية في المياه الزرقاء ومشاة البحرية والمحيط الدفاعي الموسّع، بدت في حينها استجابة معقولة لصعود القوة البحرية اليابانية. كما أخذت تلك المبادئ الستراتيجية شكلها ببطء في سياق دولي دائم للتغيير. ومع ذلك كانت النتيجة موقعا ستراتيجيا لا يمكن الدفاع عنه في المحيط الهادئ. بدلا من مثلث مرن، كانت المعاقل البحرية، التي لم تصل الى أبعد من هَنَلولو، قد اكتسبت ضعفًا لسلسلة القواعد الممتدة على طول الطريق عبر المحيط حتى خليج مانيلا.

قرن المحيط الهادئ

تمثل منطقة آسيا والمحيط الهادئ بحجميهما الهائلين منطقة جيوسياسية تحدّت بشكل مستمرّ السياسة الخارجية للولايات المتحدة. المحيط الهادئ هو

الأكبر والأعمق من كافة المحيطات ويضم ما يقرب من نصف مياه العالم وثلث الكرة الأرضية بكاملها.[29] بعد 4 قرون، كان بحرا إسبانيًا مغلقا وفي ذلك العصر الإمبريالي العالي أصبح المحيط موقعا في المرتبة الثانية بعد إفريقيا أهميّة في المنافسة على المستعمرات. في الجنوب الأكثر اكتظاظا بالسكان، جاءت مطالبات المحيط الهادئ الأوروبية في تتابع سريع من قبل ألمانيا في غينيا الجديدة وأرخبيل بسمارك، وبريطانيا في فيجي وبابوا وجزر سليمان، وفرنسا في تاهيتي وبورابورا.

إنّ مسافات الإبحار شمال خط الإستواء عبر المحيط الهادئ مزدوجة بالمقارنة مع تلك الموجودة في المحيط الأطلسي، مع وجود جزر متفرّقة فقط لتصل الى اليابسة. عبر هذه السبعة آلاف ميلا من المحيط المفتوح، جعل الإحتلال الأمريكي لهواي ووَيك وگوام والفِلِبين واشنطن القوة الإمبريالية المهيمنة، على الرغم من ألمانيا التي استحوذت على جزر ماريانا الشمالية ومعظم مِكرونيزيا. تمثّل الحافة الغربية للمحيط قوسا بحريًا من الجزر التي تشكّل ساحلا على المحيط الهادئ من اليابان وعبر الفِلِبين الى إندونيسيا. أبعد من ذلك في منطقة أوراسيا الشاسعة، كانت مساحة الأرض موطنا لنصف البشرية وموقعا للتنافس الإمبراطوري الشديد بين اليابان الصاعدة والصين التي مزّقتها الصراعات وروسيا المتوسّعة.

منذ وصولها في القرن الماضي لأوّل مرّة عبر المحيط الهادئ، حاولت واشنطن تحقيق التوازن بين 3 مكوّنات جيوسياسية، محيط شاسع وجزيرة ساحلية متقلبة وقارة مكتظّة بالسكان، في محاولة للحفاظ على حياة متكيّفة لموقع ستراتيجي في منطقة آسيا والمحيط الهادئ، والتي تكون مركزيّة في الغالب، على حدّ سواء لدفاعها الداخلي ووجودها العالمي في النضال المستمرّ للسيطرة على هذه الحدود الستراتيجية. *كانت واشنطن في حالة حرب في مكان ما في منطقة آسيا والمحيط الهادئ لمدة 50 عاما من 80 عاما الماضية*. تماما مثلما

فعلت إمبراطورية البرتغال في بسط هيمنتها على المحيط الهندي، فعلت أمريكا نفس الشيء، ومن المرجّح انها استفادت من خبرة البرتغال.

منذ البداية غرقت واشنطن بتهوّر عبر ذلك المحيط واعتبرته تحدّيا هائلا لدفاعها الوطني. عُيّن الأدميرال جورج ديوي رئيسا لمجلس البحرية العام في سن 1900، وأوصى بإرسال اسطول قتالي كبير الى المحيط الهادئ مدعوما ببناء قاعدة محصّنة في الفِلِبين. وهو الأمر الذي الزم رَوزفَلت باعتماد مليون دولارا لبناء قاعدة بحرية كبرى في خليج سوبك، وفيه ميناء عميق المياه يقع شمال مانيلا مباشرة.[30]

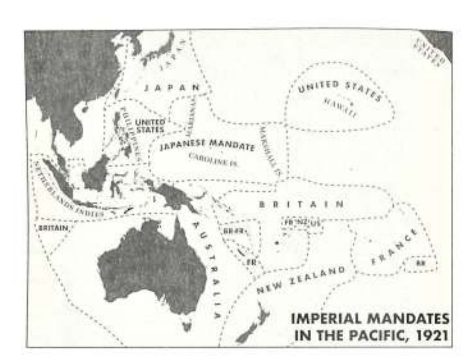
سرعان ما أجبرت نتيجة الحرب الروسية اليابانية بين عامي 1904 - 1905 واشنطن للتخلي عن وجودها البحري الكبير في غرب المحيط الهادئ. بانتصار اليابان على الأسطول الروسي في المحيط الهادئ وما جرى من تدمير لأسطول القيصر الخاصّ ببحر البلطيق في منطقة بورت آرثر وما حولها وفي مضيق تسوشيما القريب من كوريا، رسّخت البحرية اليابانية مكانتها كقوّة مهيمنة هناك. إدراكا لهذه الحقيقة الستراتيجية، أمرّ الرئيس ثيودور رَوزفَلت بانسحاب السفن التابعة لبحرية الولايات المتحدة فخرجت آخرها في عام 1906. وبعد ذلك بعام، سُمح بالإعتمادات المالية لبناء معقل جديد في المحيط الهادئ في پرل هاربر في هوائي بدلا من خليج سوبك في الفِلِبين. في رسالة الى وزير حربيته، أوضح الرئيس التداعيات الستراتيجية لقراره، قائلا، "الفِلِبين مثل الكعب الأخيل بالنسبة لنا." وهو إدراك قاده بسرعة الى تفضيل الإستقلال الفوري للجزر.[31]

في أعقاب الحرب الروسية- اليابانية، عمل المخططون العسكريون الأمريكيون بجدّ لتحديد ستراتيجية يمكن أن تدافع عن مستعمرتها الفِلِبينية من الحتمية الظاهرة لهجوم ياباني في المستقبل. لأكثر من 15 عاما، خططت وزارة الحربية لاعداد قوات الجيش للردّ على مثل هذا السيناريو من خلال الإحتفاظ بالتحصينات حول خليج مانيلا الى أجل غير مُسمّى حتى وصول سفن الأسطول

الأطلسي للتخفيف في حالة الظروف الصعبة. يحمل هذا التخطيط تقييماً ستراتيجياً رصيناً لإمكانية حدوث هزيمة بحرية جزئية أو كلية في المياه الفلبينية.[32]

ضاعفت نتيجة الحرب العالمية الأولى هذا اللغز الستراتيجي. في نهاية الحرب، وصل الرئيس وودرو ولسن الى مؤتمر فرساي للسلام الى الإشادة الشعبية لاقتراحه إنشاء عصبة الأمم، التي من شأنها أن تحسّن "الإستقلال والسلامة الإقليمية بين الدول الكبيرة والصغيرة على حدّ سواء." لكنه فشل في إقناع الكونكرس للمصادقة على ذلك المشروع، ممّا أدّى الى عزل الدولة فعليّاً عن شؤون أوروبا وزيادة أهميّة منطقة المحيط الهادئ بشكل غير مقصود للدفاع عن مصالحها الوطنية.

ومع ذلك، منحت تسوية فرساي للسلام اليابان الفرصة لتكون دولة مُستعمِرة فرضت الإنتداب على جزء كبير من مكرونيزيا، بما فيها كارولاين ومارشال وجزر ماريانا. وضع هذا الترتيب البحرية اليابانية فجأة على مسافة بعيدة من مركز الممرات البحرية في المحيط الهادئ بين پرل هاربر وخليج مانيلا. وممّا ضاعف المشكلة أنّ مؤتمر واشنطن 1921– 1922 إعترف بحق اليابان على مياهها الإقليمية في غرب المحيط الهادئ ومنع أيّ تحصين إضافي للقواعد الأمريكية في الجوار. بينما كان على القاذفات اليابانية قطع مسافة 550 ميلا في رحلة قصيرة للوصول الى مانيلا، كان على بحرية الولايات المتحدة أن تقطع مسافة 5300 ميلا من هَنَلولو كي تصل الى مستعمرتها في تايوان. بمثل هذا الموقف الستراتيجي، شلت هذه الضربات الدبلوماسية "خطة الحرب البرتقالية" الجديدة لواشنطن، التي تطلبت من قوات جيشها في الفلبين خوض معركة دفاعية يائسة ضدّ الغزاة اليابانيين، بينما كان على أسطول المعركة الرئيسي في پرل هاربر أن يقطع وسط المحيط الهادئ، الذي يهيمن عليه اليابانيون لإنقاذ القوات الأمريكية،[33] طبقا لرأي المؤرخ العسكري لُوِس مورتُن، الذي ذكر بأنّ هذه الستراتيجيّة "كانت بياناً للآمال أكثر من كونها تقييماً واقعياً."[34]



خارطة الإنتداب الإمبريالي في المحيط الهادئ لعام 1921

بروز دلائل الحرب العالمية الثانية

على الرغم من أنّ واشنطن قد أدركت على ما يبدو ضعفها الستراتيجي عام 1935، فإنّها اطلقت الفِلِبين لفترة 10 سنوات من أجل نيل الإستقلال. كانت الأوهام الإمبراطورية أنّها ستعيد القوات الأمريكية الى الجزر عشيّة الحرب العالمية الثانية. مقتنعا بأنّ قاذفة B-17 الجديدة تماما كانت بطريقة ما قادرة على انهاء هيمنة اليابان البحرية على غرب المحيط الهادئ، أرسل وزير الحربية هَنري ستِمسُن أسرابا من تلك "القلاع الطائرة" النادرة الى مانيلا في مهمة تدمير أيّ اسطول غزو في المستقبل. ما كانت رحلة الخيال [34] هذه متوافقة مع مساره الوظيفي من ميدان قانون خدمة الشركات الى الخدمة العامة كشريك في مكتب المحاماة وربيب لإلياهو روت. لقد تولى منصب الحاكم العام لجزر الفِلِبين، وبالتالي تشكّل لديه ارتباط عاطفيّ عميق بالمستعمرة.[35] الآن وكوزير للحربية

يواجه التوترات المتصاعدة مع اليابان، شعر ستِمسُن بالبهجة عند اكتشاف سلاح عجيب من شأنه أن يجلب أخيراً تلك الجزر بأمان الى داخل محيط الدفاع الأمريكي.

اصبح ستِمسُن على علم بإمكانات B-17 في أوائل عام 1941 حين أبلَغ عن هذه "القلعة الطائرة" بأنها قاذفة بعيدة المدى في وضح النهار. أخبر مساعد وزير الحربية روبَرت لوفيه رئيسه ستِمسُن بأنه، "على فترات غير منتظمة في التاريخ يحدث تغيُّر في فنّ الحرب، يغير مصير الشعوب والعالم. إنّ هذا التطوّر اليوم يتمثل في الطائرة الكبيرة السريعة قاذفة القنابل التي تختزل المسافات."[36]

برغم معارضة القادة البريطانيين والأمريكيين، الذين ارادوا وضع القاذفات النادرة في أماكن أخرى، اقنع ستِمسُن الرئيس فرانكلين رُوزفَلت في شهر آب بإرسال اسطول ضخم يضمّ 165 طائرة من قاذفات B-17 الى الفِلبين. وهي تمثل الجزء الأكبر من مجموع 220 قاذفة من المقرّر انتاجها في النصف الثاني من ذلك العام.[37] بحلول الوقت، الذي هاجم فيه اليابانيون في شهر كانون الأول، كان الجيش الأمريكي يمتلك 38 قاذفة قنابل ثقيلة ومتوسطة بينها 35 من طراز B-17.

بينما كانت القاذفات تعبر المحيط الهادئ الى مانيلا، شارك ستِمسُن الرئيس رُوزفَلت الحماس بالقول، "ظهرت فجأة فرصة ستراتيجية ذات أهمية قصوى في جنوب غرب المحيط الهادئ، ونحن نُسرع بإرسال الطائرات وغيرها من الإستعدادات من قواعدنا الى الفِلبين لوقف مسيرة اليابان الى الجنوب وتأمين سلامة سنغافورة، آخذين بنظر الإعتبار كافة العواقب لمثل هذه الخطوة." لم يكن باستطاعة مفجّري هذه الإشتباكات فقط الدفاع عن الفِلبين، بل أنّهم سيجعلون أمريكا سيدة منطقة المحيط الهادئ بأكملها، وبالتالي "إزالة اليابان من دول المحور."[39]



هنري ستِمسُن وزير الحربية الأمريكي عام 1940 (Credit: Library of Congress)

كما توقّعت عقول أكثر رصانة، تبخّرت مثل هذه الرؤية للنصر من خلال القوة الجوية في غضون ساعات حين أتت الحرب فجأة في يوم 7 كانون الأول من عام 1941. إنطلقت مقاتلات يابانية من قواعد في تايوان وما جاورها، فدمّرت معظم طائرات B-17 وهي في أوكارها بالقرب من مانيلا في الأيام الأولى من الحرب. وهو ما دفع ستِمسُن للشكوى، "الآن علينا الجلوس، فلا حول لنا ولا قوّة وأنّ تجربتنا خلال 30 عاما الناجحة في إرساء الأسس للحكومة الحرّة للأمّة الفِلِيبينيّة، قد انهارت بفعل الأوتوقراطية العسكرية اليابانية."[40]



إسروكو ياماموتو قائد الأسطول الياباني الموحّد عام 1942 (Credit: Alamy)

الحرب مع الإمبراطورية اليابانية

على الرغم من أنّ معظم المؤرخين يعاملون الحرب العالمية الثانية على أنّها حرب عالمية واحدة، يبدو القتال في المحيط الهادئ من منظور إمبراطوري صراعا منفصلا نشأ عن نصف قرن من التنافس الإقليمي بين طوكيو وواشنطن. في حين أنّ الإنتصار في أوروبا كان مشتركا مع كلّ من بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوفيتي، فإنّ النصر في المحيط الهادئ بقي الى حدّ كبير جهدا أمريكيّا. لقد سمح هذا للولايات المتحدة سلطة غير مقيّدة في احتلال ما بعد الحرب لليابان وكوريا الجنوبية.

في المائة يوم الأولى من الحرب العالمية الثانية، اجتاحت القوّات اليابانية جنوب شرق آسيا وغرب المحيط الأطلسي في هجوم صاعق غطى مسافات شاسعة وسحق القوات المتواجدة في المنطقة لثلاث إمبراطوريات متحالفة هي بريطانيا وهولندا وأمريكا. وبالتالي استولت على أراض يسكنها 200 مليون نسمة. لم تحقق اليابان فرص "الإزدهار المشترك" في مستعمراتها الجديدة التي فاقت الإمبراطورية البريطانية، لكن الغزو كان اسرع غزو في التاريخ للكثير من الأراضي وللكثير من الناس. ومع ذلك وفي وقت لاحق، كان توسّع اليابان السريع وغير المخطط، ممزّقا بالعيوب الستراتيجية، التي من شأنها أن تجعل الإمبراطورية ليس فقط الأكثر اكتظاظا بالسكان في العالم، بل أيضا الأكثر عبورا في التاريخ.

من مجموع فرق جيشها البالغة 51 فرقة، كانت 36 فرقة مشغولة في حربها المستمرّة في الصين. لم يكن لليابان سوى 11 فرقة لغزو جنوب شرق آسيا، ممّا اضطر قوّتها العسكرية أن تتبع ستراتيجية قامت على مرحلتين. بدلا من القيادة جنوبا نحو حقول النفط في جزر بورنيو وسومطرة الأندونيسية، كان هدفها الستراتيجي هو ضرب قواعد الحلفاء التي قد تهدّد خطوط الإتصال اللاحقة، وهما المعقل البريطاني في سنغافورة والقواعد الأمريكية في خليج مانيلا وبِيَرل هاربر. مع الحظر النفطي الذي فرضه الحلفاء وخنق امدادات الوقود لدعم جيش اليابان وقواتها البحرية، أصبحت اليابان بأمسّ الحاجة الى حقول نفط لإمداد جيشها الحديث بالوقود للحركة.

مدركا تماما "مأزق النفط" في بلاده وعدم قدرتها على منافسة الصناعة الأمريكية في حرب طويلة، قرّر قائد البحرية اليابانية الأدميرال إسروكو ياماموتو تحديد الأمر، وهو "مصير الحرب في اليوم الأول" بأن يدمّر الأسطول الأمريكي في هاواي. وهو قرار مصيري من شأنه أن يقضي على "الإنعزالية" الأمريكية واجبار السكان أخيرا على التعبئة للحرب.[41]

كانت تلك المرحلة الأولى من ستراتيجية اليابان ناجحة بشكل ملحوظ. بتاريخ 7 كانون الأول جرى هجوم مفاجئ شاركت فيه 6 ناقلات يابانية استهدف القاعدة البحرية الأمريكية الرئيسية في پرل هاربر، وشلّ حركة اسطول المحيط الهادئ أثناء دفع محيطها الدفاعي الى عمق وسط المحيط الهادئ. مع الحدّ الأدنى من الخسائر، نفذت دفعتان من 353 مقاتلة يابانية غارات أغرقت 10 سفن أمريكية بينها 4 بوارج، وحولت معقل أمريكا في المحيط الهادئ خرابا لاذعا. تفاجأ الأدميرال الياباني بفوزه ولم يُرسل موجة ثالثة من الطائرات المهاجمة لتدمير البنية التحتية للقاعدة.[42]

وصل بعد أسبوعين القائد العام لأسطول المحيط الهادئ، الأدميرال چستر نيمتز، لتقييم الوضع الجديد بسرعة وانقاذ ما يمكن إنقاذه، قرّر أنّ الضرر في پرل هاربر لم يكن بالسوء الذي بدا عليه. ركّز على البوارج، التي اعتقد اليابانيون أنّها مفتاح لنتيجة الحرب، وفاتهم أنّ حاملات الطائرات الأمريكية كانت وقت الهجوم في عرض البحر. أضف الى ذلك أنّ اليابانيين لم يدمّروا أرصفة الغوّاصات ولا مرافق أصلاح السفن ولا مخازن احتياطي النفط في القاعدة. شرح نيمتز أنّ "النفط المستخدم في الأسطول كان في خزانات سطحية. كان لدينا حوالي 4 ملايين برميلا من النفط في الخارج وجميعها كانت عرضة لإطلاقات رصاص من عيار 0.50. لو دمّر اليابانيون النفط لكان من شأن ذلك أن يطيل عمر الحرب عامين آخرين." بعد أدراك أنّ البوارج المدمّرة قد تمّ تعويضها الى حدّ كبير، بدأ نيمتز بسرعة بناء ثالوث جديد من السفن لحملة المحيط الهادئ القادمة: حاملات الطائرات السريعة والسفن البرمائية للإنزال على الشواطئ، وقوّة قتالية شديدة البأس، كان قد عرفها بشكل أفضل من خلال السنوات التي قضاها في البحر، كقائد لغواصة هجومية. من هذه البدايات "النحيلة" نمت قيادة المحيط الهادئ لتصبح قوّة هائلة من 730 سفينة و1000 من قاذفات القنابل B-29 المسمّاة Superfortress و20 فرقة عسكرية وأكثر من 400 ألفا من جنود مشاة البحرية.[43]

إستمرّ اليابانيون في اجتياحهم الجنوبي المدمّر لجزيرة لوزون الفِلپينيّة وسرعان ما احتلت العاصمة مانيلا. تُرِك جيش الجنرال مَك دوگلَس آرثر محصورا في شبه جزيرة باتان المجاورة. بعد أن اغرقت قاذفات القنابل اليابانية المنطلقة من سايگون السفن البريطانية أرسلت سفن سلاح البحرية الملكية للدفاع عن سنغافورة. قامت القوّات اليابانية بقيادة الجنرال توموبوكي ياماشيتا باجتياح شبه جزيرة الملايو وهزمت المدافعين البريطانيين المُحبطين في كلّ معركة. بعد 7 أيام فقط من القتال، استسلمت القيادة البريطانية ومعها 85000 جنديا وذخيرة وافرة في أعظم معقل للإمبراطورية في شرق السويس، لقوّة يابانية قوامها 35000 جنديا فقط. وصف وِنستُن چَرچِل ذلك الإذلال بأنّه "أسوأ كارثة في أكبر استسلام في التاريخ البريطاني."[44]



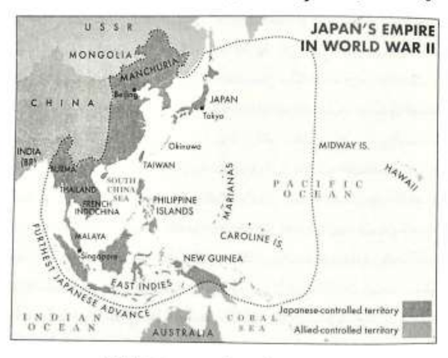
چِستَر نِمِتز قائد الأسطول الأمريكي في البحر الهادئ عام 1945 (Credit: Library of Congress)

في شهر شباط من عام 1942، اطلقت اليابان هجومها في المرحلة الثانية لضرب الأهداف في جنوب شرق آسيا. في دفعة أولى، أبحرت 20 سفينة حربية في بحر جاوة وسرعان ما دخلت في قتال مع اسطول مشترك من الأمريكيين والإستراليين والبريطانيين والهولنديين، فأغرقت القوّة اليابانية 10 سفن للحلفاء وقتلت 2000 بحارا من أسطولهم. وفي شهر مارس، اجتاحت وحدات الجيش الياباني جزيرتي جاوة وسومطرة، واستسلم 98000 جنديا هولنديا دون قتال. بعد وصول التعزيزات، هزمت القوات اليابانية في الفليبين قوات ماك آرثر الصامدة في شبه جزيرة باتان. في شهر مايس، تمركزت القوات اليابانية في تايلند وغزت بورما ولاحقت الجيش البريطاني غربا حتى الهند. استولت البحرية اليابانية أيضا على وادي القنال في جزر سليمان، ووضع هذا قواتهم على حافة بحر المرجان وعلى مسافة ضاربة من الساحل الإستريلي لأوّل مرّة.[45]

لو تفحصنا التقدم الجنوبي المفاجئ في معركة بحر المرجان في شهر مايس من عام 1942 وهزيمة توغّل بحري مواز باتجاه الشرق في المحيط الهادئ في منطقة ميدوّي في شهر حزيران، لوجدنا أنّ طوكيو أوقفت تقدّمها. كان تقدما شاسعا دفع الإمبراطورية لبلوغ ذروتها. في ميدوّي، راهن الأدميرال ياماموتو على معظم تحرّكات اسطوله في "معركة حاسمة" لكسر ظهر البحرية الأمريكية. لقد فقد ذلك الرهان بشكل رديء، واضطر الى التراجع بعد خسارة 4 حاملات و248 طائرة مقاتلة والعديد من أفضل الطيارين لديه.[46] حتى بعد هذه الهزائم، ظلت اليابان عدوا هائلا، فبعد كلّ شيء، امتدت امبراطورية طوكيو الموسعة من وسط المحيط الهادئ الى وسط الصين ومن منشوريا الى جنوب شرق آسيا. وهذا مجال واسع بسكنه ما يقرب من 540 مليون شخصا، أي ما يقرب من ربع البشريّة جمعاء، ومنطقة غنيّة بالنفط والمعادن والزراعة والصناعة.[47]

ومع ذلك، فإنّ هذه الإمبراطورية نصف الكروية، تمّ غزوها بسرعة غير مسبوقة. لقد تميّزت ايضا بنقاط ضعف جيوسياسية خطيرة. الأهمّ من ذلك، أنّ

المجمّع الصناعي للإمبراطورية في شمال شرق آسيا اعتمد على النفط المشحون من جنوب شرق آسيا عبر ممرّ بحري هشّ يوصل بحر الصين بجزر اليابان. وبوجود قوس محيط دفاعي فيه ثغرات يمتد عبر وسط المحيط الهادئ من ألاسكا الى إندونيسيا، لم تكن لدى البحرية اليابانية طريقة لوقف حرب الغواصات الأمريكية، التي قطعت تدفّق النفط.



خارطة الإمبراطورية اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية

بسبب إيمانه بمبدأ النقيب ماهان بأنّ الحروب الكبرى تتمّ تسويتها من خلال "معركة حاسمة" واحدة، كانت قيادة البحرية اليابانية غير مستعدّة لحرب استنزاف حديثة خاضتها الغواصات والهجمات الجوّية. كتب المؤرخان دَيفِد إيفانز ومارك پَتي، "على مدى جيل، كان المبدأ التوجيهي للعقيدة التكتيكية اليابانية... إنّ القضاء على الغرباء يتم عبر الإنتصار الساحق فوق سطح الماء Surface Victory." لم تخلق هذه العقيدة فقط "قتال القوة الأحادية البُعد والهشة"

لكنّها تركت البحرية اليابانية غير مستعدة لحرب طويلة ضدّ قوة صناعية كُبرى.[44] في الوقت الذي استخدمت فيه لندن وواشنطن القوافل لهزيمة "مجموعات الذئاب" من الغوّاصات النازية في معركة الأطلسي، فشلت طوكيو في وضع ستراتيجيّة لحماية سفنها من الهجمات الجريئة التي شنّها الصيادون والمقاتلون من أفراد الغوّاصات الأمريكية في غرب المحيط الهادئ.

بالإستفادة من هذه العيوب الستراتيجية، إخترقت غواصات البحرية الأمريكية الغواصات اليابانية في الحدود البحرية، التي سهل اختراقها، ممّا قطع تدريجيا الإمدادات الحرجة من النفط القادم من جنوب شرق آسيا. خلال 18 شهرا الأولى من الحرب، تباطأت عمليات الغواصات بسبب عيب في تصميم الطوربيدات وتدريبات الربابنة على استخدام الغواصات بشكل سلبي لعمليات الإستطلاع. بعد أن غيّرت البحرية ما يقرب من 30٪ من القادة الفرعيين في المحيط الهادئ في عام 1942، أبتكر النقباء الأصغر رتبة تكتيكات عالية الخطورة مثل أطلاق طلقات "أسفل الحلق" Down the Throat باتجاه السفن الحربية اليابانية القادمة. تمّ تنشيط اسطول الغواصات وضرب قباطنتها الجريئين الجُدد بقوّة قاتلة، فأغرقوا 492 سفينة معادية ودمّروا ثلثي ناقلات النفط اليابانية وخفضوا طاقتها للشحن من 700 ألف طنّا الى 200 ألف طنّا. في نهاية الحرب تمكّن الأسطول الأمريكي الأصغر نسبيّا والمكون من 234 غواصة من اغراق 1114 سفينة من السفن التجارية اليابانية وشلّ صناعات البلاد وتقييد عملياتها الجويّة والبحرية وانهيار الإمبراطورية في الداخل، قبل فترة طويلة من الإستسلام الرسمي للإمبراطور في شهر آب من عام 1945.[49]

إنّ استيلاء البحرية الأمريكية على جزر ماريانا الشمالية في گوام قد جعل أخيرا جزيرتي اليابان وهما سايبان وتينيان الأصليتين، ضمن نطاق وصول القاذفة الستراتيجية الأمريكية الجديدة B-29 Superfortress. بالمناسبة، كلف تطوير هذا السلاح الحربي العملاق 3 مليارات دولارا. للقاذفة 4 محركات بسرعة 350 ميلا

في الساعة ومجهزة بضغط هواء المقصورة بحيث يسمح لها بالتحليق على ارتفاع 32000 قدما فوق مدى المقاتلات اليابانية. بعد أشهر من النتائج غير المبالية للقصف الدقيق في وضح النهار، تحوّل قائد جديد عدواني هو الجنرال كورتس لوماي الى تكتيك من شأنه أن يكون له آثار قاتلة ومروّعة، هو القصف الجماعي للمدن اليابانية. في ليلة 9 آذار من عام 1945، أمر لوماي اسطولا جويّا مكونا من 279 من طائرات B-29 Superfortress لإسقاط 1665 طنا من القنابل الحارقة على طوكيو، ممّا أدى الى حدوث عاصفة نارية التهمت ربع المدينة وقتلت 83000 شخصا. خلال 4 أشهر التالية قام أسطول لومَي المكون من 600 قاذفة بغارات مستمرّة اسقطت 167743 طنّا من القنابل ودمّرت تقريبا كلّ مدينة يابانية كبرى.[50]

بلغت تلك الحملة المدمّرة ذروتها بهجمتين على مدينتين بسلاح جديد تماما. بتاريخ 6 آب من عام 1945، إنطلقت طائرة واحدة من طراز B-29 Superfortress والقت قنبلة ذريّة على هيروشيما. ارتفعت "سحابة القطر" الى 50000 قدما وارتفعت درجة الحرارة في أرض المدينة الى 3000 درجة مئوية أدت الى ذوبان حجر الگرانيت والصُلب. من بين 76000 مبنى في المدينة، تمّ تدمير 70000 مبنى. وقُتِل في الإنفجار أكثر من 78000 شخصا ولقي 150000 شخصا حتفهم لاحقا بسبب التعرّض للإشعاعات النووية. بعد 3 أيام أسقطت طائرة أخرى من نفس الطراز قنبلة ذريّة أخرى على مدينة نگزاكي. على الرغم من امتصاص التلال المحيطة بالمدينة للكثير من الصدمة، إنهار وسوّي بالأرض 12700 من مباني المدينة البالغ عددها 51000 مبنى وقُتل 23800 شخصا على الأقلّ، وبعد 6 أيام استسلمت اليابان أخيرا. قتلت حمّى القصف 330000 شخصا ودمّرت 67 مدينة وسوّت 2.5 مليون منزلا بالأرض وتركت 30% من جميع اليابانيين بلا مأوى.[51]

دفعت الولايات المتحدة ثمنا باهضا لانتصارها في المحيط الهادئ. على عكس ما حدث في أوروبا حيث فاق عدد قوّات الحلفاء عدد الأمريكيين، قامت

قواتها بمعظم القتال في المحيط الهادئ وعانت تبعا لذلك. في تدمير 686 سفينة حربية يابانية وقتل 298209 عسكريًا، فقدت البحرية الأمريكية 79 سفينة و31485 جنديا، على أنّه في نهاية الحرب وصل عدد العسكريين الأمريكيين القتلى من كافة صنوف قواتها المسلحة 50385 عسكريًا.[52] لقد فازت أمريكا بالهيمنة المطلقة على المحيط الهادئ، ولكنّ الأهم من ذلك أنّ الأسلحة النووية قد اصبحت عنصرا أساسيًا من القوة الجيوسياسية.

بالإضافة الى ذلك وبحلول نهاية الحرب، تزايد نطاق القاذفات الستراتيجية. جنبا الى جنب مع ظهور العصر الذري، حوّل ستيمسُن خيال القوة الجوية في الواقع الستراتيجي. نمت الطاقات الفعّالة من 2000 ميلا للقاذفة B-29 Superfortress الى 3250 ميلا. خططت وزارة الحربية لتوسيع المحيط الدفاعي لأمريكا من خلال تأمينها للقواعد العسكرية على طول ساحل المحيط الهادئ امتدادا من اليابان حتى الفلبين.

حيث كانت الولايات المتحدة تشقّ طريقها عبر المحيط الهادئ، من خلال سلاح البحرية أو وزارة الحربية، كانت الإدارة قد دعت الى الإحتفاظ بالجزر اليابانية التي تمّ الإستيلاء عليها، وعلى وجه الخصوص كارولاين وماريانا لتكونا مركزين للقواعد العسكرية بعد الحرب. لقد دفع هذا المثال الأمريكي السوفيت لفعل الشيء نفسه في أوروبا الشرقية. ساندت إدارة رَوزَفَلت الإنتداب الدولي ووضعت واشنطن تلك الجزر تحت وصاية الأمم المتحدة.[53]

ومع ذلك، كان البِنتَگون لا يزال مصمّما على قواعد ما بعد الحرب في الفلبين. في شهر تشرين الثاني من عام 1943، نصح الجنرَال تُومَس هاندي من قسم العمليات الوزير ستيمسُن بأنّ "الدراسات الحالية المتعلقة بالمتطلبات العسكرية للولايات المتحدة بعد الحرب... تتوخّى إنشاء سلسلة من القواعد البعيدة كحلقة دفاع حول نصف الكرة الغربي. للتأمين ضدّ هجوم مفاجيء كبير على شواطئنا، يجب أن نضغط وزارة الحربية على الكومنوَلث الفِلِبيني للحصول على امتيازات

أساسية. لذلك توجب اجراء مسح طبيعي لتحديد المواقع الدقيقة بواسطة السلطات العسكرية والبحرية الأمريكية عند انتهاء الحرب."[54] بعد موافقة رئيس الكومنولث الفليبيني، الذي ترأس حكومة في المنفى في واشنطن، من حيث المبدأ على تلك التنازلات، أصدر الكونغرس قرارا في منتصف عام 1944 يجيز المفاوضات من أجل بناء قواعد للولايات المتحدة لما بعد الحرب في الفليبين.[55]

ترأس الوزير ستيمسُن الوفد الى مؤتمر الأمم المتحدة في شهر نيسان من عام 1945 ودافع عن القواعد المقترحة كإصلاح للأحجية، التي كانت افسدت الموقف الأمريكي في المحيط الهادئ على مدى 40 سنة الماضية. "لقد أشرت بنفسي الى الأخطاء التي ارتكبناها في عدم الحفاظ على المسار المفتوح عبر المحيط الهادئ لتمكيننا من حراسة الفليبين ومصالحنا في الشرق الأقصى،" كما أوضح ستيمسُن. "قلت لهم كان السيد ولسُن قد حذّر من اعطاء جزر الإنتداب في وسط المحيط الهادئ لليابان. ولكن مع ذلك سمحوا بذلك... وهكذا قيّدنا أنفسنا لأنّنا وثقنا ووقعنا على المعاهدات التي انتهكها اليابانيون على الفور. وأنا توسّلت لديهم بجديّة ألا يكرّروا ذلك الخطأ مرة أخرى."[56]

في فترة ما بعد الحرب مباشرة، قامت الولايات المتحدة في الواقع بتحويل سلسلة الجزر قبالة سواحل آسيا في خط المواجهة للدفاع عن المحيط الهادئ، واستولت على كافة القواعد العسكرية على طول اليابان وتحويل جزيرة أوكيناوا الى معقل عسكري. ثمّ استغلت واشنطن مانيلاء التي كانت في حاجة ماسّة الى مساعدات إعادة إعمار ما دمرته الحرب، فاستحصلت منها على عقد إيجار لمدة 99 عاما لبناء 23 قاعدة عسكرية في الفليبين. مُنحت واشنطن حقّ الإستخدام غير المُقيّد للعمليات الهجومية، فأصبحت منطقة كلارك فيلد وخليج سوبك أثنتين من أكبر القواعد الأمريكية في الخارج تقريبا.[57]

وهكذا، وحتى كما دعا إتفاق الأمم المتحدة الى الحماية الرسمية لجميع الدول الأعضاء، كانت واشنطن تؤمّن معاقل عسكريّة في المحيط الهادئ وفق

الشروط، التي من شأنها أن تنتهك سيادة الحلفاء المقرّبين. وبالتالي كشفت تلك السياسة النفاق والتوترات الكامنة بين مُثلها الدولية والشجاعة وواقع الجغرافية السياسية، كما تراها.

النظام العالمي لواشنطن

أدى الموت والدمار الواسع النطاق للحرب العالمية الثانية الى وضع حدّ لعصر الإمبراطورية البريطانية وسمح بظهور نظام عالمي جديد. لقد دمّرت الحرب ليس فقط 3 قارات وخلفت 70 مليون قتيلا عبر هذا الكوكب، لكنّها أيضا أوقدت جذوة صراع أيديولوجي دمّر فكرة الإمبريالية كشكل شرعي للحكم لكلّ من المُستَعمِرين والمُستَعمَرين Colonized Colonizers and على حدّ سواء.

لمواجهة دعاية دول المحور اثناء الحرب، قام الحلفاء بتزوير شيء مُشترك حول الإلتزام بعالم ما بعد الحرب بأن يعيش البشر جميعا في مساواة في دولهم ذات السيادة. في شهر كانون الثاني من عام 1941 أعلن رَوزفلت إيمانه العميق بأربع حرّيات شهيرة، هي الكلام والعبادة والتحرّر من الفاقة والتحرّر من الجوع. إنّ صياغة هذه المبادئ كان من شأنها أن تُشرّع فيما بعد القوة الأمريكية العالمية. أضاف الرئيس، "الحريّة تعني سيادة حقوق الإنسان في كلّ مكان." في شهر آب من ذلك العام أصدر رَوزفلت ورئيس الوزراء البريطاني وِنستُن چَرچِل ميثاق الأطلسي من على ظهر سفينة حربية بريطانية، وعدا فيه "احترام حقّ كافة الشعوب في اختيار شكل الحكومات التي يعيشون في ظلها." ولكن سرعان ما أوضح چَرچِل أنّهما كانا يتحدّثان عن دول أوروبا، التي احتلها النازيون، وليس المستعمرات.[58] غير أنّه بحلول عام 1944، تصاعدت الأدلة على الفضائع المرتكزة على العرق في دول المحور. أعلن رَوزفلت، "إنّ الأمم المتحدة تكافح من أجل تحقيق ذلك... عالم فيه كافة الأشخاص بغض النظر عن العرق أو اللون أو العقيدة، يعيشون في سلام وشرف وكرامة."[59]

في اعقاب الحرب الأكثر تدميرا في التاريخ، استخدمت الولايات المتحدة قوة لا مثيل لها لتشكيل نظام عالمي جديد. ومثل بريطانيا إثر الإنتهاء من الحروب النابُليونية، خرجت أمريكا من الحرب العالمية بالقليل من الضرر والمزايا، إذ توسع اقتصادها وخضع جيشها للتحديث واتّحد مواطنوها. بينما بلغ عدد قتلى الحرب 415000 أمريكيا، فإن هذا الرقم تضاءل أمام 19 مليون قتيلا في أوروبا و20 مليونا في الصين و24 مليونا في الإتحاد السوفيتي.[60] بينما دُمّرت الصناعات أو تضرّرت في أوروبا وروسيا واليابان، في المقابل تضاعف حجم اقتصاد أمريكا خلال الحرب. بحلول عام 1945، كانت الولايات المتحدة تمثل 60%من الناتج الصناعي العالمي. مع كونها تمثل 6% فقط من مجموع سكان العالم، كان لديها 46% من الطاقة الكهربائية في العالم و59% من الإحتياطات النفطية المؤكّدة. كان الكثير من بلدان أوروبا وآسيا تعاني من نقص حادّ في الغذاء، لكنّ الزراعة الأمريكية كانت تنتج نضخمًا فائضا لإطعام البشر الجياع. في نهاية الحرب، نما جيشها الى أكثر من 12 مليون جنديّا، وتحكّم اسطولها بالبحار بواسطة أكثر من 1000 سفينة وسيطر سلاحها الجوي على الفضاء بحوالي 39000 طائرة عسكريّة. كما قال الرئيس ترومَن، "ربّما أقوى أمّة في كلّ التاريخ."[61]

على مدى العقد المقبل، أنشأت واشنطن من خلال الإزدواجية الصارخة قوّتها العالمية، وبنت إمبراطورية ذات امتداد غير مسبوق وعالم لنظام يتبنّى المبادئ الليبرالية المتمثلة في حرمة السيادة والمساواة بين البشر. بالنظر الى الماضي، فإنّ التناقض الحادّ بين واقعية ماهان ومثالية روت كانت أقلّ وضوحا عندما اعتلت واشنطن لأوّل مرّة المسرح العالمي بعد نصف قرن، وحين حققت البلاد الهيمنة العالمية.

تشكّل النظام العالمي الحالم لواشنطن في مؤتمرين رئيسين عُقِد الأوّل في برايتُن وودز في نو هامپشَر في عام 1944، حيث تحالف 44 بلدا لإقامة نظام مالي دولي يجسّده البنك العالمي. أمّا المؤتمر الثاني فقد عُقد في سان فرانسسكو عام

1945 حيث وُضعت صيغة ميثاق الأمم المتحدة لقيام نظام مجتمع دولي. سوف يُفسح النظام القديم للإمبراطوريّات المتنافسة للكتل التجارية الإمبراطورية المغلقة والتحالفات السريّة، المجال لمجتمع دولي من المستعمرات المُحرّرة والدول ذات السيادة والتجارة الحرة والسلام القائم على القانون. في جوهرها، كان العديد من بنود ميثاق الأمم المتحدة مستندا على مبدأين أساسيين فقط سيصبحان قريبا مترادفَين مع النظام العالمي لواشنطن، وهما سيادة وطنية مصونة وحقوق الإنسان على المستوى العالمي.[62]

غير أنّه داخل الأمم المتحدة والنظام العالمي، الذي تمثله، سيكون هناك توتر مُتكرّر بين امتيازات الدول ذات السيادة ومبدأ حقوق الإنسان. عندما اتفقت قوى الحلفاء الخمسة الكبار، الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا والصين والإتحاد السوفيتي، في دَمبَرتُن أوكس بالقرب من العاصمة واشنطن في أواخر عام 1944 لوضع خطط لمنظمة تخلف عصبة الأمم، إتفقوا جميعا على أنّهم يسيطرون على مجلس الأمن. وعنى هذا فإنّ بقيّة دول العالم اختصر حقها على المناقشات الإستشارية في جمعية عامة عاجزة. ومثلما قال الرئيس رُوزفلت بأنّه "يجب أن تجتمع هذه الجمعية مرّة واحدة في السنة" للسماح "لجميع الدول الصغيرة... لتنفيس البخار." ضغطت الصين من أجل قبول الإلتزامات بحقوق الإنسان والمساواة العرقية فقوبلت بمعارضة شديدة، خاصّة من قِبل المسؤولين في وزارة الخارجية، الذين رفضوا التعدّي على سيادة الولايات المتحدة والسماح بتحدّي نظامها.[63]

بمجرّد تحرّك المداولات خارج الأبواب المُغلقة في دَمبَرتُن أوكس للمناقشات العامة من قِبل 51 دولة مستقلة وعشرات من الجماعات المدنية الأمريكية من سان فرانسسكو، تغيّر مضمون المناقشات بشكل ملحوظ. وصلت الوفود الأمريكية اللاتينية بأجندة موحّدة حثّت على أن تبذل الأمم المتحدة الجديدة "كلّ جهد ممكن لمنع التمييز العنصري أو الديني." أصرّت الشعوب

المُستعمَرة على أنّ حريتها مطلوبة الى الأبد من أجل السلام العالمي. ومن جانبها، حثّت النقابات العمالية والجماعات الدينية الأمريكية على الوفاء بالتزامات زمن الحرب المتمثلة بحقوق الإنسان والمساواة العرقية. أجبرت هذا الضغوط القوى الكُبرى لتعديل خططها، ممّا نتج عنه ميثاق الأمم المتحدة وحماية حقوق الإنسان، وإنشاء الجمعية العمومية المخوّلة بطرح توصيات حول الحقوق بكافة أشكالها ومجلس وصاية يُشرف على نهاية الحكم الإستعماري. على الرغم من أنّ هذه كانت تغييرات مهمة، لكنّ الدول الكبرى خرجت من سان فرانسسكو بامتيازات مجلس الأمن دون رادع.[64]

على الجانب الإيجابي من سجلّ التاريخ، رفض ميثاق الأمم المتحدة الجديد حقّ الغزو السائد في العصر الإمبراطوري واعتنق مبدأ المساواة في السيادة بين جميع اعضائها" الذين "يمتنعون... عن التهديد باستخدام القوة أو اللجوء الى استخدامها ضدّ وحدة الأراضي أو للنيل من الإستقلال السياسي من قبل أيّة دولة." كلف مجلس الوصاية القوى الإستعمارية المتبقية أن "تقبل كأمانة مقدّسة وتعزّز الى اقصى حدّ... الحكم الذاتي أو الإستقلال."[65] بحلول الوقت الذي اكتمل فيه انهاء الإستعمار عام 1980، كان عدد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة قد تضاعف بمقدار 3 مرات ووصل الى 155 دولة.

على الجانب السلبي لتلك المحاسبة التاريخية، فإنّ ميثاق الأمم المتحدة قد أخلّ بالتزاماته بالمساواة العرقية والتحرّر من الإستعمار، من خلال إضافة بنود جعلت سيادة الدولة لها الأولوية. ذكرت المادة الأولى من الميثاق أنّ أحد الأغراض الرئيسية للأمم المتحدة هو "تشجيع الحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين." ومع ذلك فإنّ القوى الكبرى في سان فرانسسكو أدخلت ايضا ثغرة قانونية من خلال الفقرة رقم 7 من المادة الثانية، التي تنصّ على عدم السماح لأيّ بند من بنود ميثاق المنظمة "للتدخّل في الأمور، التي هي أساسا داخل الولاية القضائية المحليّة لأيّة دولة." مع هذا القيد

الكاسح على وعد المساواة بموجب المادة الأولى، استثنت بريطانيا امبراطوريتها الإستعمارية وحمت الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، ومثلها في كتلة الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة ذاتها، إذ لم يرَ الكونگرس أيّ تهديد للفصل العنصري. الحقيقة هي أنّ المندوب الأمريكي جون فوستر دَلاس، المحافظ الجمهوري ووزير الخارجية لاحقا، قد أكّد على الفقرة 7 من المادة الثانية على وجه التحديد لتجنّب أيّ ضغط دولي لإصلاح ما سمّاه "مشكلة الزنوج في الجنوب،" فكانت الكلمات رمزية لنظام الفصل العنصري القاسي الذي خلّف العبودية. كانت هذه الثغرة كبيرة جدّا ومثيرة للجدل، لدرجة أنّها أغرقت الأمم المتحدة في عامين من التوتّر حول حقوق الإنسان، وبلغت ذروتها في الموافقة بالإجماع على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948، الذي نصّ على "المساواة والحقوق غير القابلة للتصرف لجميع أفراد الأسرة البشرية."[66]

في الواقع، تمّ رفض النظام الجديد لواشنطن، كما ورد في ميثاق الأمم المتحدة، للإنقسامات الدينية والعرقية في القرون الخمسة الماضية، بتفضيل مبادئ المساواة، التي من شأنها أن تقدّم الدعم المعنوي للنضال ضدّ الحكم الإستعماري في جميع انحاء العالم، والفصل العنصري في جنوب إفريقيا وحتى الفصل العنصري في الولايات المتحدة ذاتها. في السنوات الأولى بعد تأسيس الأمم المتحدة، كان أمرا شائعا أن تستشهد مجموعات الحقوق المدنية بميثاقها في الطعون القانونية، التي واجهتها للعديد من اشكال التمييز العنصري، التي كانت آنذاك جزء ثابتا من الحياة الأمريكية. ومن هذه العهود التي حُظِر فيها بيع المساكن للأقلّيات والحرمان الممنهج على كافة المستويات والفصل العنصري في الجنوب، الذي فرض الآلاف من عمليات إعدام المواطنين السود خارج نطاق القانون. على الرغم من أنّ واشنطن قد تراجعت عن حقوق الإنسان خلال الكثير من الحروب الباردة، لا يزال المدّعون يستشهدون بميثاق الأمم المتحدة

في قضايا المحكمة العليا التاريخية لعام 1954، في قضية براون ضدّ مجلس التربية *of Education Brown v. Board* وقضية بولِنگ ضدّ شارب *Bolling v. Sharpe*، اللتين دافعتا عن وضع حدّ للفصل العنصري في المدارس العامة.[67]

حتى مع كافة تلك التنازلات المتضمّنة، كانت الأمم المتحدة تمثل حقيقة تقدّما في العلاقات الدولية. تماما كما كان النظام الإمبراطوري البريطاني أكثر انتشارا من سابقيه الأيبيريين، ذهب عالم واشنطن الى ما هو ابعد من الثلاثة ليصبح منظّما بشكل صارم وعميق ومغروس. كان مؤتمر فيّنا بمثابة اجتماع سريع الزوال لعشرات من الدبلوماسيين، الذين تلاشى نفوذهم الى حدّ كبير في غضون عقد من الزمن. في المقابل، استمرّت الأمم المتحدة ودولها الأعضاء البالغ عددهم 193 دولة منذ ما يقرب من 75 عاما، ومعها الآلاف من الموظفين الدائميين المكلفين بمسؤوليات دولية واسعة من أجل الصحة وحقوق الإنسان والتعليم والقانون والعمل والجنس والتنمية والغذاء والتراث الثقافي وحفظ السلام واللاجئين. شكلت الأمم المتحدة بموجب ميثاقها الواسع مجموعات متخصّصة مثل منظمة الصحة العالمية لمكافحة الجدري وشلل الأطفال والطاعون والأوبئة الأخرى، التي عانت منها البشرية لقرون. بالإضافة الى هذه الحوكمة الواسعة، أضافت الأمم المتحدة معاهدات وقوانين لتنظيم البحار والفضاء وتغيّر المناخ. ولم يؤدِّ مؤتمر برايتُن وودز الى إنشاء صندوق النقد الدولي IMF والبنك الدولي فقط، لكنّه أدّى أيضا الى تشكيل منظمة التجارة العالمية WTO التي تنظّم التجارة بين 164 دولة عضوا. مثل هذا النظام الشامل للحوكمة العالمية، أوجب دمجه في كلّ جانب من جوانب الإتصال الدولي تقريبا. من الناحية النظرية، لدى منظمة الأمم المتحدة مرونة كافية للبقاء على قيد الحياة حتى خلال الإضطرابات الكبرى.

وعلاوة على ذلك، كانت الأمم المتحدة مجرّد واحدة من العديد من المبادرات الدولية، التي تبعت الحرب العالمية الثانية. بعد عام 1945، أشار عالم

السياسة جون إكينبري الى أنّ، "الولايات المتحدة قد دفعت العالم لالتقاط الأنفاس من خلال مجموعة من المؤسسات الجديدة متعددة الأطراف والثنائية والإقليمية والعالمية والأمنيّة والاقتصادية والسياسيّة."[68] بدأ من خطّة مارشال التي بلغت قيمتها 13 مليار دولارا لإعادة إعمار أوروبا التي مزّقتها الحرب، استكملت واشنطن عمل البنك الدولي من خلال تقديم مليارات الدولارات كمساعدات ثنائية لتمويل إعادة الإعمار والتنمية في الدول القديمة والحديثة.[69] ونتيجة لبذل تلك الجهود، انخفض عدد سكان العالم، الذين يعيشون في فقر مدقع، بشكل مطّرد من 40٪ في أوائل الثمانينات الى 10٪ فقط بحلول عام 2015، مع التوقعات بانخفاض سيصل الى 3٪ بحلول عام 2030. ومع ذلك، فإنّه في عام 2015 لا يزال هناك حوالي 3.4 مليار شخصا، أي ما يقرب من نصف سكان العالم، يعيشون بعوز لكونهم يكسبون 5 دولارات في اليوم. ومثل هذه الظروف، تؤكد الحاجة الملحّة للتنمية الكبرى.[70]

السياسة الواقعية لقوّة أمريكا العالمية

ومع ذلك، تعايشت كلّ تلك الأممية الليبرالية جنبا الى جنب مع بعد أكثر حزنا من قوّة الولايات المتحدة العالمية. "لدينا حوالي 50٪ من ثروة العالم،" كما تبجّح مرّة جورج كِنّن في عام 1947 عندما كان رئيس تخطيط السياسات في وزارة الخارجية. "المهمة الحقيقة في الفترة القادمة هي ابتكار نمط من العلاقات التي سوف تسمح لنا بالحفاظ على هذا الموقف من التفاوت دون ضرر أيجابي لأمننا القومي. للقيام بذلك، سيتعيّن علينا الاستغناء عن الجميع... كافة اشكال الإيثار الدولي." تجسّد هذا الإيثار إذا تشكلت الأمم المتحدة في موجة من المثالية وسط انتصار الحلفاء الكبير على الفاشية. ثمّ كانت ادوات الحرب الباردة، التي ساعد كِنّن في إنشائها قد مثلت الجانب المظلم للازدواجية التي تغلغلت في برامج واشنطن في فترة ما بعد الحرب، الكبيرة منها والصغيرة. كان

من شأن المساعدات الخارجية إعادة بناء أوروبا، التي مزّقتها الحرب والتخفيف عن الفقر في جميع انحاء العالم، بينما أدّت العمليات السرّية الى اغتيالات وانقلابات وانتخابات مزوّرة في عدد لا يُحصى من الدول. طوّرت واشنطن الجديدة الخدمات السريّة بتقنياتها الماكرة للتعذيب النفسي والدعاية الجماهيرية، التي اصبحت من أدوات القمع السياسي، بينما عزّزت وكالة التنمية إعادة توزيع الأراضي في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. بالنسبة لملايين الفلاحين المُستأجرين، الذين يعيشون في تلك الهيكلية لأرث الإستعمار، مثل هذا ما يشبه التحرّر الإقتصادي.[71]

بمجرّد انهيار تحالفها في الحرب العالمية الثانية مع الإتحاد السوفيّتي، بدأت الحرب الباردة وشكّلت واشنطن جهاز أمن قومي خدم في نفس الوقت لاحتواء الشيوعية وخلق القدرة على الهيمنة العالمية. بموجب قانون الأمن القومي لعام 1947 والتشريعات اللاحقة، شكّلت واشنطن الأدوات الأساسية لممارستها السلطة العالمية معتمدة على وزارة الدفاع والقوات الجويّة الأمريكية ومجلس الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية. أنشأ هذا التشريع ايضا قيادة المحيط الهادئ في پرل هاربر، والتي بحسب رأي المؤرّخ بروس كُمِنگز كانت "جوهرة القوّة العالمية للأمّة الأمريكية،" المتمثلة بحوالي 362000 جنديّا و220 سفينة حربية بحلول نهاية الحرب الباردة.[72] لأكثر من 30 عاما، تمّ تعيين سلسلة من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية كقادة لأسطول المحيط الهادئ. كانوا أميرالات فولاذيين مثل هاري دي فِلت وجون س. مَكينّ الإبن وغيرهما، ممّن سيكونون في هذا المنصب "نواب ملك" حقيقين في المحيط الهادئ، إضافة الى مارشالات للقوات الميدانية في جميع آسيا.

في هذا الجانب الواقعي للإزدواجية التي ميّزت سياستها الخارجية، سعت الولايات المتحدة لاحتواء الكتلة الشيوعية بقيادة الإتحاد السوفيّتي وجمهورية

الصين الشعبية وراء "الستار الحديدي"، كما سماه ونستُن چَرچِل، والتي امتدت على مسافة 5 آلاف ميلا من كتلة اليابسة الأوراسيّة. للسيطرة على دول العالم من جانبها في هذا التقسيم وتعزيز هيمنتها العالمية لحماية ثروتها وسلطتها غير العادية، أنشأت واشنطن جهازا هائلا من 4 مستويات: اقتصادية وعسكريّة ودبلوماسية وسريّة.[73]

كان الأساس والعنصر الأوّل لهيمنة واشنطن قوّة اقتصادها الإستثنائية. لم تكن أمريكا فقط مسؤولة عن نصف الناتج العالمي في اعقاب حرب عالمية مدمّرة، لكنّ الإقتصاد العالمي تمّ بناؤه في برايتُن وودز على أساس الدولار، الذي تجاوز طويلا الجنيه الإسترليني كعملة دولية رائدة. كان الخبراء في ذلك الإجتماع بقيادة جان مَينَرد كينز، حين تمّ تأسيس صندوق النقد الدولي للتخفيف من جمود معيار الذهب قبل الحرب. وكان هدفه أن يتحقق من خلال تحديد اسعار الصرف لجميع العملات على أساس الدولار، ومن ثمّ جعله قابلا للتحويل الى ذهب بسعر 35 دولارا للأونصة Per Ounce. بصرف النظر عن تأثير زيادة السيولة، التي من شأنها أن تحفّز النمو الإقتصادي لمدة ربع قرن، أنشأ نظام الدولار كعملة إحتياطية عالمية. سواء كان إنفاق 13 مليار دولارا لإعادة بناء أوروبا المُدمّرة أو مليارات أخرى لبناء القواعد العسكرية في الخارج، أمكن واشنطن ببساطة طباعة عملة الدولارات الورقية، وكان على الحكومات الأجنبية أن تودع في بنوكها سبائك الذهب. على الرغم من أنّ موسكو رفضت بسرعة صندوق النقد الدولي، إلّا أنّ الرئيس هَري ترومَن لم يرتدع وصرّح صارخا، "نحن عملاق العالم الإقتصادي."[74]

كان العنصر الأساسي الثاني في صميم قوّة الولايات المتحدة، عنصرا لا مثيل له في شكل جيش بمئات القواعد العسكرية حول العالم، وترسانة نووية هائلة وقوات جوّية وبحرية ضخمة، والعديد من الجيوش العميلة. خلال عقد من نهاية الحرب العالمية الثانية، كان لدى الولايات المتحدة

بالفعل 500 قاعدة عسكريّة في خارج أراضيها وتطوّق أوراسيا، وسلسلة من اتفاقيّات الدفاع المشترك تمتد من حلف شمال الأطلسي NATO في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا ونوزيلندا، ومعاهدة الأمن الأمريكية ANZUS في جنوب المحيط الهادئ. كما وقّعت واشنطن معاهدة ريو مع جمهوريات أمريكا اللاتينيّة، والتي تقوم على مبدأ الدفاع الجماعي. خلقت هذه المعاهدات والقواعد العسكرية التي رافقتها ما أطلق عليه كُمِنگز "أرخبيل الإمبراطوريّة."[75]

في تناقض ملحوظ مع نفوذ الأرستقراطيين المالكين، الذين ترأسوا بريطانيا خلال تراجع الإمبراطوريّة، قدّم الجيش الأمريكي جيلا موهوبا صاعدا من القادة المُتنقلين، الذين تمّ اختيارهم بدقة واختبارهم في سوح القتال، والذين أمدّوا وصول واشنطن العالمي الى البلدان والقارات البعيدة. حين اندلعت أوّل معركة في الحرب الباردة، وهي الحرب الأهلية اليونانية عام 1946، إختارت واشنطن الجنرّال جيمس ڤان فليت، وهو إبن رجل اعمال فاشل من فلوريدا، كان قد تخرّج عام 1915 من كلية وَست پوينت الحربية، لقيادة فرقة قوامها 450 مستشارا عسكريا أمريكيا. كانوا يوجّهون الجيش اليوناني لضرب حرب العصابات الشيوعية لمدة 20 شهر حتى انهارت المقاومة بالكامل. أرسلت نفس الفرقة الى شبه جزيرة كوريا المقسمة وجرت حرب كارثية مدعومة من قبل القوى العظمى في الحرب الباردة. قاد ڤان فليت القوّات الأمريكية والكورية الجنوبية للصيانة من الضغط المستمر للقوّات الصينية، ممّا أدّى في النهاية الى إعلان الهدنة. أسس ڤان فليت بعد تقاعده عام 1957 الجمعية الكورية لتعزيز "التعاون بين شعبي الولايات المتحدة وكوريا." في يوم لا يُنسى وبعد 3 سنوات التقيت شخصيا بالجنرّال المتقاعد عندما زار مزرعة جدّي لتربية المواشي في ذيد بني في فلوريدا. حضر لشراء حمولة شاحنة من الثيران الممتازة، وقال إنّ شعب كوريا الجنوبية يحتاج الى مصدر جديد للبروتين![77]



جيمس ڤان فليت، قائد قوّات الأمم المتحدة في ملجأ كولومبيا للأيتام في مدينة سئول عاصمة كوريا الجنوبية عام 1952 (Credit: Author's Collection)

الرئيس الذي اشرف على العمليات العسكرية، التي رافقت صعود امريكا الى مستوى القوة العالمية، هو دوايت أيزنهاور. وهو نجل صاحب متجر عام فاشل في أبِلين، كنزَس وضابط آخر تخرّج من وَست پوينت عام 1915. خلال الحرب العالمية الثانية، كان قد ساهم في تصاعد قوة الحلفاء، التي هزمت الألمان في شمال أفريقيا والهبوط البرمائي الضخم على شواطئ فرنسا وخرق الدفاعات الألمانية الأخيرة. كرئيس خلال عقد الحرب الباردة في خمسينات القرن الماضي أشرف على توليف العلم والصناعة وشراء الأسلحة في ما اسماه "المجمّع الصناعي العسكري" للحفاظ على التفوّق التكنولوجي لأمريكا.[78]

بحلول نهاية رئاسة أيزنهاور في عام 1960، كان الپنتگون قد بنى ثالوثا نوويّا من الأسلحة أعطاها أسم "رادع ستراتيجي عملي غير معرّض للخطر." بينما أبحر أسطول البحريّة الأمريكية المكوّن من 5 غوّاصات تعمل بالطاقة النووية

وتحمل في أعماق المحيط 16 صاروخا نوويا من طراز پولاريس و14 من حاملات الطائرات المهاجمة التي تسير بالقوة النووية، بما فيها USS *Enterprise* المجهّزة لضربات نووية. علاوة على ذلك، كان لدى القيادة الجوية الستراتيجية 1700 قاذفة جاهزة لإلقاء حمولات نووية على الكتلة الشيوعية، بما في ذلك 600 من طائرات B-52 العملاقة القادرة على قطع مسافة 8000 ميلا. في الأثناء، طوّر سلاح الجوّ صواريخ باليستية من طراز أطلس وتيتان التي يمكن أن تحمل رؤوسا حربية نووية لأكثر من 6000 ميلا.[79]

اعتمادا على القوّة الإقتصادية للبلد، أجزل البنتگون العطاء فنمت ميزانية البحث العلمي بسرعة من 33 مليون دولارا سنويّا عام 1959 الى 87 مليار دولارا في عام 2009.[80] أنتج تحالف البنتگون الوثيق مع مقاولي الدفاع ابتكارات تكنولوجية متواصلة، بما في ذلك الإبتكار الأوّل في العالم لنظام الأقمار الصناعية للإتصالات السلكية واللاسلكية العالمية، والتي تطوّرت خلال الحرب الباردة في وسائلها الرئيسية للملاحة العسكرية والإستخبارات والإتصالات[81] لممارسة سيادتها فوق السماوات. كما شرحت واشنطن بالتفصيل عقيدة الإمبراطورية البريطانية عن "حريّة البحار"، كي تشمل السماء وحتى الفضاء، حيث يمكن لأقمارها الصناعية أن تدور.[82]

إرتكز مثل هذا الجهاز العسكري الضخم على أسس جيوسياسية لقوّة غير عادية. وكما اوضح المؤرّخ جون داروِن فإنّ واشنطن قد حققت "إمبريالية هائلة... على نطاق غير مسبوق." لقد أصبحت إثر الحرب العالمية الثانية القوّة الأولى في التاريخ للسيطرة على نقاط المحور الستراتيجية "عند طرفي أوراسيا." في الواقع، عندما وصلت الحرب الباردة آسيا في بداية الحرب الكورية عام 1950، أصدر مجلس الأمن القومي مذكرة NSC-68، التي نصّت على أنّ، "الجهود السوفيتية موجّهة الآن نحو هيمنة على كتلة الأرض الأوراسية" ومطالبة الولايات المتحدة لتوسيع جيشها لردع التوسّع السوفيتيّ إن أمكن، ولهزيمته إذا

تطلب الأمر، والقضاء على كافة الأعمال العدوانية السوفيتية." كي يشمل الدفاع عن أوراسيا، زادت الميزانية العسكرية 4 أضعاف ما كانت عليه تقريبا، من 13.5 مليار دولارا الى 48.2 مليار دولارا لزيادة الإعتمادات العسكرية المستمرّة حتى يومنا هذا.[83] في الدفاع عن هيمنتها على تلك القارة الشاسعة، خاضت واشنطن حربين ساخنتين في كوريا وفيتنام لكبح جماح توسّع الشيوعية، بينما شنّت وكالة المخابرات المركزيّة عمليّات سريّة كبيرة حول الحافة الجنوبية والبحث بلا هوادة عن نقاط الضعف في الكتلة الصينية السوفيتية.

بينما دافعت واشنطن عن المحور الغربي لأوراسيا من خلال اتفاق جماعي متعدد الأطراف مكوّن من 12 دولة من حلفاء النّيتو، كان موقعها في الشرق مؤمّنا باتفاقيات ثنائية مع 4 دول هي اليابان وكوريا الجنوبية والفلبين وأستراليا، بالإضافة الى سلسلة من القواعد العسكرية على مدى 5 آلاف ميلا على طول ساحل المحيط الهادئ. في اعقاب الحرب الكورية، احتفظت واشنطن بحامية دائمية في كوريا الجنوبية، إضافة الى 100 منشأة عسكرية استولت عليها خلال فترة احتلال اليابان عقب الحرب العالمية الثانية. الى الجنوب، كان للولايات المتحدة معقل مناهض للشيوعية في جزيرة تايوان، اضافة الى وجود منشآت عسكرية ضخمة في ميدان كلارك وخليج سوبك في الفلبين، والوصول الى الموانئ الصديقة في سِدني وبريسبَين في أستراليا ضمن تحالف ANZUS. في ذروتها، لم تمتدّ الإمبراطورية البريطانية لتشمل "جزيرة العالم" القارية الثلاثية لإفريقيا وأوراسيا خارج سنغافورة. لكنّ واشنطن الآن تسيطر على هذه القارات ولها معاقل عسكريّة في أوروبا وسواحل المحيط الهادئ بأكملها.

من خلال العمل كحدود للدفاع عن قارة واحدة هي أمريكا الشمالية، ونقطة انطلاق لهيمنتها على منطقة أخرى، هي أوراسيا، اصبح ساحل المحيط الهادئ نقطة الإرتكاز الجيوسياسية للموقف الدفاعي للعالم الأمريكي بأكمله. بحلول عام 1955، كانت هذه الجيوب المبكّرة في اليابان والفلبين قد تمّ دمجها

في شبكة عالمية مع مئات القواعد الخارجية، التي استهدفت الى حدّ كبير احتواء الكتلة الصينية السوڤيتية خلف الستار الحديدي. إرتكزت على قواعد ضخمة في رامشتاين في ألمانيا وخليج سوبك في الفيلبين، وتمّ ربط هذه النقاط المحورية ببعضها البعض عن طريق طبقات من الفولاذ، شملت القاذفات الستراتيجية والصواريخ البالستيّة والأساطيل البحرية الضخمة في البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي والمحيط الهادئ.[84]

يكمن الشرق الأوسط في منتصف تلك الأقواس الفولاذية حول أوراسيا، والذي اصبح نقطة وميض متكرّرة للهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية. إحتفظ البريطانيون في البداية بنظام غير رسمي إمبراطوري من خلال دعم الملوك المحافظين في المنطقة، لكن الولايات المتحدة اكتسبت ببطء نفوذا على نفطها، أوّلا في الخليج ثمّ بعد ذلك في عام 1953 من خلال انقلاب المخابرات المركزية، الذي أعاد الشاه الى الحكم المباشر في إيران. نتيجة انهاء بريطانيا لنفوذها في محميّاتها على العراق والكويت، قامت واشنطن أخيرا في عام 1971 بملئ الفراغ من خلال بروز الإمارات الخليجية والإستيلاء على القاعدة البحرية البريطانية في البحرين ثم في كافة الخليج العربي، واقامت تحالفا وثيقا مع إيران. لكن سقوط الشاه نتيجة الثورة الإسلامية في ذلك البلد عام 1979 أزال حجر الزاوية الجيوسياسي لموقف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بأكمله. خاضت واشنطن 3 حروب كُبرى على مدى 40 عاما التالية دون جدوى، لتحقيق توازن ستراتيجي جديد في منطقة هي بمثابة المصدر الرئيسي لنفط الإقتصاد العالمي.[85]

تماما كما تزامن العصر الإمبراطوري البريطاني مع الصناعة التي حركتها ثورة طاقة الفحم، إعتمد النظام العالمي لواشنطن على النفط الخام لتغذية شره احتياجات الطاقة لاقتصادها العالمي. على الرغم من أنّها البلد الأول في استخراج النفط، عام 1859 ظلّ الفحم مصدر طاقتها الرئيسي لمعظم القرن التالي. حتى عشيّة الحرب العالمية الثانية، أنتجت أمريكا ثلثي النفط في العالم،

ومثل النفط فيها ثلث إمدادات الطاقة و10٪ فقط للمجتمعات الصناعية الأخرى مثل أوروبا واليابان. كما ارتفعت ملكية السيارات الأمريكية من 40 مليون سيارة في عام 1950 الى 213 مليونا في عام 2000، فارتفع استهلاك النفط من 6.5 مليون برميلا في اليوم الى ذروة 20 مليون برميلا. خلال العقود نفسها، انفقت الحكومة الفدرالية 370 مليار دولارا لتغطية احتياجات البلاد لما يقرب من 46000 ميلا من الطرق السريعة بين الولايات، ممّا سمح باستبدال السيارات والشاحنات لتحلّ محلّ نظام السكك الحديدية القديم وزيادة ضرورة توفير الوقود. ونتيجة لذلك، ظلت الولايات المتحدة هي الدولة الرئيسية في العالم كمصدر لانبعاثات ثاني أوكسيد الكربون طوال القرن العشرين. تشير الإحصائيات أنّ 36٪ من الاجمالي كان في عام 1900 و48٪ في عام 1950 و24٪ في عام 2000[86].

لدفع النظام الإقتصادي القائم على الكاربون في النظام العالمي لواشنطن، كانت هناك زيادة كبيرة لخمسة اضعاف في الإستهلاك العالمي من سوائل الوقود الأحفوري خلال النصف الأخير من القرن العشرين. واصل عدد السيارات والشاحنات في جميع انحاء العالم بالصعود، ومعه ارتفع النفط الخام من 27٪ من الإستهلاك العالمي للوقود الأحفوري في عام 1950 الى 53٪ بحلول عام 1973، متجاوزا الفحم، ليصبح المصدر الرئيسي للطاقة في العالم. لمواجهة هذا الطلب بلا هوادة، فإنّ حصة الشرق الأوسط من انتاج النفط العالمي ارتفعت من 7٪ في عام 1950 الى 40٪ في عام 1973. بحلول ذلك الوقت، وصل عدد السيارات في أمريكا الى 100 مليون سيارة وتجاوز الطلب على النفط من الإنتاج المحلي فازدادت الواردات بنسبة 36٪ لتوفير الإحتياجات. يمثل النفط حوالي 46٪ من إجمالي احتياجات الطاقة في الولايات المتحدة و60٪ في أوروبا الغربية و73٪ في اليابان. جعلت هذه التبعيّة المتزايدة واشنطن أن تنصّب نفسها وليّا على منطقة الخليج الفارسي، وبموجب مبدأ كارتر لعام 1980، تولت واشنطن تأمين احتياطات النفط الهائلة في تلك المنطقة، والتي تصل الى نسبة 63٪ من الإجمالي العالمي. كان ذلك ولا يزال من خلال

حروب لا نهاية لها في الشرق الأوسط، بدأ بحرب الخليج لعام 1990 ومن خلال تدخلها المستمرّ في العراق.[87] ومع ذلك يبدو أنّ مثل هذه التدخلات في البحث عن الطاقة قد غذّت التقلبات المستمرّة في الشرق الأوسط.

سواء كان التفاوض على اتفاقيات أمنية متبادلة ومغازلة ملوك الشرق الأوسط وأمرائه أو تشكيل إجماع في الأمم المتحدة، فإنّ الدبلوماسية قد أكملت القوّتين الإقتصادية والعسكرية لتصبح عنصرا ثالثا مهمّا في مجموعة أدوات واشنطن من القوّة العالمية. مع تقدّم حركة إنهاء الإستعمار طوال فترة الحرب الباردة، كان على إدارة آيزنهاور تطوير نظام جديد في شكل من اشكال الهيمنة العالمية، ليحلّ محلّ تعاون الإمبراطورية مع النخب المحلية من الزعماء والمهراجا والقادة الوطنيين المتعاونين وهم بمناصب رؤساء أو رؤساء وزارات. منذ نشأته، لم يضع النظام الأمريكي الجديد في السلطة مجرّد بدائل أو عملاء، بل سمّاهم حلفاء، حتى لو كانوا في مواقف ضعيفة، لتعظيم صورة مصالحهم الوطنية. لإدارة مثل هذه التحالفات المثيرة للجدل، لجأت واشنطن الى مرهم المساعدات الخارجية ولسعة العمليات السرية[88] The Salve of the Foreign Aid and the Sting of the Clandestine Operations.

شكلت العمليات السريّة العنصر الرابع والأخير لقوّة العالم الأمريكي خلال الحرب الباردة. من خلال مراقبة وكالة المخابرات المركزية في القارات الخمس، تلاعبت واشنطن في الإنتخابات وعزّزت الإنقلابات لتأكيد أنّ القادة الوطنيين الى جانبها، وسيبقى الستار الحديدي ممتثلا لتلك "النخب التابعة" وودودا معها.[89] نتيجة لذلك ومنذ تأسيسها عام 1947، أصبحت وكالة المخابرات المركزية آلية حاسمة لحلّ التناقض الكامن في صميم نظام واشنطن العالمي. كيف يمكن للولايات المتحدة أن تتدخّل في الشؤون الداخلية للدول المستقلة وتمارس هيمنتها العالمية دون أن يُنظر اليها على أنّها تنتهك سيادة تلك الدول، التي لا يجب أن تُنتَهَك بموجب ميثاق الأمم المتحدة؟

كان الجواب هو القيام بذلك سرًا باستخدام وكالة، على الأقلّ من الناحية النظرية، تمتلك أدوات لا يمكن تتبّعها للمساس بشكل غير مرئي بسيادة عدد لا يُحصى من الدول. في بداية الحرب الباردة، كان جورج كِنَنْ وزيرا للخارجية ومهندسا لستراتيجية الإحتواء المناهضة للسوفيت في واشنطن. صاغ الكشف عن التوجيه NSC 2/10—، لمواجهة "القوّة الكاملة للكرملين وخوض الحرب السياسية معها." كما كتب، "يجب أن تحشد الولايات المتحدة مواردها للحروب السياسية السرّية... من خلال وضع المسؤولية عنها ضمن هيكل وكالة المخابرات المركزيّة." لتوسيع عمليات الوكالة الى ما أبعد من وظيفتها الإستخباراتية الأصلية، شكّل مجلس الأمن القومي مكتب تنسيق السياسات OPC داخل الوكالة للقيام بنطاق واسع من مجموعة من الأنشطة السريّة، لا سيّما "التخريب ضدّ الدول المعادية وحماية البلاد من خلال مكافحة التخريب الخارجي والهدم وإجراءات الإخلاء، بما في ذلك مساعدة حركات المقاومة السرية والمقاتلين الأجانب وجماعات تحرير اللاجئين." على مدى السنوات الأربع التالية، نما جهاز OPC بسرعة من 302 وكيلا فقط الى 5954 وكيلا عملوا في 47 محطة تابعة لوكالة المخابرات المركزية في كافة انحاء العالم بميزانية قدرها 82 مليون دولارا في حينه. في نفس الوقت، الذي تمّ فيه وضع قوانين الحرب الخاصّة باتفاقيات جنيف والقانون الموحّد الخاص بالعدالة العسكرية، وفي توضيح بارز لهيمنة واشنطن، أُستُثني مكتب تنسيق السياسات OPC من أيّة قيود قانونية أو أخلاقية في تنفيذ مهامه السريّة.[90]

مع قيام الستار الحديدي في جميع انحاء أوروبا، كانت المهمة الأولى لمكتب OPC ذات شقّين. الأول، هو تعزيز المقاومة النشطة المناهضة للشيوعية في أوروبا الشرقية، والحدّ من النفوذ الشيوعي في بلدان غرب أوروبا. لمدة 4 سنوات وابتداء من عام 1949 جنّد مكتب OPC المئات من المنفيين من أوروبا الشرقية ودرّبهم على التجسّس وأنزلهم بالمظلات خلف الستار الحديدي. سواء في ألبَنيا ثمّ في پولندا ورومَنيا وروسيا البيضاء ويوكرَنيا، تمّ قتل هؤلاء جميعا

تقريبا بسرعة على أيدي الشرطة السريّة للكتلة السوفيتية العاملة بدون رحمة. على نقيض ملحوظ من هذا الفشل الذريع، بدا أنّ عمليات وكالة المخابرات المركزية في أوروبا الغربية في نفس الوقت كانت مذهلة. تمّ التصدّي لنشطاء الحزب الشيوعي لحرمانهم من الفوز المؤكّد في الإنتخابات الإيطالية عام 1948. وفي نفس الوقت تمت تغذية الإنقسامات بين الشيوعيين والإشتراكيين في فرنسا لإبعاد اليسار عن السلطة. في إطار عملية Gladio، قامت وكالة المخابرات المركزية بتضمين شبكات سريّة في داخل الدول عبر أوروبا الغربية، كانت مستعدّة لتعبئة الغوغاء أو كشف عمليات التسليح من المخابئ السريّة إذا هدّد الشيوعيون بالإستيلاء على السلطة.[91]



جورج كنّن مدير التخطيط السياسي لوزارة لخارجية عام 1947 (Credit: Library of Congress)

مع تأمين أوروبا بحلول أوائل خمسينات القرن الماضي، طبّقت وكالة المخابرات المركزيّة تقنيات مماثلة للمساعدة في صعود القادة المحليين المُمتثلين لأوامرها في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. بين الأعوام 1945 لغاية 2000، تدخّلت الولايات المتحدة في نتائج 81 عملية إنتخابية في جميع أنحاء العالم، بما فيها 8 مرّات في إيطاليا و5 مرّات في اليابان، وغيرها الكثير في أمريكا اللاتينية.[92] بين الأعوام 1958 و1975 جرى العديد من الإنقلابات العسكرية برعاية أمريكية ونجم عنها تغيّير الحكومات في 30 دولة، ربع الدول الأعضاء ذات السيادة في الأمم المتحدة. تبّنت هذه موجة في الإتجاه العالمي نحو الديمقراطية الأمريكية![93]

خلال العقود الأولى من الحرب الباردة، إنتقد زعيم وطني بأنّ أمريكا يمكن أن تواجه انقلابا ترعاه وكالة المخابرات الأمريكية، والذي يتركه محتجزا مدى الحياة، كما في حالة إيران، أو المنفى، كما في فنزويلا أو التعذيب حتى الموت، كما حدث في الكونكو أو المغادرة والقتل في أحد شوارع العاصمة، كما حدث في فيتنام. بصرف النظر عن الإنقلابات، التي كان من الصعب تنظيمها في كثير من الأحيان، حاولت الوكالة الإغتيالات التي عادة ما أصابها الفشل، كما في الكونكو وكوبا. ولكن حققت في بعض الأحيان اهدافها، كما حصل في جمهورية الدومينيكن.[94] أكثر من أيّ جانب آخر من جوانب السياسة الخارجية، انتهكت تلك العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية بوضوح السيادة الوطنية المكفولة في ميثاق الأمم المتحدة، وأضفت غموضا لا يمكن حلّه لممارسة الولايات المتحدة لقوّتها العالمية.

إنعكست حتى أكثر المبادرات السياسية الخارجية لواشنطن إيثارا جوانب هذا الغموض. بينما اعطت خطة مارشل أوروبا 13 مليار دولارا لإعادة الإعمار بعد الحرب، كان على الدول المتلقية تقديم المكاتب الخارجية للخطة بمبلغ معادل للعملة المحلية، أي إنشاء ما اطلق عليه المراسل الصحفي يتم ويتّر

"مخطط عالمي لغسيل الأموال" Global Money-Laundering Scheme، سُمِح لوكالة المخابرات المركزية بالإستحواذ على ٪5 من تلك الأموال، بإجمالي 685 مليون دولارا لعملياتها السرّية. وبواسطة هذا المال، جنّدت الوكالة الأصول الأوروبية، وخلقت "حركات تحرير شاملة" وراء الستار الحديدي، وموّلت المناقشات ذات التوجّهات المحافظة بين المثقفين لتشكيل خطاب الجماهير مقابل تسليم "ثروات صغيرة" الى مجموعات عمالية يمينية ودفعت الأجور لرجال العصابات في نابولي ومرسيليا ليكونوا بمثابة مفسدي الإضرابات.[95]

ومع ذلك، فإنّ هذا السلاح السرّي أثبت تقريبا أنّه مزدوج وذو حدّين. خلال عقدها الأوّل، بدت التدخّلات السريّة لوكالة المخابرات المركزية وكأنّها انتصارات مذهلة، بما في ذلك التلاعب بالإنتخابات الإيطالية عام 1948 لصالح الديمقراطيين المسيحيين المعتدلين ضدّ الشيوعيين، واستبدال رئيس الوزراء الإيراني المناكف محمد مصدّق بعودة الشاه اللطيف، والإطاحة بالإشتراكي جاكوبو آربينز في گواتيمالا وحكومته لصالح نظام عسكري موثوق وثبيته. ومع ذلك ثبت أنّ الديمقراطيين المسيحيين في إيطاليا فاسدون وغير كفؤين على حدّ سواء. من جانب آخر، أثبت الشاه بأنّه مستبدّ بشكل وحشي ومصمّم على سحق التطلعات الديمقراطية، التي جسّدتها حكومة مصدّق بوضوح. وتطور جيش گواتيمالا ليقوم بأعمال إبادة قاتلة في جهوده لإخماد حركة الفلاحين الجياع الذين صودرت أراضيهم، التي كانت مصدر إلهام لإصلاحات آربنز المعتدلة. ومع ذلك بدت تلك الأعمال انتصارات في عيون واشنطن وتشجيعاتها. وهو ما أسماه المؤرّخ الدبلوماسي دَيفِد ميلن، "أوهام العالم المطلق الخالي من العواقب". وهي الأوهام التي سرعان ما أدّت بالوكالة الى محاولة الإطاحة بالحكومة الكوبية الراسخة بقيادة فيدل كاسترو بواسطة 1500 من المنفيين غير المُدرّبين، ممّا تسبب في كارثة ضخمة في السياسة الخارجية في خليج الخنازير. وحتى عندما كانت الجهود تبدو رائعة وتكتيكاتها نفعية على المدى القصير، فإنّ

العديد من العمليات السريّة لوكالة المخابرات المركزية على المدى الطويل، كانت ذات نتائج ستراتيجية كارثية لكلّ من الولايات المتحدة والمجتمعات الخاضعة لها. إنّ التدخّلات السريّة يمكن أن تغيّر الإتجاه السياسي للمجتمع عن طريق كسر التوازن السياسي الدقيق وإغراق الدول الضعيفة في حالة طويلة الأمد تتّسم بعدم الإستقرار والعنف المستشري. بسبب التكاليف الباهضة للوكالة وقدرتها الخفية المتراكمة، أطلق عليها مسؤول وزارة الخارجية كِنّن إسم "أعظم خطأ ارتكبته على الإطلاق."[96]

شنّ الحرب الباردة

إذا نظرنا اليها من خلال عدسة الحرب الفعلية، فإنّ الحرب الباردة للمفارقة كانت تاريخا حديثا للصراع الأكبر والأطول والأقلّ تدميرا. بينما كان التهديد بحدوث محرقة نوويّة حرارية قد منع القتال المباشر بين القوى العظمى المتنافسة، تحوّل الصراع الى سلسلة من الحروب البديلة، التي قسّمت بشكل فعّال 40 عاما من الحرب الباردة في ثلاث مراحل متميّزة. أوّلا، كان هناك سلاح نووي للمواجهة في أوروبا بين حلفاء واشنطن في الناتو وحلفاء موسكو في حلف وارسو بين الأعوام (1948–1962). بعد ذلك كانت هناك سياسة حافة الهاوية النووية، كما برهنت أزمة الصواريخ الكوبية، وشنّت القوى العظمى إثرها حربا بديلة في فيتنام بين الأعوام (1962– 1975). إتسمت المرحلة الثالثة (1975– 1989) بالقتل والصراعات المدمّرة في جنوب إفريقيا وأمريكا الوسطى وآسيا الوسطى. في كلّ مرحلة تالية، ونتيجة للتكاليف ومخاطر الجيوش الدائمة الهائلة، اصبحت القوّات التقليدية والنووية "ممنوعة"، فانفتح المجال للعمليات السريّة والحرب بالوكالة، التي بلغت ذروتها في أنكولا، حيث تقاتل العملاء الروس والأمريكيّون لمدة ربع قرن كامل دون مشاركة أيّ مقاتلين من القوى العظمى ذاتها في سوح المعارك.

خلال المرحلة الأولى من الحرب الباردة، انطلقت الجيوش الآلية عبر قلب أوروبا بوجود 150 فرقة من حلف وارسو لتواجه 25 فرقة منقسمة في حلف الناتو، وكلاهما مدعوم بأسطول من المدفعية والدبابات والقاذفات الستراتيجية والصواريخ المسلحة نوويًا.[97] للتعويض عن ضعفها في قوّات الصواريخ التقليدية، أنشأت واشنطن وطوّرت ترسانة نوية متفوّقة ضمّت 6800 رأسا حربيا مذهلا بحلول عام 1964، مقارنة بحوالي 500 رأسا نوويا لدى موسكو،[98] فأنتج هذا مفارقة خاصّة به. كانت الأسلحة النووية فعالة للغاية من حيث الدمار الذي يمكن أن تحدثه ممّا خفّض إمكانية استخدامها أبدا، وعني أنّ الحرب الفعلية اثناء ذلك قد تحوّلت الى حرب باردة والى القتال غير المباشر في سوح المعارك. حدث ذلك أوّلا في اليونان عندما ساعدت واشنطن الحكومة الملكية لهزيمة التمرّد الشيوعي وبعد ذلك في كوريا، حيث أنقذت قوّات الأمم المتحدة الجنوب الكوري من الغزو الشيوعي القادم من الشمال. حيث أنّ هذه الحروب المحدودة حملت في طيّاتها خطر تصعيد نووي خطير، فضّلت كلتا القوّتين العظيمتين تحقيق "النصر" في نقاط ضعف الآخر سرّا، مما جعل التجسّس والعمليات السريّة هي التي حدّدت ملامح التنافس العالمي.

أصبح لمجلس الأمن القومي في عهد الرئيس أيزنهاور، دور القيادة المركزية لخوض الحرب الباردة، واجتمع أسبوعيًا لتخطيط السياسة الخارجية لعالم سريع التغيّر. في ذات الوقت، كانت وكالة المخابرات المركزية تسدّد الضربات السريّة، التي أوصى بها المجلس المذكور وتأمين قوّة الدعم للعشرات من الدول الجديدة الناتجة عن نهاية الإستعمار. خلال فترة ولايته، التي استمرت 8 سنوات، أجرت الوكالة 170 عملية سريّة خاصّة داخل 48 دولة، على الجانب الأمريكي من الستار الحديدي.[99]

جاء العمل الأوّل الرئيسي عندما قامت وكالة المخابرات المركزية، بمساعدة المخابرات البريطانية، بإسقاط رئيس وزراء إيران بعد أن قام بتأميم

شركة النفط الأنكلو- إيرانية في عام 1951. من خلال القيام بتدبير التفجيرات الإرهابية وتحريك الغوغاء في العاصمة لإثارة الشعب ضدّ حكومة الدكتور مُصدّق، أعادت وكالة المخابرات المركزية الشاه الشاب عديم الخبرة وأبن للدكتاتور العسكري المخلوع، الى الحكم إثر الإنقلاب الذي نفذته. ساعدت المخابرات في تعزيز سيطرة الشاه من خلال إقامة أهمّ ما في حكمه من وحدات الشرطة السريّة الوحشية، السافاك، وتدريب مُنتسبيها على تقنيات التعذيب. وهذه واحدة من أولى العلامات على برنامج الوكالة للبحث السرّي في التعذيب النفسي، الذي من شأنه أن يخرق الإتفاقيات الدولية، والذي انتشر بين الحلفاء في جميع أنحاء العالم.[100] مع تنامي المعارضة ضدّ الشاه في السبعينات، كان السافاك يقوم بتعذيب المُنشقّين بقسوة، ممّا أدى الى إثارة احتجاجات الطلبة الإيرانيين في أوروبا ضدّ إساءة معاملة 50000 سجينا سياسيًا.[101] في مقابلة للشاه مع صحيفة لوموند الفرنسية تساءل الشاه، "لماذا لا؟ ألا يجب أن نستخدم نفس الأساليب، التي استخدمتموها أنتم الأوروبيّون؟ لقد تعلمنا طرق التعذيب المتطورة منكم."[102]

بعد أن أجبر المتظاهرون الغاضبون الشاه الإيراني على التنحّي عن السلطة عام 1979، إدّعى الشاعر رضا براهيني أنّ "نصف مليون شخصا على الأقل... قد تعرّضوا للضرب والجلد والتعذيب من قبل شرطة السافاك." كانت التهم موثقة بصور تشريح مروعة لجثث مشوهة. من خلال دعم حكم الشاه وشرطة مكافحة الشغب والإستجواب القاسي، قامت وكالة المخابرات المركزيّة بزعزعة استقرار إيران وأطلقت العنان لعملية سياسية سمحت في النهاية لصعود نظام إسلامي ثيوقراطي صارم. على الرغم من أنّ محللي الوكالة قد توصلوا الى استنتاج بأنّ نجاح إنقلاب عام 1953، الذي وضع الشاه في السلطة ثانية "كان في الغالب مسألة صدفة." ولا يزال هذا ما تسمّيه صحيفة نيويورك تايمز "مخطط سلسلة من مؤامرات وكالة المخابرات المركزية لإثارة الإنقلابات وزعزعة

استقرار الحكومات خلال الحرب الباردة."[103] من المعروف أنّ التواطؤ المتكرّر للوكالة في مثل أشكال التعذيب محظور بموجب المادة رقم 5 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. سلطت هذه السلوكيات الضوء على الإزدواجية الصارخة بين مبادئ واشنطن وممارستها للسلطة.

في غضون عام عقب الإنقلاب الإيراني إزاحت وكالة المخابرات المركزية حكومة گواتيمالا الديمقراطية، التي كانت تحاول اصلاح البلد والحدّ من انتشار الفقر في المناطق الريفية من خلال مصادرة الأراضي المملوكة لشركة الفواكه الأمريكية. بُثّت دعاية من محطة إذاعة قرصنة لخلق الوهم بأنّ قوة انقلاب صغيرة كانت في الواقع قوة من جيش المتمردين قد دفعت وكالة المخابرات المركزية لإزاحة الرئيس جاكوبو آربينز وإبعاده الى المنفى. أعقب ذلك قيام عدد من الدكتاتوريات العسكرية، التي من شأنها أن تحكم البلاد على مدى 30 سنة القادمة. مع تصاعد القمع العسكري واحباط الفلاحين جعلهم ينضمّون الى مجموعات حرب العصابات، فانغمس الريف في 36 عاما من الحرب الأهلية. كانت أكثر الأعوام دموية هي الفترة ما بين عامي 1982 - 1983، حين قاد الجنرال إفرين ريوس مونت المجلس العسكري بدعم من المساعدات العسكرية الأمريكية، حملة أدت لقتل 70000 شخصا من سكان الأرياف. وصفت لجنة الحقيقة في البلاد فيما بعد تلك الأعمال بأنّها "أعمال إبادة جماعية ضدّ مجموعة من شعب المايا،" وهم سكان البلاد الأصليين. بحلول الوقت الذي تمّ فيه التوقيع على اتفاق سلام رسمي عام 1996، دمر جيش گواتيمالا 460 قرية وشرّد مليون شخصا من الفلاحين وقُتل 200 ألف مدنيا. جرى كلّ هذا في بلد سكانه حوالي 5 ملايين شخصا فقط. مع تجذّر العنف في ثقافة البلد، ستبقى گواتيمالا خلال العقدين التاليين وما بعدهما، واحدة من الدول غير المستقرّة في العالم بمعدل قتل لا يُصدّق ووفرة من العصابات الإجرامية، التي يسيطر اعضاؤها البالغ عددهم 22000 شخصا على نصف أراضي البلد.[104]

بعد هذين النجاحين المُفترضين في إيران وگواتيمالا، أذنت واشنطن بحوالي 330 عملية سرّية أخرى من هذا القبيل خلال العقد المقبل، ممّا جعل وكالة المخابرات المركزيّة أن تصبح أداتها المفضّلة لممارسة القوّة العالمية. أولد النجاح الخطرسة وسرعان ما قابلت الوكالة خصمها عندما سحق فيدل كاسترو غزوها بقوّة من 1500 منفيًا كوبيا في منطقة الساحل في جنوب البلاد. كانت المهمّة محكوما عليها بالفشل، وهي السير لمسافة 60 ميلا في منطقة مستنقعات وعبر خليج عميق بدون قوارب الى معقل جبلي، حيث من المُفترَض أنّ الجماهير الكوبية ستلتفّ حول علم الغزاة. لم يصل المنفيّون أبدا الى الشاطئ. تمّ القبض على جميع الذين لم يُقتلوا. اغتناما للفرصة للخروج من عزلتها الجيوسياسية، كانت موسكو قد نشرت صواريخ نوويّة في الجزيرة القريبة من شواطئ أمريكا، ممّا جعل القوى العظمى على شفا حرب نووية ساخنة.[105]

في اعقاب أزمة الصواريخ الكوبيّة، حوّل الطرفان منافسة القوى العظمى الى جنوب شرق آسيا وافتتاح المرحلة الدموية الثانية من الحرب الباردة. بين الأعوام 1963 و1975 سلحت القوى العظمى وكلائها الڤيتناميين من أجل صراع مستمرّ تجاوزت شدّته بكثير الأهمية الستراتيجية لذلك البلد الصغير. فشل 540000 جنديا أمريكيا في هزيمة الجيش النظامي لڤيتنام الشمالية ومقاتلي الڤيتكونگ في الجنوب. تأرجحت واشنطن من أجل الفوز الستراتيجي ونشرت وكالة المخابرات الأمريكية لإرهاب القرى الڤيتنامية الجنوبية من خلال برنامج **العنقاء** Phoenix Program، الذي اصبح في النهاية مسؤولا عن تنفيذ عمليات إعدام خارج القضاء طالت 40994 شخصا. لم تكن الوكالة فقط قاسية في استخدام التعذيب على نطاق واسع، لكنّها كانت أيضا غير كفوءة. في الواقع، وجدت دراسة للپنتگون أنّه خلال الفترة بين عامي 1970 و1971، قُتِل أو أسِر أو سُجن ما نسبته 3٪ فقط من المشتبه بهم، وكانوا اعضاء كاملي العضوية أو تحت الإختبار على مستوى المنطقة، وأكثر من نصف الڤيتكونگ المُفترَضين الذين تمّ

أسرهم أو قتلهم "لم يكونوا حتى من أفراد الحزب." كان أحد المحاربين القدامى في وكالة المخابرات المركزية أكثر انتقادا حين قال، "لم يحدث أبدا في تاريخ عملنا في ڤيتنام أن قبضنا على مسؤول عالي المستوى بين اعضاء الڤيتكونگ،" ممّا يثير احتمال أنّ برنامج العنقاء قد تمّ التلاعب به من قبل خدمات التجسّس المضادة للعدو في القضاء على الأشخاص المحايدين أو حتى من كانوا ضدّ الشيوعيين. في غضون ذلك، دمّرت القوّات الجوية الأمريكية ارياف ڤيتنام الجنوبية وجزء من شمال ڤيتنام بالقاء ما يقرب من 6.1 مليون طنّا من القنابل. ويعادل هذا 3 أضعاف إجمالي متفجّرات الحرب العالمية الثانية.[106] في الوقت الذي دخلت فيه قوّات ڤيتنام الشمالية والڤيتكونگ منتصرة عاصمة الجنوب في سايگون، قُتِل ما يقرب من 4 ملايين شخصا منهم مليوني مدنيّا و1.1 مليون جنديا ڤيتناميا شماليا ومن الڤيتكونگ. وخسر الأمريكيون وحلفاؤهم من جنود ڤيتنام الجنوبية 250000 قتيلا، بينهم 58000 من أفراد الجيش الأمريكي. ولا تشمل هذه الأرقام الخسائر الفادحة من الحروب السرّية الموازية التي كانت الولايات المتحدة تشنّها في تلك السنوات في كمبوديا ولاوُس المجاورتين.[107]

في جهد تكميلي في أماكن أخرى في جنوب شرق آسيا، أجرت واشنطن عمليّة دموية سرية ضد الحزب الشيوعي الإندونيسي PKI، وهو أكبر حزب في العالم خارج الستار الحديدي. شنّت الفصائل العسكرية المتنافسة انقلابا وانقلابا مضادّا في شهر تشرين الأول من عام 1965 في عاصمة البلاد. تعاونت وكالة المخابرات المركزية مع المخابرات البريطانية في بثّ دعاية لاذعة إتهمت مجموعة نسائية من PKI قد اختطفت وتمّ أسرها ورقص القادة العسكريّون وهم يشيدون بعنف اعضائهم المفصولين. أجّجت هذه المشاعر المُلتهبة الإصوليين الإسلاميين ووحدات من الجيش، التي بدأت في ذبح المُشتبه بهم من الشيوعيين. زوّدت السفارة الأمريكية الإنقلابيين بمعلومات شاملة وقوائم قادة PKI وعناوينهم، وبالتالي تشجيع المذابح التي أودت في النهاية بحياة ما يقرب

من مليون ضحية. (بالمناسبة، قامت السفارة الأمريكية في بغداد بنفس الدور خلال انقلاب البعثيين على حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم، والمجازر التي ارتكبت لتصفية الشيوعيين في ذلك الإنقلاب الدموي بتاريخ 8 شباط 1963- المترجم) أبرقت السفارة في جاكرتا الى واشنطن بأنّ قائمة كبار الشيوعيين التي قدّمتها "يتمّ استخدامها على ما يبدو من قبل سلطات الأمن الإندونيسية، التي يبدو أنّها تفتقر الى ابسط ما يمكن من المعلومات العلنية عن قيادة البنية التحتية للشخصيات العامة." وسط الإضطرابات التي واجهها الرئيس أحمد سوكارنو، أحد مؤسسي حركة عدم الإنحياز الجديدة للأمم التي سعت الى حلّ وسط خلال الحرب الباردة، أفزعت تلك الحركة واشنطن وأثارتها فأفسحت المجال لانقلاب الجنرال اليميني سوهارتو، الذي ظلّ حليفا موثوقا للولايات المتحدة للسنوات 32 القادمة. تمّ فضح عملية الإنقلاب الدموي هذه من قبل الصحفي ڤينسنت بيفنز، إذ قال "إنّ الجماعات اليمينيّة المتطرفة في جميع انحاء العالم بدأت تستمدّ الإلهام من (نموذج) جاكرتا، ممّا أدّى الى إطلاق برامج مشابهة، دفعت عدد القتلى في أمريكا اللاتينية الى مئات الآلاف."[108]

على مستويات متعدّدة، كانت حرب ڤيتنام نقطة تحوّل في سياسة العلاقات الأجنبية الأمريكية. مع ارتفاع التكالف الى 2 مليار دولارا شهريًا في ذروتها في واشنطن، أدّى هذا الى اختلال ميزان المدفوعات وبالتالي زعزعة الإستقرار، فأجبر الصراع إدارة الرئيس رچرد نِكسُن للحدّ من تكلفة سباق التسلح النووي من خلال الإنفراج مع السوفيت. بينما كانت واشنطن تهدر الموارد العسكرية على القتال البرّي في ڤيتنام، وسّعت موسكو نطاقها من مخزون الصواريخ العابرة للقارات من 400 الى 1500 صاروخا، ممّا أجبر مجلس الأمن القومي باعتراف المستشار هَنري كِيسنجَر بأنّ القوة العالمية للولايات المتحدة "تجاوزت حدودها في نقطة تاريخية عالية." في شهر مايس من عام 1972 وقّع الرئيس نِكسُن والزعيم برِژنيف على معاهدة مؤقتة بشأن الحدّ من الصواريخ المضادة

للصواريخ البالستية. كانت ترسانة موسكو تضمّ 1618 صاروخا وترسانة واشنطن 1054، وبالتالي انتهى بشكل فعّال سباق التسلح النووي. بحلول ذلك الوقت، كان الإتفاق الدفاعي للولايات المتحدة قد انخفض عند ذروة الحرب الباردة من 14٪ من الناتج المحلي الإجمالي الى 6٪ فقط، وسيبقى عند ذلك المستوى لما تبقى من ذلك العقد خلال حرب فيتنام.[109]

أدّى التوسع الإقتصادي في أوروبا واليابان خلال حرب فيتنام الى انخفاض قيمة الدولار الأمريكي المحتفظ بها في الخارج، والتي تجاوزت نظيرتها الأمريكية من مجموع احتياطي الذهب في واشنطن. في شهر آب من عام 1971 ولغرض وقف النزيف في سبائكها الذهبية، أعلنت إدارة نِكسُن أنّ وزارة الخزانة لن تستبدل الذهب بالذهب بعد الآن. مع البنوك المركزية في جميع أنحاء العالم، التي تمتلك مليارات الدولارات ولا تزال دول الشرق الأوسط البترولية تطالب بالدولار في تجارة النفط، لم يكن أمام العالم خيار سوى الإستمرار في استخدام الدولار باعتباره العملة الإحتياطية العالمية. في غضون عامين، حدثت تقلبات مستمرّة أجبرت تدفقات دولار واشنطن على التخلص من نظام برايتُن وودز الثابت في اسعار الصرف، وتعويم الدولار Float the Dollar مع التقلبات اليومية، التي يحركها السوق في القيمة، ممّا أدّى بشكل فعّال الى السيطرة على اسعار عملتها المالية في الأسواق العالمية. عنى تقارب الضعف الإقتصادي والعسكري المتنامي في أوائل السبعينات شيئا واحدا. وهو نهاية الهيمنة الأمريكية غير المُتنازع عليها عالميّا وظهور نظام دولي أكثر مرونة ويتّسم ببراعة ليكون الدبلوماسية المطلوبة للحفاظ على قيادة واشنطن العالمية.[110]

بمجرّد انتهاء حرب فيتنام في عام 1975، أدّى الإنفراج الى تقليص سباق التسلح بالطاقة النووية. وهي المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة، التي تميّزت بصدمة حرب بديلة في أمريكا الوسطى وجنوب إفريقيا بواسطة دمج المشاعر البدائية للدين والعرق مع قوّة تدمير الأسلحة الحديثة. أثبتت مثل هذه الحروب

الإقليمية أنّها وحشية بشكل غير عادي وتركت وراءها أراضٍ مُدمّرة. من وجهة نظر واشنطن، كانت تلك الصراعات غير مكلفة ماليا لم تتجاوز بضعة ملايين لتأمين البنادق الآلية والألغام، بدلا من عدة مليارات من الدولارات لسلاح الصواريخ النووية. طوال الثمانينات، كانت إدارة الرئيس رَيغَن تطلب من المخابرات المركزية تعبئة متمرّدي نيكَراگوا اليمينيين المنفيين المعروفين باسم الكونترا لشنّ غزوات عسكرية في ذلك البلد، سعيا لإسقاط نظامها اليساري، الساندِنيستا. في نفس الوقت، دعمت واشنطن الثورات القبلية ضدّ الحكومة الثوريّة في أنگولا على مدى عقدين من الزمن في حرب أهلية أسفرت عن مقتل نصف مليون شخصا وتشريد ثلث سكّان ذلك البلد، وزرع الأرياف بما يقدّر 15 مليون لغما أرضيّا. بينما كانت الولايات المتحدة متحالفة مع نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا في محاولته تدمير حركات التحرير في المنطقة، كانت الصين تبني دولة طموحة ومدّ خطّ سكة حديد بطول 2000 ميلا، وهو الأوّل من بين العديد من هذه الخطوط ضمن مشاريع المساعدة الأجنبية، التي من شأنها أن تُكسبها نفوذا استثنائيا في جميع أنحاء القارة. بحلول الوقت الذي انتهى فيه التدخّل السرّي لوكالة المخابرات المركزية في أنگولا عام 1990، كانت واشنطن قد انتصرت في الحرب الباردة وخسرت القارة بكاملها.[111]

حتى الدمار الذي لحق بأنگولا، كان باهتا بالمقارنة بالخراب الذي حلّ في افغانستان. غزا 30000 جنديا من الجيش الأحمر واحتلوا العاصمة كابُل في شهر كانون الأوّل من عام 1979. اقنع المستشار الأمني زبگنيو برجنسكي الرئيس كارتر بتخصيص مبلغ 500 مليون دولارا لتمويل عملية الإعصار، وهي حملة جيوسياسية جريئة لوكالة المخابرات المركزية لزعزعة استقرار الإتحاد السوفيتي من خلال إثارة الإسلام المتشدّد في داخل جمهوريات آسيا الوسطى. أوضح برجنسكي لاحقا، "لم ندفع الروس للتدخّل، لكنّنا زدنا بوعي كامل من احتمالية ذلك بدفعهم لفعله. كانت تلك العملية السريّة فكرة ممتازة، جرّت الروس الى الفخ الأفغاني."[112]



زبيگنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر عام 1977 (Credit: Library of Congress)

ومع ذلك، فإنّ المساعدة العسكرية الأمريكية للمقاتلين الإسلاميين، الذين كانوا عازمين على طرد الرّوس من بلادهم، ظلّ محدودا حتى شهر نيسان من عام 1985، حين وقع الرئيس رَيگَن أمرا سريّا لفعل ذلك "بكافة الوسائل المتوفّرة." سرعان ما ضاعف هذا التوجيه ميزانية الأسلحة السريّة لوكالة المخابرات المركزيّة هناك الى 350 مليون دولارا في السنة. بعد موافقة الرئيس على تسليم صواريخ ستِنگَر المحمولة التي تُطلق من الكتَف، استخدم المقاتلون الأفغان تلك الصواريخ الأرضية القاتلة لإسقاط 270 طائرة سَوفيتية في العامين الأخيرين من تلك الحرب. من خلال إنفاق ملياري دولارا فقط على مدى عقد من الزمن، دمّرت النسخة الأفغانية لخطة المخابرات المركزية من الحرب البديلة 995 مركبة مدرّعة سَوفيتية و745 طائرة وقتلت 15000 عسكريّا من افراد

الجيش الأحمر وسبّبت خسارة مالية للخزينة السوفيتية قدرها 96 مليار دولارا. وهي الظروف التي جاء فيها ميخائيل گورباتشوف الى السلطة، فأمر بوقف "الجرح النازف" في أفغانستان واضطر الجيش الأحمر الى الإنسحاب في حالة هزيمة.[113]

حين أوشكت الحرب السرية في افغانستان على الإنتهاء عام 1989، فشل التحالف الغربي في رعاية تسوية سلمية أو تمويل إعادة الإعمار من أيّ نوع، تاركا وراءه بلدا مُدمّرا فيه 1.5 مليون قتيلا و3 ملايين لاجئا واقتصادا خرابا وأمراء حرب مسلحين بشكل جيّد وعلى استعداد للقتال للحصول على السلطة في حرب أهلية من شأنها أن تزيد تدمير البلد لعقد من الزمن. دفعت تلك الظروف للأمام شابًا سعوديًا متشدّدا أسس تنظيما سمّاه القاعدة ليقود حملة إسلامية صليبية مدعومة من الولايات المتحدة ضدّ السوفييت، وتعين الآن إعادة النظر في مكان توجيه جهوده.

يعيد مسح الأراضي البور الخراب، التي خلفتها هذه الحرب وغيرها من الحروب السرية لوكالة المخابرات المركزية، الى الأذهان ما قاله مرّة الزعيم الأسكتلندي القديم كولگاكس ذات مرّة عن الإمبراطوريّة الرومانية بأنّها "تصنع الخراب وتسمّيه سلاما."[115]

في عام 1991 وقد انهكه سباق التسلح النووي والحرب الأفغانية ووصول إقتصاده الى حالة خراب، إنهار الإتحاد السوفيتي ببساطة، ممّا سمح لدول عددها 22 جمهورية كانت تدور في فلكه من الإفلات. على النقيض من ذلك، فإنّ الجيش الأمريكي أصبح عملاقا عالميا بوجود أكثر من 700 قاعدة في الخارج وقوّة جوّية قوامها 1763 مقاتلة نفاثة وأكثر من 1000 صاروخا باليستيًا وقوة بحريّة تضمّ ما يقرب من 600 سفينة حربية، بما فيها 15 حاملة نووية مستعدّة للمعركة، وجميعها مرتبطة بنظام الإتصال العالمي الوحيد.[116] بحلول ذلك الوقت، كان الدفاع العالمي يستهلك 4.5٪ من الناتج المحلي الإجمالي للبلاد، وهو ضعف المعدّل البريطاني في

ذروته.[117] على مدى السنوات العشرين التالية، تمتعت واشنطن بما وصفه وزير الدفاع جيمس ماتيس، "التفوّق المطلق أو المُسيطر في كلّ مجال للعمليات. يمكننا نشر قواتنا بشكل عام حسبما نريد وحيثما نريد وبالطريقة التي نرغب فيها."[118]

حين اصبحت الولايات المتحدة بعد الحرب الباردة القوّة العظمى الوحيدة في العالم، حذّر برجنسكي، المتخصص في الجغرافية السياسية المراوغة لأورآسيا، واشنطن ونصح بأنّها يجب أن تحرص على تجنّب 3 شروط يمكن أن تؤدّي الى تآكل قوّتها العالمية. أوّلا هو فقدان "مكانتها الستراتيجية بين الأطراف الغربية" في أوروبا. ثانيا، ظهور كيان واحد حازم في الفضاء الأوسط لأورآسيا." ثالثا، "الحرص على عدم طرد أمريكا من قواعدها البحرية في آسيا."[119]

بدأ إضعاف تلك "القواعد البحرية" بالفعل عام 1991، عندما أظهرت الفلبين أنّها غير مستعدّة لقبول التزام واشنطن الغامض للدفاع عنها، فرفضت تمديد عقد إيجار معقل الأسطول السابع في خليج سوبك. بينما قامت البحرية الأمريكية بسحب أحواض سوبك الجافة العائمة الى ميناء بيرل هاربر، تولت الفلبين المسؤولية الكاملة عن دفاعها وفشلت الى حدّ كبير في تمويل هذه المسؤولية. ونتيجة ذلك وبسبب اعصار هائج بعد 3 سنوات، احتلت الصين بعض المياه الضحلة في جزر سبراتلي فيما قد يكون محاولة أولى للسيطرة على بحر الصين الجنوبي وتحدّيا لاحقا لقوّة الولايات المتحدة في المحيط الهادئ. بدلا من من الدوريات الجوية والبحرية، أوقف الجيش الفلبيني عام 1998 سفينة امريكية صدئة عند سواحل آيونجين القريبة، التي اصبحت بمثابة قاعدة لفرقة من الجنود الحفاة، الذي أجبروا على صيد الأسماك للحصول على طعامهم.[120] في نفس الوقت وخلال تلك السنوات خضعت البحرية الأمريكية لتخفيض عدد سفنها السطحية وغواصاتها الهجومية بنسبة 40٪.[121]

بينما قلصت واشنطن وجودها العسكري العالمي بعد نهاية الحرب الباردة، توسّع نفوذها الإقتصادي بشكل ملحوظ خلال انتشار عملية العولمة. باتباع

ستراتيجية من مستويين لفتح العالم على تدفّقات رأس المال غير المضبوطة، ترأست واشنطن تشكيل منظمة التجارة العالمية متعددة الأطراف عام 1995. كانت في ذات الوقت أيضا تسعى الى اجراء مواز بعقد سلسلة من الإتفاقيات الثنائية، بدأ من التجارة الحرّة لأمريكا الشمالية (نافتا) مع كندا والمكسيك. لخلق مناخ لأعمال مثالية للشركات متعددة الجنسية، دفعت منظمة التجارة العالمية لإلغاء الضوابط المالية، وحماية براءات الإختراعات لشركات الأدوية الكبيرة Big Pharma، وإزالة القيود على المحاصيل الغذائية المعدّلة وراثيا. في نفس الوقت، ضغط البنك الدولي على السوق المفتوحة، "برامج التكيّف الهيكلي" بشأن تنمية الإقتصادات في جميع انحاء العالم، بما في ذلك الدول الإشتراكية السابقة في أوروبا الشرقية والدكتاتوريات العسكرية السابقة في أمريكا اللاتينية والدول الإفريقية الناشئة. بهذه الضربة القويّة، حطّم الإقتصاديون النيوليبراليون حواجز التعريفة الكُمركيّة في جميع انحاء العالم، ممّا ساعد على انشاء سوق رأسمالية موحّدة تغطّي العالم. في غضون ذلك، ارتفع الإستثمار الأجنبي الأمريكي ما يقرب من 10 أضعاف، من 700 مليار دولارا في عام 1990 الى 6.3 ترليون دولارا في عام 2014. في نفس الوقت، انفقت واشنطن مليارين دولارا للترويج لديمقراطية السوق الحرّة ونشر مدرّبي الديمقراطية" لتعزيز الثورات الملوّنة في الدول، التي كانت تدور في الفلك السوفيتي، إضافة الى رفع راية حقوق الإنسان لتبرير التدخّل المُسلح في كوسوفو والعراق وافغانستان.[122]

لغرض دمج هذا الإقتصاد العالمي سريع التوسّع، انفقت الشركات العديد من المليارات لبناء شبكة عالمية من كابلات الألياف الضوئية Fiber-Optic Cables. بحلول عام 2017 كان هناك 420 كابلا بحريّا تمتد لمسافة 700 ألف ميلا حول العالم. في الوقت ذاته، قادت الولايات المتحدة العالم في دوران ما يقرب من 1327 قمرا صناعيا لتحسين الملاحة الجوية والتنبؤ بالطقس وبث

التلفزيون[123] في بداية القرن الحادي والعشرين. وهكذا أصبح لواشنطن اقتصاد عالمي مفتوح ومعوّلم بالشكل الذي أرادته. وهكذا اخترقت الإصلاحات النوليبرالية الأمريكية شبكات التأمين الإجتماعي فتآكلت الهياكل التي كانت تحمي العمال النقابيين والشركات المحلية في جميع انحاء العالم. لقد أدت كلّ هذه الى تقليل جودة الحياة بالنسبة للكثيرين وخلق عدم المساواة على نطاق مذهل وإذكاء ردود فعل الطبقة العاملة، التي قد تنفجر في جيل لاحق في شكل شعبوبّة يمينيّة غاضبة. أبعد من تلك السياسات الإقتصادية، فشلت النّخب الأمريكية في صياغة رؤية مشتركة لتحلّ محلّ رؤية الحرب الباردة والإحتواء المناهض للشيوعية، ممّا قد ينتج عنه سياسة خارجية مجزأة من شأنها أن تؤدّي على مدى 30 عاما القادمة الى ما أسماه أحد المتخصّصين "التمدّد المفرط والإرهاق."[124]

الحرب على الإرهاب

توقف ذلك العقد الإستثائي للعولمة حين ضغط إبن لادن على زرّ الإرهاب بتاريخ 11 سبتمبر 2001. إختطف 19 شخصا من الأصوليين الإسلاميين، واغلبهم يحملون الجنسية السعودية، 4 طائرات ودمّروا برجي المركز التجاري في نيو يورك، واستخدموا الثالثة في ضرب مبنى البنتكون في العاصمة واشنطن. في اعقاب ذلك تحوّل مركز العمليات العسكرية الأمريكية لأوّل مرّة بعيدا عن المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ الى الشرق الأوسط. خلال عقد من الزمن غزت القوات الأمريكية أفغانستان في عام 2001 وغزت العراق في عام 2003 ثمّ "انسحبت" منه عام 2011. نقل الجيش الأمريكي تركيزه بعيدا عن الأسلحة الثقيلة لصراع الدول العظمى الى وحدات صغيرة لمكافحة عمليات الإرهاب. ثمّ في السنوات، التي تلت عام 2011 حافظ البنتكون على انتشار أصغر في افغانستان والعراق وسوريا في محاولة يائسة لتعزيز التوازن السياسي لحماية المصالح الأمريكية.

في الأشهر التي اعقبت هجمات 11 سبتمبر الإرهابية، اطلقت واشنطن ما سُمّي بالحرب العالمية على الإرهاب، وما رافقها من مزيج عدم انهاء التدخّل في افغانستان والغزو التقليدي للعراق. بدوره، انقلبت كلّ عملية سريعة من الإنتصار المفاجئ الى هزيمة طاحنة ومثبطة للروح المعنوية. لإسقاط نظام طالبان، الذي آوى أسامة بن لادن وإرهابيي القاعدة، استخدمت وكالة المخابرات المركزية طاقاتها لتعبئة أمراء الحرب ودعمهم باعداد ضخمة من الجنود وطائرات القوة الجويّة، مع وجود حفنة من وكلائها على الأرض لتوزيع الأموال واستدعاء الضربات الجويّة. حطّمت القنابل الأمريكية خطوط طالبان، بينما اجتاحت قوّات حلفائها من أمراء الحرب الأرياف واستولت على العاصمة كابُل بعد قتال زاد قليلا عن مدة شهر. على الرغم من أنّ طالبان عرضت الإستسلام، إلّا أنّ واشنطن وبفعل شعور الغطرسة الامبريالية رفضت التعامل مع من أسمتهم "المجرمين الهمجيين". ولكن بالرغم من صرف مليارات الدولارات والجهود الأمريكية اللاحقة لبناء الدولة، وجدت واشنطن نفسها وقد غرقت في مستنقع الفساد الأفغاني على مدى السنوات الخمس التالية، وبدأت طالبان ببطء الإستيلاء على اجزاء كبيرة من الأرياف. وممّا زاد في تعقيد المشكلة، أنّ واشنطن تجاهلت ازدهار تجارة الأفيون في البلاد خلال السنوات الأولى من الإحتلال، واصبح هذا هو المصدر المربح لتمويل عمليات طالبان لحرب العصابات المتزايدة. فضت الولايات المتحدة بعد ذلك 15 عاما وصرفت 9 ملياريات من الدولارات، لكنّ جهودها فشلت للسيطرة على انتاج الأفيون، وبالتالي تقليص نفوذ طالبان في الأرياف. بدلا من ذلك، ارتفع الحصاد بشكل كبير من 185 طنّا في عام 2001 الى 9000 طنّا بحلول عام 2017، ممّا وفّر ما يقرب من 90٪ من عرض الهيروين غير المشروع في اسواق العالم.[125]

لاحتواء التمرد المنتشر، اختارت الإدارة الجديدة للرئيس باراك أوباما "زيادة" القوّات فرفعت الولايات المتحدة قواتها لما يصل الى 100 ألف عسكريّا

لتسديد الضربة القاضية.[126] لكنّ أوباما أشار أيضا الى حدود التزام الولايات المتحدة بالإعلان عن موعد نهائي للإنسحاب بعد انهاء العمليات القتالية هناك في شهر كانون الأول من عام 2014. وسط ذلك الإنسحاب المقرر للقوات المتحالفة وخفض مواز للعمليات الجوية، شنّت طالبان هجمات جديدة أدّت الى مقتل اعداد قياسية في قوات الجيش والشرطة الأفغانية ونجحت المجموعة بشكل مفاجئ في الإستيلاء على الأرياف. بدت واشنطن مجبرة على التريث، تاركة حوالي 14000 جنديا مقاتلا فقط، وكانت مع ذلك غير قادرة على احتواء التقدّم الذي لا هوادة فيه لقوة مكوّنة من 60000 رجلا من المتمردين المحترفين، بدعم من آلاف المقاتلين بشكل جزئي. أخيرا قررت واشنطن تحت إدارة دونلد ترامب التخلي عن الجهود التي استمرّت 18 شهرا لتهدئة افغانستان. وقعت الحكومة على اتفاق سلام مؤقت في شهر شباط من عام 2020، جعل متمرّدي طالبان شركاء محتملين في حكومة إئتلافية، مع الموافقة على تخفيضات كبيرة في قوات حكومتها العسكرية، وهو اعتراف ضمني بالهزيمة في أطول حرب أمريكية. وبعد عام، تقدّم مقاتلو طالبان بلا هوادة واستولوا على الأرياف وهدّدوا المدن، فإعلن الرئيس بايدن ذلك بغض النظر عن العواقب، بأنّ الإنسحاب سوف يصادف الذكرى العشرين للعمليات الإرهابية في 11 سبتمبر.[128]

كانت تكاليف هذه الهزيمة الوشيكة باهضة بالفعل. خلال عقدين من جهود التهدئة الفاشلة ونشر 775000 جنديا أمريكيا في أفغانستان، تكبّدت الولايات المتحدة وحدها 2442 قتيلا ونحو 20000 جريحا. يُقدّر أنّه قُتل 170000 أفغانيا بينهم 47000 ضحية من المدنيين. وصل إجمالي التكاليف الأمريكية في هذا الصراع حوالي 2.2 ترليون دولارا في النفقات العسكرية وحدها. تساءل جفري إيجرز، وهو موظف في البيت الأبيض ومحارب قديم في البحرية الأمريكية، "ما الذي حصلنا عليه مقابل هذا الجهد البالغ ترليون دولارا؟ ماذا

حققت الحكومة في الحرب الأفغانية منذ عام 2015؟ بعد مقتل أسامة بن لادن، قلت إنّ أسامة ربّما كان يضحك وهو في قبره المائي ويفكّر في الكيفية التي انفقنا فيها الكثير على أفغانستان." بشعور مماثل من الأسف صرّح دَوكْلَس لوت، وهو جنرال بالجيش قام بإدارة سياسة الحرب الأفغانية لصالح بُش الإبن ومن بعده أوباما، "لم يكن لدينا فهم أساسي في افغانستان. لم نكن نعرف ماذا كنّا نفعل."[129]

تبيّن أنّ الاحتلال الأمريكي للعراق كان أكثر كارثية. على أساس من المعلومات الإستخبارتية الزائفة بأن النظام البعثي في بغداد على وشك الحصول على الأسلحة الذرية، غزت إدارة بُش الإبن ذلك البلد في شهر أذار من عام 2003 بقوّة ساحقة قوامها 177000 جنديا ومجموعة من التفوّق الجوي. استولت أمريكا على بغداد بعد 19 يوما فقط، وبتاريخ 1 مايس أعلن الرئيس جورج دبليو بُش، "المهمة أنجزَت."

تقريبا وبمجرد ابتهاج القوات الأمريكية بالإنتصار واسقاط تمثال صدام حسين في إحدى الساحات المركزية، بدأت المشاكل. بعد أسابيع فقط من وصول پول بريمر الى بغداد، وهو دبلوماسي متقاعد ليس لديه أيّة خبرة عن الشرق الأوسط، مارس عمله بسلطة غير عاديّة شبيهة بسلطة نائب الملك الإستعماري. كرئيس جديد، قضت سلطة الإئتلاف المؤقتة على الحكومة العراقية السابقة بجرّة قلمه. مع عدم وجود خطط واضحة لما يلي ذلك، أصدر الأمر رقم 1 في يومه الخامس في منصبه لتطهير جهاز الدولة من كافة كبار المسؤولين العراقيين المنتمين الى حزب البعث الحاكم سابقا. "بحلول مساء ذلك اليوم" حذّر رئيس وكالة المخابرات المركزية قائلا، "ستفقد سيارتك حوالي 30000 الى 50000 بعثيّا للعمل تحت الأرض. وستكون في غضون 6 أشهر آسفين حقا لمثل هذا العمل." ملوّحا على الفور بعيدا عمّا أسماه "بحر من الهمم" إنطلق بريمر الى الأمام، وطرد ما لا يقلّ عن 85000 مسؤولا عراقيا من

وظائفهم. أطلق القائد العسكري الأمريكي ريكاردو سانشيز على تلك السياسة لاحقا بأنّ القرار المذكور "فشل ذريع."[130]

متجاهلا تعليمات البيت الأبيض والنصائح العسكرية، أصدر بريمر القرار رقم 2، الذي هدف الى "حلّ جيش صدام وهياكل استخباراته للتأكيد على أننا نعني ما نقول." وبجرّة قلم أخرى سرّح 335000 شرطيًا و385000 عسكريًا بدون راتب أو مكافأة نهاية الخدمة أو معاشات تقاعديّة. أنشأ بريمر كادرا ضخما ممّا سمّاه تاريخ الحرب الرسمي للجيش الأمريكي "رجال عسكريّون متمرّسون وقد انقطع رزقهم فجأة."[131]

أحدث بيانا بريمر "موجات صادمة في جميع انحاء البلاد،" وقوبلا بمظاهرات غاضبة مناهضة لأمريكا" و"مواجهات عنيفة" بين جنود عراقيين سابقين وقوات التحالف. إنّ أولئك الذين تمّ تسريحهم من الجنود السابقين شملوا أيضا عددا لا يُحصى من الخبراء المُدرّبين، الذين يمكنهم الوصول الى الذخائر العسكريّة المُخبّأة ومعرفة كيفية صنع العبوات الناسفة والمميتة. بعد 3 أيام من صدور بيان بريمر رقم 2، قُتِل أوّل جندي أمريكي عندما انفجر أوّل هذه الأسلحة الجديدة تحت سيّارته. على مدى 10 سنوات القادمة، قتلت العبوات الناسفة 3100 جنديا أمريكيا وجرحت 33000 آخرين، بما في ذلك 1800 ممن بُترت أطرافهم. اضطر البنتگون لإنفاق 75 مليار دولارا لمنع وقوع قتلى بسبب سلاح رخيص كلفته تساوي ثمن البيزا! لقد أدى الأمران رقم 1 و2 الى انهيار شامل لأمن الدولة العراقية، أكثر بكثير ممّا قصده قادة الولايات المتحدة. ذكر "تاريخ الحرب الرسمي للجيش الأمريكي لاحقا بعد ذلك الفصائل بأنواعها بما في ذلك المتطرفين المُسلحين، الذين سارعوا لملّ الفراغ."[132]

في خضمّ انتشار التمرّد، اندلعت فضيحة التعذيب في سجن (أبو غرَيب) في شهر نيسان من عام 2004. بثّت محطة تلفزيون CBS صورا مزعجة للقوّات الأمريكية وهي تعذّب الأسرى العراقيين. وجدت التحقيقات اللاحقة أنّ إدارة بُش الإبن سمحت

لوكالة المخابرات المركزية بإحياء حربها الباردة واستعمال تقنيات التعذيب النفسي. (هذا وصف غير دقيق، لأنّ التعذيب الجسدي كان هو الشائع، واستعانت الوكالة بخبرة الإصدقاء في إسرائيل - المترجم). كانت تلك محاولات يائسة للحصول على معلومات استخباراتية لوقف هجمات العبوات الناسفة. كانت القيادة الأمريكيّة في بغداد قد سمحت ضمنا بمثل هذه الأساليب التكتيكية للحصول على معلومات استخباراتية. لقد أشعل هذا الكشف العلني عن التعذيب جذوة عقد من الزمن في تحقيقات الكونگرس، التي أظهرت وجود شبكة عالمية من السجون السرية امتدّت "من تايلند الى پولندا". وهناك تعرّض المُشتبه بهم الى تعذيب إرهابي مُمنهج بمثل جحيم دانتي Dante وانتهاكاته. هذه دعاية وتحقيقات وثقت قسوة التعذيب، واسقطت مطالبة الولايات المتحدة بالقيادة الأخلاقية للمجتمع الدولي.[133]

في غضون ذلك، غرق العراق في دوامة حرب عصابات مدنية استمرّت 4 سنوات تخللتها هجمات وحرب طائفية داخل الإسلام. كما انفجرت العبوات الناسفة داخل قوافل الجيش الأمريكي المقاتلة، وتجاوز عدد القتلى 1000 قتيلا في شهر أيلول من عام 2004. بمجرّد أن بدأ المتخصّصون الأمريكيون في مكافحة التمرّد وتدريب فرق الموت الشيعية، التي جابت الشوارع بإعداد طائفيين وعدد من المنهكين والمعذّبين، بلغ عدد الجثث الملقاة في شوارع بغداد 1100 جثة في شهر تموز من عام 2005. لإنقاذ وضع يائس، أرسل الرئيس بُش الإبن 21500 عسكريًا آخرين ليرتفع العدد الى 170000 عسكريًا. الى جانب 74000 عراقيا من المليشيا، التي حشدتها القيادة الأمريكية ونشرتها، أدّت هذه الزيادة الى استقرار الوضع مؤقتا، وهو ما كفى لتمكين عمليات الإنسحاب التدريجي للقوات الأمريكية حتى عام 2011. بحلول شهر كانون الأول من ذلك العام، بقيت فرقة صغيرة فقط تتكوّن من 700 مدرّبا للعمل مع الجيش العراقي.[134]

ومع ذلك وبعد 3 سنوات، تمّ إحياء تمرّد يكفي من المفارقات فيه، أنّه حدث داخل معسكر اعتقال أمريكي في العراق. رُفعت الرايات السوداء لتنظيم

الدولة الإسلامية واطيح بالجيش العراقي المُحبط، وهو الأمر الذي قامت به الولايات المتحدة وإعادة بناء صورته بتكلفة عدة مليارات من الدولارات. وسرعان ما استولى التنظيم على الثلث الشمالي من البلاد ومنطقة مماثلة في سوريا المجاورة. في هجوم مضاد، دمّرت الضربات الجويّة الأمريكية الهائلة مدن عراقية رئيسية مثل الرمادي والموصل والعاصمة الإقليمية السورية، الرقة، بينما قام تحالف من القوّات العراقية والمليشيات الشيعية المدنية، والعديد منها متحالفون مع الجارة إيران، وتقدّم بلا هوادة حتى خسرت الدولة الإسلامية آخر موطئ قدم لها في البلاد بحلول عام 2017. حوالي 18 شهرا بعد ذلك، قامت القوات السورية المدعومة من الولايات المتحدة بالإستيلاء على آخر مواقع الدولة الإسلامية في سوريا، وهزيمة حكومة الأمر الواقع، التي كانت لديها سيطرة بلغت في حجم ذروتها منطقة بحجم بريطانيا وجيش تعداده حوالي 100 ألف عنصرا. ومع ذلك فإنّ هزيمة الدولة الإسلامية بالكاد كانت نصرا. استمرت الحركة الإسلامية المتشدّدة في الإنتشار في جميع أنحاء بلاد الشرق الأوسط وشمال افريقيا (بمسمّيات جديدة). وعلاوة على ذلك وفي تلك السنوات، استغلت إيران المجاورة باعتبارها قلب الإسلام الشيعي، علاقاتها مع العراق بأغلبيته الشيعية، وحوّلت هذا البلد الى دولة عميلة إفتراضية. استولت على مواقع المخابرات المركزية الأمريكية المهجورة، وأعلنت سيطرتها على المليشيا الشيعية المقاتلة. كما عملت على تنشئة حلفاء في مجلس الوزراء ومغازلة السياسيين من رؤساء البلديات حتى رؤساء الوزارات.[135]

كما حدث في افغانستان، استنتج الجيش الأمريكي في دراسة له أنّ أداءه العام في حرب العراق كان كئيبا. قُتِل ما يقرب من 4500 جنديًا أمريكيا وجُرِح 32000 آخرون. أمّا تقديرات خسائر العراق، فتراوح عدد القتلى المدنيين من العمليات العسكرية الأمريكية ما بين 200000 الى أكثر من مليون ضحية. وصلت التكاليف المباشرة للحرب الى ما يقرب من 2 ترليون دولارا. بعد انفاق مليارات

لا حصر لها خلال عقد من إعادة الإعمار، كانت حملة القصف الأمريكية المبالية لهزيمة الدولة الإسلامية هي تدمير المُدن وتدمير بنيتها التحتية. خلص مسؤولو الجيش لتاريخ الحرب الى أنّ "جهود الولايات المتحدة... كانت غير فعّالة ومفككة وغير ناجحة في نهاية المطاف،" في المهمّة الحاسمة لإعادة بناء مجتمع مستقر. بعد أن دفعت الولايات المتحدة "تكلفة مذهلة" في الدّم والأموال، خلصت الدراسة الى أنّ "إيران تبدو أكثر جرأة وتوسعيّة."[136] بالنسبة للجيش، كانت الحرب في أفغانستان والعراق هزائم كئيبة، ولكن بالنسبة للعالم الأوسع، كانت علامة لا يمكن إنكارها بأنّ القوّة العسكرية الأمريكية لم تعد قادرة على تنظيم العالم كما تشاء. من الناحية الستراتيجية، وبحلول الوقت الذي أنهت فيه واشنطن عملياتها في العراق عام 2018، حققت أمريكا استقلالها في مجال الطاقة وانضم النفط الى الخشب والفحم، اللذين كانت ايامهما معدودة، ممّا جعل الشرق الأوسط الآن غير ذا أهمية من الناحية الجيوسياسية.

بينما كانت واشنطن تكافح لتقييد المنطقة الخاضعة للسيطرة من قبل حركات إسلامية متطرّفة مسلحة في أفغانستان والعراق وسوريا، بدأت الجماعات المتشددة في الظهور ما بين نايجيريا حتى الفِليبين. لغرض مواجهتها، شنّ الجيش الأمريكي ضربات مُنتظمة باستخدام طائرات بدون طيار وأرسل قوّاته للعمليات الخاصّة. كان لدى القيادة 69000 عنصرا من قوّات النُخبة المأخوذة من وحدات جيش الرّينجرز وفقمة البحرية Navy Seals، وتمّ نشر مغاوير القوّة الجويّة في 147 دولة، أي تغطية 75% من مساحة العالم.[137] بحلول ذلك الوقت، كانت القوّة الجوية ووكالة المخابرات المركزيّة قد طوّقت أوراسيا بشبكة من 60 قاعدة لترسانتها المتنامية من الطائرات المُسيّرة من نوعي Predator and Reaper Drones على طول الطريق من قاعدة سيكُنولا البحرية الجوية في جزيرة صقلية الإيطالية الى قاعدة أندرسُن في جزيرة گوام.[138] وبمدى طيران يبلغ 1150 ميلا وبكامل حمولتها من صواريخ هِلفاير، تستطيع طائرات ريبَر المُسيّرة من ضرب اهداف مكافحة الإرهاب في أيّ مكان تقريبا في

إفريقيا أو آسيا. للقيام بمهامها العالمية الموسّعة، خططت القوّة الجوية أن تكون لديها 345 طائرة ريبّر المسيّرة للخدمة بحلول عام 2021، وتكون 80 طائرة منها مخصّصة لاستخدام وكالة المخابرات المركزية."[139]

اصبح من الواضح تدريجيًا أنّ مثل هذه العمليات التكتيكية قصيرة المدى من إفريقيا الى جنوب شرق آسيا، قد عكست تحوّلا ستراتيجيًا واسعا في سياسة دفاع الولايات المتحدة اتجاه مجموعة عالمية أكثر انتشارا من القواعد العسكرية لتغطية كافة العالم لما بعد الحرب الباردة. تبنّى البنتاغون موقفا رشيقا Agile Stance عن طريق المواقع المشتّتة للعمليات الأمامية الصغيرة بأسلحة مثبّتة مسبقا لضربات مفاجئة ضدّ الجهات المارقة في أيّ مكان في القارات الخمس. بحلول عام 2009، كانت واشنطن قد عيّنت 305 ألفا من افراد الخدمة لإشغال 909 قاعدة عسكرية في الخارج، معظمها أصغر بكثير من المعاقل الضخمة، التي شُيّدت خلال الحرب الباردة.[140]

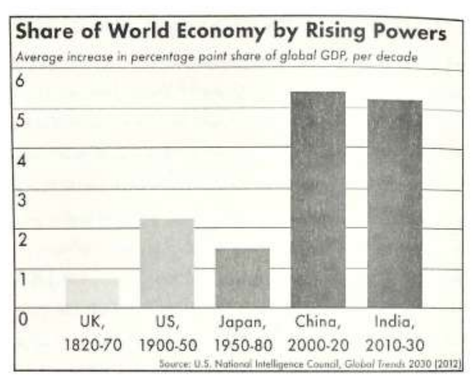
بحلول الوقت، الذي بدأت فيه الحرب على الإرهاب تقترب من النهاية، كانت القوّات الستراتيجية بالنسبة للدفاع الأمريكي في مدّ وجزر بين الأعوام 1998 – 2014. إنخفض أسطول البحرية من 333 سفينة الى 271، وهو انخفاض بنسبة 20٪، جنبا الى جنب مع التحوّل الى عمليات النشر طويلة الأجل في الشرق الأوسط. أضعِف موقع البحريّة في المحيط الهادئ بالإعتماد على اسطول أصغر وطواقم مُجهَدة بفعل ضغوط دوريّات الخدمة المستمرّة، فأضحت قيادة المحيط الهادئ القويّة في السابق غير مستعدّة لمواجهة ما هو غير متوقّع.[141]

صعود الصين

بعد عقد واحد فقط من تحذير برجنسكي بشأن مركزيّة أوراسيا بالنسبة للقوة العالمية للولايات المتحدة، بدأت الصين تعارض سيطرة أمريكا على الستراتيجية المتعلقة باليابسة Strategic Landmass. بينما كان الجيش الأمريكي غارقا في وحل الشرق الأوسط بالكامل بعد عقد من أحداث عام 2001، كانت بكين تحاول بهدوء

السيطرة على المزيد من تلك المساحة الشاسعة "الفضاء الأوسط" لإوراسيا، والمناورة لتحييد قواعد أمريكا في الخارج على طول ساحل المحيط الهادئ، ممّا خالف اثنين من شروط برجنسكي لاستمرار الهيمنة الأمريكية على العالم. حين انضمت الصين الى منظمة التجارة العالمية في عام 2001، كانت نُخب واشنطن السياسية المتخصّصة واثقة من أنّ بكين ستصبح عضوا متوافقا مع المجتمع الدولي. لم يكن يوجد وعي تقريبا بالتحوّلات الجيوسياسة الهائلة التي يمكن أن تحدث حين انضمّ خُمس البشريّة بالكامل الى النظام العالمي كمكافئ اقتصادي للمرّة الأولى منذ 3 قرون.[142] خلال 4 سنوات فقط، انتعشت الصين بآثار الفائض التجاري واحتياطات الدولار المتضخّمة، فارتفع الهمس بأنّها تتلاعب بالنظام العالمي من خلال التلاعب بالعملة والأجور المنخفضة.[143]

في العقد الذي أعقب الركود الإقتصادي الشامل لسنة 2008، إزداد ضعف الموقف التنافسي للولايات المتحدة إزاء الصين بشكل ملحوظ من خلال 3 مجالات شملت النواحي الإقتصادية والتكنولوجية والتعليمية. في ذروة ما يبدو أنّه القوّة العالمية لواشنطن عام 2012، حذّر مجلس الأمن القومي الأمريكي من صعود "منافس محتمل" للقيادة الأمريكية "بحلول عام 2030." ذكر المجلس أنّ "آسيا ستكون قد تجاوزت أمريكا الشمالية وأوروبا مُجتمعتين من حيث القوّة العالمية، اعتمادا على الناتج الإجمالي المحلي والإنفاق العسكري والإستثمار التكنولوجي. من المُحتمل أن يكون للصين وحدها أكبر اقتصاد متجاوزا اقتصاد الولايات المتحدة قبل سنوات قليلة من عام 2030." لتوضيح تراجع أمريكا وصعود آسيا، أوضح المجلس العملية التاريخية كما في الشكل التالي. طوال صعودها كقوّة عالمية بين الأعوام 1820 لغاية 1870، زادت بريطانيا حصتها من الناتج العالمي الإجمالي بمقدار 1٪ فقط لكلّ عقد، بينما ارتفعت أمريكا بنسبة 2٪ خلال صعودها من عام 1900 لغاية عام 1950. في مقابل ذلك، زادت الصين من حصتها في العالم بوتيرة غير عادية بلغت نسبة 5٪ بين الأعوام 2000 لغاية 2020.[144]



بينما كانت الصين تنمو بسرعة فائقة، كانت حصة الولايات المتحدة من الإقتصاد العالمي قد انخفضت بنسبة 40٪ في عام 1960 الى 22٪ بحلول عام 2016. وإذا استخدمنا المؤشّر الأكثر واقعية لتعادل القوّة الشرائية، الذي يقيس ما يمكن للمال أن يشتريه في الواقع في كلّ بلد، فإنّ شريحة أمريكا من الإقتصاد العالمي قد انخفضت بنسبة 15٪ فقط في عام 2019. إذا توقعنا ذلك الإنخفاض في المستقبل، ستكون حصة الولايات المتحدة 12.2٪ في عام 2030 و9.1٪ في عام 2040 و6٪ فقط بحلول عام 2050. باستخدام نفس المؤشّر، قدّرت شركة PricewaterhouseCoopers أنّ الناتج الإقتصادي للصين قد تجاوز بالفعل نظيره الأمريكي في عام 2014 وأنّه في طريقه ليصبح 40٪ بحلول عام 2030[145].

أطلقت بكين ايضا تحدّيا للهيمنة التكنولوجية لأمريكا، يحمل العلامة التجارية "صُنِع في الصين 2025" للتخطيط لتحقيق قفزة نوعية في مجال التكنولوجيا العالمية الرائدة في 10 صناعات رئيسية. بين هذه الفضاء والذكاء

الإصطناعي، وتكنولوجيا المعلومات والإتصالات السلكية واللاسلكية.[146] كما هو مبيّن في السباق للحصول على براءات الإختراع في جميع انحاء العالم، والريادة الأمريكية في الإبتكار التكنولوجي، كان من الواضح أنّ تلك الريادة في طريقها الى الزوال. بعد عامين من اجتياز الولايات المتحدة في عام 2011، تقدّمت الصين بطلب براءات اختراع وصلت 825000 طلبا مقارنة بطلب أمريكا البالغ 572000 طلبا فقط.[147] تمّ إيداع 3 ملايين طلب براءة اختراع في جميع انحاء العالم وشكّلت الصين منها 43٪ والولايات المتحدة 20٪ واليابان 10٪ فقط.[148]

اصبح ميدان الحوسبة الفائقة Supercomputing حاسما لكلّ شيء بدء من الكود في المنتجات الإستهلاكية. في عام 2010، تفوّقت وزارة الدفاع الوطني الصينية على البنتاغون في إطلاق أسرع كومبيوتر عملاق في العالم.[149] بعد 8 سنوات عادت الولايات المتحدة الى القمّة بعد إنفاق 200 مليون دولارا لبناء جهاز Summit الأسرع في مختبر أوكريج الوطني. في إشارة الى حدّة هذه المنافسة، لدى كلّ من بكين وواشنطن بالفعل خطط لبناء أجهزة كومبيوتر عملاقة اسرع بخمس مرّات على الأقلّ من جهاز Summit.[150]

واخيرا، كان نظام التعليم الأمريكي منذ فترة طويلة المصدر الحاسم في خلق العلماء والمُبدعين. غير أنّه بدأ يتخلف عن منافسيه أيضا. في عام 2012، اختبرت منظمة التعاون الإقتصادي والتنمية 510000 طالبا في سنّ 15 عاما من جميع انحاء العالم. جاء أولئك الموجودون في مدينة شنگهاي في المرتبة الأولى في الرياضيات والعلوم، بينما أحتل الأمريكيّون المركز 20 في العلوم و27 في الرياضيات. كما ذكرت منظمة التعاون الإقتصادي والتنمية أنّ الطلاب الأمريكيين "لديهم خصوصيّة ضعف في أداء مهام الرياضيات ذات المتطلبات المعرفية العالية، مثل... تفسير الجوانب الرياضية في مشاكل العالم الحقيقي."[151] بعد 3 سنوات، إتسعت تلك الفجوة عندما سقطت الولايات المتحدة الى حالة بائسة في الرياضيات وتدنّت الى مرتبة 39. بعد أنّ تمّ استهداف المليارات من المساعدات

الفيدرالية صراحة في اختبارات الأداء، ارتفعت النتائج الأمريكية قليلا الى المركز 36 في اختبار عام 2018. لكنّ الدرجات لا تزال متخلفة بحوالي 20٪ أقلّ من الطلاب الصينيين، الذين احتلوا مرّة أخرى المرتبة الأولى.[152] بحلول عام 2030 سيتخلص هؤلاء الطلبة البالغون من العمر 15 عاما من حقائب الظهر لحمل الكتب ويُصبحون جيل الصين الجديد من العلماء والمهندسين والقادة المتميّزين.

بحلول عام 2011، كان هناك عقد من النمو الإقتصادي بمعدل 10٪ سنويًا، سمح للصين بتكديس 3 ترليونات دولارا من احتياطات العملة غير المسبوقة، التي أوجدت إمكانية حدوث تحوّل جذري سريع في قوة التوازن العالمي.[153] نظرا لانغماسها اللامتناهي في حروب الشرق الأوسط، لاتزال واشنطن تكافح مبدأيا لفهم هذه الحقائق العالمية الجديدة ولا يزال ردّ فعلها بطيئا.

ستراتيجية أوباما الجيوسياسية

بعد تنصيب بَراك أوباما رئيسا عام 2009، كان المُستشارون والمقرّبون اليه من بين الأوائل في قيادة واشنطن الجديدة، الذين اعترفوا بوجود علامات تحدّ جيوسياسي خطير. حتى اثناء انجاز الكثير من اعماله الأولى، استهدف خروج الجيش الأمريكي ولو جزئيًا من منطقة الشرق الأوسط بعد أن أغرقت إدارة بُش الأبن المنطقة به من خلال حروبها هناك. كان لدى أوباما رؤية ستراتيجية طويلة المدى للنظر الى ما أسماه "محور آسيا". بعد الحربين الطويلتين في العراق وأفغانستان، "اللتين كلفتا غاليا دما وأموالا"، أعلن "أن تحوّل الولايات المتحدة انتباهها الى الإمكانات الهائلة لآسيا ومنطقة المحيط الهادئ، باعتبارهما موطن أكثر من نصف الإقتصاد العالمي."[154]

للتحقق من صعود الصين، طوّرت إدارة أوباما جوانب ستراتيجية حوّلت محور أصولها نحو آسيا وصاحبت ذلك بتقليص الإلتزامات العسكرية في الشرق الأوسط وخفّضت اعتماد البلاد على النفط المُستورد من المنطقة لتفادي

الحاجة الى مزيد من التدخّل في تلك المنطقة المُضطربة. رفض أوباما السياسة الراسخة وانسحب من دور الحارس الدائم للخليج العربي. سحب معظم القوات الأمريكية من العراق ورفض الإلتزام بالمزيد من العسكر لتغيير النظام في سوريا. أوضح مع انتهاء ولايته الثانية أنّ دول الشرق الأوسط "فشلت في توفير الإزدهار والفرص لشعوبها. توجد أيديولوجية عنيفة ومُتطرّفة. في الحقيقة هناك آيديولوجيات يتمّ شحنها من خلال وسائل الإتصال الإجتماعي." على النقيض من ذلك، فإنّ جنوب شرق آسيا "مليء بالأشخاص المكافحين الطموحين المتحمسين حيويّة في كلّ يوم لطرق أبواب الأعمال التجارية."[155]

تكملة للحدّ من اعتماد الولايات المتحدة على النفط الخام القادم من الشرق الأوسط، إلتزم أوباما بإبطاء تغيّر المناخ وتشجيع التكسير الهايدروليكي Hydraulic Fracturing or Fracking في رواسب الصخر الزيتي في الولايات المتحدة. وهي الصناعة التي نمت خلال ولايته في تلك السنوات ممّا أكسب البلاد لقب "السعودية الأمريكية،" وهو أمر مثير للسخرية. في سلوك ملحوظ مخالف لسلفه، تميّزت ولاية أوباما بمبادرات كبرى تتعلق بالإحتباس الحراري، بما في ذلك زيادة في معيار وقود السيارات لقطع مسافة 55 ميلا للگالون الواحد بحلول عام 2925. كما تحققت صفقة بين الولايات المتحدة والصين بشأن الإنبعاثات واعتماد اتفاقية الأمم المتحدة بشأن تغير المناخ لعام 2015 وإطلاق خطة الطاقة النظيفة لخفض انبعاثات الكاربون. بحلول عام 2016 انخفضت تلك الإنبعاثات الى أدنى مستوى لها منذ 25 عاماً، وصاحبها صعود طاقة الرياح والطاقة الشمسية المتجدّدة بحيث وصلت الى 7٪ من توليد الكهرباء في الولايات المتحدة. ومع ذلك لا يزال الوقود الأحفوري والنووي يؤمنان 85٪ من حاجة البلاد الى الطاقة الكهربائية. وهو ما يترك قدرا كبيرا من المجال للتقدّم في هذا الجانب.[156]

لتجنّب الحاجة الى مزيد من التدخّل العسكري في الشرق الأوسط، خفّضت الولايات المتحدة وارداتها من النفط الصافي من 11.1 مليون برميلا يوميّاً

الى 2.3 مليون برميلا فقط، ممّا عني أنّ 16٪ من هذا المجموع يأتي من الخليج الفارسي. بناء على هذه المكاسب، أصبحت أمريكا مصدرا للنفط الصافي في أمريكا الشمالية منذ 70 عاما. ويرجع الفضل في ذلك جزئيا الى انتشار عمليات التكسير الهايدروليكي.[157] لم يعد الإقتصاد الأمريكي في نهاية ولاية أوباما بحاجة الى الشرق الأوسط. كما سحب أوباما قواته من افغانستان والعراق وبدأت واشنطن إعادة بناء سلسلة القواعد العسكرية والتحالفات الستراتيجية على طول الساحل الآسيوي. في شهر مارس من عام 2014، تمّ نشر كتيبة كاملة من مشاة البحرية الأمريكية في ميناء داروين على بحر تيمور في أستراليا. وهو موقع جيّد للوصول الى مضيقي لومبوك وسوندا الستراتيجيين المؤدّيين الى بحر الصين الجنوبي. بعد 5 أشهر وقعت الدولتان على اتفاق للسماح للقوات والبواخر الأمريكية للرسو في ميناء داروين.[158]

الى الشمال وفي شهر شباط من عام 2016، أكمل الكوريّون الجنوبيون منشأة في جزيرة جيجو بين ذلك البلد واليابان، ممّا منح البحرية الأمريكيّة الوصول الى ميناء ستراتيجي على بحر الصين الشرقي. كما وقعت واشنطن اتفاق دفاع معزّز مع الفلپين، سمح باستخدام عدة قواعد عسكريّة تطلّ على بحر الصين الجنوبي.[159] بالإقتران مع ذلك، اعادت واشنطن بناء 8 قواعد جوية وبحرية لها في اليابان، وفعّلت سلسلة من جيوبها العسكريّة على حافة آسيا.[160] كما خطّط البنتگون الى أنّه بحلول عام 2020، "سيتمّ توجيه 60٪ من أصولنا البحرية في المحيط الهادئ، جنبا الى جنب مع غلبة مماثلة لمقاتلات القوّة الجويّة وقاذفات القنابل، التي سيتم تعزيزها بالقدرات الفضائية والإلكترونية."[161] بواسطة تعزيز التحالفات الثنائية طويلة الأمد، اتخذت إدارة أوباما الخطوات الأولى عسكريّا نحو إعادة بناء موقع المحور الأمريكي على ساحل المحيط الهادئ، الذي كان لفترة طويلة مركزا للسيطرة على مساحة اليابسة الشاسعة في أوراسيا.

بينما كانت واشنطن تسفك دمائها وتهدر أموالها في رمال الصحراء، كانت بكين تستثمر الكثير من فائضها التجاري المتراكم في اندماج "جزيرة العالم" من إفريقيا وآسيا وأوروبا في القوّة الإقتصادية. إعتمادا على احتياطاتها من العملات، التي تبلغ الآن 4 ترليونات دولارا، استثمرت الصين بحلول عام 2015 ما مقداره 630 مليار دولارا في مشاريع البُنية التحتية الأجنبية بموجب ما أطلق عليه "مبادرة الحزام والطريق،" الى حدّ كبير ضمن ذلك الثلاثي القاري.[162] من خلال ترليون دولارا أخرى، من المتوقع أن تضاعف الصين من استثماراتها وتجارتها السنويّة مع إفريقيا الى 222 مليار دولارا، أي 3 أضعاف مجموع استثمارات أمريكا في تلك القارة. بسبب المتطلبات الأهلية الصارمة، فشلت مبادرات التنمية الصغرى لواشنطن في إفريقيا الى حدّ كبير، وتوقفت الصادرات غير النفطية للقارة الى الولايات المتحدة عند حدّ 4.1 مليار دولارا.[163]

طوال فترتي ولايته، سعى أوباما مع ذلك الى الموازنة الستراتيجية، التي استهدفت تقسيم جزيرة بكين العالمية اقتصاديا عند جبال الأورال. جرى ذلك بواسطة اتفاقيتين تجاريتين من شأنهما أن تعطيا تفضيلا للولايات المتحدة للوصول الى نسبة 60٪ من الإقتصاد العالمي. على طول المحور الشرقي لأوراسيا، إستثنت معاهدة الشراكة عبر المحيط الهادئ TPP الصين، وكان ذلك حجر الزاوية في ستراتيجيته لجذب تجارة أوراسيا نحو أمريكا، وجعل "مبادرة الحزام والطريق" لبكين صدفا أجوف Hollow Shell. باستثناء الإتحاد الأوروبي، تمّ تصميم معاهدة TPP لدمج اقتصادات 11 أمّة في حوض المحيط الهادئ[164] شكّلت 40٪ من الناتج العالمي الاجمالي.

ومع ذلك، واجه مخطط أوباما معارضة شرسة من داخل حزبه، إذ انتقده الزعماء الديمقراطيون بشدة لإجراء المفاوضات السريّة واعتماد لجان التحكيم المُغلقة والتدهور المحتمل للعمالة وقوانين البيئة التي غطتها المعاهدة المذكورة.[165] لمواجهة مثل هذا النقد الشديد، كان على الرئيس أوباما أن يعتمد

على اصوات الجمهوريين لكسب موافقة مجلس الشيوخ بسرعة "لاستكمال الجولة الأخيرة من المفاوضات. كان من شأن تلك المعارضة في نهاية المطاف منع التصديق على الإتفاقية قبل تركه المنصب."[166] لسحب المحور الغربي لجزيرة الصين المُحتملة، واصل أوباما المفاوضات بشأن شراكة التجارة والإستثمار عبر الأطلسي مع الإتحاد الأوروبي، الذي كان اقتصاده البالغ 18 ترليون دولارا هو الأكبر في العالم، وتمثل بنسبة 20٪ من الناتج العالمي الإجمالي.[167] بصرف النظر عن الإلغاء المتعلق بالضرائب والتعريفات القليلة المُتبقية، سعت هذه المعاهدة الى تحقيق تكامل إقتصادي أفضل بين أوروبا وأمريكا من خلال مواءمة تنظيمية أوثق كان يمكن أن تُضيف 240 مليار دولارا الى تجارتهما السنويّة. ومع ذلك، فإنّ معارضة أئتلاف 170 منظمة من منظمات المجتمع المدني الأوروبية قد عبّرت عن الإحتجاج ضدّ المعاهدة، التي ستنقل السيطرة على تنظيم سلامة المُستهلك والبيئة والعمل في الدول الديمقراطية، الى هيئة التحكيم المغلقة للشركات. وقد أدت تلك المعارضة الى أبطاء تبني الإتحاد الأوروبي وترك المعاهدة بدون تصديق حتى انتهت ولاية أوباما.[169]

أخيرا وفي حملة دبلوماسية شخصيّة، أساءت وسائل الإعلام فهمها على أنها رحلة عاطفية وتودّد قويّ من جانب أوباما للدول الأفريقية بعقد مؤتمر قمّة في البيت الأبيض لأكثر من 50 من الزعماء الأفارقة والقيام بزيارة لدول شرق إفريقيا.[170] وكما هو معتاد في تجليات البصيرة الشائكة Barbed Insight، حدّدت صحيفة تايمز العالمية في بكين الهدف الحقيقي لدبلوماسية أوباما بشأن إفريقيا واعتبرته "موقفا لمقاومة تأثير الصين المتزايد في تلك القارة ومحاولة لاستعادة النفوذ الأمريكي السابق فيها."[171]

بحلول الوقت، الذي غادر فيه أوباما منصبه، ظلت سياسته الستراتيجية الكبرى لمراقبة الصين غير مستوفاة الى حدّ كبير. من ناحية أخرى، استمرّت العمليات العسكرية ضدّ الاصوليين الإسلاميين في العراق وافغانستان بشكل بطيء، وكذا محوره العسكري المُميّز. في غضون ذلك، اندلعت ثورات شعبيّة

ضدّ العولمة الإقتصادية في الداخل والخارج ومنعت التصديق على الإتفاقيات التجارية المحوريّة في تصميمه الجيوسياسي.[172]

سياسة ترامب الخارجية

بفعل رفض مبادرات أوباما التجارية وانخفاض التأييد الشعبي له، عكست الدبلوماسية التخريبية لخليفته الإتجاهات العالمية الأوسع، التي زعزعت الأسس الإقتصادية للنظام العالمي لواشنطن. خلال ربع قرن من العولمة المتسارعة التي جاءت مع نهاية الحرب الباردة، وتهجير العمال ورجال الأعمال المحرومين، بدأ العالم التعبئة السياسية لمعارضة النظام الإقتصادي للشركات المتميّزة، والنخب الإقتصادية قبل كلّ شيء. كانت السرعة المذهلة التي تزامنت مع طبقات الناشئة المهمّشين، قد اكسب جيلا من القادة الشعبويين النفوذ عن طريق التصويت لهم. وغالبا ما استغل هؤلاء المعروفون بتصرفاتهم العنيفة أو الخبيثة، مخاوف الجماهير بشأن التكاليف الإجتماعية للعولمة.

نمت المشاعر المناهضة للعولمة بشكل كبير من بضعة آلاف من المُتظاهرين اليساريين المحتجّين على مؤتمر التجارة العالمية في سياتل عام 1999. تطوّرت التظاهرات الى غضب أوسع بين صفوف الطبقة العاملة، الى حدّ كبير على الجانب الأيمن من الطيف السياسي بعد عقد من الزمن. بحلول منتصف عام 2016، إعتقد 19٪ فقط من الأمريكيين الذي شاركوا في إستطلاع للرأي بأنّ التجارة تخلق المزيد من فرص العمل، على الرغم من أنّ الدراسات الإقتصادية العديدة قد أظهرت خلاف ذلك. وجدت دراسة استقصائية للرأي العام في 44 دولة أنّ 26٪ فقط من المشاركين قالوا إنّ التجارة تخفّض الأسعار. إضافة الى تلك الشكوك، ألغت الواردات الصينية 2.4 مليون وظيفة أمريكية بين الأعوام 1999 و2011 بسبب إغلاق مصانع الأثاث في ولاية كارولاينا الشمالية ومصانع الزجاج في ولاية أوهايو، ومصانع قطع غيار السيارات والصلب عبر ولايات الغرب الأوسط

الأمريكية. في معظم الصفقات التجارية في العقود الماضية، كان هناك تبادل متوازن بين الدول الصناعية. غير أنّ قبول الصين غير المسبوق في منظمة التجارة العالمية في عام 2011، عنى أنّ دولة نامية يتمتع اقتصادها بقوّة عاملة هائلة بإمكانها الوصول الى الأسواق المفتوحة في أوروبا والولايات المتحدة، ممّا أدى الى المحو السريع لعدد لا يُحصى من وظائف المصانع. دفع الأمر الدول في جميع انحاء العالم مجتمعة فرض ما مجموعه 2100 قيدا على الواردات لوقف نزيف فقدان الوظائف. بدأت التجارة العالمية تباطأ ثمّ انخفضت خلال الربع الثاني من عام 2016. وهي المرة الأولى التي حصل فيها مثل هذا الأمر خلال فترة النمو الإقتصادي منذ الحرب العالمية الثانية.[174]

في جميع أنحاء أوروبا فاز مرشحو الأحزاب القومية المتطرّفة مثل الجبهة الوطنية الفرنسية والفجر الذهبي لليونان والحزب البديل في ألمانيا وحزب الإستقلال البريطاني، من خلال تنمية ردود الفعل القومية لدى الناخبين بصدد مثل تلك الإتجاهات التجارية. في كثير من الأحيان، هوجمت العولمة الإقتصادية، التي اصبحت سمة مميّزة لنظام واشنطن العالمي. كان الرفض الأكثر وضوحا هو صوت الجمهور البريطاني الرافض للإندماج في شهر حزيران من عام 2016 والذي طالب بمغادرة بريطانيا للإتحاد الأوروبي. في نفس الوقت، فاز جيل من الديماگوگيين الشعبويين بالسلطة في الدول الديمقراطية إسميّا حول العالم، لا سيّما فِكتُر أوربَن في المجر وفلاديمير پوتين في روسيا ورجَب طيب أردوگان في تركيا وناريندرا مودي في الهند وورودريگو دوبتري في الفِليپين، وبالطبع دُونَلد ترامپ في الولايات المتحدة.[175]

في العقد الذي سبق تنصيب ترامپ، كانت هناك بالفعل دلائل على تراجع طويل الأمد للنفوذ العالمي للولايات المتحدة وجهودها المميّزة، وأنّ العولمة تواجه التحدّي في جميع أنحاء العالم. لم يقتصر الأمر على ما فعلت دبلوماسية إدارة ترامپ لتسريع هذا الإتجاه، لكنّها أيضا ألقت ضوء قويا على ديناميكيات

المسـار الهابط لنظام واشـنطن العالمي. ومـع ذلـك، فإنّ منطقـا مُعيّنا كامنا كـان تحت كـلّ الإضطرابات الدبلوماسية لإدارتـه. في كلّ عـام تـال، تحركـت سياسـة ترامب الخارجية في تمزيق العلاقات مع الحلفاء والـى مغازلـة مشـحونة للقـادة المُسـتبدّين، قبيل الإنزلاق الى مواجهة متقلبة مع الصين بشأن التجارة.

بعد تولي المنصب مباشـرة في شهر كانون الثاني من عام 2017، قلّص ترامب المحادثـات التجاريـة مـع أوروبـا وانسـحب مـن معاهـدة الشـراكة عـبر المحيـط الهـادئ TTP قـائلا، "سـنوقف الصـفقات التجاريـة السـخيفة، التـي أجريـت... شركات خارج بلادنا." [176] تخلى تماما عن ستراتيجية أوباما الجيوسياسية وإذا فشل في صياغة أخرى، فإنّ سياسـته الخارجية للمعـاملات سـوف تقلـص ببطء نفوذ واشنطن الدولي على مدى السـنوات الأربع التالية.

في شهر مايـس من ذلك العام، رفض ترامب نصيحة الحلفاء الأجانب المقرّبين إليه وأعلن انسحابه من اتفاقية باريس حول المناخ قائلا، "لا يمكن تصوّره أنّ اتفاقية دولية يمكنها أن تمنع الولايات المتحدة من إدارة شـؤونها الداخلية الخاصّـة." على مدى السنوات الأربع التالية، عكـس بشـكل منهجي جميـع الإجراءات التي تخـصّ التغيّرات المناخيـة لإدارة أوبامـا تقريبـا، ومنهـا إضـعاف معـايير وقـود السـيّارات، والتراجع عن قيود تسرّب غاز الميثان من آبار النفط وإزالة المتطلبات المفروضة على محطات توليد الكهرباء، التي تعمل بالفحم، لتقليل الإنبعاثات.[177]

بإنكـار ترامـب الشـديد لتغيّر المنـاخ، لـم يتخـلّ فقـط عـن دور أمريكـا الـدولي للقيـادة في هـذه القضـية الحاسـمة، ولكـن ايضـا منـع التـدابير الوقائيـة، التـي كـان مـن الممكـن أن تبطـئ الضـرر، وبالتـالي تحـافظ علـى دور واشـنطن القيـادي في النظـام العـالمي. مـدفوعا بالإسـتهلاك المسـرف للوقـود الأحفـوري، زاد مـن انبعاثـات الكاربون، الذي ارتفعت تركيزاته في الغلاف الجوي من 316 جزء في المليون عند بداية الهيمنة الأمريكية في الخمسـينات الى 400 جزء في المليون في عام 2015. ودفع هذا المستوى الى دعوة كاتب عالمي الى الإشارة بأنّ "خطا أحمر واضحا يشير الى

منطقة خطر تغيّر المناخ." إذا استمرّت مستويات الكاربون في الإرتفاع بهذا المعدّل، سيصل العالم الى 500 جزء في المليون بحلول عام 2070، ويعني رفع متوسط درجات الحرارة العالمية الى 3 درجات مئوية فوق مستوى الحرارة في عصر ما قبل الثورة الصناعة. وسيؤدي هذا الى ارتفاع خطير في مستويات سطح البحر والهجرات الجماعية للاجئي تغيّر المناخ وتدمير غابات الأمزون المطيرة.[178]

خلال رحلته الخارجية الأولى الى أوروبا، فضح ترامب الموقف التخريبي لسياسته الخارجية، التي من شأنها على مدى السنوات الثلاث المقبلة، أن تضعف موقف الولايات المتحدة في الأطراف المحوريّة لأوراسيا وفتح القارة لتوسيع نفوذ تأثير بكين. بدلا من الدعم الأمريكي المعتاد لاتفاقية النّيتو الأمنية، وبّخ ترامب الحلفاء الأوروبيين لفشلهم في دفع "عادل للتكاليف العسكرية ورفض بشكل واضح الموافقة على مبدأ الحلف الأساسي حول الدفاع الجماعي."[179]

تضمّنت جولة ترامب الأولى في آسيا في شهر تشرين الثاني استهداف منظمة التعاون الإقتصادي لآسيا والمحيط الهادئ APEC خلال لقاء فيتنام. قدّم فيه تناقضا صارخا بين رؤيتين متنافستين لنظام عالمي جديد وشجب باستمرار سلسلة مطوّلة من انتهاكات التجارة الخارجية باعتبارها لا شيء أقلّ من "العدوان الإقتصادي" على أمريكا. دعا الرئيس الجميع مشاركة "حلم الهند والمحيط الهادئ" بالعالم باعتباره "كوكبة جميلة من الدول القويّة وذات السيادة المستقلة، وكلّ منها يعمل مثل أمريكا لبناء الثروة والحريّة."[181]

على عكس نظرة ترامب القومية الإقتصادية الضيقة، لعب رئيس الصين شي جن بينگ دور رجل الدولة العالمي، حين دعا APEC لدعم نظام اقتصادي عالمي من شأنه أن يكون "أكثر انفتاحا وشمولية وتوازنا." إنتشلت الصين خلال 5 سنوات فقط حوالي 60 مليون مواطنا من براثن الفقر. لذلك حثّ على نظام عالمي "أكثر انصافا لتحقيق فوائد تنمية البلدان في جميع انحاء العالم." لدفع مثل هذا التحوّل تعيّن على الصين "تخصيص 2 ترليون دولارا أمريكيا للإستثمار

الخارجي." من المرجّح أنّ قوله هذا اشارة الى مبادرة الحزام والطريق بكلفة 1.3 تريليون دولارا لأوراسيا وتريليون دولارا آخر للمساعدات والإستثمار في إفريقيا.[182] وفي ملاحظة مماثلة فإنّ الشركاء 11 المتبقين في المعاهدة وعلى رأسهم اليابان وكندا، قد أحرزوا تقدّما كبيرا نحو انمام اهداف تلك الإتفاقية، وبشكل ملحوظ دون تعاون الولايات المتحدة.[183]

أشارت عناوين الصحف خلال الأشهر 12 الأولى لإدارة ترامب الى أنّ نفوذ واشنطن الدولي كان يتلاشى بسرعة بشكل مفاجئ. لو أخذنا بعين الإعتبار الأيام 7 الأولى من شهر كانون الأول عام 2017، حين ظهرت سلسلة تقارير جديدة نشرتها صحيفة نيويورك تايمز، فإنّ الدول واحدة إثر أخرى بدأت تبتعد عن واشنطن، كانت مصر أولها بعد تلقي 70 مليار دولارا من المساعدات الأمريكية خلال 40 عاما الماضية، وفتحت قواعدها للطائرات النفاثة الروسية.[184] وتلت ذلك بورما، التي كانت تمارس مغازلة حثيثة مع إدارة أوباما.[185] وحتى أستراليا، الحليف القويّ لأمريكا، بدأت تكيّف دبلوماسيتها لتتلائم مع الموقف المُهيمن للصين.[186] وأخيرا ألمانيا، التي طالما كانت معقل الولايات المتحدة في أوروبا، أضحت معقل الصين واعلنت أنّها الشريك التجاري المقرّب، ممّا وسّع الإنشطار عن واشنطن، خاصّة بعد التصريح بأنّ العلاقات لن تعود الى سابق عهدها أبدا.[187]

تضاعفت كلّ هذه الإنقسامات الدبلوماسية بسبب ترامب وتغريداته اليومية، التي دفعت حتى الرئيس المكسيكي إنريكو بِنيا نييتو الى إلغاء زيارته الرسمية، إثر تغريدة مفادها أنّ المكسيك ستضطر لدفع تكلفة الجدار الحدودي الفاصل بين البلدين. كما أغضب القادة البريطانيين عندما أعاد تغريدة عنصرية معادية للمسلمين، وتوتّرت العلاقات مع باكستان بعد انفجار يوم رأس السنة الجديدة، وحين اتهمها بأنّ الأمر "لا شيء سوى الأكاذيب والخداع."[188]

نظرا لأنّ حوالي 40 أو 50 دولة فقط لديها ثروة كافية لتلعب حتى دورا ثانويّا في السياسة العالمية، فإنّ فقدان الأصدقاء والحلفاء في مثل هذه الوتيرة

سيؤدي قريبا الى تضاؤل نفوذ واشنطن الدولي، وهو شيء مرّ به ترامب في نفس شهر كانون الأوّل عندما تحدّى العديد من قرارات الأمم المتحدة بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل. إنّ هذا العمل الدبلوماسي أحادي الجانب أكسب البيت الأبيض 14 تويبخا مقابل 1 في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. والصوت الوحيد هو صوت سفيرة الولايات المتحدة نِكي هَيلي، التي حذّرت بأنّ الولايات المتحدة سوف "تسجّل اسماء" من تجرأ على التصويت ضدّها. وهدّد ترامب بقطع المساعدات عن أولئك الذين فعلوا ذلك حين صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية 128 مقابل 9 أصوات، لإدانة اعترافه المذكور، وهو رفض مذهل لقيادة واشنطن الدولية.[189]

بحلول نهاية العام الأول لترامب في منصبه، كانت المكانة الأمريكية العالمية قد سقطت بشكل ملحوظ. في دراسة استقصائية شملت 134 دولة، وجد منظمو استطلاعات الرأي العام گالُب Gallup في جميع انحاء العالم، تراجع الموافقة على القيادة الأمريكية من 48٪ في عام 2016 حين كان أوباما في الحكم الى مستوى منخفض قياسيا بلغ 30٪ في عهد ترامب، أقلّ بقليل من ذلك في الصين 31٪ وبشكل ملحوظ أقلّ من 41٪ في ألمانيا.[190] في نهاية عام التقييم، أشار المعلق المحافظ فريد زكريّا على شبكة تلفزيون سي أن أن الى أنّ "قرار إدارة ترامب الأحمق والإنهزام بالتنازل عن عرش التأثير العالمي للولايات المتحدة" قد فتح فراغا في السلطة يتمّ ملؤه بواسطة قوى غير ليبرالية مثل الصين وروسيا وتركيا.[191]

خلال السنة الثانية للإدارة المذكورة، بدأ سيل التغريدات والملاحظات غير الرسمية في تشكيل رؤية أكثر تماسكا لمكانة أمريكا في العالم. بدلا من السيطرة بثقة على المنظمات الدولية والتحالفات المتعددة الأطراف والإقتصاد المعولم، بدا ترامب وكأنّه يرى أمريكا تقف وحيدة في عالم مضطرب، يستغلها الحلفاء المُتعجرفون الذين تضرّروا من شروط التبادل التجاري غير المتكافئة والمهدّدين من قبل موجات المدّ والجزر من المهاجرين غير الشرعيين وخيانة

النخب في إدراك الخطر والدفاع عن مصالح الأمة.

بدلا من الإتفاقيات التجارية متعددة الأطراف مثل TPP أو NAFTA أو حتى منظمة التجارة العالمية، فضّل ترامب الصفقات الثنائية، التي أعيدت كتابتها لصالح أمريكا. وبدلا من الحلفاء الديمقراطيين مثل كندا وألمانيا، بدأ ترامب نسج شبكة من العلاقات الشخصية مع زعماء قوميين واستبداديين، مثل بوتين في روسيا وأوربَن في المجر ومودي في الهند وعبد الفتاح السيسي في مصر وبنيامين نِتنياهو في إسرائيل ومحمد بن سلمان في السعودية. بدلا من التحالفات القديمة مثل الناتو، فضّل ترامب ذلك التحالف الفضفاض من القوى ذات التفكير المماثل بهدف الحوار الأمني بين دول المحيط الهندي والمحيط الهادئ، أي أستراليا والهند واليابان والولايات المتحدة، لرصد توسّع الصين في المحيط الهندي. بدلا من الإستمرار في جهود الأطراف المتعددة لمنع الإنتشار النووي، إنسحب من الإتفاق النووي مع إيران لعام 2015 وبدأ في إلغاء اتفاقات الأسلحة النووية للحرب الباردة مع روسيا أثناء متابعة المفاوضات الثنائية مع كوريا الشمالية.[192]

خدمت كلّ من جولاته الخارجية في عام 2018، حسب التصميم تقريبا لخلق الإضطراب أو حتّى تدمير التحالفات، التي طالما كانت أساس قوّة الولايات المتحدة العالمية. خلال زيارة ثانية مثيرة للإنقسام لمقر الناتو في بروكسل، إتّهم ألمانيا بأنّها "أسيرة روسيا" وضغط على الحلفاء للقيام بمضاعفة صرف تصيبهم من الناتج المحلي الإجمالي لأغراض الدفاع على الفور وجعلها نسبة غير واقعية تبلغ 4٪، وهو مطلب تجاهلوه جميعا.[193] بعد أيام قليلة تساءل مرة أخرى بشكل ملحوظ عن حكمة المبدأ الأساسي في قضية الدفاع المُشترك. بمعنى أنّه اذا قررت حكومة الجبل الأسود Montenegro، وهي عضو صغير حليف في الناتو أن "تصبح عدوانية، فحينئذ تهانينا لأنك ستجد نفسك في الحرب العالمية الثالثة."[194]

ذهب الى إنكلترا في زيارة رسمية في وقت صرّحت فيه رئيسة وزراء بريطانيا المحافظة تيريزا مَي، أنّها ارتكبت خطأً في انسحاب بريطانيا من الإتحاد الأوروبي،

فقتل أيّة فرصة لصفقة التجارة الأمريكية.[195] ثمّ ذهب الى هلسنكي لعقد مؤتمر قمّة مع بوتين. وهو لقاء اطلقت عليه صحيفة نيويورك تايمز إسم "مهرجان احتضان ترامب وبوتين المهين،" حين أساء الى نفسه قبل خصم النّيتو تماما، الى الحدّ الذي جرت فيه احتجاجات حتى من قِبل قادة حزبه الجمهوري.[196]

شهدت سنته الثانية أيضا تآكلا مستمرّا في التحالفات الأمريكية في المحيط الهادئ. كانت هذه التحالفات منذ فترة طويلة نقطة ارتكاز للدفاع عن أمريكا الشمالية والهيمنة على آسيا. حتى بعد 10 لقاءات شخصيّة ومكالمات هاتفية مع رئيس وزراء اليابان شِنزو آبي، فرض ترامب تعريفات باهضة على واردات الصلب اليابانية.[197] وكانت قيود دبلوماسية ترامب بشأن إبرام الصفقات أكثر وضوحا في شبه الجزيرة الكورية. بعد مغادرة اجتماع لمجموعة السبع في مدينة كويبك في حالة من الفوضى برفضه الإنضمام الى توقيع البيان المعتاد، دعا ترامب الى إعادة قبول روسيا في المنظمة. ثمّ سافر الى سنغافورة من أجل قمّة وديّة ولكن غير منطقيّة مع دكتاتور كوريا الشمالية كِم جونگ أون. ظهر ترامب ليدّعي أنّ تلك الدولة "لم تعد دولة تهديد نوويّة" وكافأ زعيمها بوقف العمل في المناورات العسكرية الأمريكية المشتركة مع قوّات كوريا الجنوبية الى أجل غير مُسمّى، وهو أمر طالما رغبته بيونگ يانگ.[198]

غير أنّه في غضون شهر، كشفت معلومات استخباراتية عبر الأقمار الصناعية أنّ كوريا الشمالية كانت تبني صواريخ جديدة قادرة على ضرب أيّ مكان داخل الولايات المتحدة.[199] وفي غضون شهرين نشرت صحيفة وول ستريت جورنال المحافظة على شكل كُتيّب ما خلاصته، "إنّ احتمال نزع السلاح النووي بشكل كامل وقابل للمراقبة والتحقيق ولا رجوع فيه، تبدو بعيدة الآن أكثر مما كانت عليه قبل لقاء سنغافورة."[200]

عُقِد مؤتمر ثانٍ في هَنوي في وقت مبكّر من العام التالي، حين رفض كِم اجتماعات ترامب ومحاولة "تحقيق تقدّم كبير" في صفقة نزع السلاح النووي،

فانهارت المحادثات. في اعقاب تلك الكارثة، إختبرت بيونگ يانگ قدرة صواريخ مناورة عالية تعمل بالوقود الصلب، ممّا أكّد أكثر تقييمات ترامب شؤما وفشل نسخة دبلوماسيته الشخصية. في شهر تشرين الثاني من عام 2019، حاول ترامب إحياء المحادثات مع بيونگ يانگ بتغريدة الى كِم بطريقة هزلية، "أراك قريبا!" لكن كوريا الشمالية أجابت بأنّ زعيمها "ليس لديه نيّة للجلوس حول طاولة واحدة مع الولايات المتحدة المخادعة."[201]

كان ترامب أكثر حرصا على مغازلة زعيم استبدادي آخر. ظلّ فلاديمَر پوتِن صامتا بينما اطلقت روسيا سلسلة متوالية من الهجمات الإلكترونية، التي هدّدت مجالا بالغ الأهمية بالنسبة للأمن القومي للولايات المتحدة المتحدة بشكل متزايد. كأوّل قوّة كبرى تعترف بإمكانيات الإنترنت في الحرب الإلكترونية، شكّلت واشنطن القيادة الإلكترونية الأمريكية US Cyber Command عام 2009، وحققت بعض النجاحات المبكّرة، حيث أصابت بشكل مدمّر أجهزة الكومبيوتر في مرافق إيران النووية، ونجحت في إجراء المراقبة السايبرانية Cyber-Surveillance للقادة الوطنيين في جميع انحاء العالم.[202] ومع ذلك وخلال الإنتخابات الرئاسية لعام 2016، ذكر مجلس الشيوخ في وقت لاحق أنّ المخابرات الروسية "استخدمت وسائل التواصل الإجتماعي لشن حملة حرب معلومات مضللة استهدفت الإنقسام المجتمعي، "الذي كان في الواقع جزء من نطاق أوسع ومعقد وحملة حرب مستمرّة للمعلومات."[203] غير أنّ الأسوأ لم يحدث بعد. في شهر آذار من عام 2017، أصدرموقع وِكِليكز *Wikileaks* مجموعة معلومات عن أفضل أدوات القرصنة السريّة لوكالة المخابرات المركزية، ممّا أجبر الوكالة على إخطار الحلفاء بحدوث زلة خطيرة Serious Lapse في عملها الأمني. في الأسابيع الأخيرة لإدارة ترامب وبالقدر الذي يتعلق بالأمن السايبراني الخاص، أخطرت شركة FireEye الحكومة باختراق محتمل أن يكون ضخما. من خلال عملية "أذهل تطوّرها حتى الخبراء" قامت أجهزة الأمن الروسية

بإدخال برنامج Trojan Horse Software في أجهزة 18000 مستخدما خاصّا وحكوميّا، بما في ذلك العاملين في وزارة التجارة والأمن الداخلي ووزارة الخزانة وأيضا في البنتاغون.[204] في القرن الحادي والعشرين قامت دولة مهيمنة عالمية بتوظيف اتصالات وأجهزة الكومبيوتر الخاصّة بقوّة متراجعة أخرى واخترقتها.

تصرّف الرئيس الأمريكي كما لو كانت الولايات المتحدة لا تزال قوّة عظمى يمكن أن تنحني الصين لرغبتها. شنّ حربا تجارية شاملة بدءاً من فرض رسوم جمركيّة على 60 مليار دولارا من الواردات الصينية في شهر آذار من عام 2018، ثمّ رفع تلك الرسوم الى مستويات قياسية. ردّت بكين في شهر أيلول بالمثل،[205] وفرضت رسوما موازية على الصادرات الزراعية الأمريكية وعطلت سلسلة التبادلات الإقتصادية بين البلدين. وبعد مواجهة استمرت 18 شهرا احدثت ضررا كبيرا لكلي الجانبين، تراجع ترامب في النهاية والغى العديد من تعريفاته المفروضة على الواردات القادمة من الصين.[206]

في الوقت الذي كان فيه المسؤولون من كلي البلدين يوقعون على صفقة تجارية في احتفال بالبيت الأبيض في شهر كانون الثاني من عام 2020، ظهر فايرُس الكورونا Covid-19، وبدأ ينتشر بسرعة في مدينة ووهان في وسط الصين. بواسطة تطبيقات الحجر الصحي الصارم وتفعيل نظام الصحة العام، إحتوت الصين الوباء بسرعة عند حدوث 83000 إصابة و4600 حالة وفاة، ونجحت في إعادة فتح اقتصادها الى حدّ كبير في أمان بحلول منتصف شهر حزيران. على النقيض من ذلك، كان الحال في الولايات المتحدة، إذ تردّد ترامب خلال الجزء الأفضل من الشهرين الأولين، واعتبر الفايرُس إنفلونزا موسميّة وتنازل بشكل فعّال عن أيّ دور فيدرالي للسيطرة على الجائحة. وممّا زاد في تعقيد المشكلة أنّ مراكز السيطرة على الأمراض السارية والوقاية منها، التي كانت في يوم من الأيام وكالة الصحة العامة الأولى في العالم، قد أخطأت في تطوير اختبار الفايرُس، ممّا اضفى على الحكومة هالة الدولة الفاشلة. بدلا من قيادة الحملة الدولية للصحة العامة، كما فعلت على مدى عقود،

نفّيت واشنطن عن قمّة اللقاح العالمية ثمّ استقالت من منظمة الصحة العالمية وسعت لإلقاء اللوم عليها واتهمتها بالتستر على مسؤولية الصين الخاصة والإستجابة غير الكفوءة. بحلول نهاية ولاية ترامب، كان يوجد في أمريكا أكثر من ربع حالات الإصابة بكوفيد- 19 من مجموع ما في العالم برمّته، أي ما يقرب من 24 مليون إصابة فردية واكثر من 400000 حالة وفاة وخسارة 40 مليون وظيفة، مع الكثير من الآتي الأسوأ. بينما كان التعافي الإقتصادي الأمريكي متقطعا في أحسن الأحوال، كان الإنتعاش في الصين قد تعافى بسرعة وحقق زيادة بنسبة 6٪ من الناتج المحلي الإجمالي. أدّى هذا الى انتاج 30٪ من النمو العالمي في عام 2020. اصبحت الصين أيضا وجهة للإستثمار الأجنبي وتجاوزت الولايات المتحدة للمرة الأولى. أدّى هذا التفاوت المُلفت للنظر في أداء الدولة الى تسريع مسار الصين لتجاوز الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد في العالم (بأسعار صرف السوق) بحلول عام 2028. ومع كل هذا النفوذ المالي ستصبح هي القوّة البارزة.[207]

ذكّر استمرار انتشار الوباء في جميع انحاء أمريكا البلاد بماضيها الإستعماري كمجتمع تسوده العبودية والفصل العنصري في القرن السابق. تمّ التقاط الصور بكاميرتي هاتفين محمولين سجّلتا مجريات الأمور عن قتل رجلين أسودين؛ واحد على يد رجال مدنيين في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا، والآخر من قبل ضباط الشرطة في مدينة مينابوليس. كان الحدثان العامل المساعد الذي أسقط الأمة في شهور من الإحتجاج. شهدت حوالي 140 مدينة في جميع أنحاء البلاد وشهد العالم العشرات من التظاهرات العفويّة تحت لافتة نالت شهرة هي Black Lives Matter. أغلقت الطرق السريعة وجرت التجمّعات والوقفات الإحتجاجية في الحدائق والساحات العامة. إتخذت معظم الإحتجاجات شكل مسيرات تضمّنت المطالبة بمساءلة الشرطة عن جرائم القتل، الى جانب إعادة توزيع تمويل اقسام الشرطة على المبادرات المجتمعيّة. إتخذ البعض الآخر أشكالا أكثر مباشرة من العمل، حيث أسقطت تماثيل الشخصيات التاريخية المعروفة في كلّ مرحلة من مراحل التاريخ

المأساوي للعبودية. أسقطت تماثيل كولومبُس في ساحة القدّيس بول وإدوارد كولستون رئيس شركة رويَل أفريكَن بمدينة برِسْتُل في انكلترا، والملك ليوبولد الثاني في إنتويرب في بلجيكا ورئيس الكونفدرالية جيفرسُن دَيفِس في رِچمُند بولاية فرجينيا. بدلا من معالجة التميز والعنف، اللذين كانا موضوعي الإحتجاجات، ألهب ترامب مشاعر المتظاهرين وندّد بهم ووصفهم بأنهم "بلطجيه." أعيدت صياغة خطاب رئيس الشرطة العنصري الجنوبي من عصر جِم كرَو، الذي هدّد بالقمع الوحشي قائلا، "عندما يبدأ النّهب، يبدأ إطلاق النار."[208]

وهكذا في نقطة تحوّل أخرى في تاريخ البلاد، مسّ إرث العبودية وممارستها للقوة العالمية حياة الناس والكون. في السنوات الخمس السابقة للإحتجاجات، قتل عُنف الشرطة 1000 أمريكيا من أصل إفريقي كلّ عام. كما عاني الرجال السود أيضا من معدل غير متناسب لمن وُضعوا في السجون، التي ضمّت في عام 2009 على سبيل المثال، ما يقرب من نصف عدد نزلاء السجون المزدحمة في البلاد. ومن منظور تاريخي، فإنّ عمليات الإعدام خارج نطاق القانون من قبل سلسلة من عصابات كبار السنّ، كان الجنوب المُنفصل هو السلف المباشر لمن مارسوا وسيلة قسرية لفرض قانون عدم المساواة بشكل منهجي. تشكّل عمليات إطلاق النار المعاصرة من قبل رجال الشرطة والإعتقال الجماعي للرجال الأمريكيين من أصل إفريقي والحرمان الدائم للمجرمين من كافة الحقوق، تمثل عودة للممارسات القديمة. صحيح أنّ الإحتجاجات تصاعدت تعبيرا عن الغضب من عنف الشرطة، لكنّها أيضا كانت مصحوبة بالوعي بالتفاوتات العرقية في الحصول على التعليم والسكن والعمل والرعاية الصحية، خاصّة أنّ انتشار جائحة كَوفِد-19 قد أصاب الأقليات بشكل أصعب وأوسع من الأغلبية البيضاء على الصعيد الوطني. "يعاني بلدنا من عيب أخلاقي،" كما كتبت وزيرة الخارجية السابقة كوندوليزا رايس، في نداء عاجل من أجل معالجة تلكما الحادثتين العنصريتين. "جاء الأفارقة والأوربيون الى هذا البلد معا، لكنّ مجموعة واحدة فقط كانت مُكبّلة بالسلاسل." مع مرور الوقت، تشكّل

توافق سياسي بشكل جيّد لمعالجة مثل هذه القضايا، التي يتمّ حلها من خلال برامج للتعريف بالعنصرية ودفع التعويضات المالية وتحقيق العدالة الإجتماعية. يمكن أن تقدّم هذه الخطوات مطالبة طويلة الأجل بالحدّ من التمويل الفيدرالي للشرطة في الداخل، والحدّ من موارد العمليات العسكرية في الخارج.[209]

جلبت رئاسة ترامب إدراكا متزايدا في الداخل والخارج، أنّ القيادة العالمية لواشنطن ستنتهي في وقت أقرب بكثير ممّا كان تخيله أيّ شخص آخر. فعل ترامب مثل ما فعله رئيس وزراء بريطانيا الأسبق أنتوني إيدن الذي لم يتسبب في تراجع الإمبراطورية ولكن من الواضح أنّه عجّل به. إنّ المؤشر على تلك الخسارة هو الدعوة الى اجتماع مجموعة السبع في واشنطن في شهر حزيران من عام 2020، حين رفض أقرب حلفاء البلاد، بريطانيا وكندا وألمانيا، التعاون مع خططه لدعوة روسيا الى مؤتمر القمّة لأوّل مرّة. بعد 45 اجتماعا سابقا، غرق في جدل غير محسوب، فتم تأجيل هذا الإجتماع. لقد عكس هذا التأجيل علاقة عدائية طويلة الأمد مع الحلفاء، وردّ البيت الأبيض لترامب بإعلان انسحاب 9500 جنديا من ألمانيا، تماما مثلما عُلّقت في وقت سابق المناورات المشتركة مع كوريا الجنوبية دون استشارة سَول.[210]

بعد عقود من الترويج للديمقراطية لإضفاء الشرعيّة على قيادتها العالمية، أمضى رئيس أمريكي أسمه دونالد ترامب أشهره الأخيرة في منصبه (ولا يزال) مستنكرا انتخابات أمريكية نزيهة على أنّها مُزوّرة. تتويجا لذلك وفي مشهد غريب، أرسل بتاريخ 6 كانون الثاني من عام 2021 حشدا من 10000 شخصا من أنصاره لاقتحام مبنى الكابيتول، حين كان الكونگرس يُصادق على الإنتقال الى الإدارة الجديدة. إضافة الى حالة الدولة الفاشلة بجهازها الأمني القومي الذي انهار كما شرطة البلدان الإستوائية، إخترق اعضاء الميليشيا الطوق الأمني الهشّ حول المبنى المذكور واقتحموا قاعاته مثل حشد من الغوغاء يطاردون قادة الكونگرس. وحين عاد الكونگرس أخيرا الى جلسة الإجتماع، رنّ الكابيتول بدعوات الجمهوريين

لنسيان الحادث باسم الوحدة الوطنية، مرددين صدى الإفلات من العقاب، كما في فترات مجالس الإنقلابات العسكرية الساقطة في آسيا وأمريكا اللاتينية ووقف محاسبة المجرمين على جرائمهم. في اعقاب ذلك، إحتشد الحزب الجمهوري حول ترامب محتظنا خياله في التزوير الإنتخابي باعتباره عقيدة وجعل الولاء الشخصي منصته الوحيدة. تماما مثل وهم حزب المحافظين البريطاني بأنّ الإمبراطورية لا نهاية لها قد سرّع في انحدار بريطانيا. وعليه فإنّ تراجع الحزب الجمهوري عن العقلانية والإلتزام بالطاعة الوهمية هما بمثابة إشارة واضحة لتضاؤل قدرة الولايات المتحدة على القيادة العالمية. فجأة، بدت الأمة الإستثنائية عاديّة بشكل مأساوي ولم تعد قادرة على إلهام الآخرين لاتباع مبادئها أو حتى الإذعان لسلطتها.[211]

ما بعد ترامب

يمكن للإدارات الناجحة مراجعة أو عكس سياسات ترامب المحلية المتعلقة بالتجارة والبيئة والرعاية الصحية، ولكن تعطيله للدبلوماسية مسألة أخرى مختلفة تماما. لا يتعافى فقدان القيادة العالمية بسهولة، لا سيّما عندما تكون القوى المتنافسة مستعدّة لملء الفراغ. مع ضعف موقع واشنطن الستراتيجي، كانت الصين ملحّة لإزاحتها بلا هوادة والسيطرة على أوراسيا، وهي خطوة رئيسية على طريقها الى الأسبقيّة العالمية. بعد فوزه في انتخابات الرئاسة لعام 2020، أعلن جو بايدن أنّ "أمريكا قد عادت" ووعد بإحياء قيادة امميتها الليبرالية. لكنّ القادة الأوروبيين بعد أن أدركوا ضربة ترامب لحلف شمال الأطلسي، واصلوا وضع خطط الدفاع المُشترك بدون أمريكا. قال دبلوماسي فرنسي، "لسنا في الوضع الراهن القديم، حيث نستطيع أن نتظاهر بأنّ رئاسة دونَلد ترامب لم تكن موجودة وأنّ العالم كان كذلك نفس الشيء منذ أربع سنوات."[212]

بعد حوالي 20 عاما من اعلان تحذير برجنسكي، الذي كان تحذيرا جيوسياسيا بصدد ظروف تراجع القوة العالمية للولايات المتحدة التي نضجت.

"موقع واشنطن على المحيط الغربي، لأوراسيا قد بدأ فعلا بالتآكل من خلال كلي النزاعين الداخليين في الإتحاد الأوروبي." أوّلا هجمات إدارة ترامب على حلف شمال الأطلسي. ثانيا، إنّ "المساحة الوسطى" لأوراسيا مهددة بأن تصبح مُتفرّدة حازمة An Assertive Single Entity تحت القيادة الإقتصادية لبكين. أوجدت الدبلوماسية الصينيّة ظروفا يمكن أن تتطوّر بسبب الإخفاقات الدبلوماسية لواشنطن، والتي قد تؤول في نهاية المطاف الى طرد امريكا من قواعدها البحرية على طول ساحل المحيط الهادئ في ظلّ الإزدواجية الصارخة التي يمثلها النظام العالمي لواشنطن. كما يمكن لهذا التراجع أن يجعل القوّة الأمريكية نفسها تهدّد في نهاية المطاف المؤسسات الدولية الليبرالية مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والبنك العالمي ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة لتجارة العالمية. إنّ الإنسحاب الأمريكي المستمرّ من الساحة العالمية قد يفتح الفرصة لقوى غير ليرالية مثل الصين وروسيا وإيران والهند وتركيا، أن تقدّم وتلحق ضررا كبيرا في النظام الدولي الليبرالي واضعاف مبادئه الأساسية العالمية حول حقوق الإنسان وسيادة الدولة التي لا تُنتَهك.

وعلى أيّة حال، هناك قوّة أخرى أكثر جوهرية نشأت بفعل تراكم ضغوط التغيير في الأنظمة العالمية. بعد 70 عاما من الإسراف في استهلاك الوقود الأحفوري، الذي اصبح مرادفا لاستهلاك واشنطن للنظام العالمي، اكتسب تغيّر المناخ قوّة كافية لإحداث اضطرابات عميقة في المجتمع البشري. بعد 20 عاما من إنكار الحزبين والتهرّب والتسويات، فشلت الولايات المتحدة في إطلاق الإنتقال الى مصادر الطاقة المتجدّدة. على سبيل المقارنة، تستمد الدّنيمارك بالفعل 47٪ من طاقتها من الرياح، كما ولدت ألمانيا 47٪ من امداداتها من الطاقة بالإعتماد على مصادر الطاقة المُتجدّدة. لكنّ الولايات المتحدة واعتبارا من عام 2019، انتجت 17٪ فقط من الكهرباء من مصادر الطاقة المتجدّدة و20٪ من الطاقة النووية واعتمدت على الوقود الأحفوري بنسبة 63٪. بينما كانت شركات النفط

الأوروبيّة بقيادة برتش بِتروليَم وشركة شَلّ تتحرّكان نحو الطاقة البديلة ووضع خطط لترك احتياطاتهما من النفط مدفونة في باطن الأرض الى الأبد، تضاعفت جهود نظيرتيهما الأمريكيتين وهما شِفرون وأكسُن مَوبِل في التنقيب عن النفط ونبذ مصادر الطاقة المتجدّدة، باعتبارها "نشاطا ذا ربح منخفض." أمّا في الصين فالوضع أسوأ، إذ حصلت على 13٪ فقط من طاقتها بالإعتماد على مصادر الطاقة المتجدّدة، وعلى نسبة 85٪ من الوقود الأحفوري. المشكلة هي القصور الذاتي المتأصّل. يشرح خبير الطاقة فاسلاف سمِل أنّه، "بعد 150 عاما من الإعتماد على انتاج وتسليم واستهلاك الوقود الأحفوري، اصبح أكثر المواقع شمولا في العالم، ويقوم على أغلى شبكة من البُنى التحتية كثيفة الإستهلاك للطاقة الآن وتمتدّ عبر العالم." [214] توقع الباحث أن يحمل العديد من إجزائها لعقود.

في أيّ تحوّل يتجاوز الوقود الأحفوري، يجب أن يلعب أكبر الإقتصاديين العالميين دورا حاسما. إذا كنت تريد إضافة كلّ شيء عن انبعاثات الوقود الإحفوري خلال فترة قرن ونصف من عام 1870 الى 2014، ستجد أنّ ربعا كاملا من مجموع تلك الإنبعاثات قد تراكم خلال 15 عاما بين 2000 و2014 عندما سيطرت الولايات المتحدة والصين على الإقتصاد العالمي. ارتفعت انبعاثات ثاني أوكسيد الكاربَون عالميا بنسبة مذهلة بلغت 50٪، من 22.2 كيكا طنا في عام 1997 الى ذروة بلغت 33.3 كيكا طنا في عام 2018.. إستحوذت الصين والولايات المتحدة معا على ما نسبته 43٪ من الإجمالي العالمي. لم يرتفع إجمالي الإنبعاثات فقط، بل ارتفع ايضا معدّل الزيادة في الإنبعاثات العالمية أيضا من 1٪ سنويّا الى 3٪ خلال 15 عاما قبل عام 2015 حين عُقد مؤتمر باريس للمناخ. [215]

إنّ التطلع الى المستقبل والكارثة الوشيكة بتغيّر المناخ، جنبا الى جنب مع التحدّي الجيوسياسي للصين، قد يؤدّي الى إنهاء نظام واشنطن العالمي والسماح بصعود نظام عالم بديل. وقد يكون هذا إيذانا ببدء عصر من الإضطرابات البيئية الكارثية.

مصادر وملاحظات الفصل الخامس

Chapter 5: Pax Americana

1. "Theodore Roosevelt's Speech to the Great White Fleet, February 1909," Theodore Roosevelt Center, http://www.theodorerooseveltcenter.org/Research/Digital-Library/Record.aspx?libID=o283081.
2. Michael J. Crawford, "Overview," in Michael J. Crawford, ed., *The World Cruise of the Great White Fleet*, (2008), 2-3.
3. Eleanor Roosevelt, "The Struggle for Human Rights," 9/28/1948, https://erpapers.columbian.gwu.edu/struggle-human-rights-1948.
4. "Mrs. Roosevelt Scored," *NYT*, 10/25/1948, https://www.nytimes.com/1948/10/25/archives/mrs-roosevelt-scored-soviet-organ-holdsher-antirussian-and.html; John Kenton, "Human Rights Declaration Adopted by U.N. Assembly," *NYT*, 12/11/1948, https://www.nytimes.com/1948/12/11/archives/human-righs-declaration-adopted-by-unassembly-un-votes-accord-on.html.
5. Kenton, "Human Rights"; Richard N. Gardner, "Eleanor Roosevelt's Legacy," *NYT*, 12/10/1988, https://www.nytimes.com/1988/12/10/opinion/eleanor-roosevelt-s-legacy-human-rights.html.
6. Daniel J. Sargent, *A Superpower Transformed* (2015), 68-99, 198-228.
7. Philip C. Jessup, *Elihu Root* (1938).
8. Richard W. Leopold, *Elihu Root and the Conservative Tradition* (1954), 12-19.
9. Warren Zimmermann, *First Great Triumphs* (2002), 129-31, 134-42.
10. Stephen Skowronek, *Building a New American State* (1982), 26, 45-56; Walter Isaacson and Evan Thomas, *The Wise Men* (1986), 179-80.
11. Zimmermann, *First Great Triumphs*, 148, 411-12, 417; Leopold, *Elihu Root*, 24-46.
12. William J. Johnston, "The Pan-American Conference and the Cuban Crisis," *NYT*, 9/23/1906, https://timesmachine.nytimes.com/timesmachine/1906/09/23/101799110.html?pageNumber=36; Leopold, *Elihu Root*, 53-69; Frederick W. Marks, *Velvet on Iron* (1979), 203; Jessup, *Elihu Root, vol. 1, 1845-1909*, 474-92; Vredespaleis, "Vrede Door Recht," https://www.vredespaleis.nl/; Stephen Barcroft, "The Hague Peace Conference of 1899," *Irish Studies in International Affairs* 3, no. 1 (1989), 55-68; David D. Caron, "War and International Adjudication," *American Journal of International Law* 94, no. 1 (2000), 4-30; George H. Aldrich, and Christine M. Chinkin, "A Century of Achievement and Unfinished Work," *American Journal of International Law* 94, no. 1 (2000), 90-98.

13. Leopold, *Elihu Root*, 67, 161-64; "Elihu Root—Biographical," Nobel Prize official website,
http://www.nobelprize.org/nobel_prizes/peace/laureates/1912/root-bio.html.
14. Courtney Johnson, "Understanding the American Empire," in Alfred W. McCoy and Francisco Scarano, eds., *Colonial Crucible* (2009), 175-90; "Dr. Paul S. Reinsch Dies in Shanghai," *NYT*, 1/26/1923,
https://timesmachine.nytimes.com/timesmachine/1923/01/26/105843680.
html?pageNumber=17; Jessup, *Elihu Root, vol. 2, 1905-1937*, 416-17, 486-93.
15. Caron, "War," 13, 30.
16. David Milne, *Worldmaking* (2015), 22-52.
17. Alfred Thayer Mahan, *Influence of Seapower upon History, 1660-1783* (1957), 71-72.
18. H.W. Brands, *T.R.* (1997), 236-38.
19. James A. Field Jr., "American Imperialism," *American Historical Review* 83, no. 3 (1978), 652-53; Milne, *Worldmaking*, 32-33.
20. John J. Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics* (2001), 220.
21. George W. Baer, *One Hundred Years of Sea Power* (1994), 21-22, 30-33; Mike McKinley, "Narrative," in Crawford, *World Cruise*, 34-35.
22. A.T. Mahan, *The Interest of America in Sea Power, Present and Future* (1898), 12-13, 59-104.
23. Victor Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat* (2018), 103-7, 121, 133-35.
24. David McCullough, *The Path between the Seas* (1977), 381, 442, 496-98, 530-31, 537, 546-49.
25. Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 107-25.
26. Alfred Thayer Mahan, "The United States Looking Outward," *Atlantic Monthly* (December 1890),
http://www.theatlantic.com/magazine/archive/1890/12/the-united-states-looking-outward/306348/.
27. James C. Thompson et al., *Sentimental Imperialists* (1982), 103-4, 111, 136; Brands, *T.R.*, 238, 308-9, 325-29.
28. Michael Clodfelter, *Warfare and Armed Conflicts* (2017), 240-41.
29. Joseph R. Morgan et al., "Pacific Ocean," *Encyclopedia Britannica* (1/28/2021), https://www.britannica.com/place/Pacific-Ocean.
30. William E. Berry Jr., "American Military Bases in the Philippines, Base Negotiations, and Philippine-American Relations" (PhD dissertation, Cornell University, 1981), 21-25.
31. Thompson, *Sentimental Imperialists*, 140-43; Berry, "American Military Bases in the Philippines," 27-28.

32. Louis Morton, "War Plan Orange," *World Politics* 11, no. 2 (1959), 221-25.
33. Morton, "War Plan Orange," 227-31; H.P. Willmott, *Empires in the Balance* (1982), 108-9.
34. Morton, "War Plan Orange," 231.
35. David F. Schmitz, *Henry L. Stimson* (2001), 1-12; Isaacson, *Wise Men*, 180-83.
36. Memorandum from Robert A. Lovett to Secretary of War Henry L. Stimson, March 10, 1941, US National Archives and Records Administration, RG 107, Stimson "Safe File," box 1.
37. Michael S. Sherry, *The Rise of American Air Power* (1987), 103-8.
38. Berry, "American Military," 80-81.
39. Henry L. Stimson, "Diary," 10/21/1941, Yale University Archives, 149-50.
40. Stimson, "Diary," 12/31/1941, 160.
41. Peter Calvocoressi et al., *Total War*, vol. 2 (1989), 940-1013; Daniel Yergin, *The Prize* (2009), 291-300.
42. Calvocoressi, *Total War*, 953-55.
43. Calvocoressi, *Total War*, 940-59; Yergin, *The Prize*, 309-10; Clodfelter, *Warfare*, 523-29.
44. Louis Morton, *The Fall of the Philippines* (1953), 77-144; Calvocoressi, *Total War*, 978-98; Winston Churchill, *The Hinge of Fate* (1951), 43.
45. Calvocoressi, *Total War*, 975-1013.
46. Kramer J. Rohfleisch, "Drawing the Battle Line in the Pacific," in Wesley Frank Craven and James Lea Cate, eds., *The Army Air Forces in World War II*, vol. 1 (1983), 427-70; Paul S. Dull, *A Battle History of the Imperial Japanese Navy* (1978), 151-79.
47. James A. Knortz, *The Strategic Leadership of Chester W. Nimitz* (2012), 4-18, https://apps.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a561569.pdf.
48. David C. Evans and Mark R. Peattie, *Kaigun* (2012), 24-25, 134-35, 139-40, 514-16.
49. Clay Blair Jr., *Silent Victory* (1975), 17-18, 359-60, 474-75, 486-93, 551-54, 609-12, 816-19; Yergin, *The Prize*, 337-46; Clodfelter, *Warfare*, 523-24.
50. William W. Ralph, "Improvised Destruction," *War in History* 13, no. 4 (2006), 495-522; Sherry, *Air Power*, 264-82, 311-15; Clodfelter, *Warfare*, 525.
51. Ralph, "Improvised Destruction," 517-22; Clodfelter, *Warfare*, 525-26.
52. Clodfelter, *Warfare*, 523-34.
53. Stewart Patrick, *The Best Laid Plans* (2009), 199-200.
54. Letter from Major General Thomas T. Handy, Assistant Chief of Staff, Operations Division, War Department General Staff to Secretary of War, 11/81943, US National Archives and Records Administration, RG 107, Box 11, Entry 74-A, Secretary of War "Safe File," July 1940 - September 1945.

55. Theodore Friend, *Between Two Empires* (1965), 235-37; Stephen Rosskamm Shalom, *The United States and the Philippines* (1981), 59-60.
56. Stimson, "Diary," 4/17/1945, 46-47.
57. William E. Berry Jr., *U.S. Bases in the Philippines* (1989), 32-37, 47-57.
58. North Atlantic Treaty Organization, "The Atlantic Charter, August 14, 1941," NATO, https://www.nato.int/cps/en/natohq/official_texts_16912.htm; Paul Gordon Lauren, "First Principles of Racial Equality," *Human Rights Quarterly* 5, no. 1 (1983), 3-4.
59. Lauren, "First Principles," 5.
60. Clodfelter, *Warfare*, 526-29.
61. Sargent, *Superpower*, 15; "US Military by the Numbers," National World War II Museum, https://www.nationalww2museum.org/studentsteachers/student-resources/research-starters/research-starters-us-militarynumbers; "US Ship Force Levels: 1886-present," Naval History and Heritage Command, https://www.history.navy.mil/research/histories/ship-histories/us-ship-force-levels.html; "Airplanes on Hand in AAF, By Major Type: Jul 1939 to Aug 1945," Army Air Forces Statistical Digest— World War II, table 83, https://www.ibiblio.org/hyperwar/AAF/StatDigest/aafsd-3.html.
62. Patrick, *Best Laid Plans*, x-xiii.
63. Paul Gordon Lauren, *The Evolution of Human Rights* (2011), 160-64.
64. Lauren, *Evolution*, 172-89.
65. United Nations, *Charter of the United Nations and Statute of the International Court of Justice* (1945), http://www.un.org/en/sections/un-charter/un-charter-full-text/.
66. Lauren, *Evolution*, 187-89.
67. Lauren, *Evolution*, 213-14; David Sloss, "How International Human Rights Transformed the U.S. Constitution," *Santa Clara Law Digital Commons* (2015), 16-25; Mark Philip Bradley, *The World Reimagined* (2016), 86-91, 93-95, 99-112.
68. G. John Ikenberry, "State Power and the Institutional Bargain," in Rosemary Foot et al., *US Hegemony and International Organizations* (2003), 49-56.
69. William I. Hitchcock, "The Marshall Plan and the Creation of the West," in Melvyn P. Leffler and Odd Arne Westad, eds., *The Cambridge History of the Cold War*, vol. I (2010), 154-76.
70. Nicholas Kristof, "Why 2017 May Be the Best Year Ever," *NYT*, 1/21/2017, https://www.nytimes.com/2017/01/21/opinion/sunday/why-2017-may-be-the-best-year-ever.html; World Bank Group, *Piecing Together the Poverty Puzzle* (2019), 1-4, 22-24.

https://openknowledge.worldbank.org/bitstream/handle/10986/30418/9781464813306.pdf; World Bank, "Nearly Half the World Lives on Less than $5.50 a Day" (10/17/2018), n early-half-the-world-lives-on-less-than-550-a-day.

71. Raymond Bonner, *Waltzing with a Dictator* (1987), 33; Christopher Simpson, *Science of Coercion* (1994), 3-14; Alfred W. McCoy, *Torture and Impunity* (2012), 16-113; Alfred W. McCoy, "Land Reform as Counter-Revolution," *Bulletin of Concerned Asia Scholars*, 3, no. 1 (1971), 14-49.
72. Bruce Cumings, *Dominion from Sea to Sea* (2009), 305-8, 420-28.
73. Alfred W. McCoy, *In the Shadows of the American Century* (2017), 52-55.
74. Sargent, *Superpower*, 17-19, 108-16; Livia Chitu et al., "When Did the Dollar Overtake Sterling as the Leading International Currency? Evidence from the Bond Markets," NBER Working Paper No. 18097, National Bureau of Economic Research (May 2012), https://www.nber.org/system/files/working_papers/w18097/w18097.pdf.
75. Cumings, *Dominion*, 393, 420-21.
76. Paul F. Braim, *The Will to Win* (2001), 5-7; Lawrence S. Wittner, *American Intervention in Greece, 1943-1949* (1982), 235-53; Svetozar Rajak, "The Cold War in the Balkans, 1945-1956," in Leffler, *Cold War*, vol. 2, 198-220. Robert B. Bruce, "Tethered Eagle," *Army History* 82 (2012), 6-29; William D. Harris Jr., *Instilling Aggressiveness* (2013), 67-100.
77. "Van Fleet Awardees," Korea Society, https://www.koreasociety.org/special-events/van-fleet-award.
78. Stephen E. Ambrose, *Eisenhower*, vol. 1 (1983), chapters 1, 2, 9; Stephen E. Ambrose, *Eisenhower: Soldier and President* (1990), 60-72.
79. Elliott V. Converse III, *History of Acquisition in the Department of Defense*, vol. 1 (2012), 457-64, 490-500, 522-30.
80. Office of Management and Budget, The White House, "Table 9.7 -Summary of Outlays for the Conduct of Research and Development: 1949-2021," *Historical Tables*, https://www.whitehouse.gov/omb/historical-tables/.
81. Michael J. Muolo, *Space Handbook*, vol. 1 (1998), 18.
82. Barry R. Posen, "Command of the Commons," *International Security* 28, no. 1 (2003), 8-9.
83. John Darwin, *After Tamerlane* (2009), 470; Milne, *Worldmaking*, 277-82.
84. Darwin, *After Tamerlane*, 470-71; "U.S. Has 300 Bases on Foreign Soil," *Chicago Daily Tribune*, 9/11/1954; Walter Trohan, "U.S. Strategy Tied to World Air Superiority," *Chicago Daily Tribune*, 2/14/1955.
85. Sargent, *Superpower*, 131-61, 287-89; Bulmer-Thomas, *Empire in* 86. Vaclav Smil, *Energy Transitions* (2017), 116-24; Astrid Kander et al., *Power to the People* (2013), 291-98; Jean-Paul Rodrigue, *The Geography of Transport Systems* (2017), 132-33; "Oil: Crude

and Petroleum Products Explained," US Energy Information Administration (5/29/2019), https://www.eia.gov/energyexplained/oil-and-petroleum-products/imports-and-exports.php; Hannah Ritchie and Max Roser, "CO2 and Greenhouse Gas Emissions: Annual CO2 emissions by world region," *Our World in Data* (2019), https://ourworldindata.org/co2-andother-greenhouse-gas-emissions; David S. Painter, "Oil and the American Century," *Journal of American History* 99, no. 1 (2012), 24-39.

87. Simon Bromley, "The United States and the Control of World Oil," *Government and Opposition* 40, no. 2 (2005), 225-55; Joyce Dargay et al., "Vehicle Ownership and Income Growth, Worldwide: 1960-2030," *Energy Journal* 28, no. 4 (2007), 143-70; Hannah Ritchie and Max Roser, Table: Global fossil fuel consumption, "Fossil Fuels," *Our World in Data* (2019), https://ourworldindata.org/fossil-fuels#citation; International Organization of Motor Vehicle Manufacturers, "World Vehicles in Use: All Vehicles," *Motorization Rate 2015—Worldwide*, http://www.oica.net/category/vehicles-in-use/; Painter, "Oil and the American Century," 33-36.
88. Ronald Robinson, "Non-European Foundations of European Imperialism," in Roger Owen and Robert Sutcliffe, eds., *Studies in the Theory of Imperialism* (1972), 128-48; Brett Reilly, "Cold War Transition," in McCoy, *Colonial Crucible*, 344-59.
89. McCoy, *Shadows*, 61-79.
90. David F. Rudgers, "The Origins of Covert Action," *Journal of Contemporary History* 35, no. 2 (2000), 253-59; Tim Weiner, *Legacy of Ashes* (2008), 624-25.
91. Weiner, *Legacy of Ashes*, 29-31, 48-54; Daniele Ganser, *NATO's Secret Armies* (2005), 1-37, 63-83, 84-102; Daniele Ganser, "Beyond Democratic Checks and Balances," in Eric Wilson, ed., *Government of the Shadows* (2009), 256-75.
92. Dov H. Levin, "Partisan Electoral Interventions by the Great Powers," *Conflict Management and Peace Science* 36, no. 1 (2016), 88-106; Chalmers Johnson et al., "The CIA and Japanese Politics," *Asian Perspective* 24, no. 4 (2000), 79-103.
93. Robert Kagan, *The World America Made* (2012), 23-24; Weiner, *Legacy of Ashes*, 29-30, 39-40, 44-54, 61-70, 84-87, 92-105, 157, 133-40, 142, 187-89, 321-23, 717; Samuel P. Huntington, *The Third Wave* (1991)
94. Madeline G. Kalb, "The C.I.A. and Lumumba," *NYT*, 8/2/1981, https://www.nytimes.com/1981/08/02/magazine/the-cia-and-lumumba.html; Ed Pilkington, "Suleimani Killing the Latest in a Long Grim Line of US Assassination Efforts," *Guardian*, 1/4/2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/jan/04/us-political-assassinationshistory-iran-suleimani; Nicholas M. Horrock, "C.I.A. Is Reported to Have Helped in Trujillo Death," *NYT*, 6/13/1975.

https://www.nytimes.com/1975/06/13/archives/cia-is-reported-to-have-helped-in-trujillodeath-material-support.html.

95. Weiner, *Legacy of Ashes*, 32-33, 40-41, 628-29; Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 151-56.
96. Mark Gasiorowski, "The 1953 Coup D'etat in Iran," *International Journal of Middle East Studies* 19, no. 3 (1987), 261-86; Mostafa T. Zahrani, "The Coup That Changed the Middle East," *World Policy Journal* 19, no. 2 (2002), 93-99; Stephen Schlesinger and Stephen Kinzer, *Bitter Fruit* (1982), 227-55; Piero Gleijeses, "Ships in the Night," *Journal of Latin American Studies* 27, no. 1 (1995), 1-42; Milne, *Worldmaking*, 293-95, 307-9.
97. Richard A. Bitzinger, *Assessing the Conventional Balance in Europe, 1945-1975*, RAND Corporation (1989), 7, https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/notes/2007/N2859.pdf.
98. Mike Bowker, "Brezhnev and Superpower Relations," in Edwin Bacon and Mark Sandle, eds., *Brezhnev Reconsidered* (2002), 95.
99. Weiner, *Legacy of Ashes*, 48-54, 87.
100. A.J. Langguth, "Torture's Teachers," *NYT*, 6/11/1979, https://www.nytimes.com/1979/06/11/archives/tortures-teachers.html; Alfred W. McCoy, *A Question of Torture* (2006), 60-108.
101. John Ranelagh, *The Agency* (1986), 649-50.
102. Amnesty International, *Amnesty International Briefing: Iran* (1976), 9.
103. Reza Baraheni, "The Savak Documents," *The Nation* (2/23/1980), 198-202; James Risen, "How a Plot Convulsed Iran in '53 (and in '79)," *NYT*, 4/16/2000, https://www.nytimes.com/2000/04/16/world/secretshistory-cia-iran-special-report-plot-convulsed-iran-53-79.html.
104. Walter LaFeber, *Inevitable Revolutions* (1993), 113-27, 166-72, 255-60; Duilia Mora Turner, "Violent Crime in Post-Civil War Guatemala," *Naval Postgraduate School* (2015), 1, 14-15; Anna Belinda Sandoval Girón, "Taking Matters into One's Hands," *Urban Anthropology and Studies of Cultural Systems and World Economic Development* 36, no. 4 (2007), 357-79.
105. Weiner, *Legacy of Ashes*, 207.
106. Andrew F. Krepinevich Jr., *The Army and Vietnam* (1986), 228-29; Ralph W. McGehee, *Deadly Deceits* (1983), 156; Clodfelter, *Warfare*, 700-3; Victor Marchetti and John D. Marks, *The CIA and the Cult of Intelligence* (1974), 246; Seymour M. Hersh, "Moving Targets," *New Yorker*, 12/7/2003, https://www.newyorker.com/magazine/2003/12/15/moving-targets; Felix Belair Jr., "U.S. Aide Defends Pacification Program in Vietnam Despite Killings of Civilians," *NYT*, 7/20/1971.

https://www.nytimes.com/1971/07/20/archives/us-aide-defends-pacificationprogram-in-vietnam-despite-killings-of.html.

107. Ronald H. Spector, "The Vietnam War, 1954-1975," *Encyclopedia Britannica* (11/1/2019),

https://www.britannica.com/event/Vietnam-War; McGehee, *Deadly Deceits*, 156.

108. Chris Hilton, *Shadow Play* (2003), 1 hr 19 mins,

http://www. cultureunplugged.com/documentary/watch-online/play/52240/Shadow-Play; Vincent Bevins, "The 'Liberal World Order' Was Built with Blood," *NYT*, 5/29/2020,

https://www.nytimes.com/2020/05/29/opinion/sunday/united-states-cold-war.html.

109. Sargent, *Superpower*, 48-67.

110. Sargent, *Superpower*, 30-31, 100-30, 161, 193-94, 240-50.

111. Norrie MacQueen, "Elusive Settlement," in Oliver Furley and Roy May, eds., *Ending Africa's War* (2006), 147; Lydia Polgreen, "Angolans Come Home to 'Negative Peace,'" *NYT*, 7/30/2003,

https://www.nytimes.com/2003/07/30/world/angolans-come-home-to-negativepeace.html; "Tazara," *Railways Africa* 4 (2016), 6-13,

https://issuu.com/railwaysafrica/docs/ra_4-2016_final/15; Davide Rempe, "Bush Pledges Angola Rebel Aid," *NYT* 1/12/1989,

https://www.nytimes.com/1989/01/12/world/bush-pledges-angola-rebel-aid.html;

Piero Gleijeses, "Moscow's Proxy? Cuba and Africa 1975-1988," *Journal of Cold War Studies* 8, no. 2 (2006), 3-51.

112. Peter Popham, "Taliban Is a 'Monster Hatched by the US,'" *Independent*, 4/21/2014, https://www.independent.co.uk/news/world/asia/talibanis-a-monster-hatched-by-the-us-9272787.html; John Pilger, "The Colder War," *Counterpunch*, 1/31/2002, https://www.counterpunch.org/2002/01/31/the-colder-war/.

113. Charles G. Cogan, "Partners in Time," *World Policy Journal* 10, no. 2 (1993), 73-83; Central Intelligence Agency, Directorate of Intelligence, *The Costs of Soviet Involvement in Afghanistan* (1987), 5-7,

https://www.cia.gov/readingroom/docs/CIA-RDP89T00296R000100040006-9 pdf; Robert Pear, "Arming Afghan Guerrillas," *NYT*, 4/18/1988,

https://timesmachine.nytimes.com/timesmachine/1988/04/18/821888.

html?pageNumber=1; Serge Schmemann, "Gorbachev Says U.S. Arms Note Is Not Adequate," *NYT*, 2/26/1986,

https://www.nytimes.com/1986/02/26/world/gorbachev-says-us-arms-note-is-not-adequate.html.

114. McCoy, *Shadows*, 94-96.

115. Tacitus, *Dialogus Agricola Germania* (1914), 219-21.

116. Defense Secretary's Commission, *Base Realignments and Closures* (1988), 15; US Department of the Air Force, *United States Air Force Statistical Digest, FY 1998* (1999), 92; US General Accounting Office, *Navy Aircraft Carriers* (1998), 4.

117. Office of Management and Budget, The White House, "Table 3.1: Outlays by Superfunction and Function: 1940-2025," *Historical Tables*, https://www.whitehouse.gov/omb/historical-tables/.

118. US Secretary of Defense James Mattis, *Summary of the 2018 National Defense Strategy of the United States of America* (2018), 3, https://dod.defense.gov/Portals/1/Documents/pubs/2018-National-Defense-Strategy-Summary.pdf.

119. Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard* (1998), 35, 39.

120. Jeff Himmelman, "A Game of Shark and Minnow," *NYT*, 10/27/2013, http://www.nytimes.com/newsgraphics/2013/10/27/south-china-sea/index.html.

121. Eric Heginbotham et al., *The U.S.-China Military Scorecard, Forces, Geography and the Evolving Balance of Power, 1996-2017*, RAND Corporation (2015), 36, https://www.rand.org/pubs/research_reports/RR392.html.

122. Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 219-24; Farah Stockman, "The W.T.O. Is Having a Midlife Crisis," *NYT*, 12/17/2020, https://www.nytimes.com/2020/12/17/opinion/wto-trade-biden.html; Henry Veltmeyer, "Liberalisation and Structural Adjustment in Latin America," *Economic and Political Weekly* 28, no. 39 (1993), 2080-86; E. Borensztein and J. Ostrym, *Economic Reform and Structural Adjustment in East European Industry* (1994); Gavin Williams, "Why Structural Adjustment Is Necessary and Why It Doesn't Work," *Review of African Political Economy* 21, no. 60 (1994), 214-25; James Peck, *Ideal Illusions* (2010), 193-206.

123. Nick Routley, "Mapped: The World's Network of Undersea Cables," *Business Insider*, 8/26/2017, https://www.businessinsider.com/map-the-worlds-network-of-undersea-cables-2017-8/commerce-onbusiness-insider; "UCS Satellite Database," *Union of Concerned Scientists*, 1/1/2021, https://www.ucsusa.org/resources/satellite-database.

124. Richard Haass, "Present at the Disruption," *Foreign Policy* 99, no. 5 (2020), 24-34.

125. United Nations International Drug Control Programme, *Afghanistan: Annual Opium Poppy Survey 2001* (2001), iii, 11, 15-17, https://www.unodc.org/pdf/publications/report_2001-10-16_1.pdf; United Nations Office of Drugs and Crime, *World Drug Report 2018: Executive Summary* (2018), 8, https://www.unodc.org/wdr2018/prelaunch/WDR18_Booklet_1_EXSUM.pdf;

Special Inspector General for Afghan Reconstruction, *Quarterly Report to the United States Congress* (2019), 49, 200-1, https://www.sigar.mil/pdf/quarterlyreports/2019-10-30qr.pdf; "Text: Bush Announces Strikes Against Taliban," *WP*, 10/7/2001, https://www.washingtonpost.com/wp-srv/nation/specials/attacked/transcripts/bushaddress_100801.htm; Brian Knowlton, "Rumsfeld Rejects Plan To Allow Mullah Omar 'To Live in Dignity'," *NYT*, 12/7/2001, https://www.nytimes.com/2001/12/07/news/rumsfeldrejects-planto-allow-mullah-omar-to-live-in-dignity-taliban.html.

126. Amy Belasco, *The Cost of Iraq, Afghanistan, and Other Global War on Terror Operations Since 9/11* (2014), 10-11, 17, https://fas.org/sgp/crs/natsec/RL33110.pdf.

127. Joseph Goldstein, "Taliban Make Gains across 3 Provinces in Afghanistan," *NYT*, 7/28/2015, http://www.nytimes.com/2015/07/29/world/asia/taliban-make-gains-across-3-provinces-in-afghanistan.html.

128. Mathew Rosenberg, "Obama Is Rethinking Pullout in Afghanistan, Officials Say," *NYT*, 10/14/2015, https://www.nytimes.com/2015/10/14/world/asia/obama-is-rethinking-pullout-inafghanistan-officials-say.html; Rod Nordland and Joseph Goldstein, "Afghan Taliban's Reach Is Widest Since 2001, U.N. Says," *NYT*, 10/11/2015, https://www.nytimes.com/2015/10/12/world/asia/afghanistan-taliban-united-nations.html; Mujib Mashal, "Taliban and U.S. Strike Deal to Withdraw American Troops from Afghanistan," *NYT*, 2/29/2020, https://www.nytimes.com/2020/02/29/world/asia/us-taliban-deal.html; Mujib Mashal, "How the Taliban Outlasted a Superpower," *NYT*, 5/26/2020, https://www.nytimes.com/2020/05/26/world/asia/taliban-afghanistan-war.html; David E. Sanger and Michael D. Shear, "Biden saying, it is 'time to end America's longest war,' declares troops will be out of Afghanistan by Sept. 11," *NYT*, 4/14/2021, https://www.nytimes.com/2021/04/14/us/biden-afghanistan-troops.html; Carter Malkasian, "The Taliban Are Ready to Exploit America's Exit," *Foreign Affairs*, 4/14/2021, https://www.foreignaffairs.com/articles/afghanistan/2021-04-14/taliban-are-ready-exploit-americas-exit?.

129. Craig Whitlock, "At War with the Truth," *WP*, 12/9/2019, https://www.washingtonpost.com/graphics/2019/investigations/afghanistanpapers/afghanistan-war-confidential-documents/; "U.S. Costs To Date for the War in Afghanistan, 2001-2021," *Costs of War* (2021).

https://watson.brown.edu/costsofwar/figures/2021/human-and-budgetarycosts-date-us-war-afghanistan-2001-2021; Luis Martinez, et al., "As US troops prepare to pull out, a look at the war in Afghanistan by the numbers," *ABC News*, 4/13/2021, https://abcnews.go.com/Politics/us-troops-prepare-pull-war-afghanistan-numbers/story?id=77050902.

130. James P. Pfiffner, "U.S. Blunders in Iraq," *Intelligence and National Security* 25, no. 1 (2010), 76-85; James Dobbins et al., *Occupying Iraq* (2009), xv, xxvi; Joel D. Rayburn and Frank K. Sobchak, *The U.S. Army in the Iraq War*, vol. 1 (2019), 140-44; Michael Gordon and Bernard E. Trainor, *Cobra II* (2006), 475-83.

131. Pfiffner, "U.S. Blunders," 80-85; Rayburn, *Iraq War*, vol. 1, 141-42, 272-73; "Letter from L. Paul Bremer to George W. Bush, May 22, 2003," *NYT*, 5/22/2003, https://archive.nytimes.com/www.nytimes.com/ref/washington/04bremer-text1.html.

132. Rayburn, *Iraq War*, vol. 1, 125, 177, 235-37, 239-40, 264-65, 290, 300, 507; Joel D. Rayburn and Frank K. Sobchak, *The U.S. Army in the Iraq War*, vol. 2 (2019), 615; Gregg Zoroya, "How the IED Changed the U.S. Military," *USA Today*, 12/18/2013, https://www.usatoday.com/story/news/nation/2013/12/18/ied-10-years-blast-woundsamputations/3803017/; Evan Thomas, "Iraq: Can American Military Stop Deadly IEDs?," *Newsweek*, 8/15/2007, https://www.newsweek.com/iraq-can-american-military-stop-deadly-ieds-99133.

133. Alfred W. McCoy, *Torture and Impunity* (2012), 16-51; Alfred W. McCoy, "How to Read the Senate Report on CIA Torture," *History News Network*, 12/21/2014, http://historynewsnetwork.org/article/157950.

134. Robert Fisk, "Secrets of the Morgue," *Independent*, 9/20/2015, https://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/secrets-of-themorgue-baghdads-body-count-503223.html; Alissa J. Rubin and Stephen Farrell, "Awakening Councils by Region," *NYT*, 12/22/2007, https://www.nytimes.com/2007/12/22/world/middleeast/23awakegraphic.html; Mirian Berger, "Invader, Allies, Occupiers, Guests," *WP*, www.nytimes.com/2021/04/14/us/biden-afghanistan-troops.html; Carter Malkasian, "The Taliban Are Ready to Exploit America's Exit," *Foreign Affairs*, 4/14/2021, https://www.foreignaffairs.com/articles/afghanistan/2021-04-14/taliban-are-ready-exploit-americas-exit?.

129. Craig Whitlock, "At War with the Truth," *WP*, 12/9/2019, https://www.washingtonpost.com/graphics/2019/investigations/afghanistanpapers/afghanistan-war-confidential-documents/; "U.S. Costs To Date for the War in Afghanistan, 2001-2021," *Costs of War* (2021), https://watson.brown.edu/costsofwar/figures/2021/human-and-budgetarycosts-date-us-war-afghanistan-2001-2021; Luis Martinez, et al., "As US troops prepare to pull out, a look at the war in Afghanistan by the numbers," *ABC News*, 4/13/2021,

https://abcnews.go.com/Politics/us-troops-prepare-pull-war-afghanistan-numbers/story?id=77050902.

130. James P. Pfiffner, "U.S. Blunders in Iraq," *Intelligence and National Security* 25, no. 1 (2010), 76-85; James Dobbins et al., *Occupying Iraq* (2009), xv, xxvi; Joel D. Rayburn and Frank K. Sobchak, *The U.S. Army in the Iraq War*, vol. 1 (2019), 140-44; Michael Gordon and Bernard E. Trainor, *Cobra II* (2006), 475-83.

131. Pfiffner, "U.S. Blunders," 80-85; Rayburn, *Iraq War*, vol. 1, 141-42, 272-73; "Letter from L. Paul Bremer to George W. Bush, May 22, 2003," *NYT*, 5/22/2003, https://archive.nytimes.com/www.nytimes.com/ref/washington/04bremer-text1.html.

132. Rayburn, *Iraq War*, vol. 1, 125, 177, 235-37, 239-40, 264-65, 290, 300, 507; Joel D. Rayburn and Frank K. Sobchak, *The U.S. Army in the Iraq War*, vol. 2 (2019), 615; Gregg Zoroya, "How the IED Changed the U.S. Military," *USA Today*, 12/18/2013, https://www.usatoday.com/story/news/nation/2013/12/18/ied-10-years-blast-woundsamputations/3803017/; Evan Thomas, "Iraq: Can American Military Stop Deadly IEDs?," *Newsweek*, 8/15/2007, https://www.newsweek.com/iraq-can-american-military-stop-deadly-ieds-99133.

133. Alfred W. McCoy, *Torture and Impunity* (2012), 16-51; Alfred W. McCoy, "How to Read the Senate Report on CIA Torture," *History News Network*, 12/21/2014, http://historynewsnetwork.org/article/157950.

134. Robert Fisk, "Secrets of the Morgue," *Independent*, 9/20/2015, https://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/secrets-of-themorgue-baghdads-body-count-503223.html; Alissa J. Rubin and Stephen Farrell, "Awakening Councils by Region," *NYT*, 12/22/2007, https://www.nytimes.com/2007/12/22/world/middleeast/23awakegraphic.html; Mirian Berger, "Invader, Allies, Occupiers, Guests," *WP*, 1/11/2020, https://www.washingtonpost.com/world/2020/01/11/invaders-allies-occupiers-guests-brief-history-us-military-involvementiraq/;
"Iraq's Sectarian War: James Steele; America's Mystery Man in Iraq," *Guardian/BBC Arabic* (2013), 51 mins, https://www.youtube.com/watch?v=_caIHsC6MH0.

135. Liz Sly and Louisa Loveluck, "The Caliphate Is No More," *WP*, 3/23/2019, https://www.washingtonpost.com/world/the-islamic-states-caliphate-has-been-defeated-us-backed-forcessay/2019/03/23/04263d74-36f8-11e9-8375-e3dcf6b68558_story.html; Berger, "Invader, Allies, Occupiers, Guests"; Tim Arango et al., "The Iran Cables," *NYT*, 11/19/2019, https://www.nytimes.com/interactive/2019/11/18/world/middleeast/iran-iraq-spy-cables.html.

136. Rayburn, *Iraq War*, vol. 2, 639-41.

137. McCoy, *Shadows*, 178; US Special Operations Command, *USSOCOM Fact Book 2015* (2014), 12,
https://www.socom.mil/FactBook/2015%20Fact%20Book.pdf;
Nick Turse, "American Special Operations Forces Have a Very Funny Definition of Success," *The Nation*, 10/26/2015,
https://www.thenation.com/article/american-special-operations-forceshave-a-very-funny-definition-of-success/.

138. Micah Zenko and Emma Welch, "Where the Drones Are," *Foreign Policy*, 5/29/2012,
http://foreignpolicy.com/2012/05/29/where-the-drones-are/.

139. Andrew Cockburn, *Kill Chain* (2016), 252-53.

140. Herbert Docena, *'At the Door of All the East'* (2007), 7, 22-23, 45-51, 71, 91-106; Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 234-35.

141. Bryan Clark et al., *Restoring American Seapower* (2017), 43-46,
https://csbaonline.org/uploads/documents/CSBA6224-Fleet_Architecture_Study_WEB.pdf.

142. James C. Hsiung, "The Aftermath of China's Accession to the World Trade Organization," *Independent Review* 8, no. 1 (2003), 87-89,
http://www.independent.org/pdf/tir/tir_08_1_6_hsiung.pdf.

143. Neil C. Hughes, "A Trade War with China?," *Foreign Affairs* 84, no. 4, (2005), 94-106.

144. US National Intelligence Council, *Global Trends 2030* (2012), i-iii, 105,
http://www.dni.gov/files/documents/GlobalTrends_2030.pdf.

145. Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 278-79; Mike Patton, "U.S. Role in Global Economy Declines Nearly 50%," *Forbes*, 2/29/2016,
https://www.forbes.com/sites/mikepatton/2016/02/29/u-s-role-in-global-economydeclines-nearly-50/; PricewaterhouseCoopers, *The World in 2050* (2015), 1-3,
https://www.pwc.com/gx/en/issues/economy/the-world-in-2050.html.

146. James McBride and Andrew Chatzky, "Is 'Made in China 2025' a Threat to Global Trade?," *Council on Foreign Relations*, 5/13/2019,
https://www.cfr.org/backgrounder/made-china-2025-threat-global-trade.

147. World Intellectual Property Organization, *World Intellectual Property Indicators 2015* (2015), 6,
https://www.wipo.int/edocs/pubdocs/en/wipo_pub_941_2015.pdf.

148. World Intellectual Property Organization, *World Intellectual Property Indicators 2017* (2017), 29,
https://www.wipo.int/edocs/pubdocs/en/wipo_pub_941_2017.pdf.

149. Ashlee Vance, "China Wrests Supercomputer Title from U.S.," *NYT*, 10/28/2010, https://www.nytimes.com/2010/10/28/technology/28compute.html.

150. Steve Lohr, "Move Over China," *NYT*, 6/8/2018, https://www.nytimes.com/2018/06/08/technology/supercomputer-china-us.html.

151. OECD, Programme for International Student Assessment (*PISA*), "Results from PISA 2012: United States," http://www.oecd.org/pisa/keyfindings/PISA-2012-results-US.pdf.

152. OECD, *PISA 2015: PISA Results in Focus* (2015), 5, https://www.oecd.org/pisa/pisa-2015-results-in-focus.pdf; OECD, "Snapshot of Students' Performance in Reading, Mathematics and Science," *PISA 2018 Results* (2018), https://www.oecd.org/pisa/PISA-results_ENGLISH.png.

153. Christopher J. Neely, "Chinese Foreign Exchange Reserves and the U.S. Economy," Federal Reserve Bank of St. Louis, *Economic Synopses*, no. 9 (2016), https://research.stlouisfed.org/publications/economicsynopses/2016/05/06/chinese-foreign-exchange-reserves-and-the-us-economy/; World Bank, *China Economic Update* (June 2015), 3-4, https://www.worldbank.org/content/dam/Worldbank/document/EAP/China/ceu_06_15_en.pdf.

154. "Remarks by President Obama to the Australian Parliament," Office of the Press Secretary, White House, 11/17/2011, https://www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/11/17/remarks-president-obama-australian-parliament.

155. Jeffrey Goldberg, "The Obama Doctrine," *The Atlantic* (April 2016), http://www.theatlantic.com/magazine/archive/2016/04/the-obama-doctrine/471525/.

156. Office of the Press Secretary, "Obama Administration Finalizes Historic 54.5 MPG Fuel Efficiency Standards," White House, 8/28/2012, https://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/2012/08/28/obama-administration-finalizes-historic-545-MPG-fuel-efficiencystandard; Marianne Lavelle, "2016: Obama's Climate Legacy Marked by Triumphs and Lost Opportunities," *Inside Climate News*, 12/26/2016, https://insideclimatenews.org/news/23122016/obama-climate-changelegacy-trump-policies; Smil, *Energy*, 123-24; US Energy Information Administration, "Table 1.1. Net Generation by Energy Source: Total (All Sectors), 2010-April 2020," *Electric Power Monthly* (6/24/2020), https://www.eia.gov/electricity/monthly/epm_table_grapher.php?t=epmt_1_01.

157. Lavelle, "2016"; "Overview of U.S. Petroleum Production, Imports, Exports, and Consumption," Bureau of Transportation Statistics, US Department of Transportation,

https://www.bts.gov/content/overview-us-petroleum-production-imports-exports-and-consumptionmillion-barrels-day; "Oil: Crude and Petroleum Products Explained," US Energy Information Administration (4/14/2021), https://www.eia.gov/energyexplained/index.php?page=oil_use; Robert Rapier, "How Much Oil Do We Import from the Middle East?," *Forbes*, 1/7/2020, https://www.forbes.com/sites/rrapier/2020/01/07/how-much-oil-do-we-import-from-the-middle-east/#74cce8fb21c6.

158. Australia Centre on China in the World, "Australia and the American 'Pivot to Asia,'" The Australia-China Story (2015), http://aus.thechinastory.org/archive/australia-and-the-american-pivot-to-asia/.

159. "Editorial: Jeju Naval Base," *Korea Herald*, 2/29/2016, http://www.koreaherald.com/view.php?ud=20160229001123; Andrew Salmon, "S. Korea Base Tests U.S., Chinese Interests," *Washington Times*, 10/5/2011, http://www.washingtontimes.com/news/2011/oct/5/us-base-testsdueling-interests-in-s-korea/; Javier C. Hernandez and Floyd Whaley, "Philippine Supreme Court Approves Return of U.S. Troops," NYT, 1/12/2016, https://www.nytimes.com/2016/01/13/world/asia/philippines-us-military.html.

160. Vince Scappatura, "The US 'Pivot to Asia,' the China Specter and the Australian-American Alliance," *Asia-Pacific Journal* 12, issue 36, no. 3 (2014), https://apjjf.org/2014/12/36/Vince-Scappatura/4178/article.html.

161. "Remarks by Secretary Hagel at the IISS Asia Security Summit, Shangri-La Hotel, Singapore," 6/01/2013, https://content.govdelivery.com/accounts/USDOD/bulletins/7d7ac2.

162. Liu Zhun, "Vying for Influence Dilutes Obama's African Visit," *Global Times*, 7/27/2015, http://www.globaltimes.cn/content/933987.shtml.

163. Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 344-45; Peter Baker, "Obama, on China's Turf, Presents U.S. as a Better Partner for Africa," *NYT*, 7/29/2015, https://www.nytimes.com/2015/07/30/world/africa/obama-on-chinas-turf-presents-us-as-a-better-partner-for-africa.html.

164. Kevin Granville, "The Trans-Pacific Partnership Trade Deal Explained," *NYT*, 5/11/2015, http://www.nytimes.com/2015/05/12/business/unpacking-the-trans-pacific-partnership-trade-deal.html.

165. Alan Rappeport, "Elizabeth Warren Knocks Obama over Trade Deal Transparency," *NYT*, 4/22/2015, http://www.nytimes.com/politics/first-draft/2015/04/22/elizabeth-warren-knocks-obama-over-trade-dealtransparency/.

166. Jonathan Weisman, "Trade Authority Bill Wins Final Approval in Senate," *NYT*, 6/24/2015, http://www.nytimes.com/2015/06/25/business/tradepact-senate-vote-obama.html.

167. International Monetary Fund, "Report for Selected Country Groups and Subjects," *World Economic Outlook*, 7/24/2014, https://www.imf.org/en/Publications/WEO/weo-database/2014/April; European Commission, "EU Position in World Trade," 2/9/2019, http://ec.europa.eu/trade/policy/eu-position-in-world-trade; Economist Intelligence Unit, *Foresight 2020* (2006), 8-9, http://graphics.eiu.com/files/ad_pdfs/eiuForesight2020_WP.pdf.

168. Andrew Walker, "TTIP," *BBC News*, 5/13/2015, http://www.bbc.com/news/business-32691589.

169. Philip Blenkinsop, "Trump Victory Could Spell Defeat for EU-U.S. Trade Deal," *Reuters*, 11/9/2016, https://www.reuters.com/article/us-usa-election-trade-eu-idUSKBN1342TF.

170. Gordon Lubold, "Has the White House Bungled a Historic Africa Summit?," *Foreign Policy*, 7/9/2014, http://foreignpolicy.com/2014/07/09/has-the-white-house-bungled-a-historic-africa-summit/.

171. Baker, "Obama, on China's Turf."

172. Sylvie Lanteaume, "US Wants to Reduce Presence in Africa, Warns Top Officer," *AFP*, 1/13/2020, https://news.yahoo.com/us-wants-reducepresence-africa-warns-top-officer-160719391.html; John Ford, "The Pivot to Asia Was Obama's Biggest Mistake," *The Diplomat*, 1/21/2017, https://thediplomat.com/2017/01/the-pivot-to-asia-was-obamas-biggestmistake/.

173. Peter S. Goodman, "More Wealth, More Jobs, but Not for Everyone," *NYT*, 9/28/2016, https://www.nytimes.com/2016/09/29/business/economy/more-wealth-more-jobs-but-not-for-everyone-what-fuels-thebacklash-on-trade.html.

174. Bulmer-Thomas, *Empire in Retreat*, 260-61; Binyamin Appelbaum, "A Little-Noticed Fact about Trade," *NYT*, 10/30/2016, https://www.nytimes.com/2016/10/31/upshot/a-little-noticed-fact-about-trade-itsno-longer-rising.html.

175. John B. Judis, *The Populist Explosion* (2016), 131-53; Jan-Werner Müller, *What Is Populism?* (2016), 7-40.

176. Peter Baker, "Trump Abandons Trans-Pacific Partnership," *NYT*, 1/23/2017, https://www.nytimes.com/2017/01/23/us/politics/tpptrump-trade-nafta.html.

177. Michael D. Shear, "Trump Will Withdraw U.S. from Paris Climate Agreement," *NYT*, 9/13/2020,
https://www.nytimes.com/2017/06/01/climate/trump-paris-climate-agreement.html; Michael D. Shear and Coral Davenport, "In Visiting a Charred California, Trump Confronts a Scientific Reality He Denies," *NYT*, 9/14/2020,
https://www.nytimes.com/2020/09/13/us/politics/california-fires-trump-climate-change.html.

178. Smil, *Energy*, 20, 152; Nicola Jones, "How the World Passed a Carbon Threshold and Why It Matters," *Yale Environment 360*, 1/26/2017,
https://e360.yale.edu/features/how-the-world-passed-a-carbon-threshold-400ppm-and-why-it-matters.

179. Julie Pace and Jonathan Lemire, "Trump Scolds Fellow NATO Leaders," *AP News*, 5/26/2017,
https://www.apnews.com/2ed02c1ee7c64061a2bf146bfb0a4b2c.

180. Oliver Holmes and Tom Phillips, "Trump Attacks Countries 'Cheating' America at Apec Summit," *Guardian*, 11/10/2017,
https://www.theguardian.com/us-news/2017/nov/10/trump-attacks-countries-cheating-america-at-apec-summit.

181. "Remarks by President Trump at APEC CEO Summit, Danang, Vietnam, November 10, 2017," *U.S. Mission to ASEAN*,
https://asean.usmission.gov/remarks-president-trump-apec-ceo-summit-da-nang-vietnam/.

182. "Full Text of Chinese President Xi's Address at APEC CEO Summit," *Xinhuanet*, 11/11/2017,
http://www.xinhuanet.com/english/2017-11/11/c_136743492.htm.

183. Alexandra Stevenson and Motoko Rich, "Trans-Pacific Trade Partners Are Moving On, Without the U.S.," *NYT*, 11/11/2017,
https://www.nytimes.com/2017/11/11/business/trump-tpp-trade.html.

184. David D. Kirkpatrick, "In Snub to U.S., Russia and Egypt Move Toward Deal on Air Bases," *NYT*, 11/30/2017,
https://www.nytimes.com/2017/11/30/world/middleeast/russia-egypt-air-bases.html.

185. Jane Perlez, "In China, Aung San Suu Kyi Finds a Warm Welcome (and No Talk of Rohingya)," *NYT*, 11/30/2017,
https://www.nytimes. com/2017/11/30/world/asia/china-myanmar-aid-sanctions.html.

186. Jane Perlez and Damien Cave, "As China Rises, Australia Asks Itself: Can It Rely on America?," *NYT*, 12/3/2017,
https://www.nytimes.com/2017/12/03/world/australia/australia-us-china-alliances.html.

187. Melissa Eddy, "In Era of Trump, Germany Seeks a Stronger Role Abroad," *NYT*, 12/5/2017,
https://www.nytimes.com/2017/12/05/world/europe/germany-trump-sigmar-gabriel.html.

188. Jean Kirby, "Mexican President Enrique Peña Nieto Goes Ahead and Cancels That Meeting with Donald Trump," *New York Magazine*, 1/26/2017,
http://nymag.com/daily/intelligencer/2017/01/mexican-president-cancels-that-meeting-with-trump.html; Stephen Castle, "Trump's Tweets Manage a Rare Feat," *NYT*, 11/30/2017,
https://www.nytimes.com/2017/11/30/world/europe/trump-tweets-uk-visit.html; Missy Ryan et al., "Piling on pressure over safe havens, U.S. suspends military aid to Pakistan," *WP*, 1/4/2018,
https://www.washingtonpost.com/world/national-security/feud-between-us-and-pakistan-flares-up-aftertrumps-lies-and-deceit-tweet/2018/01/04/7cb457b8-f08a-11e7-97bf6ba379b809ab_story.html.

189. Mark Landler, "Trump Threatens to End American Aid," *NYT*, 12/20/2017,
https://www.nytimes.com/2017/12/20/world/middleeast/trump-threatens-to-end-american-aid-were-watching-those-votes-atthe-un.html; Tracy Wilkinson and Noga Tarnopolsky, "U.N. Votes Overwhelmingly to Condemn U.S. Decision to Recognize Jerusalem Despite Trump's Threats," *Los Angeles Times*, 12/21/2017,
http://latimes.com/nation/la-fg-un-jerusalem-vote-20171221-story.html.

190. Gallup, "Rating World Leaders: 2018; The U.S. vs. Germany, China and Russia,"
https://www.politico.com/f/?id=00000161-0647-da3ca371-867f6acc0001.

191. Fareed Zakaria, "The Decline of U.S. Influence Is the Great Global Story of Our Age," *WP*, 12/28/2017,
https://www.washingtonpost.com/opinions/global-opinions/the-decline-of-us-influence-is-the-greatglobal-story-of-our-times/2017/12/28/bfe48262-ebf6-11e7-9f92-10a2203f6e8d_story.html.

192. Mark Landler, "Trump Abandons Iran Nuclear Deal He Long Scorned," *NYT*, 5/8/2018,
https://www.nytimes.com/2018/05/08/world/middleeast/trump-iran-nuclear-deal.html; "Quadrilateral security dialogue," *Times of India*, 11/12/2017,
https://timesofindia.indiatimes.com/india/quadrilateral-security-dialogue-india-australia-japan-us-holdtalks-on-indo-pacific-cooperation/articleshow/61616602.cms.

193. Jeremy Diamond, "Trump Opens NATO Summit with Blistering Criticism of Germany, Labels Allies 'Delinquent,'" CNN Politics, 7/11/2018,
https://www.cnn.com/2018/07/10/politics/donald-trumpnato-summit-2018/index.html.

194. Eileen Sullivan, "Trump Questions the Core of NATO: Mutual Defense, Including Montenegro," *NYT*, 7/18/2018,
https://www.nytimes.com/2018/07/18/world/europe/trump-nato-self-defense-montenegro.html.

195. Tom Newton Dunn, "Exclusive Interview with President Trump," *Sun* (London), 7/13/2018,
https://www.thesun.co.uk/news/6766531/trump-may-brexit-us-deal-off/.

196. Editorial Board, "Russia Attacks America's Election System," *NYT*, 8/1/2018,
https://www.nytimes.com/2018/08/01/opinion/editorials/russia-election-meddling-trump-putin.html.

197. John W. Schoen, "Japanese Prime Minister Shinzo Abe Faces Pressure to Join Trade War against the US," *CNBC*, 6/7/2018,
https://www.cnbc.com/2018/06/07/abe-faces-pressure-to-join-trade-war-againstthe-u-s.html; Robin Harding, "Japan Plays It Cool on Response to US Steel Tariffs," *Financial Times*, 4/4/2018,
https://www.ft.com/content/c7fc9ae0-37e4-11e8-8b98-2f31af407cc8; Reuters, "Pompeo Announces $113 Million in New US Initiatives in 'Indo-Pacific,'" CNBC, 7/30/2018,
https://www.cnbc.com/2018/07/30/pompeo-to-announce-initiativesfocusing-on-digital-economy-energy-an.html.

198. Damian Paletta and Joel Achenbach, "Trump Accuses Canadian Leader of Being 'Dishonest' and 'Weak,'" *WP*, 6/10/2018,
https://www.washingtonpost.com/politics/trump-attacks-canada-to-show-northkorea-hes-strong-aide-says/2018/06/10/afe16c0c-6cba-11e8-bd50-b80389a4e569_story.html; Reuters, "Trump Claims North Korea Is 'No Longer a Nuclear Threat,'" *CNBC*, 6/13/2018,
https://www.cnbc.com/2018/06/13/trump-says-north-korea-no-longer-a-nuclear-threat.html.

199. Ellen Nakashima and Joby Warrick, "U.S. Spy Agencies: North Korea Is Working on New Missiles," *WP*, 7/30/2018,
https://www.washingtonpost.com/world/national-security/us-spy-agencies-northkorea-is-working-on-new-missiles/2018/07/30/b3542696-940d-11e8-a679-b09212fb69c2_story.html.

200. Editorial Board, "North Korea's Complaint," *Wall Street Journal*, 8/5/2018,
https://www.wsj.com/articles/north-koreas-complaint-1533501905.

201. David E. Sanger and Edward Wong, "How the Trump-Kim Summit Failed," *NYT*, 3/2/2019,
https://www.nytimes.com/2019/03/02/world/asia/trump-kim-jong-un-summit.html; Choe Sang-Hun, "North Korea Launches 2 Projectiles," *NYT*, 8/15/2019,

https://www.nytimes.com/2019/08/15/world/asia/north-korea-missile-tests.html; Editorial Board, "Mr. Trump's Lose-Lose Proposition in Korea," *NYT*, 11/21/2019, https://www.nytimes.com/2019/11/21/opinion/trump-korea.html.

202. Thom Shanker and David E. Sanger, "Privacy May Be a Victim in Cyberdefense Plan," *NYT*, 6/12/2009, https://www.nytimes.com/2009/06/13/us/politics/13cyber.html; David E. Sanger, "Obama Order Sped Up Wave of Cyberattacks against Iran," *NYT*, 6/1/2012, https://www.nytimes.com/2012/06/01/world/middleeast/obamaordered-wave-of-cyberattacks-against-iran.html; James Glanz and Andrew W. Lehren, "N.S.A. Spied on Allies, Aid Groups and Businesses," *NYT*, 12/20/2013, https://www.nytimes.com/2013/12/21/world/nsa-dragnetincluded-allies-aid-groups-and-business-elite.html.

203. US Senate, 116th Congress, 1st Session, *Report of the Select Committee on Intelligence, United States Senate on Russian Active Measures Campaigns and Interference in the 2016 U.S. Election*, vol. 2, *Russia's Use of Social Media with Additional Views* (2020), 1-22, https://www.intelligence.senate.gov/sites/default/files/documents/Report_Volume2.pdf.

204. Greg Miller and Ellen Nakashima, "Wikileaks Says It Has Obtained a Trove of CIA Hacking Tools," *WP*, 3/7/2017, https://www.washingtonpost.com/world/national-security/wikileaks-says-it-hasobtained-trove-of-cia-hacking-tools/2017/03/07/c8c50c5c-0345-11e7-b1e9-a05d3c21f7cf_story.html; Ellen Nakashima and Shane Harris, "Elite CIA Unit That Developed Hacking Tools Failed to Secure Its Own Systems, Allowing Massive Leak, an Internal Report Found," *WP*, 6/16/2020, https://www.washingtonpost.com/national-security/elite-cia-unit-that-developed-hacking-tools-failedto-secure-its-own-systems-allowing-massive-leak-an-internal-reportfound/2020/06/15/502e3456-ae9d-11ea-8f56-63f38c990077_story.html; David E. Sanger et al., "Scope of Russian Hacking Becomes Clear," *NYT*, 12/14/2020, https://www.nytimes.com/2020/12/14/us/politics/russia-hack-nsa-homeland-security-pentagon.html.

205. Paul-Martin Foss, "Trade War with China Continues to Escalate," *Red Tea News*, 9/19/2018, http://redtea.com/america-now/trade-war-with-china-continues-to-escalate/.

206. Ana Swanson and Keith Bradsher, "Trump Officials Praise Gains from China Deal, but They Come at a Cost," *NYT*, 12/15/2019, https://www.nytimes.com/2019/12/15/business/economy/us-china-trade-deal.html; Ana Swanson and Alan Rappeport, "Trump Signs China Trade Deal, Putting Economic Conflict on Pause," *NYT*, 1/15/2020,

https://www.nytimes.com/2020/01/15/business/economy/china-trade-deal.html.

207. Matina Stevis-Gridneff and Lara Jakes, "World Leaders Join to Pledge $8 Billion for Vaccine as U.S. Goes It Alone," *NYT*, 5/4/2020, https://www.nytimes.com/2020/05/04/world/europe/eu-coronavirus-vaccine.html; Hope Yen, "AP Fact Check: Trump's Move to Quit WHO Cites Flawed Facts," *AP News*, 6/1/2020, https://apnews.com/article/unitednations-donald-trump-us-news-ap-top-news-virus-outbreak-e9fe85641b93d447dfd529095c2640e4; "Covid-19 Coronavirus Pandemic: Reported Cases and Deaths by Country, Territory, or Conveyance," *Worldometer*, 1/20/2021, https://www.worldometers.info/coronavirus; Avie Schneider, "40.8 million Out of Work in The Past 10 Weeks—26% of Labor Force," *NPR*, 5/28/2020, https://www.npr.org/sections/coronavirus-liveupdates/2020/05/28/863120102/40-8-million-out-of-work-in-the-past-10-weeks; Centre for Economics and Business Research, *World Economic League Table 2021* (London), 70-71, https://cebr.com/wp-content/uploads/2020/12/WELT-2021-final-23.12.pdf; Steven Lee Myers et al., "Power, Patriotism and 1.4 Billion People," *NYT*, 2/5/2021, https://www.nytimes.com/2021/02/05/world/asia/china-covid-economy.html; Keith Bradsher, "With Covid-19 Under Control, China's Economy Surges Ahead," *NYT*, 10/18/2020, https://www.nytimes.com/2020/10/18/business/china-economy-covid.html; Jeanna Smialek, "Fed Chair Says Economic Recovery May 'Stretch' through End of 2021," *NYT*, 5/17/2020, https://www.nytimes.com/2020/05/17/business/economy/fed-powell-economic-recovery.html.

208. Monika Pronczuk and Mihir Zaveri, "Statue of Leopold II, Belgian King Who Brutalized Congo, Is Removed in Antwerp," *NYT*, 6/9/2020, https://www.nytimes.com/2020/06/09/world/europe/king-leopold-statue-antwerp.html; Meryl Kornfield et al., "Huge Peaceful Protests Mark Anti-racism Demonstrations around the Globe," *WP*, 6/6/2020, https://www.washingtonpost.com/health/huge-peaceful-protests-mark-anti-racism-demonstrations-around-theglobe/2020/06/06/da269bd0-a817-11ea-bb20-ebf0921f3bbd_story.html; Michael Levenson, "Protesters Topple Statue of Jefferson Davis on Richmond's Monument Avenue," *NYT*, 6/11/2020, https://www.nytimes.com/2020/06/11/us/Jefferson-Davis-Statue-Richmond.html; Lateshia Beachum et al., "Christopher Columbus Statues Toppled in Minnesota, Beheaded in Boston, Attacked in Richmond," *WP*, 6/10/2020.

https://www.washingtonpost.com/history/2020/06/10/christopher-columbus-statue-beheaded-boston-richmond/; Michael Wines, "'Looting' Comment from Trump Dates Back to Racial Unrest of the 1960s," *NYT*, 5/29/2020, https://www.nytimes.com/2020/05/29/us/looting-starts-shooting-starts.html.

209. Mark Berman et al., "Protests Spread over Police Shootings," *WP*, 6/8/2020, https://www.washingtonpost.com/investigations/protests-spread-over-police-shootings-police-promised-reforms-everyyear-they-still-shoot-nearly-1000-people/2020/06/08/5c204f0c-a67c-11ea-b473-04905b1af82b_story.html; Steven Raphael and Michael A. Stoll, *Why Are So Many Americans in Prison?* (2013), 4-13; David Brooks, "How to Do Reparations Right," *NYT*, 6/4/2020, https://www.nytimes.com/2020/06/04/opinion/united-states-reparations.html; Condoleezza Rice, "This Moment Cries Out for Us to Confront Race in America," *WP*, 6/4/2020, https://www.washingtonpost.com/opinions/2020/06/04/condoleezza-rice-moment-confront-race-america/.

210. Stephen Erlanger, "Embattled at Home, Trump Finds Himself Isolated Abroad, Too," *NYT*, 6/2/2020, https://www.nytimes.com/2020/06/02/world/europe/trump-merkel-allies.html; Haass, "Present at the Disruption."

211. Maggie Haberman, "Trump Told Crowd 'You Will Never Take Back Our Country with Weakness,'" *NYT*, 1/6/2021, https://www.nytimes.com/2021/01/06/us/politics/trump-speech-capitol.html; Lisa Lerer, "Marooned at Mar-a-Lago, Trump Still Has Iron Grip on Republicans," *NYT*, 5/8/2021, https://www.nytimes.com/2021/05/08/us/politics/trump-republicans-liz-cheney.html.

212. Keith Bradsher and Ana Swanson, "China-Led Trade Pact Is Signed, in Challenge to the U.S.," *NYT*, 11/15/2020, https://www.nytimes.com/2020/11/15/business/china-trade-rcep.html; Robin Emmott and John Irish, "After Trump, Europe Aims to Show Biden It Can Fight for Itself," *Reuters*, 11/27/2020, https://www.reuters.com/article/usaelection-eu-defence/after-trump-europe-aims-to-show-biden-it-canfight-for-itself-idINKBN27X0WX; Tom McTague, "Joe Biden Won't Fix America's Relationships," *The Atlantic*, 11/8/2020, https://www.theatlantic.com/international/archive/2020/11/joe-biden-americaworld/617016/; "Transition Highlights," *NYT*, 11/25/2020, https://www.nytimes.com/live/2020/11/24/us/joe-biden-trump; Michael Crowley and Steven Erlanger, "Biden's Plan to Link Arms with Europe against Russia and China Isn't So Simple," *NYT*, 2/18/2021,

https://www.nytimes.com/2021/02/18/us/politics/biden-europe-russia-china.html.

213. Brzezinski, *Grand Chessboard*, 35, 39.

214. Smil, *Energy*, 200-201; Yessenia Funes, "Denmark Sets New Record for Wind Energy, Putting Us All to Shame," *Gizmodo*, 1/2/2020, https://earther.gizmodo.com/denmark-sets-new-record-for-wind-energy-puttingus-all-1840777389; "Renewable Energy's Share of German Power Mix Rose to 46% Last Year: Research Group," *Reuters*, 1/3/2020, https://www.reuters.com/article/us-germany-power-outputmix/renewableenergys-share-of-german-power-mix-rose-to-46-last-year-research-groupidUSKBN1Z21K1; US Energy Information Administration, "What Is U.S. Electricity Generation by Energy Source?," 2/27/2020, https://www.eia.gov/tools/faqs/faq.php?id=427&t=3; BP, "China's Energy Market in 2018," *Statistical Review 2019*, https://www.bp.com/content/dam/bp/business-sites/en/global/corporate/pdfs/energy-economics/statisticalreview/bp-stats-review-2019-china-insights.pdf; Clifford Krauss, "U.S. and European Oil Giants Go Different Ways on Climate Change," *NYT*, 9/21/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/21/business/energyenvironment/oil-climate-change-us-europe.html.

215. Andreas Malm, *Fossil Capital* (2016), 3, 328-29, 353; International Energy Administration, "Global CO2 emissions in 2019/Energy related CO2 emissions, 1990-2019," 2/11/2020, https://www.iea.org/articles/global-co2-emissions-in-2019; Zeke Hausfather, "Analysis: Global CO2 Emissions Set to Rise 2% in 2017 after Three-Year 'Plateau,'" *Global Carbon Project*, 11/13/2017, https://www.carbonbrief.org/analysis-global-co2-emissions-set-to-rise-2-percent-in-2017-following-three-year-plateau.

الفصل السادس

نظام پكين العالمي



الرئيس الصيني شي جنپنگ يُعلن عن مبادرة الحزام والطريق في أستانا في كازخستان 2013
(Credit: Alamy)

في شهر أيلول من عام 2013، وقف الرئيس الصيني الجديد شي جِنپِنگ مُبتسما وواثقا من نفسه أمام جمهور جامعة نزار باليف بكازَخستان لإلقاء خطاب تجاوز بكثير التفاهات المعتادة لزيارة الدولة. بعد الإشادة بالدِكتاتور

الذي خدم البلاد لفترة طويلة والإشادة بالصداقة بين البلدين على أنها مثل "تقارب الشفاه والأسنان." قدّم شي حكاية شخصية عن الدور التاريخي لتلك الأرض في قلب طريق الحرير بين الصين وأوروبا. قال، "شنشي هي مسقط رأسي، وعلى حقّ نقطة إنطلاق طريق الحرير القديم. اليوم، وأنا أقف هنا وألقي نظرة الى الوراء على تلك الحلقة من التاريخ، كنت أسمع صدى أجراس الجمال في الجبال وأرى خيوط الدخان تتصاعد من الصحراء. لقد جلبتني قريبا الى المكان الذي أزوره."

ثمّ سأل شي في تحوّل سريع من الشخصي الى الجيوسياسي، إن كان الجمهور سينظم اليه في بناء "حزام اقتصادي على طول طريق الحرير،" من شأنه أن "يوثّق العلاقات الإقتصادية ويعمّق التعاون ويوسّع التنمية الفضائية في منطقة أوراسيا." من خلال التجارة والبنية التحتية،"سيربط المحيط الهادئ ببحر البلطيق." هذه المنطقة الشاسعة، التي يسكنها حسب قوله ما يقرب من 3 مليارات شخصا، يمكن أن يصبحوا "أكبر سوق في العالم بامكانيات لا مثيل لها."[4]

على الرغم من أنّ الخطاب بدا وكأنّه ركّز على القضايا التجارية، إلا أنّ خطاب شي شكّل أيضا تحدّيا لقوة الولايات المتحدة العالمية ونظامها العالمي الليبرالي. في المستوى الأكثر وضوحا، كان هذا الخطاب بمثابة بداية التطوّر الجري، لمخطط بكين الذي سُمّي مبادرة الحزام والطريق Belt and Road Initiative (BRI) لجعل أوراسيا في سوق واحدة من خلال استثمار ترليون دولارا في بنيتها التحتية. ولكن كان المخطط ايضا بداية محاولة الصين لكسر تطويق الجيش الأمريكي لتلك القارة الشاسعة. بعد 10 سنوات من الإمتثال لقواعد واشنطن للمواطنة العالمية الصالحة، جاءت تصرّفات بكين لتكشف ببطء عن ستراتيجية خفيّة لكسر قوة أمريكا العالمية.

من خلال إنفاق ترليون دولارا لبناء شبكة سكك حديدية عابرة للقارات، وخطوط أنابيب لنقل النفط وتأسيس البُنية التحتية الصناعيّة، بدأت الصين تسخير

موارد أوراسيا الهائلة في محاولة كي تصبح الإقتصاد الأوّل في العالم.[2] بعد ذلك وبناء على دورها الجديد كأفضل شركة تصنيع في العالم، ستستخدم بكين التجارة والإستثمار لتأكيد وجودها الأوروبي بطرق من شأنها أن تحيّد منظمة حلف شمال الأطلسي (النّيتو)، بينما تمارس ضغوطا موازية لإضعاف علاقات واشنطن الثنائية مع حلفائها الآسيويين. أخيرا ستحيط الصين إفريقيا وآسيا بالدوريات البحرية والموانئ التجارية وعدد متزايد من القواعد العسكرية لإنهاء سيطرة واشنطن الستراتيجية على القارتين بشكل فعاّل. باختصار، ومن خلال إدراك رؤية السّر هالفَرد ماكيندر الجيوسياسية لاندماج آسيا وإفريقيا واوروبا في "جزيرة عالمية" واحدة، فإنّ بكين تحاول توحيد أوراسيا كمركز لنظام عالمي جديد ذي إمكانات لتسريع تراجع الهيمنة الأمريكية العالمية وصعود النظام العالمي الجديد.[3]

لم يكن صمت شي في ذلك الخطاب أقلّ أهميّة من تصريحاته الجريئة. تجنّب أيّ ذِكر لانبعاثات الكاربون أو الطاقة المُستدامة. في الواقع عندما تبلور الأمر، فإنّ سعي مبادرة الحزام والطريق لتحقيق النمو من شأنه أن يُعزّز زيادة استخدام محطات الكهرباء، التي تعمل بالفحم، ممّا قد يساهم بشكل كبير في زيادة الإحتباس الحراري وفي نهاية المطاف إلحاق الضرر بالفقراء. مثل الأنظمة العالمية الثلاثة التي سبقته، أظهر نظام بكين العالمي إزدواجية ملحوظة، في هذه الحالة بين التنمية الإقتصادية التي من شأنها أن تنتشل ملايين عديدة من براثن الفقر، وفي ذات الوقت زيادة مشاعر القومية المُفرطة التي من شأنها أن تتجاهل كلّا من انبعاثات الكاربون وحقوق الإنسان، ممّا يؤدّي الى تدهور نوعية الحياة طويلة الأجل لهؤلاء الملايين أنفسهم.

ستراتيجية بكين الكُبرى

حين أهدرت أمريكا الوقت والأموال على مغامرات عسكرية في اعقاب الحرب الباردة، أمضت الصين العقود نفسها في بناء الصناعات التي من شأنها أن

تجعلها ورشة العالم. في سوء تقدير ستراتيجي كبير، وافقت واشنطن على انضمام بكين الى منظمة التجارة العالمية WTO عام 2001. كانت واثقة بشكل غريب من أنّ الصين المحتلة ستنظمّ بطريقة ما الى الإقتصاد العالمي دون تغيير ميزان القوى. "عبر طيف الأيديولوجية، نحن في مجتمع السياسة الخارجية الأمريكية،" كما كتب في وقت لاحق عضوان سابقان من إدارة أوباما. ثمّ أضافا، "بفعل تقاسم الإعتقاد الضمني يمكن للقوة والهيمنة الأمريكية أن تشكّل الصين بسهولة وبالصورة التي تريدها الولايات المتحدة..." كافة جوانب هذا النقاش السياسي أخطأت. أكثر صراحة، خلص مستشار الأمن القومي أج آر مَكماستر، الى أنّ واشنطن قد فعلت ذلك لتمكين "أمّة كان قادتها مصمّمين ليس فقط على طرد الولايات المتحدة من آسيا، ولكن ايضا لتعزيز المنافسة الإقتصادية والحوكمة والنموذج العالمي." على مدى 15 عاما، نمت صادرات بكين الى الولايات المتحدة الى ما يقرب من 5 أضعاف، أي الى 462 مليار دولارا. وارتفعت احتياطاتها من العملة الأجنبية من 200 مليار دولارا فقط، الى 4 ترليونات دولارا بحلول عام 2014، وهو أمر غير مسبوق. وفي الوقت نفسه، كانت واشنطن قد أهدرت 5.4 ترليون دولارا على حروبها الخاسرة في الشرق الأوسط، عوضا عن الإنفاق على البُنية التحتية أو الإبتكار أو التعليم. وهي تجربة اجتازت اختبار الزمن بمعادلة الإنحدار الإمبراطوري.[4]

بينما كان الأمريكيون غارقين في حروبهم، التي لا نهاية لها، كانت بكين تبذل جهودها لزيادة احتياطات رأس المال لبناء بنية تحتية ثلاثية القارات من شأنها دمج مساحات شاسعة من إفريقيا وآسيا في نسختها من الإقتصاد العالمي، ممّا يؤدّي في الوقت نفسه الى انتشال ملايين عديدة من براثن الفقر. أثناء الحرب الباردة، كانت واشنطن قد أشرفت على إعادة اعمار أوروبا، التي دمّرتها الحرب، والتنمية الإقتصادية لأكثر من 100 دولة جديدة قد خرجت لتوّها من الإستقلال الإستعماري. غير أنّه عندما انتهت الحرب الباردة عام 1990، كان أكثر من ثلث البشرية لا يزالون يعيشون في اقصى حدود الفقر. حتى أواخر عام 2015، كان ما

يقرب من نصف سكّان العالم، أي حوالي 3.4 مليار شخصا، يكافحون من أجل البقاء بالحصول على ما يزيد قليلا عن 5 دولارات في اليوم.[5] في النهاية، كانت المناورة الجيوسياسية الجريئة لمبادرة الحزام والطريق، جنبا الى جنب مع ستراتيجية الصين لتحسين حياة الملايين المنسيّة من البشرية، فإنّ مخطط بكين اعطى القوة الكافية لزعزعة النظام العالمي القائم.

بدأ التغيير الإجتماعي في المنزل. ابتداء من فترة الثمانينات، أشرف الحزب الشيوعي على تحوّل الصين من دولة زراعية فقيرة الى أمّة لها قوة صناعية وحضرية. استلزمت الخطوة الأولى لبناء رأسمالية الدولة الصينية تفكيك المنظومة الزراعية الماوية وتحرير الأسعار الزراعية، بما يسمح للفلاحين بحرية العمل حيث يحلو لهم. وبسرعة مذهلة وفي أقلّ من 3 عقود، تراجعت نسبة القوة الزراعية العاملة في الصين من 70٪ الى 30٪ فقط، بينما ارتفع ناتجها الإجمالي من 156 دولارا للفرد الفقير الى 7740 دولارا. كما غادر الفلاحون القرى وتركوها لكبار السنّ الذي أوكلت اليهم رعاية الصغار. شكّل 87٪ من هؤلاء الفئة العمرية بين سنّ 16 عاما لغاية 35 عاما. حصلوا على اعمال بدوام كامل خارج المزارع. وسط هذا التحوّل السريع للسكان في المدن، أغلقت في غضون عقد واحد من الزمن 229000 مدرسة إبتدائية قرويّة. وفي الأثناء كان القادة واثقين من أنّ التحضّر على حدّ قول رئيس الوزراء لي كوا چيانگ، "هو الأقوى... وشكّل القوة الدافعة الداخلية لنمو الإقتصاد." خططت حكومة الصين أن يكون لديها مليار شخصا تقريبا، أي 70٪ من سكان البلاد يعيشون في المدن بحلول عام 2030[6].

مدفوعا بأكبر هجرة جماعية في تاريخ البشرية، نما الإقتصاد الصيني بمعدّل 10٪ تقريبا لمدة 40 عاما، وهو أسرع معدّل ثابت سجّلته أيّة دولة تاريخيّاعلى الإطلاق. في الوقت نفسه إرتفع الناتج الصناعي من 1.2 ترليون دولارا في عام 2016، متجاوزا الولايات المتحدة بما يقرب من 2.2 ترليون دولارا واليابان بحوالي ترليون دولارا.[7]

يرجع الكثير من تلك الديناميكية الإقتصادية الى قرار بكين بتشجيع ريادة الأعمال الخاصّة في قطاعين رئيسيين، هما الإنتاج الصناعي في مناطق التصدير والتنمية التجارية للفضاء السايبراني Cyberspace.. بدءاً من فترة الثمانينات، إفتتحت الصين أوّل منطقة تصدير خاصّة بها في منطقة شِنجِن، عبر الجانب الآخر من النهر الذي يفصلها عن هونگ كونگ. نمت المنطقة خلال 30 عاما فقط من بلدة يسكنها 30000 شخصا الى مدينة بلغ عدد سكّانها 10 ملايين نسمة. في البداية، جذبت تلك المناطق الشركات متعدّدة الجنسيات، التي انتجت الجزء الأكبر من صناعة الصادرات في البلاد، الى أن طالبتهم الحكومة بمشاركة التكنولوجيا. وهو القرار، الذي أثار نموّا هائلا للشركات المحلية تقريبا.[8] بعد انضمام الصين الى منظمة التجارة العالمية، شجّعت تلك الستراتيجيّة على التوسّع السريع للتجارة الإلكترونية، حيث أصبحت شركة Huawei مثلا أكبر منتج في العالم لمعدات الإتصالات بحلول عام 2012. بعد ذلك بعامين، جمعت شركة التجارة الإلكترونية العملاقة علي بابا مبلغا قياسيًا قدره 25 مليار دولارا عند طرحها العام الأولي في بورصة نيويورك.[9]

بحلول الوقت الذي استيقظت فيه إدارة أوباما على التحدّي الصيني واستجابت بمحاورها الستراتيجية اتجاه آسيا، "كان القطار قد غادر المحطة." كانت بكين قد أصبحت بالفعل قوّة صناعية ذات رأس مال وفير لتمويل البُنية التحتيّة الضخمة للتطوّرات عبر إفريقيا وأوراسيا. حين بلغت احتياطاتها الأجنبية 4 تريليون دولارا عام 2014، أنشأت بكين الإستثمار الآسيوي للبنية التحتية مع 56 دولة عضوا وخصّصت له مبلغ 100 مليار دولارا من رأس المال. كما شكّلت صندوق طريق الحرير بقيمة 40 مليار دولارا ومشاريع الأسهُم الخاصة[10]. حين انعقد منتدى "الحزام والطريق" الذي حضره 29 من قادة العالم في بكين في شهر مايس من عام 2017، أشاد الرئيس شي بالمبادرة باعتبارها "مشروع القرن،" الذي كان بالفعل "يؤتي ثمارا غنيّة" من "البُنية التحتية والإتصالات المُحسّنة والفضاء

على الفقر والتخلف والظلم الإجتماعي - وهو يعني انتشال نصف البشرية من البؤس الذي لا نهاية له.[11] في الواقع وبعد عامين، وجدت دراسة للبنك الدولي أنّ مشاريع النقل لمبادرة الحزام والطريق، قد زادت بالفعل الناتج المحلي في 55 دولة مشاركة نسبة سنوية ثابتة من النمو تبلغ 3.4٪.[12]

على الرغم من أنّ وسائل الإعلام الأمريكية قد وصفت المشروع في كثير من الأحيان على أنّه مشروع هدر إستغلالي وحتى إستعماري جديد يستحقّ دراسة جادّة عن كثب.[13] ومن المتوقّع أن تلتزم بكين بدفع 1.3 ترليون دولارا لهذا المشروع بحلول عام 2017، ممّا يجعله أكبر استثمار في تاريخ الإنسانية. بعد تعديله لمراعاة التضخّم، فإنّ هذا المبلغ الهائل يزيد بمقدار 10 مرّات أكثر من المساعدات الخارجية، التي خصّصتها واشنطن لخطّة مارشل لإعادة بناء أوروبا المُدمّرة بعد الحرب العالمية الثانية. بحلول عام 2016، كانت تكلفة البنية التحتية منخفضة في الصين، التي قدّمت قروضا لنحو 70 دولة تمتد من بحر البلطيق الى المحيط الهادئ، وتمّ بناء اكبر ميناء على البحر الأبيض المتوسط في Piraeus في اليونان ومحطة رئيسية للطاقة النووية في إنكلترا ومدّ خط سكك حديد بقيمة 6 مليارات دولارا عبر لأوس وفتح ممرّ للنقل البرّي بقيمة 46 مليار دولارا عبر باكستان، من بين مشاريع أخرى.[14] يمكن لمثل هذه الإستثمارات إذا نجحت في آسيا وأوروبا فإنّها ستجعل موطن حوالي 70٪ من سكان العالم متماسكا، في كتلة أرضية موحّدة وسوق موحّدة ليس لها نظير على هذا الكوكب.

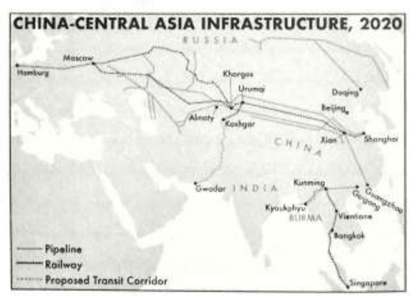
وسط هذه الموجة من النفايات المتطايرة والخرسانة المتدفقة، يبدو أنّ بكين تفعل ذلك ولديها تصميم أساسي لتجاوز المسافات الشاسعة التي فصلت تاريخيا آسيا عن أوروبا. أساس هذا الطموح المُخطط على المستوى الوطني هو جهد بنّاء ضخم على مدى 3 عقود فقط، سيغطي البلاد بثلاثية نقل ضخمة تشمل، خطوط الأنابيب والطرق وسكك الحديد عالية السرعة. إبتداء من عام 2008، تعاونت شركة البترول الوطنية الصينية مع شركات تركمانستان وكازاخستان وأوزبكستان لمدّ خط

أنابيب الغاز بين آسيا الوسطى والصين بطول 4 آلاف ميلا.[15] في عقد واحد فقط، بنت بكين شبكة شاملة من أنابيب النفط والغاز العابرة للقارات لاستيراد الوقود من سايبيريا وآسيا الوسطى لمراكزها السكانية الخاصة. وحين يكتمل بناء نظام خطوط الأنابيب يكون الذراع الأول في ثالوث النقل منجزا بكامله في حدود عام 2025. ستكون هناك شبكة واسعة من خطوط انابيب الطاقة المتكاملة، بما في ذلك شبكة روسيا، تمتدّ نحو 6 آلاف ميلا من شمال الأطلسي الى بحر الصين الجنوبي.

النمو السريع لأنابيب الغاز الطبيعي جزء من محاولة متعدّدة الأوجه لتقليل اعتماد الدولة على الفحم، وبالتالي تنقية الهواء فوق مدنها، التي اسودّت بالجسيمات القاتلة نتيجة تدفئة المنازل وتوليد الكهرباء. لتعزيز تطوّرها العنيد Headlong Development، رفعت الصين إنتاج الفحم المحلي بشكل كبير من مجرّد 32 مليون طنًا متريًا الى 3.7 مليار طنًا متريًا بحلول عام 2015، وهو شكل غير عادي في مسألة الإعتماد. حتى تلك الإنابيب الغازية الضخمة، الى جانب العشرات من واردات المناطق المحيطة، زادت فقط من حصة البلاد للطاقة، التي يوفّرها الغاز الطبيعي المُسال بنسبة 6٪. كانت الصين رائدة العالم بلا منازع في طاقة الرياح، لكنّها مع ذلك تمثّل 3.3٪ من إجمالي إمداد طاقتها. كما أنشأت بكين أيضا أكبر سدّ في العالم، لكنّ الطاقة الكهرومائية قدّمت 8٪ فقط من احتياجاتها من الطاقة. حتى وارداتها النفطية الضّخمة، وهي ثاني أكبر مُستورِد في العالم، بنسبة متواضعة بنسبة 18٪ من طاقة البلاد. على الرغم من كلّ هذه الجهود الضخمة، لا تزال الصين تنتج 40٪ من فحم العالم، والذي يوفّر ما يقرب من 65٪ من طاقتها.[16] وعلى ما يبدو لا شيء يمكن أن يكسر جوعها النهم لأقذر جميع أنواع الوقود الأحفوري.

الذراع الثاني في ثالوث النقل هو الطرق، التي تمثل مشكلة الإستمرارية مع النظام العالمي لواشنطن، الذي يغذّي الكاربون. ابتداء من عام 1990 وبدون طريق واحد سريع، بنت الصين بحلول عام 2017 نحو 87000 ميلا من هذه الطرق الخرسانية السريعة، ممّا أدّى الى انشاء مجمّع على الصعيد الوطني يقارب ضعف

نظام الطرق السريعة بين الولايات الأمريكية. حتى هذا الرقم الهائل لا يمكنه وصف الأعمال الهندسية المتميّزة وغير العادية التي تمّر فيها عبر انفاق الجبال والمناطق شديدة الإنحدار وفوق الأنهار الواسعة، وهي ترقص زاهية عبر الوديان العميقة وعلى اعمدة ذات ارتفاعات شاهقة. توصل هذه الشبكات الخرسانية بين المدن الضخمة وتدور حولها.[17] وفي الوقت نفسه، اصبحت الصين أيضا أكبر شركة مصنّعة للسيارات في العالم وارتفع العدد الإجمالي لتلك السيارات والشاحنات الى 340 مليونا في عام 2019، متجاوزا 276 مليون سيارة أمريكية على الطرق. عن طريق التشبّث بالفحم بينما تصل الى أكبر شريحة من واردات النفط، تضاعفت مساهمة الصين في الإحترار المناخي بسبب تضاعف انبعاثات الغاز من 14٪ في عام 2000 الى 29٪ في عام 2017. وحتى الآن تتفوّق امريكا باقتناء الصين 150 سيارة لكلّ 1000 شخصا بالمقارنة مع 850 سيارة لكلّ 1000 شخصا في امريكا. لا يزال أمام صناعة السيارات في الصين اليوم إمكانات هائلة للنموّ في المستقبل. وهذه اخبار جيّدة لاقتصادها ولكنّها اخبار سيئة لمناخ العالم.[18]



خارطة البنى التحتية للصين وآسيا الوسطى عام 2020

استكمالا لثلاثية النقل الخاصة بها، قامت بكين ببناء أكبر نظام في العالم لسكك الحديد عالية السرعة، التي امتدت لمسافة 15000 ميلا في التشغيل والخطط لشبكة تقرب من 24000 ميلا بحلول عام 2025. على الرغم من أنّ عربات القطار الجديد قد تمّ استيرادها في البداية، طوّرت الصين بسرعة مذهلة صناعة محليّة تصدّر الآن عربات القطر الى إندونيسيا وتايلند وتركيا وروسيا. مقارنة بمتوسط سرعة 66 ميلا في الساعة فقط على اسرع خطّ في أمريكا، تسافر القطارات في الصين بانتظام بسرعة 160 ميلا في الساعة، ممّا يلغي فعليًا ضرورة السفر الجوّي للمسافات القصيرة. لا يقتصر الأمر على أنّ الصين لديها اسرع قطار لركوب المسافرين في العالم (220 ميلا في الساعة)، ولكنّها تتميز بوجود أطول خط للسرعة العالية (1400 ميلا). تذكر الصين أنّ مثل هذه الشبكة المحلية الضخمة هي مجرّد الخطوة الأولى نحو نظام السكك الحديدية العابرة للقارات لخدمات الركّاب والشحن، بدءا بتوسّع "الجسر البري الأوروبي الآسيوي" الممتدّ من الصين عبر كازَخستان الى أوروبا.[19]

إنّ تكملة مثل هذه الخطوط الرئيسية العابرة للقارات، جعلت بكين ايضا أكثر جرأة لتحفيز مدّ خطوط السكك الحديدية الذاهبة جنوبا باتجاه سنغافورة والجنوب الغربي عبر باكستان. بصرف النظر عن توسيع شبكة بكين الخاصّة، فكلّ جديد يحفّز الإستثمار في البُنية التحتيّة المحليّة. ومثال على ذلك، خط سكك حديد بقيمة 6 مليارات دولارا عبر الجبال الجنوبية الوعرة في الصين باتجاه فيينتيان عاصمة لاوس. في منتصف عام 2019، أعلنت حكومة تايلند المجاورة خطط تكميلية لمدّ 2000 ميلا من السكك الحديدية عالية السرعة بتكلفة 65 مليار دولارا لجعل بانكوك مركزا لشبكة تمتد لمسافة 1600 ميلا من جنوب الصين الى سنغافورة.[20]

لتوضيح التأثير التحفيزي القوي لمبادرة الحزام والطريق BRI، فإنّ قطار لاوس النازل من بكين، الذي تبلغ كلفته 6 مليارات دولارا، قد أثار مبادرة بانكوك البالغة 65 مليار دولارا، وسيضخّم هذا تأثير الإستثمار الصيني الأصلي

10 أضعاف ما خصّصته للخط الجديد، الذي يخترق الحاجز الجبلي الهائل جنوب غرب البلاد ويفصلها عن جيرانها الجنوبيين. جنبا الى جنب مع جهود بانكوك، ستندمج البُنية التحتية للنقل الخاصّة بستة من دول جنوب شرقي آسيا. وفي نفس الوقت ستحسّن الروابط المتداخلة بالعاصمة التايلندية ومنطقتها الصناعية البعيدة. حتى لو كان العديد من مشاريع الحزام والطريق، بما في ذلك السكك الحديدية الجديدة في إثيوبيا وكينيا، لا تزال غير مربحة، فإنّها يمكن أن تكون لها آثار غير مباشرة مهمة وتحفّز اقتصادات تلك المناطق.[21]

بالتوازي مع هذه البُنية التحتية العابرة للقارات، استحوذت الصين ايضا على وصول خاصّ من خلال القروض والإيجارات لأكثر من 40 ميناء بحريًا "لجزيرة العالم" الخاصّة بها، من مضيق مَلَقا في المحيط الهندي وحول إفريقيا وعلى طول الساحل المُمتدّ لأوروبا ومن مدينة بيرايوس اليونانية الى مدينة زِبرُگ في بَلجِكا.[22] لتويج تلك الشبكة، قام الرئيس شي في عام 2019 بزيارة رسمية الى إيطاليا لحضور حفل توقيع أوّل اتفاقية للحزام والطريق مع أحدى دول مجموعة السبع. بموجب شروط هذا الإتفاق الإقتصادي، تمكّنت الصين من الوصول الى مينائي جَنَوا وتريَستي، وكلاهما موقعين ستراتيجيين بسبب وجود تواصل لخطوط سكك الحديد المباشرة عبر جبال الألب نحو قلب أوروبا.[23] للإستفادة من القطب الشمالي وفتح المياه بسبب الإحتباس الحراري، بدأت الصين تفكّر بالتخطيط لإنشاء "طريق الحرير القطبي،" الذي يتزامن مع الطموح الروسي الإستكشافي لخطط طريق شحن اقصر على طول الساحل المتجمّد الشمالي للقارة وصولا الى دول شمال أوروبا.[24] من الناحية الجيوسياسية، فإنّ سلسلة الصين من الموانئ تقلد الموانئ البحرية للإمبراطورية البرتغالية، التي تكوّنت من 50 جيبا محصّنا Feitorias، والتي امتدت ذات يوم على طول سواحل إفريقيا وجزء كبيرا من آسيا. لكنّ بكين أضافت أيضا قوّة لا حدّ لها من خلال شبكتها الحديدية عبر أورآسيا ومعها شبكة أنابيب الغاز ومشاريع البُنية التحتيّة.

على الرغم من أنّ أوراسيا ظلت محور تركيزها الأساسي، سعت الصين ايضا الى توسيع اقتصادها في إفريقيا وأمريكا اللاتينية لخلق ما يمكن أن يُطلق عليه إسم ستراتيجية القارات الأربع. لربط شبكة إفريقيا بأورآسيا، خططت بِكين حوالي عام 2015، على أنّه من المتوقع ضخّ رأس مال هائل يصل الى ترِليون دولارا في غضون عقد من الزمن مع استثمار الكثير من سلعها الأساسية، التي من شأنها أن تجعل القارة الصينية ثاني أكبر قارة مصدّرة للنفط الخام.[25] وبالمثل استمرّت بِكين في الإستثمار بكثافة في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي من أجل الوصول الى السلع، والسيطرة على سبيل المثال على أكثر من 90٪ من احتياطات النفط في الإكوادور. كما أنّه ليس من المُستغرب أنّ تجارة الصين مع أمريكا اللاتينية قد تضاعفت في غضون عقد من الزمن ووصلت الى 244 مليار دولارا في عام 2017. وهو أكبر بكثير من تجارة الجار الشمالي مع الجيران الجنوبيين.[26]



خارطة ستراتيجية الصين للجزيرة العالمية عام 2020

في نهاية العام الخامس لمبادرة الحزام والطريق صدّرت الصين نموذجها الإقتصادي للمؤسسات التي تسيطر عليها الدولة وجنت قدرا كبيرا من النقد من البلدان المتلقية. لسبب واحد، كانت قروض الصين للبنية التحتية في العادة مرتبطة بالعقود مع شركات المقاولات الصينية، ممّا ترك مجالا ضئيلا للمشاركة المحلية. ظهرت انتقادات حادة لمشاريع المبادرة في زامبيا وميانمار وسريلانكا وماليزيا وباكستان وجزر المالديف، لأنّها قدّمت الدعم للقادة الإستبداديين وشجّعت الفساد وعزّزت التبعية عن طريق الوقوع في فخّ الديون. إضافة الى جوقة المعارضة، إنتقد انصار البيئة مبادرة الحزام والطريق لتخصيصها أكثر من 20 مليار دولارا لاستخدام الفحم لتوليد الكهرباء، لا سيّما في بنغلادش وباكستان وإندونيسيا. إعترف المسؤولون الصينيون بالمشكلة وحويب المنظمون للإقراض الخارجي القويّ من قبل بنوك الدولة، ممّا أبطأ مؤقتا الوتيرة السريعة لمبادرة الحزام والطريق.[27]

خلال منتدى الحزام والطريق الثاني، الذي حضرته 150 دولة في شهر نيسان من عام 2019، ردّت بكين على الإنتقادات باطلاقها ما وصفته مديرة صندوق النقد الدولي كريستين لا كارد "BRI 2.2". قالت إنّ الصين ستؤكّد في المستقبل على "إنخفاض الكاربون والإستثمار القادر على التكيّف مع المناخ"، بينما يتطلب الأمر "زيادة الشفافية وإنفتاح الشراء من خلال العطاءات التنافسية وتقييم أفضل للمخاطر."[28] كما أنّ إطار استدامة القروض للمستقبل سيكون على أساس معايير صندوق النقد الدولي. بعد إعادة الضبط، قدّمت المبادرة 128 مليار دولارا اخرى في شكل قروض خارجية، ممّا جعل المخطط في منتصف الطريق الى هدفه لصرف 1.3 ترليون دولارا.[29]

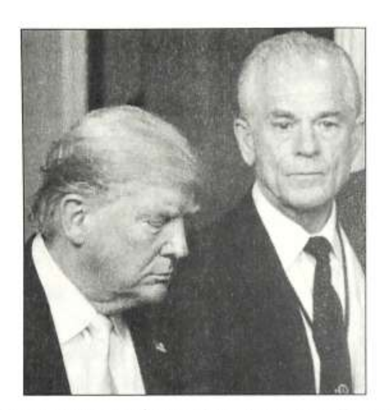
للتحقيق في اتهامات واشنطن للصين باستخدام الديون "لإبقاء الدول في إفريقيا أسيرة لرغبات بكين،" قام باحثون من جامعة جونز هوبكنز بدراسة 1000 قرضا صينيّا بقيمة تزيد عن 140 مليار دولارا. خلصت الدراسة الى أنّ معظم

الإنتقادات لا أساس لها من الصحة، على الرغم من المشاكل الحتمية مع مثل هذا المخطط الضخم، الذي يظل أكبر برنامج تنمية في العالم، وتتضاءل أمامه كافة الجهود المنافسة. فمثلا، لم يتجاوز رأس مال قانون البناء الأمريكي المنافس 60 مليار دولار، علما بأنّ ظروف مشاريع البنية التحتية في آسيا وإفريقيا مرهقة للمقترضين.[31]

الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة

مع استمرار نفوذ بكين العالمي في النمو، أعلنت إدارة دونالد ترامب حربا تجارية على الصين. وسط تطهير كبير للمعتدلين من افراد البيت الأبيض في اوائل عام 2018، شكّل الرئيس فريق السياسة الخارجية اليميني المتشدّد ورقى مستشاره الخاص بيتر نَفارو ليتولى منصب رئيس المجلس الإقتصادي الأقدم.[32]

بصفته أحد كبار مساعدي البيت الأبيض، طبّق نَفارو بشخصيته الشائكة ووجهات نظره المتشدّدة إعادة تشكيل الحروب التجارية. بالرغم من حصوله على درجة الدكتوراه في الإقتصاد من جامعة هارفرد وعمل استاذا بجامعة كاليفورنيا في إرفن، ظلّ دخيلا غاضبا مستنكرا المصالح الخاصّة "التي تسرق أمريكا،" كما جاء في كتابه الأول.[33] خلال عقد مزدحم في التسعينات، أطلق نَفارو خمس حملات سياسية فاشلة لوظائف تتراوح من عضوية مجلس المدينة الى ممثل في الكونگرس. لقد وصف هزيمته الساحقة في السباق الأخير في كتابه الأخير San Diego Confidential، وأخبر الجميع عن آثار إزدراء "بيع" سياسة بِل كلِنتُن للناخبين الأغبياء من "اصحاب الياقات الزرقاء" ولكلّ مَن في داخل البلد.[34] بعد حملته الخاسرة الأخيرة على مقعد في مدينة سان دييگو، أمضى نَفارو العقد التالي في تأليف الكتب التي تهاجم الصين. شجب ابتداء من عام 2006، التجارة الخارجية لبكين وتلاه بكتاب آخر مليء بالحكايات اللاذعة عن المنتجات الإستهلاكية الصينية الفتّاكة.[35]



ترامب مع نفارو مستشاره للشؤون التجارية في البيت الأبيض في شهر مارس عام 2020
(Credit: Reuters/Alamy)

بصدور كتابه الثالث بعنوان *Crouching Tiger* في عام 2015، قال نَفارو إنّه وبغضّ النظر عن الجدل من أجل دراسة جادة للجغرافية السياسية، واستكمالها بالخرائط والتعليقات التي وضعها ألفرَد ثاير ماهان، فإنّ الصين يمكن ان تتحدّى ستراتيجية "منع الوصول وإغلاق المنطقة" بوجه البحرية الأمريكية بشكل فعّال والسيطرة على غرب المحيط الهادئ.[36] وضع البنتگون خطتين لاحتواء الصين، معركة جوية بحرية والسيطرة على السواحل. كلاهما برأي نَفارو، في الأساس منقوصتان. كان أوّل مخطط له هو تعمية اقمار الصين الصناعية وتدمير قواعد اطلاق الصواريخ البالستية. غير أنّ احتمال تدمير انظمة قواعد الصواريخ المتحركة للصين سيكون "منخفضا للغاية."[37] اقتراحه الثاني هو فرض حصار على سواحل الصين بأكملها، بما فيها المناجم ومناطق المضائق البحرية الممتدة

من اليابان الى سنغافورة. ومع ذلك، فإنّ نفس الحصار، كما لاحظ نَفارو نفسه، سيؤدّي أيضا الى "ضربات كاسرة" Crushing Blows للإقتصاد الأمريكي.[38] وبالتالي كان الحلّ الواقعي الوحيد "هو فرض تعريفات جمركيّة عالية لتعويض الممارسات التجارية غير العادلة للصين."[39]

بصفته المدافع الرئيسي عن قناعات ترامب بأنّ "الحروب التجارية جيدة وسهلة من أجل الفوز،" استخدم نَفارو منصبه الجديد في البيت الأبيض لمواجهة الصين العدوانية.[40] في شهر مارس عام 2018، اطلق الرئيس بداية حربه التجارية ففرض رسوما جمركيّة باهضة على واردات الصُلب من الصين. وبعد اسابيع قليلة، وعد بفرض المزيد منها فوصلت الى 60 مليار دولارا عندما بدأ تطبيقها في شهر تموز. ردّت الصين على الفور بالمثل ضدّ ما اسمته "التنمّر التجاري النموذجي" من خلال فرض رسوم مماثلة على البضائع الأمريكية.[42] في شهر أيلول صعّد ترامب الحرب التجارية بفرض 267 مليار دولارا إضافية على البضائع الصينية، إذا تجرّأت الصين على الإنتقام.[43] ردّت بكين من جانبها هذه المرّة بفرض 60 مليار دولارا فقط على البضائع المستوردة، وغطّت بالفعل على 95٪ من جميع وارداتها الأمريكية.[44]

في عامه الثالث في المنصب، صعّد ترامب حربه التجارية ضدّ الصين لتشمل برنامج بكين الصناعي عالي التقنية المسمّى (Made in China 2025). اطلق نَفارو على المشروع إسم "ستراتيجية الصين لتحقيق الهيمنة." إنطلقت وسائل الإعلام في شهر كانون الأول من عام 2018 لتقول، "إنّ الصين تحاول اساسا سرقة مستقبل اليابان والولايات المتحدة وأوروبا من خلال ملاحقة التكنولوجيا لدينا."[45] كان أول هدف في امريكا هو شركة اتصالات الصين الرائدة Huawei، التي نشأ قلق في البداية بشأنها في وقت سابق من ذلك العام إثر تقرير لوكالة المخابرات الإسترالية وإدارة الإشارات الأجنبية، التي أجرت تمرينا للحرب السايبرانية. أدّى بها هذا التمرين الى تقديم المشورة للولايات المتحدة. ذكر

المسؤولون الى أنّ دور هواوي في البنية التحتية لإنترنت G5 الناشئة، والتي هي أسرع بمقدار 100 مرة من سابقتها G4، يمثّل خطرا أمنيا بالغا. فجأة قررت واشنطن أنّ منتجات هواوي تمثل "خطرا بالغا على الأمن القومي، وأنّ السماح بدخولها الى شبكة اتصالاتنا سيكون بمثابة فتح البوابات أمام حصان طروادة الأسطوري،" على حد قول مستشار الأمن القومي أج آر مَكماستر لاحقا. وافقت 3 دول من بين 61 دولة إتصل بها الأمريكيون على مقاطعة تقنية G5 من Huawei، لكنّ الرئيس استمرّ بوقع الأوامر التنفيذية في شهر حزيران من عام 2019 بحظر معدّات الشركة الصينية على جميع الشبكات الأمريكية لأسباب تتعلق بالأمن القومي. لقد عجّل هذا بهبوط أسهم الشركة المذكورة على المدى القصير.[46] ومع ذلك حافظت Huawei بالفعل على ما يقرب من ثلث السوق العالمية في ميدان معدّات الإتصال، وهي ايضا ثاني أكبر مصنّع للهواتف الخلوية في العالم، وحصلت على 2570 براءة اختراع في شبكة G5. وبالتالي انتعشت عوائد الشركة سريعا بزيادة قدرها 13٪ لتبلغ 65 مليار دولارا في النصف الأول من عام 2020[47].

هذا الهجوم على شركة Huawei، جنبا الى جنب مع مطالبة ترامب بأن تقوم بكين بتقنين تنازلاتها التجارية في القانون الصيني، وخنق المفاوضات حتى شهر حزيران من عام 2919، حين التقى مع الرئيس الصيني شي في قمة مجموعة العشرين في مدينة أوساكا. أثناء المحادثات في حفل العشاء الإفتتاحي، أوضح شي سبب قيامه ببناء "معسكرات العزل" للأقلية المسلمة من الويگر Uyghur في مقاطعة شِنجيانگ Xinjiang. وفقا لقول المستشار الرئاسي جون بُلتُن، ردّ ترامب على أنّه يجب على الصين أن تمضي قدما في بناء تلك المعسكرات، وهو "ما كان يعتقد بالضبط أنّه الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله." خلال محادثاتهما الثانية في اليوم التالي، حسب رواية بُلتُن، "تحوّلت المحادثة بشكل مذهل الى مستقبل الإنتخابات الرئاسية الأمريكية، والتأكيد على "أهمية الفلاحين... في نتائج

الإنتخابات." ثمّ قال ترامب للزعيم الصيني، "شراءكم للمزيد من الصويا والقمح سيضمن فوزنا في الإنتخابات القادمة." ثم خرج من تلك الإجتماعات الخاصة ليعلن منتصرا أنّ الصين ستشتري "كمية هائلة" من المنتجات الزراعية الأمريكية، وأنّه بدوره سيسمح بتصدير المكوّنات الأمريكية المهمة لمنتجات هواوي.[48]

بعد اسابيع قليلة من الدبلوماسية غير الحاسمة، لم يتمّ شراء أيّة مواد غذائية جرى الحديث عنها في حفلة الإستقبال، فنفذ صبر ترامب واتخذ خطوات سرعان ما أدّت بالعلاقات مع الصين للسقوط في الحضيض. في تغريدة منتصف الليل في اليوم الأول من شهر أيلول، أعلن الرئيس في موقعه عن تعريفة بنسبة 10٪ تسري في غضون 30 يوما فقط، على ما تبقى من 300 مليار دولار من الواردات الصينية.[49] أوقد هذا الإعلان شرارة لهبوط سوق الأوراق المالية وقلق المستثمرين من استمرار الحرب التجارية، وأدى الى تباطؤ اقتصادي كلّ من ألمانيا والصين. وبسبب ردّ فعل السوق غير المتوقع، تراجع ترامب مؤقتا عن هجومه بتعليق حوالي نصف الرسوم الجمركية. برّر ذلك بقوله، "إنّه موسم الكرِسمس فقط، وفي حالة أنّ بعض التعريفات سيكون لها تأثير على المُستهلكين في الولايات المتحدة." في اثناء ذلك دافع نَفارو علنا عن تلك التكتيكات المُتشدّدة ووعد "بانتعاش اقتصاد ضخم في وقت لاحق من العام."[50]

كشرط لإلغاء الرسوم الجمركية، أصرّ نَفارو على أنّ الصين يجب أن تنهي "سبعة أعمال اقتصادية عدوانية" وإجراء تغييرات هيكلية في اقتصاد البلاد. أضاف أنّ الرئيس لا يمكنه المساومة مع صيني "لأنّك إذا قابلتهم في منتصف الطريق، فسوف يسرقون نصف ما لديك، وبقدر ما يسرقون سيقتلون نصف عدد الأمريكيين." إنّ هذه ملاحظات تنمّ عن عداء عميق وطلبات واسعة تتطلب حلولا نهائية، ممّا اثبت أنّ الحرب التجارية صعبة للغاية.[51]

في نهاية شهر ايلول من عام 2019 وفي أمسية انعقاد مؤتمر القمّة للدول السبع في باريس، ردّت فرنسا والصين بإعلان فرض رسوم جمركية جديدة على 75

مليار دولارا على البضائع المشحونة من الموانئ الأمريكية.[52] أثار هذا غضب ترامب، إضافة الى رفض الصين الإنحناء. أطلق المزيد من التغريدات، التي هدّد فيها بزيادة الرسوم الجمركية على جميع الواردات الصينية بقيمة 550 مليار دولارا، وطالب الشركات الأمريكية بالإنسحاب من الصين وشجب الرئيس الصيني باعتبار "عدوّا". على الرغم من هدوء ترامب بشكل كاف خلال أيام القمّة الثلاثة والترحيب بالرئيس شي باعتباره "قائدا عظيما" (وإن لم يكن كبيرا بما يكفي لترامب لتقليص نسبة التعريفات الجمركية الإنتقامية). أشارت كافة الإضطرابات الى أنّ البيت الأبيض كان يطمح الى تغييرات في العلاقات من شأنها أن تكون أكثر جوهرية من مجرّد التعريفات الجمركية. بحلول الوقت الذي دخلت فيه هذه الرسوم الجديدة حيّز التنفيذ في الأول من شهر أيلول، كان ترامب قد رفع متوسط الرسوم الجمركية الأمريكية على السلع الصينية من 3.1٪ الى 21.2٪، وهو أعلى معدّل في أيّة دولة منذ أكثر من 50 عاما. في غضون ذلك، بدأت بكين تفرض رسوما بنسبة 33٪ على واردات فول الصويا من الولايات المتحدة، ممّا ساهم في انخفاض كبير في الصادرات الزراعية الأمريكية الى الصين من 24 مليار دولارا في عام 2014 الى 9 مليارات دولارا في عام 2018[53].

بحلول كانون الأول من عام 2019، كانت التوترات تلحق الضرر بالإقتصاد الأمريكي، ممّا دفع البيت الأبيض للتغلب على انسحاب متسرّع والموافقة على فترة انتقالية للصفقات التجارية. ذكرت صحيفة نيويورك تايمز وقتها أنّ المتشددين في بكين كانوا "مبتهجين رغم الشكوك" عندما تخلى ترامب عن مطالبه بالإصلاحات الهيكلية في اقتصادهم ووافقوا على ما اسماه صفقة تجارية "كبيرة وجميلة". مبينا نطاق استسلامه في حفل توقيع الإتفاقية في شهر كانون الثاني 2000، خُفضت الرسوم الجمركية للصينيين بمقدار 100 مليار دولارا في مقابل وعد بكين "الطموح للغاية" باستيراد 40 مليار دولارا من البضائع الأمريكية.[54]

بعد مرور أشهر على استعراض كلّ سلاح تقريبا في مخزونها الدبلوماسي، أثبتت واشنطن أنّها غير قادرة على تغير طابع اقتصاد الصين الضخم الذي تديره الدولة. على مدار 15 عاما الماضية، اصبحت الصناعات الصينية مندمجة تماما في الإقتصاد الإستهلاكي، ويمثل التعاون التجاري 40٪ من الناتج الإقتصادي العالمي. على الرغم من أنّ وزارة خارجية ترامب شعرت بملل بكين من "طموحات الهيمنة" الهادفة الى "إزاحة الولايات المتحدة باعتبارها القوة الأولى في العالم" و"تحوّل النظام الدولي،" لا تزال واشنطن تفتقر الى النفوذ، كقوّة عظمى آخذة في التلاشي، لفرض التغيير.[55] باختصار، وصلت الولايات المتحدة الى حدود نفوذ قوّتها العالمية، ولم تعد لديها القوة الكافية لوقف صعود اقتصاد الصين الرائد.

في حين أنّ ترامب في البيت الأبيض مهووس بكيفية التلاعب بهذه العلاقات الثنائية، تفوّقت بكين على واشنطن من خلال السعي وراء حلقتين متعددتي الأطراف. أولهما، الإتفاقيات التجارية، التي سرقت صفحة من كتاب اللعبة الستراتيجية لأوباما. في تشرين الثاني عام 2020، قادت بكين 15 دولة من منطقة آسيا والمحيط الهادئ للتوقيع على شراكة شاملة إقليمية أدّت الى إنشاء أكبر شراكة اقتصادية في العالم. تضمّ منطقة التجارة الحرّة هذه 2.2 مليار شخصا وما يقرب من ثلث منطقة الإقتصاد العالمي. وبعد شهر واحد فقط، سجّل الرئيس شي درجة من الخبرة حين دعا الى "إنقلاب جيوسياسي للصين" من خلال التوقيع على مسودّة اتفاقية مع قادة الإتحاد الأوروبي من أجل تكامل أوثق لخدماتهم المالية. عندما يتمّ التصديق على إتفاقية بكين أخيرا، فإنّها ستسهّل وصول البنوك الأوروبية الى أسواق الصين، وبالتالي جذب القارة بشكل أوثق الى مدار بكين. كان هذا التحوّل الرئيسي عن واشنطن أمرا خطيرا للغاية. حثّ مستشار الأمن القومي لبايدن، جك سوليفن، علانية حلفاء النّيتو على التشاور أوّلا مع الإدارة قبل إبرام الصفقة. لكنّ الحلفاء تجاهلوا ببساطة ذلك النداء. في

انعكـاس مـذهل لمنـاورة أوباما الجيوسياسية الجريئة لاستخدام الإتفاقيـات متعدّدة الأطراف لتوجيه تجارة أوراسيـا نحو أمريكـا، ستمنح هاتان الإتفاقيتان بكين وصـولا تفضيليًا الى ما يقرب من نصـف التجارة العالميـة. يمكـن في السنوات القادمة أن تستمرّ هاتان الإتفاقيتان مع مبادرة الحزام والطريق، لتوجيه حصة متزايدة من تجارة عواصم أوراسيا نحو بكين. إنّ إدراج الصين قد يعني ضمنا استبعاد أمريكا من الكثير من التجارة المزدهرة التي تجعل القارة الشاسعة ليست أقل من بؤرة للإقتصاد العالمي.[56]

المناورة البحرية الصينية

وسّعت الصين اسطولها البحري من السفن البيضاء المتلألئة في المياه الزرقاء لاستكمال محاولتها للسيطرة الإقتصادية على أوراسيا، وبنت شبكة القواعد الخارجية في بحر العرب وبحر الصين الجنوبي. كما ذكرت بكين في تقرير عام 2015، "العقلية التقليدية بالتركيز على التفوّق الأرضي والتخلي عن البحر... من الضروري بالنسبة للصين تطوير ملف هيكل قوة بحرية حديثة تتناسب مع قوتها الوطنية الأمنية."[57] على الرغم من أنّها لا تستطيع حتى الآن التنافس مع البحرية الأمريكية العالمية، بدت الصين مصمّمة على الهيمنة على قوس من المحيطات التي تحاذي آسيا، من القرن الإفريقي عبر المحيط الهندي وعلى طول الساحل الخاصّ بها وصولا الى كوريّا. كان الستراتيجيون في مؤسسة RAND من بين الذين أدركوا خطورة هذا التحدّي، وذكروا أنّ بكين قد قطعت "خطوات هائلة" في مجالات الصواريخ والطائرات المقاتلة والغوّاصات، وأنّ "صافي التغيير في هذه القدرات يتحرّك لصالح الصين."[58]

بدأ عرض بكين لإنشاء قواعد خارجية بهدوء في عام 2011 عندما أنفقت 200 مليون دولارا لتحويل قرية نائمة على بحر العرب في گوادر Gwadar في باكستان الى ميناء تجاري حديث على بعد 370 ميلا فقط من مدخل الخليج الفارسي.[59]

وبعد 4 سنوات، تعهّد شي بتخصيص 46 مليار دولارا لبناء الممّر الإقتصادي بين الصين وباكستان ومدّ الطرق والقضبان وخطوط الأنابيب لما يقرب من 2000 ميلا من مقاطعات الصين الغربية الى ميناء گوادر، والإستمرار بتجنب الحديث عن أيّة أهداف عسكرية، التي قد تثير قلق نيودلهي أو واشنطن.[60] في عام 2016 اعلنت باكستان أنّها بصدد افتتاح قاعدة بحرية في گوادر، وسرعان ما تمّ تعزيزها بواسطة سفينتين حربيتين صينيتين، وأضيف أنّ بكين موضع ترحيب لرسو سفنها هناك.[61]

كما بدأت بكين في نفس العام بناء مُنشأة عسكرية في جيبوتي في منطقة القرن الإفريقي. في شهر آب من عام 2017، إفتتح مسؤول لها أوّل قاعدة في الخارج تتيح لقواتها البحرية الوصول الى بحر العرب الغني بالنفط.[62] في نفس الوقت قامت سريلانكا بتسوية ديونها للصين البالغة مليار دولار، بالتنازل عن مينائها الستراتيجي Hambantota في قلب المحيط الهندي، وبالتالي خلق امكانات ميناء ثنائي الإستخدام لدعم العمليات العسكرية والتجارية الصينية في المستقبل.[63]

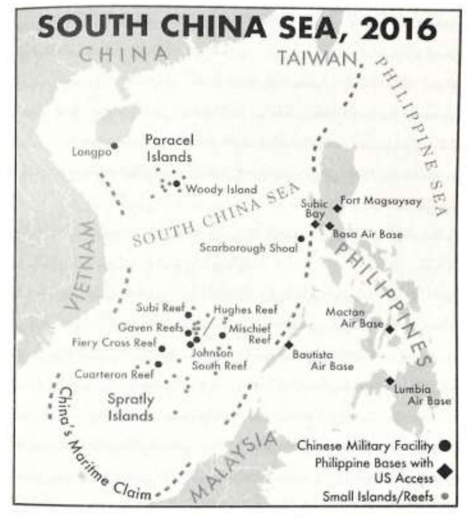
وبقدر ما قد تكون كافة هذه الجيوب مثيرة للجدل، إلّا انّها تضاءلت أمام مطالبة الصين بمحيط كامل يحتوي على 12٪ من مصايد الأسماك العالمية و190 ترليون قدما مكعّبا من احتياط الغاز الطبيعي. بالعودة الى عام 1949، كانت بكين قد رسمت على الخريطة "خطأ دائريا من 9 فواصل" لتمييز مطالبتها الإقليمية بمعظم بحر الصين الجنوبي.[64] إبتداء من شهر نيسان 2014، صعّدت بكين حدودها في محاولة للسيطرة الإقليمية الحصرية على ذلك البحر. من خلال توسيع قاعدتها البحرية Longpo على جزيرة هاينَن، اصبحت هذه ميناء لأربع غواصات تعمل بالطاقة الذرية وتحمل صواريخ بالستية.[65]

دون أيّ إعلان، بدأت بكين ايضا تهيئة الجزر المرجانية لتكون مطارات عسكرية في وسط ذلك البحر، بالقرب من جزر سبراتلي Spratly Islandsالمُتنازع عليها. في غضون 4 سنوات فقط، نقل اسطول الحفارات الصينية اطنانا لا حصر

لها من الرمال لبناء قواعد دائمة على 7 من الجزر في المياه الضحلة. بعد عامين من تهيئة تلك الجزر، اتخذت بكين شكلها النهائي وهبطت أوّل طائرة لها على أوّل مدرج بطول 3000 مترا في Fiery Cross Reef.[66] بحلول عام 2018، كان الجيش الصيني يُشغّل مدرجا للطائرات النفاثة تحت حماية بطاريات صواريخ مضادة للطائرات في جزيرة وودي Woody. كانت قواعد قاذفات الصواريخ المتنقلة بالقرب من مدارج الطائرات المقاتلة في 3 من جزر سبراتلي الجديدة. كما نُصب رادار عسكري في اقصى جنوب جزيرة مرجانية هيCuarteron Reef لتوجيه بطاريات صواريخها القاتلة DF-21D نحو البرّ الرئيسي في أيّة ضربة في المستقبل قد يوجّهها الصينيون ضدّ السفن الأمريكية.[67]

ردّاعلى ذلك، بدأت البحرية الأمريكية في تنظيم "دوريات للحفاظ على حرية الملاحة."[68] غير أنّ الدوريات البحرية وحدها غير قادرة على ضبط مطالبة الصين بهذا الممر المائي الستراتيجي. أصبحت الفلبين مرّة أخرى حاسمة لموقف الولايات المتحدة في المحيط الهادئ. في شهر نيسان من عام 2014 وقّع سفيرها في مانيلا أتفاقية تعاون دفاعي معزّز تسمح للولايات المتحدة ببناء منشآت دائمة داخل 5 قواعد فليبينية، بما في ذلك اثنين على شواطئ بحر الصين الجنوبي.[69] ولأنها معنية بالتوسع الصيني في منطقتها الإقتصادية الخالصة، إفتتحت مانيلا في شهر تموز من عام 2015 منشآتها العسكرية الخاصّة في خليج سوبك، المعقل السابق للبحرية الأمريكية، لإيواء فرقاطتين وسرب جديد من مقاتلات FA-50 الكورية الصنع.[70]

بالتوازي مع هذه التحرّكات العسكرية، قدّمت الفلبين ايضا شكوى حول توغلات الصين في مياهها الإقليمية أمام محكمة العدل الدولية الدائمة في لاهاي. في عام 2012، ردّت بكين على البحرية الفلبينية بسبب عمليات تفتيش لقوارب الصيد الصينية في سكاربور وشول، باحتلال تلك الشعب المرجانية. وهو الأمر الذي اضطر الفلبين للدفاع عن منطقتها الإقتصادية الخالصة[71] ضدّ



خارطة بحر الصين الجنوبي عام 2016

"مطالبات الصين بحقوق تاريخية أو سيادية أخرى أو الولاية القضائية." كتبت لجنة من 5 قضاة بالإجماع في شهر تموز من عام 2018، "فيما يتعلق بالمناطق البحرية... التي يشملها الجزء ذو الصلة (بخط تسعة فواصل) فإنّه يتعارض مع إتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار، وليس له أثر قانوني." بعبارة أخرى وبوضوح لا لبس فيه، قضت المحكمة بأنّ تجريف الصين للجزر الإصطناعية لا يمنحها أيّ حقّ على الإطلاق في البحار المحيطة بها. ردّا على ذلك، رفضت

وزارة الشؤون الخارجية للصين قرار المحكمة وأكّدت بشكل قاطع بأنّه "باطل وليس لديها نية للإلتزام به."[72] لم تطالب الصين بفرض مبدأ (البحر المُغلق) مثلما حصل في العصر الأيبيري، لكنّه إشارة الى وجود الإزدراء لسيادة القانون الدولي، والذي طالما كان السّمة المُميّزة للنظام العالمي لواشنطن.

الى الشمال وفي عام 2013، فرضت بِكين تعريف دفاع جوّي أحادي الجانب لمنطقة تشمل بحر الصين الشرقي بأكمله. كما استمرت بالضغط بلا هوادة على جزر سِنكاكو، التي تسيطر عليها اليابان عند حافة ذلك البحر. وهو ما دفع المقاتلات اليابانية للإعتراض 571 مرّة في عام 2015 وحده والتصدّي لغارات التغلغل الصينية في المجال الجوي للمنطقة. هل ينبغي أن تنجح بِكين في الهيمنة على هذين البحرين وتسيطر على كافة مياهها الساحلية حتى سلسلة الجزر الأولى "الممتدة من أوكيناوا الى بورنيو؟" علّق أحد كبار المسؤولين اليابانيين، "الصين مصممّة على بناء سور عظيم في البحر."[73]

بينما كانت الغوّاصات والمقاتلات تتحرّك وكأنّها بيادق شبحية في لعبة شطرنج بدأتها الصين في افتتاح مناورتها للسيطرة على تلك البحار الستراتيجية، بدأت بِكين استعدادا للعبتها مع واشنطن بتطوير اسطول مستقبلي من حاملات الطائرات وكوادرها المدرّبة استكمالا للعبة الأمبراطوريات الأخيرة. بعد الحصول على هيكل حاملة الطائرات السوفيتية كوزنتوف من يوكرَينيا عام 1998، بدأ حوض بناء السفن البحرية الصيني في داليان بتعديل الهيكل الصدأ واطلقه عام 2012 باعتباره أول حاملة طائرات باسم *Liaoning*.. كان عمر هيكل تلك الحاملة حقيقة 30 عاما عند اطلاقها، وهو عمر غالبا ما تُرسَل فيه السفن الحربية الى ساحات الخردة Scrapyards. على الرغم من أنّ السفينة ليست قادرة على القتال، إلّا أنّها لا تزال قادرة على تدريب الجيل الأول من طياري البحرية الصينية على مهارات غير مألوفة في هبوط الطائرات بالغة السرعة فوق سطح محدود في أعالي البحار. في تناقض ملحوظ من السنوات الخمس عشر اللازمة لتعديل تلك الحاملة

الأولى، استغرقت احواض داليان 5 سنوات فقط لبناء أول حاملة طائرات صينية الصنع سُمّيت *Shandong*. وهي نسخة من التصميم السوفيتي القديم مع ادخال تحسينات كثيرة، ممّا يجعلها قادرة على القيام بعمليات قتالية كاملة.[74] وهناك حاملة طائرات ثالثة أكبر، وهي من تصميم صيني بحتٍ ويجري بناؤها في احواض شنگهاي. من المقرّر اطلاقها عام 2021 وستكون مفخرة لسرعة تفوقها البحري. كما سيكون على ظهرها 40 مقاتلة من طراز Flying Shark ويقوم نظام المدفعية فيها على الكهرمغناطيسية Electromagnetic Catapult System.[75] من خلال هذا الإيقاع المتسارع للتدريب والتكنولوجيا والبناء، سيكون للصين بحلول عام 2030، ما يكفي من حاملات الطائرات. هذا وقد حذّر تقرير للپنتگون من أنّ ذلك سيجعل بحر الصين الجنوبي "عمليا بحيرة صينية."[76]

إنّ هذه الحاملات هي بمثابة طليعة للتوسع البحري المستمرّ. بحلول عام 2020، انتجت الصين بالفعل اسطولا بحريّا حديثا مكوّنا من 360 سفينة، أكثر من أمريكا بنحو 297 سفينة، مدعومة بالصواريخ الأرضية والمقاتلات النفاثة ونظام عالمي من الأقمار الصناعية العسكرية.[77] ومن خلال بناء غوّاصات بوتيرة سريعة تبلغ إثنتين في السنة، جمعت الصين أسطولا مكوّنا من 57 غواصة تعمل بالديزل وبالطاقة النوويّة. من المقرّر أن يصبح اسطول الغواصات المكوّن من 76 غوّاصة جاهزا بحلول عام 2030. وهو ما يفوق الذي عند الولايات المتحدة، التي سيكون لديها 66 غوّاصة. تحمل كلّ من غوّاصات الصين النووية الأربعة 12 صاروخا بالستيّا ومع غوّاصات يمكنها أن تصل الى أيّ مكان في غرب الولايات المتحدة.[78] بالإضافة الى أنّ بكين اطلقت العشرات من السفن البرمائية والطرّادات الساحلية، ممّا اعطاها الهيمنة البحرية في مياهها الداخلية.[79] بينما يبلغ مدى الصواريخ بالفعل 2500 ميلا، تخطو الصين خطوات واسعة في هذا المجال لإنجاز تقنية جديدة متطوّرة. من هذه صواريخ فرط صوتية يستحيل ايقافها وتصل سرعتها الى 5600 ميلا في الساعة.[80]

لذلك كان بإمكان البنتاغون أن يصرّح بالفعل عام 2010 أنّ بكين قد انجزت "برامج الصواريخ البالستية وصواريخ كروز الأرضية الأكثر نشاطا في العالم" ويمكن أن تستهدف "قواتنا النووية في كلّ مكان... في معظم دول العالم، بما في ذلك القارة الأمريكية نفسها." علاوة على ذلك "فإنّ الصواريخ الدقيقة ستمنح جيش التحرير الشعبي الصيني القدرة على مهاجمة السفن، بما فيها حاملات الطائرات في غرب المحيط الهادئ." بدأت الصين ايضا منافسة الهيمنة الأمريكية في الفضاء والمجال الإلكتروني بخطط للسيطرة على "طيف المعلومات Information Spectrum في كافة ابعاد ساحة المعركة الفضائية Battlespace الحديثة". مع تطوير صاروخ Long March 5 المعزّز وإطلاق 5 أقمار صناعية بحلول عام 2010، بدأت الصين في بناء "شبكة كاملة" من 35 قمرا صناعيا للقيادة والسيطرة والإتصالات العالمية، التي تمّ الإنتهاء منها في الموعد المحدّد في شهر حزيران عام 2020، وبالتالي كسر 50 عاما من شبه احتكار واشنطن لعسكرة الفضاء.[81] كان لبرنامج الصين الفضائي تداعيات على نظام الإقمار الصناعية الأمريكي، وهو أمر بالغ الأهمية في جميع اتصالاتها العسكرية. اصبح هذا واضحا في عام 2007 حين اسقطت الصين أحد أقمارها الصناعية.[82] أثارت دراسة لمؤسسة RAND مخاوف البنتاغون لأنها حذّرت أنّ تحسين قدرات الصين يعني أنّ انتصار الولايات المتحدة لم يعد أكيدا في نزاع "يمكن أن ينطوي على قتال غير حاسم مع خسائر فادحة لكلي الطرفين."[83]

قبل أن تتجلى البراعة العسكرية للصين بوقت طويل، خالف الرئيس أوباما إجماع واشنطن وطوّر ستراتيجية جيوسياسية جيدة وبارعة لمواجهة صعود الصين. أعتمد محور هذه الستراتيجية على القوات العسكرية في آسيا واتفاقية التجارة بين 12 دولة عبر شراكة المحيط الهادئ، التي تمّ تصميمها لاستنزاف البنية التحية الأوروآسيوية لبكين وقطع شريان حياتها التجارية. على الرغم من انّ ترامب عكس الكثير من هذه السياسة التجارية مباشرة بعد تنصيبه عام 2017،

فمع ذلك لم تزل الإدارة تعمل وفق ميزانية دفاعية موسّعة بقيمة 700 مليار دولار لتمويل بناء 46 سفينة جديدة بحلول عام 2023، وفي نهاية المطاف رفع مجموع سفن البحرية الى 326 سفينة.[84] بعد إعلان أوباما "محور آسيا" رسميًا، أعلنت إدارة ترامب نسختها الخاصة بصدد "منطقة المحيطين الهندي والهادئ الحرة والمفتوحة." تأسست هذه الخطوة على الوفاق الرباعي المكون من 4 أطراف من الأنظمة الديمقراطية في أستراليا وأمريكا واليابان والهند.[85]

في حين تعثّرت السياسة الخارجية لإدارة ترامب بسبب تعاقب الأزمات، كان أميرالاته لا زالوا يأخذون في الحسبان أقوال ماهان الستراتيجية، وكانوا مدركين تماما للمتطلبات الجيوسياسية لقوة الولايات المتحدة العالمية واعلنوا صراحة عن عزمهم للحفاظ على تلك الستراتيجية. كان التوسّع البحري الصيني، جنبا الى جنب مع التقدّم في اسطول الغوّاصات الروسي، قد أدّيا الى تحوّل جوهري في ستراتيجية البحرية بعيدا عن العمليات المحدودة ضدّ القوى الإقليمية مثل إيران، ونحو استعداد كامل "للعودة الى قوّة عظمى منافسة."[86] بعد مراجعة ستراتيجية شاملة لقواته في عام 2016، ذكر رئيس العمليات الحربية البحرية الأدميرَل جَون رِچَردسُن أنّ "الأسطول المتنامي والحديث للصين" سيؤدي الى "تقلص" الإمتياز الأمريكي التقليدي. حذّر الأدميرَل من أنّ "المنافسة مستمرة والوتيرة متائدة. في الساحة الآسيوية، وسيأخذ الفائز كلّ شيء. يجب علينا التخلص من آثار الإرتياح والرضا عن النفس."[87]

في غضون ذلك، صرح قائد آخر في القوة البحرية هو الأدميرَل تَوَمس رودين، "لإننا في عصر جديد للقوة البحرية، مع تحدّيات المنافسين القريبين من الأقران، الذين يجب مواجهتهم في حالة الهجوم بقوّة فتّاكة قادرة على إيقاع ضرر كبير الحجم للدرجة تجعل الخصم يوقف اعماله العدائية." اعاد الى الأذهان شبح الأدميرَل ماهان وقوله، "من أوروبا إلى آسيا، التاريخ حافل بالأمم التي صعدت الى قمّة القوة العالمية فقط لتنزل عنها بسبب الإفتقار الى القوّة البحرية."[88]

بعد عقد من الإصلاح بين الحزبين، لا تزال الولايات المتحدة تحتفظ بشكل عام بتفوّق قواتها على الصين. ضدّ أسطول پكين المكوّن من 300 سفينة مع حاملتين فقط والعديد من الغوّاصات العتيقة، تقول قيادة المحيط الهادئ، التي أعيد تسميتها الآن الى قيادة المحيطين الهندي والهادئ، إنّ لديها 200 سفينة، بما فيها 5 حاملات ضاربة عليها ما يقرب من 1000 طائرة مقاتلة و368000 عسكريًا. معظم هذه الوحدات كثيرة التنقل، بما في ذلك قوتان لمشاة البحرية تضمّان 86000 عسكريا و640 طائرة، إضافة الى وجود جيش الولايات المتحدة في المحيط الهادئ وتعداده 106000 فردا و300 طائرة و5 سفن.[89] بموجب ستراتيجية البنتگون الجديدة "للوصول والمناورة في المجال العالمي،" التي حلت محلّ عقيدة "المعركة الجوية والبحرية" القديمة، تمّ نشر هذه القوات وجعلها في حالة استنفار واستعداد لمواجهة "إمكانات الخصوم المُحدّدة." كان الخوف منصبًا على الصين، التي "تشكّل قدراتها الجديدة مجموعة غير مسبوقة من منع الوصول/ رفض قدرات المنطقة (A2/AD)، التي تهدّد نموذج الولايات المتحدة والحلفاء لإسقاطات القوة والمناورة Power Projections and Maneuver. "تخطط هذه العقيدة الجديدة لمواجهة تهديدات (A2/AD)، من خلال دمج "جميع مجالات القتال الخمسة، (البرية والبحرية والجويّة والفضائية والفضاء الإلكتروني) بغية النجاح في "مواجهة منافس حديث قريب من النظير." Near-Peer, Modern Competitor.[90]

بحلول عام 2022، قال مكتب الإستخبارات البحرية بأنّ الصين تعمل على اكمال انتقالها "من قوة ساحلية الى قوة بحرية حديثة في عمليات المياه العميقة المستمرّة" و"إرسال دوريّات متعددة حول العالم،" بما في ذلك الإشتباك في حرب كاملة. في الواقع، حذّر تقرير البنتگون الى الكونگرس عام 2020 من أنّ الصين تسير على الطريق الصحيح من خلال التوسّع المستمرّ في ميزانيات الدفاع لبناء "جيش بحلول منتصف القرن يساوي أو في بعض الحالات يتفوّق على الجيش الأمريكي."

كانت بكين بالفعل في مقدّمة واشنطن في 3 مجالات رئيسية، بما في ذلك "أكبر بحرية في العالم" (امتلاك 350 سفينة مقارنة بامتلاك واشنطن 392 سفينة.) تمّ بناء 1250 قاعدة أرضية لإطلاق صواريخ يصل مداها الى 3000 ميلا وواحدا من أكبر "أنظمة دفاع جوّي في العالم." على الرغم من أنّ قدرات الصين هي بالفعل "الأقوى ضمن سلسلة الجزر الأولى،" فإنّها تستهدف تعزيز قدراتها في "الوصول الى أبعد من المحيط الهادئ". لا تزال "بعض الثغرات الرئيسية موجودة وهناك أوجه تقصير،" لكن الجيش الصيني سيكون سريعا ليصبح فعلا أداة من أجل "المصالح العالمية المتزايدة لبكين وأهدافها لمراجعة جوانب النظام الدولي."[91]

في حين أنّ التحديث العسكري الصيني المستمر سوف يؤدي ببطء الى تآكل الميزة الستراتيجية للولايات المتحدة، فإنّ المنطقة المحتملة لأيّ صراع مستقبلي ستكون خاصة في المياه المحلية، داخل سلسلة الجزر الأولى المشار اليها في اعلاه والتي تمتد من أوكيناوا الى بورنيو، حين ستمنح الطائرات والصواريخ الأرضية لبكين التفوّق التام. من الناحية العملية، ستصبح أوّل قوة منذ 70 عاما تتحدّى الهيمنة البحرية المطلقة للولايات المتحدة على حوض المحيط الهادئ بأكمله. من خلال مراقبة هذه التطوّرات، لاحظ العالم السياسي كراهام أليسون أنّ "هذا التحوّل التكتوني Tectonic Shift في موازين القوى سيتطلب من واشنطن قبول الأمر الواقع بأنّ هناك مناطق نفوذ في العالم اليوم، وليس جميعها مناطق أمريكية."[92] ومهما كانت النتيجة، فإنّ تصميم واشنطن للسيطرة على المحيط الهادئ بينما تسعى بكين للسيطرة على حصّة متزايدة من هذا المحيط، سيضع القوتين على مسار تصادم مُحتمَل.

كجزء من موقفهم التقليدي حول العالم بشكل عام، قد يقول الرافضون لتحدي الصين إنّ اسطولها البحري يعمل فقط في إثنين من "البحار السبعة المجازية". ومع ذلك فإنّ وجود الصين المتزايد في المحيط الهندي والمحيط الهادئ ستكون له تداعيات جغرافية وستراتيجية بعيدة المدى على نظام واشنطن

العالمي، ويفتح أوراسيا أمام هيمنة بكين ويُحتمل أن يسمح بظهور نظام عالمي جديد على صورتها.[93]

نظام عالم الصين الناشئ

مع بدء القوة العالمية للولايات المتحدة في التلاشي، فإنّ بكين تعمل لإقامة نظام وريث سيكون في بعض المجالات الحرجة لافتا للنظر ويختلف عمّا سبقه بالفعل في بعض مبادئه الأساسية المرفوضة. والأهم من ذلك كله، هو أنّ الصين قد اقلعت عن حقوق الإنسان من أجل السيادة الوطنية الشاملة، ورفضت النقد الأجنبي بشدة لمعاملتها القاسية للأقليتين التبتية والإيكورية، كما تجاهلت فظاعة انتهاكات الحقوق من قبل دول مثل كوريا الشمالية أو الفلبين. أخضعت بكين أكثر من مليون مسلما من الإيكور لعملية إعادة التثقيف في معسكرات انتشرت في مقاطعة شينجيانگ، وفق محاولة متقنة لاستئصال هويتهم العرقية والدينية. جرى ذلك بإرشاد قيادة الحزب الشيوعي التي تجاهلت الإنتقادات الدولية وقالت لهم، "لا تخافوا إذا كانت القوّات المعادية تولول أو إذا كانت القوات المعادية تشوه صورة شينجيانگ."[94]

بحلول شهر كانون الثاني من عام 2020، اصبحت إنتهاكات بكين مستمرّة وممنهجيّة لدرجة أنّ منظمة مراقبة حقوق الإنسان ومقرّها في نيويورك، وصفت إجراءات الصين بأنّها "تهديد وجودي لحقوق الناس في جميع انحاء العالم." ذكر الصينيون في الداخل أنّ الحزب الشيوعي قد "بنى دولة أورويلية عالية التقنية في الرقابة ونظاما متطوّرا للتحكّم بالإنترنت" لقمع أيّة معارضة محلية قد تهدّد "حكمه الأوتوقراطي القاسي." في الخارج، "استعرضت بكين عضلاتها السياسية... القوّة والتصميم لتقويض المعايير الدولية لحقوق الإنسان." إذا كان موقف الصين لم يتمّ التحقق منه بطريقة ما، كما حذّر تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان، فإنّ العالم سيواجه "مستقبلا بائسا لا يكون فيه أحد بعيدا عن متناول

رقابة الصينيين، والنظام الدولي لحقوق الإنسان ضعيف لدرجة أنّه لا يعدّ بقدرة فحص القمع الحكومي." [95]

في امتداد إضافي لصلاحياتها الحكومية، تحدّت الصين ايضا عقيدة طويلة الأمد حول البحار المفتوحة، التي اقرّتها اتفاقية الأمم المتحدة، للمطالبة بالمحيطات المجاورة كأرض ذات سيادة. وحسب ادّعاء الصين، فإنّ بحر الصين الجنوبي هو أحد أكثر البحار ستراتيجية بممراته المائية، ذات الحساسية الجيوسياسية المشابهة للخليج العربي. جذب النمو الإقتصادي من خلال المياه، لآسيا خلال فترة التسعينات 40000 سفينة ثلثيها من إمدادات الغاز الطبيعي المسال في العالم. ولديها احتياطات النفط المؤكدة لنحو 7 مليارات برميلا، وحسب تقديرات المصادر الصينية المتفائلة 130 مليار برميلا، أي في المرتبة الثانية بعد السعودية. [96] وعلى الفور، احتلّ بحر الصين الجنوبي المرتبة الرابعة بين 19 من الدول الرئيسية المشاركة في صيد الأسماك، والتي انتجت 1/5 انتاج العالم في عام 2010 [97].

مع تنامي استياء بكين من النظام العالمي القائم، بدأت استكشاف البدائل. لتعويض اتفاق النّيتو الأمني في طرف القارة الغربي، أسست الصين في عام 2001 منظمة تعاون شنگهاي وشملت معها روسيا والهند وباكستان لتكون كتلة تنمية وأمنية مرجّحة باتجاه الطرف الشرقي لأوراسيا. [98] وفي مقابل البنك الدولي بشروطه المقيدة للنزاهة المالية وحقوق الإنسان، شكّلت الصين البنك الأسيوي للإستثمار في البنية التحتية، والذي اجتذب بسرعة 70 دولة عضوا ورأس مال قدره 100 مليار دولارا. بدأت مبادرة الحزام والطريق الصينية في تخصيص ما يصل الى 8 ترليونات دولارا لتمويل 1700 مشروعا استهدفت التكامل الإقتصادي لعشرات الدول عبر إفريقيا وأوراسيا. [100]

اصبحت محاولة الصين لتشكيل نظام عالم جديد تركّز على نحو متزايد وتمتد الى المجال الأساسي للأخبار والمعلومات. وفقا لتقرير عام 2019 الصادر

عن منظمة مراسلون بلا حدود ومقرّها في باريس، فإنّ بكين "تبذل ما في وسعها لإنشاء نظام إعلام عالمي جديد تحت سيطرتها." وهذا "يُشكّل تهديدا لحرّية الصحافة في جميع انحاء العالم." ليس فقط المجموعات الإعلامية الدولية "مجبرة على الخضوع للرقابة إذا كانت تبغي الوصول الى السوق الصينية" لكنّ بكين قامت بتصدير نموذجها للتحكّم في وسائل الإعلام في جنوب شرق آسيا "حيث تبنّى الأنظمة الإستبدادية لوائح للرقابة على الإنترنت تستند بشكل وثيق على لغة التشريع الصينية." في مقال نُشِر عام 2011 في صحيفة وول ستريت جُرنَل، دعا الرئيس الصيني لوكالة شِنخوا، لي كونگجون، الى "نظام إعلامي عالمي جديد" من شأنه أن يحترم "الثقافات والعادات والمعتقدات والقيم الفريدة من نوعها في مختلف الدول." خلال زيارة لغرف الأخبار لأهمّ ثلاث وسائل إعلام في البلاد، عزّز الرئيس شي نفسه المعنى الأعمق لتلك الرسالة قائلا، "الإعلام يديره الحزب... وجيهات الدعاية يجب أن تلتزم بحسب الحزب." في الواقع، وفقا لمراسلين بلا حدود، يروّج القادة "لنظرية النسبية الثقافية" التي على طرف نقيض من "عالمية الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة."[101]

مع تنكّرها للمثل الحالية لحقوق الإنسان وسيادة القانون الدولية، يبدو من المرجّح أن يخضع النظام العالمي المستقبلي لبكين للحكم من خلال السياسة الواقعية للميزة التجارية والمصالح الذاتية المتبادلة. أعادت بكين احياء عقيدة القرون الوسطى البرتغالية الخاصّة للمطالبة بمحيطات كاملة كأرض ذات سيادة. كما أنّ سياستها في مجال حقوق الإنسان، من المحتمل أن تكون ارتدادا للعصر الإمبراطوري الذي وضع المصلحة الوطنية في موقع أعلى من المبادئ العالمية.

هيمنة الصين العالمية

في حين أنّ إضعاف نظام واشنطن العالمي يبدو مرجّحا، إلا أنّ مستقبله غير واضح. في الوقت الحاضر، تبدو الصين أنّها الدولة الوحيدة التي تمتلك معظم،

وليس كافة، المتطلبات لتصبح قوّة مهيمنة عالمية جديدة. يترافق اقتصادها مع توسّعها العسكري وبراعتها التكنولوجية في إطار برنامج "صُنِعَ في الصين 2025" الذي منحها العديد من العناصر الأساسية لمكانة القوة العظمى. نجت من أوجاع التغيّرات المفاجئة، التي تميزت بها السياسة الخارجية البريطانية والأمريكية. ومن المرجّح أن يواصل الحزب الشيوعي سعيه الحثيث للتأثير على الساحة الدولية، وسيمنحها هذا مزايا معينة في تنافسها العالمي مع الولايات المتحدة.

ومع ذلك، فإنّه في بداية عشرينات القرن الحادي والعشرين، لا يبدو أنّ أيّة دولة تتمتع بمجموع القوة الكاملة لتحل محّل النظام العالمي لواشنطن، بما فيها مهارات الهيمنة العالمية. في الواقع، وبصرف النظر عن نفوذها الإقتصادي والعسكري المتزايد، تتمتع الصين بثقافة مرجعية ذاتية Self-Referential Culture وتعيد صياغة نصّ كتابتها غير الروماني، الذي يتطلب 4000 حرفا بدلا من 26 حرفا، وميلا سياسيا غير ديمقراطي ونظاما قانونيا ثانويا. كلّ هذه ستحرمها من بعض الأدوات الرئيسية للقيادة العالمية.

بالإضافة الى أساسيات القوة العسكرية والإقتصادية، ترى المؤرّخة جويا جاترجي، "على الإمبراطورية الناجحة أن تبلور فكرة عالمية وخطابا شاملا" لكسب دعم أصغر الدول في العالم وقادتها.[102] التحوّلات الإمبريالية الناجحة بالقوة الصلبة للسلاح، تتطلب أيضا مرهم القوة الناعمة للإقناع الثقافي، إذا أرادوا تحقيق سيادة عالمية مستدامة وناجحة. خلال ما يقرب من قرن من الهيمنة البريطانية التي استمرّت من 1850 الى 1940، كانت النموذج بامتياز للقوة الناعمة، التي تبنّت سياسة مغرية من ثقافة "اللعب النظيف" والأسواق الحرّة، التي تمّ نشرها من خلال الكنيسة الإنجيليكانية واللغة الإنكليزية وآدابها ووسائل الإعلام مثل هيئة الإذاعة البريطانية وخلقها الإفتراضي الحديث في ألعاب القوة الرياضية، بما في ذلك الكريكت وكرة القدم والتنس والرّكبي والتجديف. وبالمثل

ازدادت الهيمنة العسكرية والإقتصادية للولايات المتحدة بعد عام 1945 مصحوبة بجاذبية افلام هوليوود والمنظمات المدنية مثل روتري والألعاب الرياضية الشعبية مثل كرة السلة والبيسبول. من حيث المبدأ، استثمرت حملة بريطانيا لمناهضة العبودية سلطة أخلاقية، تماما مثل دفاع واشنطن عن حقوق الإنسان كي تضفيا شرعية على نظاميهما العالميين. بينما اعتنقت إسبانيا الكاثوليكية إدّعت بريطانيا إنّها هي روح الحقوق الناطقة باللغة الإنكليزية. أمّا الولايات المتحدة فقد اظهرت في فجر هيمنتها العالمية تودّدا للحلفاء في جميع انحاء العالم من خلال برامج القوّة الناعمة لتعزيز الديمقراطية والتنمية.[103]

بالمقابل، ليس لدى الصين أيّ شيء يمكن مقارنته. كلّ من أيديولوجيتها الشيوعية وثقافتها الشعبية مميّزة بشكل واضح. للتغلب على أوجه القصور هذه وممارسة بعض نفوذ القوّة الناعمة، انفقت الصين مليار دولارا بين الأعوام 2008 و2016 لفتح 500 معهد كونفوشي في جميع انحاء العالم لتعليم لغتها وثقافتها. ولكن في تناقض ملحوظ مع المعاهد الفرنسية ومراكز الثقافة البريطانية ومعاهد گوته الألمانية، اصبحت معاهد الصين مثيرة للجدل بسبب رقابة الدولة على القضايا الحساسة مثل تايوان والتِبت أو احتجاجات تيانَنمن سكوَير المؤيدة للديمقراطية. وفقا لتحقيق أجراه مجلس الشيوخ الأمريكي، فإنّ تمويل المعاهد الكونفوشية في البلاد "يأتي بقيود يمكنها أن تعرّض الحرية الأكاديمية للخطر." ويشهد على جديّة هذه القيود أنّه بحلول شهر حزيران من عام 2019 الغت ما يقرب من 24 جامعة أمريكية تلك البرامج.[104] ومع ذلك، فإنّ مبادرة الحزام والطريق لبكين تقدّم العون لأفقر الملايين في إفريقيا وآسيا، وقد نسي الكثير منهم زمنا طويلا التمويل الغربي والوصول الى رأس المال ومسار التقدّم.

كانت الصين دولة ذات اقتصاد موجّه لمعظم القرن الماضي. وعلى هذا النحو، لم تتطوّر عندها ثقافة قانونيّة لسلطة قضائية مستقلة ولا نظام قائم على قواعد مستقلة مكمّلة لشبكة القانون الذي يدعم النظام الدولي الحديث. من

خلال مؤسسة المحكمة الدائمة للتحكيم في لاهاي لعام 1899، والتي تطوّرت لتصبح محكمة العَدل الدولية بموجب ميثاق الأمم المتحدة، تطمح دول العالم الى حلّ النزاعات عن طريق التحكيم أو التقاضي بدلا من النزاع المسلح. على نطاق واسع، تمّ جمع الإقتصاد والعولمة الحديثة معا من خلال شبكة من الإتفاقيات والمعاهدات وبراءات الإختراع في عقود متأصّلة في القانون الدولي. وهذه قضايا ذات تقبّل محدود في مزاج بكين.

منذ تأسيسها في عام 1949، أعطت جمهورية الصين الشعبية الأولوية للحزب الشيوعي والدولة، ممّا أدّى الى ابطاء نمو نظام قانوني مستقل وسيادة القانون، كما ظهر عندما رفضت قرار محكمة التحكيم الدائمة بالإجماع عام 2016 ضدّها بعد مطالبتها بالسيادة على بحر الصين الجنوبي. بدا أنّ بكين رفضت القرار والجهاز بأكمله.[106]

ومع ذلك، فإنّه إذا كانت استثمارات بكين الهائلة في البنية التحتية تستهدف أن تكون الأكبر في التاريخ حتى الآن، فإنّ النجاح في توحيد التجارة بين القارات الثلاث، سيؤدّي الى تدفّق تيارات القوة المالية والقيادة العالمية فعليا، كما لو كان بموجب القانون الطبيعي اتجاهها. ولكن إذا تعثّر هذا المشروع الجريء أو فشل في النهاية، فإنّه لأوّل مرة منذ 5 قرون يمكن أن يواجه العالم انتقالا إمبراطوريًا بدون خليفة واضح كقوّة مهيمنة عالميا.

في مؤتمر الأمم المتحدة حول تغيّر المناخ عام 2019 في مدريد، لخّص الأمين العام انطونيو غوتّريش علامات كارثية وشيكة قائلا، "إنّ نقطة اللاعودة لم تعد تلوح في الأفق. إنّها ضمن حدود النظر مندفعة نحونا." وضع علامات الخطر مع وصول ثاني أوكسيد الكاربون في الغلاف الجوّي الى 408 جزء في المليون عام 2018، وقد تجاوز هذا بكثير "نقطة التحوّل التي لا يمكن تصوّرها وهي 400 جزء." قال إنّ "القمم الجليدية في گرينلاند وحدها قد ذاب منها 179 مليار طنّا في شهر تموز. يذوب الجليد في القطب الشمالي قبل 70 عاما من الفترة

المتوقعة. في القارة القطبية الجنوبية، يذوب الجليد 3 مرّات أسرع ممّا كان عليه قبل عقد من الزمن. مستويات المحيطات آخذة في الإرتفاع أسرع ممّا كان متوقعا ممّا يجعل بعضا من أكبر مدن اعمالنا وأكثر اقتصادناعرضة للخطر." على الرغم من علامات الخطر هذه، لا تزال دول العالم تفشل في الوفاء بالتزاماتهابخفض نسب الكاربون، بموجب اتفاقية باريس للمناخ، أضف الى ذلك انسحاب إدارة ترامب ببساطة منها. إذا استمرّت الإتجاهات الحالية للإنبعاثات، فإنّ الإحترار العالمي سيصل الى 3.9 درجة مئويّة بحلول نهاية القرن، وسيأتي ذلك بعواقب "كارثية" لجميع اشكال الحياة على هذا الكوكب.

يبدو من الأدلة العلمية بوضوح أنّه لأوّل مرّة في 700 عاما، تواجه البشريّة كارثة تراكميّة أخرى عمرها قرن على غرار وباء الطاعون الأسود من عام 1350 الى 1450. يمكن أن ينفجر مرّة أخرى ويُحرّك العالم ليأتي بنظام جديد.

التأثير الجيوسياسي لتغيّر المناخ

تشير موجات لاجئي تغيّر المناخ، والإستجابة الإشكالية في أوروبا والدول الموحدة لأوّل مرة في تاريخ العالم، الى إمكانات الزيادة المستمرّة الأرقام لكسر عميق في النظام العالمي الحالي. بشكل غير مُفاجئ، تمّ الشعور بالعواقب الجيوسياسية للإحترار العالمي على الفور في حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي يقطنه 470 مليون نسمة. بينما كان متوسط الزيادة العالمية في درجة الحرارة لعام 2016 لا يزال 0.85 درجة مئوية فوق ما قبل عصر الصناعة، فإنّ درجات الحرارة في هذه المنطقة الجافة قد ارتفعت بالفعل بمقدار 1.3 درجة مئوية.[108] جلب الإحترار المتسارع اخطار الجفاف لمنطقة قاحلة تاريخيّا وتحدّها الصحاري المترامية الأطراف في شمال إفريقيا والسعودية.

ما بين الأعوام 2007 لغاية 2010، تسبّب تغيّر المناخ في "أسوأ ثلاث سنوات من الجفاف" في تاريخ سوريا، ممّا أدّى الى حدوث اضطرابات تميّزت "بفشل

الزراعة بشكل هائل" ودفع 1.5 مليون شخصا الى الأحياء الفقيرة في المدن. وقد أدّت هذه الهجرة القسرية بدورها وساهمت في إحداث حرب أهلية مُدمّرة أجبرت 5 ملايين لاجئا على الفرار من البلاد.[109] تدفّق أكثر من مليون مهاجرا، بينهم 350000 سوريًا الى أوروبا في عام 2015، وعبر 181000 إفريقيا البحر الأبيض المتوسط من ليبيا الى إيطاليا في عام 2016، ممّا أغرق الإتحاد الأوروبي في أزمة سياسية أكسبت أحزاب المعارضة المعادية للهجرة شعبية واحيانا القوّة للوصول الى الحكم عبر القارة. على سبيل المثال، انتهى الأمر الى حدّ كبير في قضية الهجرة الى تصويت بريطانيا للخروج من الإتحاد الأوروبي. لاحتواء الأزمة، دفع الإتحاد المذكور لتركيا مبلغ 6.6 مليار دولارا وموّل خفر السواحل الليبية لاعتراض تدفّق المهاجرين واحتجازهم ووقف الإضطرابات السياسية للحظة. ثمّ في عام 2020 وخلال موجة الحرّ الصيفية التي سجّلت ارقاما قياسية في جميع انحاء الشرق الأوسط، بلغت درجة الحرارة 125 درجة فهرنهايت، أي 51.7 درجة مئوية، في العاصمة العراقية بغداد. وهي مدينة تعاني من شبكة كهربائية معطّلة ولا تزال مدمّرة في اعقاب الغزو الأمريكي، وكان ذلك مقدمة لما سيأتي.[110]

في نفس تلك السنوات، ظهرت ديناميكية سياسية مماثلة بشكل لافت للنظر على الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك. في مثلث شمال گواتيمالا مع السالفَدور وهندوراس في أمريكا الوسطى، أدّت آثار تغير المناخ على الزراعة في تلك المناطق ولعبت دورا محفّزا لأزمة تمثلت بقوافل المهاجرين المتجهين شمالا عبر المكسيك نحو الولايات المتحدة. الغريب ايضا أنّ ذلك المثلث الذي يقع في الطرف الشمالي من "الممر الجاف" لأمريكا الوسطى، شهد بانتظام عواصف مطرية أحدثت الفيضانات على طول الطريق جنوبا وصولا الى پنما وأضعفت الحياة بالنسبة لسكان المنطقة البالغ عددهم 10 ملايين شخصا. إنّ زيادة متوسّط درجات الحرارة بمقدار 0.5 درجة مئويّة منذ عام 1950، كان لها

"تأثير كبير" على الطقس وهطول الأمطار وجودة التربة والحدّ من المحاصيل الزراعة. أجبرت كلّ هذه الأمور الأسر الفلاحية على الهجرة. مع توقع ارتفاع درجات الحرارة بما لا يقلّ عن 1.0 الى 2.0 درجة مئوية بحلول عام 2050، سوف تسبّب أنماط الطقس غير المستقرّة في حدوث جفاف طويل الأمد في بعض المناطق وزيادة الفيضانات في مناطق أخرى، ممّا يضرّ باستمراريّة زراعة اصحاب الأراضي الصغيرة من الفلاحين في تلك المناطق الفقيرة وتوليد تدفّق متكرّر للمهاجرين نحو الشمال طلبا للعيش في الولايات المتحدة.[111]

في مرتفعات گواتيمالا، تجلى تغيّر المناخ في شكل صقيع قاتل على ارتفاع 9000 قدما وارتفاع درجات الحرارة والجفاف وامطار غزيرة على ارتفاعات منخفضة. بعد عقود من الثبات والتحكّم بالهجرة، ارتفعت الأرقام مجدّدا في عام 2018 حين بلغ عدد الأسر الگواتيمالية 50000 أسرة ممّن تمّ القبض عليها عند حدود الولايات المتحدة، نصفها تقريبا أتت من سلسلة المرتفعات المضطربة. "هناك دائما الكثير من الأسباب التي تدفع الناس للهجرة،" حسب تصريح بارسينيو پلاسس لمراسل مجلة النيويوركر، جُنتَن پلِتزر. ثمّ أضاف، "لكنّه في كلّ حالة، يكون لتغيّر المناخ علاقة بها."[112]

في اقصى جنوب المرتفعات الغربية لهندوراس المجاورة، ارتفعت درجات الحرارة بشكل جعل زراعة البُن صعبة مثل الجفاف والآفات الزراعية وتلف المحصول، ممّا قلّل بشكل كبير من عدد مزارعي البُن. ليس من المُستغرَب أن يكون العاملون في المجال الزراعي في هندوراس يشكلون جزء كبيرا من قوافل المهاجرين التي وصلت الى مدينة تخوانا في المكسيك في خريف عام 2018. مع تغيّر المناخ المتوقع ستتقلص مساحة الأرض الصالحة لزراعة شجيرات البُن بنسبة أكبر من 40٪ عبر أمريكا الوسطى بحلول عام 2050. وقطعا ستكون هناك ضغوط اقتصادية كبيرة ستقود الى المزيد من موجات المهاجرين شمالا نحو حدود الولايات المتحدة.[113]

مع وصول اعداد متزايدة من أمريكا الوسطى الى تلك الحدود، اصبح دَونَلد ترامب أحد أولئك القادة الشعبويين الآخرين الذين كسبوا في جميع انحاء العالم السلطة من خلال وصم اللاجئين بأنّهم غزاة أجانب. طول فترة حملته الإنتخابية لعام 2016، قاد تجمّعات حاشدة عبر أمريكا في هتافات نارية حول "بناء الجدار" لإغلاق الحدود. في الواقع، خلال عامه الأول في منصبه، أصدر الأوامر التنفيذية غير المسبوقة حول تشديد الدخول الى الولايات المتحدة للغاية. فصل أوّلا العائلات المُحتجزة للإشتباه بدخولها دون وثائق واحتجز الأطفال بشكل منفصل عن ذويهم. ثمّ أجبر طالبي اللجوء، وكثير منهم فارّون من العُنف في بلدانهم، الى انتظار جلسات الإستماع لطلباتهم في المكسيك بدلا من الولايات المتحدة. أرسل خلال انتخابات التجديد النصفية بعد ذلك بعامين 5200 جنديا الى الحدود الجنوبية، وهي حيلة دعائية مهمّتها الاسمية منع أيّ معبر آخر. عندما اعتمدت الأمم المتحدة ميثاق الهجرة العالمية، الذي اعترف بتغيّر المناخ كسبب لمثل هذا النزوح، رفضت إدارته الإنضمام الى 164 دولة وافقت على ذلك القرار. ثمّ في شهر مارس عام 2019، قطع الرئيس كافة المساعدات الإقتصادية عن السالفَدور وگواتيمالا وهندوراس، وتبجّح قائلا، "لنْ ندفع لهم بعد الآن لأنّهم لم يفعلوا شيئا لنا."[114]

وفقا للحسابات الواردة في تقرير البنك الدولي لعام 2018، فإنّه بحلول عام 2050 سيؤدّي تغيير المناخ الى تشريد ما يصل الى 143 مليون شخصا في ثلاث مناطق وحدها، وهي جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا وجنوب آسيا وأمريكا اللاتينية. تقديرات الأمم المتحدة هي أنّ عدد اللاجئين سيكون بحدود 200 مليون شخصا في جميع انحاء العالم. بحلول ذلك الوقت، من المحتمل أنّه سيكون عدد المهاجرين من أمريكا الوسطى والمكسيك الى حدود الولايات المتحدة في حدود 1.5 مليونا سنويّا. وستحدث هجرات قسرية بلا شكّ نتيجة اضطرابات سياسية عميقة.[115] كي لا ننسى، فإنّ كافة الإضطرابات السياسية التي

أدّت الى صعود الشعبوية المناهضة للمهاجرين الى أوروبا، وكذلك انسحاب بريطانيا من الإتحاد الأوروبي ودعوة ترامب الى "بناء الجدار" قد كانت بسبب حركة أقلّ من مليون لاجئا. ومن المرجّح أن يكون الشرق الأوسط رائدا لزعزعة الإستقرار السياسي بسبب تأثير المناخ. حذّر تقرير لمجلس المخابرات الوطنية الأمريكي من أنّ "المخاطر المناخية مثل موجات الحرّ والجفاف والفيضانات ستزيد الإضطرابات الإجتماعية والهجرة والتوتر بين الدول مثل مصر وإثيوبيا والعراق والأردن."[116]

إنّ ترجمة تلك الكلمات المتناثرة الى سيناريو مستقبلي، بإمكاننا الحصول على ملفّ الشعور بالكيفية، التي قد يؤدّي بها الإحترار العالمي الى اضعاف نوع التعاون الدولي الذي يشكّل جزء أساسيا من النظام العالمي الحالي. في وقت ما بين الأعوام 2030 لغاية 2040، وعندما يصل متوسط الإحترار العالمي الى 1.5 درجة مئوية، فوق مستويات ما قبل الصناعة (إن لم يكن أكثر)، من المرجّح أن يشهد الشرق الأوسط ارتفاعا كارثيا في درجات الحرارة سيتجاوز 2.3 درجة مئوية. ستؤدّي هذه الحرارة الشديدة الى موجات جفاف طويلة الأمد، ممّا يؤدّي الى نشوب حروب على المياه بين الدول التي تشترك في نهري دجلة والفرات. هذا الإرتفاع الحراري المستقبلي مرجّح أن يطلق العنان للخراب في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وسيدفع ملايين اللاجئين الى الفرار باتجاه أوروبا. في ظلّ هذا الضغط غير المسبوق، يمكن لأحزاب اليمين المتطرف الإستيلاء على السلطة في جميع انحاء القارة، وسيتعرّض الإتحاد الأوروبي للتوتر حين تؤكّد كلّ أمّة سيادتها وتغلق حدودها. تحت ضغوط مماثلة سيعاني حلف النّيتو بالفعل من "أزمة حادّة" كما حدث خلال سنوات ترامب، حين تضاعف الإنقسام الداخلي، ممّا أدّى الى ظهور ستراتيجية الفراغ، الذي قد سمح أخيرا لروسيا بالإستيلاء على أجزاء من يوكرَينيا ودول البلطيق، وسيؤدّي الى تمزيق النظام العالمي.[117]

الضغوط على الوجود العالمي للولايات المتحدة

في الولايات المتحدة، يُعدّ تأثير تغيّر المناخ عاملا رئيسيا. بالتزامن مع الضغوط الإقتصادية والتغير الديموغرافي، من المرجّح أن تُجبَر الحكومة على تخفيض أو حتى التراجع عن التزاماتها العسكرية في جميع انحاء العالم. أكثر وعلى نطاق واسع، فإنّ تجاوز عدد قليل من الإتجاهات الرئيسية يشير الى الدور المُحتمل لأزمة بيئية متصاعدة لتحفيز التحوّل الى ترتيب عالم جديد. أوّلا وبشكل أساسي، إنخفض نصيب أمريكا من الناتج العالمي الإجمالي بشكل مُطّرد من 50٪ في عام 1950 الى نسبة 15٪ المتوقعة في عام 2024. لكّن ميزانيتها الدفاعيّة تحرّكت في الإتجاه المعاكس، حيث ارتفعت بنسبة 150٪ من 274 مليارا في عام 2000 الى 720 مليارا في عام 2019، مع التخطيط الى 747 مليارا بحلول عام 2024.[118]

ممّا يُعقد قدرة واشنطن على تحمّل التكاليف الباهضة لعالمية وجودها العسكري، توقع تقييم المناخ الوطني لعام 2018، أنّ البلاد ستواجه عواقب متعدّدة لتغيّر المناخ بحلول عام 2050، إن لم يكن قبل ذلك. من هذه العواقب الجفاف المستمر وانتشار حرائق الغابات والعواصف الساحلية والداخلية والأعاصير الأكثر شدّة والبنية التحتية المتضررة والإنحدار في مستويات جني المحاصيل، وهذه جميعا نشهدها بالفعل الآن الى حدّ ما. "باجتماع تأثير ارتفاع درجات الحرارة وموجات الحرارة الشديدة والجفاف وحرائق الغابات والمراعي والأمطار الغزيرة، سينخفض الإنتاج الزراعي الأمريكي مرّة أخرى الى مستوى الثمانينات. مبيّنا عدم الإستعداد لمثل عواقب التغيرات هذه، حذّر التقرير من "الحاجة المحتملة لملايين الناس، فإن نقل مليارات الدولارات من البنية التحتية الساحلية في المستقبل، سيخلق تحدّيات قانونية ومالية ومسائل تتعلق بحقوق الملكية لم تكن موجودة من قبل." في الواقع حذّر تقرير حكومي آخر صدر في عام 2020 من أنّ 40٪ من سكان الولايات المتحدة يقطنون في

المناطق الساحلية المعرّضة لارتفاع مستوى سطح البحر الذي يتزايد بشكل متسارع. بحلول عام 2100، من المحتمل جدّا ارتفاع مستوى سطح بحار العالم جميعا الى ما لا يقلّ عن 12 إنجا فوق مستواها عام 2000. ومع ذلك، إذا استمرت انبعاثات الكاربون دون رادع، فقد يرتفع مستوى البحار الى 8.2 قدما.[119]

سيواجه العالم فجوة متزايدة الإتساع بين الميزانيات العسكرية المتصاعدة وتراجع الموارد المالية، ومن المرجّح أن تضطر واشنطن الى خفض تكلفة عمليات انتشار قواتها في الخارج والتحوّل فعلا الى اجراءات تخفض تكلفة ثالوث الدفاع الوطني، وهي الحرب الإلكترونية وقوات العمليات الخاصّة ومراقبة الأقمار الصناعية. مع انخفاض نصيبها من الإقتصاد العالمي، وبالتالي قدرتها المالية والسياسية للحفاظ على التزام قواتها اتجاه النّيتو، سيبدأ تأثيرها يتلاشى بالفعل. في الطرف الآخر من أوراسيا، يجتذب اقتصاد بكين الآخذ في التوسع حلفاء الولايات المتحدة القدامى الى فلك الصين، ممّا يضعف دعمهم للقواعد الأمريكية والعمليات العسكرية المشتركة. ستجعل هيمنة الصين المتنامية تكاليف الحاميات الأمريكية في الخارج باهضة في النهاية، ومن المرجّح أن تتراجع واشنطن الى شكل ما من الهيمنة على نصف الكرة الغربي فقط.

وممّا يزيد الضغط من أجل هذا التراجع، قوّتان إجتماعيتان تعملان جنبا الى جنب، ومن المرجّح أن تقللا من قدرة الولايات المتحدة على ارسال الجيش الى الخارج. تصاعدت على الفور وتيرة الكوارث الطبيعية الناجمة عن الإحتباس الحراري التي تطلبت نشر القوّات محليّا. "التغيّر المناخي هو تهديد عاجل متزايد على أمننا القومي،" حسب رأي الكونگرس في عام 2015. "بسبب مساهمة زيادة الكوارث الطبيعية على تدفقات اللاجئين والصراعات على الموارد الأساسية مثل الغذاء والماء." بالفعل، كانت هناك عمليات نشر كبيرة للإغاثة من الأعاصير، وستزداد الحاجة لمثلها مع زيادة حجم الكوارث وتواترها من عقد لآخر.[120]

تواجه أمريكا ايضا تكاليف اجتماعية متصاعدة تتعلق بالعناية بكبار السن. بحلول عام 2034، ستصل الولايات المتحدة الى ما يُسمّى "معلما جديدا" عندما يفوق عدد الأشخاص فوق سنّ 65 عاما (77 مليونا) عدد الأشخاص دون سنّ 18 عاما (76.5 مليونا). سيتطلب هؤلاء الأمريكيون الأكبر سنّا "رعاية صحّية أعظم في المؤسسات الخاصّة بهم أو في منازلهم، وما يترتب على ذلك من مرافق المعيشة المدعومة." من المرجّح أن تحوّل الموارد المالية من الدفاع الى الخدمات الإجتماعية، إذ يتوقّع مكتب الميزانية في الكونگرس أنّ الإنفاق الفيدرالي على كبار السنّ من 65 عاما فأكثر، والذي يشمل الضمان الإجتماعي والرعاية الطبّية والمَدِيك أيد، سيرتفع باطّراد من 20٪ من الميزانية في عام 2019 الى 50٪ بحلول عام 2049. وستنمو كلّ من القوّة العاملة والإقتصاد بمعدّلات أبطأ بكثير من التكاليف المتزايدة باستمرار لدعم كبار السنّ.[122] ومن المرجّح أن تترك أموالا أقلّ بكثير للصرف على القواعد الخارجية أو التدخّلات العسكرية. من هذا التآزر بين الضغوط الماليّة والأجنبية، فإنّ وجود واشنطن العالمي سيبدأ في التلاشي من الوجود في غضون عقد من الزمن.

وممّا زاد من تفاقم مثل هذه المشكلات الداخلية هو التدفّق المستمر للاجئي تغيّر المناخ من المكسيك وأمريكا الوسطى وصولا الى الجنوب، وقد ساهم في تصاعد القومية الشعبويّة في داخل البلاد. في حين أنّ التبعات السياسية لكراهية الأجانب ومعاداة المهاجرين لا يمكن التنبؤ بها، فيمكن أن تؤدي الى حدود مغلقة وأقلّ ترحيبا.[123] ومع تصاعد التوتّرات بشأن تغيّر المناخ، سيتصاعد اللاجئون على جانبي المحيط الأطلسي بعد عام 2030، ويمكن أن تصبح الأمم المتحدة مشلولة بسبب قوّة عظمى تحاول تجميدها في مجلس الأمن، فضلا عن تزايد الإتهامات ضدّ دور المفوّض السامي لشؤون اللاجئين. ضربت زيادة بؤر تغيّر المناخ الأخرى مثل بَنگلادش وشرق افريقيا وجنوب شرق آسيا، التعاون الدولي الذي يكمن في صميم النظام العالمي لواشنطن على امتداد 80 سنة الماضية. سوف

يتعرّض للقسوة وسط تفشّي الأخطاء وعمليات الإنتقام.

في عالم يضربه الإحتباس الحراري مع تدفّق الملايين من المهاجرين عبر الحدود في جميع انحاء العالم، فإنّه من المحتمل أن تجعل مشاعر القومية المفرطة النظام الصيني أكثر جاذبية. كحال التعاون الدولي، اصبحت السمة المميّزة للنظام العالمي الحالي تتراجع، ونظام بكين يكتسب سمة دبلوماسية المعاملات ببطء لتحقيق شيء يشبه الهيمنة العالمية.

في الإنتقال المبكّر الى العصر الأيبيري كانت كارثة وباء الموت الأسود Black Death تقارب على الإنتهاء مع الفتوحات الأوروبية في آسيا والأمريكتين وانشاء نظام عالمي جديد. وبالمثل فإنّ الثورة الصناعية مجتمعة مع كارثة حروب نابُليون، أدّت الى ظهور عصر الإمبراطورية البريطانية. في تكرار محتمّل لمثل هذه العملية الجيوسياسية بتأثير الهيمنة الإقتصادية المتزايدة للصين على أوراسيا وتحفيز الإضطرابات المتزايد لتغيّر المناخ، يمكن أن تكسبا قوّة كافية لتحلّا شيئا جديدا محلّ نظام واشنطن العالمي.

كسوف واشنطن وشروق بكين

متى سينتج هذا التقارب بين الجغرافية السياسية وكارثة المناخ مثل هذا التغيير؟ تخطط بكين لإكمال كلّ من التحوّل التكنولوجي من اقتصادها الخاص وجزء كبير من بنيتها التحتية الضخمة في أوراسيا بحلول عام 2025. يُكمِل هذا التاريخ المتوقع التنبؤ من قبل مجلس الإستخبارات القومي الأمريكي على أنّ "الصين وحدها سيكون لديها على الأرجح أكبر اقتصاد، متجاوزا اقتصاد الولايات المتحدة قبل حلول عام 2030 ببضع سنوات. توقعت شركة الحسابات PricewaterhouseCoopers أنّ الناتج المحلي الإجمالي للصين سينمو الى 36 ترليون دولارا، وهو أكثر بنسبة 40٪ من أمريكا، التي سيبلغ الناتج المحلي الإجمالي لها 25 ترليون دولارا.[124]

بما أنّ ميزانيتي الدفاع لبكين وواشنطن تمثلان 2٪ و3٪ على التوالي من ناتجيهما الإقتصادي، فإنّ العسكرية الصينية بالفعل هي ثاني أكبر دولة في العالم، ويجب أن تكون قابلة للمقارنة أو حتى أقوى من أمريكا بحلول عام 2030، وستترك واشنطن مهيمنة فقط على النصف الغربي من الكرة الأرضية. في أواخر عام 2019، ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أنّه "في 18 من آخر 18 مناورة حربية للبنتاغون شاركت فيها الصين في مضيق تايوان، خسرت الولايات المتحدة." بدلا من تكثيف دفاعها عن تلك المضائق حيث يوجد المزيد من حاملات الطائرات الأمريكية، يعني ببساطة أهدافا أكبر. في واشنطن عام 2020، شجّعت شركة تصنيع أشباه الموصلات Semiconductor Manufacturing التايوانية التي تنتج نسبة 84٪ من رقائق الكومبيوتر الأكثر تقدّما في العالم، لبناء مصنع بقيمة 12 مليار دولارا في أريزونا. قد يفسّر هذا التشجيع أنّ تنامي قوّة بكين في بحر الصين الجنوبي يمكن أن يصبح الخطوة الأولى لانسحاب واشنطن من ساحل المحيط الهادئ. بينما تدفع الصين حدودها البحرية الى أبعد من المحيط الهادئ، فإنّ اجتياح تايوان أو تهديدها سيشكلان خيارا صعبا لواشنطن فحواه إمّا التخلي عن حليف قديم أو خوض حرب قد تخسرها.[125]

باختصار، إنّ ضغوط تغيير المناخ على النظام الدولي العالمي، من المرجّح أن تتقارب مع القوة الإقتصادية والعسكرية المتوسّعة في الصين حوالي عام 2030 لتحفيز الإنتقال الى هيئة جديدة وترتيب عالم جديد يلقي بصورته على العالم. إذا كان الأمر كذلك، فإنّ التأثير على القضايا الثلاث المتشابكة، التي طالما كانت الصفة المميّزة للحوكمة العالمية والسيادة الوطنية وحقوق الإنسان والطاقة، سيكون عميقا.

مقارنة بالطريقة التي سيطر بها الجيش الأمريكي، الذي لا مثيل له في العالم، على مدار 80 عاما الماضية، فمن المرجّح أن تكون هيئة الصين أكثر انتشارا وأقلّ مباشرة. نظرا لالتزامها العميق بالدفاع عن حدودها، فإنّ بكين

ستفعل ذلك بتركيز قواتها العسكرية بالقرب من موطنها، ممّا سيدفع البحرية الأمريكية للعودة الى هوائي. علاوة على ذلك فإنّ الدولة الصينية يديرها شيوعيون اصليون غير معتادين ورافضين للمفاوضات القانونية للمنظمات الدولية، ممّا يعني أنّه من المحتمل أن تحدّ من قيادتها العالمية للتبادلات الإقتصادية الثنائية مع الدول الفردية أو التكتلات الإقليمية.

إضافة الى كلّ هذا، قد تتشكّل الهيمنة الصينية العالمية بحلول عام 2030 وتطرح نظاما عالميا أكثر مرونة من سابقتها الأمريكية. بدلا من التدخّل العسكري والتلاعب الخفي لضمان الإمتثال لمعايير سياسية مُسبقة، ستجاهل الصين الفساد وعدم الكفاءة أو وحشيّة شركائها الدوليين وتركّز على المنفعة المشتركة للتبادل الإقتصادي. بدلا من التطلعات الى حقوق الإنسان والإلتزام باحكام المحاكم الدولية ونظامها العالمي، سوف تعطي الصين الأولوية للسيادة الوطنية على المبادئ العالمية. وبدلا من انتشار مئات القواعد العسكرية في الخارج والقوات في جميع انحاء العالم، من المرجّح أن تركّز الصين قواتها في غرب المحيط الهادئ والمحيط الهندي. في هذا النظام العالمي الأكثر انتشارا، ستحاول كلّ دولة هيمنتها على منطقتها المباشرة. فمثلا، ستهيمن البرازيل على أمريكا الجنوبية وواشنطن على أمريكا الشمالية وبكين على شرق وجنوب شرق آسيا وموسكو على أوروبا الشرقية ونيودلهي على جنوب آسيا وطهران على آسيا الوسطى وبريتوريا على جنوب قارة إفريقيا وأنقرة والقاهرة على الشرق الأوسط.

إنطلاقا من تصرّفات بكين السابقة، يبدو من المرجّح أنّ هذا الإختلاف لنظامها العالمي الناشئ عن نظام واشنطن، يمكن تمييزه بشكل خاص في تحديد مجالات السيادة الوطنية وحقوق الإنسان. من قمعه الهوية البوذية التبتيّة في الستينات ومن خلال قمع مسلمي الإيكور بعد نصف قرن، فإنّ قادتهم غير مهتمّين بحقوق الإنسان وتجاهلوا الأقليات الدينية.[126]

كأوّل قوّة مهيمنة عالميا منذ 5 قرون، تظهر خارج خلافة القوى الغربية،

سوف لـن تشارك النخبـة الشـيوعية الحاكمـة في الصـين نفـس المراجـع الثقافيـة الراسخة. التحوّل في القوة العالمية من مدريد الى أمستردام وبعدها لندن ومن ثمّ واشنطن، كانت هناك سلسـة من خلال الإسـتمرارية في النقاشات حـول حقـوق الإنسان وضمان نفس التقاليد القانونية الغربية. لذا فإنّ صعود الصين يمثل انقطاعا حقيقيا. بعد قرون من النضـال من أجل تأسيـس مبادئ الحرية الفردية المنصـوص عليهـا في تقريـر الأمـم المتحـدة العـالمي لإعـلان حقـوق الإنســان، فإنّ الإرادة الأخلاقية الحتميّة لتلك الوثيقة الأساسـية ربّما تتلاشـى خلال العقـود القادمـة. وبالمثل، فإنّ الإعتراف بمحيطات العالم مُلكا مشاعا مشتركا للتجارة بين الـدول، والذي تمّ كسبه بشقّ الأنفس بعد قرون من الحروب والدبلوماسية، من المـرجّح أن يتلاشى، وفق دفاع بكين عن حقّها فوق بحري الصين الشرقي والجنوبي.

بالتوازي مع الصعود السياسي للرئيس شي منذ عام 2013، إحتفل جيل كامل من مثقفي الدولة بصعود الصين كنوع جديد من الإمبراطورية، التي ترفض معظم التأثيرات الغربية. بحجّة أنّ "تاريخ الإنسانية هو بالتأكيد تاريخ التنافس على الهيمنة الإمبريالية،" يفترض عالِم الدولة البارز جيانگ چيگونگ، أنّ القوى الإنگلو– أمريكية خلقت الأمم المتحدة على أنّها ليست أكثر من "موقع صراع لبنـاء إمبراطوريـات العـالم." الآن وبعـد أن أصـبحت الولايـات المتحـدة وامبراطوريتها كذلك تعاني من "فشل الدولة وتدهورها السياسي وحكمها غير الفعّال... الذي تسبّب في الإنحطاط والعدمية، التي خلقتها الليبرالية الثقافية." ثم مضى للقول، "يجب على الصين أن تستفيد من الإنتقال التاريخي الحالي... لبناء الإمبراطورية العالمية 2.0."[127] إنطلاقا من دبلوماسيتها حتى الآن، ستحاول بكين ربط نظامها العالمي بخطاب التقدّم الإقتصادي لقيادة حملة عالمية لانتشال الملايين المنسية من البشر من بؤسهم المادي.

ومع ذلك فإنّ احتضان بكين للنمو الإقتصادي كأساس لكلّ من النمو الشرعي المحلي والتأثير الدولي قد يدينان عالميا القيادة ويسرعان بموتها

المبكّر- في سعيها المحموم من أجل التنمية، تلوّث بكين هواء مدنها بدخان الفحم وعادم السيارات، كما أدّى هذا السعي الى تخريب أعظم نهر والصيد في مياهه الساحلية من خلال بناء سدود عديدة للحصول على كهرباء رخيصة.[128] لإصلاح الضّرر الناجم عن هذا التخريب البيئي، تبنّت بكين خطة عمل ناجحة بشكل عام لتخفيض تلوّث الهواء مدتها 5 سنوات في عام 2013 عن طريق تخفيض استهلاك الفحم للتدفئة المنزلية وتقليل الجسيمات الدقيقة في هواء المدن الكبرى الى أقلّ من 60 مايكروگراما لكلّ متر مكعّب (لا يزال هذا أعلى بكثير من الحدّ الأقصى لمنظمة الصحة العالمية، وهو 10 مايكروگراما). لمكافحة الإحتباس الحراري، أعلن الرئيس شي في عام 2020 أنّ الصين ستصل الى حياد الكاربون بحلول عام 2060. وهو تاريخ في المستقبل حتى الآن قد يكون الوقت قد فات لإيقاف حلقات ردود الفعل من حرائق المناطق المدارية وذوبان القطب الشمالي وظهور التربة الصقيعية، التي ستسبب بالفعل أزمة بيئية..[129]

على المسرح العالمي، كانت بكين في صراع مماثل. إدّعت الصين في مؤتمر قمة المناخ للأمم المتحدة لعام 2019 الذي انعقد في مدريد، دورا قياديا في حين أنّه في نفس الوقت انضمّت الى الولايات المتحدة والهند في حجب الدعوة لجعل اهداف الإنبعاثات أكثر صرامة. كانت بكين في الخارج تروّج بلا اعتذار لإطلاق قوّة الفحم. في أوائل عام 2020، ذكر قسم التجارة في معهد التمويل الدولي أنّ 85٪ من جميع المشاريع في اطار مبادرة الحزام والطريق تنطوي على انبعاثات عالية للغازات المسبّبة للإحتباس الحراري، لا سيّما وأنّ 63 محطة كهربائية تعمل بالفحم في المشروع المُموّل في جميع انحاء العالم. علاوة على ذلك وفي الداخل، ظلت الصين هي المصدر الرئيسي لإنبعاثات ثاني أوكسيد الكاربون، وحتى رفع سعة توليد الكهرباء التي تعمل بالفحم خلال العامين 2018– 2019 بنسبة 4.5٪. وهي نسبة مرفوضة في أماكن اخرى من العالم. بين الأعوام 2015 لغاية 2020، قامت بكين بتوليد 440 گيگاوات مثيرة للإعجاب من

طاقة الرياح والطاقة الشمسيّة، ثمّ أضافت 225 گيگاوات من كهرباء الفحم، التي زادت حصّتها من الإجمالي العالمي للطاقة المولدة من الفحم الى نسبة رهيبة تبلغ 53٪. مع ارتفاع انبعاثات ثاني أوكسيد الكاربون العالمية، كان مزيج الصين في زيادة إستيراد النفط واستمرار إنتاج الفحم قد جعلاها أكبر مصدر للتلوث على هذا الكوكب، حيث مثّلت 29٪ من الإجمالي العالمي في عام 2017[130]. سواء في الداخل أو في الخارج، اصبح التأثير العالمي للصين في هذا المجال عائقا رئيسيًا أمام الحدّ من التلوّث بغازات الإحتباس الحراري.

تميّز السجلّ الأمريكي الحديث بنقص مواز للتقدّم، خاصّة في ظلّ تغيّر المناخ وغياب الإدراك الإداري في البيت الأبيض للمشكلة وإطلاق العنان لمنتجي الوقود الإحفوري. بالرغم من دفاع دونالد ترامب العاطفي عن صناعة الفحم وقوى السوق، فقد جرى التحوّل نحو الغاز الطبيعي لتوليد الكهرباء وقطع استهلاك الفحم بنسبة 18٪. ومع ذلك، تزايد التلوّث من الغاز الطبيعي والإعتماد المستمرّ على البنزين في النقل البري، الذي يعني أنّ انبعاثات الولايات المتحدة قد زادت من الناحية الواقعية. بدلا من الوفاء بالتزاماتها في ظلّ اتفاقية باريس للمناخ وتخفيض انبعاثات غازات الإحتباس الحراري في غضون عقد من الزمن، تبنّت إدارة ترامب سياسة معادية للبيئة ستضيف 1.8 مليار طنّا متريًا من ثاني أوكسيد الكاربون الى الغلاف الجوي بحلول عام 2035، أي ما يعادل الإنبعاثات السنوية المجتمعة لبريطانيا وكندا وألمانيا.[131]

شكّلت الصين والولايات المتحدة معا نسبة 44٪ من إجمالي انبعاثات ثاني أوكسيد الكاربون في عام 2019، لكنّهما فشلتا أيضا، على عكس الأوروبيين، في ممارسة دور متناسب في الإنتقال المستمرّ الى الطاقة المتجدّدة.[132] على الرغم من الإنتشار المرئي للألواح الكهرضوئية وأبراج التوربينات في جميع انحاء العالم، سيتطلب الأمر جهدا هائلا لتحريك الكوكب بما يتجاوز اعتماده الحالي على الوقود الإحفوري بنسبة 80٪ من إجمالي احتياجاته للطاقة.

سيناريو "منتصف الطريق" للأمم المتحدة، الذي يهدف الى الحفاظ على ما تتطلبه زيادة درجة الحرارة العالمية الى 1.5 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الصناعة، فإنّ تلك الكهرباء من جميع مصادر الطاقة الشمسية والرياح والمياه والطاقة الحيوية الحديثة Modern Bioenergy، ستصل الى 48٪ في عام 2030 و63٪ بحلول عام 2050. وهذا ارتفاع حادّ من الإجمالي العالمي الحالي لعام 2020 والذي يلامس فقط 11٪.[133] بما أنّ 72٪ من غازات الدفيئة تأتي من الطاقة المستخدَمة في الصناعة والتدفئة والنقل، فإنّ الحدّ منها يتطلب عملية كاسحة للتحوّل تجري على مرحلتين. أوّلاً، تحوّل جميع الأنشطة الثلاثة لملائمة أشكال الكهرباء، وايضا التحوّل المتزامن لتوليد الكهرباء ذاتها عبر الطاقة المستديمة.[134]

سيتطلب تحويل البنية التحتية للطاقة التي تمّ بناؤها خلال 150 عاما الماضية، عدة عقود من الإستثمار المستدام وسياسة صارمة لا تزال غائبة الى حدّ كبير في كلّ من الصين والولايات المتحدة. تماما مثل الصين، التي وعدت بأن تصبح محايدة في مشكلة الكاربون بحلول عام 2060، فإنّه تحت إشراف واشنطن، قدّمت إدارة بايدن نفس الإلتزام لعام 2050. كأمر حسّاس وكخطوة اولى، أعلن الرئيس في شهر نيسان عام 2021، أنّ الولايات المتحدة وفي غضون عقد من الزمن ستخفّض الإنبعاثات بنسبة 50٪ الى مستوى ذروة عام 2005. بغية التقدّم نحو هذا الهدف الطموح، تحتاج الولايات المتحدة الى القيام ببعض الأعمال الصارمة، بل حتى التغييرات الجذرية بحلول عام 2030. يجب أن تغلق جميع ما تبقى من 200 محطة توليد الكهرباء تعمل بالفحم، وتحويل تدفئة ربع المنازل الى مضخات الحرارة الأرضية، ورفع المبيعات السنوية للسيارات التي تعمل بالبطاريات من 1.5٪ الحالية الى 50٪، وتوسيع شبكة الكهرباء في البلاد بنسبة 60٪. ستحتاج الدولة أيضا الى مضاعفة ملفّ الوتيرة السنويّة لبناء الطاقة المتجدّدة، بما فيها منشآت الطاقة الشمسية وطاقة الرياح لتغطي مساحة أكبر من

ولايتي كولورادو ووايومنگ مجتمعتين. اتوقّع أنّه بعد أن يتمّ كلّ ذلك، ستخفّض الولايات المتحدة نسبة التلوّث لكلّ شخص، وهي الأعلى حاليا في العالم عند 17.5 طنّا من ثاني أوكسيد الكاربون الى 8.8 طنا. مقارنة بأوروبا، حيث تبلغ الإنبعاثات 7.4 طنّا للفرد، حتى لو التقت أمريكا والصين على تلك الأهداف الطموحة، سيظل هناك ما يكفي من بقايا ثاني أوكسيد الكاربون المتراكمة في الغلاف الجوّي من أجل القصور الذاتي من الإحتباس الحراري، والتي تتجاوز بكثيرهدف الأمم المتحدة البالغ 1.5 درجة مئوية الى متوسط خطير قدره 2.3 درجة مئوية. باختصار، لا يزال بإمكان العالم ابطاء وتيرة تغيّر المناخ وتجنب أكثر السيناريوهات كارثيّة. غير أنّه حتى مع بذل أقصى جهد لا يمكن منعها.[135]

على مدى 300000 سنة الماضية، حقّقت البشرية 3 تحوّلات للطاقة الأساسية. أوّلا، جاء التمكن من اكتشاف النار، وتلاه تدجين حيوانات الجرّ والزراعة وآخرها الإعتماد على الوقود الأحفوري. مع وجود قيادة أكثر فاعلية لجبابرة العالم، فمن المرجّح أن تنتقل البشريّة الى مصدر رابع هو مصادر الطاقة المتجدّدة الخالية من الإنبعاثات الضارة واحتواء الإحتباس الحراري عند مستويات يمكن التحكّم بها.[136]

مع تلاشي هيمنة واشنطن وانخفاض حصتها من الإقتصاد العالمي بشكل مطّرد، فإنّ القيادة في هذا التحوّل الحاسم الى الطاقة المتجدّدة ربّما ستقع على عاتق الصين لتصعد بالفعل الى الهيمنة العالمية في وقت ما بعد عام 2030، وتواصل سياستها طويلة الأمد باعطاء الأولوية للإقتصاد على البيئة. عندئذ ستفشل قيادة بكين العالمية في ابطاء الوتيرة التي لا هوادة فيها لتغيّر المناخ، ممّا يساهم على الأرجح في نهاية مبكّرة لهيمنتها وترك الإنسانية بدون نظام عالمي فاعل لأوّل مرّة منذ 5 قرون. إذا حدث ذلك، يمكن أن يجعل النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين يواجه مشاكل لا حصر لها، ولكن في نفس الوقت يمتلك إمكانات ويعد بتدشين نوع مختلف تماما من النظام العالمي.

مصادر وملاحظات الفصل السادس

Chapter 6: Beijing's World System

1. Xi Jinping, "Promote Friendship between Our People and Work Together to Build a Bright Future," Nazarbayev University, Astana, Kazakhstan, 9/7/2013, https://www.fmprc.gov.cn/mfa_eng/wjdt_665385/zyjh_665391/t1078088.shtml.
2. Jane Perlez and Yufan Huang, "Behind China's $1 Trillion Plan to Shake Up the Economic Order," *NYT*, 5/13/2017, https://www.nytimes.com/2017/05/13/business/china-railway-one-belt-one-road-1-trillionplan.html.
3. H.J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History (1904)," *Geographical Journal* 170, no. 4 (2004), 298-321.
4. Christopher J. Neely, "Chinese Foreign Exchange Reserves, Policy Choices and the U.S. Economy" (2017), 1, 31, Federal Reserve Bank of St. Louis, https://files.stlouisfed.org/files/htdocs/wp/2017/2017-001. pdf; Neta C. Crawford, "United States Budgetary Costs and Obligations of Post-9/11 Wars through FY 2020: $6.4 Trillion," (2019), 1-3, https://watson.brown.edu/costsofwar/figures/2019/budgetary-costs-post-911-wars-through-fy2020-64-trillion; Kurt M. Campbell and Ely Ratner, "The China Reckoning," *Foreign Affairs* 97, no. 2 (2018), 60-70; H.R. McMaster, *Battlegrounds* (2020), 130.
5. World Bank, "Nearly Half the World Lives on Less than $5.50 a Day," 10/17/2018, https://www.worldbank.org/en/news/press-release/2018/10/17/nearly-half-the-world-lives-on-less-than-550-a-day.
6. Sally Sargeson, "The Demise of China's Peasantry as a Class," *Asia-Pacific Journal* 14, Issue 13, no. 1 (2016), 1-23.
7. Wayne M. Morrison, *China's Economic Rise* (2019), 5, 11-12, https://fas.org/sgp/crs/row/RL33534.pdf; National Bureau of Statistics of China, "Table 3.1 Gross Domestic Product," *Chinese Statistical Yearbook 2018* (2019), http://www.stats.gov.cn/tjsj/ndsj/2018/indexeh.htm.
8. Xiangming Chen and Tomas de'Medici, "Research Note—The 'Instant City' Coming of Age," *Urban Geography* 31, no. 8 (2009), 1141-47; Thomas Hout and Pankaj Ghemawat, "China vs the World," *Harvard Business Review* (December 2010), https://hbr.org/2010/12/china-vs-the-world-whose-technology-is-it.
9. Liyan Chen et al., "Alibaba Claims Title for Largest Global IPO Ever with Extra Share Sales," *Forbes*, 9/22/2014, https://www.forbes.com/sites/ryanmac/2014/09/22/alibaba-claims-title-for-largestglobal-

ipo-ever-with-extra-share-sales/#5303ae028dcc; Kevin Fitchard, "Huawei Knocks Off Ericsson as World's Biggest Telecom Vendor," *Gigaom*, 7/24/2012, https://gigaom.com/2012/07/24/huawei-knocks-off-ericsson-as-worlds-biggest-telecom-vendor/.

10. Jane Perlez, "'China Creates a World Bank of Its Own, and the U.S. Balks," *NYT*, 12/4/2015, https://www.nytimes.com/2015/12/05/business/international/china-creates-an-asian-bank-as-the-us-standsaloof. html; Saadat Hassan, "OBOR," *IRAS: Institute for Iran-Eurasia Studies*, 5/14/2017, http://www.iras.ir/en/doc/article/3171/obor-infrastructure-investment-connectivity.
11. "Full Text of President Xi's Speech at Opening of Belt and Road Forum," *Xinhuanet*, 5/14/2017, http://www.xinhuanet.com/english/2017-05/14/c_136282982.htm.
12. François de Soyres et al., "Common Transport Infrastructure," World Bank Policy Research Working Paper 8801 (2019), 3-5, http://documents1.worldbank.org/curated/en/879031554144957551/pdf/.
13. Brook Larmer, "What the World's Emptiest International Airport Says about China's Influence," *NYT*, 9/13/2017, https://www.nytimes.com/2017/09/13/magazine/what-the-worlds-emptiest-internationalairport-says-about-chinas-influence.html; Alexandra Stevenson and Cao Li, "China's Plan to Win Friends and Influence Includes Ski Slopes and Spas," *NYT*, 8/1/2018, https://www.nytimes.com/2018/08/01/business/chinabelt-and-road.html; Brook Larmer, "Is China the World's New Colonial Power?," *NYT*, 5/2/2017, https://www.nytimes.com/2017/05/02/magazine/is-china-the-worlds-new-colonial-power.html.
14. Jason Horowitz and Liz Alderman, "Chastised by E.U., a Resentful Greece Embraces China's Cash and Interests," *NYT*, 8/26/2017, https://www.nytimes.com/2017/08/26/world/europe/greece-china-piraeus-alexistsipras. html; Bloomberg News, "IMF Aims to Nudge Xi's Silk Road Plan Away from Spending Splurge," *American Journal of Transportation*, 4/12/2018, https://www.ajot.com/news/imf-aims-to-nudge-xissilk-road-plan-away-from-spending-splurge; "Will China's Belt and Road Initiative Outdo the Marshall Plan?," *The Economist*, 3/8/2018, https://www.economist.com/finance-and-economics/2018/03/08/will-chinas-belt-and-road-initiative-outdo-the-marshall-plan; Simon Shen, "How China's 'Belt and Road' Compares to the Marshall Plan," *The Diplomat*, 2/6/2016, https://thediplomat.com/2016/02/howchinas-belt-and-road-compares-to-the-

marshall-plan/; Saeed Shah and Jeremy Page, "China Readies $46 Billion for Pakistan Trade Route," *Wall Street Journal*, 4/16/2015, https://www.wsj.com/articles/china-to-unveil-billions-of-dollars-in-pakistan-investment-1429214705.

15. Raushan Nurshayeva and Shamil Zhumatov, "Update 3—China's Hu Boosts Energy Ties with Central Asia," *Reuters*, 12/12/2009, https://www.reuters.com/article/china-kazakhstan/update-3-chinas-hu-boostsenergy-ties-with-central-asia-idUKGEE5BB01D20091212; Demir Azizov, "Construction of Third Branch of Uzbekistan-China Gas Pipeline Completed," *Trend News Agency*, 12/23/2014, http://en.trend.az/casia/uzbekistan/2346917.html.
16. Vaclav Smil, *Energy Transitions* (2017), 134-39, 157; Reuters Staff, "Update 1—China 2015 Coal Output Drops 3.5 pct on Soft Demand, Pollution Curbs," *Reuters*, 1/18/2016, https://www.reuters.com/article/china-economy-output-coal-idUSL3N1531CD.
17. Jean-Paul Rodrigue, "Length of the Interstate Highway System and of the Chinese Expressway System, 1959-2017," *Geography of Transport Systems* (2020), https://transportgeography.org/?page_id=1869.
18. Monika, "China's Automobile Population Totals 250 Million Units by June 2019," *Gasgoo*, 7/4/2019, http://autonews.gasgoo.com/china_news/70016117.html; I. Wagner, "Number of Vehicles in Operation in the United States between 1st quarter 2017 and 1st quarter 2019," *Statistica*, 7/24/2019, https://www.statista.com/statistics/859950/vehicles-in-operation-by-quarter-united-states/; M. Muntean et al., *Fossil CO2 Emissions of All World Countries—2018 Report* (2018), https://op.europa.eu/en/publication-detail/-/publication/41811494-f131-11e8-9982-01aa75ed71a1/language-en; Paul Gao, Arthur Wang et al., "Winning the Race," *McKinsey China Auto CEO Quarterly* (December 2019), 14, https://www.mckinsey.com/~/media/mckinsey/industries/automotive%20and%20assembly/our%20insights/winning%20the%20race%20chinas%20auto%20market%20shifts%20gears/winning-the-racechinas-auto-market-shifts-gears.ashx.
19. Richard Nunno, "Fact Sheet: High Speed Rail Development Worldwide," *Environmental and Energy Study Institute*, 7/19/2018, https://www.eesi.org/papers/view/fact-sheet-high-speed-rail-development-worldwide; Gerald Olivier, "Chinese High-Speed," *International Railway Journal*, 2/18/2015, https://www.railjournal.com/in_depth/chinese-high-speedan-evaluation-of-traffic; Keith Bradsher, "Hauling New Treasure along the Silk Road," *NYT*, 7/20/2013, https://www.nytimes.com/2013/07/21/business/global/hauling-new-treasure-along-the-silk-road.html; Jean-Paul Rodrigue, *The Geography of Transport Systems* (2017), 167.

20. Thodsapol Hongtong and Kornchanok Raksaseri, "From Bangkok to Beijing," *Bangkok Post*, 7/7/2019.
21. Jane Perlez, "China Retools Vast Global Building Push Criticized as Bloated and Predatory," *NYT*, 4/25/2019, https://www.nytimes.com/2019/04/25/business/china-belt-and-road-infrastructure.html.
22. Keith Johnson, "Why Is China Buying Up Europe's Ports?," *Foreign Policy*, 2/2/2018, https://foreignpolicy.com/2018/02/02/why-is-chinabuying-up-europes-ports/; Maria Abi-Habib, "How China Got Sri Lanka to Cough Up a Port," *NYT*, 6/25/2018, https://www.nytimes.com/2018/06/25/world/asia/china-sri-lanka-port.html; Joanna Kakissis, "Chinese Firms Now Hold Stakes in over a Dozen European Ports," *NPR*, 10/9/2018, https://www.npr.org/2018/10/09/642587456/chinese-firms-now-hold-stakes-in-over-a-dozen-european-ports.
23. Jason Horowitz and Steven Erlanger, "Italy Gives Xi, and China's Vast Infrastructure Project, a Royal Welcome," *NYT*, 3/22/2019, https://www.nytimes.com/2019/03/22/world/europe/italy-china-xi-road.html.
24. Reuters Staff, "China Unveils Vision for 'Polar Silk Road' across Arctic," *Reuters*, 1/26/2018, https://www.reuters.com/article/us-china-arctic/china-unveils-vision-for-polar-silk-road-across-arctic-idUSKBN1FF0J8.
25. Peter Baker, "Obama, on China's Turf, Presents U.S. as a Better Partner for Africa," *NYT*, 7/29/2015, https://www.nytimes.com/2015/07/30/world/africa/obama-on-chinas-turf-presents-us-as-a-better-partner-forafrica.html.
26. Ernesto Londoño, "From a Space Station in Argentina, China Expands Its Reach in Latin America," *NYT*, 7/28/2018, https://www.nytimes.com/2018/07/28/world/americas/china-latin-america.html.
27. Perlez, "China Retools Vast Global Building Push"; Jonathan Watts, "Belt and Road Summit Puts Spotlight on Chinese Coal Funding," *Guardian*, 4/25/2019, https://www.theguardian.com/world/2019/apr/25/belt-and-road-summit-puts-spotlight-on-chinese-coal-funding; Keith Bradsher, "China Renews Its 'Belt and Road' Push for Global Sway," *NYT*, 1/15/2020, https://www.nytimes.com/2020/01/15/business/china-beltand-road.html.
28. Christine Lagarde, "BRI 2.0," 4/26/2019, International Monetary Fund, https://www.imf.org/en/News/Articles/2019/04/25/sp042619-stronger-frameworks-in-the-new-phase-of-belt-and-road.
29. Manoj Joshi, "With BRI 2.0, Xi Jinping Pledges to Step Up China's Game," *Observer Research Foundation* (4/29/2019),

https://www.orfonline.org/research/bri-xi-jinping-pledges-step-up-chinasgame-50343/; Bradsher, "China Renews."

30. Deborah Brautigam, "Is China the World's Loan Shark?," *NYT*, 4/26/2019, https://www.nytimes.com/2019/04/26/opinion/china-beltroad-initiative.html.
31. David Pilling and James Politi, "US Senate Passes $60bn Foreign Development Bill," *Financial Times*, 10/3/2018, https://www.ft.com/content/14400aa2-c743-11e8-ba8f-ee390057b8c9; Bhavan Jaipragas, "Trump Strikes a Blow in US-China Struggle with Build Act to Contain Xi's Belt and Road," *South China Morning Post*, 10/20/2018, https://www.scmp.com/week-asia/geopolitics/article/2169441/trump-strikes-blow-us-china-struggle-build-act-contain-xis.
32. Molly Ball, "Peter Navarro Used to Be a Democrat," *Time*, 8/3/2018, http://time.com/5375727/peter-navarro/; Josh Rogin, "How Peter Navarro Got His Groove Back," *WP*, 2/27/2018, https://www.washingtonpost.com/news/josh-rogin/wp/2018/02/27/how-peternavarro-got-his-groove-back/.
33. Ball, "Peter Navarro."
34. Peter Navarro, *San Diego Confidential* (1998), 110-11, 198-99, 210-11.
35. Peter Navarro, *The Coming China Wars* (2006), xii-xix; Peter Navarro and Greg Autry, *Death by China* (2011), 1-11, 122-26, 137-50, 151-68.
36. Peter Navarro, *Crouching Tiger* (2015), 54-55, 56-61.
37. Navarro, *Crouching Tiger*, 187-93.
38. Navarro, *Crouching Tiger*, 194-201.
39. Ball, "Peter Navarro"; Navarro, *Crouching Tiger*, 256-60.
40. Thomas Franck, "Trump Doubles Down,'" *CNBC*, 3/2/2018, https://www.cnbc.com/2018/03/02/trump-trade-wars-are-good-and-easy-towin.html.
41. Don Lee, "Trump Announces Plans for Heavy Tariffs on Steel and Aluminum Imports, Inviting a Trade War with China," *Los Angeles Times*, 3/1/2018, http://www.latimes.com/business/la-fi-trump-steel-tariffs-20180301-story.html; Kevin Breuninger and Kayla Tausche, "Trump Slaps China with Tariffs on Up to $60 Billion in Imports,'" *CNBC*, 3/22/2018, https://www.cnbc.com/2018/03/22/trump-moves-to-slapchina-with-50-billion-in-tariffs-over-intellectual-property-theft.html.
42. Raymond Zhong, "China Strikes Back at Trump's Tariffs, but Its Consumers Worry," *NYT*, 7/6/2018, https://www.nytimes.com/2018/07/06/business/china-trump-trade-war-tariffs.html.
43. Jim Tankersley and Keith Bradsher, "Trump Hits China with Tariffs on $200 Billion in Goods, Escalating Trade War," *NYT*, 9/17/2018, https://www.nytimes.com/2018/09/17/us/politics/trump-china-tariffs-trade.html; Sylvan Lane, "Fed Chief Lays Out Risks of Trade War," *The Hill*, 7/17/2018,

http://thehill.com/policy/finance/397470-fed-chief-lays-out-risks-of-trade-war.

44. Paul-Martin Foss, "Trade War with China Continues to Escalate," *Red Tea News*, 9/19/2018, http://redtea.com/america-now/trade-war-with-china-continues-to-escalate/.
45. Miklo Sugeno, "China Is Trying to Steal Our Future: Navarro," *Nikkei Asian Review*, 12/22/2018, https://asia.nikkei.com/Editor-s-Picks/Interview/China-is-trying-to-steal-our-future-Navarro.
46. Cassell Bryan-Low et al., "Hobbling Huawei," *Reuters*, 5/21/2019, https://www.reuters.com/investigates/special-report/huawei-usacampaign/; Fareed Zakaria, "The New China Scare," *Foreign Affairs* 99, no. 1 (2020), 52-69; McMaster, *Battlegrounds*, 130-33, 141-44, 400-401, 405-6.
47. "Huawei's Founder Ren Zhengfei," Huawei (1/15/2019), https://www. huawei.com/en/facts/voices-of-huawei/interview-with-ren-zhengfei; Thomas Seal, "Huawei Sales Rebound Despite U.S. Efforts to Halt Great Deal," *Bloomberg*, 7/13/2020, https://www.bloomberg.com/news/articles/2020-07-13/huawei-sales-rebound-despite-u-s-efforts-to-haltgear-deals; Dan Sabbagh, "What Is Huawei and Why Is Its Role in UK's 5G so Controversial," *Guardian*, 7/13/2020, https://www.theguardian. com/technology/2020/jul/13/what-is-huawei-and-why-role-in-uk-5g-so-controversial; Dilip Hiro, "Who's Century Is It?," *TomDispatch*, 8/18/2020, http://www.tomdispatch.com/blog/176742/.
48. John Bolton, *The Room Where It Happened* (2020), 300-301, 311; Peter Baker and Keith Bradsher, "Trump and Xi Agree to Restart Trade Talks, Avoiding Escalation in Tariff War," *NYT*, 6/29/2019, https://www.nytimes.com/2019/06/29/world/asia/g20-trump-xi-trade-talks. html; Gabriel Sherman, "'Make Sure I Win,'" *Vanity Fair*, 6/18/2020, https://www.vanityfair.com/news/2020/06/boltons-unredacted-bookshows-trump-trying-to-hide; Ana Swanson and Alan Rappeport, "With Trade Talks Looming, U.S. and China Move to Relax Tensions," *NYT*, 9/12/2019, https://www.nytimes.com/2019/09/12/us/politics/trumpchina-trade.html.
49. Ana Swanson, "As Trump Escalates Trade War, U.S. and China Move Further Apart with No End in Sight," *NYT*, 9/1/2019, https://www.nytimes.com/2019/09/01/world/asia/trump-trade-war-china.html; Yun Li, "Trump Says US Will Impose 10% Tariffs on Another $300 Billion of Chinese Goods Starting Sept. 1," *CNBC*, 9/1/2019, https://www.cnbc.com/2019/08/01/trump-says-us-will-impose-10percent-tariffs-on-300-billion-of-chinese-goods-starting-september-1.html.

50. Jim Tankersley, "In Delaying Tariffs, Trump Faces Up to Economic Reality," *NYT*, 8/14/2019,
https://www.nytimes.com/2019/08/14/us/politics/china-tariffs-donald-trump.html; Philip Rucker et al., "Trump, Banking on Strong Economy to Win Reelection, Frets over a Possible Downturn," *WP*, 8/15/2019,
https://www.washingtonpost.com/politics/trump-banking-on-strong-economy-to-win-reelection-fretsover-a-possible-downturn/2019/08/15/04a85352-bf67-11e9-b873-63ace636af08_story.html.

51. Peter Navarro interviewed by Stuart Varney, *Fox Business News*, 8/14/2019, https://www.youtube.com/watch?v=7j0xuYKZO4g; Ana Swanson and Matt Phillips, "Markets Soar on News of China Talks, but Hopes for Progress Are Low," *NYT*, 9/5/2019,
https://www.nytimes.com/2019/09/05/business/markets-trump-china-trade.html.

52. Joe McDonald, "China Announces Tariff Hike on $75 Billion of US Products," *ABC News*, 8/23/2019,
https://abcnews.go.com/International/wireStory/china-announces-tariff-hike-75-billion-us-products-65145696.

53. Peter S. Goodman, "Trump Can Battle China or Expand the Economy," *NYT*, 8/26/2019,
https://www.nytimes.com/2019/08/26/business/economy/trump-china-trade-war.html; Alan Rappeport, "Farmers' Frustration with Trump Grows as U.S. Escalates China Fight," *NYT*, 8/27/2019,
https://www.nytimes.com/2019/08/27/us/politics/trumpfarmers-china-trade.html; Swanson, "As Trump Escalates Trade War."

54. Keith Bradsher, "China's Hard-Liners Win a Round in Trump's Trade Deal," *NYT*, 12/14/2019,
https://www.nytimes.com/2019/12/14/business/china-trade-hardliners.html; Paul Wiseman, "A Look at Trump's Trade Wars," *Wisconsin State Journal*, 11/1/2020; Alan Rappeport, "Trump's Supporters See U.S. Victory in China Trade Deal," *NYT*, 1/14/2020,
https://www.nytimes.com/2020/01/14/us/politics/trump-china-trade-deal.html; Ryan Hass and Abraham Denmark, "More Pain Than Gain," *Brookings*, 8/7/2020, https://www.brookings.edu/blog/order-from-chaos/2020/08/07/more-pain-than-gain-how-the-us-china-trade-war-hurt-america/.

55. Peter S. Goodman, "The Global Economy Was Improving," *NYT*, 5/15/2019, https://www.nytimes.com/2019/05/15/business/us-chinatrade-war-economy.html; Winston Mok, "Trump Wants US Businesses to Cut All Ties with China," *South China Morning Post*, 9/11/2019,
https://www.scmp.com/comment/opinion/article/3026384/trump-wants-

usbusinesses-cut-all-ties-china-why-thats-lose-lose; Policy Planning Staff, Office of the Secretary of State, *The Elements of the China Challenge* (2020), 1, 7, https://www.state.gov/wp-content/uploads/2020/11/20-02832-Elements-of-China-Challenge-508.pdf.

56. Keith Bradsher, "China Needs New Place to Sell Its Mountains of Stuff," *NYT*, 7/26/2019, https://www.nytimes.com/2019/07/26/business/china-trade-war-us-rcep.html; Keith Bradsher and Ana Swanson, "China-Led Trade Pact Is Signed, in Challenge to the U.S.," *NYT*, 11/15/2020, https://www.nytimes.com/2020/11/15/business/china-trade-rcep.html; Tim McDonald, "What Is the Regional Comprehensive Economic Partnership?," *BBC News*, 11/16/2020, https://www.bbc.com/news/business-54899254; Jack Ewing and Steven Lee Myers, "China and E.U. Leaders Strike Investment Deal, but Political Hurdles Await," *NYT*, 12/30/2020, https://www.nytimes.com/2020/12/30/business/china-euinvestment-deal.html; Steven Lee Myers, "With Concessions and Deals, China's Leader Tries to Box Out Biden," *NYT*, 1/3/2021, https://www.nytimes.com/2021/01/03/world/asia/china-eu-investment-biden.html.
57. Ronald O'Rourke, *China Naval Modernization* (2016), 8, https://news.usni.org/wp-content/uploads/2016/06/RL33153.pdf.
58. Eric Heginbotham et al., *The U.S.-China Military Scorecard, Forces, Geography and the Evolving Balance of Power, 1996-2017*, RAND Corporation (2015), xix, xxx-xxxii, https://www.rand.org/pubs/research_reports/RR392.html.
59. "Pakistan and China Boost Security at Gwadar Port," *Maritime Executive*, 12/15/2016, https://www.maritime-executive.com/article/pakistan-boosts-maritime-security-at-gwadar-port.
60. PTI, "Chinese Navy Ships to Be Deployed at Gwadar," *Times of India*, 11/25/2016, https://timesofindia.indiatimes.com/world/pakistan/Chinese-navy-ships-to-be-deployed-at-Gwadar-Pak-navy-official/articleshow/55622674.cms.
61. Behram Baloch, "China Hands Over Two Ships to Pakistan for Maritime Security," *Dawn*, 1/15/2017, https://www.dawn.com/news/1308491; ANI, "China's Second Overseas Naval Base to Be in Pakistan?," *New Indian Express*, 1/9/2018, http://www.newindianexpress.com/world/2018/jan/09/chinas-second-overseas-naval-base-to-be-inpakistan-1748554.html.
62. "China Opens First Overseas Military Base," *VOA*, 11/3/2017, https://www.voanews.com/a/china-overseas-military-base/4099717.html.

63. Simon Mundy, "China-Backed Port Sparks Sri Lanka Sovereignty Fears," *Financial Times*, 10/23/2017,
https://www.ft.com/content/f8262d56-a6a0-11e7-ab55-27219df83c97.

64. Asia Maritime Transparency Initiative, "South China Sea Energy Exploration and Development,"
https://amti.csis.org/south-chinasea-energy-exploration-and-development/;
Christopher Bodeen, "Looming Collapse of Fisheries in the South China Sea?," *Navy Times*, 5/20/2019,
https://www.navytimes.com/news/your-navy/2019/05/20/looming-collapse-of-fisheries-in-the-south-china-sea.

65. Hans M. Kristensen, "China SSBN Fleet Getting Ready—But for What?," *Federation of American Scientists Strategic Security Blog*, 5/25/2014,
https://fas.org/blogs/security/2014/04/chinassbnfleet/.

66. Derek Watkins, "What China Has Been Building in the South China Sea," *NYT*, 10/27/2015,
https://www.nytimes.com/interactive/2015/07/30/world/asia/what-china-has-been-building-in-the-south-china-sea.html;
"Occupation and Island Building," Asia Maritime Transparency Initiative,
http://amti.csis.org/island-tracker/.

67. Michael Forsythe and Jane Perlez, "South China Sea Buildup Brings Beijing Closer to Realizing Control," *NYT*, 3/8/2016,
https://www.nytimes.com/2016/03/09/world/asia/south-china-sea-militarization.html;
Thomas J. Wright, *All Measures Short of War* (2017), 81; Ben Westcott, "South China Sea," *CNN*, 3/29/2017,
https://www.cnn.com/2017/03/28/asia/south-china-sea-islands-aircraft-hangars/index.html.

68. Cid Standifer, "Updated," *USNI News*, 5/29/2017,
https://news.usni.org/2017/05/29/brief-history-us-freedom-navigation-operations-south-china-sea.

69. Floyd Whaley, "Eye on China, U.S. and Philippines Ramp Up Military Alliance," *NYT*, 4/12/2016,
https://www.nytimes.com/2016/04/13/world/asia/philippines-south-china-sea-ash-carter.html;
AP, "US, Philippines Sign Military Deal to Counter Chinese Aggression," *Australian*, 4/28/2014,
https://www.theaustralian.com.au/news/world/us-philippines-sign-military-deal-to-counter-chinese-aggression/news-story/43e9cac698180b35662e4c0db7db66c0.

70. "Philippines Reopens Subic Bay as Military Base to Cover South China Sea," *Guardian*, 7/15/2015,

https://www.theguardian.com/world/2015/jul/16/philippines-reopens-subic-bay-as-military-base-to-cover-southchina-sea; Ralph Jennings, "US Navy Edges Back to Subic Bay in Philippines—under New Rules," Christian Science Monitor, 11/12/2015, http://www.csmonitor.com/World/Asia-Pacific/2015/1112/US-Navy-edges-back-to-Subic-Bay-in-Philippines-under-new-rules.

71. Keith Bradsher, "Philippine Leader Sounds Alarm on China," *NYT*, 2/4/2014, https://www.nytimes.com/2014/02/05/world/asia/philippine-leader-urges-international-help-in-resisting-chinas-seaclaims. html; Michaela Del Callar, "DFA: China Boats Blocking PHL Vessels from Panatag Shoal," *GMA News Online*, 7/18/2012, http://www.gmanetwork.com/news/story/265889/news/nation/dfa-china-boats-blocking-phl-vessels-from-panatag-shoal.
72. Permanent Court of Arbitration, "Award," *In the Matter of the South China Sea Arbitration before an Arbitral Tribunal Constituted under Annex VII to the 1982 United Nations Convention on the Law of the Sea between the Republic of the Philippines and the People's Republic of China*, 7/12/2016, 68-77, 116-17, http://www.pcacases.com/pcadocs/PH-CN%20-%2020160712%20-%20Award.pdf; Zhiguo Gao and Bing Bing Jia, "The Nine-Dash Line in the South China Sea," *American Journal of International Law* 107, no. 1 (2013), 103-4; Jane Perlez, "Tribunal
www.nytimes.com/2016/07/13/world/asia/south-china-sea-hagueruling-philippines.html.
73. Wright, *All Measures Short of War*, 82-83.
74. Kyle Mizokami, "China's Second Aircraft Carrier Is Its Most Crucial Yet," *Popular Mechanics*, 12/11/2017, https://www.popularmechanics.com/military/navy-ships/a14408704/chinas-second-aircraft-carrier-is-its-most-crucial-yet/.
75. Kyle Mizokami, "China's Next Aircraft Carrier Will Be a Major Leap Forward," *Popular Mechanics*, 1/19/2018, https://www.popularmechanics.com/military/navy-ships/a15392390/chinas-nextaircraft-carrier-002/; H.I. Sutton, "Power Projection," *Forbes*, 12/3/2019, https://www.forbes.com/sites/hisutton/2019/12/03/super-powerprojection-work-to-start-on-chinas-4th-aircraft-carrier/#72d44fe65d38.
76. Simon Denyer, "By 2030, South China Sea Will Be 'Virtually a Chinese Lake,' Study Warns," *WP*, 1/20/2016, https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2016/01/20/by-2030-south-china-sea-willbe-virtually-a-chinese-lake-u-s-study-warns/; Michael Forsythe, "Possible Radar Suggests Beijing Wants 'Effective Control' in South China Sea," *NYT*, 2/23/2016, https://www.nytimes.com/2016/02/24/world/asia/china-south-china-sea-radar.html.

77. Congressional Research Service, *China Naval Modernization* (2021), 32, https://fas.org/sgp/crs/row/RL33153.pdf.
78. O'Rourke, *China Naval Modernization*, 16-18; Kyle Mizokami, "China Will Soon Have More Submarines Than America," *Popular Mechanics*, 12/14/2020, https://www.popularmechanics.com/military/navy-ships/a34965433/us-vs-china-navy-submarines/.
79. O'Rourke, *China Naval Modernization*, I-ii, 95-104.
80. Jeffrey Lin and Peter W. Singer, "China's Hypersonic Aircraft Would Fly from Beijing to New York in Two Hours," *Popular Science*, 2/26/2018, https://www.popsci.com/china-hypersonic-double-wing-aircraft-i-plane.
81. Office of the Secretary of Defense, *Military and Security Developments Involving the People's Republic of China, 2010* (2010), i, 1-3, 7, 25-37, https://archive.defense.gov/pubs/pdfs/2010_CMPR_Final.pdf; Thom Shanker, "Pentagon Cites Concerns in China Military Growth," *NYT*, 8/16/2010, https://www.nytimes.com/2010/08/17/world/asia/17military.html; Reuters Staff, "China Launches New Global Positioning Satellite," *Reuters*, 7/31/2010, http://www.reuters.com/article/idUSTRE67005R20100801; Steven Lee Myers, "China Will Answer 'Heavenly Question': Can It Land on Mars?," *NYT*, 7/22/20, https://www.nytimes.com/2020/07/22/science/china-mars-mission.html.
82. William J. Broad and David E. Sanger, "China Tests Anti-Satellite Weapon, Unnerving U.S.," *NYT*, 1/18/2007, https://www.nytimes.com/2007/01/18/world/asia/18cnd-china.html; Marc Kaufman and Dafna Linzer, "China Criticized for Anti-Satellite Missile Test," *WP*, 1/19/2007, https://www.washingtonpost.com/archive/politics/2007/01/19/china-criticized-for-antisatellite-missile-test-span-classbankheaddestruction-of-aging-satellite-illustrates-vulnerability-of-us-space-assetsspan/ae3462c4-e2d9-422b-bc17-dc040458fe64/.
83. David C. Gompert et al., *War with China* (2016), iii-iv.
84. David B. Larter, "US Navy to Add 46 Ships in Next Five Years, but 355 Ships Won't Come for a Long Time," *Defense News*, 2/12/2018, https://www.defensenews.com/smr/federal-budget/2018/02/13/us-navy-to-add-46-ships-in-five-years-but-355-ships-is-well-over-the-horizon/.
85. Ankit Panda, "Straight from the US State Department," *The Diplomat*, 3/14/2017, https://thediplomat.com/2017/03/straight-from-theus-state-department-the-pivot-to-asia-is-over/; Demetri Sevastopulo, "Trump Gives Glimpse of 'Indo-Pacific' Strategy to Counter China," *Financial Times*, 11/10/2017, https://www.ft.com/content/e6d17fd6-c623-11e7-a1d2-6786f39ef675.
86. John M. Richardson, "A Design for Maintaining Maritime Superiority," *Naval War College Review* 69, no. 2 (2016), 13.

87. US Department of the Navy, *The Future Navy*, 5/17/2017, https://admin.govexec.com/media/gbc/docs/pdfs_edit/futurenavyfinal.pdf.
88. T.S. Rowden, *Surface Force Strategy*, US Navy (2017), 1-2, https://media.defense.gov/2020/May/18/2002302052/-1/-1/1/SURFACEFORCESTRATEGY-RETURNTOSEACONTROL.PDF.
89. "About USINDOPACOM," United States Indo-Pacific Command, https://www.pacom.mil/About-USINDOPACOM/.
90. Michael E. Hutchens et al., "Joint Concept for Access and Maneuver in the Global Commons," *Joint Force Quarterly* 84 (2017), 134-36, https://ndupress.ndu.edu/Portals/68/Documents/jfq/jfq-84/jfq-84_134-139_Hutchens-et-al.pdf.
91. O'Rourke, *China Naval Modernization*, i-ii, 95-104; Department of Defense, *Military and Security Developments Involving the People's Republic of China* (2020), i-xii, https://media.defense.gov/2020/Sep/01/2002488689/-1/-1/1/2020-DOD-CHINA-MILITARY-POWER-REPORT-FINAL.PDF.
92. Graham Allison, "The New Spheres of Influence," *Foreign Affairs* 99, no. 2 (2020), 30-40.
93. Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard* (1998), 35, 39.
94. "China Says Uighur Detention Centers Fight Terrorism, Rejects UN Criticism," *Reuters*, 11/6/2018, https://www.pri.org/stories/2018-11-06/china-says-uighur-detention-centers-fight-terrorism-rejects-un-criticism; Austin Ramzy and Chris Buckley, "'Show Absolutely No Mercy': Inside China's Mass Detentions," *NYT*, 11/17/2019, https://static01.nyt.com/images/2019/11/17/nytfrontpage/scan.pdf.
95. Human Rights Watch, "China's Global Threat to Human Rights," *World Report 2020* (2020), https://www.hrw.org/world-report/2020/china-global-threat-to-human-rights.
96. Ji Guoxing, "SLOC Security in the Asia Pacific," Center Occasional Papers, Asia-Pacific Center for Security Studies (2000), http://apcss.org/Publications/Ocasional%20Papers/OPSloc.htm; Robert D. Kaplan, "The South China Sea Will Be the Battleground of the Future," *Business Insider*, 2/6/2016, http://www.businessinsider.com/why-the-south-china-sea-is-so-crucial-2015-2.
97. U. Rashid Sumaila and William W.L. Cheung, *Boom or Bust* (2015), 1-3; John W. McManus et al., "Toward Establishing a Spratly Islands International Marine Peace Park," *Ocean Development and International Law* 41, no. 3 (2010), 273.
98. Richard Weitz, "The SCO and NATO Compared," *China-US Focus*, 8/30/2018, https://www.chinausfocus.com/peace-security/the-sco-and-nato-compared.
99. S.R., "Why China Is Creating a New 'World Bank' for Asia," *The Economist*, 11/11/2014,

https://www.economist.com/the-economistexplains/2014/11/11/why-china-is-creating-a-new-world-bank-for-asia.

100. David Tweed, "China's New Silk Road," *Bloomberg*, 4/15/2019, https://www.bloomberg.com/quicktake/china-s-silk-road; "Embracing the BRI Ecosystem in 2018," *Deloitte Insights*, 2/13/2018, https://www2.deloitte.com/insights/us/en/economy/asia-pacific/china-belt-and-roadinitiative.html.

101. Li Congjun, "Toward a New World Media Order," *Wall Street Journal*, 6/1/2011, https://www.wsj.com/articles/SB10001424052748704816604576335563624853594; Reporters without Borders, *China's Pursuit of a New World Media Order* (2019), 3, 9-10, https://rsf.org/sites/default/files/en_rapport_chine_web_final.pdf; James M. Dorsey, "How Illiberals & Autocrats Unite to Craft a New World Media Order," *Counter Currents*, 4/12/2019, https://countercurrents.org/2019/04/illiberals-and-autocrats-unite-to-craft-a-new-world-media-order/.

102. Joya Chatterji, "From Subjecthood to Citizenship in South Asia," in Alfred W. McCoy et al., eds., *Endless Empire* (2012), 317.

103. Victoria de Grazia, *Irresistible Empire* (2006), 18-75; James Peck, *Ideal Illusions* (2010), 26-38, 41-44.

104. Ethan Epstein, "How China Infiltrated U.S. Classrooms," *Politico Magazine*, 1/17/2018, https://www.politico.com/magazine/story/2018/01/16/how-china-infiltrated-us-classrooms-216327; US Senate, Permanent Subcommittee on Investigations, *China's Impact on the U.S. Education System* (2019), 1-4, 76-77, https://www.hsgac.senate.gov/imo/media/doc/PSI%20Report%20China%27s%20Impact%20on%20the%20US%20Education%20System.pdf; Rachelle Peterson, "Confucian Institutes in the US That Are Closing" (2019), NationalAssocation of Scholars, https://www.nas.org/storage/app/media/Reports/Outsourced%20to%20China/confucius-institutes-that-closedupdated-june-3-2019.pdf; Andreas Fulda, "Chinese Propaganda Has No Place on Campus," *Foreign Policy*, 10/15/2019, https://foreignpolicy.com/2019/10/15/confucius-institute-chinese-propaganda-campuscommunist-party-censorship/.

105. Permanent Court of Arbitration, *South China Sea*; Perlez, "Tribunal Rejects"; Gao, "Nine-Dash Line," 103-4.

106. Perlez, "Tribunal Rejects"; Tom Phillips et al., "Beijing Rejects Tribunal's Ruling in South China Sea Case," *Guardian*, 7/12/2016, https://www.theguardian.com/world/2016/jul/12/philippines-wins-south-china-sea-case-against-china.

107. António Guterres, "Remarks at Opening Ceremony of UN Climate Change Conference COP25," 12/2/2019, https://www.un.org/sg/en/content/sg/speeches/2019-12-02/remarks-opening-ceremony-of-cop25; Associated Press, "U.N. Chief Warns of 'Point of No Return' on Climate Change," NBC News, 12/2/2019, https://www.nbcnews.com/news/world/u-n-chief-warns-point-no-return-climate-change-n1093956.
108. Sabrina Shankman, "Rapidly Warming Mediterranean Headed for Desertification, Study Warns," *Inside Climate News*, 10/27/2016, https://insideclimatenews.org/news/27102016/global-warming-mediterraneanregion-desertification-drought-climate-change; "Climate Change," United Nations, https://www.un.org/en/sections/issues-depth/climate-change/.
109. Colin P. Kelley et al., "Climate Change and Implications of the Recent Syrian Drought," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 112, no. 11 (2015), 3241-46, https://www.pnas.org/content/112/11/3241.
110. "Migrant Crisis," BBC News, 3/4/2016, https://www.bbc.com/news/world-europe-34131911; Steven Erlanger, "Facing Migrant Crisis, E.U. Makes a Dubious Deal with Turkey," *NYT*, 3/10/2016, https://www.nytimes.com/2016/03/11/world/europe/europe-turkey-erdoganrefugees-migrants.html; Samya Kullab and Nabil Al-Jurani, "Record Heat, Politics Inflame Iraq's Electricity Shortages," *WP*, 8/4/2020, https://www.washingtonpost.com/business/record-temperatures-pending-dealsinflame-iraqs-power-woes/2020/08/04/c5fc051c-d618-11ea-a788-2ce86ce81129_story.html.
111. Lauren Markham, "How Climate Change Is Pushing Central American Migrants to the US," *Guardian*, 4/6/2019, https://www.theguardian.com/commentisfree/2019/apr/06/us-mexico-immigration-climatechange-migration; Jonathan Blitzer, "How Climate Change Is Fueling the U.S. Border Crisis," *New Yorker*, 4/3/2019, https://www.newyorker.com/news/dispatch/how-climate-change-is-fuelling-the-us-border-crisis.
112. Blitzer, "Climate Change."
113. Kirk Semple, "Central American Farmers Head to the U.S., Fleeing Climate Change," *NYT*, 4/13/2019, https://www.nytimes.com/2019/04/13/world/americas/coffee-climate-change-migration.html.
114. Blitzer, "Climate Change"; Monique O. Madan, "U.S. to Slash More than $500 Million in Aid to El Salvador, Guatemala and Honduras," *Miami Herald*, 3/30/2019,

https://www.miamiherald.com/news/local/immigration/article228647089.html; Abrahm Lustgarten, "The Great Climate Migration," *NYT*, 7/23/2020, https://www.nytimes.com/interactive/2020/07/23/magazine/climate-migration.html; Michael D. Shear and Thomas Gibbons-Neff, "Trump Sending 5,200 Troops to the Border in an Election-Season Response to Migrants," *NYT*, 10/29/2018, https://www.nytimes.com/2018/10/29/us/politics/border-securitytroops-trump.html.

115. Kanta Kumari Rigaud et al., *Groundswell* (2018), xix-xxvi, https://openknowledge.worldbank.org/handle/10986/29461; Lustgarten, "Great Climate Migration"; Institute for Economics and Peace, *Global Peace Index 2020* (2020), 3, 71; Markham, "How Climate Change Is Pushing Central American Migrants to the US."

116. Daniel R. Coats, *Worldwide Threat Assessment of the US Intelligence Community*, Office of the Director of National Intelligence (2019), 23, https://www.dni.gov/files/ODNI/documents/2019-ATA-SFR---SSCI.pdf.

117. Douglas Lute and Nicholas Burns, *NATO at Seventy*, Belfer Center for Science and International Affairs (2019), 13, 34, 40, https://www.belfercenter.org/NATO70; Tim Arango, "Turkish Dam Project Threatens to Submerge Thousands of Years of History," *NYT*, 9/1/2016, https://www.nytimes.com/2016/09/02/world/europe/turkey-hasankeyf-ilisudam.html; Alexandra Marvar, "Turkey's Other Weapon against the Kurds: Water," *The Nation*, 11/11/19, https://www.thenation.com/article/archive/turkey-syria-iraq-kurds/.

118. Chris Matthews, "Fortune 5," *Fortune*, 10/5/2014, https://fortune.com/2014/10/05/most-powerful-economic-empires-of-all-time/; Office of the Under Secretary of Defense, *National Defense Budget Estimates for FY 2000* (1999), 1-16, https://comptroller.defense.gov/Portals/45/Documents/defbudget/Docs/fy2000_greenbook.pdf; Office of the Under Secretary of Defense, *National Defense Budget Estimates for FY 2020* (2019), 1-4, https://comptroller.defense.gov/Portals/45/Documents/defbudget/fy2020/FY20_Green_Book.pdf; H. Plecher, "United States' Share of Global Gross Domestic Product (GDP) Adjusted for Purchasing Power Parity (PPP) from 2014 to 2025" *Statistica* (1/6/2021), https://www.statista.com/statistics/270267/united-states-share-of-global-gross-domestic-product-gdp.

119. US Global Change Research Program, *Fourth National Climate Assessment*, vol. 2 (2018), 29, 36, 64, 413, 1349; Rebecca Lindsey, "Climate Change: Global Sea Level," *NOAA Climate.gov*, 8/14/2020, https://www.climate.gov/news-features/understanding-climate/climate-change-global-sea-level.

120. Michael T. Klare, "When the Climate Replaces Our Forever Wars," *The Nation*, 12/11/2019,
https://www.thenation.com/article/when-the-climate-replaces-our-forever-wars/.

121. Jonathan Vespa, "The U.S. Joins Other Countries with Large Aging Populations," *U.S. Bureau of Census* (2018),
https://www.census.gov/library/stories/2018/03/graying-america.html.

122. Robert Fogel, "Forecasting the Cost of U.S. Health Care in 2040," *Journal of Policy Modeling* 31, no. 4 (2009), 482-88; Congressional Budget Office, *The 2019 Long-Term Budget Outlook* (2019), 19-20, 53-57,
https://www.cbo.gov/system/files/2019-06/55331-LTBO-2.pdf.

123. Rigaud, *Groundswell*, 99-107.

124. US National Intelligence Council, *Global Trends 2030* (2012), i-iii, 105,
http://www.dni.gov/files/documents/GlobalTrends_2030.pdf;
PricewaterhouseCoopers, *The World in 2050* (2015), 1-3,
https://www.pwc.com/gx/en/issues/the-economy/assets/world-in-2050-february-2015.pdf.

125. Erin Duffin, "Military Expenditure as Percentage of Gross Domestic Product (GDP) in Highest Spending Countries 2018," *Statista* (2020),
https://www.statista.com/statistics/266892/military-expenditure-aspercentage-of-gdp-in-highest-spending-countries/;
Nicholas Kristof, "This Is How a War with China Could Begin," *NYT*, 9/4/2019,
https://www.nytimes.com/2019/09/04/opinion/china-taiwan-war.html; Kevin Rudd, "Short of War," *Foreign Affairs* 100, no. 2 (2021), 58-72; David Pierson and Michelle Yun, "The most important company you've never heard of is being dragged into the U.S.-China rivalry," *Los Angeles Times*, 12/17/2020,
https://www.latimes.com/world-nation/story/2020-12-17/taiwan-chips-tsmc-china-us; "The most dangerous place on Earth," *The Economist*, 5/1/2021,
https://www.economist.com/leaders/2021/05/01/the-most-dangerous-place-on-earth?utm_campaign=the-economist-today.

126. Åshild Kolås, "Tibetan Nationalism: The Politics of Religion," *Journal of Peace Research* 33, no. 1 (1996), 51-66.

127. Jiang Shigong, "Empire and World Order," *Reading the China Dream* (April 2019),
https://www.readingthechinadream.com/jiang-shigongempire-and-world-order.html;
Ryan Mitchell, "Chinese Receptions of Carl Schmitt Since 1929," *Journal of Law and International Affairs* 8, no. 1 (2020), 181-263; Chris Buckley, "'Clean Up this Mess,'" *NYT*, 8/2/2020,
https://www.nytimes.com/2020/08/02/world/asia/china-hong-kongnational-security-law.html.

128. Steven Lee Myers, "A Blue Sky in Beijing?," *NYT*, 1/11/2018,
https://www.nytimes.com/2018/01/11/world/asia/pollution-beijing-declines.

html; Michael Wines, "China Admits Problems with Three Gorges Dam," *NYT*, 5/19/2011,
https://www.nytimes.com/2011/05/20/world/asia/20gorges.html; Andrew Jacobs, "China's Appetite Pushes Fisheries to the Brink," *NYT*, 4/30/2017,
https://www.nytimes.com/2017/04/30/world/asia/chinas-appetite-pushes-fisheries-to-the-brink.html.

129. Yanzhong Huang, "Why China's Good Environmental Policies Have Gone Wrong," *NYT*, 1/14/2018,
https://www.nytimes.com/2018/01/14/opinion/china-environmental-policies-wrong.html; Steven Lee Myers, "Xi Sets 40-Year Target in Ambitious Pledge on Carbon Neutrality," *NYT*, 9/24/2020,
https://blendle.com/i/the-new-york-times/xi-sets-40-year-target-in-ambitious-pledge-on-carbon-neutrality/bnlnewyorktimes-20200924-11_1; Zhang Chun, "Can China Meet Its 2017 Air Quality Goals," *China Dialogue*, 1/25/2017,
https://chinadialogue. net/en/pollution/9574-can-china-meet-its-2-17-air-quality-goals/.

130. Scott Moore and Michelle Melton, "China's Pivot on Climate Change and National Security," *Lawfare Institute*, 4/2/2019,
https://www.lawfareblog.com/chinas-pivot-climate-change-and-national-security; Christine Shearer et al., "Out of Step," *Global Energy Monitor* (November 2019),
https://endcoal.org/global-coal-plant-tracker/reports/out-of-step/; Stephanie Yang, "In Tougher Times, China Falls Back on Coal," *Wall Street Journal*, 12/23/2019,
https://www.wsj.com/articles/in-toughertimes-china-falls-back-on-coal-11577115096; Stuart Lau, "COP25 summit," *South China Morning Post*, 12/12/2019,
https://www.scmp.com/news/china/diplomacy/article/3041711/cop25-summit-chinaleads-four-nation-attack-over-imbalances-un; Somini Sengupta, "U.N. Climate Talks End with Few Commitments and a 'Lost' Opportunity," *NYT*, 12/15/2019,
https://www.nytimes.com/2019/12/15/climate/cop25-un-climate-talks-madrid.html; Bradsher, "China Renews"; Muntean, *Fossil CO2 emissions*; Andrew S. Erickson and Gabriel Collins, "Competition with China Can Save the Planet," *Foreign Affairs* 100, no. 3 (2021), 136-49; Reuters Staff, "China generated over half world's coal-fired power in 2020," *Reuters*, 3/28/2021,
https://www.reuters.com/article/us-climate-change-china-coal/china-generated-over-half-worldscoal-fired-power-in-2020-study-idUSKBN2BK0PZ."

131. Steven Mufson, "U.S. Greenhouse Gas Emissions Fell Slightly in 2019," *WP*, 1/7/2020,
https://www.washingtonpost.com/climate-environment/usgreenhouse-gas-emissions-fell-slightly-in-2019/2020/01/06/568f0a82-309e-11ea-a053-dc6d944ba776_story.html; Nadja Popovich and Brad Plumer, "What Trump's Environmental Rollbacks Mean for Global Warming," *NYT*, 9/17/2020,

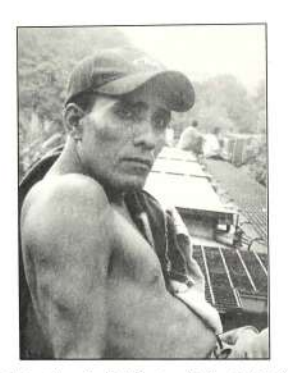
https://www.nytimes.com/interactive/2020/09/17/climate/emissions-trump-rollbacks-deregulation.html.

132. Hannah Ritchie and Max Roser, "Annual CO_2 Emissions, by World Region," *Our World in Data* (August 2020), https://ourworldindata.org/co2-and-other-greenhouse-gas-emissions; M. Crippa, et al., *Fossil CO_2 emissions of all world countries—2020 Report* (2020), https://edgar.jrc.ec.europa.eu/report_2020#emissions_table.
133. Intergovernmental Panel on Climate Change, *Global Warming of 1.5°C* (2019), 14, 34, https://www.ipcc.ch/sr15/chapter/spm/; Ren21, *Renewables 2020* (2020), 32, https://www.ren21.net/reports/global-status-report/.
134. Mengpin Ge and Johannes Friedrich, "World Greenhouse Gas Emissions: 2016 (Sector/End Use/Gas)," *4 Charts Explain Greenhouse Gas Emissions by Countries and Sectors*, World Resources Institute (2/3/2020), https://www.wri.org/resources/data-visualizations/world-greenhouse-gasemissions-2016; Hannah Ritchie and Max Roser, "Sector by Sector: Where Do Global Greenhouse Gas Emissions Come From," *Our World in Data*, https://ourworldindata.org/emissions-by-sector.
135. Brad Plumer, "To Cut Emissions to Zero, U.S. Needs to Make Big Changes in Next 10 Years," *NYT*, 12/15/2020, https://www.nytimes.com/2020/12/15/climate/america-next-decade-climate.html; Corinne Purtill, "How Climate Policy Will Change in 2021," *NYT*, 12/14/2020, https://www.nytimes.com/2020/12/14/business/dealbook/climatepolicy-debate.html; Chen Zhou et al., "Greater Committed Warming after Accounting for the Pattern Effect," *Nature Climate Change* 11 (1/4/2021), 132-6, https://www.nature.com/articles/s41558-020-00955-x; Seth Borenstein, "Study: Warming Already Baked in Will Blow Past Climate Goals," *AP News*, 1/4/2021, https://apnews.com/article/climate-climate-change-pollution-3f226eed9c58e36c69e7342b104d48bf;

    Brad Plumer and Nadja Popovich, "The U.S. Has a New Climate Goal," *NYT*, 4/22/2021, https://www.nytimes.com/interactive/2021/04/22/climate/new-climate-pledge.html.
136. Smil, *Energy*, 156-57, 227-28, 232-33.

الفصل السابع

تغيّر المناخ في القرن الحادي والعشرين



مهاجر من أمريكا الوسطى لا يحمل وثائق، يركب "قطار الموت" عبر المكسيك باتجاه حدود الولايات المتحدة (Credit: Alamy)

من خلال شدّته المتزايدة باستمرار، سيكون للإحتباس الحراري تأثير مدمّر على الأنظمة العالمية لما تبقّى من القرن الحادي والعشرين وما بعده. بالنسبة لجيل "طفرة المواليد" في أمريكا الشمالية بعد الحرب

العالمية الثانية، بدأ تغيّر المناخ حتى وقت قريب وجلب معه تهديدا بعيدا من المحتمل أن يكون له تأثير محدود خلال حياتهم. وهو أمر مختلف تماما بالنسبة لشباب العالم، الذين ولدوا في وقت مبكر من هذا القرن، فقد يعيشون، لو توفّر لهم الحظّ، ليروا العقود الأخيرة ويعانوا من كلّ الخراب والاضطراب في المستقبل. لهذا الجيل الأكبر سنّا من "جيل الطفرة السكانية" Boomers تواريخ في المناقشة التي تلي الأعوام 2050 و2070 و2100. وهذه مجرّد ارقام لا معنى لها. ولكن بالنسبة لشباب العالم واطفالهم، ستكوّن تلك السنوات معالم حياتهم.

إذا تلاشى النظام العالمي الحالي لواشنطن بالفعل بحلول عام 2030، فإنّ نظام بكين بهيمنته القومية المفرطة سيمتد فقط لعقدين من الزمن، قبل أن يبدأ هو ايضا يعاني من العواقب الوخيمة للإحترار العالمي غير المضبوط. تشير الدلائل العلمية بوضوح أنّ من المرجّح أن تتسارع وتيرة تغيّر المناخ وستؤثر سلبا على الصين بحدود عام 2050، وستضطرها هذه للتراجع عن العديد من التزاماتها الخارجية والتخلي عن أيّ نوع من النظام العالمي الذي تكون قد شيّدته. وهكذا في العقود التي تلي عام 2050، سيكون أمام المجتمع الدولي الخيّر سبب لإقامة نوع جديد من النظام العالمي على عكس أيّ نظام سابق.

لفهم هذه الإحتمالات، يجب النظر في 3 قضايا حاسمة. أوّلا طبيعة ومدى تغّير المناخ. وبعد ذلك تأثيراته الإجتماعية والإقتصادية في منتصف القرن، وأخيرا الطريقة، التي يمكن أن تؤثر فيها هذه التغّيرات على النظام العالمي في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين وما بعده.

للمشاركة في مناقشة طبيعة تغيّر المناخ، يجب أن نبدأ بالأساسيّات، كما اوضحها مرصد الأرضEarth Observatory في National Aeronautics and Space Administration (NASA) التابع لإدارة الفضاء (ناسا). في ظلّ الظروف العاديّة، يحافظ الكوكب على مستوى ثابت نسبيًا من تخزين غاز ثاني أوكسيد الكاربون

في أربع مناطق مرتبطة؛ وهي الغلاف الجوّي والأرض والنباتات والمحيطات. عند أيّ شيء سواء كان طبيعيا أو بشريًا، تغيّر الكاربون في أحد هذه الخزانات له "تأثير يمتد الى الخزانات الأخرى." إنّ تغيّر مدار الأرض المستمر بقربها الى الشمس قبل 10000 سنة، زاد كمّية ثاني أوكسيد الكاربون المنبعثة في الغلاف الجوّي فارتفعت درجات الحرارة وانتهى العصر الجليدي في نصف الكرة الأرضية الشمالي. بعد 30000 سنة أخرى، سيتغيّر مدار الأرض مرّة أخرى بشكل كاف لتقليل ضوء الشمس الى "المستويات التي أدّت الى العصر الجليدي الأخير."[1]

ولكن الآن، وفقا لمرصد الأرض، "تحدث تغيّرات في دورة الكاربون بسبب الناس... حرق الوقود الإحفوري وتطهير الأرض بقطع الأشجار من أجل تهيئتها للزراعة". منذ بداية الثورة الصناعية حتى عام 2021 ارتفع تركيز ثاني أوكسيد الكاربون في الجو من 280 جزء الى 415 جزء في المليون. المعروف أنّ مستوى الكاربون في الغلاف الجوّي ظلّ عند أو أقلّ من 275 جزء خلال 800000 سنة الماضية. إنّ هذه الزيادة الحادّة عميقة الأثر ولها عواقب على مستقبل الحياة على هذا الكوكب.[2]

قبل أن يبدأ الكاربون الزائد بالتراكم في الغلاف الجوي كانت الأرض تمتصّ طاقة الشمس ثمّ تشعّ حوالي 30٪ منها على شكل ضوء الأشعة تحت الحمراء Infrared Light عبر الغلاف الجوي وتعيدها الى الفضاء. عندما يتم إطلاق كلّ غاز ثاني أوكسيد الكاربون الإضافي وغاز الميثان، وهو غاز قويّ آخر بدأ بواسطة إنتاج الوقود الأحفوري، تراكم الإثنان في الغلاف الجوّي وشكّلا معا ما سُمّي غازات الدفيئة وهي طبقة من الجزيئات بدأت في امتصاص بعض تلك الطاقة ومنعها من الهروب الى الفضاء وإرسالها بدلا من ذلك نحو الأرض، وبالتالي رفع متوسط درجة حرارة الكوكب.[3]

تأثير الإحتباس الحراري في منتصف القرن

في تقييم التأثير المُحتمل لتغيّر المناخ على النظام العالمي بحلول عام 2050، هنالك سؤال واحد له أهميّة قصوى، وهو ما مدى سرعة الشعور بهذا التأثير؟ إعتقد العلماء على مدى عقود من الزمن أنّ تغيّر المناخ بتوقف على ما وصفه الكاتب العلمي يوجين لِندُن "السرعة الفخمة" Stately Pace. في عام 1975 كانت اكاديميات العلوم في الولايات المتحدة لا تزال تشعر أنّ "تغيّر المناخ سيستغرق قرونا حتى تظهر آثاره. وحتى وقت متأخّر من عام 1990، "علق الفريق الحكومي الدولي المعني بتغيّر المناخ IPCC، وهو هيئة تضم مجموعة من كبار العلماء العاملين في إطار رعاية الأمم المتحدة، على الأدلة المتاحة لاستنتاج أنّ التربة الصقيعية للقطب الشمالي، التي تخزن كلا من ثاني أوكسيد الكاربون والميثان الأكثر خطورة، لم يوجد فيها ذوبان وأنّ الصفائح الجليدية في القطب الجنوبي كانت مستقرة. غير أنّ المخاوف حول المناخ، على الرغم من أنّها لا تزال متواضعة، كانت كافية مع ذلك لاجتماع دول العالم في شهر حزيران من عام 1992 في ريو دي جانيرو، حيث قامت بصياغة إطار إتفاقية الأمم المتحدة بشأن تغيّر المناخ. أوجز هذا الإتفاق مبادئ توجيهية دنيا وغير ملزمة لتشجيع "تثبيت تركيزات الإحتباس الحراري في الغلاف الجوّي... ضمن إطار زمني كاف للسماح للنظم الإيكولوجية للتكيّف بشكل طبيعي مع تغيّر المناخ." هذه الكلمة الرئيسة "تكيّف" عنت أنّه كان من المُفترض أن تحقق الأرض شيئا طبيعيًا جديدا للتوازن حتى بدون اتخاذ تدابير كبيرة لوقف الإحتباس الحراري. ومع ذلك وفي عام 1993، أجرى العلماء دراسات دقيقة على عيّنات الجليد المُستخرجة من الغطاء الجليدي في گرينلاند، واكتُشِف أنّه يذوب بسرعة تعادل 25 مرّة أكبر ممّا جرى في العصر الجليدي الأخير. بعبارة أخرى، هنالك أدلة علمية واضحة ومقنعة على أنّ "المناخ يمكن أن يتغيّر فجأة وعلى نطاق واسع في غضون عقد أو عقدين من الزمن."[4]

مع مثل هذه الأدلة المتزايدة بسرعة، اجتمعت دول العالم مرّة أخرى في شهر كانون الأول من عام 1997 في كيوتو في اليابان. وضع المجتمعون محلّ التكيّف المفتوح في ريو لتغيّر المناخ برنامجا صارما "للحدّ من الانبعاثات كميًا والتزام العمل بتخفيضها ضمن أطر زمنية لنحو 38 دولة. علاوة على ذلك، وفي عام 2002، أشار تقرير بعنوان تغيّر المناخ المفاجيء، الذي طرحت فيه الأكاديميات الوطنية نموذجا أساسيا للتحوّل، معللة بالقول، "لقد أثّرت التغييرات المناخية الكبيرة والمفاجئة على نصف الكرة الأرضية بشكل متكرّر مصحوبة بارتفاع يصل الى 16 درجة مئوية وعاملين في زيادة هطول الأمطار... في فترات قصيرة تتراوح من سنوات الى عقود." مدفوعة بقوّة إجماع علمي على أنّ العالم يواجه تغيّرا متسارعا، حضرت وفود من 196 دولة الى باريس عام 2015 وتبنت اهدافا صارمة تطلبت تخفيضا بنسبة 45٪ من انبعاثات غازات الإحتباس الحراري عالميا بحلول عام 2030 وصافي الحياد الكاربوني بحلول عام 2050 للحدّ من ظاهرة الإحتباس الحراري الى 1.5 درجة مئوية فوق مستويات ما قبل العصر الصناعي. جادل المندوبون بأنّ هذا سيكون كافيا لتجنّب آثار كارثية ستحدث بالتأكيد إذا وصلت المستويات الى 2.0 درجة مئوية أو أعلى.[5]

وبناء عليه ظلت آمال العالم معقودة على مؤتمر باريس بأنّه يمكن أن يطوع الضرر البيئي الوشيك ويجعله يتلاشى بسرعة. في غضون 3 سنوات، كان المجتمع العلمي في اتفاق شبه إجماعي على أنّ الآثار المتتالية للإحترار العالمي ستكون بحدود 1.5 درجة مئوية فوق ما قبل الصناعة، وأنّ المستويات ستكون واضحة، ليس على المستقبل البعيد لعام 2100 ولكن بحلول عام 2040 وستؤثر على حياة معظم البالغين ممّن هم على قيد الحياة اليوم. في تقرير "يوم القيامة" الصادر عن الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيّر المناخ لعام 2018، حذّر العلماء من أنّ تأثير الإحترار عند 1.5 درجة مئوية سيكون أسوأ

بكثير ممّا كان مقدّرا في السابق وستكون هناك فيضانات ساحلية وعواصف شديدة وجفاف منتشر بشكل أوسع وحرائق غابات وموجات حرّ ستسبّب أضرارا قيمتها 54 ترليون دولارا. ويعادل هذا المبلغ حوالي 40٪ من الإقتصاد العالمي في عام 2018. على المستوى الأكثر خطورة عند 2.0 درجة مئويّة، ستبلغ الأضرار قيمة 69 ترليون دولارا. حتى عند مستوى 1.5 درجة مئويّة، ستكون الزيادة موزّعة بشكل غير متساو، حيث ستصل الى 3.0 درجة مئوية في الموسم الدافئ في المناطق الإستوائية و4.5 درجة مئويّة في القطب الشمالي، وستجلب هذه عواقب وخيمة على كلتي المنطقتين. وفقا لصحيفة نيويورك تايمز، فإنّ الإحتباس الحراري، في حالة غياب تدابير الحدّ من انبعاثات الكاربون المطلوبة، ستزداد درجة الحرارة الى 2.0 بعد عقود قليلة من عام 2040 و"ربّما 4.0 درجات مئوية بحلول عام 2100."[6]

في شهر أيلول من عام 2019، ذكرت الأمم المتحدة أنّ تخفيف الإنبعاثات في جميع انحاء العالم، على الرغم من تزايد الجهود، لا يزال "أقلّ بكثير من المستوى غير المسبوق اللازم للحدّ من آثار تغيّر المناخ." وسرعان ما تمّ تأكيد هذا التقييم من خلال تقرير وكالة الطاقة الدولية للإستهلاك المتوقّع حتى عام 2040. حذّرت الوكالة من أنّ انبعاثات غازات الإحتباس الحراري ستستمرّ في الإرتفاع خلال 20 سنة القادمة، وهذا يعني أنّ العالم "سيحيد عن أهدافه المناخية بهامش كبير جدّا." ثمّ ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أنّ أكثر من 90٪ من سكان العالم سوف يعانون من آثار مباشرة وضارة لتغير المناخ، بما في ذلك مخاطر ندرة المياه وزيادة الفيضانات والإجهاد الحراري الشديد في إفريقيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية، وتضاعف حرائق الغابات في كاليفورنيا كلها تقريبا وزيادة حدّة الأعاصير على طول ساحل المحيط الهادئ.[7]

لإضفاء مصداقية على تلك المخاوف، شهد صيف عام 2018 حرائق غابات هائلة دمّرت انظمة بيئية متباينة في جميع انحاء العالم، بما فيها 830000 فدانا من

الغابات الأوروبية و2.3 مليون فدانا من غابات الأمزون المطيرة و2.5 فدّانا من سفوح التندرا في ألآسكا وغاباتها الثلجية و6 ملايين فدّانا من غابات سايبيريا ومساحات غير معروفة من السّفانا في وسط إفريقيا. عندما وصل الصيف الى نصف الكرة الأرضية الجنوبي في نهاية العام، شبّت أستراليا في أسوأ موسم حرائق لها منذ أكثر من قرن.[8] شهدت القارة أعلى درجات حرارة سُجّلت حتى ذلك الحين وسط مئات من حرائق الغابات التي أتت على 46 مليون فدّانا. وهذه مساحة أكبر من "مساحة سوريا،" وصفها أحد المسؤولين بأنها تشبه "إنفجار قنبلة ذرية."[9]

ولكن في اجزاء كثيرة من العالم، كان موسم الحرائق في عام 2020 أسوأ. في البرازيل مثلا، أحرقت الظروف الجافة بشكل إستثنائي 8.5 مليون فدّانا من غابات الأمزون المطيرة و3 ملايين فدّانا من الأراضي الرطبة الجنوبية ذات التنوّع البايولوجي المعروف باسم Pantanal والذي وصفه مسؤول في ناسا بأنّه "تدمير غير مسبوق حقا." على الساحل الغربي للولايات المتحدة، إندلعت حرائق ضخمة مدفوعة برياح عاتية دمّرت 6 ملايين فدّانا تقريبا في كاليفورنيا، حيث اندلع أسوأ موسم حرائق في الولاية على الإطلاق وتمثّل بالآلاف من ضربات الصواعق الغريبة ودرجات الحرارة التي وصلت الى رقم عالمي بمقدار 130 درجة فهرنهايت (54.4 درجة مئوية) في *وادي الموت* حيث دُمّر أكثر من 4 ملايين فدّانا، ممّا أجبر شركات المرافق على فرض قطع خدمات التيار الكهربائي. تساءل حاكم ولاية كاليفورنيا گيڤن نوسُم، "ماذا لو عانت مجتمعات أخرى في الولايات المتحدة مثل هذه التجربة، ما لم نتمكّن من التصرّف بشأن تغيّر المناخ.؟" في ولاية أوريگن المجاورة، دمّرت الحرائق "غير المسبوقة" مليون فدّانا شملت 5 بلدات وأجبرت 40000 مواطنا على الفرار وتحويل آلاف المباني الى رماد ومعدن ملتو. في ولاية واشنطن، تمّ احتراق 600000 فدّانا ممّا دفع حاكمها جَي أنزلي أن يخاطب رئيسه قائلا، إنّ مسؤولي الحملة بشأن قضية

المناخ فشلوا في تسمية الأمور بأسمائها ولم يعترفوا بأنها "حرائق المناخ" وليست "حرائق الغابات." كما خسرت ولاية كُلورادو أكثر من 400000 فدّانا بسبب عشرات الحرائق، التي سُجّلت بأنّها أكبر حرائق ضربت الولاية في تاريخها. قال عالم المناخ الحيوي في جامعة كولومبيا، "هذا مرتبط بتغير المناخ ارتباطا واضحا ومباشرا... إنّ ارتفاع درجات الحرارة في مناطق ذات وقود وفير وجافة جدّا، وكلّ ما تحتاجه شرارة فقط."[10] يمكن إرجاع هذه الحلقات من الحرائق المتباينة في جميع انحاء العالم، على الأقلّ جزئيا، بسبب ارتفاع درجات الحرارة، التي تؤدّي بدورها الى تراكم الكاربون المتسارع في الغلاف الجوّي وسرعة احتراق لهب النيران وانخفاض قدرة الغابات على امتصاص هذا الكاربون المتزايد.

شرّدت أحداث الطقس القاسية مثل الأعاصير والفيضانات والإنهيارات الأرضية 7 ملايين شخصا حول العالم في النصف الأول من عام 2019، وهو أعلى رقم مسجّل خلال ما يقرب من عقدين من الزمن. في أوائل عام 2020 أفاد الباحثون في حكومة الولايات المتحدة أنّ العقد الماضي كان الأكثر سخونة على الإطلاق، وأنّ كلّ عقد منذ عام 1960 كان أكثر سخونة من الذي سبقه. لتوضيح فوريّة هذا التغيير، كان متوسط درجات الحرارة في أستراليا بالفعل أعلى بنحو 1.5 درجة مئوية ممّا كان عليه في منتصف القرن العشرين. كما واجهت جنوب إفريقيا موجة جفاف خطيرة تسبّبت في تفاقم نقص الغذاء. وكان بحر بيرنگ قبالة الساحل الشمالي الغربي لألاسكا خاليا من الجليد في معظم مناطقه خلال الشتاء السابق.[11] في شهر كانون الثاني من عام 2019، وبواسطة استخدام بيانات جديدة من أجهزة إستشعار الحرارة العائمة، أفاد العلماء أنّ محيطات العالم تسخن بمقدار 40٪ أسرع ممّا كان متوقّعا قبل 5 سنوات فقط. وهذا تحوّل من شأنه أن يُطلق العنان لعواصف أقوى مرفقة بزيادة تواتر حدوث الفيضانات الساحلية.[12]

إنّ مضاعفة الآثار الفورية والمتوسطة المدى لتغيّر المناخ بسبب تفاوت ارتفاع درجات حرارة الأرض، ينتج عنه اختلافات ملحوظة في التأثيرات الإقليمية. وفقا لتحليل بيانات صحيفة واشنطن بوست للفترة ما بين 2014-2018، كان العالم قد سجّل بالفعل "نقاطا ساخنة" مهمّة بارتفاع متوسط قدره 2.0 درجة مئويّة فوق معيار ما قبل الصناعة. حين تضرب الشمس مناطق خطوط العرض الإستوائية، ترتفع اعمدة ضخمة من الهواء الدافئ وتندفع نحو القطبين بواسطة غازات الدفيئة المحتجزة في الغلاف الجوي. ويسبّب نزول تلك الأعمدة الى الأرض عند خطوط العرض الأعلى، تكوين مناطق ذات ارتفاعات أعلى في درجات الحرارة في الشرق الأوسط وأوروبا الغربية والقطب الشمالي. نتيجة الرجوع الى 5 دراسات، وجدت الصحيفة أنّه اعتبارا من شهر أيلول عام 2019، شهد حوالي 10٪ من الأرض بالفعل زيادة في درجة الحرارة بلغت 2.0 درجة مئوية، بينما شهد 20٪ من الكوكب ارتفاعات لا تقلّ عن 1.5 درجة مئوية.[13]

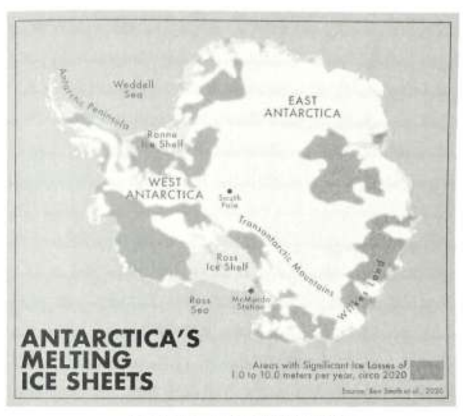
كما شهد ذوبان الصفائح الجليدية في گرينلاند وانتراكتيكا مزيدا من التقدم أكثر ممّا كان يُعتقَد سابقا، وسيزيد هذا من تأثير تغيّر المناخ. أشارت قياسات الأقمار الصناعية العائدة للإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوّي NOAA في شهر أيلول من عام 2019، الى انخفاض بنسبة 33٪ في بحر الجليد الصيفي Summer Sea Ice عبر منطقة القطب الشمالي. فإذا ارتفع متوسط درجات الحرارة بمقدار 2.0 درجة مئويّة، من المرجّح أن يكون المحيط القطبي الشمالي خاليا من الجليد في الصيف، ممّا يسمح لتلك المياه المفتوحة بامتصاص طاقة الشمس أكثر بستة اضعاف الأسطح المغطاة بالجليد. يقول تقرير في الجيوفيزياء إنّ فقدان الدرع الأبيض من الجليد البحري اثناء أيام الصيف الطويلة وشمسها منتصف الليل، يمكن أن يكون موضع بحث مهمّ لأنّها "تقصّر بشكل كبير من الوقت المتاح للتكيّف مع التغيّرات المناخية... وتحقيق الحياد الكاربوني."[14]

حذّر تقرير موازٍ في مجلة Nature أنّ المياه الذائبة من جليد كْرينلاند ستؤدي الى تعطيل "دورة التيارات البحرية المنقلبة" Overturning Circulation في منطقة القطب الشمالي وانتاج ظواهر جويّة شديدة في كلّ من أوروبا وأمريكا الشمالية. في الأثناء، سوف تحبس المياه الذائبة في القطب الجنوبي المياه الدافئة تحت سطح البحر وتسارع في تفكيك الصفيحة الجليدية في أنتراكتيكا. في وقت مبكّر من عام 2014 دعت ناسا الى مؤتمر للإعلان عن "اختفاء هذه الطبقة الجليدية الضخمة والى تراجع لا عودة فيه." زادت الأخبار سوء منذ ذلك الحين. وبعد 6 سنوات لاحقا، شاركت ناسا في دراسة وجدت تفكّكا هائلاء حيث كانت الإنهار الجليدية تتسارع، مع إمكانية إطلاق "عملية تغذية مرتدّة" من شأنها في المستقبل البعيد أن تتسبّب في انهيار الغطاء الجليدي بما يكفي لرفع مستوى سطح البحر في جميع انحاء العالم بمقدار 10 أقدام. وحتى لو بقي الغطاء سالما، فإنّ زيادة المياه الذائبة في كلي القطبين سوف تضاعف من وتيرة حدوث الفيضانات في المناطق المنخفضة في جميع انحاء العالم بحلول عام 2050، وستزيد من تلقاء نفسها مستوى سطح البحر بما لا يقلّ عن 12 بوصة في نهاية القرن.[15]

وممّا يزيد المخاوف بشأن ارتفاع مستوى سطح البحار، أنّ الطبقة الجليدية الأكبر في شرق القارة القطبية الجنوبية تقوم ايضا بالقاء كميات هائلة من الجليد. وفقا لدراسة نشرتها الأكاديمية الوطنية للعلوم أنّ متوسط الخسارة السنوية قد بلغ 252 گيگا طنّا من الجليد منذ عام 2009 لغاية 2017، بزيادة 6 أضعاف على الفترة 1970- 1990. قال الباحث الرئيسي أرك رِگنو إنّ "قطّاع وِلكس من الأراضي في شرق القارة القطبية الجنوبية" كان دائما... أكثر حساسية بالنسبة لتغيّر المناخ، مما كان مفترضا تقليديا. ومن المهمّ معرفة ذلك، لأنّه يحتوي على جليد أكبر رقعة من غرب انتَراكتيكا وشبه جزيرة انتَراكتيكا معا." بحلول عام 2020 بدأ العلماء استخدام صور القارة القطبية الجنوبية التي يبثّها القمر الصناعي الجديد

ICESat-2 التابع لوكالة ناسا، وتمّ العثور على أشياء جوهرية تخصّ فقدان الكتلة في الجروف الجليدية على حافة البحر، ممّا يضعف ملاءات كبيرة تغطي القارة. "إنّها مثل دعامات معمارية،" حسب قول عالمة الجليد هِلين أماندا فرّيكر، وهي مؤلفة مشاركة في الدراسة. أضافت قائلة، "تحمل الرفوف الجليدية الغطاء الجليدي. إذا قمت بإزالة رفوف الجليد هذه، أو حتى إذا قمت بتقليلها، فإنّك تقلل من قوّة الدعم. لذلك يمكن للجليد المثبت في الأرض Grounded Ice أن يتدفّق بشكل أسرع."[16]

باختصار، إنّ الإيقاع المتصاعد باستمرار لتغيّر المناخ بين الآن وعام 2050 سوف يتسبّب في إحداث أضرار جسيمة للبيئة، التي تحافظ على حياة الإنسان، وبشكل خاص التأثير الأكبر الآني في العقود اللاحقة. في شهر تشرين الثاني من عام 2019 أعلن بيان وقّعه 11000 عالما، "إنّ أزمة المناخ قد وصلت بوتيرة أسرع ممّا توقّعه العلماء وأشدّ خطورة وتهدّد النظم البيئية الطبيعية ومصير البشرية." أضاف البيان، "المثير للقلق بشكل خاصّ هو احتمال لا رجوع فيه لنقاط التحوّل المناخيّة... يمكن أن يؤدي الى كارثة (دفيئة الأرض) التي ستكون خارج سيطرة البشر... ويُحتمل أن تجعل مساحات كبيرة من الأرض غير صالحة للسكن."[17]
خلص تقرير الأمم المتحدة حول فجوة الإنبعاثات الصادر في الشهر نفسه الى أنّه، "ما لم تتمّ زيادة اجراءات التخفيف والطموح على الفور وبشكل عميق،" من المرجّح أن ترتفع درجات الحرارة العالمية بمقدار 3.9 درجة مئوية مع اقتراب نهاية القرن. بعد عام واحد فقط، أفاد تقرير مكتب الأمم المتحدة للحدّ من الكوارث خلال السنوات العشرين الماضية، أنّ هناك "إرتفاعا مذهلا في الكوارث الطبيعية، التي تسبّبت في وفاة 1.2 مليون شخصا وخسارة 2.3 ترليون دولارا نتيجة الأضرار الإقتصادية." وحذّرت الأمم المتحدة، "إذا واصلنا عن قصد زرع بذور تدميرنا بأنفسنا، سنجعل كوكبنا جحيما غير صالح لسكنى بلايين البشر."[18]



خارطة تبيّن ذوبان الغطاء الجليدي في القطب الجنوبي

تأثير تغيّر المناخ على الصين

حتى لو اصبحت الصين القوة العالمية البارزة، فمن المرجّح أن تؤدّي الوتيرة المتسارعة لتغيّر المناخ الى تقليص هيمنتها لعقدين أو ثلاثة عقود فقط. مع ارتفاع درجات حرارة العالم بزيادة قدرها نحو 3.9 درجة مئوية بحلول عام 2100، فإنّه بدءاً من حوالي عام 2070، سترتفع درجات الحرارة بشكل لا يُطاق وستجعل امواجها المناطق المكتظة بالسكان في شمال البلاد غير صالحة للسكنى. علاوة على ذلك، هناك أدلة علمية متزايدة، على أنّه بحلول عام 2950 سترتفع مياه البحار وستغرق العديد من المدن الصينية الساحلية الرئيسية، لا سيّما مركزها التجاري في شنگهاي.[19] مع زيادة حدّة هذه المشاكل بعد منتصف

القرن، من المرجّح أن تضطر بكين الى التراجع عن توقعاتها للسلطة العالمية وتنصرف لمعالجة مخاوفها المحلية الملحّة.

في عام 2013، ذكرت مجلة Nature Climate Change أنّ ارتفاع مستويات البحار سيزيد الأضرار الإقتصادية في 136 مدينة حول العالم الى 63 مليار دولارا سنويًا في عام 2050، والذي يبدو ضئيلا نسبيًا نظرا للتكلفة المالية الهائلة لبرامج البنى التحتية للمدن حول العالم.[20] ومع ذلك وبعد 4 سنوات حسب العلماء في منظمة اخبار المناخ المركزية غير الربحية، أنّ ارتفاع العواصف البحرية يمكن أن يؤدّي الى زيادات حادة بحلول عام 2060 أو 2070، وسيُغرق مناطق يسكنها 275 مليون نسمة في جميع انحاء العالم، 80٪ منهم في آسيا. سيتأثر بها 5.2 مليونا في أوساكا و8.4 مليون شخصا في هونگ كونگ وشنگهاي ستكون "المدينة الرئيسية الأكثر تعرّضا للفيضانات الخطيرة." من المحتمل أن ينزح من تلك المدينة المترامية الأطراف 17.5 مليون مواطنا. "وفي نهاية المطاف فإنّ جزء كبيرا من المياه سيغمر وسطها."[21]

وعن تقديم موعد هذه الكارثة بما لا يقلّ عن عقد من الزمن، وجد تقرير نشرته مجلة Nature Communications أنّ 150 مليون شخصا حول العالم يعيشون الآن على أرض ستغمرها مياه المدّ العالي بحلول عام 2050. استخدِم الذكاء الإصطناعي لقياس اخطاء الماضي في تقدير مستويات المدن المغمورة، التي كانت "متفائلة للغاية،" فضاعف البحث تلك التقديرات بمقدار 3 مرّات فيما يتعلق بالتعرّض العالمي لارتفاع مستوى سطح البحر. تحدّد تلك البيانات أنّ الفيتناميين القاطنين في سايگون، على سبيل المثال، سيجدون أنّ مدينتهم قد "اختفت تحت المياه" بحلول عام 2050، وسيلقى معظم دلتا نهر الميكونگ، التي يقطنها 20 مليون شخصا نفس المصير وتغرق بالكامل. وبالمثل، فإنّ بانكوك ستكون "معرضة للخطر بشكل خاصّ،" ومعها بومبي التي ستختفي من الوجود. ولكن فوق ذلك فإنّ المياه المرتفعة ستطغى على قلب "شنگهاي والمدن المحيطة بها، ممّا يعيق أحد المحرّكات الإقتصادية الرئيسية للصين."[22] لقد تمّ

تجريفها من البحر والمستنقعات الساحلية في القرن الخامس عشر، وسيعود جزء كبير منها في غضون 30 عاما الى من حيث أتى أصلا.

بينما يهدّد ارتفاع منسوب المياه بقاء شنگهاي، فسيُدمّر ارتفاع درجات الحرارة سهل شمال الصين، وهو منطقة زراعية رئيسية بين العاصمة پكين وشنگهاي يسكنها حاليا 400 مليون مواطنا، ممّا يجعلها أكثر الأماكن على هذا الكوكب تعرّضا للفتك. ذكر الأستاذ الفاتح الطاهر، إخصائي الهايدرولوجيا والمناخ في MIT، "ستكون تلك المنطقة أكثر سخونة بفعل موجات الحرارة في المستقبل." ويُقدّر أنّه ما بين الأعوام 2070 لغاية 2100، يمكن أن تواجه المنطقة مئات الفترات "شديدة الخطورة" عندما يصل مزيج الحرارة والرطوبة الى "درجة حرارة البصيلة الرطبة" WBT، أي 31 درجة مئوية، وربّما فترات قاتلة حين تصل الى 35 درجة مئوية، (حين يمنع مزيج الحرارة والرطوبة العالي تبخّر العرق الذي يُبرّد الجسم). بعد 6 ساعات على هذا المنوال، يفقد الشخص وعيه ويموت. من الجدير بالذكر، أنّ هذا سيناريو لا يمكن تصوّره تقريبا. لقد حصل بالفعل الوصول الى 35 درجة حرارة مئوية تقريبا WBT خلال موجة الحرّ عام 2015 في مدينة بندر ماهشّر جنوب غرب إيران.[23]

وبدلا من أن يصير مفاجئا وكارثيًا، فإنّ الأثر المدمّر لتغيّر المناخ في شمال الصين، من المرجّح أن يكون تدريجيًا وتراكميًا، حين تتصاعد درجات الحرارة بلا هوادة مع كلّ عقد يمرّ.[24] إذا بدأ "القرن الصيني" في الواقع عام 2030، فمن غير المرجّح أن يستمرّ لفترة طويلة، وربّما ينتهي في وقت ما حوالي عام 2050، عندما يصبح تأثير الإحتباس الحراري خارج طاقة البشر وقدراتهم. مع انغمار مركزها المالي الرئيسي في شنگهاي بالمياه والفيضانات وقلبها الزراعي تحت حرارة لا تُطاق، يمكن حصر أيام الصين كقوّة عالمية بسنوات معدودة.[25]

بعد عام 2050 فإنّ تغيّر المناخ، إنْ لم يتمّ إخضاعه لدرجة من السيطرة، فسيهدّد بانشاء كوكب جديد وكارثي الى الأبد، حيث تصبح عبارة "النظام العالمي" ذاتها قد فقدت معناها الطبيعي.

كارثة تغيّر المناخ بعد عام 2050

طرحت الأبحاث العلمية الحديثة أدلة كافية على التنبؤات الرهيبة حول بيئة العالم بعد عام 2050. ستكون الدوافع الرئيسية الناشئة هي حلقات التغذية الراجعة Emerging Feedback Loops عند طرفي طيف درجة الحرارة. في نهاية السخونة في إفريقيا وأستراليا والأمزون، ستؤدي درجات الحرارة الأكثر ارتفاعا الى انطلاق شرارة حرائق الغابات وتقليل غطاء الأشجار وإطلاق الكاربون في الغلاف الجوّي. إنّ مزيجا من إزالة الغابات وارتفاع درجات الحرارة يدفع بالفعل منطقة الأمزون نحو نقطة تحوّل، حين تتحلل هذه الغابات المطيرة الشاسعة التي تُعدّ أكبر خزّان للكاربون في العالم، وتتحول الى منطقة سَفانا جافة بحلول عام 2040 أو 2050. إنّ زيادة انبعاثات ثاني أوكسيد الكاربون، ستساعد بدورها في رفع درجات الحرارة بشكل تدريجي، ممّا يوفّر الوقود حتى الآن لمزيد من الحرائق وبالتالي خلق حلقة مرتدة ذاتية التعزيز.[26]

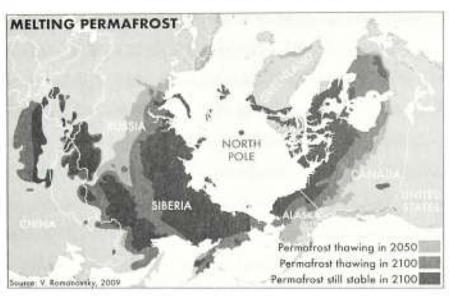
وهنا سيتمّ العثور على الدافع الأكثر جديّة Uncontrollable Driver والذي لا يمكن السيطرة عليه في المناطق القطبية للكوكب. في القطب الشمالي يُعتبَر الجليد دراما، لكن التربة الصقيعية هي الموت بحدّ ذاته. مشهد الكتل الجليدية القطبية الطافية المتدفقة في البحر مثير بالفعل، وجذب اهتمام العلماء، الذين بمكنهم قياس وصياغة تفكّك هذه الكتل من هياكل المياه المجمّدة ببعض الدّقة. لكنّ الموت الجماعي الحقيقي يكمن في التربة الصقيعية الغامضة، وهي ذلك الحساء القذر Sloppy Stew من المياه المتحللة والمياه المجمّدة منذ العصور الجليدية الغامضة التي تغطي 11.8 مليون ميلا مربّعا من نصف الكرة الشمالي، والتي تصل الى عمق 2300 قدم تحت سطح الأرض وتحتوي على كمية كافية من الكاربون والميثان لإذابة القطبين وغمر السهول الساحلية المأهولة بكثافة بالسكان في جميع انحاء العالم. إنّ ارتفاع درجات حرارة القطب الشمالي سيصل الى ضعف المتوسط العالمي، وسيذيب الجليد السرمدي

المتجمّد الممتد عبر ربع مساحة اليابسة في نصف الكرة الشمالي. تغطي مساحات التربة الصقيعية على التوالي نصف كندا وحتى أكثر روسيا وستنحسر بلا هوادة نحو القطب الشمالي بين الأعوام 2050 و2100 وما بعدها. سيؤدّي ذوبان الثلوج في القطب الشمالي الى إطلاق كمّيات متزايدة من الكاربون المُحتجَز سابقا والميثان في الغلاف الجوّي.[27] وهذا الإطلاق بدوره سيرفع درجات حرارة القطب الشمالي الى أعلى وذوبان المزيد من التربة الصقيعية. وهكذا عاما بعد بعد عام تتشكّل حلقة تغذية مدمّرة واحتمال زيادة غازات الإحتباس الحراري في الغلاف الجوّي بما يتجاوز القدرة على تعويض الزيادة بزرع الأشجار في مكان آخر على هذا الكوكب.

تشير أحدث الأبحاث العلمية الى أنّ حلقة التغذية المرتدة Feedback Loopفي القطب الشمالي هي التي تعمل بالفعل على تسريع تغيّر المناخ بسرعة أكبر بكثير ممّا تصوّر العلماء من قبل، وأنّ زخم الإكتفاء الذاتي سيتجاوز قريبا قدرة البشرية على السيطرة. هناك اتفاق عام بين الآلاف من باحثي المناخ حول الإتجاه العام المقلق، رغم وجود بعض الإختلافات في التواريخ والتفاصيل. تعكس حاجة الأمم المتحدة إجماعا واسع النطاق وتقدّم الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيّر المناخ الخاصة تنبؤات أكثر تحفظا بشكل عام حول حجم التغيّر، وبالتالي هي أكثر تفاؤلا بشأن فرص العلاج. ومع ذلك فغالبا ما تتبع فرق علمية فردية، حتى عند مراجعة المجلات العلمية، منطق ابحاثها الى استنتاجات أكثر خطورة.

توقع تقرير صادر عن لجنة المناخ التابعة للأمم المتحدة في عام 2013 الى أنّه، بدلا من ذلك التحفّظ، سيبلغ أقصى ارتفاع لمنسوب مياه البحر 38.5 إنجا فقط. لكنّ دراسة أحدث أجريت بعد 6 سنوات رسمت "سيناريو أسوأ حالا" نشرته صحيفة أكاديمية العلوم الوطنية وتوقّع زيادة في درجات الحرارة العالمية بمقدار 5 درجات مئوية بحلول نهاية القرن الحادي والعشرين، مصحوبة بارتفاع مستوى سطح البحر بمقدار 5.8 قدما وتداعيات "كارثية" في المناطق المنخفضة في جميع انحاء العالم. في

ظلّ هذه التوقعات الحديثة فإنّ مساحة قدرها 690000 ميلا مربعا، أي 3 اضعاف حجم ولاية كالِفورنيا، ستغطيها مياه البحار في نهاية هذا القرن. وسيؤدي ذلك الى تشريد 2.5٪ من سكان العالم، وسوف تصبح العديد من الدول الجزرية الصغيرة غير صالحة للسكنى، كما أنّ مدنا كبرى مثل نويورك ستغرق أيضا.[28]



خارطة ذوبان التربة الصقيعية في منطقة القطب الشمالي

إضافة لذلك، فإنّ نسبة المناطق الساخنة من الأرض غير الصالحة للسكن سوف تنمو من 1٪ من سطح اليابسة في عام 2020 الى 20٪ بحلول عام 2070. كما أنّ ثلث سكان العالم أو حوالي 3.5 مليار شخصا سيجدون انفسهم في مكان أضيق ودرجات حرارة اعلى من تلك التي حافظت على حياة الإنسان طيلة 6000 عاما الماضية. ستتضرّر الأراضي الزراعية في منطقة الساحل الشاسعة الممتدة عبر شمال إفريقيا فعليّا بمقدار 65٪ بسبب التجديف، وأنّ العديد من سكان المنطقة البالغ عددهم 150 مليون نسمة سينزحون بحلول نهاية القرن. في السهول ذات الكثافة السكانية العالية في شمال الهند والصين مجتمعتين والتي يقطنها 800 مليون نسمة، ستكون موجات الحرّ قاتلة للعديد من أولئك الذين ليس لديهم سبل تكييف الهواء.

بحلول عام 2070، سيتركّز المناخ المناسب لحياة الإنسان في نطاق ضيّق نسبيًا يمتد عبر أمريكا الشمالية وأوراسيا، ما بين الخطين 35 الى 55 شمال خطّ العرض. في الوقت ذاته ستغطي رقعة الحرارة المتزايدة غير المناسبة جنوب الكرة الأرضية.

وعلى المدى الطويل، فإنّ احتمالات الفترة من 2100 الى 2300 ستكون أكثر كآبة. اعتمادا على نحو 7 آلاف دراسة علمية، اصدرت الهيئة الحكومية المعنيّة بتغيّر المناخ IPCC عام 2019 بإجماع علمي أكثر دقّة عن حالة محيطات العالم والمناطق المتجمدة. عن طريق امتصاص 90٪ من الحرارة المحبوسة في الغلاف الجوّي بواسطة ثاني أوكسيد الكاربون والميثان، فإنّ المحيطات ستزداد دفئا وحموضة مصحوبة بقلة الأوكسجين. وإذا استمرّت انبعاثات الكاربون في الإرتفاع على هذا المنوال، فيمكن أن ينخفض الصيد المستدام للأسماك بمقدار الربع في نهاية القرن، ممّا يؤدي الى استنفاذ الموارد التي توفّر الآن 17٪ من البروتين اللازم للتغذية البشرية.[30]

إنّ تغير المناخ عند القطبين وفقا لهذه الصورة المحافظة لتقرير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيّر المناخ، سيكون له تأثير فوري طويل الأجل على مستويات المحيطات في جميع انحاء العالم. على الفور، وحيث تستمر الصفائح الجليدية في الذوبان في كرينلاند والقارة القطبية الجنوبية، سيؤدّي ارتفاع منسوب مياه المحيطات الى وقوع احداث قاسية على مستوى سطح البحر. فمثلا العواصف والفيضانات، التي تحدث مرّة واحدة في القرن، ستحدث سنويًا في كثير من الأحيان في المناطق المختلفة بحلول عام 2050. مع افتراض أن تدابير التحكّم في الكاربون يجب الوفاء بها بالفعل للحدّ الأقصى بهدف 2 درجة مئوية، الذي حدّدته إتفاقية باريس، فإنّ الجليد القطبي سيذوب بشكل كاف في نهاية القرن للتسبّب في ارتفاع منسوب مياه البحار بمقدار 11 الى 23 إنجا. ولكن إذا زاد الإحترار العالمي عن ذلك، فيمكن أن ترتفع مستويات مياه المحيطات لتصل 43 إنجا بحلول نهاية القرن، اعتمادا على ما يحدث للصفائح الجليدية في القارة

القطبية الجنوبية. وإذا واصلت انبعاثات غازات الإحتباس الحراري ودرجات الحرارة في الصعود، يمكن أن يرتفع منسوب البحار بلا هوادة ليصل الى 83 إنجا (تقريبا 7 أقدام) في عام 2200 و213 إنجا بحلول عام 2300[31].

لقد تعلم العلماء قياس ذوبان صحائف الجليد القطبي العظيم بدقّة كبيرة، لكنّ فهمهم للبيئة المعقّدة للتربة الصقيعية لا يزال يتطوّر. وفقا لتقرير حول الطبيعة لشهر نيسان من عام 2019، فإنّ المنطقة الشاسعة للأرض المتجمدة بشكل دائم في الجزء العلوي من العالم، والذي يغطّي حوالي ربع نصف الكرة الأرضية الشمالي، هي مخزن لحوالي 1.6 ترليون طنًا متريًا من الكاربون، وهو ضعف الكميّة الموجودة بالفعل في الجو. النماذج الحالية "تفترض أنّ التربة الصقيعية تذوب تدريجيا من السطح الى أسفل،" ممّا يؤدّي الى بطء إطلاق غاز الميثان وغاز ثاني أوكسيد الكاربون في الجو. لكنّ التربة المتجمّدة "تجمع التكوين الطبيعي وتجعله متماسكا." Physically Holds the Landscape Together وبالتالي، فإنّ الذوبان يؤدي الى تشقق سطح الأرض بشكل متقطّع، ممّا يؤدّي الى تعرّض المساحات الأكبر حجما من التربة الصقيعية للشمس مباشرة ممّا يؤدي الى "إنهيار التربة الصقيعية فجأة حين تذوب جيوب الجليد في داخلها." يؤدّي هذا الى عواقب غير معروفة. "إطلاق غازات الإحتباس الحراري" حول الدائرة القطبية الشمالية، هنالك بالفعل دلائل مادية دراماتيكية على حدوث تغيّر سريع، بما في ذلك زيادة في الإنهيارات الأرضية وتآكل في منحدرات جبال ألأسكا الشمالية وذوبان أراضي الخث Thawing Peatlands حول خليج هُدسُن، واطلاق غاز الميثان من بحيرات المياه الذائبة في شمال السويد، والأكثر وضوحا إنهيار الجليد الأرضي الهائل في شمال شرق سايبيريا. الى جانب تلك المساحة الشاسعة من التربة الصقيعية، التي تغطي ما يقرب من 70٪ من روسيا، فإنّ بلدة صغيرة في سايبيريا وصلت درجة الحرارة فيها 100 درجة فهرنهايت (37.8 درجة مئوية) في شهر حزيران من عام 2020. وهذا أعلى مستوى تمّ تسجيله فوق الدائرة

القطبية الشمالية، بينما شهد العديد من شبه الجزر على البحر المتجمد الشمالي، ثورانات الميثان التي تركت حفرا هائلة يصل عمقها 100 قدما.[32]

بينما توقّعت النماذج التقليدية أنّ الذوبان البطيء الثابت سيطلق 200 مليار طنا متريًا من الكاربون خلال 300 سنة القادمة، قدّر تقرير مجلة Nature أنّ "الذوبان المفاجئ للتربة الصقيعية" يمكن أن يبعث من 60 الى 100 مليار طنًا إضافيًا من الكاربون بحلول عام 2300. نظرا لأنّ الذوبان السريع ينتج غاز الميثان أكثر من الذوبان التدريجي، والميثان لديه طاقة تسخين تفوق طاقة ثاني أوكسيد الكاربون بمقدار 25 مرّة، فإنّ "تأثيرات ذوبان الجليد السرمدي في مناخ الأرض ستكون أضعاف ما هو متوقّع في النماذج التقليدية."[33] وإذا أضفنا بطاقة جامحة أخرى متمثلة في حوالي 700000 ميلا مربعا من سايبيريا بما فيها من اشكال التربة الصقيعية الغنية بالميثان والمسمّاة Yedoma، التي تشكّل طبقة من الجليد بعمق يتراوح بين 130 قدما الى 260 قدما تحت الغطاء الأرضي الرقيق المكسو بالجفت المغطّى بالطحالب Mossy Peat. مع الذوبان بفعل درجات الحرارة المرتفعة لهذه التربة الصقيعية الجليدية والبحيرات التي تزداد اتساعا والتي تغطي الآن 30٪ من مساحة سايبيريا، سوف تكون هذه قنوات لإطلاق غاز الميثان، الذي سوف ينفجر من قيعان الإنصهار ليرتفع الى الغلاف الجوّي. بحلول عام 2100 يمكن أن تطرح المياه الشمالية من 100 الى 200 طنًا من الميثان كلّ عام، ليصبح المجموع النهائي حوالي 50 مليار طنًا، ممّا يحتمل أن يرفع الإنبعاث السنوي العالمي لهذا الغاز الخطير بنسبة 20٪ الى 40٪.[34]

تعزيزا للآثار الخطيرة لذلك التقرير، أشارت المراجعة التي اجرتها NOAA الى أنّ ذوبان التربة الصقيعية يطلق بالفعل حوالي 300 الى 600 مليون طنّا من صافي الكاربون في الغلاف الجوّي سنويا. ويعادل هذا لوحده إجمالي انبعاثات الكاربون في اليابان. على المدى الطويل، وعلى الأرجح بحلول نهاية هذا القرن سيتجاوز انبعاث القطب الشمالي نقطة التحوّل من أجل "تسارع ردود الفعل"، التي يمكن أن تضاعف 3 مرّات كمية الكاربون الدائم المنطلق سنويا.[35]

تفترض السيناريوهات المستقبلية للهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيّر المناخ أنّ انبعاثات الكاربون سترتفع 5 أضعاف مستوى عام 2015 البالغ 400 جزء في المليون الى حوالي 2000 جزء في المليون بحلول عام 2300. عندما يصل تأثير الجنس البشري على البيئة الى مرحلة الإستقرار. بحلول ذلك الوقت، يكون من شأن مستويات تركيز الكاربون في الغلاف الجوي أن تؤدّي الى "نهاية العالم" بفعل ارتفاع درجة الحرارة نحو 9.0 درجات مئويّة. وسيخلق هذا مناخا لم نشهده منذ العصر الجوراسي Jurassic Era.[36]

النظام العالمي الجديد

بالنظر الى أنّ النظام العالمي لواشنطن والنظام البديل لبِكين سيقودان فشل المجتمع الدولي الى حدّ كبير في الحدّ من انبعاثات الكاربون، فربّما نحتاج الى شكل جديد من التعاون لاحتواء الضرر. في السنوات التي تلت اتفاق باريس للمناخ، أثبت النظام العالمي الحالي بدوله القومية القويّة والحوكمة العالمية الضعيفة للأمم المتحدة، أنّه غير مناسب لتحدّي تغيّر المناخ. كما فشلت قمة مدريد لعام 2019 في صياغة اتفاق جماعي كاف للحدّ من ظاهرة الإحتباس الحراري عند حدّ 1.5 درجة مئوية. ويرجع ذلك في الغالب الى ممانعة دول المصدر الرئيسي للإنبعاثات، وهي أستراليا والبرازيل والصين والهند والولايات المتحدة.[37] في أيّ نظام عالمي، سواء كان لواشنطن أم لبِكين يقوم على الأسبقيّة Primacy، من المحتمل أن تثبت الدولة القومية على أنّها غير قادرة على التعامل مع السياسة والأزمة الإقتصادية، التي يُرجّح أن تنشأ من ظهور حوالي 275 مليون لاجئا نتيجة تغيّر المناخ بحدود عام 2060 أو 2070.

من المحتمل جدّا أن يواجه المجتمع الدولي بعد عام 2050 نموا متزايد للتناقض، يصل حدّ التصادم المباشر بين المبادئ الأساسية للنظام العالمي الحالي القائم على السيادة الوطنية وحقوق الإنسان. تولت الأمم المتحدة منذ

تشكيلها عام 1945 تخفيف ضغوط السيادة العليا للدولة القومية من خلال إنشاء المجالس والإتفاقيات الخاصّة بحقوق الإنسان واللاجئين والقانون الدولي والصحة العالمية والمشاعات الدولية. في حين أنّ كلا من هذه الهيئات تقوم بعمل مهمّ في مجالها، فلم يصل أحد الى المهمة الضخمة للتعامل مع اضطراب تغيّر المناخ. طالما أنّ الدول لها الحقّ السيادي في إغلاق حدودها، فلن يكون بمستطاع العالم توفير وسيلة لحماية حقوق الإنسان لنحو 200 مليون لاجئا بسبب تغيّر المناخ بحلول عام 2050 أو 275 مليون لاجئا بحلول عام 2070.

من غير المرجّح أنّ عالم الصين المُثقل بالتطرّف القومي المفرط سيحشد استجابة جماعية للإحتباس الحراري أو يخلق أماكن آمنة لتدفق المزيد من اللاجئين. بحلول عام 2050، إن لم يكن قبل ذلك، فإنّ عدم قدرة كلّ من الدول منفردة، مهما كانت قوية، على التعامل مع هذه الأزمة في المشاعات العالمية، يصبح العجز واضحا بشكل صارخ. إذا كان على الصين أن تتحوّل الى الداخل للتعامل مع أزمة المناخ الخاصّة بها في منتصف القرن، ومع العالم الذي يواجه مشهد المعاناة الجماعية من قبل عدة ملايين من لاجئي تغيّر المناخ، فقد يتّفق المجتمع الدولي على الحاجة الى نوع جديد من الإستجابة الجماعية وشكل مفوّض للحوكمة العالمية.

مع تقدّم القرن الحادي والعشرين وآثار تغيّر المناخ وقد اصبحت أكثر شدّة، قد يغيّر المجتمع الدولي أخيرا التوازن بين الميزات الرئيسية، التي حدّدت الأنظمة العالمية للقرون الخمسة الماضية، وهي سيادة الدولة وحقوق الإنسان والطاقة. لكي يكون هناك توائم بشكل فعّال مع هذه الأزمة، سيكون على العالم أن يخلق نظاما أمميّا يفضّل حماية المشاعات العالمية وحقوق الإنسان على حرمة السيادة الوطنية من النوع الذي أقرّه النظام العالمي الحالي.

مثل هذه الهيئة أو الهيئات لما بعد المرحلة الوطنية، ستحتاج الى سلطة سيادية أكثر في ثلاثة مجالات حرجة وهي، التحكّم بالإنبعاثات وإعادة توطين

اللاجئين وإعادة إعمار البيئة. إذا كان الإنتقال الى مصادر الطاقة المتجدّدة مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والطاقة الكهرومائية لا يزال غير مكتمل بحدود عام 2050، فإنّ هذا التقصير قد يُجبر الهيئة الدولية لكبح جماح الإنبعاثات واعتماد الطاقة المتجدّدة. وسواء كان ذلك تحت رعاية الأمم المتحدة أو أيّة منظمة تخلفها، سيحتاج المفوّض السامي لشؤون اللاجئين الى السلطة لإبطال مبدأ سيادة الدولة من خلال مطالبة الدول بالمساعدة في إعادة توطين مثل هذا المدّ والجزر من التدفّقات البشرية. بالنسبة للمعدلات المستقبلية لصندوق النقد الدولي والبنك العالمي والمنظمات الإقليمية مثل التنمية الأسيوية، يمكن للبنك تحويل الموارد من البلدان المعتدلة الغنيّة لإطعام المجتمعات الإستوائية التي سيدمّرها تغيّر المناخ وتمويل الأشغال العامة الكبرى لإصلاح الضرر البيئي.

ستغيّر هذه البرامج الضخمة الفكرة ذاتها وستشكّل نظاما عالميا يتمتع بالروح المنتشرة وغير المتبلورة تقريبا خلال القرون الخمسة الماضية في شكل ملموس من الحكم العالمي. لممارسة السيادة الفعّالة على المُشاعات العالمية، إنّ على الأمم المتحدة، إذا أخذت على عاتقها هذا الدور، قد تتطلب إصلاحات كبيرة ولكن يمكن إدارتها، لا سيّما توسيع نطاق مجلس الأمن وإلغاء المقاعد الخمسة الدائمة، التي تشغلها نفس الدول منذ انتصارها في الحرب العالمية الثانية، والتي تمتّعت بحقّ النقض من جانب واحد. على أقلّ تقدير، يمكن أن تشمل هذه الهيئة الحديثة ممثلين عن الهند (بدلا من بريطانيا) وأوروبا (بدلا من فرنسا) والقوى الصاعدة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، الى جانب التمثيل الأصغر من خلال الإتحادات الإقليمية، كالإتحاد الأفريقي وجامعة الدول العربية ورابطة دول جنوب شرق آسيا ومنظمة الدول الأمريكية. يمكن أيضا منح هذه الهيئة تفويضا محدودا لتجاوز جوانب السيادة الوطنية، التي لم تكن تاريخيا مسألة مطلقة. على مدى القرون الخمسة الماضية، عاقبت جميع الأنظمة العالمية الإنتهاكات المشتركة للأعراف، سواء كان الحرمان البابوي في العصر

الأيـبـري والإسـتيلاء علـى سـفن الرقيـق مـن قبـل الإمبراطوريـة البريطانيـة، أو عقوبات مجلس الأمن في حقبة الوقت الحاضر. مثلما يمكن لمجلس الأمن الآن أن يعاقب دولـة مارقـة تعبر الحـدود الدولية باسـتخدام القوّة، يمكـن للحوكمـة العالمية في المسـتقبل معاقبة دولـة تطلق غـازات الدفيئـة في الغـلاف الجـوي أو ترفض إعادة توطين لاجئي تغيّر المناخ. لا يسـتطيع أحد في الوقت الحاضر التنبؤ بأيّ شـيء يقين ما إذا كانـت هـذه الإصلاحات سـتأتي قريبا بما يكفـي للحدّ من الانبعاثات وإبطاء تغيّر المناخ أو الوصول بعد فوات الأوان لإنجاز أي شيء عدا إدارة الإضـرار المتصاعدة الى مـا لا نهاية لـه وعـدم التحكّم بحلقـات التغذيـة الراجعة Uncontrollable Feedback Loops.

بعد أكثر من قرنين على تعزيز سيادة الدولـة مقابل حقوق الإنسـان، سـواء بشكل ضـمني في العالمين البريطاني والأمريكي أو بشـكل أوامر صريحة في ظلّ النظام العالمي الناشئ للصين، قد يكون الوقت قد حان لإجراء تحوّل جوهري في التوازن بين هذين المبدأين الأساسيين. قد يحتاج الكوكب، الذي يعاني بشكل متزايد من تغيّر المناخ الى تمكين نظام عـالمي ليحلّ محلّ السيادة الوطنية لحماية أكثر لحقوق الإنسان الجوهرية وعدم تجاوزها. في حين أنّ الأشكال التي اتخذتها سيادة الدولة قد تغيّرت باستمرار على مدة القرون الخمسـة الماضيـة، كانت حقوق الإنسـان بمثابة معيار دائـم للتقـدّم مـن خلال الأنظمـة العالميـة المتاليـة، متجـاوزة جميـع اشـكال الحكومـات، الإسـتبدادية والديمقراطيـة والملكية وحتى الإمبريالية. ومع ذلك، ستكون التغييرات البيئية في المستقبل عميقة لدرجة أنّ أي شيء أقلّ من ظهور شكل جديد للحكم العالمي قادر على حماية الكوكب وحقوق البشر معـا، يطـرح احتمـالا أقـوى للصراع بأشـكاله المختلفة وسيكون كارثة من نوع لا يمكن تصوّرها تقريبا.

بخلاف كوارث الأمراض الوبائية والحروب التي طال أمدها وأنهت الأنظمة العالمية الماضيـة، قد لا يصل تغيّر المناخ نهايته بنهاية حياة البشرية

المتوقّعة. إستمر وباء الطاعون 4 سنوات في مرحلته الأكثر شدّة، وإذا أحصينا الأوبئة المُتكرّرة فإنّها استمرّت جميعا 90 عاما. إستمرّت حروب نابُليون 20 عاما والحرب العالمية الثانية 6 أعوام. بدلا من أن ينتهي تغيّر المناخ في عام 2050 أو حتى عام 2100، ستستمر حلقات التعقيدات الناشئة عنه ويُحتمَل أن تتصاعد لمدة قرنين على الأقلّ قبل أن تستقرّ مع تشكيل مناخ من نوع جديد جدّا. بغياب بعض التقنيات المعجزة لإزالة الكاربون وغاز الميثان من الغلاف الجوّي، فإنّ المناخ الأكثر سخونة سيصبح السمة الدائمة لكوكب الأرض. سيؤدّي هذا المناخ المُتغيّر الى حدوث تدفق في العواقب مثل الجفاف والحرائق والفيضانات وارتفاع منسوب البحار والطقس المتطرّف على نطاق لم يكن من الممكن تصوّره في السابق. وسيتسبّب هذا في معاناة البشرية والمجتمعات في جميع انحاء العالم وتعطيل لا يُحصى لأيّ نظام عالمي قائم.

في مرحلة ما، بعد عام 2100 سيحقق الكوكب بلا شكّ بيئة إيكولوجيّة جديدة للتوازن في وقتها. ومع ذلك، قد يأتي هذا التوازن فقط في مستقبل بعيد يفوق قدرة البشرية الحالية على تخيّله. بالنسبة للوقت الحاضر، يبدو أنّ مسار القرن الحادي والعشرين ينذر بتغير المناخ الكارثي وانهيار الأنظمة العالمية.

إسمحوا لي أن أختتم بملاحظة شخصية واعتذر نيابة عن جيل طفرة المواليد Baby-Boom Generation، لترك شباب اليوم في أزمة مناخية ستكون تكاليفها واضحة بشكل مؤلم عام 2050. سأكون قد فارقت هذا العالم حينها منذ زمن طويل، وأنتم في منتصف العمر تربّون أطفالكم وتكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة في بيئة صعبة بشكل متزايد. أتمنى بصدق أنّ المستقبل سَيُثبت أن كلّ كلمة كتبتها في الفقرات اعلاه خاطئة ظالمة ظالمة. ولكن لسوء الحظ، تبدو الأدلة العلمية قوية لدرجة أنّ الإنخراط السياسي في تقييد تغيّر المناخ واصلاح تكاليفه بالنسبة للبشرية مسار عمل من الحكمة اتخاذه. حظا سعيدا وبارك الله في جهودكم، لأنكم ستحتاجون الاثنين!

مصادر وملاحظات الفصل السابع

Chapter 7: Climate Change in the Twenty-First Century

1. "Changes in the Carbon Cycle," Earth Observatory, NASA (6/16/2011), https://earthobservatory.nasa.gov/features/CarbonCycle/page4.php.
2. "Changes in the Carbon Cycle."
3. "The Greenhouse Effect?," University Corporation for Atmospheric Research (2011), https://scied.ucar.edu/longcontent/greenhouse-effect.
4. Eugene Linden, "How Scientists Got Climate Change So Wrong," *NYT*, 11/8/2019, https://www.nytimes.com/2019/11/08/opinion/sunday/science-climate-change.html; Article 2, United Nations Framework Convention on Climate Change (1992), https://unfccc.int/files/essential_background/background_publications_htmlpdf/application/pdf/conveng.pdf.
5. Linden, "How Scientists Got Climate Change So Wrong"; National Research Council, *Abrupt Climate Change* (2002), 10, https://www.nap.edu/read/10136/chapter/1; UN Framework Convention on Climate Change, *Report of the Conference of the Parties on its Third Session, Held at Kyoto from 1 to 11 December 1997* (1998), https://unfccc.int/resource/docs/cop3/07a01.pdf; John D. Sutter and Joshua Berlinger, "Obama Climate Agreement 'Best Chance We Have' to Save the Planet," *CNN*, 12/14/2015, http://www.cnn.com/2015/12/12/world/global-climate-change-conference-vote/; United Nations Development Programme and United Nations Framework Convention on Climate Change, *The Heat Is On* (2019), 4-9, https://unfccc.int/news/the-heat-is-on-taking-stock-of-global-climate-ambition.
6. Coral Davenport, "Major Climate Report Describes a Strong Risk of Crisis as Early as 2040," *NYT*, 10/7/2018, https://www.nytimes.com/2018/10/07/climate/ipcc-climate-report-2040.html; H. Plecher, "Global Gross Domestic Product (GDP) at Current Prices from 2014 to 2024 (in Billion Dollars)," *Statista* (6/3/2020), https://www.statista.com/statistics/268750/global-gross-domestic-product-gdp; David Wallace-Wells, "Time to Panic," *NYT*, 2/16/2019, https://www.nytimes.com/2019/02/16/opinion/sunday/fear-panic-climate-change-warming.html; Intergovernmental Panel on Climate Change, *Global Warming of 1.5°C* (2019), 177, https://www.ipcc.ch/sr15/chapter/spm/.
7. UN Development Programme, *The Heat Is On*, 6-9; Brad Plumer, "5 Global Trends Shaping Our Climate Future," *NYT*, 11/12/2019, https://www.nytimes.com/2019/11/12/climate/energy-trends-climate-change.html; Yaryna Serkez, "Our World in 20 Years," *NYT*, 1/28/2021, https://www.nytimes.com/interactive/2021/01/28/opinion/climate-changerisks-by-country.html.

8. Marcelo de Souza, Associated Press, "More About the Amazon Wildfires," *Wisconsin State Journal*, 8/28/2019; Kendra Pierre-Louis, "Amazon, Siberia, Indonesia: A World of Fire," *NYT*, 8/28/2019, https://www.nytimes.com/2019/08/28/climate/fire-amazon-africa-siberia-worldwide.html; Julie Turkewitz, "The Amazon Is on Fire. So Is Central Africa," *NYT*, 8/27/2019, https://www.nytimes.com/2019/08/27/world/africa/congoangola-rainforest-fires.html; Somini Sengupta, "How Europe Turned into a Perfect Landscape for Wildfires," *NYT*, 2/5/2020, https://www.nytimes.com/2020/02/05/climate/forests-europe-climate-changed.html.
9. Livia Albeck-Ripka et al., "'It's an Atomic Bomb,'" *NYT*, 1/4/2020, https://www.nytimes.com/2020/01/04/world/australia/fires-military.html; Shonal Ganguly and Steve McMorran, Associated Press, "Fire Threats Intensify in Australia," *Wisconsin State Journal*, 1/5/2020; Damien Cave, "Australia's Witnesses to Fire's Fury Are Desperate to Avoid a Sequel," *NYT*, 9/14/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/14/world/australia/bush-fires-preventive-burns.html.
10. Maria Magdalena Arréllaga et al., "Brazil's Fires Burn World's Largest Tropical Wetlands at 'Unprecedented' Scale," *NYT*, 9/4/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/04/world/americas/brazil-wetlandsfires-pantanal.html; Holly Yan et al., "California Set New Record for Land Torched by Wildfires," *CNN*, 9/6/2020, https://www.cnn.com/2020/09/05/us/california-mammoth-pool-reservoir-campfire/index.html; "Why California Is Experiencing Its Worst Fires on Record," *The Economist*, 8/26/2020, https://www.economist.com/united-states/2020/08/26/why-california-is-experiencing-its-worstfires-on-record; Thomas Fuller and Sarah Mervosh, "'You Couldn't See Anything,'" *NYT*, 9/8/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/08/us/california-wildfires-helicopter-rescue.html; Bill Morlin and Mike Baker, "Wildfires Bring New Devastation across the West," *NYT*, 9/9/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/09/us/fires-washingtoncalifornia-oregon-malden.html; Jack Healy et al., "A Line of Fire South of Portland and a Yearslong Recovery Ahead," *NYT*, 9/11/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/11/us/fires-oregon-california-washington.html; Jason Wilson et al., "Dozens Missing in Oregon as Historic Fires Devastate Western US," *Guardian*, 9/11/2020, https://www.theguardian.com/world/2020/sep/11/oregon-fires-california-washington-deathswildfires; Associated Press, "Wildfires Set Record," *NYT*, 10/5/2020; Charlie Brennan and Rick Rojas, "Colorado Wildfire Grows into Largest in State History," *NYT*, 10/18/2020, https://www.nytimes.com/2020/10/18/us/colorado-wildfires-cameron-peak.html.

11. Somini Sengupta, "Extreme Weather Displaced a Record 7 Million People in First Half of 2019," *NYT*, 9/12/2019, https://www.nytimes.com/2019/09/12/climate/extreme-weather-displacement.html; Henry Fountain and Nadja Popovich, "2019 Was the Second-Hottest Year Ever, Closing Out the Warmest Decade," *NYT*, 1/15/2020, https://www.nytimes.com/interactive/2020/01/15/climate/hottest-year-2019.html.
12. Kendra Pierre-Louis, "Ocean Warming Is Accelerating Faster than Thought, New Research Finds," *NYT*, 1/10/2019, https://www.nytimes.com/2019/01/10/climate/ocean-warming-climate-change.html.
13. Chris Mooney and John Muyskens, "Dangerous New Hot Zones Are Spreading around the World," *WP*, 9/11/2019, https://www.washingtonpost.com/graphics/2019/national/climate-environment/climate-change-world/.
14. Durwood J. Zaelke and Paul Bledsoe, "Our Future Depends on the Arctic," *NYT*, 12/14/2019, https://www.nytimes.com/2019/12/14/opinion/sunday/climate-change-arctic.html; D. Perovich et al., "Sea Ice," *2019 Arctic Report Card*, NOAA Arctic Program (2019), https://arctic.noaa.gov/Report-Card/Report-Card-2019/ArtMID/7916/ArticleID/841/Sea-Ice; Kristina Pistone, et al., "Radiative Heating of an Ice-Free Arctic Ocean," *Geophysical Research Letters* 46, no. 13 (6/20/2019), 7474-80, https://agupubs.onlinelibrary.wiley.com/doi/abs/10.1029/2019GL082914.
15. Nicholas R. Golledge et al., "Global Environmental Consequences of Twenty-First-Century Ice-Sheet Melt," *Nature*, vol. 566 (2/6/2019), 65-72, https://www.nature.com/articles/s41586-019-0889-9; Justin Gillis and Kenneth Chang, "Scientists Warn of Rising Oceans from Polar Melt," *NYT*, 5/12/2014, https://www.nytimes.com/2014/05/13/science/earth/collapse-of-parts-of-west-antarctica-ice-sheet-has-begun-scientistssay. html; Chris Mooney, "Two Major Antarctic Glaciers Are Tearing Loose from Their Restraints, Scientists Say," *WP*, 9/14/2020, https://www.washingtonpost.com/climate-environment/2020/09/14/glaciersbreaking-antarctica-pine-island-thwaites; Stef Lhermitte et al., "Damage Accelerates Ice Sheet Instability and Mass Loss in Amundsen Sea Embayment," *Proceedings of the National Academy of Sciences*, 9/14/2020, https://www.pnas.org/content/early/2020/09/08/1912890117.
16. UCI/JPL, "Antarctica Losing Six Times More Ice Mass Annually Now than 40 Years Ago," *Landsat Science*, 1/28/2019, https://landsat.gsfc. nasa.gov/article/antarctica-losing-six-times-more-ice-mass-annuallynow-than-40-years-ago/; Eric Rignot et al., "Four Decades of Antarctic Ice Sheet Mass Balance from 1979-2017," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 116, no. 4 (1/22/2019), https://www.pnas.org/content/116/4/1095; Brandon Specktor, "New Satellite Maps Show Dire State of Ice Melt in Antarctica and Greenland," *Live Science*, 5/5/2020,

https://www.livescience.com/antarctica-greenland-ice-loss-map-nasa.html. The data in the map titled "Antarctica's Melting Ice Sheets" is based on a map published in Ben Smith et al., "Pervasive Ice Sheet Mass Loss Reflects Competing Ocean and Atmospheric Processes," *Science* 368, issue 6496 (6/12/2020), https://science.sciencemag.org/content/368/6496/1239/tab-article-info.

17. William J. Ripple et al., "World Scientists' Warning of a Climate Emergency," *BioScience* 70, Issue 1 (11/5/2019), https://academic.oup.com/bioscience/advance-article/doi/10.1093/biosci/biz088/5610806.
18. UN Environment Programme, *Emissions Gap Report 2019* (2019), xiii-xxv, 1, 27, https://wedocs.unep.org/bitstream/handle/20.500.11822/30797/EGR2019.pdf; UN Office of Disaster Risk Reduction, *Human Costs of Disasters* (2020), 3-7, https://www.undrr.org/publication/human-cost-disasters-2000-2019.
19. Damian Carrington, "Unsurvivable Heatwaves Could Strike Heart of China by End of Century," *Guardian*, 7/31/2018, https://www.theguardian.com/environment/2018/jul/31/chinas-most-populous-area-could-be-uninhabitable-by-end-of-century.
20. Stephanie Hallegatte et al., "Future Flood Losses in Major Coastal Cities," *Nature Climate Change* 3 (2013), 802-6, https://www.nature.com/articles/nclimate1979.
21. Josh Holder et al., "The Three-Degree World," *Guardian*, 11/3/2017, https://www.theguardian.com/cities/ng-interactive/2017/nov/03/threedegree-world-cities-drowned-global-warming; Michael Kimmelman, "Rising Waters Threaten China's Rising Cities," *NYT*, 4/7/2017, https://www.nytimes.com/interactive/2017/04/07/world/asia/climate-changechina.html; Jeff Tollefson, "How Hot Will Earth Get by 2100?," *Nature News Feature*, 4/22/2020, https://www.nature.com/articles/d41586-020-01125-x; Matther Collins et al., "Long-Term Climate Change," in Thomas F. Stocker et al., eds., *Climate Change 2013* (2013), 1037, https://www.ipcc.ch/site/assets/uploads/2017/09/WG1AR5_Frontmatter_FINAL.pdf.
22. Denise Lu and Christopher Flavelle, "Rising Seas Will Erase More Cities by 2050, New Research Shows," *NYT*, 10/29/2019, https://www.nytimes.com/interactive/2019/10/29/climate/coastal-cities-underwater.html; Scott A. Kulp and Benjamin H. Strauss, "New Elevation Data Triple Estimates of Global Vulnerability to Sea-Level Rise and Coastal Flooding," *Nature Communications* 10, no. 4844 (2019), https://www.nature.com/articles/s41467-019-12808-z.
23. Carrington, "Unsurvivable Heatwaves"; S. Kang and E.A.B. Eltahir, "North China Plain Threatened by Deadly Heatwaves Due to Climate Change and Irrigation," *Nature Communication* 9, no. 2894 (2018), https://www.nature.com/articles/s41467-018-05252-y.

24. Kimmelman, "Rising Waters."
25. "The Chinese Century Is Well Under Way," *The Economist*, 10/27/2018, https://www.economist.com/graphic-detail/2018/10/27/the-chinese-century-is-well-under-way.
26. Thomas E. Lovejoy and Carlos Nobre, "Amazon Tipping Point," *Science Advances* 5, no. 12 (2019), https://advances.sciencemag.org/content/5/12/eaba2949; Bruno Carvalho and Carlos Nobre, "We're Turning the Amazon into a Savannah," *NYT*, 10/2/2020, https://www.nytimes. com/2020/10/02/opinion/amazon-rainforest-climate-change.html.
27. "Fast Facts about Permafrost," Center for Permafrost, University of Copenhagen, https://cenperm.ku.dk/facts-about-permafrost/; Canadian Cryosphere Watch, "Current Permafrost in Canada" (6/11/2017), https://ccin.ca/ccw/permafrost/current; Canadian Cryosphere Watch, "Future of Permafrost in Canada" (6/11/2017), https://ccin.ca/ccw/permafrost/future; Vladimir E. Romanovsky et al., "Permafrost Thermal State in the Polar Northern Hemisphere during International Polar Year 2007-2009," *Permafrost and Periglacial Processes* 21 (2010), 106-16, https://onlinelibrary-wiley-com.ezproxy.library.wisc.edu/doi/pdfdirect/10.1002/ppp.689.
The Canadian Cryosphere Watch site ("Future of Permafrost in Canada") contains a publicly accessible version of Vladimir E. Romanovsky's 2009 map "The Future Permafrost Thaw across the Circumpolar Arctic," which was reproduced in a *Scientific American* article (Katey Walter Anthony, "Methane," December 2009, 70) and is the basis for the "Melting Permafrost" map in this chapter.
28. Jonathan L. Bamber et al., "Ice Sheet Contributions to Future Sea-Level Rise from Structured Expert Judgment," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 116, no. 23 (6/4/2019), 11195-200, https://www.pnas.org/content/early/2019/05/14/1817205116; Sareena Dayaram, "Sea Levels May Rise Much Faster than Previously Predicted, Swamping Coastal Cities Such as Shanghai, Study Finds," *CNN*, 5/21/2019, https://www.cnn.com/2019/05/21/health/climate-change-sea-levels-scn-intl/index.html.
29. Abrahm Lustgarten, "The Great Climate Migration," *NYT*, 7/23/2020, https://www.nytimes.com/interactive/2020/07/23/magazine/climatemigration.html; Chi Xu et al., "Future of the Human Climate Niche," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 117, no. 21 (5/26/2020), 11350-55, https://www.pnas.org/content/117/21/11350/tab-articleinfo; Eun-Soon Im et al., "Deadly Heat Waves Projected in the Densely Populated Agricultural Regions of South Asia," *Science Advances* 3, no. 8 (8/2/2017), https://advances.sciencemag.org/content/3/8/e1603322;
Dilip Kumar, "River Ganges," *Aquatic Ecosystem Health and Management* 20, nos. 1/2 (2017), 8-20,

https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/14634988.2017.1304129.

30. Brad Plumer, "The World's Oceans Are in Danger, Major Climate Report Warns," *NYT*, 9/25/2019, https://www.nytimes.com/2019/09/25/climate/climate-change-oceans-united-nations.html; Intergovernmental Panel on Climate Change, "IPCC Press Release," 9/25/2019, https://www.ipcc.ch/site/assets/uploads/sites/3/2019/09/SROCC_PressRelease_EN.pdf; Intergovernmental Panel on Climate Change, *IPCC Special Report on the Ocean and Cryosphere in a Changing Climate: Summary for Policy Makers* (9/24/2019), 22-23, https://www.ipcc.ch/site/assets/uploads/sites/3/2019/11/03_SROCC_SPM_FINAL.pdf.
31. Plumer, "The World's Oceans Are in Danger"; IPCC, "Press Release," 9/25/2019; IPCC, *Special Report*, 6-7, 20.
32. Merritt R. Turetsky et al., "Permafrost Collapse Is Accelerating Carbon Release," *Nature* 569 (4/30/2019), 32-34, https://www.nature.com/articles/d41586-019-01313-4; Anton Troianovski, "A Historic Heat Wave Roasts Siberia," *NYT*, 6/25/2020, https://www.nytimes.com/2020/06/25/world/europe/siberia-heat-wave-climate-change.html; Andrew Kramer, "Land in Russia's Arctic Blows 'Like a Bottle of Champagne,'" *NYT*, 9/5/2020, https://www.nytimes.com/2020/09/05/world/europe/russia-arctic-eruptions.html.
33. Turetsky, "Permafrost Collapse."
34. Katey Walter Anthony, "Arctic Climate Threat—Methane from Thawing Permafrost," *Scientific American* (December 2009), 69-75, https://www.scientificamerican.com/article/methane-a-menace-surfaces/; K.M. Walter et al., "Methane Bubbling from Siberian Thaw Lakes as a Positive Feedback to Climate Warming," *Nature* 443 (2006), 71-75, https://www.nature.com/articles/nature05040.
35. T. Schuur, "Permafrost and the Global Carbon Cycle," *2019 Arctic Report Card*, NOAA Arctic Program (2019), https://arctic.noaa.gov/Report-Card/Report-Card-2019/ArtMID/7916/ArticleID/844/Permafrostand-the-Global-Carbon-Cycle; Brian Resnick, "Scientists Feared Unstoppable Emissions from Melting Permafrost," *Vox*, 12/12/2019, https://www.vox.com/energy-and-environment/2019/12/12/21011445/permafrost-melting-arctic-report-card-noaa; IPCC, *Special Report*, 24.
36. Nicola Jones, "How the World Passed a Carbon Threshold and Why It Matters," *Yale Environment 360* (1/26/2017), https://e360.yale.edu/features/how-the-world-passed-a-carbon-threshold-400ppm-andwhy-it-matters.
37. Somini Sengupta, "U.N. Climate Talks End with Few Commitments and a 'Lost' Opportunity," *NYT*, 12/15/2019, https://www.nytimes.com/2019/12/15/climate/cop25-un-climate-talks-madrid.html.


محمد خطاب

يشمل الكتاب سبعة فصول ومقدمة تناولت صعود الإمبراطوريات وسقوطها خلال الخمسمائة سنة الأخيرة حتى وقتنا هذا، ونحن نراقب كلّ يوم انهيار الإمبراطورية الأمريكية العنيفة مع تسارع التحوّلات الكبرى في العالم الجاري الى جانب فضح جرائم تلك الأمبراطوريات ضدّ الإنسانية وخاصة العبودية المقيتة واساليب النهب والإستغلال الإستعماري العنصري الجشع لخيرات الشعوب، يطرح عمل مَكّوي الاستفزازي أسئلة استقصائية حول قدرتنا العالمية على أن نكون بشرا وفرصنا الجماعية للنجاة، خاصة مع اندلاع حروب باردة جديدة بين الولايات المتحدة وروسيا والصين كتابات مكّوي وفضحه لجرائم الإمبراطوريات الإستعمارية في التقتيل الدموي والتخريب وتشريد الملايين من الناس داخل اوطانهم أو الفرار منها، دليل لا غنى عنه للتعامل مع الرعب المزدوج وكارثة المناخ والأوبئة المتعددة، حسب قول كاثي كيلي، ناشطة السلام ومنسقة مشاركة لحملة منع استخدام الطائرات المسيّرة. في مشرقنا العربي، علّق أحد المحللين بالقول، «أضاعت الولايات المتحدة إثر الحرب العالمية الثانية فرصة ذهبية لوضع أسس عالم أقلّ خطورة، وأظهرت ضعفاً واضحاً في فهم العالم الذي لا يمكن إدارته بفرض الزّي الموحّد على مجتمعات مختلفة، بعضها له حضارات وقيم وعطاءات قديمة قدم التاريخ» هذا لا يعني أنّ المسؤولية تقع عليها وحدها هناك مسؤولية بالتأكيد على أيتام الإمبراطوريات السابقة المسجونين في خرائط «ضيقة» يواجه عالمنا خطرا مفتوحا على أهوال كثيرة «عالم يسمح أن تتخيّل الرئيس شي جنينگ يفاجئ العالم بما عجز الرئيس ماو عن تحقيقه، وهو استعادة تايوان بالقوة العسكرية، إذا اقتضى الأمر، فوضع العالم أمام الجدار وفي عين الزلزال»

في رأيي، هذا كتاب يصلح أن يكون مادة للتدريس الجامعي في اقسام التاريخ والسياسة والإقتصاد وعلوم البيئة والمناخ وهندسة تخطيط المدن كما نأمل في نفس الوقت أن تكون ترجمة الكتاب فرصة مواتية لتوعية القارئ العربي كي لا يُخدع بأكاذيب وادّعاءات حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية الزائفة



د. ألفرَد وُليَم مَكّوي

برز د.ألفرَد وُليَم مَكّوي كمؤرخ خلال حقبة حرب ڤيتنام عندما كشف الغطاء عن دور وكالة المخابرات المركزية في تهريب الهيروين في جنوب شرق آسيا. على الرغم من أنّ د. مَكّوي بلا شك عالم لامع، فهذا اللقب بالكاد يجسّد الروح الحقيقية للعمل الهائل والرائد، الذي قدّمه لنا جميعا عبر عقود من الزمن. ذهب د. مَكّوي لعدة عقود الى حيث يتكشّف التاريخ ومثل عالم الآثار قد حفر عميقا للكشف عن القصص التي ما كنا عرفنا بها لولا جهوده. كاد د. مَكّوي أن يُقتل في وقت مبكّر من حياته المهنية على يد القوات شبه العسكرية المدعومة من قبل الولايات المتحدة. كانت وكالة المخابرات المركزية قلقة للغاية بشأن ما كشفه عن تهريب المخدّرات لدرجة أنّها حاولت إيقاف نشر كتابه المعنون The Politics of Heroin . تمّ التجسّس عليه من قِبل مكتب التحقيقات الفدرالي وجرى تدقيق مدخولاته من قِبل مصلحة الضرائب، واعتُبر تهديدا من قبل وكالة المخابرات المركزية. درس د. مَكّوي في جامعة ييل وجامعة كاليفورنيا في بَركلي وجامعة كولومبيا. يعمل الآن استاذا للتاريخ في جامعة وسكونسْن في ماديسْن، وله مؤلفات عديدة وهذا الكتاب أحدثها.



المترجم د. محمد جياد الأزرقي:

أستاذ متمرس في اللغة والأدب في كلية ماونت هوليوك في الولايات المتحدة. أقدم منذ تقاعده على تنفيذ مشاريع ترجمة كتب متميزة لمؤلفين مرموقين. أنجز ترجمة 21 كتابا قيّما، نُشرت جميعا في بيروت، آخرها كتاب د. رچرد فولك بعنوان «سيرة مفكّر معنيّ بقضايا الشعوب». من المؤمّل أن يكون مشروعه القادم ترجمة كتاب د. رُوري كورمَك، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة نوتنگهام في بريطانيا. يحلل الكتاب وثائق الخارجية البريطانية، التي تمّ رفع السرّية عنها مؤخرا، وتخصّ الشرق الأوسط.. الكتاب بعنوان (كيف تدبّر انقلابا، ودروس عشرة أخرى من العالم السرّي للدول). يسكن د. الأزرقي في قرية مونگيو في غرب ولاية ماسَچوسِت في أمريكا.







